



إستراتيجية الفوضى

تأليف : ميشيل كولون وغريغوار لاليو
ترجمة : نرمين عمري



إستراتيجية الفوضى


المشروع الوطني للترجمة
العلوم الإنسانية

إستراتيجية الفوضى

تأليـف : ميشيل كولون وغريغوار لاليو

ترجمة : نرمين عمري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

La Stratégie du Chaos

الكاتب: **Michel Collon et Grégoire Lalieu**

الناشر: **Investig'Action,2016**

المترجم: نرمين عمري

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

مُقَدِّمَة

هل من الممكن فهم السياسة العالمية؟

ميشيل كولون

يا ترى، هل بإمكان المواطن البسيط التوصّل إلى فهم آليات السياسة العالمية؟

حتماً لن يتم له ذلك بجلوسه أمام جهاز التلفاز الذي يصور له العالم وفق سلسلة من الأحداث غير المتوقعة والبعيدة عن أي منطق، فتأتي هذه الأحداث في شكل تكتّل من الوقائع، مصحوبة بصور أكثر ما تكون إثارة للعاطفة، لكنها في الوقت عينه تعمل على تعطيل قدرته على التفكير، فهي تأتي بعبارات مبتذلة وسطحية دون تقديم أي شرح جاد للأسباب الحقيقية... من تسبب بهذه المجاعة؟ إنها الطبيعة... ومن قام بمحاولة الاغتيال تلك؟ لقد نتجت عن أعمال إرهابية... وهذه الحروب الأهلية، من أشعلها؟ نشأت نتيجة تخلّف الشعوب... وما الهدف من القنابل التي تسارع دول الغرب إلى إلقائها؟ إنها أداة تستخدمها لتثبيت «الحكم الديمقراطي».

ففي كل مرة يصار إلى تبسيط الأمور في الحروب التي تشعلها كل من الولايات المتحدة الأمريكيّة وأوروبا، وذلك بردها إلى مانوية أفلام الويسترن

القديمة التي تصور امتناع الأشرار عن القيام بالأعمال الطيبة، وابتعاد الظرفاء عن ممارسة الأعمال الشريرة. ولا يحق لنا تالياً أن نلقي بالاً لادعاءات الأشرار، فكل ما علينا فعله هو الإصغاء إلى آراء الظرفاء. وفي كل مرة يُغيب الهدف الأساس لهذه الحروب، الذي يخدم المصالح الإستراتيجية للقوى المتصارعة على الساحة من أجل الاستئثار ببعض ثروات البلاد.

وفي كل مرة أيضاً يجري تزوير التاريخ. ما الذي فعله المستعمر في هذه المنطقة؟ هل لا تزال لسياسته القائمة على مبدأ «فرق تسد» تداعيات على شعوب المنطقة في زماننا المعاصر؟ غالباً ما يُلقى السياق التاريخي في غياهب النسيان. إذا كنا نجهل أحداث الماضي وآثارها، فلن نتمكن أبداً من إدراك كنه الصراعات القائمة في وقتنا الراهن، كما أننا لن نتوصّل إلى تفسير الصراعات التي توشك أن تتفجر يوماً ما.

هل من الممكن إيجاد السلك الموصِّل؟

ومن جرّاء ذلك، تبدو لنا السياسة العالمية التي ينقلها لنا التلفاز ووسائط الإعلام المسيطرة بمجملها على الساحة، كلغز يصعب علينا تجميع أجزائه من أجل الإلمام بالمشهد كاملاً. ويعود ذلك إلى سبب بسيط جداً، يتمثل في سحب المقاطع الرئيسة منه، تلك التي تساعد في تجميع المشهد كاملاً، بعد وضع كل عنصر في مكانه المناسب. لذا يبدو لنا العالم بأسره غامضاً، وتبقى أحداثه المستقبلية مجهولة لنا.

يا ترى، هل نحن عاجزون عن تدارك الأمر؟ أو أننا لا زلنا نمتلك الفرصة لفهم دهاليز السياسة العالمية وانعكاساتها على حيواتنا؟ هل

بمقدورنا اليوم التوصّل إلى نقطة مشتركة؟ أو إيجاد السلك الموصّل بين تلك الظواهر التي تبدو على قدر كبير من الأهمية، على الرغم من أنها مفككة فيما بينها؟ تتجسد هذه الظواهر في الأزمة الاقتصادية، وتدهور أسعار البورصة، والفقر الآخذ في الانتشار بين طبقات الشعب المختلفة في كل من دول الشمال ودول الجنوب، وتمركز السلطة الاقتصادية في أيدي بعض الفئات التي تمتلك النفوذ، وعصر انحطاط الولايات المتحدة الأمريكيّة، الذي يقابله النفوذ المتنامي لدولة الصين ودول أخرى في الجنوب، وأخيراً تلك الحروب المتلاحقة في زماننا المعاصر، سواء تلك التي نشهدها في العلن أم تلك التي تجري في الخفاء. هل ثمة سلك أحمر قادر على ربط تلك الظواهر المختلفة فيما بينها؟

منطقة العواصف ذات الأثر الحاسم في مستقبل العالم.

نعم، سيتمكن هذا الكتاب، الذي بين أيدينا، من إيجاد ذلك السلك. لقد توصل محمد حسان بطريقة بسيطة ومنطقية إلى إلقاء الضوء على الاضطرابات الآخذة في الانتشار في ما يسمى بـ «منطقة العواصف». تلك المنطقة الممتدة بين المغرب العربي وشرق القرن الأفريقي من جهة، وجنوب قارة آسيا من جهة أخرى. تلك المنطقة التي أطلق عليها بعضهم اسم «القوس المسلم»، حيث إن الدين الإسلامي هو القاسم المشترك لهذه البلدان. ومن ناحية أخرى، أطلق عليها خبراء واشنطن المختصون بالإستراتيجيات تسمية «الشرق الأوسط الكبير»، ومن أجل ذلك استأثروا بإعداد المخططات على المستويات كافة، وأبقوها طي الكتمان...

وتتلاحق الانفجارات في هذه المنطقة الإستراتيجية فتأتي في شكل انتفاضات شعبية (في كل من تونس ومصر واليمن وغيرها...)، وحروب أهلية (في الصومال والسودان)، وإرهاب بصوره المتطورة (انطلاقاً من المملكة العربية السعودية بقيادة بن لادن)، وتدخلات عسكرية من الولايات المتحدة الأمريكيّة (في أفغانستان، والباكستان، وليبيا وغيرها...)، وتحركات وكالة الاستخبارات الأمريكيّة (في كل مكان)... هل يمكن عَدُّ هذه المظاهر كأحداث منفصلة فيما بينها؟ أو أنها فصول متعددة لتاريخ واحد يجري تدوينه تحت ناظرينا وفق منطق مشترك؟ إن عملية الكشف عن الأسباب الحقيقية لتلك الاضطرابات تقودنا لا محالة إلى الكشف عن المصالح التي تدعمها. ومن ثَمَّ، الكشف المبكر عن الانفجارات الجديدة المحتملة في قادم الأيام. ما الأثر الذي سيعكسه هذا التاريخ في حياتنا نحن المواطنين في دول الشمال والجنوب؟

إستراتيجية الفوضى

لقد شهدنا بادئ ذي بدء «إستراتيجية الصدمة» فقد بادر الرئيس بوش إلى توجيه ضربات عسكرية إلى كل من العراق وأفغانستان، باستخدام أسلحة مروّعة. كان يهدف من جراء ذلك إلى بسط نفوذه على تلك المناطق من دون منازع عن طريق زرع الفزع. لكن سرعان ما باءت مساعيه بالفشل.

يا ترى، هل تسعى الولايات المتحدة الأمريكيّة اليوم إلى استبدال سياستها بأخرى مغايرة تماماً؟ عن طريق اتباع ما يسمى بـ «إستراتيجية الفوضى» التي تبدو الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على منطقة «الشرق الأوسط

الكبير» الذي يضم البحر الأبيض المتوسط، ودول الشرق الأوسط، ودول القرن الأفريقي ودول جنوبي آسيا. إنها الوسيلة الوحيدة للاستحواذ على النفط والسيطرة على الطرق البحرية الإستراتيجية. بتعبير آخر، تقوم بمجازفة حيويّة للحفاظ على «فرض هيمنتها على العالم». فهي تسعى إلى إبقاء دول أوروبا تحت سيطرتها، وعرقلة مساعي روسيا، لكنها في الوقت عينه، تعمل على التصدّي للحد من تزايد نفوذ دول الجنوب على الساحة، وعلى نحو خاص دولة الصين. فهي تهدف بالدرجة الأولى إلى الاستئثار بدورها كقوة عظمى في الساحة.

لقد تحول العالم الإسلامي في غضون السنوات الأخيرة إلى منطقة خصبة لعواصف حقيقية، حيث تتّقد الأزمات والثورات وحركات المقاومة لتشهد واشنطن بداية لاضمحلال نفوذها في المناطق الممتدة من تونس إلى باكستان، ومن فلسطين إلى السودان. بات موضوع خوض الحرب المباشرة مجازفة كبيرة، ما دفعها إلى تبني إستراتيجية الفوضى التي تسعى إلى غرس سياسة «فرق تسد»، وإشعال التوترات، وزعزعة الاستقرار في كل الدول التي تسبب لها الإزعاج، من أجل إعادة رسم الشرق الأوسط الكبير، حتى لو كان إشعال المنطقة برمتها هو الثمن...

المرشد المطلوب

كان لا بد لنا من إيجاد المرشد الحاذق للتوصل إلى فهم هذه المنطقة المعقّدة وتأثيرها في العالم بمجمله. فمنذ عامين، نجح فريق **Investig'Action** الذي يدير موقع michelcollon.info وحالفه الحظ للعمل جنباً إلى جنب مع محمد حسان.

ولد محمد حسان في إثيوبيا عام ١٩٥٨، وشارك في حركات طلابيّة ضد النظام الاستبدادي للإمبراطور هيلا سلاسي. غير أن بلاده ما لبثت أن غرقت في ظل سيطرة الحكم العسكري الاستبدادي برئاسة منجيستو. وبعد الانقلاب الذي وضع حداً لحكم هذا الأخير، عمل محمد حسان في السلك الدبلوماسي، فكان ممثلاً لدولته في بروكسل، لكنه سرعان ما قدم استقالته من هذا المنصب عام ١٩٩٤، تعبيراً عن استنكاره للسياسات القمعية والقتالية للحكّام الإثيوبيين الجدد. ومنذ ذلك الحين، كرّس محمد حسان حياته لدراسة تاريخ العالم العربي الإسلامي، بحقبتيه الماضية والمعاصرة. كثّف لقاءاته مع شخصيات مرموقة، وخبراء، وشهود عيان. انكبّ على مطالعة جميع الكتب في المكتبات، وبكل اللغات، كما اطّلع على جبال من الوثائق والتقارير من المستويات كافة. ما دفع فريقنا إلى إعطائه لقب «المكتبة المتنقلة». تستطيع أن تطرح عليه أي سؤال حول الصراعات التي عاشها بلد ما، إبان عصر ما، سواء كانت على الصعيد الاقتصادي، أو السياسي أو الاجتماعي ليزوّدك بالمعطيات الرئيسة، والوقائع الملموسة، بأسلوب لا يخلو أحياناً من الدعابة التي تزيد المعلومة وضوحاً، ما يتيح لك فرصة الإلمام بأحداث التاريخ والرهانات المعاصرة بصورة واضحة.

كان علينا أن نشارك هذا الكنز، وأقول إن الحظ حالفنا، أنا وغريغوار لاليو، فقد أجرينا مقابلات عدة مع محمد حسان انصبّت على تحليل القضايا المعاصرة في كل من تونس ومصر وإيران والصومال وأفغانستان وغيرها... وقد أثارت هذه الحوارات اهتماماً بالغاً لدى قرائنا حين عرضها على موقع michelcollon.info. كما تُرجمت إلى العديد من اللغات العالمية، وبُثت حول العالم.

كان ذلك حافزاً لنا للإعداد لهذا الكتاب كي نتيح الفرصة لشريحة كبيرة من القرّاء للاطلاع على أحداث الماضي والتاريخ المعاصر وما قد يحدث في المستقبل على صعيد العالم الإسلامي والسياسة العالمية. عمد محمد حسان إلى تجميع الأجزاء الناقصة من الأحجية التي تمكننا من فهمها بوجه العموم، وتتمحور حول سياسة الولايات المتحدة الأمريكيّة، ليس فقط تجاه الدول الإسلامية، وإنما تعدتها إلى دول أوروبا والصين ومجموع دول الجنوب، إذ لا يمكن الفصل بينها.

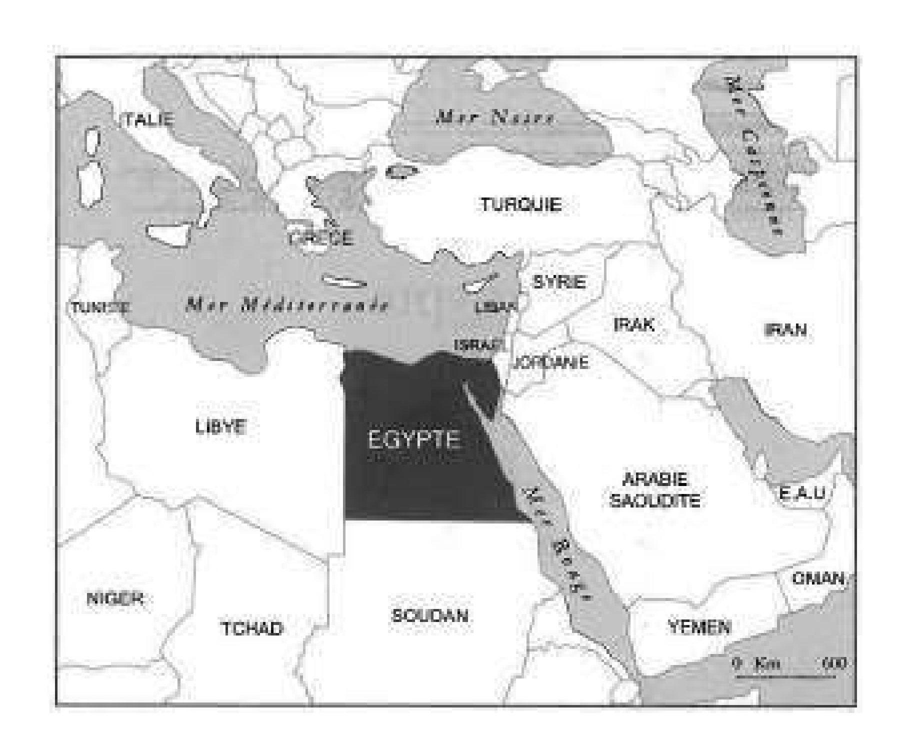
هل بمقدور مواطن بسيط من عامة الشعب التوصّل إلى فهم الدهاليز الأساسية للسياسة العالمية؟ نعم، ويعود الفضل في ذلك إلى مرشد من مستوى محمد حسّان!

جمهورية مصر العربية

لو استمر حكم محمد علي لفترة أطول، لتغير وجه العالم برمته

أُنجزت جميع التحضيرات حول العام ١٨٤٠. كاد تاريخ العالم يتخذ مساراً مغايراً لما هو عليه الآن. كان من الممكن أن يتحوّل هذا العالم العربي الذي تمت تجزئته إلى دويلات مستعمَرة ومفكّكة على يديّ بريطانيا العظمى وفرنسا، ثم فيما بعد على يد الولايات المتحدة الأمريكية، كان من الممكن أن يتحول إلى إمبراطورية عربية عظمى، تجمع في كنفها الدويلات كافة مع ما تملك من ثروات، لتقف صامدة في وجه القوى الإمبرياليّة العظمى، وألا يشهد وقوع قناة السويس في أيدي الدول الغربية، ولا تتويج ملوك تتحرك كالدمى، ولا عيش ثورة جمال عبد الناصر، ولا خيانة أنور السادات، التي ما لبثت أن تبعتها خيانة حسني مبارك. باختصار، لولا ذلك كله، لاختلفت موازين القوى كليّاً عما هي عليه في وقتنا الراهن.

لسنا هنا بصدد إعادة تأهيل التاريخ، لكننا نسعى إلى فهم مجريات الأحداث التي أسهمت في تحطيم مشروع محمد علي الكبير، والأسباب التي أدت إلى تلك النتيجة. قد يقودنا ذلك إلى تحليل الوضع الحالي لجمهورية مصر العربية، والتحديات التي ستواجهها في القريب العاجل.



لمحة سريعة عن جمهورية مصر العربية:

على الصعيد الجغرافي:

- العاصمة: القاهرة.

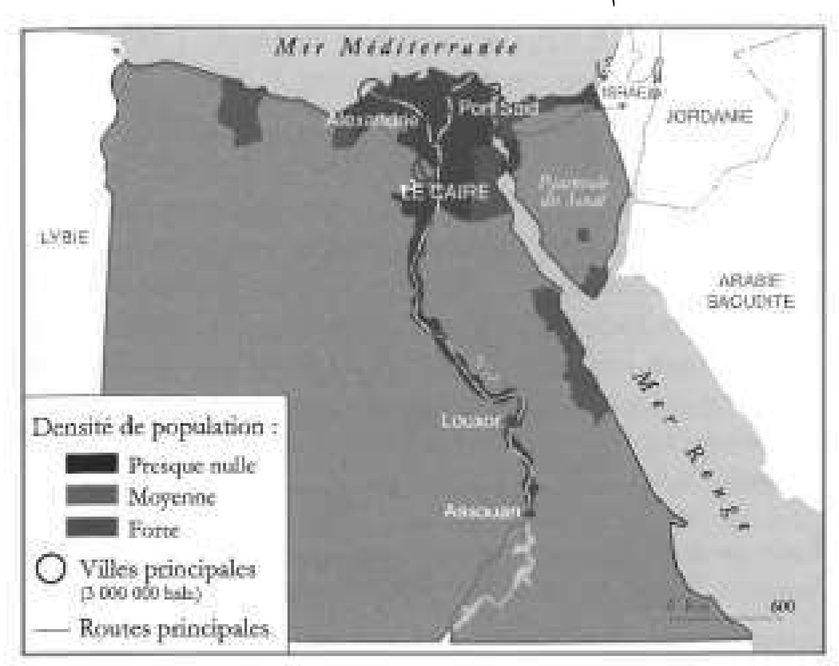
- المساحة: ٩ ٤٤ ١ ٠٠ ١ ١ كم٢ .

- تعداد السكان: ٩٣ ٠ ٨١ ٠ ٨٠ (أي بمعدّل ٨٠ نسمة / كم٢) – (٢٠١١).

على الصعيد الاجتماعي:

- تنوّع المذاهب: يشكّل المذهب السنّي الغالبية العظمى من السكان (٩٠%)، في حين يشكّل المسيحيون الأقباط الأقلية (٩%)، ويتمركز هؤلاء في جنوبي البلاد.

- متوسط العمر: ٧٢,٦ عاماً.
- تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: **٣٢,٧%**
- معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: **٧١,٤%**.



الكثافة السكانية:

مناطق شبه خالية من السكان.

مناطق تشهد كثافة سكانية متوسطة.

مناطق تشهد كثافة سكانية عالية.

المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠٠٠٠ وما فوق.

الطرق الرئيسة.

السياسة:

- نظام الحكم: جمهورية رئاسية.
- رئيس الدولة: محمد حسين طنطاوي[1] (وكيل).
- تاريخ نيل الاستقلال: عام ١٩٢٢ من المملكة المتحدة.

الاقتصاد:

- إجمالي الناتج المحلي في عام واحد: ١٥٨,٣ مليار دولار (٢٠٠٨).
- الموارد: الزراعة، السياحة، الغاز، قناة السويس.
- معدل النمو: ٥,١% (٢٠١٠).
- إجمالي الناتج المحلي للفرد: ٥٣٤٩ دولار (٢٠٠٨).
- مؤشر التنمية البشرية: ٠،٦٢٠ (١٠٤ من حيث الترتيب).
- نسبة البطالة: ٩,٧%.
- نسبة السكان الذين تحت خط الفقر: ٤١% عام ٢٠١١ (مقابل ٣٩% عام ٢٠٠٩).

*** كيف تبدو صورة مصر في أوروبا؟ أليست صورة ذلك البلد غير القابل للتغيير والمتجمد على مر الزمان؟ لو عاش نابليون في عصرنا هذا، لخاطب جنوده قائلاً: «أربعون قرناً ينظرون إليكم من قمة هذه الأهرامات».**

نعم، تلك هي العبارة التي تطالعنا باستمرار. لقد شهد هذا البلد، في حقيقة الأمر، الكثير من التغيرات. يدور في خلدي بصورة خاصة، ذلك

---

(١) شغل المشير طنطاوي منصب رئيس الجمهورية بالإنابة بصفته رئيس المجلس العسكري، (١١ فبراير / شباط ٢٠١١ - ٣٠ يونيو / حزيران ٢٠١٢)، على إثر الثورة المصرية وتخلي حسني مبارك عن رئاسة الجمهورية إلى المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

المشروع المصري العظيم الذي بزغ مع إطلالة القرن التاسع عشر الميلادي. ولو لم تبادر دولة بريطانيا العظمى إلى تحطيمه، لكان العالم العربي الآن في أبهى صوره، حتى إن تاريخ العالم برمته كان سيشهد تغيراً ملحوظاً. لذا أقول مقولتي هنا: «لو استمر حكم محمد علي، المؤسس الأول لدولة مصر الحديثة لفترة أطول، لتغيّر وجه العالم برمته!»

*** هذا الكلام مدعاة لإثارة الفضول. سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً. إنما السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان، إذا أردنا الإلمام بتاريخ مصر الحديث، فمن أين يجب علينا أن نبدأ؟**

لتكن البداية منذ عام ١٧٩٨، عندما قام نابليون بحملته الشهيرة على مصر، ذلك البلد الذي خضع لحكمه لسنوات عدّة، قبل أن يُفرض عليه الانسحاب منه وتسليمه للبريطانيين...

*** بماذا نفسر الاهتمام الذي توليه دول أوروبا إلى تلك المنطقة؟**

يتوجب علينا تحليل الوضع في أوروبا آنذاك والصراعات الحادّة التي واجهتها تلك الدول فيما بينها كي نتوصل إلى إدراك كنه هذا الاهتمام... فقبل الثورة الفرنسية التي اندلعت عام ١٧٨٩، كانت أوروبا تعيش وضعاً ثقافياً وفكرياً بائساً ومتدنياً، فقد بلغ معدّل الذين يلمّون بالقراءة والكتابة أدنى مستوياته، أما الظروف الصحية فكانت مزرية للغاية، وعرفت مناطق عّدة في أوروبا تخلفاً شديداً. فجاءت الثورة الفرنسية وأحدثت تغييراً جذرياً في طريقة التفكير، من خلال فلسفة عصر التنوير ومفهوم الدولة القومية، واللغة الرسمية التي فرضتها في البلاد ضمن حكومة مركزية موافقة للمنطق والعقل. كل ذلك كان ضرورياً من أجل تهيئة الظروف المواتية لفرض النمط الرأسمالي الجديد للإنتاج، وإنهاء عهد القرون الوسطى، الذي عُرف بعصر الانحطاط...

الثورة الصناعية الرأسمالية:

تميّزت القرون الوسطى في أوروبا بسيطرة طبقة النبلاء على العلاقات الاجتماعية. فقد اعتادت هذه الطبقة اقتطاع ضرائب باهظة من الفلاحين الذين يعملون بشكلٍ مقطّع في الأراضي التي تسيطر عليها، وبوسائل إنتاج بدائية، ما أثر سلباً في الإنتاج. عاش الفلاحون حالة من الفقر المدقع ضمن إطار تبادل تجاري محدود جداً. لذا عُرف الوضع الاقتصادي آنذاك بضعف نموه، وانحصرت مهمة السلطة الملكية في الإبقاء على هيمنة طبقة النبلاء عن طريق قمعها لثورات الفلاحين.

في حين اهتم النظام الرأسمالي، من جهته، بتطوير قطاع الإنتاج بشكل ملحوظ عن طريق توظيف أعداد هائلة من القوى العاملة داخل ورشات العمل، ثم في المصانع مشجعاً في الوقت عينه، على إنجاز الاختراعات العلمية والتقنية التي عملت على تطوير وسائل الإنتاج المستخدمة.

وكان السباق إلى تحقيق المكاسب هو الدافع لهذا التقدم الذي تقوده الطبقة الرأسمالية. فإذا انطلقت التبادلات التجارية دون أي عائق، فلن تتوقف المنافسة عند أي حد. ومن أجل إحراز التقدّم، أو حتى من أجل الاستمرار فقط، توجّب على كل رأسمالي التغلّب على منافسيه بتوظيف عدد أكبر من اليد العاملة، مع الإبقاء على الأجور في أدنى مستوياتها، إلى جانب التزوّد بأحدث وسائل الإنتاج، والحصول على المواد الأولية بأزهد الأسعار. تلك هي مراحل عملية تراكم رأس المال التي تحدّث عنها كارل ماركس.

يضاف إلى ذلك أن مصلحة الطبقة الرأسمالية الجديدة تقتضي تذليل كل العقبات التي تعوق تسويق بضاعتها، لذا بادرت إلى إلغاء الرسوم الجمركية والضرائب التي كانت تتضاعف بين المدن، ما تطلّب القضاء على الامتيازات التي كانت تحظى بها طبقة النبلاء، وانتزاع السلطة منها. بلغ هذا الصراع ذروته في فرنسا دوناً عن باقي دول أوروبا، إذ توجّب على الطبقة البورجوازية الصاعدة إقصاء السلطة الملكية التي كانت تحمي النظام القديم دون هوادة.

احتلت الثورة الفرنسية مركز الصدارة على مستوى الدول الأوروبية، فكانت أول ثورة بورجوازية على الإطلاق. لذا تمكنت من تخطّي الحدود من فور اندلاعها، محدثةً بذلك أثراً عميقاً في طريقة التفكير، وطريقة تنظيم المجتمع...

*** هل كان هذا مدعاة لانزعاج بريطانيا العظمى؟**

نعم؛ إذ كانت هذه الدولة بدورها رائدة في إشعال الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. فهي بذلك تمتلك وضعاً اقتصادياً يميزها عن باقي دول أوروبا، فجاءت الثورة الفرنسية لتغيّر المعادلة في ميزان القوى.

*** كيف يمكن للثورة السياسية أن تؤثر في الوضع الاقتصادي؟**

يعود السبب في ذلك إلى نجاح هذه الثورة في القضاء على النظام الإقطاعي الذي كان سائداً فيما مضى، ومتأثراً بالفكر الكنسي، واستبدلته بدولة قوميّة حقيقيّة تغيب فيها تجزئة المناطق، كما بادرت إلى إنشاء «سوق كبير وحيد»، ما مهّد الطريق أمام تطوّر صناعة الطبقة الرأسمالية بشكل ملحوظ.

*** هل كانت الأحداث التي تجري على الضفة الأخرى من بحر المانش، مثيرة للقلق إلى هذا الحد؟**

كانت بريطانيا العظمى تعيش آنذاك عصرها الذهبي على الصعيد الاقتصادي، إذ كانت البلد الوحيد الأكثر تقدماً في مجال التصنيع، فقد تمكنت بفضل ثورتها الصناعية من إغراق أسواق القارة الأوروبية بكميات كبيرة من السلع التي كانت تنتجها، فالموضوع لا يخرج عن إطار المنطق. أرادت الإمبراطورية البريطانية الوقوف في وجه باقي الدول لمنعها من إنشاء نظام صناعي منافس لها، وعلى وجه الخصوص في قطاع صناعة النسيج. لقد أدركت هذه الإمبراطورية أنه في حال وصول هذا النوع من الثورات إلى باقي الدول الأوروبية، فإن ذلك سيمهّد الطريق أمام ظهور منافسين أقوياء على الساحة، وسيبحثون مجدداً موضوع النفوذ البريطاني.

كانت إحدى الإستراتيجيات التي تبنّتها بريطانيا العظمى تهدف إلى توحيد مصالح الطبقة الإقطاعية في أوروبا للتصدّي للثورة الفرنسية، لذا أقدمت الإمبراطورية البريطانية على تنظيم ثورة مضادة، تهدف إلى إصلاح النظام الإقطاعي في فرنسا.

من المعلوم أن الطبقة الحاكمة في فرنسا بادرت إلى الهروب خارج البلاد في الفترة التي سبقت اندلاع الثورة، فقد اجتمعت بالنخبة السياسيّة القديمة، وعملت على تضافر الجهود فيما بينهما. أدّت هذه الحملة إلى اندلاع معركة واترلو عام ١٨١٥، مُني فيها نابليون بهزيمة نكراء، ما مهّد الطريق أمام سلالة البوربون لاعتلاء عرش فرنسا مجدداً.

*** إنما، هذه الفترة المعروفة بعهد الإصلاحات، لم تدم طويلاً، فبعد خمسة عشر عاماً من معركة واترلو، تم القضاء نهائياً على نظام الحكم الملكي ليحل مكانه النظام الجمهوري عام ١٨٤٨. ما السبب في ذلك؟**

سعت لندن جاهدة إلى الحد من تقدّم منافسيها الأوروبيين من أجل إحكام السيطرة عليهم. لكن محاولتها جاءت متأخرة، إذ كان للثورة الفرنسية أثرها في إدخال تغييرات كثيرة ومهمّة في أوروبا، تجسّدت في تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي الذي منح الفلاحين حرية اتخاذ المبادرات، والتوسّع المدني، وغرس مفاهيم جديدة حول الدولة والدين... لقد تغيرت طريقة التفكير بشكل جذري، فكان من المستحيل إجراء إصلاحات داخل النظام الملكي المتخلّف، لذا انتهى الأمر بفرض الأفكار التي جاءت بها الثورة الفرنسية بشكل نهائي، وانتشارها في كل دول أوروبا، تمهيداً لانطلاقة النظام الرأسمالي الصناعي في القرن التاسع عشر، وهذا بالضبط ما كانت بريطانيا العظمى تخشاه.

*** إنما، في تلك الأثناء، وبالعودة إلى جمهورية مصر، أنشأ نابليون ما يسمى بالإمبراطورية الاستعمارية العظيمة...**

خطّط نابليون لاتباع النهج الهجومي من أجل الحفاظ على الثورة، ما دفعه إلى تنظيم جيش كبير، وإعداده لخوض عمليات عسكرية في أنحاء أوروبا كافة وصولاً إلى أفريقيا. احتل مصر عام ١٧٩٨، وقضى على حكم المماليك فيها، الذين هم من طبقة العبيد، جاؤوا من آسيا الوسطى، ونجحوا في الاستيلاء على دفة الحكم في مصر.

*** إنما، ما الدافع لشن الحرب في هذه المنطقة بالذات؟**

كان نابليون يرمي إلى زعزعة النفوذ البريطاني على الصعيد التجاري، فقد كانت مصر هي بوابة الطريق إلى بلاد الهند التي تحتل مركز الصدارة بين مستعمرات دولة بريطانيا العظمى. تمت تسمية نابليون من قِبل المجلس التنفيذي للثورة الفرنسية، المعروف باسم حكومة المديرين، لغزو مصر، فما كان منه إلّا احتلالها وتنصيب نفسه حاكماً مطلقاً عليها. غير أنه ما لبث أن واجه ثورة شعبية عنيفة داخل مصر، في حين كان الأسطول البريطاني يرقب تحركاته من سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث كان مهيمناً، ما اضطر نابليون إلى الانسحاب بعد انقضاء سنوات عدة، لكن بهدف قتال بريطانيا العظمى والائتلاف الذي أنشأته في القارة الأوروبية...

*** ما الأثر الذي تركته هذه «الزيارة» في مصر؟**

كانت لهذه الزيارة آثار إيجابية وسلبية على حد سواء. فقد أدخل نابليون تغييرات جذرية في مصر، بإدخال نظام إداري حديث وعقلاني، بل عمل على تطوير نمط جديد للإنتاج الاقتصادي . تلك هي المظاهر الإيجابية لسيطرته على البلاد.

*** وماذا عن المظاهر السلبية؟**

اتسم احتلاله للبلاد بالوحشية. في الواقع، وظّفت الإمبرياليّة الفرنسية دولة مصر لمقاومة أعدائها، ولا سيّما الإمبرياليّة البريطانية. ووسط هذه التناقضات بين المصالح البريطانية والمصالح الفرنسية، بادر محمد علي - ابن بائع التبغ - الذي ينحدر من أصل ألباني، إلى حمل السلاح من أجل التحرّر من وصاية السلطة المركزية التي تمثلت آنذاك بالسلطنة العثمانية التي تُعدّ دولة

مصر إحدى ولاياتها. استغلّ محمد علي ضعف السلطنة العثمانية، وبفضل جيشه المؤلّف من جنود ألبان، نجح بالخطّة الحربية البارعة التي أعدها في الاستيلاء على حكم مصر، وتنصيب نفسه والياً على البلاد. لكن المماليك كانوا له بالمرصاد، إذ إن استيلاءه على الحكم لم ينل رضاهم، فقرروا التخلص منه. غير أن محمد علي كان سباقاً، ولم يترك لهؤلاء العبيد الذين أصبحوا جنوداً في الحرس الوطني، تلك الفرصة التي يسعون إليها، ففي أثناء إحدى الولائم التي دعاهم إليها، أقدم على أسر بعضهم، وإعدام الآخرين.

اتسم مشروع محمد علي بالطموح، فهو لم يتوانَ عن الإدلاء بمقولته: «أنا أعي تماماً أن السلطنة العثمانية آيلة إلى السقوط بسبب ضعفها... سأعمل على تأسيس مملكة عظيمة على أنقاضها... تصل حدودها إلى نهريّ دجلة والفرات».

بقيت دولة مصر ولاية تابعة للسلطنة العثمانية على الصعيد الرسمي، إذ إنّ محمد علي لم يُقدِم على إعلان حرب مباشرة ضد السلطنة العثمانية للتحرر من نفوذها، وفي الوقت عينه، لم تمتلك هذه السلطنة قدرة التصدّي لنائب الملك الجديد الذي اعتلى عرش مصر.

إنما، في الواقع، أنجز محمد علي إصلاحات مهمّة، جعلت من مصر دولة مستقلة ذاتياً.

*** ما هذه الإصلاحات؟**

أسس نظاماً حازماً على الصعيد الاقتصادي هو أقرب ما يكون إلى النظام الرأسمالي، وذلك باعتماده ثلاثة تدابير رئيسة. بادر إلى إجراء

التعديلات على النظام الزراعي الذي كان سائداً، إذ كان يتسم بالبدائية، وأدخل زراعة صنف خاص من القطن يصلح للصناعة، واهتم بالبنية التحتية للبلاد، وأنشأ مجموعة من المعاهد التقنية، ما سمح للبلاد بلوغ حد الاكتفاء الذاتي، وسمح له الاعتماد على موارده المحلية دون الحاجة للاعتماد على دول أجنبية، كما عمل على إمداد الجيش بالسلاح اللازم.

وعمد في الإجراء الثاني إلى تصنيع المعادن المصرية، إذ إنّ امتلاك صناعة الصلب أو الفولاذ يُعدُّ أمراً محورياً من أجل بناء قاعدة صناعية لمصر، تشمل القطاعات الصناعية كافة، التي يأتي في مقدمتها تصنيع السلاح للجيش، كما هو ضروري لتصنيع الآلات والتجهيزات التي تسمح بازدهار قطاعات أُخر.

أما الإجراء الثالث فكان مرتبطاً بتطوير الجيش المصري، الذي سرعان ما أصبح له شأن يضاهي بتنظيمه وقوته جيش نابليون. استطاع محمد علي، بفضل هذا الجيش، تصدير إصلاحاته الثورية إلى دول شمال أفريقيا وإلى اليمن، حتى وصل إلى أبواب القسطنطينية (إسطنبول حالياً). يجدر بنا الوقوف على أهمية هذا الجيش، فهو السلك الذي يجمع بين القضايا، ويعيننا في فهم التاريخ المصري...

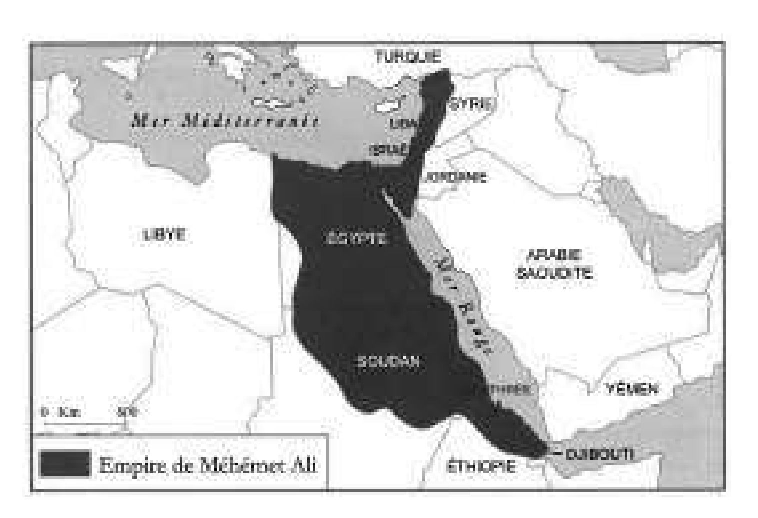
*** تُعدُّ الإنجازات التي أقدم عليها محمد علي، على الصعيد الاقتصادي، مجددِة في ذلك العصر. وما يثير الدهشة أن كل ذلك يحصل في بلد عربي!**

هذا صحيح. كانت بريطانيا العظمى في تلك الحقبة الزمنية هي السبّاقة إلى التطوير، وتلتها فرنسا، لكن بدرجة أقل. في حين رزحت الدول الأوروبية الأخرى في ظل أنظمتها القديمة والإقطاعية.

انحصر اهتمام بريطانيا العظمى في ذلك الوقت في عرقلة تداعيات الثورة الفرنسية، ولمّا تكللت مساعيها بالنجاح، بدحرها لجيش نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥، قررت الالتفات إلى محمد علي والاهتمام بشأنه.

*** تحت أي ذريعة؟**

كانت تسعى إلى حماية وحدة أراضي السلطنة العثمانية، والحفاظ على سيادتها. لذلك تحالفت مع القسطنطينية لإيقاف زحف محمد علي الذي - بفضل عبقريته العسكرية - وصلت انتصاراته العسكرية إلى بلاد الشام (التي تضم حالياً لبنان وسورية وفلسطين)- وكان يخوض تلك الحروب بالوكالة عن السلطنة العثمانية- وسجل أحد أكبر انتصاراته ضد الوهابيين في الحجاز، حيث أقدم على أسر كبار قادة هذه الحركة الذين تحالفوا مع أجداد الأسرة الحاكمة اليوم، آل سعود.



إمبراطورية محمد علي.

الإمبراطورية المصرية أيام محمد علي.

*** نخلص من ذلك إلى أن البريطانيين كانوا يدعمون السلطنة العثمانية...**

مارس البريطانيون، في حقيقة الأمر، سياسة مزدوجة، وكانوا بارعين في ذلك، فمن جهة، عقدوا تحالفاً مع هذه الإمبراطورية، ومن جهة أخرى، كانوا يخططون لتفكيكها إلى دويلات باللجوء إلى خطة بسيطة: تقسيم العالم الإسلامي من أجل إحكام السيطرة عليه.

*** بأي طريقة؟**

باعتمادهم على شبكات الاستخبارات، ومكاتب التجسس السريّة، التي أنشؤوها، إذ اتسمت بتفوقها في ذلك العصر.

*** ما الذي دفع بريطانيا إلى بذل كل تلك الجهود؟ وما سبب كل تلك المخاوف من محمد علي؟**

يعود ذلك إلى ثلاثة أسباب. يأتي في مقدمتها موقع مصر الإستراتيجي، فهي طريق مواصلات بريطانيا الأوحد إلى بلاد الهند، تلك المستعمرة البريطانية التي تحتل مركزاً مهماً لبريطانيا، وتشكل الركيزة الأساس لازدهار إمبراطوريتها. فهي تمدها بمنتجات عديدة كالقطن، والشاي، والبهارات والحبوب، لتعيد بريطانيا تصديرها إلى بقية دول العالم (في حين رزحت الهند تحت وطأة المجاعات)، محققة من ذلك أرباحاً طائلة! فلولا سيطرتها على بلاد الهند، لما تمكنت بريطانيا العظمى من جمع رأس المال اللازم لتحقيق انطلاقة نظامها الرأسمالي، ولما كان للاستعمار بشكله الحديث أي وجود اليوم. حرص البريطانيون على القضاء على أي حاكم بارز في المناطق التي تنعم بالحكم الذاتي الذي قد يعوق وصولها إلى مستعمراتها.

ومن جهة أخرى، خشي البريطانيون أطماع بقية الدول الأوروبية في الأراضي المصرية، لذا توجب عليهم الإسراع إلى بسط سيطرتهم عليها، لمنع الآخرين من إمكان استغلال الموقف، ولا سيّما أولئك الفرنسيون!

وأخيراً، فإن إقدام البلاد العربية على خلق تكامل فيما بينها، على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، مع اعتماد مصر كمحرّك أساسي، قد يعوق مساعي بريطانيا إلى بسط نفوذها على العالم العربي.

حتى لو بقيت اللغة التركية هي اللغة الرسمية المتداولة في مصر، والمفروضة من السلطة المركزية، فإن ذلك لم يشكل حائلاً دون انتشار اللغة العربية، ولا سيّما مع تطور الإعلام والثقافة بين الناطقين بلغة الضاد. فضلاً عن النمو السكاني السريع، والزيادة في حجم المنتجات الزراعية، يضاف إلى ذلك، تأسيس الجيش النظامي الذي يُعدُّ الدعامة المركزية لتوطيد أواصر الحكم الذاتي. باختصار، رأت بريطانيا في محمد علي ذلك المنافس الخطر الذي سيهدد مصالحها...

*** ومع ذلك لم يكن محمد علي يطالب بالانفصال عن السلطنة العثمانية...**

كلا، لم يلجأ إلى المجابهة المباشرة مع السلطة المركزية العثمانية، لكنه في الوقت عينه كان يعدُّ العدة لتحقيق شيء من الاستقلال الذاتي، كان يمهّد من خلال الإصلاحات التي أجراها، إلى تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي عن السلطة المركزية من أجل المضي قدماً في طريق النمو، في حين شهدت بقية الولايات العثمانية عصر الانحطاط. لم يعد الموضوع ينحصر في إبقاء المواد الأولية التي تشتهر بها ولايته لقمة سائغة تُقدم إلى دول أوروبا، بل كان يسعى إلى تسخير هذه الثروات في سبيل تطوير مصر. كان مشروعه يهدف إلى التحرّر.

*** كلنا على دراية بالمقولة الشهيرة التي أدلى بها الفيلسوف بليز باسكال تعليقاً على قصة الحب التي نشأت بين ملكة مصر ويوليس قيصر: «لو كان أنف كليوباترا أقصر بقليل، لتغير وجه الكرة الأرضية». تُراك ستقول هنا: «لو استمر حكم محمد علي لفترة أطول، لأحدث ذلك تغييراً في وجه العالم العربي»؟**

ليس فقط على صعيد العالم العربي، بل على صعيد العالم برمته. حاول أن تتخيّل المشهد: إمبراطورية عربية عظيمة، بنظام رأسمالي، عصرية، مستقلّة ذاتياً، وتمتد حتى تشمل جزءاً مهماً من أفريقيا والشرق الأوسط! ما حجم هذه القوة التي كانت ستقف في وجه الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية قبل ظهور بقية الدول الإمبرياليّة التي نذكر منها ألمانيا؟! كنا سنشهد تحولاً مهماً في منحى التاريخ.

*** نعم، على الأقل بما يخص النفط...**

بالتأكيد، ولا ينحصر الموضوع عند هذا الحد، بل يتخطاه إلى موازين القوى كافة، التي منها الاقتصادية والسياسية والعسكرية منذ قرنين من الزمان...

*** يمكن أن نخلص إلى القول إن بريطانيا العظمى نصّبت نفسها حارساً شخصياً للسيادة العثمانية، غير أن شغلها الشاغل كان ينحصر في مصالحها الخاصة، هل هذا صحيح؟**

انتهى الموضوع بالتوقيع على المعاهدة التي أُبرمت عام ١٨٣٨، بين البريطانيين والفرنسيين والعثمانيين، التي تنص على تحويل أراضي السلطنة

العثمانية - بما فيها مصر - إلى سوقٍ مركزي، تحتكره المصالح الأوروبية. نشير هنا إلى أن هذه المعاهدة جاءت ضد المصالح المصرية. إذ إنّ فتح الحدود على مصراعيها للسماح لدول أوروبية باقتحام السوق الداخلية المصرية، كافٍ للقضاء على سياسة الحماية الداخلية، فهي تحول دون تحقيق الاستقلال الذاتي في المنطقة.

*** كيف وافقت السلطنة العثمانية على مثل هذا الاتفاق الجائر؟**

لم يكن القادة العثمانيون يملكون أدنى حد من الرؤية الاقتصادية والسياسية. كانت البلاد تعيش عصر الانحطاط في ظل نظام حكم إقطاعي بالٍ وعديم الفاعلية. لم يستطع هؤلاء القادة التوصّل إلى مستوى إدراك الإصلاحات التي كانت تجري خارج مركز سلطتهم، ولم تكن الحداثة لديهم تمثّل سوى نزعات مخالفة للدين. غير أن هذا الجمود الذي وضعوا أنفسهم فيه نتيجة رفضهم لأي نوع من أنواع التطور، جاء في مصلحة البريطانيين.

لقد سبق لي أن أشرتُ إلى الأثر الذي أحدثته الثورة الفرنسة في تطوير طريقة التفكير لدى باقي الدول الأوروبية. لقد أدرك محمد علي ما عجز عن إدراكه القادة العثمانيون، واستطاع أن يقود بمفرده حركة النهضة العربية. وبالفعل، أدخل محمد علي تقنية حديثة رافقها تجديد للأفكار على مستوى الوطن العربي. أشادت النهضة بالعودة إلى منابع الدين، لكن بعد إخضاع هذه المنابع لعملية تفسير، قادرة على مواكبة مفاهيم التحديث. فالموضوع يتعلق بالديمقراطية، وبحقوق المرأة... لكن لم يلقَ هذا الاندفاع إلى ترسيخ التحديث، رضاً لدى البريطانيين، إذ إنه كان يهدد مساعيهم في بسط نفوذهم.

*** يمكننا القول إن بقاء وجه العالم على حاله، يعكس إخفاق محمد علي في خططه؟**

نعم. لقد أسهم التحالف الدولي، الذي شمل البريطانيين والعثمانيين، في عزله عن السلطة عام ١٨٤٨. يذكّرني هذا الموقف بالتحالف الذي نظمته الولايات المتحدة الأمريكية لخوض الحرب الأولى ضد العراق عام ١٩٩١. لقد خشيت الدول الإمبرياليّة آنذاك من تقدم وازدهار الصناعة الكيميائية في العراق الحر. وكذلك الأمر، لم تكن الدول الغربية لتسمح قبل قرنين من الزمان، بنجاح وازدهار الصناعة في دولة مصر التي تتمتع بالحكم الذاتي. فبعد عام من فرض العقوبات على محمد علي، ومن العمليات العسكرية والسياسية التي خاضوها ضده، أقدموا على عزله وأسرته لتتحوّل مصر إلى مستعمرة جديدة. وهنا تتوقف التجربة بصورة وحشية...

*** لتصبح مستعمرة؟**

تحولت مصر إلى مستعمرة حقيقية، إذ إنّ البضائع البريطانية كانت تدخل البلد وتُطرح في أسواقها المحلية. لقد كانت الشركات البريطانية هي الوحيدة التي تمتلك حق استثمار المواد الأوليّة لخدمة مصالحها، إلى جانب ذلك، تمكّن بعض رجال الأعمال من تحقيق ثروات هائلة بفضل هذه التجارة. أما فيما يتعلّق بمشاريع التصنيع والتحديث، فقد تم التخلي عنها نهائياً باستثناء مشروع قناة السويس.

*** ما الثروات المصرية التي استأثرت باهتمام البريطانيين؟**

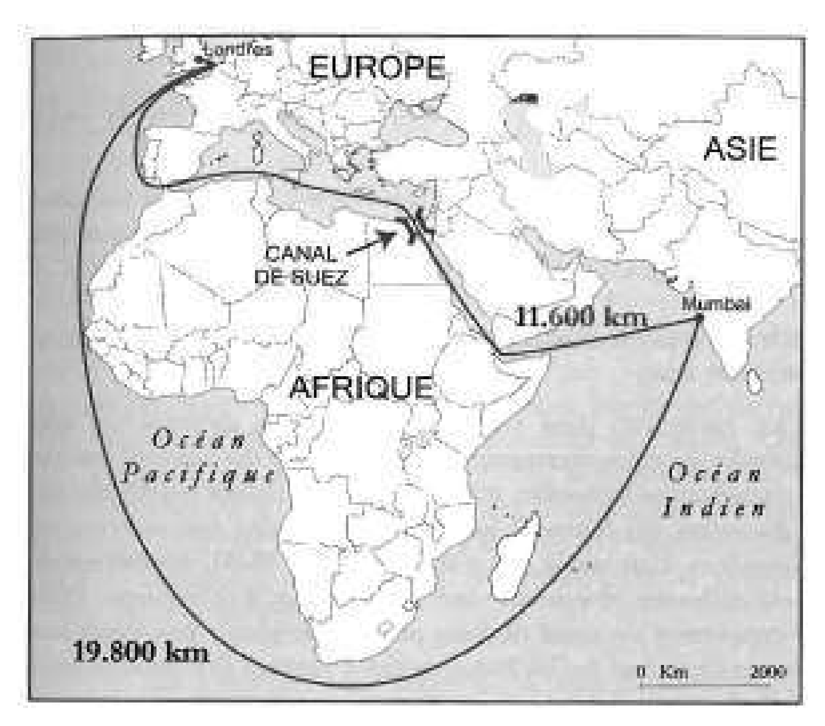
القطن، المادة الأولية بامتياز في ذلك العصر، كانت تثير تكالب الأطماع. فالقطن يستخدم في تطوير صناعة النسيج للبلد الأم، ثم، وبتطبيق

نظام استعماري ناجح، تستطيع العاصمة البريطانية فرض منتجاتها الجاهزة في أسواق المستعمَرة، ما يؤدي إلى تدمير الاقتصاد المحلي للبلد. وحال إنجاز هذه المرحلة المهمّة، انتقلت إلى باقي الجوانب الاقتصادية، الواحد تلو الآخر. الموضوع يشبه تأثير حجر الدومينو الذي يعمل على تصفية النسيج الاقتصادي بأكمله للبلد المستعمَر. تبدو المعادلة بسيطة، إذ يرافق عملية التصنيع نشر أفكار التنوير بصورة آلية، وفرض نمط جديد لفهم العالم وللتطور، وإدخال تقنيات ووسائل موافقة للعقل، بالإضافة إلى التخلّي عن التطيّر والقدرية. بالمقابل، فإن القضاء على هيكل عملية التصنيع جدير بخلق أسباب تخلّف شعب كامل. إن عملية هدم ما بناه شعب ما، كافية لإعادته إلى عصر الانحطاط...

*** إنما، مصر كانت ستواكب عملية التحديث بالتزامن مع شقّ قناة السويس (١٨٥٩-١٨٦٩)، التي سمحت بمرور السفن من أوروبا إلى آسيا مباشرة دون الحاجة إلى عبور المحيط، والالتفاف حول القرن الأفريقي. فقبل إنشاء قناة السويس، كانت البضاعة تشحن براً من البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى البحر الأحمر. فكان ذلك البناء الإستراتيجي...**

هنا تكمن أهمية مصر من وجهة نظر الجغرافيا الإستراتيجية العالمية، فهي تشكل جسراً مزدوجاً، يصل بين قارتي آسيا وأفريقيا، كما أنها تصل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بالمحيط الهندي. وبذلك تربط قارة أوروبا بقارة آسيا. الموضوع غاية في البساطة: إذا تمكنت من السيطرة على مصر، فإنك تسيطر على أحد أهم عقدة طرقية في العالم. أضف إلى ذلك، السحر الذي مارسته الحضارة المصرية على عالم الفكر الأوروبي في تلك

الحقبة الزمنية، وفكرة التقدّم، والاتصال بين الشعوب، وظهور مشاريع طامحة وعظيمة، كل ذلك كان سبباً في إدراج قناة السويس على قائمة المشاريع الرئيسة في القرن التاسع عشر.



قناة السويس، طريق مختصر وإستراتيجي بين قارتي أوروبا وآسيا.

*** إنما، مع ذلك، يبقى مشروعاً فرنسياً...**

بُني مشروع قناة السويس في بداياته برؤوس أموال فرنسية، لكن سرعان ما استعادت بريطانيا سيطرتها عليه تلبية لمصالحها. ثم بعد مضي عشرين عاماً على وفاة محمد علي، تم تدشينه في الوقت الذي كانت فيه مصر تغرق أكثر فأكثر في ظل الاحتلال، فكان البريطانيون يتصرفون كأسياد للبلد، ويضيقون على أهله بفرض وصايتهم عليه.

شهدت البلاد ظهور ورشات صناعية محليّة بسيطة بإدارة الطبقة العاملة المتواضعة، إلى جانب الطبقة البورجوازية التي عملت في الزراعة، في حين بقيت القطاعات الاقتصادية المحورية تحت سيطرة الدول الأوروبية، فكان أصحاب المصانع الأوروبية هم المسيطرون على الوضع في مصر حتى العام ١٩٣٠ الميلادي، فيما عدا بعض جوانب الاقتصاد الريفي.

*** كيف تصرف البريطانيون للحد من سيطرة بقية الدول الأوروبية؟**

في عام ١٨٥١ الذي أُقيم فيه المعرض الدولي الّأول في لندن، لم تكن ألمانيا وإيطاليا قد دخلتا بعد في عداد الدول القومية، مع ذلك، كانت بريطانيا العظمى تشهد بداية انحطاطها.

*** لكنها كانت تبدو في أوج قوتها بسيطرتها على ثروات العالم أجمع...**

نعم، ذلك هو السبب المباشر، فقد باتت دولة طفيلية تحقق من خلال عملها في المستعمرات مكاسب أكبر مما تحققه من إنتاجها المحلي، ما أدى إلى تراجع هذا الإنتاج، ولم يعد هدفاً أساسياً للمستثمرين المحليين. في المقابل، بدأت ألمانيا تفرض صناعتها المزدهرة شيئاً فشيئاً، علماً أنها كانت آنذاك مجموعة أقاليم غير متّحدة (إذ لم تتحد هذه الأقاليم تحت راية ما يعرف باسم الدولة إلا في عام ١٨٧١). من هنا، أدرك الإنجليز أهمية قناة السويس لاقتصادهم الذي لم يكن يعتمد إلّا على بلاد الهند، وهذه القناة تؤمن لهم سهولة التبادل التجاري.

في حقيقة الأمر، اعتمدت قوة بريطانيا على ثلاثة عوامل: ١- تفوّق قواتها المسلحة. ٢- قناة السويس، بإمكانك إجراء مقارنة بين السلطة التي

تمنحها القناة، وسلطة الذين يسيطرون على الثروة النفطية في أيامنا المعاصرة، كلاهما على نسق واحد. ٣- وأخيراً المنشآت المصرفية والمالية. وبصورة خاصة اللويد، تلك الشركة التي تحتكر موضوع التأمين على السفن ضد أخطار الملاحة وأعمال القرصنة البحرية. إذ من المعلوم أنه يستحيل تسيير المبادلات التجارية عن طريق البحر دون اللجوء إلى التأمين. وتالياً أحكمت الإمبراطورية البريطانية إغلاق نظام التبادل التجاري.

*** إذاً، يمكننا القول إنه في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية البريطانية تشهد ضعفها، بدأت ألمانيا تشق طريقها صعوداً لاحتلال المكانة الأولى...**

أخذ هذا التطور في التسارع مع حلول العامين ١٨٧٠-١٨٧١، فقد أقدم المستشار البروسي بسمارك على توحيد البلاد تحت إمرته. إنما، في الوقت عينه، شهد عام ١٨٧١ أكبر حدث سياسي تسبّب في زرع الرعب لدى الطبقات الحاكمة كافة في أوروبا، إنها أول ثورة قام بها عمال بلدية باريس، وانتهت بالانقلاب على السلطات السياسية. بالتأكيد لم تدم هذه الحركة طويلاً، إذ كانت عابرة، لكنها تركت أثراً مرعباً لدى الطبقات المسيطرة على دفة الحكم في أوروبا، التي قررت تشكيل اتحاد للوقوف في وجه أي ثورة شعبية قد تزعزع حكمهم. ولاستكمال المشهد برمته، يجب أخذ العلم أن عام ١٨٧٣ شهد اندلاع أول أزمة اقتصادية كبيرة للنظام الرأسمالي، تبعتها أخرى بعد سنوات عدة.

في ذلك التوقيت، آثرت ألمانيا الكشف عن شراهتها، فهي لم تلقَ نصيبها من الكعكة الاستعمارية، وعدّت ذلك إجحافاً بحقها، فهي تثق بقدراتها العالية. يجدر بنا هنا أن نبيّن أنه في تلك الفترة الزمنية، كان الجزء

الأكبر من قارة أفريقيا خارج إطار سيطرة الاستعمار الأوروبي؛ إذ كانت بعض المناطق الساحلية، وبعض المدن خاضعة للسيطرة الاستعمارية الحقيقية، فأرادت ألمانيا أن تستقر في تونس، ما أدى إلى خلق توتر عنيف مع فرنسا، التي شعرت بالإهانة لفقدانها منطقتي الآلزاس واللورين. فما كان من ألمانيا إلا اختيار المغرب، لكن بدل من أن يهدأ التوتر بينهما، ازداد اشتعالاً. في تلك الظروف انعقد المؤتمر الشهير في برلين في شهر تشرين الثاني من عام ١٨٨٤...

*** أثمر مؤتمر برلين عن حصول كل من فرنسا وبريطانيا العظمى على النصيب الأكبر من دول أفريقيا. إنما، ألم يكن ذلك سبباً في خلق مشكلات فيما بينهما؟**

بلى! أدى ذلك إلى نشوب مشاحنات دبلوماسية مكثّفة للحصول على مستعمرات في منطقة شرقي أفريقيا، منها خليج عدن، وجيبوتي، بل وكل الأراضي المتاخمة للبحر الأحمر والخليج الهندي؛ فالذي يسيطر على هذا المحيط، يتحكّم حتماً بالجزء الأكبر من العالم. سنثير هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الخاص بالمحيط الهندي. من أجل ذلك، كانت الإمبراطورية البريطانية تسعى جاهدة إلى بسط نفوذها على مصر.

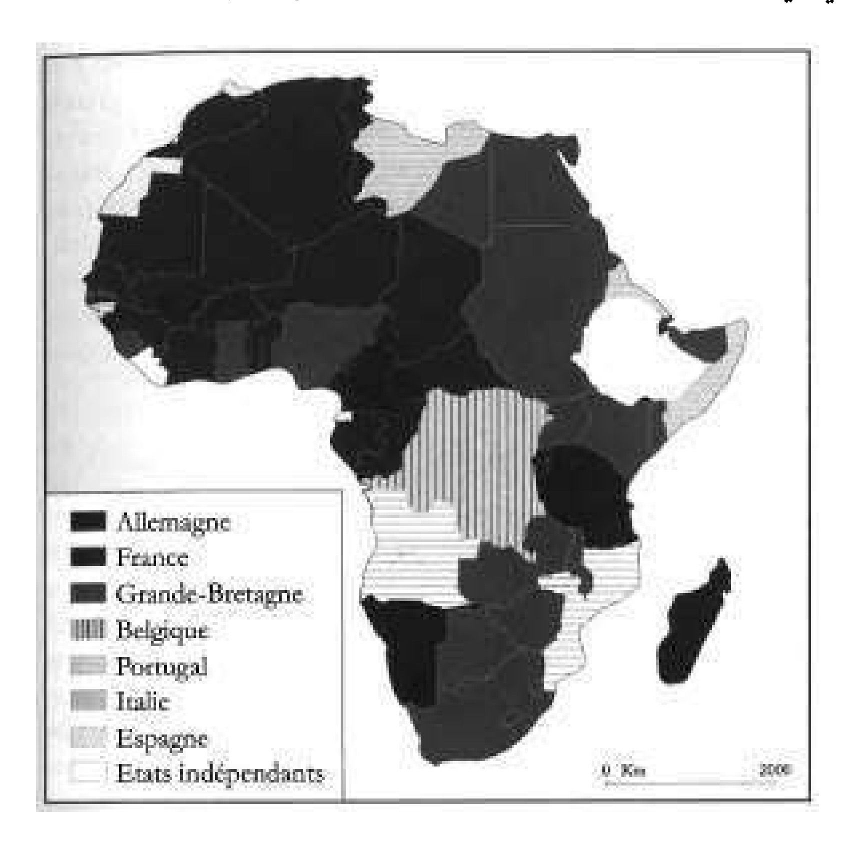
«تقسيم العالم»
مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥)

شهد منتصف شهر تشرين الثاني من عام ١٨٨٤ انعقاد مؤتمر برلين. اتخذت القوى العظمى الرئيسة الثلاث مكانها حول طاولة المفاوضات، وهي بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا، وشاركت في هذا المؤتمر الدول الأكثر تواضعاً، وهي بلجيكا والبرتغال، إلى جانب بعض الدول الهامشية ومنها إسبانيا وإيطاليا وتركيا... ما الأمور التي شملها برنامج هذا المؤتمر؟ بعبارة بسيطة: تقسيم القارة الأفريقيّة بالطريقة عينها التي يتم فيها تقسيم قالب الحلوى بشكل عادي، حتى إنه لم تتم دعوة أي ممثل عن أفريقيا لحضور هذا المؤتمر.

في اختتام المفاوضات التي استمرت ثلاثة أشهر، شعرت ألمانيا بخيبة أمل كبيرة، إذ إنها لم تحصل إلّا على الفتات، فكانت حصتها - بمسميات عصرنا الحالي - تكافئ تانزانيا وراوندا وبروندي وتوغو وناميبيا. في مقابل ذلك، أقدمت كلٌّ من بريطانيا العظمى وفرنسا على منح بعضهما الحصص الأكبر. إنما بقيت ثمّة مشكلة كبيرة: من يأخذ دولة الكونغو التي تعد من الدول الأكثر ثراءً؟ اقترحت لندن التنازل عنها لدولة البرتغال، فقوبل عرضها بالرفض من جانب باريس وبرلين، إذ إنّ الكل على دراية أن البرتغال ترزح تحت سيطرة بريطانيا، وتعد بحكم مستعمرة بريطانيّة، لذلك

اقتُرح منح الكونغو إلى بلجيكا، أو بالأحرى إلى ملك بلجيكا ليوبولد الثاني، الذي كان منهمكاً بصورة شخصية في البحث عن أراضٍ لاحتلالها.

غير أنه ما إن تمّ توقيع هذا الاتفاق، بدأت المشكلات في الظهور، فمن الناحية النظرية، بدا الموضوع بسيطاً، أما حين تطبيقه على أرض الواقع، لم يخلُ من إثارة المشكلات، فمن المعلوم أن حملة الاحتلال التي ستقودها هذه البلاد تستلزم موارد كثيرة، وبصورة خاصة، تلك البشرية، فالأمر الذي لا تذكره الكتب المدرسية هو مبادرة بريطانيا إلى تجهيز فرق هندية من أجل احتلال أراضي الكونغو الشاسعة لصالح الملك ليوبولد الثاني، في حين سخّرت بلجيكا لهذا الأمر فرقاً من نيجيريا.



تقسيمات داخل الخريطة: ألمانيا - فرنسا - بريطانيا العظمى - بلجيكا - البرتغال - إيطاليا - إسبانيا - دول مستقلة.

ما الهدف الذي يكمن وراء تقسيم العالم على هذا النحو؟ إنها ترجمة جديدة للنظام الرأسمالي الذي يتّسم بتصدير رؤوس أمواله، فالموضوع لم يعد مقتصراً على تصدير البضائع لطرحها وبيعها في أسواق الدول المستعمَرة، إنما تطلّب الأمر تصدير رؤوس الأموال بهدف استخراج الثروات الكامنة في تلك البلاد، إضافة إلى تصنيعها فيها. بهذه الطريقة تستطيع القوى العظمى تحقيق مكاسب عملاقة. وبالفعل، كانت هذه الخطط هي السبب في تحقيق الجزء الأكبر من الثروات الطائلة لتلك القوى. وهنا برزت أهمية السطو على أكبر عدد ممكن من الدول لبسط النفوذ عليها، ولا سيما تلك التي تمتلك الكم الأكبر من الثروات.

*** ما الدور الإيجابي الذي لعبته مصر في قضية تقسيم الكعكة الأفريقيّة بين الدول المستعمِرة؟**

تتطابق الرؤية البريطانية لتلك الحقبة الزمنية من التاريخ، مع رؤية سيسيل رود، أحد أقطاب الماس - الذي أطلق اسم روديزيا على البلد (زمبابوي حالياً) - اتسمت رؤيته بالبساطة، فقد كان يرى فيها مستعمرة كبيرة، تربط شمالي قارة أفريقيا بجنوبيها، بدءاً من القاهرة، وصولاً إلى رأس الرجاء الصالح. حينما يتم ربط طرفي القارة المتقابلين ببعضهما، يصبح من السهل تأمين الطرق التجارية الأكثر أهمية، انطلاقاً من تجارة الذهب والماس. ففي سبيل المثال، توجّب احتلال السودان الذي يقع في الطريق، حيث أُطلق عليه باستهزاء اسم (المستعمرة الإنكليزية - المصرية)، إذ كانت

مصر نفسها ترزح تحت نير الاستعمار البريطاني. ومن المعلوم أن الفصائل التي أُرسلت لاحتلال السودان، كانت مؤلفة من جنود مصريين، لكن... بقيادة ضباط بريطانيين!

*** إنما، كيف كانت ردة فعل الشعب المصري لمواجهة الوصاية الإنكليزية؟**

لم يتخلَّ الشعب المصري عن عزة نفسه، ولا حتى عن الشعور القومي لنيل استقلاله. لقد سبق لي أن أوضحت أن الجيش هو عبارة عن مؤسسة أساسيّة، تمكننا من تعرّف التاريخ المصري، لذلك انعكس كل ذلك في الثورة التي قادها الضابط أحمد عرابي عام ١٨٨١، تعبيراً عن استياء البورجوازية البسيطة التي كانت مجنّدة في صفوف الجيش، فقد كانت هوية هذه المؤسسة مصرية بحق، وتمثّل الشعب، وكانت قلوب أفراد هذا الجيش تنبض بالشعور القومي. فضلاً عن تنامي هذا الشعور لدى عامة الشعب بسبب نمو الرأسمالية، على الرغم من وجود الوصاية البريطانية. بقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للإدارة المصرية. إلى جانب ذلك، شهدت البلاد تطور قطاع الإعلام والمطبوعات وظهور طبقة المثقفين.

كانت ثورة عرابي ثورة ضباط، لجأت في أساليب مقاومتها إلى الطرائق الإرهابية التي تُرجمت بتصفية أكبر عدد ممكن من البريطانيين، بهدف نشر الذعر بين المستعمِرين. لكن سرعان ما تمّ إخماد هذه الثورة لتبقى بريطانيا العظمى القوة المسيطرة في المنطقة، وبطريقة لا تقبل النقاش، وذلك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

١٩١٤-١٩١٨
الحرب التي أعادت تقسيم العالم

لقد أوغروا الأطفال في المدارس أن فرنسا وبلجيكا خاضتا الحرب العالمية الأولى إلى صدور باقي الحلفاء في مواجهة الغازي الألماني، دفاعاً منها عن الكرامة الوطنية. في حين كان الوضع في المواجهة، وعلى أرض الواقع، مغايراً تماماً. فإذا حصدت هذه الحرب الضارية التي استمرت طويلاً أرواح عشرة ملايين إنسان، وإذا كان من المتعذّر للمرأة الفرنسية في الأعوام التي تلت هذه الحرب، أي في العشرينيات من القرن الماضي، أن تحظى بزوج، فهل يبقى هذا السبب قائماً؟ ألا وهو الدفاع عن الكرامة الوطنية؟

«اعتقدنا أننا نقدّم أرواحنا فداءً للوطن»

لقد جاء الخطاب القومي والوطني مضللاً إلى أبعد الحدود، كما عبّر عن ذلك الكاتب الفرنسي الكبير، في ذلك العصر، آناتول فرانس، إذ قال: «اعتقدنا أننا نقدم أرواحنا فداءً للوطن، في حين كانت أرواحنا تُقدَّم فداءً للصناعيين»... أصحاب مصانع التعدين، والكيمياء، ولا يغيب عن أذهاننا أصحاب المصارف.

كشفت الحرب العالمية الأولى عن رهانات ثلاثة، اتسمت جميعها بالطابع الاقتصادي:

١- الفحم والفولاذ في منطقة الألزاس واللورين، وهي ثروات معدنية وصناعية أساسيّة في ذلك الوقت.

٢- السيطرة على دول البلطيق (التي تضم كل من صربيا وكرواتيا والبوسنة واليونان وبلغاريا ورومانيا...)، ليس من أجل الاستيلاء على ثرواتها فقط، بل لأنها تشكل نقطة انطلاق إلى الطريق المؤدية إلى بلاد الهند.

٣- إعادة تقسيم المناطق الأفريقيّة المستعمَرة لصالح ألمانيا، التي رأت أن الدول الأخرى «أجحفت بحقها».

كلٌّ يطالب بنصيبه من الكعكة:

اقُتسمت المستعمرات على أساس ميزان القوى في تلك الحقبة الزمنية؛ إذ بادرت كل من لندن وباريس، العاصمتان الأقوى على الساحة، إلى الاستيلاء على أكبر الحصص من الكعكة الخاصة بالمستعمرات. في حين، كان الفتات من نصيب سائر الدول.

إنما، في أثناء ذلك، حصل اضطراب في ميزان القوى الاقتصادية، ففي السنوات التي امتدت بين عامي ١٨٩٨ و١٩١٣، شهدت الحصص البريطانية والفرنسية تدهوراً مستمراً على مستوى الاقتصاد العالمي، في حين كانت حصة ألمانيا تنمو بخطاً سريعة. كذلك الأمر للاستثمارات الخارجية لتلك الدول. بذلك كان عام ١٨٧٣ شاهداً على أهم أزمة اقتصادية تضرب النظام الرأسمالي للمرة الأولى، ما أدى إلى تفاقم الاقتتال من أجل الحصول على المواد الأولية، والسيطرة على مزيد من المستعمرات.

ارتقاء الإمبراطورية الألمانية:

بعد أن لجأت إلى توحيد أقاليمها سياسياً، وبعد أن ارتقى اقتصادها إلى أعلى الدرجات، سجلت مصالح الإمبراطورية الألمانية الجديدة تعارضاً مستمراً مع مصالح الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية، فأراد الفرنسيون والبريطانيون الدفاع عن مركزهما، والحفاظ على مستعمراتهما للصمود في وجه الإمبراطورية الألمانية. فالموضوع بات متعلقاً باستمرار الاقتصاد في ظل المنافسة الجديدة.

نستخلص من ذلك أن حرب ١٩١٤-١٩١٨ لم تكن حرب شعوب، بل حرب أصحاب المشاريع الصناعية، جاءت نتيجة التنافس الاقتصادي المتفاقم بين قوة آخذة في الصعود، وقوتين تشهدان بدايةً لنهايتهما.

*** كيف انعكس تأثير الحرب العالمية الأولى في مصر؟**

تتالت الأحداث بعد ذلك بشكل منطقي، إذ لم يعد بمقدور البريطانيين متابعة حركة اقتصادهم داخل المستعمرات، بسبب انشغالهم بهموم الحرب، مما اضطرهم إلى التراخي لصالح البورجوازية الوطنية المصرية، التي – بدورها - استغلّت الفرصة لتنشيط سوقها المحلي، بطرح منتجاتها الوطنية من القطن وبعض الصناعات الكيميائية.

انطلاقاً من عام ١٩١٤، أصبحت البيئة مؤاتية ومثالية لنمو الطبقة البورجوازية الوطنية في كل من مصر والهند، فكان من نتاجها، ظهور حركة «الوفد» عام ١٩١٩، وهي الحركة الوطنية البورجوازية الرائدة في مصر. أما في الهند فقد تشكل حزب المؤتمر. ضمت تلك الحركتان أعضاءً من البورجوازية الريفيّة، وبعض الأعضاء من أصحاب المشاريع الصناعية.

نتيجة هذا الزخم، اضطر البريطانيون، وتحت ضغط من الحركات الوطنية، إلى إنشاء المصرف الوطني المصري. فمن المعلوم أنه في حال رغبت حركة ما في تأسيس سياسة اقتصادية حرّة، فإن ذلك يتطلب وجود مصرف وطني قادر على منح القروض، وفرض الرقابة على المصارف الخاصة.

*** هل حملت تلك الحركات في طياتها «طابعاً ثورياً»؟**

كلا، فتلك الحركات لا ترمي إلى رؤية «الفوضى» تعم في البلاد، وأكثر ما كانت تخشاه هو اندلاع الحرب الأهلية التي تؤثّر سلباً في الأعمال التجارية. ومن ناحية أخرى، لو اهتمت كل الطبقات الاجتماعية بممارسة السياسة والإلمام بما يحدث، لسعت جاهدة إلى الاشتراك في تغيير الوضع. غير أن الطبقة البورجوازية كانت حريصة على مواكبة عملية ضبط التقدم في الداخل ومراقبته.

ثم إن اندلاع الثورة البلشفية الروسية في تلك الحقبة (١٩١٧)، ونمو الحركات الشيوعية في غالبية مناطق العالم، كانتا كفيلتين بقضّ مضاجع البورجوازيين. لذا حرصت الحركة القوميّة المصريّة على الاكتفاء بإجراء تحولات ديمقراطية، تخدم المصالح البورجوازية، خلافاً لباقي الطبقات الاجتماعية.

*** هل نستطيع القول إن الحرب العالمية الأولى أحدثت انقلاباً في الوضع الدولي؟**

نعم. تسببت هذه الحرب في إضعاف الدول العظمى. لم تكن ألمانيا هي الخاسر الوحيد من جراء هذه الحرب، بل كانت هناك أيضاً فرنسا

وإنكلترا. أما روسيا التي كانت حتى ذلك التاريخ سوقاً مهماً لتصريف بضائع الصناعيين البريطانيين، فقد شهدت أوضاعها تحولاً جذرياً. باتت الاشتراكية هي العدو الجديد، ونشأ تحالف دولي يهدف إلى قمع الثورة البلشفية. لقد أتاحت فترة ما بعد الحرب الفرصة أمام بريطانيا العظمى لفرض نفوذها على جزء كبير من السلطنة العثمانية في الشرق الأوسط، لكنها مع ذلك، كانت تسير بخطاً متسارعة نحو سقوطها كدولة عظمى، وانهارت أمام ظهور منافس جديد، يتمثّل بالولايات المتحدة الأمريكية. كما نلاحظ أيضاً ظهور دولة جديدة على الساحة تتسم بالطابع العدائي، ألا وهي دولة اليابان الإمبرياليّة، الفاشية.

أما في مصر، فلم يكن الشعور الوطني ليغيب عن الشعب، بل على العكس، ازداد تأصلاً، وتلك ظاهرة نشهدها في كثير من البلدان المستعمَرة في العالم. فقد تميز عقد الثلاثينيات في مصر بإضفاء الطابع المصري على الاقتصاد، وهي سياسة تلبّي الحاجات الداخلية للبلد.

كما شهد عقد الثلاثينات استغلال كل من مصر وبعض البلدان مثل تركيا، التناقضات التي نشأت بين الدول الإمبرياليّة الأوروبية (وذلك مع بداية ظهور الفاشية) من أجل بناء دولتها واقتصادها. بالمقابل، لم يعد بإمكان الدول الأوروبية العظمى - التي كانت في صراع دائم فيما بينها، فضلاً عن مواجهتها مشكلات داخلية في البلاد- الاستمرار في مراقبة التطورات في تلك الدول البعيدة عنها. أصبحت بريطانيا العظمى عاجزة عن التصرف في مصر كما يحلو لها، واضطرت إلى الاستجابة لمطالب المجتمع المصري.

*** غير أن نفوذ لندن بقي مهيمناً على مصر حتى حدوث الأمر المفاجئ الذي جاء كالصاعقة، بإعلان ثورة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٢...**

نعم، لقد لعب عبد الناصر الدور الأهم على الساحة المصرية الحديثة؛ فقد تزعّم حركة الضباط الأحرار (الذين ينحدرون عادة من الطبقة البورجوازية العادية) التي قادت انقلاباً على الملك فاروق، الذي كان ألعوبة بيد الإنكليز، وكان يعمل في خدمة مصالحهم، وأطاحت به.

تقسيم جديد للعالم غداة ١٩٤٥

أحرزت الحرب العالمية الثانية تغييراً جذرياً في ميزان القوى الدولية، أثمر عن احتلال الولايات المتحدة الأمريكية المكانة الأولى في العالم على حساب الإمبراطورية البريطانية، وباتت هي القوة العظمى الجديدة المسيطرة على هذا الكوكب.

خرجت ألمانيا من حرب ١٩٤٥ بهزيمة نكراء، في حين أنهك المجهود الحربي قوة كل من البريطانيين والسوفييت، وفازت الولايات المتحدة الأمريكية بالثمار الناضجة، وأخذت زمام المبادرة في قيادة العالم. وشيئاً فشيئاً، احتلت واشنطن مكان لندن، باسطةً نفوذها على منطقة الشرق الأوسط.

هتلر يغوي الزعامة الأمريكية في بداية الأمر

لم تأتِ سيطرة الولايات المتحدة الجديدة محض مصادفة لواشنطن. فقد أوضح المؤرّخ جاك باولز[١] الاستراتيجية المخادعة التي لجأت إليها الولايات المتحدة الأمريكية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

---

(١) جاك باولز، أسطورة الحرب المواتية، الولايات المتحدة الأمريكية والحرب العالمية الثانية، Aden, Bruxelles, 2005

١ - كان قسم كبير من النُخب القيادية في الولايات المتحدة الأمريكية مؤيداً لهتلر إبان الفترة الواقعة بين ١٩٣٠-١٩٤٠.

٢ - لم يتغير ذلك الموقف إلّا عندما تعرّضت مبيعات المؤسسات التجارية الأمريكية لخطر الغزو الألماني لسوق التجارة في أميركا اللاتينية، وغيرها من المناطق. أضف إلى ذلك، الاحتلال الياباني الذي بادر إلى الاستئثار بالتجارة برمّتها، والسيطرة عليها في آسيا.

لن نمكّن الحلفاء ودول المحور من تحقيق النصر في هذه الحرب

هذا ما دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى انتهاج سياسة المعايير المزدوجة، فقد سعت جاهدة كي تدوم هذه الحرب أطول فترة ممكنة، نظراً للفائدة الكبيرة التي كانت تجنيها منها. نذكر في سبيل المثال هنري فورد، الصناعي الشهير الذي قال: **«لن نمكّن الحلفاء ودول المحور من الخروج منتصرين من هذه الحرب. لذا يترتب على الولايات المتحدة الأمريكية تقديم التسهيلات كافة والوسائل للمعسكرَين على حد سواء، من أجل استمرار الاقتتال فيما بينهما حتى يتحقق انهيارهما.»**

فمن جهة، كانت المكاسب التي حققتها كل من شركة فورد، وجي إم، وإيسو (اكسن) أو آي بي إم في ألمانيا ضخمة جداً. ومن جهة أخرى، حققت هذه الشركات ثروات طائلة بمنح القروض لبريطانيا العظمى التي تحمّلت بمفردها عبء التمويل المالي للحرب، وفي كل الأحوال، اشترطت واشنطن على لندن التخلّي عن كل مستعمراتها بعد انتهاء الحرب. وهذا ما تم بالفعل. كما نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في تحقيق فائدة أخرى من الحرب العالمية الثانية لإضعاف منافسيها، وبسط نفوذها على الساحة الدولية كقوة عظمى ذات نظام رأسمالي.

وكما حصل في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨، أسفرت الحرب العالمية الثانية عن تقسيم جديد للكعكة العالمية: فقد شهدت بعض القوى الأوروبية انحسار نفوذها، في حين برزت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة اقتصادية عظمى، ما أتاح لها إعادة ترتيب أوراق اللعبة بما يخدم مصالحها الخاصة.

في تلك الأثناء، تمّ تأسيس أول حزب إسلامي حديث في مصر، حزب الإخوان المسلمين، بزعامة حسن البنا الذي ذاع صيته على مستوى الشعب، فما كان من بريطانيا إلّا تدبير خطة للتخلّص منه عام ١٩٤٩. وفيما بعد، وجدت الإمبراطورية البريطانية نفسها في مواجهة مع الدول التي كانت ترزح تحت سيطرتها في محاولة لنيل الاستقلال. حتى إن جمال عبد الناصر وحركته تأثروا بفكر الإخوان المسلمين.

*** ما مكونات هذه الحركة المصرية؟**

تكونت هذه الحركة من ثلاثة تيارات؛ أهمها كان تيار جمال عبد الناصر نفسه، فمن خلال شعوره الخاص، وتواصله مع الحزب الشيوعي المصري، اتخذ موقفاً معادياً من الإمبرياليّة، وكان محباً لوطنه، ومؤيداً للوحدة العربية (إذ إنه كان يحلم بتجاوز حدود بلاده، وتوحيد الشعوب العربية كافة).

أود أن أسرد في هذا السياق طرفة لها دلالتها. انتاب بن غوريون، الحاكم الأول لدولة إسرائيل، شعوراً بالفضول لمعرفة موقف عبد الناصر من دولة إسرائيل، ولما بادر ممثلون من السلك الدبلوماسي الغربي إلى سؤال عبد الناصر عن هذا الموضوع، أجابهم بصراحة بأنه لا يملك الوقت الكافي

للتفكير في هذا السؤال، إذ كانت مشاغله منحصرة بالشؤون الداخلية لمصر. ولما نقل هؤلاء الدبلوماسيون الخبر إلى بن غوريون ظناً منهم أنه سيسر بهذا الجواب، قال لهم: «إنه أسوأ خبر سمعته!» سألوه «ولماذا؟» قال لهم: «لأنه سيعمل على تأسيس دولة قوية الأركان، وحينما تصبح هذه الدولة قوية الدعائم بما فيه الكفاية فستشكّل مصدر خطر علينا!»

لقد نجح جمال عبد الناصر في زرع الرعب في قلوب القوى الإمبرياليّة العظمى، تماماً كما فعل سلفه محمد علي.

أما التيار الثاني، فقد ضمّ ضباطاً من الطبقة البورجوازية، عُرفوا بمواقفهم المناهضة للنظامين الاشتراكي والشيوعي، والمؤيدة للنظام الرأسمالي وأياديه البيض، كما كان يتراءى لهم.

في حين شمل التيار الثالث الطبقة البورجوازية الريفية المحافظة والرافضة لأي شكل من أشكال الإصلاحات.

*** إنما، ألم يكن جمال عبد الناصر هو القائد؟**

كان عبد الناصر قائداً ذا شخصية جذابة. استطاع أن ينشر أفكاره المعادية للإمبريالية، وأن يدعم حركات المقاومة المناهضة للاستعمار في كلٍّ من اليمن والكونغو، وأن يوحّد حركة دول عدم الانحياز التي تضم دول الجنوب، وتتطلع إلى تحقيق المزيد من الاستقلال. لقد عملت هذه الإجراءات على زعزعة نفوذ القوى الأوروبية التي كانت مهيمنة قبل الحرب، في حين حازت رضا الولايات المتحدة الأمريكية.

ثم ما لبثت العلاقة بين عبد الناصر والإخوان أن شهدت توتراً كبيراً، تعرّض بعدها عبد الناصر إلى محاولة اغتيال عام ١٩٥٤، فتوجهت أصابع الاتهام

إلى هذه الحركة، فما كان منه إلّا أن أعطى الأمر بحلّها، ومنع أعضاءها من مزاولة نشاطهم، وانتهى المطاف بغالبيتهم إلى المعتقل، أو إلى المنفى خارج البلد، إلى السعودية تحديداً، ذلك البلد المتخلّف، والمحافظ، والمفضّل لدى الدول الغربية.

*** كيف يمكنك أن تلخّص سياسة عبد الناصر؟**

عُرف من مواقفه أنه مناهض للاستعمار، وذو اتجاه تقدمي. بادر إلى تأميم قناة السويس مصرحاً أنه: **«ليس عيباً أن نكون فقراء، لكن كل العيب يكمن في استغلال الشعوب. سنبادر إلى استرجاع كامل حقوقنا، فكل هذه الثروات ملك لبلادنا وهذه القناة تعود ملكيتها لمصر».**

*** بما أن سياسة جمال عبد الناصر كانت مناهضة للإمبريالية، فكان لا بد للقوى الاستعمارية من اتخاذ موقف مناوئ، أليس كذلك؟**

نعم. بادرت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وإسرائيل إلى تشكيل تحالفٍ عام ١٩٥٦ للقضاء على التجربة الناصرية، خوفاً من انتقال عدوى الثورة إلى البلدان المجاورة لمصر بسبب موقعها الإستراتيجي، بل اتهم حكام بريطانيا وفرنسا – على الرغم من انتمائهم إلى الحزب الاشتراكي - عبد الناصر بأنه يسير على خطا هتلر في سياسته، وخططوا لاغتياله، ولما باءت محاولتهم بالفشل، دبروا مؤامرة بالاشتراك مع تل أبيب في أثناء اجتماع في مدينة سيفر الفرنسية، انبثق عنه بروتوكول حمل توقيعهم، ونصّ على **«أن تبدأ الدولة العبرية بشن الهجوم على مصر مساء يوم التاسع والعشرين من أوكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٥٦ وتتجه مباشرة إلى قناة السويس، وفي اليوم التالي، تصدر لندن وباريس إنذاراً للطرفين المتقاتلين بالانسحاب من منطقة القناة مستغلة هذا العدوان «المفاجئ»، وفي حال رفضت مصر**

الإذعان للأوامر، يقوم الجنود الفرنسيون والبريطانيون بالتدخل العسكري في الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول.»

وبالفعل، تدخّل الجنودُ البريطانيون والفرنسيون، وقصفوا مصر، ثم أتبعوا القصف بعملية إنزال على الشواطئ باستخدام المراكب التي سبق أن استُخدمت عام ١٩٤٤ في النورماندي، وأعلنوا سيطرتهم على القناة، وتوجههم شمالاً نحو القاهرة. استولت إسرائيل على شبه جزيرة سيناء، فما كان من روسيا إلّا أن وجّهت تهديداً للدول التي قامت بهذه العملية، في حين أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية رفضها لهذا العدوان الذي لم يلبث أن اندثر...

*** هل يُعدُّ موقف الولايات المتحدة الأمريكية مناهضاً للإمبريالية؟ هذا أمر يدعو إلى الدهشة...**

أرادت الولايات المتحدة أن تبرهن بالدليل القاطع على بداية انحسار نفوذ القوى الأوروبية، وكان هذا الأمر مدعاة لسرورها. من جهة أخرى، أرادت أن تبرهن دعمها لدول العالم الثالث، بتسليط الضوء على موقفها المغاير لموقف الدول الأوروبية المستعمِرة. واتبعت الولايات المتحدة خطة أكثر دهاءً عندما أدركت تمسك الشعوب العربية بمفهومي القومية والعروبة، ولا سيما أن هذه المفاهيم الشعبية ازدادت تأصلاً وثباتاً بعد هزيمة الدول الأوروبية الكبرى في حرب السويس.

*** لم يكن في نيّة الولايات المتحدة التصدّي لعبد الناصر، ومع ذلك أبدى استعداده للتقرب من الاتحاد السوفييتي...**

وهذا ما أتاح له فرصة بناء السد العالي في أسوان. هذا السد الذي أسهم في توليد الكهرباء للمصريين على نحو شبه مجاني، وأمّن لهم الحصول

على استقلالهم على صعيدي الاقتصاد والطاقة؛ إذ خضعت أجزاء كاملة من الاقتصاد للمراقبة العامة أو حتى جرى تأميمها، وتم إضفاء صفة المركزية على القرارات لتصبح أكثر فاعلية.

مما لا شك فيه أن هذا المنحى الجديد أسهم في تصعيد الخلافات بين مصر والولايات المتحدة التي أرادت لها الاندماج في حلف الناتو (منظمة حلف الشمال الأطلسي) وازداد الأمر سوءاً عندما أصدر عبد الناصر قانون الإصلاح الزراعي، مع أن هذا القانون لم يتسم بالطابع الاشتراكي (الأرض للفلاح) بل كان بورجوازياً (إذ يترتب على الدولة أن تقدّم المزيد من الدعم).

*** هل فعلاً لم يكن عبد الناصر يعير أي اهتمام لدولة إسرائيل؟**

كلا، كان يرى أن القضية الفلسطينية هي قضية عربية، وأنه يقع على عاتق العرب مسؤولية تحريرها. علاوة على ذلك، فإن ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، كان يعمل في القوات المسلحة المصرية.

هذا التطور في السياسة المصرية، جعل منها دولة أساسية في التصدّي للإمبريالية والاستعمار. بالإضافة إلى ذلك، طالت إصلاحات عبد الناصر كل من المجال الصحي والتجاري والصناعي والزراعي... كان ذلك مدعاة لإثارة غضب القوى الغربية، فما كان من الولايات المتحدة إلا تقديم دعمها غير المشروط لدولة إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧.

*** لماذا تشير إلى هذا التاريخ بالتحديد (١٩٦٧)؟**

حسناً، في الخامس من شهر حزيران من عام ١٩٦٧، شنّت إسرائيل هجوماً على دولة مصر وقصفت أراضيها، فبادرت الدول العربية المجاورة

(التي تضم كلاً من مصر وسورية والأردن والعراق) إلى تشكيل تحالف للتصدي لإسرائيل. انتهت هذه الحرب بهزيمة الدول العربية، وانتصار إسرائيل التي عملت على توسيع رقعة أراضيها بعد أن احتلت غزة، وشبه جزيرة سيناء، والجولان السوري، والقدس، والضفة الغربية. أدركت حينها الولايات المتحدة الأمريكية أنه يمكن لدولة إسرائيل أن تلعب دور الدركي في المنطقة، فهي قادرة على توجيه الضربات القاسية للقومية العربية.

*** بعد وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠، تولى أنور السادات زمام الحكم في مصر وأعلن متابعته لمسيرة عبد الناصر، لكنه كان يسير بخطاً سريعة نحو الولايات المتحدة الأمريكية. كيف تفسّر ذلك؟**

تميّز عبد الناصر في أثناء حياته، وبفضل شخصيته الجذابة، وأسلوبه في السيطرة على البرامج والقرارات السياسية، وبسبب عمله الدؤوب، تميّز بالشخصية الفذة التي لا يمكن الاستغناء عنها. تلقى دعماً من غالبية الضباط من حوله، في حين أبدى آخرون تحفّظهم. مع ذلك، آثرت الجماعات المناهضة لسياسته إخفاء تباين آرائها وعدم الإعلان عنها صراحة.

اتسمت الفترة التي تلت هزيمة مصر أمام العدوان الإسرائيلي بانهيار العزيمة لدى الشعب، حتى إن عبد الناصر نفسه أعلن تنحيه عن السلطة في كلمة ألقاها أمام الشعب نتيجة شعوره بالضعف. ووسط هذه الظروف السياسية، توفي عبد الناصر في التاسع والعشرين من شهر أيلول من عام ١٩٧٠، ولم يكن في جيبه سوى مرتبه. عاش عبد الناصر حياة البسطاء، ولم يسعَ إلى جمع ثروة، ولم يعش حياة الترف، بل عاش إنساناً شريفاً وكادحاً.

*** ألم يكن عبد الناصر يشبه السادات في نهجه؟**

شغل أنور السادات منصب نائب رئيس الجمهورية في عهد عبد الناصر، وكان من الطبيعي أن يتسلم زمام الحكم من بعده وفقاً لنص الدستور المصري. كان رجلاً مختلفاً عن عبد الناصر في طباعه، وكذا في طريقة حكمه. ادّعى إضفاء الطابع الديمقراطي على البلاد، في حين كان يبذل قصارى جهده لإضعاف الأعضاء المؤيدين للاتحاد السوفييتي في مصر. أما على الصعيد الاقتصادي، فقد انتهج سياسة الانفتاح، وهو عبارة عن برنامج انفتاح البلاد أمام التجارة الخارجية.

لم يعد اهتمام المصرف الوطني منصبّاً على تفضيل المصالح الإجمالية للاقتصاد الوطني المصري، بل على محاباة المصالح الخاصة لفئة معيّنة من الطبقة البورجوازية، تلك التي ترتبط مصالحها بالمصالح الأجنبية. كانت تشمل تلك الفئة رجال الأعمال والضباط والنواب الذين استطاعوا تحقيق ثروات طائلة، بفرض هيمنتهم على النظام الاقتصادي، وبذلك وضع السادات نهاية للمثل العليا للنظام الاشتراكي العربي.

كان السادات يؤمن بالفكر الرأسمالي، لذلك عمد إلى القضاء على الإصلاحات التي تمّت في عهد عبد الناصر، ثم أطلق سراح السجناء السياسيين الذين ينتمون إلى حركة الإخوان المسلمين.

*** لماذا؟**

كانت سياسته تلك تهدف إلى تمزيق وحدة الشعب المصري بدعمه للانقسامات بين الفئات الدينية، فما كان من الطبقة البورجوازية العليا إلّا السيطرة على الاقتصاد، وتحولت مصر بذلك إلى أمة مناهضة للثورات.

ففي سبيل المثال، أقدم على تزويد كل من هابياريمانا رئيس راوندا، ورجال العصابات الإرهابية في أونيتا في أنغولا، بالسلاح. بل والأسوأ من ذلك، انضم إلى نادي السفاري، الذي كان عبارة عن تجمّع للحكام الأكثر رجعية على وجه البسيطة. سنثير هذا الموضوع لاحقاً - في الفصل الخاص بالمملكة العربية السعودية -. أما فيما يتعلّق بإسرائيل، فقد اتبع سياسة الإذعان والاستسلام التام بتوقيعه معاهدة السلام في كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

*** وهل أخفق في ذلك؟**

نعم، إنه بخيانته لنهج عبد الناصر، وبتعاونه مع إسرائيل جلب لنفسه استنكار غالبية الشعوب العربية، مع أنه حصل على جائزة نوبل للسلام من الغرب. ولم يكن الأمر أفضل منه على الصعيد الداخلي، إذ فقد ثقة شعبه، فما كان منه إلّا أن فتح باب المعتقلات، لزج الموالين لسياسة عبد الناصر، والشيوعيين، وأنصار الحركة النسائية، والإسلاميين، وأساتذة الجامعة، والطلاب والإعلاميين، حتى إن عدداً كبيراً من رجال الدين الأقباط لم ينجُ من هذه الحملة. بات موضوع القمع في البلاد تعسفياً، ما أدى إلى اغتياله في السادس من أوكتوبر من عام ١٩٨١ على أيدي ضباط معارضين ومناوئين لمواقفه الخائنة، في أثناء حضوره عرضاً عسكرياً. لم يحضر موكب الجنازة أي من الحكام العرب، كما تمّ إقصاء الجماهير بعيداً عنها، خلافاً لما حصل في أثناء تشييع عبد الناصر.

*** بعد السادات اعتلى سدة الحكم نائبه حسني مبارك...**

نعم، وسار على خطا السادات دون أن يحيد عنها. كانت الأمة المصرية آنذاك غارقة في سبات حقيقي، فالطبقة الحاكمة تعمل في خدمة المصالح

الغربية، وبشكل خاص مصالح الولايات المتحدة الأمريكية. لذا لم تشهد البلاد أي تحرك إيجابي.

في تلك الأثناء، مرّ الإخوان المسلمون الذين كانوا يقبعون في المعتقلات بمرحلة النقاش والنضوج، نتج عنها انقسامهم إلى فئتين، فئة الجيل القديم الذي بقي وفياً للفكر التقليدي للإخوان، وفئة الجيل الجديد الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الجهاد وتبناها. أراد الإخوان المسلمون «التقليديون» محاربة العدو الخارجي دون المساس بالحكومة المحلية. في حين أكّد الجهاديون أن هذه الحكومة ليست سوى ممثل عن العدو الخارجي، لذا يتعيّن محاربتها هي أيضاً.

بتطبيقه الأعمى لسياسة السادات، حوَّل حسني مبارك مصر إلى دولة مرتزقة تعمل في خدمة الإمبرياليّة الأمريكية. من جهة أخرى، وعلى الرغم من معارضة فئة الشباب المصري، بذل جهده لإلغاء كل أشكال التضامن مع بقية الدول الأفريقيّة.

*** كيف استطاع البقاء في سدة الحكم مع وجود هذا الكم الهائل من المعارضة؟**

اعتمد مبارك سياسة السادات في كم الأفواه، باعتماده على شرطة الاستخبارات التي كان عدد أفرادها يناهز مئات الألوف. كانت دولة حقيقية داخل دولة. كانت إحدى مهامها الرئيسة مراقبة الجيش عن كثب. عمل رجال الشرطة هؤلاء على نشر الرعب في قلوب كل من تسوّل له نفسه التفكير في إجراء أي عملية تطوير. وتم الإعلان عن حالة الطوارئ مع بداية عام ١٩٨١، لمنع الضباط من عقد أي اجتماع فيما بينهم بشكل حر.

*** ومع ذلك انتهى الأمر بسقوط مبارك! لقد ساد الاعتقاد في أوروبا باستحالة إسقاط هذا الرجل الطاغية. لكنك لم تكن تؤيّد هذا الرأي؟ لماذا؟**

أمضيت فترة الستينيات من القرن الماضي في مصر، أتابع فيها دراستي. كان عددنا في ذلك الوقت يقارب الثلاثين ألف طالب، جئنا من مناطق متفرقة، من دول أفريقيا والهند، بل حتى من أندونيسيا، للاستفادة من البرنامج التربوي الذي أسسه عبد الناصر في سنوات خلت. كنت أدير مكتباً للطلاب الصوماليين، وأذكر جيداً أن غالبية الطلاب المصريين كانوا يكنّون لنا المودة، إذ إن وجودنا بينهم كان يرمز إلى روح التضامن الذي يربط بين بلدينا، الصومال ومصر، وكانوا يشعرون بالفخر لهذا التعاطف.

في عام ٢٠٠٩، وبعد غياب دام ثلاثين عاماً، قررت العودة مجدداً إلى بلاد الفراعنة. كان ينتابني شعور بالقلق، حيث تبادر إلى سمعي أن مصر تحولت إلى بلد يحكمه العسكر، وأن حملات الاعتقال لا تتوقف عند حد. لما وصلت إلى القاهرة، فوجئت بالتغير الذي طرأ عليها، كان أمراً مذهلاً لي. باتت القاهرة مدينة ممتدة الأرجاء، تستقبل كل يوم ألفي زائر. استقللت سيارة أجرة، وتوجهت على الفور إلى مقر الرابطة التي كنت أديرها. التقيت هناك بصديق قديم لي، مصري الجنسية يدعى محمد، كنا نحتسي الشاي برفقته حينها بشكل منتظم. كنا نعلم علم اليقين أنه على صلة دائمة بمكاتب الاستخبارات. ولمّا سألته عن الوضع في مصر، أجابني وقد اعتراه غضبٌ شديد، أن العصابات هي التي باتت تدير دفة الحكم في هذا البلد، وتنهب ثرواته. وبما أني أعلم ماضيه واتصالاته مع مكاتب المخابرات، راودتني الشكوك في أمره بأنه يحاول أن يستدرجني في الكلام. لكنه تابع قائلاً:

«بإمكانك أن تتكلم بكل حرية، لا أحد يأبه لهذا الأمر هنا. لم تعد السلطات تراقب أي شيء. وأضاف مشيراً إلى صورة مبارك التي كانت معلقة على الجدار، «أما هذا الوغد فإنه لم يعد يقيم في القاهرة، غادرها إلى شرم الشيخ! «(التي تحولت إلى منطقة منتجعات ساحلية، يرتادها السياح الأجانب)»

تملكني شعور بالدهشة، كنت أعتقد أن الناس لا يملكون الجرأة الكافية لتوجيه الانتقادات إلى النظام في ظل دولة العسكر، لذا تابعت سؤال الناس الذين كنت ألتقيهم في الشارع والحافلات والأسواق... كانوا جميعاً يرددون العبارات نفسها: «الحكام ليسوا سوى لصوص، وسيأتي اليوم الذي سنقطع فيه أناملهم!» أيقنتُ أن مصر أصبحت جاهزة للمضي في طريق الثورة.

*** سبق لك أن قلت إن البلد كان مستعداً منذ فترة لإعلان الثورة. فلماذا اندلعت الثورة في شهر كانون الثاني من عام ٢٠١١؟**

إن الأمر الذي هيأ لإشعال فتيل الثورة في مصر هو إقدام الشاب التونسي محمد بوعزيزي، ذلك البائع المتجول على إضرام النار في نفسه. كان هذا الحادث بمنزلة القشة التي قصمت ظهر البعير.

من المعلوم أن الانتحار بالنسبة للمسلمين يعد بمنزلة خطيئة كبرى، فالذي وهب الحياة للإنسان هو الله (تبارك وتعالى)، لذا لا يملك هذا الإنسان وضع حدّ لحياته من تلقاء نفسه. مع ذلك أصبح بوعزيزي الشهيد الرمز الذي يمثّل الشبان في العالم العربي، هؤلاء الشبان الذين باتوا يعانون من ظروف معيشية قاهرة، لا يملكون مستقبلاً، ويعيشون في ظل القمع العسكري القاسي، وسط نخبة سياسية فاسدة...

لم يعد بإمكان الشبان العرب أن يجدوا نفسهم في ظل هذا النظام السائد، فغالبية الشبان في سن الثلاثين، لا يملكون المال الكافي لشراء شقة مستقلة، ويجدون أنفسهم مضطرين للعيش في كنف الأهل. في حين يحاول بعضهم الهجرة من البلد عن طريق البحر بطريق غير شرعي، فيلقى بعضهم حتفه في أعماق مياه البحر المتوسط، الذي تحوّل إلى مقبرة واسعة الأرجاء، في حين ينجح بعضهم الآخر في الوصول إلى أوروبا على نحو شرعيّ، إنما يواجهون أسوأ معاملة.

في مقابل هذا البؤس، تجد في البلاد العربية نسبة قليلة تحيا حياة الترف والبذخ، ترتاد المتاجر الفخمة للتسوق، وتركب السيارات الفارهة ذات الدفع الرباعي، من أحدث الطراز، وتختال على أسطح اليخوت... لم يستطع الفقراء البقاء على قيد الحياة حتى هذه اللحظة إلّا بفضل روح التضامن التي تجمعهم، غير أن التناقضات التي تملأ المجتمعات باتت تنذر بانفجار قريب.

*** هل نستطيع القول إن سقوط مبارك يهيئ الفرصة أمام الإسلاميين لتولي الحكم في مصر؟**

لم يكن مبارك ذلك السد المنيع الذي استوعب النزعة الإسلامية، فكانت جماعة الإخوان المسلمين ركناً مهماً في دكتاتورية الرئيس.

*** يبدو هذا الأمر مثيراً للدهشة!**

ليس إلى هذا الحد. لقد رأينا كيف انتهج السادات سياسة معاكسة تماماً لسياسة عبد الناصر، وفقاً لمبادئ المصرف المركزي الدولي، فقد تاجر بالمؤسسات العامة لصالح الشركات الخاصة. إنما من أجل السير في هذا

الطريق، كان عليه أن يتخلّص من الإرث الناصري الذي لا زال مهيمناً في مصر حتى بعد وفاته، إذ كان لهذا الرجل الثوري الشهير أتباع كثر. في خضمّ هذه الإستراتيجية لعب مبارك دوراً خاصاً. انحصرت مهمته في تشكيل العصابات، وتسليحها عن طريق مكاتب الاستخبارات السريّة، من أجل القضاء على أتباع عبد الناصر وأنصار الشيوعية.

إلّا أن سياسة القمع هذه لم تؤتِ أُكُلها، إذ توجب عليه محاربة الإرث الناصري على صعيد الفكر. هذا ما دفع السادات إلى استخدام الدين كوسيلة لتحقيق مآربه، فبدأ ببث تصريحات حول الأساليب التي اتبعها عبد الناصر لقمع الإخوان المسلمين، وفي مرحلة ثانية، قدم نفسه بأنه ذلك الرجل الرباني والمسلم الورع. أدخل من أجل ذلك، العديد من الإجراءات لدعم أهمية الدين في المجتمع المصري. وفي سبيل المثال، أمر بقراءة بعض الآيات من الذكر الحكيم قبل المباشرة بنشرة الأخبار المتلفزة، كما أمر بإطلاق سراح معتقلي الإخوان المسلمين.

إن الاعتقاد الذي يرى أن الحد من انتشار الإسلام لا يتم إلا عن طريق نظام الحكم الاستبدادي، ليس سوى ضرب من الخيال. فالإسلام كان ورقة أساسية لنظام الحكم، وكان يسمح بتسويغ لدولة العسكر التي كانت بدورها تتلقى دعماً من الغرب.

*** مع ذلك، كان الكل يرى في حركة الإخوان المسلمين الحزب المعارض الرئيس في مصر.**

هذا خطأ. كانت حركة الإخوان المسلمين هي الحزب الوحيد في مصر الذي يلقى قبولاً من قبل النظام الحاكم. فلو كان يشكل خطراً على الدولة،

لما تغاضى عنه مبارك. حتى إن الإخوان شغلوا مقاعد في مجلس الشعب. وفي نظام الحكم المطلق، لا يمكنك أن تقبل عدوك. الأمر مختلف عما هو عليه في تونس، حيث تم إقصاء كل من الشيوعيين والإسلاميين.

وبالتأكيد لا بد من الأخذ في الحسبان أن القاعدة مخترقة من قبل تيارات مختلفة، منها ما هو قابل للتطور في منحىً تقدمي، في حين يمثّل برنامج الإخوان المسلمين - الذي كتبته المراتب الإدارية - الوجه الآخر للنظام الشمولي الذي تدعمه الإمبرياليّة. فبرنامجهم الاجتماعي والاقتصادي لا يعكس أي أثر للتقدمية، بل يدعو إلى إنشاء نظام رأسمالي غير مقيّد، كما يشجع على إقامة المؤسسات الحرة، وقد سبق لهم أن عارضوا حركات العمال والفلاحين.. يمكن القول باختصار إنه التيار الأمثل الذي يسمح للإمبريالية بالاستمرار في استغلال ثروات مصر.

*** ألا توجد في مصر قوى معارضة قادرة على قيادة الثورة فيها؟**

أعتقد شخصياً أن الثورة التونسية كانت أكثر تنظيماً. لقد استفادت أحزاب المعارضة من تجاربها في الخفاء. حتى داخل السجون، تمكنت المعارضة من تنظيم صفوفها، وهي تقف اليوم صامدة في وجه القوى المعارضة للثورة.

أما في مصر، فإن أنصار عبد الناصر والشيوعيين لا يتسمون بالصبر الذي يتمتع به نظراؤهم التونسيون. إنهم يمثلون شريحة صغيرة من السكان، لذا لا يجسّدون تيار المعارضة الحقيقية، بل لا يمثلون نسبة كبيرة من السكان. وفي النهاية، لقد اهتم الإعلام الغربي بمحمد البرادعي، وتكلم عنه كثيرون، لكن هذا الرجل أمضى حياته في المطارات، متنقلاً بين البلدان، لذا لم تكن له قاعدة شعبية في مصر، ولا أحد يعرفه في البلد، فيما عدا زوجه وزملاءه في العمل!

*** كيف إذاً يمكن للأمور أن تتطور؟**

المؤسسة الوحيدة المنظمة اليوم هي القوات المسلحة. فكل شيء يعتمد عليها الآن.

*** إلّا أن القوات المسلحة كانت تعمل بإمرة مبارك، وتموها الولايات المتحدة الأمريكية! هل يمكن أن نتوقع تغييرات حقيقية في هذه المؤسسة؟**

لا تشكل القوات المسلحة جسماً متجانساً، وكما في المجتمع المصري، قد تجد في هذه المؤسسة تيارات متعددة، وتتألف الهيئة العامة للجيش من أفراد من الشعب المصري الذين يرفضون الحكم الاستبدادي. يضاف إلى ذلك أن من قاد الثورة ضد الحكم الملكي في مصر عام ١٩٥٢ كانوا ضباطاً مصريين، ويجب أن نذكر ذلك جيداً!

لا يمثّل المقرّبون من مبارك سوى قلة قليلة في الجيش. أما الآن، وقد تمت الإطاحة بالحاكم المستبد، فسيتم إجراء تعديلات على الدستور بما يسمح للأحزاب السياسية المشاركة في الانتخابات القادمة. وستكشف السنوات القادمة أي القوى ستكون المهيمنة.

*** كان مبارك حليفاً لإسرائيل. فهل سيؤثر سقوطه في وضع البلد؟**

بكل تأكيد. تمتلك مصر احتياطياً كبيراً من الغاز الطبيعي، وإسرائيل هي المستفيد الأول من هذا الغاز، مقابل أسعار زهيدة، تسددها للحكومة المصرية، وعملت على تطوير شبكة أنابيب مهمة جداً، تعتمد على التمويل المصري من الغاز. ففي حال اطلعت الحكومة الجديدة على هذه الاتفاقية، فسيكون الأمر معقداً لدولة إسرائيل. أضف إلى ذلك أن القضية الفلسطينية

لا تزال معلقة؛ ففي عهد السادات، توصّل الحكام المصريون إلى عقد تحالف مع إسرائيل، لكن هذا التحالف لم يلقَ صدىً لدى الشعب المصري الرافض للاحتلال، والمتضامن مع الفلسطينيين. لن تتوانى أي حكومة ديمقراطية تمثل حداً أدنى لتطلعات الشعب المصري، لن تتوانى عن إلغاء هذه العلاقة مع إسرائيل.

*** هل سيكون لهذا الإجراء تبعات على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط؟**

بكل تأكيد. يشكّل الاتفاق الذي تمّ التوقيع عليه عام ١٩٧٧ بين مصر وإسرائيل بعد حرب تشرين الأول ١٩٧٣، أحد الأركان الأساسية لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط. تلك كانت خطة هنري كسنجر، المسؤول الأميركي عن السياسة الخارجية في تلك الحقبة، التي بموجبها بدأت تصفية القضية الفلسطينية، وإحداث شرخ في وحدة الدول العربية. وأنا أعتقد، على الصعيد الشخصي، أن هذا الاتفاق لم يعد ساري المفعول. فبسقوط مبارك، خسرت الولايات المتحدة الأمريكية دولة مصر، ما سيُحدث تغييراً في ميزان القوى في المنطقة.

*** إنما، لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية تقدم مساعدات على قدر كبير من الأهمية لدولة مصر...**

لا فائدة من إثارة الموضوع بهذه الطريقة. فإذا كان هناكثمة تعاون بين الولايات المتحدة ومصر، فهذا يعني حاجة الولايات المتحدة إلى مصر، وليس العكس. إذ سدد المصريون مبالغ طائلة من الديون المترتبة عليهم للمصارف الأمريكية. وكذلك الأمر، تلبي مصر حاجات إسرائيل من الغاز

الطبيعي بتزويدها بكميات فلكية منه، بأسعار جد متدنية؛ لذلك وصلت مصر اليوم إلى مرحلة تجد فيها نفسها مضطرة إلى استيراد الغذاء، نتيجة افتقارها سياسة الاكتفاء الذاتي!

*** هل يمكن لهذا الوضع أن يتغيّر؟ هل هناك أي مستقبل يلوح في الأفق لدولة مصر؟**

شهد البلد حدثاً على قدر كبير من الأهمية بقدر ما هو جديد، إنها الثورة التي قادها الشعب، ولأول مرة، بمفرده، دون أي دعم من الجيش. ففي حال كانت الغلبة للقوى الديمقراطية، تستطيع مصر أن تحذو حذو البرازيل في المنطقة ومن دون أي عناء.

نذكر هنا أن البرازيل عاشت ظروفاً مشابهة للظروف التي تعيشها مصر حالياً، البرازيل دولة غنية جداً بثرواتها، وكانت خاضعة لحكم العسكر، في حين ارتبطت نخبة قليلة من الشعب بدول أجنبية. كذلك الأمر لتركيا، فقد عانت المشكلات نفسها، لكنها أصبحت اليوم كما نشهد، قوة إقليمية لا يستهان بها، وواثقة بقدراتها. الموضوع مفتوح أمام مصر، وهذا ما يخيف القوى العظمى في عصرنا هذا.

ويبقى هناك خيار على قدر من الأهمية، يطرح نفسه بقوة. إنه الخيار بين شكلين من أشكال رؤوس الأموال؛ فمن جهة، هناك رؤوس أموال اللصوص الذين يحققون أرباحاً طائلة غير آبهين بالثمن الذي سيتم دفعه بالمقابل، حتى لو أدى بهم الأمر إلى تدمير النسيج الاجتماعي والاقتصادي المحلي، ومن جهة أخرى، هناك رؤوس الأموال التي تحقق أرباحاً بلا أدنى شك، لكن بهدف تطوير الأمة بكل أطيافها مع أخذ الأهداف الداخلية في

الحسبان، كما هي الحال في دولة الصين. تستطيع مصر إقامة علاقات جديدة مع دولة السودان في سبيل المثال، كما تستطيع ذلك مع دول أُخر في المنطقة، وعلى مستوى القارة. فإذا تمّ تأسيس تكتّل اقتصادي إقليمي، مستقل بذاته، لا يتبع لأحد، عندئذ ستشهد المنطقة مستقبلاً زاهراً...

*** باختصار، يذكرنا هذا بالمشروع الكبير الذي خطط لإقامته محمد علي، ثم تلاه عبد الناصر من بعده...**

نعم، لكن ضمن ظروف أكثر ملائمة. فإذا تم الاختيار الأمثل فإن مستقبل هذا البلد سيصبح رائعاً...

قائمة المراجع:

- Zaalouk Malak, Power, class and foreign capital in Egypt. The rise of the new bourgeoisie, London, Zed Books; 1989.

- Anouar Abdel-Malek, l'Egypt modern. Idéologie et renaissance nationale, Ed. L'Harmattan, 2005.

- P.J. Vatikiotis The Modern History of Egypt, Ed. Praeger, 1969.

- John R. R. Bradley, Inside Egypt: The Land of the Pharaons on the Brink of a revolution, Ed Palgrave Macmillan, 2008.

- Shoukri, Ghali. Egypt, Portrait of a President, 1971-1981: Sadat's Road to Jerusalem. London : Zed Press, 1978, 1981. 475 p.

تركيـــا
تلك القوة الصاعدة التي باتت
تستأثر بثقة الجميع

كان هذا البلد الشاسع فيما مضى مركزاً لإمبراطورية مترامية الأطراف، تشمل كلاً من تركيا الحالية، وأرمينيا، ودول البلقان، ودول أوروبا الوسطى، وسورية، وفلسطين، والعراق، والعربية السعودية، لتصل حدودها إلى شمال أفريقيا. كيف تمكّنت هذه السلطنة العثمانية من إقامة علاقات مع دول مثل بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا، وفي الوقت عينه الدخول معها في صراع؟ هل كان لهذا التاريخ أثرٌ في المجتمع التركي الحالي؟ لماذا كان هذا البلد ولفترة طويلة، بيدقاً للولايات المتحدة الأمريكية، وحليفاً مهماً لاسرائيل؟ ولماذا يتخلّى عنهما الآن؟ هل سيندمج في أوروبا أم سيتبع طريقاً خاصاً به لإنشاء تحالفات إقليميّة؟ ومن أين يستمد هذه الثقة الجديدة؟



لمحة سريعة عن تركيا:

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** أنقرة
- **المساحة:** ٧٨٠ ٥٨٠ كم٢ .
- **تعداد السكان:** ٥٤٨ ٧٨٥ ٧٨ **(**أي بمعدّل ٩٢.٦ نسمة **/** كم٢**).**

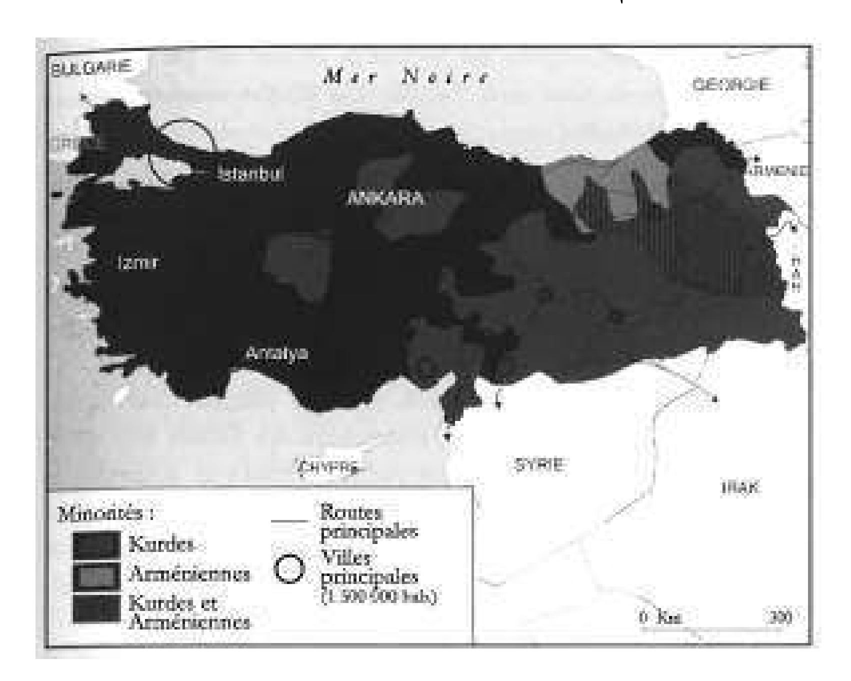
على الصعيد الاجتماعي:

- **النسيج الاجتماعي:** يشكّل المذهب السنّي الحنفي الغالبية العظمى للسكان، في حين يشكّل الأكراد أقليّة ذات شأن، وهم يتمركزون في جنوبي و شرقي البلاد، أما العرب فهم أقليّة أيضاً، ويتمركزون على الحدود المشتركة مع سورية.

- **متوسط العمر:** ٥، ٧٢ عاماً ونصف العام.

- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: %** ٢٦.٦

- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: %** ٨٧.٤



تمركز الأقليات:

الأكراد

الأرمن

أكراد وأرمن

الطرق الرئيسة

المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ١ ٥٠٠ ٠٠٠

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية برلمانية تحوّل الآن إلى جمهورية رئاسية.
- **رئيس الدولة:** رجب طيب أردوغان **(**في المنصب منذ ٢٨ آب ٢٠١٤**)**.
- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٢٣ **(**نتيجة تفكّك السلطنة العثمانية وانهيارها**)**.

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ٧٩٨,٩ مليار دولار **(**٢٠٠٨**)**
- **الموارد:** صناعة السيارات، والصناعات التحويلية، والزراعة والسياحة.
- **معدل النمو:**% ٨.٩ **(**٢٠١٠**)**.
- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ١٢.٠٠٠ دولار **(**٢٠٠٨**)**.
- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠.٦٧٩ **(** تحتل المرتبة ٨٥**)**
- **نسبة البطالة:** % ٩.١
- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** % ١٨.١ عام ٢٠٠٩ **(**مقابل ١٧.١% عام ٢٠٠٨**)**.

*** قلّةٌ اليوم تعرف ماضي تركيا العريق، الأوروبيون منهم على نحو خاص. كيف تأسّست هذه السلطنة العثمانية؟ وكيف نجحت في توسيع دائرة ملكها؟**

يعود أصل القبائل التركية إلى شمال دولة الصين، حيث اتخذوا موطناً لهم منذ القرن الحادي عشر، لذلك نجد اليوم أكثر من مئتي مليون إنسان يتكلمون اللغة التركية، أو إحدى لهجاتها في منطقة الأناضول والقوقاز

(أذربيجان)، وبشكل خاص في آسيا الوسطى (تركستان، أوزباكستان، كازاخستان، كيرغستان وغرب الصين).

ظهر الدين الإسلامي في القرن السابع الميلادي لينتشر بسرعة فائقة، وانتهت موقعة البصرة بانتصار المسلمين على دولة الفرس، واستسلام الإمبراطور الفارسي واعتناقه الدين الإسلامي. ولم يبقَ في المنطقة إلّا تلك القوتان العظميان: الإمبراطورية الرومانية في المشرق من جهة، والسلطنة العثمانية من جهة أخرى.

*** هل هذا يعني أن الإمبراطورية البيزنطية خلفت الإمبراطورية الرومانية- التي انهارت عام ٣٩٥- كما خلفت الإمبراطورية الرومانية التي تلتها في المشرق؟**

نعم، كانت هذه الإمبراطورية تسيطر على الأراضي التي احتلتها تركيا فيما بعد، وقد اتخذت من القسطنطينية عاصمة لها (إسطنبول حالياً). لقد تحوّل مركز ثقل الإمبراطورية الرومانية نحو المشرق، غير أن حالة الضعف بدأت تسيطر على الإمبراطورية البيزنطية نتيجة مشكلتين، تمثّلت أولاهما في الصراع القائم بين الكنائس الأورثوذوكسية- اليونانية من جهة، والأرمنية من جهة أخرى- في حين تجسّدت المشكلة الثانية في الصراع الذي نشب بين الأقباط المصريين واليونان.

*** من «جهة أخرى»، أي لم تكن تُعرف آنذاك باسم تركيا؟**

كلا، شهدت هذه الأرض في الفترة التي سبقت القرن الرابع عشر تعاقب دول عدة: الدولة التي أسسها شعب الإيوغور القادم من الصين، تلتها دولة الهانز، ثم الآفار والكازار، إلى جانب دول أُخر، أسّست دولها في

المنطقة، واشتهرت بعدم استقرارها. ثم أُنشئت السلطنة العثمانية عام ١٢٩٩ ميلادية، نسبة إلى مؤسسها عثمان الأول الذي تولّى توحيد الأتراك تدريجياً.

*** ما الرهان الذي أجّج الصراعات ما بين الإمبراطورية البيزنطية والسلطنة العثمانية؟**

من المعلوم أن الإغريق كانوا يشكلون ما يسمى بالقوة الإمبريالية العظمى. لكنها إمبريالية مختلفة عن مفهومنا المعاصر الذي بموجبه يبادر النظام الرأسمالي إلى تصدير رؤوس أمواله وبضائعه إلى أي مكان يستطيع الوصول إليه، حتى لو اضطر إلى استخدام القوة العسكرية. بيد أن الأمر كان مختلفاً في ظل الإمبراطوريات القديمة، حيث كان يتم إنشاء مركزٍ للسلطة، لجمع الضرائب التي تجبى من الشعوب والقبائل التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار. وفي كل الأحوال، عمل انهيار الإمبراطورية البيزنطية على تسهيل التوسع الإسلامي في مصر، وصولاً إلى دول المغرب ليبلغ إسبانيا. وأخيراً وفي عام ١٤٥٣، تمكّن العثمانيون من بسط نفوذهم على مدينة القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي استسلم حكامها بعد سقوطها.

*** هل هذا يعني أن السلطنة العثمانية احتلّت جزءاً من القارة الأوروبية؟**

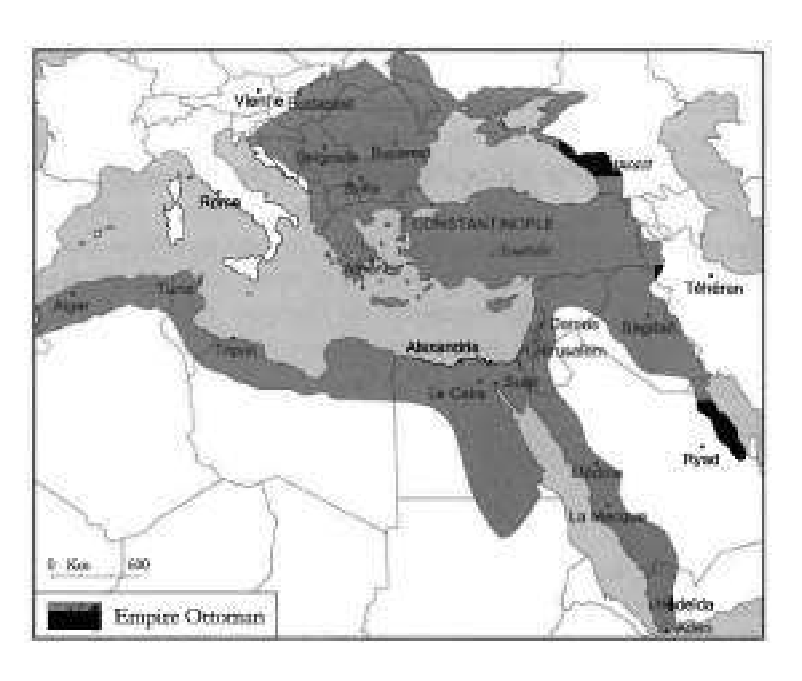
نعم، بل جزءاً مهماً منها. نذكّر هنا أن القرن الرابع عشر كان شاهداً على ضعف أوروبا، نتيجة وباء الطاعون الذي نزل بها، وأودى بحياة ثلث عدد السكان. حقق العثمانيون من جهتهم، انتصارات عظيمة في المعارك الكبرى التي خاضوها ما بين ١٣٨٩ و١٣٩٦ في الكوسوفو (ضد الصرب)، وفي بلغاريا ومقدونيا. كما احتلوا الأراضي الهنغارية عام ١٥٢٦، وانتهى بهم الأمر عام ١٦٨٣ بالوصول إلى فيينا، غير أن النصر لم يكن حليفهم.

*** لما كنّا على مقاعد الدراسة، كانوا يصورون لنا هذه الحقبة من التاريخ بأنها صراع نشب بين الديانتين المسيحية والإسلامية...**

الموضوع ليس بهذه البساطة. لقد تحالف الصرب مع المسلمين في معركة مقدونيا. بل شهدت العلاقات بين النمسا وهنغاريا توتراً. وثمة بعض الملوك من وقّع تحالفاً مع العثمانيين، مثل ملك بولونيا.

*** إذاً تمّ ذلك من أجل مصالح أُخر؟**

نعم. حاولت طبقة النبلاء في ظل النظام الإقطاعي السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي، من أجل اقتطاع أكبر قدر ممكن من الضرائب من طبقة الفلاحين والتجار.



السلطنة العثمانية في ذروة مجدها، عام ١٦٨٣

*** نستخلص، مما تقدم، أن السلطنة العثمانية سيطرت على أراضٍ شاسعة، عُرفت باختلاف دياناتها. فما الموقف الذي اتخذته السلطات العثمانية تجاه الأقليات الدينية؟**

لم تعرف تلك الحقبة الزمنية ما يسمى اليوم بمفهوم المواطنة الذي يحفظ لكل طرف حقوقه. لقد ولد هذا المفهوم فيما بعد، وبالتحديد عقب اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. مع ذلك، كان هناك ما يسمى بقانون «الذميّين» (وهو عبارة عن مجموعة من القوانين الإسلامية، تعمل على تنظيم التعايش السلمي بين المسلمين وغير المسلمين)، كان هذا القانون يقدّم الحماية والأمن للأقليات الدينية من غير المسلمين، مقابل ضريبة يدفعها هؤلاء للدولة، مع التزامهم بعدم حمل السلاح ضدها. فكانت الديانة المسيحية تمثّل أهم هذه الأقليات التي توزعت جنسياتها بين الأرمن واليونانيين. يجب أن نشير هنا إلى أنّ السلطنة العثمانية كانت تختار كثيراً من سفرائها من أولئك الذين يدينون بالديانة المسيحية.

*** هل كانت السلطنة العثمانية قوية على الصعيد الاقتصادي؟**

نعم، كان اقتصادها قوياً في تلك الحقبة، أي قبل قيام الثورات الصناعية في القرن التاسع عشر الميلادي في دول أوروبا الشمالية. انصبّت أهم إنجازات السلطنة العثمانية على الصعيدين الزراعي والاقتصادي، فامتدت شبكاتها التجارية إلى بلاد الصين، كما سيطرت على دول شمالي أفريقيا، وأنشأت قواعد عسكرية في البحر الأحمر... نذكر أنه في القرن السادس عشر ميلادي أعدّ الصدر الأعظم سوكولو محمد باشا، مشروعاً لإقامة قناة في مدينة السويس!

إنما، بعد فترة وجيزة، وجدت هذه الإمبراطورية نفسها غارقة في الاقتتال الداخلي من أجل الدفاع عن سياستها المركزية. بالفعل، كانت هناك محاولات على مستوى المقاطعات والمناطق - أي ما يعرف بالولايات- التابعة لها لنيل الحكم الذاتي، كمحاولة محمد علي في مصر. لقد عمل هذا الصراع بين السلطة المركزية والمناطق التي تسعى إلى الانفصال عنها على إضعاف السلطنة في مواجهة بقية الدول العظمى. من جهتها، أحرزت بريطانيا العظمى تقدماً سريعاً في مجال الصناعة، جعل منها دولة عظمى متفوقة. نتج عن هذين العاملين إقامة تحالفٍ بين العثمانيين والبريطانيين من أجل إخماد حركة محمد علي، والحيلولة دون تنفيذه لخططه الإصلاحية، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق.

إنما، ما لبثت هذه السياسة أن تعرّضت لمقاومة كل من روسيا القيصرية وفرنسا. بدأ نفوذ فرنسا يتفاقم، وكانت تثير باستمرار«المسألة الشرقية» بهدف إعادة تقاسم السلطنة العثمانية. بات هذا الرهان محور تنافسٍ رئيس بين الدول العظمى.

*** ما الطبقات الاجتماعية التي تكوّنت منها السلطنة العثمانية؟**

إضافة إلى رجال البلاط الملكي، كان هناك جهاز البيروقراطية، الذي كان يعمل تحت إمرة السلطان، إضافة إلى طبقة الفلاحين. تلك هي طبقات المجتمع الرئيسة في تلك الحقبة الزمنية. إنما في المقابل، كانت هناك طبقات اجتماعية أُخر، تسعى جاهدة إلى الظهور... إذ إن الضعف بدأ يتسرّب إلى داخل هذا المجتمع، فبدأت الشائعات تدور حول هذا «الرجل المريض» الذي يمثّل السلطنة العثمانية. فما كان من الروس والبريطانيين والفرنسيين إلّا المطالبة بحقهم في «حماية الأقليّات المسيحية داخل السلطنة العثمانية»...

*** بتعبير آخر، هل كان الموضوع عبارة عن «تدخل إنساني» كما يقال اليوم؟**

تماماً. إلّا أن الدوافع الحقيقية كانت اقتصادية وسياسية، كما هو عليه الأمر في يومنا هذا. لقد عملت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى على تطوير نظام متكامل، خاص بالقروض التي كانت تُمنح للسلطنة العثمانية. إلى جانب ذلك، لم يأت موضوع مواطنة الأقليات المسيحية عبثاً، فقد خرجت فيما بعد من هذه الأقليات -ولا سيّما طائفتي الأرمن واليونان- طبقة البورجوازية المحليّة التي تسعى إلى تحقيق ثروتها عن طريق التجارة الخارجية (راجع «إيران» فصل بورجوازية الكمبرادور والبورجوازية الوطنية، ودورهما المتباين) بدعمٍ وحماية من سفراء الدول الأوروبية. فكانت هذه القروض وتلك الأقليات هما العاملين اللذين عملا على إقحام السلطنة العثمانية في النظام الرأسمالي الأوروبي.

*** ماذا تقصد بكلامك؟**

كانت السلطنة العثمانية فيما مضى تعيش وفق منطقها الخاص: بمعنى أن الطبقات الاجتماعية المحليّة كانت تدير اللعبة لصالحها. كما كان كل من بلاط السلطان، والجهاز البيروقراطي، والقوات المسلحة، والمؤسسات الدينية تعيش على الضرائب التي يتم اقتطاعها من مزارعي المقاطعات المحتلّة، حيث لم يكن هناك وجود لمفهوم السوق الحقيقي الذي يتم فيه التبادل التجاري كما هو سائد في يومنا هذا. وكانت طبقة الفلاحين تتمتع باستقلاليتها، واشتهرت بعض المناطق بخصوبة أرضها كالأناضول، ولم يكن من العسير إرساء النظام الضريبي وفقاً لهذه الثروات. خُصِّص الجزء الأكبر من حاجات السلطة المركزية لصالح القوات المسلّحة، لكن هذه الحاجات لم تكن لتتزايد إلّا في زمن الحروب.

*** «الرجل الضعيف»، هل هذا يعني أن أمور السلطنة كانت سيئة جداً؟**

نعم. لقد أُثقل كاهلها بالقروض التي كانت تنهال عليها من الدولتين العظميين، فرنسا وبريطانيا، وكادت تختنق تحت وطأتها. عندئذٍ ظهر في الساحة الإمبريالية لاعبٌ جديد، ألا وهو الإمبراطورية الألمانية. يتعيّن علينا من أجل الإلمام بالسياق العام للأحداث، العودة إلى عام ١٨٧٣، ذلك العام الذي تفجّرت فيه أول أزمة اقتصادية كبيرة للنظام الرأسمالي، التي انتهت بتسوية الجزء الأكبر منها على حساب السلطنة العثمانية، عن طريق منحها المزيد من القروض. فكان لا بد من إنشاء دائرة متخصصة لمراجعة القروض، والتأكد من سدادها...

*** كأني بك تحاول أن تقول لنا إن المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي المعاصرَين لم يأتيا بشيء جديد!**

بالفعل، كانت المصارف الأوروبية الكبيرة هي السبّاقة في هذا المجال. إذاً أعود إلى ما قلته، لقد أسهم كل من ضعف السلطنة العثمانية، وهذا الشكل الجديد من السيطرة الاقتصادية للدول الأوروبية العظمى، في إحداث تغيير في بنية هذا المجتمع، فظهرت داخل السلطنة العثمانية طبقة البورجوازية التي تبني ثروتها على التجارة الخارجية - وتعرف ببورجوازية الكمبرادور- وتحولت إلى لاعبٍ مهم في الساحة. لم يكن للمسلمين أي تمثيل ضمن هذه الطبقة الجديدة، نظراً لندرة وجودهم في فئة التجار. غير أن العلاقات بدأت تتوطد تدريجياً بين المصارف العالمية وهذه الطبقة البورجوازية الجديدة الصاعدة. أراد العثمانيون الحفاظ على نظامهم الضريبي والاقتصادي،

فوافقوا على فكرة استيراد رؤوس الأموال، غير أنهم لم يكونوا ينظرون بعين الرضا إلى عملية تصدير الثروات والبضائع.

*** ولماذا كانوا يرفضون تصدير البضائع إذا كان في ذلك دعمٌ لثرواتهم؟**

كانت هذه التجارة تبدو لهم ذات فكر مسيحي، تتنافى مع مصالحهم وفلسفتهم؛ فقد كان يتحتم عليهم اتباع سياسة الانفتاح على العالم الخارجي، والاندماج في الاقتصاد الأوروبي بشكل أقوى. في حين كان جهاز البيروقراطية من طبقة الإقطاعيين الأتراك يعيش على الضرائب التي كان يقتطعها من الفلاحين، أما فيما يخص تنمية عملية التصدير، فكان لا بد لهم من إعداد طبقة جديدة من الفلاحين الأغنياء، إلى جانب تقديم الدعم اللازم لهم، من أجل تشجيع القدرة الإنتاجية، بيد أن ذلك كان يتنافى مع مصلحة الحكام، خشية إقدام هذه الطبقة الجديدة على إقصاء الجهاز البيروقراطي القديم.

ومع ذلك، كان ميزان القوى يتطور في غير صالح السلطات العثمانية، ونتج عن هذا التطور ازدياد في معدّل الديون، وارتقاء الطبقة البوجوازية الجديدة، ونمو في السلطة المالية للنظام المصرفي الدولي. لعبت كل تلك العوامل دوراً سلبياً في السلطنة العثمانية التي شهدت تراجعاً ملحوظاً في استقلالها الاقتصادي والسياسي على حدّ سواء. وفجأة وجدت السلطنة نفسها مجبرة على تصدير بضائعها، وبيع المواد الأولية للقوى الأجنبية، واتباع سياسة الانفتاح.

إنما، نشير هنا إلى أن هذه الخطوة، أي سياسة الانفتاح الاقتصادي لبلد ما أو لمنطقة ما، تستدعي إجراء تغييرات جذرية في البنى التجارية وأساليب

الإنتاج والزراعة المتبعة محلياً. حتى إن الطابع المميز لطبقة الفلاحين شهد تطوراً جديداً، وخضع توزيع العمل لتغيير كبير. وبداعي الحفاظ على مصالحها، تركت الدول العظمى بصمتها على هذه التطورات، وغالباً ما لجأت إلى هدم بنية الاقتصاد وتدمير المنتجات المحليّة. ففي سبيل المثال، فرضت بريطانيا العظمى قوانينها على المستعمرات التي كانت تحت إمرتها في دائرة الصناعات النسيجية، وكي تضمن لنفسها عملية الاحتكار، كانت تعمد إلى تدمير من قد تجد فيه منافساً محلياً لها.

كان لكل ذلك انعكاساته على السلطنة العثمانية التي باتت تعاني من الفقر، ما أثار حفيظة المجتمع وغضبه. وفي الوقت عينه، ظهرت من داخل الجهاز البيروقراطي، طبقة بيروقراطية جديدة، تتقن لغات عدة، اتجهت نحو أوروبا، نظراً لتضارب مصالحها مع مصالح البيروقراطيين المحافظين. ذهبت هذه الفئة إلى أوروبا، بهدف إتمام دراستها، وجلبت معها حين عودتها إلى البلاد أفكاراً جديدة، منها إجراء تحديثٍ وفق الطريقة الغربية.

*** ما أثار ابتهاج الأوروبيين بلا شك؟**

على العكس تماماً. حاولت طبقة البيروقراطية الجديدة الصاعدة تطبيق نظام سياسي مستمد من دول الغرب، بعد أن أطاحت بالسلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، فكانت لها تلك الدول الأوروبية بالمرصاد، فقد تصدّت للاندفاع الذي أبداه هؤلاء المصلحون! إذ لم تكن هذه الدول تتطلع إلى تأسيس سياسة متطورة، ترتكز على نظام دولة، قوامها بنىً ثابتة، بل كان هدفها استثمار اقتصاد هذه السلطنة، بما يعود عليها بأكبر قدر ممكن من المنفعة.

*** معنى ذلك أن هذه الطبقة البورجوازية الجديدة لم تتمكّن من تطوير نفسها على النحو الذي كانت تحلم به؟**

يمتلك النظام الرأسمالي منطقه الخاص به، وزخماً معيّناً يعمل عليه. فما إن تقوم بحقن هذا النظام في إمبراطورية ما، وتتيقّن أن السوق التجاري قد استقر وضعه، تتجلّى أمامك التناقضات. لقد نجحت هذه الطبقة البورجوازية المسيحية الجديدة (الكمبرادور) في جمع ثروتها وسلطاتها وكذلك معارفها، كما أنها لم تتوانَ عن فرض مرجعياتها الثقافية الجديدة وأيديولوجيتها المتجهة نحو الغرب.

إلّا أن منجلة الدول الغربية العظمى المصوّبة إلى السلطنة العثمانية كانت ملزِمة؛ فقد ادعى الروس الدفاع عن المذهب الأورثوذوكسي، وأكّد الفرنسيون من جانبهم ضرورة حماية المذهب الكاثوليكي، ولما عجز البريطانيون عن إيجاد المذهب البروتستانتي في الأراضي المستهدفة، أعلنوا تضامنهم مع اليهود حفاظاً على سلامتهم.

لكن في حقيقة الأمر، لم يكن هناك أي شكل من أشكال الحماية. هذا ما يمكن أن يُطلق عليه تعبير الدبلوماسية الإمبريالية التقليدية. وكان له الأثر الأكبر في الأقليات المسيحية، ولا سيّما الأرمن واليونان، في إثارة الشعور القومي لديهم.

*** إذاً، لا بد وأن حصلت مواجهة بين تلك الدول العظمى المتصارعة التي كانت تناضل من أجل بسط هيمنتها داخل السلطنة العثمانية، أليس كذلك؟**

بالفعل. سبق وذكرنا في الفصل السابق أن الألمان عملوا على تعزيز قوتهم، وطالبوا -بإلحاح - بإجراء تقسيمٍ جديد للعالم، من أجل استعادة المستعمرات التي استأثرت بها لندن وباريس.

انطلاقاً من الأزمة الاقتصادية الكبيرة التي مرّ بها النظام الرأسمالي عام ١٨٧٣، التي تكرر حدوثها عام ١٩٠٠، اعتقد الفرنسيون والبريطانيون أن قرار تجزئة السلطنة العثمانية لهو بالأمر الصائب.

واكب ذلك ظهور عدد كبير من الصحف داخل السلطنة في ذلك الوقت، وتصدرت الأقلية الأرمنية الصحف بأكثر من ثلاثمئة عنوان! كما افتُتِحت مراكز ثقافية ومتاحف إلخ... كل ذلك، كان من نتاج الطبقة البورجوازية البسيطة (المكونة من الحِرفيين والتجار والأساتذة... إلخ) التي ولدت بالتزامن مع دخول النظام الرأسمالي في البلاد. كان لهذه الوفرة الثقافية والفكرية التي ظهرت لدى الأقلية المسيحية الأثر المذهل، بالمقارنة مع الأغلبية الساحقة من المسلمين الذين كانوا يعيشون ضعفاً في هذا المجال، والذين لم يحصلوا على القدر اللازم من التربية والثقافة، خلافاً للطبقات العليا من رجال الدين وضباط الجيش والإداريين الجدد.

*** وطبعاً، انبثق من هذه الطبقات جيل جديد من «الشبان الأتراك»...**

تماماً، فقد شهد عام ١٨٨٩ ولادة الحزب الإصلاحي والقومي الراديكالي أو المتطرّف، الذي لعب دوراً مهماً فيما بعد، فبدأ بتوجيه اللوم إلى السلطان، لرضوخه أمام الضغوطات الأجنبية، كما أراد وضع حدٍّ لتسلطه، وللأعمال الوحشية التي كانت ترتكب في عهده.

النزعة القوميـة والدولـة القومية

لم يكن لمفهوم القومية أي أثر على مدار الأزمنة الساحقة، إذ كان البورجوازيون هم أول من ابتكر هذا التعبير. كانت الإمبراطوريات الإقطاعية القديمة تحكم مجموعات مختلفة من القبائل والمجتمعات، عرفت بتنوع لغاتها وعاداتها.

إنما، حينما تظهر في مثل تلك المجتمعات الطبقة البورجوازية التي تعمل في التجارة أو في الإنتاج، فإنها ستحتاج حتماً إلى الاستئثار بأرض خاصة بها، عندئذ ستتخذ من الديانة أو الثقافة ولا سيّما اللغة، وسيلة من أجل التخطيط للانفصال عن الدولة الأم، وتأسيس دولة خاصة بها، كي تتمكن من السيطرة على المجال الاقتصادي، وستلعب اللغة المحلية الدارجة في هذه المرحلة دوراً فعّالاً، وستُستخدم كلغة رسمية في الإدارة والسياسة.

تأسيس الدولة من أجل تلبية الحاجات الاقتصادية

من المعلوم أنه يتحتم على البورجوازية السيطرة على الأرض من أجل إنشاء سوق خاص بها وتنظيمه؛ فهي تحتاج من أجل تحقيق هذا الهدف، إلى إدارة، وإلى لغة واحدة. ففي فرنسا - في سبيل المثال - التي تتقن لغات مختلفة، ولهجات محلّيّة عدّة، فرضت في الإقليم الوطني لغة الطبقة البورجوازية التي كانت تستعمل في منطقة باريس. وعلى هذا الأساس، أنشأت الطبقة المسيطرة نظاماً تربوياً، وسخرته لخدمة مصالحها الاقتصادية.

في حين تمّ إنشاء الدول القومية في أوروبا باستخدام القوة عن طريق الغزو. تأسست هذه الدول القومية في فرنسا أو بلجيكا في وقت مبكر، لذا كانت هذه الدول سبّاقة في بناء اقتصادها، وتوحّدت الأقاليم في كل من إيطاليا وألمانيا في وقت متأخر، نحو العام ١٨٧٠، ما تسبب في تأخير تطورها وإفشال محاولاتها في الغزو الاستعماري. إنما في حقيقة الأمر، بذلت كل من لندن وباريس كل ما تستطيعانه من أجل منع ألمانيا من تحقيق هدفها بإقامة دولتها الحديثة، فهي إن نجحت في ذلك، فستلعب دور المنافس الخطير لها (وقد حدث ذلك فعلاً فيما بعد). لذا عمدت إلى تعطيل الهدف الألماني، بالاستعانة بأسرة الهابسبورغ التي تقود الإمبراطورية النمساوية الرجعية، مما اضطر ألمانيا - في بداية الأمر - إلى الرضوخ، والاكتفاء بتأسيس الاتحاد الجمركي بين أقاليمها، قبل أن ينتهي بها الأمر بالاستعانة بالقوات البروسية، لتوحيد هذه الأقاليم ضمن دولة واحدة.

هل هو امتياز غربي؟

لم يتم تشكيل دول قومية وفقاً للأنموذج الأوروبي في الوطن العربي أو في أفريقيا. فقد لجأ المستعمرون إلى فرض نظام الدول متعددة الأعراق، ومنعوا تطوير نظامٍ تربوي مركزي؛ فعملوا بهذه الطريقة على تجميد فكرة التوحيد اللغوي (مع ندرة وجود استثناءات كما في الصومال وبوروندي). لم تقم البورجوازية القومية بثورات ديمقراطية تسمح بتأسيس دول حديثة وقوية على غرار ما حصل في أوروبا، مما يفسّر سبب تأخر النمو الاقتصادي.

تميّزت هذه الفترة بكونها عظيمة ومزدهرة للأقليات بشكل عام، فعرف اليهود انفتاحاً ثقافياً. ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى، آتت هذه

القومية أُكُلها. نشر اليونانيون بدورهم، أسطورة «اليونان العظيمة» التي كانت لهم بمنزلة ملجأ ودولة في آن واحد. وبما أن هذه الأقليات المختلفة تحظى «بحماية» موجّهة من عدد من الدول العظمى التي تبحث عن طريقة لتجزئة السلطنة العثمانية، اعتقدت الإمبراطورية الألمانية أن من مصلحتها تقديم الحماية للعثمانيين، واتخاذهم حلفاء لها. فعملت على بناء السكك الحديدية، وكشفت عن شغفها للحصول على المواد الأولية والثروات الزراعية.

في خضم هذه التوترات المستمرة، ظهر على الساحة لاعب جديد، إنها مضغة البورجوازية المسلمة، جاءت متأخرة ومغبونة، قياساً إلى باقي الطبقات البورجوازية التي حظيت بالحماية والتشجيع.

*** غير أن الحرب العالمية الأولى لعبت دوراً مهماً في قلب موازين اللعبة، إذ إن السلطنة العثمانية كانت حليفاً لألمانيا. فما النتائج التي ترتبت على المنطقة إبان الهزيمة؟**

استغل كل من الفرنسيين والبريطانيين الموقف من أجل تجزئة السلطنة العثمانية؛ فكان عام ١٩٢٣ شاهداً على مولد تركيا الحديثة بعد التوقيع على معاهدة لوزان، فقد استُبدلت كلمة السلطنة بالجمهورية. كما أُجريت تعديلات جذرية على خريطة المنطقة. اقتصرت أراضي الجمهورية التركية على منطقة الأناضول (في قارة آسيا) ومنطقة تراسيا الشرقية (في قارة أوروبا) في مقابل تنازلها عن ولاياتها العربية. عندئذٍ، اتخذت كل من مصر وليبيا طابع الدولة؛ في حين تمّ تقسيم باقي الأراضي وتقاسمها، فتحوّل كل من سورية ولبنان إلى محميتين تحت إمرة فرنسية، وتحوّل كل من العراق

وقبرص إلى محميتين تحت إمرة بريطانية. في المقابل، بقي الأكراد في ظل السلطة التركية التي رفضت منحهم دولة مستقلة، ما أدى إلى نشوب صراع مستدام مع الدولة التركية، لا نزال نشهده حتى يومنا هذا.

لحقت الهزيمة بالأرمن واليونان الذين لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم بإقامة دولة اليونان العظيمة. أما حركة «الشبان الأتراك» التي كانت سبباً في عزل السلطان عبد الحميد الثاني، فقد باتت تستقطب اهتماماً متنامياً.

*** معنى ذلك أن حركة «الشبان الأتراك» لا تنحدر من أصل تركي؟**

هذا صحيح. تألفت هذه الحركة من أفراد جاؤوا من المناطق التي فقدت السلطنة العثمانية السيطرة عليها بسبب الحروب، نذكر بالأخص مناطق آسيا الوسطى التي عمد الروس إلى ضمها إليهم. وكان مصطفى كامل، قائد هذه الحركة، وقد لُقّب فيما بعد بأتاتورك (أي أبا الأتراك) من أصلٍ مقدوني. يبدو كل ذلك سهل الإدراك، القوميون المتشددون في تركيا ليسوا سوى نخبة في المنفى، وينحدرون من مناطق كانت تخضع للنير العثماني، حيث كان المسلمون يتعرضون للاضطهاد وغالباً للمجازر، كما هي الحال في اليونان وبلغاريا وغيرهما...

باشرت القومية التركية، في الفترة ما بين ١٩١٨ و ١٩٢٣، أي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تأسيس دولتها في منطقة الأناضول، وأعلن أتاتورك عن رغبته في حماية الناطقين باللغة التركية، ما خلق توتراً مع الأرمن واليونانيين، انتهى بهزيمتهم.

*** كيف تُفسّر الإبادة الجماعية التي نُفذتْ ضد الشعب الأرمني في مطلع القرن العشرين؟**

اجتهدت الدول العظمى الإمبريالية التي استعمرت المنطقة، في تحريض الشعوب ضد بعضها، تمخّض عن ذلك ظهور مواجهات بين قوميات كثيرة، وبادرت السلطنة العثمانية من جهتها إلى تجنيد طبقة الفلاحين المسلمين، مع الترويج لإيهام العالم أنها حرب دينية. وهذا أمر مؤسف للغاية.

*** كنتيجة منطقية لتلك الصراعات: تضاءل عدد السكان من الطائفة المسيحية...**

بيد أننا رأينا سابقاً أن هؤلاء المسيحيين هم من يؤلفون في غالبيتهم القاعدة الشعبية للبورجوازية، ويشكلون المحرك الأساسي للاقتصاد، إذ لم يكن المسلمون قد انطلقوا بعد في نشاطهم الاقتصادي، في حين اكتسب المسيحيون الخبرة، وأسسوا شبكات تجارية متينة. وها هم أولاء يرحلون إلى المنفى كما حصل مع مجهّز السفن الشهير، والواسع الثراء، أوناسيس.

*** هل اتسمت الدولة التركية المستحدثة، بطابع تقدمي واضح في بداياتها؟**

حتماً. استلهمت هذه الحركة أفكارها حين نشأتها، من أفكار الثورة الفرنسية التي اندلعت عام ١٧٨٩. تبنّت الدولة التركية دستوراً جمهورياً وتقدمياً، حتى إن دستورها الذي يلي في ترتيبه دستور فنلندا، سجل نجاحاً لا مثيل له في تلك الحقبة. حظيت المرأة عبره بحقوق كثيرة، ولا سيّما فيما يتعلق بالسياسة، كحقها في الإدلاء بصوتها في الانتخابات، فسبقت بذلك المرأة الفرنسية في هذا المضمار بخمسة عشر عاماً!

كما شملت إصلاحات «الشبان الأتراك» تبنّي برنامج إضفاء طابع «التتريك»، فقد قرروا استبدال اللغة العربية المستخدمة في الدوائر الحكومية، باللغة التركية التي استمدت حروفها من الأبجدية اللاتينية بدلاً من الأبجدية العربية، وذلك دعماً للدولة الناشئة. تشكّل اللغة عاملاً مهماً جداً في سبيل تطوير الدولة، وإنشاء سوق خاص بها.

لنأخذ - في سبيل المثال - بلداً مثل إندونيسيا أو الصومال اللتين كانت تقاليدهما شفهية بسبب كونها غير مدوّنة. أحرزت هاتان الدولتان تقدماً ملحوظاً باختيارهما للأبجدية اللاتينية، وتسخيرها لتنسجم مع اللغة المتداولة في البلاد. نتيجة لذلك، يستطيع أي أحد استخدام لوحة مفاتيح الحاسوب، وإرسال رسالة، على الرغم من غياب الحكومة، وعلى الرغم من الوضع السيئ للدولة التي دمرتها سنوات الحرب الطويلة. في حين إذا تابعتَ الوضع في بلاد الكونغو، يبدو لكَ الأمر مختلفاً تماماً ولكن بصورة مأساوية. لا تستطيع طبقات الشعب - على اختلافها - مطالعة الصحف، أو حتى استيعاب البرامج المتلفزة التي تُبثُّ باللغة الرسمية للبلاد.

نستخلص من ذلك أهمية موضوع اللغة، فهي تستطيع تحديد، وبطريقة قاطعة، مستقبل أمة برمتها. يستطيع اليوم أي طالب متابعة دراسته الجامعية في كلية الطب باللغة التركية دون حاجته إلى لغة وسيطة.

بالعودة إلى الوضع في تركيا، في عصر التحديث، يتحتم علينا أن ندرك أنه لو لم تعمل النخبة القليلة من الطائفة المسيحية على تنمية الشعور القومي، أو اختارت التحالف مع الأتراك، واضعة تجاربها في خدمة بناء دولة متعددة الجنسيات، لتولّد عن ذلك دولة متقدمة، أكثر قوة، وأكثر تطوراً مما هي عليه

اليوم. إنما يجب علينا أن ندرك أن القومية فكر يمكن أن يولِّد تناقضاً، وتفككاً يؤديان إلى عواقب وخيمة.

*** هل عملت هذه الأقليات ضد مصالحها؟**

نعم. إذا نظرنا إلى الموضوع من ناحية المنطق، نجد أنه كان من الأفضل للتجار إيجاد أرض واسعة قابلة للاندماج مهما اختلفت اللغات المتداولة فيها. إلّا أن الطائفتين الأرمنية واليونانية آثرتا - بسبب شعورهما القومي المتفاقم - اختيار دولة صغيرة، حيث يلتقون فيها «فيما بينهم»، ما أدى إلى عرقلة القدرة الإنتاجية.

*** إنما، كيف كتب لهذا البرنامج الذي يهدف إلى إضفاء الطابع التركي على كل شيء في البلد، الاستمرار والثبات؟ ألم تحاول الدول الأجنبية العظمى عرقلة الإصلاحات التي تسعى إلى تحقيق الاستقلال الذاتي؟**

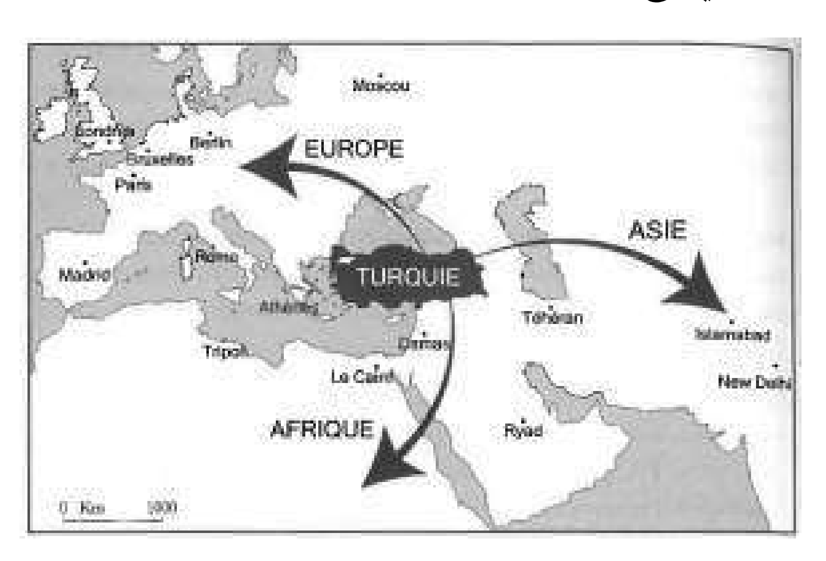
في ثلاثينيات القرن الماضي، تمكنت تركيا - على غرار مصر- من الاستفادة من التناقضات القوية التي واجهتها الدول الأوروبية العظمى فيما بينها، مع ارتقاء هتلر وموسوليني سدة الحكم. في الوقت عينه، لم يكن بمقدور إنجلترا التدخل في أمور تركيا الداخلية، ومراقبة ما يجري فيها عن كثب، فاستغلّت تركيا الوضع لإجراء إصلاحات داخل مؤسساتها، وتوجيه اقتصادها مستعينةً في ذلك بالطبقة البورجوازية، لما فيه خدمة مصالحها الوطنية والتصّدي لأي شكل من أشكال التدخل الخارجي.

*** وجاءت الحرب العالمية الثانية لتحدث تغييرات جديدة على الساحة...**

بالفعل، لقد تسببت الحرب العالمية الثانية بقلب موازين القوى من جديد، كما سبق أن أوضحنا ذلك. استفادت الولايات المتحدة الأمريكية

من ضعف كل من ألمانيا وبريطانيا العظمى وفرنسا واليابان، لتصبح أكبر قوة مهيمنة دون منازع. أما تركيا، فقد باشرت المرحلة الثانية الكبرى من بناء دولتها بين عامي ١٩٤٥ و١٩٩٠ وذلك، بعدما أنهت المرحلة الأولى التي امتدت في الفترة بين ١٩٢٣ و ١٩٤٠.

أصبحت تركيا دولة قوية نسبياً، فتحالفت مع الولايات المتحدة الأمريكية، وأعلنت انضمامها إلى حلف الناتو (منظمة حلف شمال الأطلسي). ينبغي هنا أن نتنبه إلى عامل جديد، جرى في تلك الفترة، إذ كان العالم كله منغمساً في الحرب الباردة، وهي الحملة التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتي، وضد النظام الاشتراكي. في هذا السياق، أدّت تركيا دوراً مهماً على الصعيدين الجغرافي والسياسي، لا يمكن الالتفاف عليه، وذلك بسبب موقعها الجغرافي الإستراتيجي في قلب الشرق الأوسط، فهي تقع عند ملتقى القارات الثلاث: أوروبا وآسيا وأفريقيا.



تقع تركيا عند ملتقى القارات الثلاث

*** ما السبب في انضمام تركيا إلى معسكر الولايات المتحدة الأمريكية وليس إلى معسكر الاتحاد السوفييتي؟**

شكّل الاتحاد السوفييتي دولة اتحادية واسعة الأرجاء، ضمت جمهوريات آسيا الوسطى، لكنه اصطدم بمقاومة الطبقة البورجوازية في تلك المناطق. استدعى حرص تلك الطبقة على مصلحتها إنشاء إمبراطورية كبيرة تعتمد على اللغة التركية، فكانت تركيا ما بعد ١٩٤٥ داخلياً مناهضة للشيوعية.

*** إذاً كانت دولة تركيا ما بين عامي ١٩٥٠-١٩٩٠ تحت إمرة الولايات المتحدة الأمريكية؟**

نعم بوجه الإجمال. إلّا أنها بقيت تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي على صعيد الأمور الداخلية للبلاد، والبنى التحتية، ووسائل الاتصالات، إلخ... وظهرت طبقة العمّال في ذاك الوقت. كما أسهمت موجة هجرة الأتراك إلى أوروبا – وبشكل خاص إلى ألمانيا- في تأمين موارد مادية بشكلٍ منتظم إلى الداخل التركي، ما كان له الأثر الإيجابي في تقدمها. أضف إلى ذلك، التطور الكبير الذي طرأ على القوات المسلحة التركية، فتحولت هذه الدولة إلى دولة رجعية.

*** في أي معنى؟**

تحالفت تركيا مع الدول الإمبريالية العظمى كافة لدحض أي شكل من أشكال المقاومة التقدمية، والوقوف بوجه أي حركة تحرر يقوم بها شعب ما في الشرق الأوسط. أما على الصعيد الداخلي للبلاد، فقد واجهت الحكومة في الفترة بين الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، حركات مقاومة عدّة، صدرت عن أحزاب مختلفة، منها النقابات والأحزاب الديمقراطية والأحزاب

اليسارية، ثم تبعتها فيما بعد الأحزاب الكردية. وبوجود الأزمة التي نشأت عن ضرورة سداد الديون والفوائد الباهظة المترتبة عليها إلى المؤسسات المالية الدولية، باتت التناقضات جليّة، ما اضطر الجيش إلى التدخل بصورة منتظمة من أجل تجميد المطالبات الديمقراطية. وفي عام ١٩٨٠، استولى الجيش على سدة الحكم، بهدف تأسيس نظام حكم عسكري مطلق، تمكّن بموجبه من القضاء على العديد من الحركات الديمقراطية. أخذت أحكام الإعدام وأعمال القتل في التفاقم في البلد، وانتهج الجيش في حكمه نظام القرارات العسكرية.

*** هل كان لهذه الضربة المؤثرة تبعاتها على السياسة الاقتصادية؟**

نعم. اتسمت الفترة الواقعة بين ١٩٨٠-١٩٩٤ بشظف العيش، وبإصلاحات الليبرالية الجديدة تحت ضغط من المؤسسات المالية، مثل صندوق النقد الدولي. أما الوزراء الذين لجؤوا إلى الخصخصة، فقد تابعوا دراستهم في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانوا يستلهمون من الأفكار الليبرالية لبسط تأثيرهم في الاقتصاد التركي. إلا أن هذه السياسة أثارت غضب الشعب الذي ترجمه إلى مظاهرات متوالية، قامت بها النقابات والمنظمات العمّالية والحزب الإسلامي (حزب الرفاه، الذي سبق حزب العدالة والتنمية). تكللت جهود هذه الحركات بالنجاح، إذ تم إنقاذ أجزاء كاملة من الاقتصاد التركي من عملية الخصخصة.

*** ولماذا قوبلت عملية الخصخصة بالرفض، في حين كان الحكام يصورونها بأنها أسلوب لتحديث الاقتصاد؟**

كانت لديهم معلومات حول ذلك، وأدرك الأتراك أن الموضوع يتعلق بشكلٍ خاص ببيع ثرواتهم للرأسمالية العالمية بأسعار زهيدة. وللوقوف على

الموضوع عن كثب، كان يكفيهم الاطلاع على نتائج عمليات الخصخصة في مصر، التي تمت تحت رعاية حكومتي أنور السادات وحسني مبارك.

*** إنما، يبدو أن تركيا دخلت اليوم مرحلة جديدة مختلفة كلياً عن تلك السنوات...**

نعم. لقد اكتسب المجال الجيوسياسي في تسعينيات القرن العشرين شكلاً مغايراً لما كان عليه مع انهيار الاتحاد السوفييتي. وحصلت تركيا على مكانة جديدة في لعبة العلاقات الدولية. يجب أن نذكر هنا العلاقات التجارية المميزة التي عملت تركيا على تنميتها مع العراق. غير أنها في ظل حكم الليبراليين الجدد، اضطرت إلى الوقوف ضد حليفها الاقتصادي، واتِّباع الولايات المتحدة في حرب الخليج عام ١٩٩١.

فما النتائج التي ترتبت على هذا الموقف؟ استولت الولايات المتحدة على دولة الكويت، ووضعت يدها على ثرواتها النفطية، في حين فقدت تركيا حليفاً اقتصادياً بارزاً بحجم دولة العراق. لذلك، لا داعي للاستغراب عندما ترى أن الحزب الذي تفوق عام ١٩٩٣، وحاز قبول الشعب هو الحزب الإسلامي. جاء نجاح هذا الحزب نتيجة لخيانة الليبراليين الجدد، وغياب الأحزاب اليسارية أو ضعفها.

*** إلام تعزو سبب هذا الضعف؟**

يعود السبب في ضعف الأحزاب اليسارية إلى نظام الحكم العسكري المطلق، إلى جانب فتور الهمة، وضعف الأيديولوجيا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

*** كيف تفسر فوز الحزب الإسلامي الشعبي في دولة لا تزال متأثرة بالسياسة العلمانية التي دامت لعقود طويلة؟ ما تفسير هذا التناقض؟**

يكمن السبب في كون تركيا دولة صناعية، تنتج الإسمنت بكميات كبيرة، وكل تجهيزات المستشفيات وأنواع المنتجات الحديثة، إلى جانب الصناعات البسيطة، والمنتجات الزراعية المزدهرة. أدركت دولة تركيا أن طبقتين البورجوازية، المتوسطة والصغيرة فيها، شعرتا بالإحباط من جراء فقدانهما للأسواق العراقية. ومن جهة أخرى، شهدت العلاقات التركية السورية تدهوراً ملحوظاً (بسبب فتح العراق لحدوده مع سورية من أجل تصدير نفطه، بعد أن تخلّت أنقرة عنه في ثمانينيات القرن العشرين). نتج عن ذلك فوز الحزب الإسلامي بالانتخابات التي تلت هذه المرحلة، ولا يزال هذا الحزب على رأس الحكم في تركيا حتى يومنا هذا.

رحبت تركيا، البلد المسلم، بفكر حزب الرفاه، ذي الاتجاه العلماني، والإلهام المسلم، على غرار الأحزاب المسيحية – الديمقراطية التي نشاهدها في أوروبا، وذلك بسبب التغيير الجذري في موقف البورجوازية تجاه الإمبريالية بشكل عام، وتجاه الإمبريالية الأمريكية بشكل خاص. نال هذا التذرّع بالهوية الإسلامية (الذي أبقاه مصطفى كامل أو أتاتورك بادئ الأمر في الخفاء) القبول لدى طبقات الشعب المختلفة، إذ إنها كانت مرتبطة بالدفاع عن المصالح القومية، وبتقديم الحماية للاقتصاد الوطني. عندئذ توقفت هذه البورجوازية عن الدفاع عن المصالح الرجعية، كما أقلعت عن دعم الجيش في قمعه للحركات الشعبية والأحزاب الكردية.

*** بحق، كيف تفسر هذه «المشكلة الكردية» ذائعة الصيت؟**

إنها ليست سوى مشكلة حصلت تماماً كما يحصل في بلدان كثيرة. حينما ترغب الطبقة البورجوازية في تأسيس دولة قومية، يتحتم عليها فرض دولتها واللغة الإدارية على الأقليات. لقد نجحت هذه الطريقة في بلدان عدة، لكن البورجوازية التركية وصلت متأخرة، ولم تكن على درجة كافية من القوة، لذا لم تنجح في عملية دمج الأكراد الذين يشكلون الأقلية الرئيسة في البلاد. ما دفعها إلى استخدام سياسة القمع تجاههم، رافضة حتى الاعتراف بوجودهم، وكانوا يطلقون عليهم اسم «الأتراك القادمون من الجبال» أو البشماركة، حتى إن استخدام اللغة الكردية كان يُعد جرماً بحد ذاته. كان التعصّب القومي لدى الأتراك شديد التأثير، حتى إن الأحزاب اليسارية لم تنجح في الانضمام إلى الأقليات في معركتهم للدفاع عن حقوقهم. يجب الاعتراف هنا بأن البورجوازية التركية لجأت إلى استخدام تقنيات متطورة لتفريق حركات المقاومة.

أرادت فئة من البورجوازية الكردية، من جهتها، الحصول على اعترافٍ بحقوقها، كما سعت إلى الاندماج في السوق التركي، لكنها قوبلت بالقمع، فأقلعت عن هذه المطالبة. بذلك، أصبح الحزب الرئيس للمقاومة الكردية هو حزب العمال الكردستاني، المعروف بالـ(PKK)، الذي لجأ إلى المقاومة المسلحة، واشتهر عبر وسائل الإعلام بأنه مجموعة إرهابية.

*** ما الذي يدعو أنقرة إلى تلك الحساسية؟ هل يأتي ذلك بسبب أهمية الأراضي الكردية؟**

نعم. تُعدُّ الأراضي الكردية الخزّان الذي يغذي البلد بالماء. لقد عُرفت هذه المنطقة بفقرها المدقع، لكنها تُعدُّ أيضاً خزاناً كبيراً لليد العاملة. أما

العامل الذي دعا إلى تفاقم المشكلة الكردية، فقد تمثل بالبعد الدولي؛ حيث بقيت تركيا حتى عام ١٩٨٠ معقلاً للإمبريالية الأمريكية، وشكّلت بتحالفها مع إسرائيل وإيران، ذلك المثلث ذائع الصيت...

*** إنما، كان اندلاع الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ سبباً في الإطاحة بشاه إيران، وفي خسارة أمريكا لحليف مهم في المنطقة...**

بقيت تركيا من ناحية أخرى دولة رجعية، ترزح تحت سلطة الجيش الذي تدعمه الطبقة البورجوازية التي كانت أشد ما تخشاه الحركات اليسارية.

يتحتم علينا هنا، من أجل الإلمام بأهمية المسألة الكردية، وفهم المنحى العنيف الذي اتخذته، أن نأخذ بعين النظر عاملين مهمين، نادراً ما يطرحان على الملأ. يتعلّق العامل الأول بمدير وكالة الاستخبارات الأمريكية، بول هانز، الذي مارس عمله ميدانياً وبقي مخلَّداً في ذاكرة الأتراك بأنه ذلك «الجزار» الذي أرشد الجيش والحكام الأتراك إلى طريقة سحق، وبشكل عنيف، الثورات وحركات المقاومة الشعبية كافة.

أما العامل الثاني، فإنه يتعلق بالدولة التركية نفسها التي كانت تربطها مصالح مشتركة وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، كما كانت لاعباً استراتيجيا حيوياً لدول حلف شمال الأطلسي (الناتو). ما دفع دولاً في المنطقة كإيران وسورية اللتين كانتا هدفاً للولايات المتحدة الأمريكية، إلى القيام بفعل معاكس عن طريق دعم مطالب حزب العمال الكردستاني الـ (بي ك ك). لم تكن هاتان الدولتان راضيتين عن السلطة التي تمارسها الولايات المتحدة في الداخل التركي، فبحثتا عن طريقة بديلة لزعزعة استقرار الجيش والحكومة التركية.

إلى جانب ذلك، لا بد أن نورد ذكر الحركات الكردية المعتدلة التي كانت تطالب بحقوقها الثقافية، وأرادت الانضمام إلى مجلس النواب للمطالبة بهذه الحقوق، بعيداً عن المقاومة المسلحة. كما سعت هذه الحركات للاستفادة من ادعاء تركيا، التي تريد بدورها الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، كشكل من أشكال ممارسة الضغط.

*** شهدت دول أوروبية عدة نشوب حوادث نفَّذتها مجموعات تركية عرفت باسم «الذئاب الرمادية»...**

نعم. جاء ذلك ضمن إطار حملة المقاومة التي نُظمت ضد حزب اليسار التركي، فقد أقدمت حركات اليمين المتطرّف على تشكيل خلايا من الأتراك المهاجرين المقيمين في الدول الأوروبية، وكلّفتهم بالتغلغل داخل الحركات اليسارية والحركات الكردية، للحيلولة دون نشر الأفكار الخطرة، كما كان يطلق عليها الحكام الأتراك في الثمانينيات من القرن العشرين. إنما فيما بعد، ورداً على خيانة الحكومات الليبرالية الجديدة لمصالح البلد، ونتيجة لضعف الحركات اليسارية، ظهر الحزب الإسلامي على الساحة بأنه المنتصر الأكبر.

*** لقد أثرتَ موضوع انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي. هل تعتقد أن هذا الأمر قابل للتنفيذ؟ لم نعد نعرف كيف تسير الأمور.**

حسناً، لقد استرجعت تركيا مكانتها كقوة اقليمية مهمة، إذ إنها أحرزت تقدماً على الصعيد الثقافي، وأنشأت عدداً كبيراً من الجامعات، وشهد القطاع الزراعي تطوراً عظيماً، كما أولت عنايتها بالمنتجات الغذائية، فأصبح لديها فائض منها. لقد ازدهر الاقتصاد التركي في يومنا هذا، حتى

بات دخل الجالية التركية المقيمة في أوروبا زهيداً جداً، مقارنة مع الثروات الوطنية للدولة التركية.

نتيجة هذا التطور في البلاد، ساد الاعتقاد لدى حزب الرفاه أن البلد اتخذ منحىً جديداً في تاريخه، إذ تقف تركيا اليوم على مفترق طرق، وعليها أن تختار الأفضل. هل تختار الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي لتحقيق الفائدة من استثماراتها وإيجاد سوق لتصريف منتجاتها؟ لقد طالبت أوروبا في عام ١٩٩٠ بإيجاد حلّ لمشكلتين قائمتين: المشكلة الكردية المذكورة آنفاً، ومشكلة قبرص التي أقدم الجيش التركي على احتلالها عام ١٩٧٤ وتجزئتها إلى قسمين، وأقدمت الحكومة التركية على تقديم الدعم للجزء التركي من الجزيرة، حيث إن القسم الآخر يعود لقبرص. إلّا أن المشكلة الحقيقية ليست هنا، إنها تتعلق بمن يفوز بهذا «الزواج»؟ هل هو الاتحاد الأوروبي؟ أو تركيا؟

*** يحاول الاتحاد الأوروبي أن يضم أكبر عدد ممكن من الدول إلى دائرته. فهل هذا يعني أن تركيا لا تثير اهتمامه؟**

تباينت المواقف بهذا الخصوص، إذ تشكّل ألمانيا القوة الهائلة لأوروبا، وهي ترغب في إقامة علاقات تجارية مع تركيا. غير أنها لا تريد ضمها إلى الاتحاد الأوروبي لأسباب عدة. يتجسد السبب الأول في الضرر الذي قد يلحقه التطور الزراعي التركي بالقطاعات الزراعية لدول كألمانيا وفرنسا. أما السبب الثاني، فيكمن في انحياز تركيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي أبدت ترحيبها بدخول تركيا في الاتحاد الأوروبي، لتمثيل مصالحها

المشتركة (نذكر هنا أن بريطانيا كانت أيضاً من أنصار هذه الفكرة). إنما هناك قسم من البورجوازية الألمانية والبورجوازية الفرنسية آثر اتباع سياسية النأي بالنفس تجاه الاتحاد الأوروبي الذي تسيطر عليه واشنطن... أضف إلى ذلك أنه يتم احتساب عدد الممثلين في مجلس النواب الأوروبي للدولة العضو انطلاقاً من تعداد سكانها، وهذا يعني أن تركيا ستصبح قوة هائلة على المستوى المؤسساتي، وستنافس الأعضاء الرئيسيين من فرنسيين وألمان. وأخيراً، قد تصبح تركيا منافساً حقيقياً بالإقدام على شراء مؤسسات دول أوروبا الشرقية التي انضمت مؤخراً إلى الاتحاد الأوروبي. في حين تسعى كل من ألمانيا وفرنسا إلى جعل تلك المؤسسات حكراً لها.

*** لقد أثرتَ آنفاً موضوع احتمال وجود طريقين، فما هو الطريق الثاني؟**

أما الطريق الثاني أمام حزب الرفاه وتركيا الحديثة، فإنه يتمثّل في تطوير شراكات إقليمية، كالانفتاح على سورية وايران اللتين تمثلان القوتين العظميين في المنطقة. أما الدولة الحيوية الأخرى التي تبحث عنها تركيا، فهي روسيا. يتراوح عدد السواح الروس الذين يأتون إلى تركيا سنوياً بين خمسة ملايين وسبعة. أضف إلى ذلك أن معظم دول آسيا الوسطى - التي كانت جمهوريات سابقة ضمن الاتحاد السوفييتي - تستخدم اللغة التركية. أما السي إن إن، القناة الفضائية الشهيرة، فقد فتحت محطة لها في أنقرة، وتستمر في بث برامجها على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً. كان لهذه المشاركة مع روسيا ومع دول من آسيا الوسطى انعكاس إيجابي على الواقع الصحي للاقتصاد التركي.

*** في الواقع، تأتي تركيا (إلى جانب الصين) في مقدمة البلاد حسب النمو الاقتصادي، إذ تبلغ نسبته% ٩.٥!**

نعم، إنها أمة تثق بقوتها... لقد ولّدت هذه المعطيات القناعة لديّ أن الأتراك لم يعودوا في حاجة إلى السوق الاقتصادي الأوروبي. وفي كل الأحوال لن يحققوا مكاسب كثيرة بانضمامهم إلى الاتحاد الأوروبي. وها هي ذي اليونان المثال الحي الذي برهن أن العضوية في الاتحاد الأوروبي لا تقدم أي ضمانات حقيقية. إني أعتقد أن تركيا أدركت أن بإمكانها أن تحقق مزيداً من الازدهار بجعل مصالحها الخاصة مركزاً لاهتمامها، بدل أن تبقى تابعاً للولايات المتحدة، أو لدول الاتحاد الأوروبي.

*** ومع ذلك لا تزال المفاوضات بين الاتحاد الأوروبي وتركيا مسجلة في جدول الأعمال ...**

أعتقد شخصياً أنها ليست سوى دعابة كبيرة. إذ إن الاتحاد الأوروبي يخطط لإضعاف هذا البلد الصاعد، وهذه القوة الإقليمية التي قد تلعب دوراً مهماً، شبيهاً بالدور الذي تلعبه البرازيل اليوم في أميركا اللاتينية.

*** أهي قوة صاعدة؟**

نعم، فالطبقة البورجوازية التركية على اطلاع بما يدور من حولها في الأفق السياسي، إلى جانب امتلاكها الثقة بالنفس، ولا تشعر بأي خطر من جراء قيام حركات ثورية محتملة. وكما قلت آنفاً، لا يغيب عنها الموقف الذي اتخذته أوروبا من اليونان. يضاف إلى ذلك عامل جيوستراتيجي آخر، ألا وهو علاقاتها مع الصين الآخذة في التحسن، ومع العالم العربي، وبعض البلدان الناشئة. تلك مجموعة من الآفاق الثمينة والواعدة. نسمع اليوم عن

مجموعة من الأطباء الأتراك يطوفون أفريقيا لتقديم مساعدات للبلدان التي تعيش مشكلات صحية. أما حركة الملاحة الجوية التركية، فهي تشير اليوم إلى أن معظم الرحلات باتت تؤثر التوجه إلى آسيا وأفريقيا ودول العالم العربي بدلاً من دول أوروبا.

أدركت الحكومة التركية عبر كل تلك الاعتبارات أن علاقاتها مع إسرائيل باتت تهدد حركة إنتاجها. ويقوم الثنائي، التركي - البرازيلي، من جهته بالعمل جنباً إلى جنب لدراسة الملف النووي الإيراني، مشيراً بذلك إلى الإنجازات التي تستطيع فعلها تلك القوى الإقليمية. وهناك ملفات عدّة تشكل موضوع الخلاف الصارخ الذي غالباً ما يقع بين تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، وعلى وجه التحديد الحرب على العراق.

استطاعت تركيا - انطلاقاً من ثقتها بإمكاناتها الخاصة - تحسين علاقاتها مع اليونان، عدوها القديم. فضلاً عن ذلك، طرحت تركيا فكرة تأسيس رابطة تضم الدول الإسلامية، اعتقاداً منها أن الاتحاد الأوروبي أعلن أن هويته تعتمد على الديانة المسيحية، فلماذا لا يصار إلى المبادرة بإقامة مشروع اتحاد سياسي يضم الدول الإسلامية؟

*** إنما لا تزال تركيا عضواً في حلف شمال الأطلسي...**

أدركت تركيا أمراً رئيساً يتلخّص في وقوف البلاد كافة على أعتاب نظام عالمي جديد، ولن يكون انسحاب تركيا المرتقب من حلف شمال الأطلسي، الذي تحوّل في الحالة الراهنة إلى مجرد آلة موجّهة بيد الولايات المتحدة لنقل استراتيجياتها السياسية، لن يكون مفاجئاً لي.

*** هل سيترتب على هذا التطور تداعيات على العلاقات التركية مع إسرائيل، ولا سيّما أن العلامات العدائية تجاه إسرائيل الصادرة عن حكومة أردوغان، آخذة في التزايد؟**

دون أدنى شك، فقد شهدت تلك العلاقات تغيراً في السنوات المنصرمة، فقد بادرت تركيا إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل إبان العدوان الذي شنته هذه الأخيرة على غزة (الذي امتد بين شهري كانون الأول ٢٠٠٨ وكانون الثاني ٢٠٠٩).

*** ومع ذلك نلاحظ أن العلاقات الاقتصادية بين البلدين توطدت أكثر مما كانت عليه من ذي قبل، فقد تزايدت الصادرات الإسرائيلية إلى تركيا بشكل ملحوظ في مطلع ٢٠١١...**

إن العلاقات الاقتصادية مرهونة بالطبقة البورجوازية التركية التي لا تزال ترى فائدة مالية عبر تجارتها مع إسرائيل على هذا النحو، مع أني أعتقد أن هذا سيستمر لأجل محدود، ولن تلبث هذه العلاقات أن تتغير، بسبب ابتعاد تركيا يوماً بعد يوم عن دول الغرب، لتنشئ علاقات تجارية مع الدول العربية المجاورة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، بسبب دعم الجماهير التركية القوي للقضية الفلسطينية. يضاف إلى ذلك، أن الحكام السياسيين في أنقرة لا يخفون عداءهم لإسرائيل. نتيجة لهذا، ستجد البورجوازية التركية نفسها مرغمة على التأقلم مع هذا الوضع، ولن تستطيع الصمود في وجه الجماهير، ولا في وجه الحكام السياسيين، ولن تستمر بتبادلاتها التجارية مع إسرائيل.

*** هل يمكننا عدُّ النمو الاقتصادي التركي نعمة يستفيد منها الشعب، أو أن النخبة الحاكمة هي المحتكر لهذه الثمار؟**

من وجهة النظر الشاملة، يسعى هذا البلد إل التخلّص من ظل الإمبريالية، بحصوله على حريته الاقتصادية إلى جانب تطوير القطاع الصناعي ذي الطابع الرأسمالي. فإذا تناولنا الموضوع من الناحية المنطقية، فسنلحظ أن عدد العمّال سيزداد على حساب عدد الفلاحين. سيتغيّر نسيج المجتمع، وستسير البورجوازية البسيطة الوطنية نحو التطور. أما مسألة طريقة تقسيم الكعكة، فذلك ما لا يمكن التنبؤ به في الوقت الراهن... الأمر مرهون بميزان القوى داخل المجتمع التركي في علاقاته مع نقاباته وأحزابه التقدمية وحركاته الاجتماعية، إلخ. إن الحرص على توزيع الثروات بشكل منصف هو مهمة يتحتم على الأتراك إنجازها.

قائمة المراجع:

- Caglar Keyder, *state and class in Turkey: A study in Capitalist Development*, Verso Books, 1987
- Lord Kinross, *Ottoman Centuries*, Harper Perennial- PF edition, 1979
- Taner Akçam, *Un acte honteux. Le génocide arménien et la question de la responsabilité turque*, Paris, Denoël, 2008
- Justin McCarthy, *The Armenian Rebellion at Van*, University of Utah Press, 2006
- James Pettifer, *The Turkish Labyrinth: Ataturk and the New Islam*, Penguin Books, 1997.

إيــــران
هل تحاول التقرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية؟
أو أنها تسعى إلى تشكيل تكتلٍ مستقل في الجنوب؟

ما السلك الخفيّ الذي يصل بين فصول هذا التاريخ الذي يتسم بعراقته وتنوعه وطابعه المأساوي على حدّ سواء؟ كانت البداية من المعركة التي اندلعت بين الإمبراطوريات العظيمة المندثرة، مروراً بعملية أجاكس للأخوين دالاس (التي أشرفت وكالة الاستخبارات الأمريكية على كامل فصولها) وتُرجمت على أرض الواقع عام ١٩٥٣ بانقلاب فاحت منه رائحة النفط (وكان من صناعة وكالة الاستخبارات الأمريكية)، مروراً أيضاً بالحكم الديكتاتوري الدموي للشاه، وشرطته السياسية (التي شكّلتها وكالة الاستخبارات الأمريكية)، وفضيحة إيران غيت فيما بعد (أيضاً من صناعة وكالة الاستخبارات الأمريكية)، وثورة الخميني عام ١٩٧٩، والحرب الدموية التي شنّتها العراق ضد إيران (وخططت لها وكالة الاستخبارات الأمريكية من خلف الكواليس)، وصولاً إلى التناقضات التي نشهدها في تاريخنا المعاصر بين «المحافظين» و«الليبراليين»، وإلى التناحر القائم بين رفسنجاني وموسوي وأحمدي نجاد، وإلى الخيار الصعب الذي تجد إيران

نفسها أمامه: هل تلتزم مع الولايات المتحدة الأمريكية؟ أو أنها تسعى جاهدة إلى إنشاء تكتلٍ كبيرٍ مستقلّ في الجنوب؟ ما السلك الواصل الذي يتيح لنا الجمع بين كل تلك الوقائع، واستيعاب دور الطبقات الاجتماعية المختلفة التي اشتبكت مصالحها مع كل واقعة من تلك الوقائع...



١- جورجيا

٢- أرمينيا

٣- أذربيجان

لمحة سريعة عن إيران

على الصعيد الجغرافي:

- العاصمة: طهران.

- المساحة: ١٩٥ ٦٤٨ ١ كم٢.

- تعداد السكان: ٢٢٠ ٨٩١ ٧٧ (أي بمعدّل ٤٠ نسمة / كم٢).

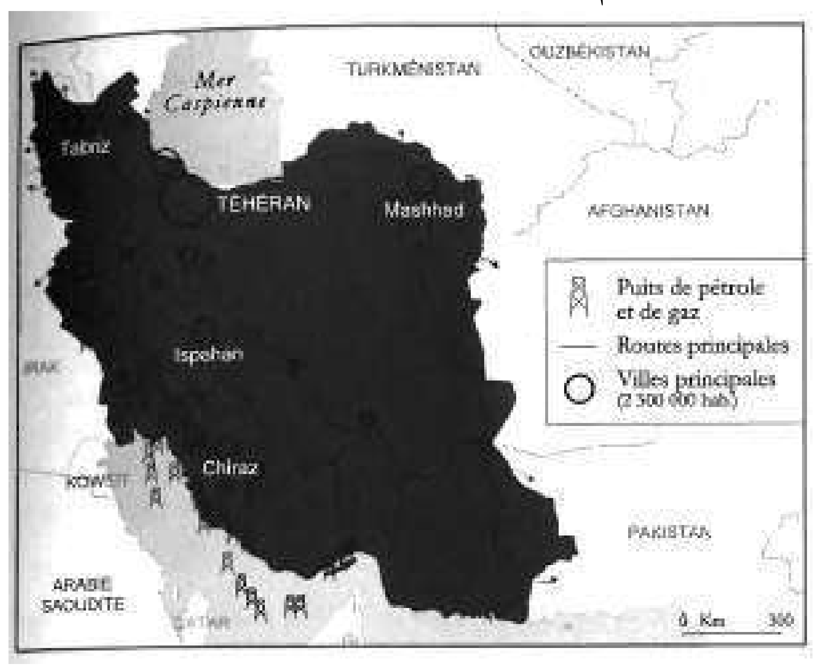
على الصعيد الاجتماعي:

- **تنوع المذاهب:** ٨٠ عرقاً، منهم **(٥١%)** من الفرس، **(٢٤%)** من الأذريين الذين يتمركزون في الشمال الغربي، **(٧%)** من الأكراد الذين يعيشون قرب الحدود العراقية، وأخيراً **(٢%)** من البلوش المتمركزين شمالي البلاد.

- **متوسط العمر:** ٧٠ عاماً.

- تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: **%** ٢٤,١.

- معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: **%** ٧٩,٤.



 آبار النفط والغاز

ـــــ الطرق الرئيسة

◯ المدن الرئيسة (عدد السكان ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠)

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية إسلامية.

- **رئيس الدولة:** محمود أحمدي نجاد (٣ أغسطس/آب ٢٠٠٥- ٣ أغسطس/آب ٢٠١٣) -المرشد الأعلى هو آية الله خميني-.
- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٧٩ (تم إعلانها الجمهورية الإسلامية).

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ٣، ٣٨٢ مليار دولار (٢٠٠٨)

- **الموارد:** النفط والغاز (٦٠% من إيرادات الميزانية)، الصناعات النسيجية والزراعة.
- **معدل النمو:** ١% (٢٠١٠).
- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ١٠.٦٠٠ دولار (٢٠١٠).
- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٧٠٢ (٧٢ من حيث الترتيب)
- **نسبة البطالة:** ١٢,٥ %
- نسبة السكان الذين تحت خط الفقر: **%** ١٨(رسمياً) مقابل **%**٤٠ (وفق إحصائية وكالة الاستخبارات الأمريكية).

*** «يريد أحمدي نجاد محو دولة إسرائيل من الخريطة»، و«يريد تطوير القنبلة الذرية». في حين تقول وسائل الإعلام «تشكّل إيران مصدر خطر للجميع». فهل علينا أن نخشاها؟**

إنه مجرد إنشاء إعلامي، فيه ما يكفي لإثارة الذعر، غير أنه لا يمت إلى الحقيقة بأي صلة. علينا في بداية الأمر أن نعلم أنه تمّ الإعداد لهذا البرنامج النووي ذائع الصيت في الفترة التي سبقت قيام الثورة الإسلامية، وبالتحديد إبان الحكم الديكتاتوري للشاه، وبدعمٍ من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، ويرددون اليوم أنه لا يحق لإيران تطوير هذا النوع من مصادر الطاقة، لأنها بذلك ستصبح مصدر خطر على العالم. علماً أن هذه الجمهورية الإسلامية، ومنذ توليها الحكم عام ١٩٧٩، لم تقم بمهاجمة أي بلد. إنما هذا الكلام لا ينطبق طبعاً على الولايات المتحدة الأمريكية ولا على إسرائيل! إن إيران لا تسعى إلى مهاجمة أحد، كل ما تريده هو تأكيد حقها في تقرير المصير. لذا ينبغي مناقشة موضوع البرنامج النووي من هذه الزاوية.

*** إنما، لماذا يبحث هذا البلد عن تطوير برنامجه النووي، وهو الغني بالغاز والنفط؟**

يعتمد توليد القسم الأكبر من الطاقة الكهربائية في إيران على الغاز والنفط. من المعلوم أن تصدير هذه الطاقات الأحفورية، أو المتحجرة، يأتي في مقدمة الموارد التي تشكّل الدخل القومي للبلد. دعنا الآن نتطرق إلى صلب المشكلة، لقد شهد البلد في السنوات الأخيرة ارتفاعاً في معدّل النمو السكاني، رافقه ازدياد الحاجة إلى موارد الطاقة، ما سيضاعف من استهلاك

الكهرباء في السنوات القادمة. فما هو الحل لتلبية هذه المتطلبات؟ هل يتم ذلك بالاعتماد على المصادر الإيرانية من النفط والغاز لتوليد الكهرباء؟

يقول الخبراء إنه في حال تم الاعتماد على النفط كمصدر طاقة وحيد لتوليد الكهرباء، فإن الإنتاج المحلي للبلاد سينفد في غضون الأعوام العشرة القادمة، ما سيجعل من إيران بلداً مستورداً للنفط! لذا يتحتم على هذا البلد تنويع مصادر الطاقة لديه من أجل الحفاظ على بقائه اقتصادياً.

*** ألا يوجد هناك خطر من تطوير إيران لبرنامجها النووي؟**

باتت هذه المسألة المحور الرئيس للحملة الشيطانية التي تُقاد ضد إيران. يسود الاعتقاد أنه في حال حيازة الجمهورية الإسلامية القنبلة الذرية، فإنها بلا ريب، ستعمد إلى مهاجمة إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية، بل وستُغرق العالم في فوضى حرب عالمية ثالثة، وعلاوة على ذلك، ستكون هذه المرة حرباً نووية!

نعم، لا يخلو الأمر من موقف عدائي جليّ بين هذه البلدان، لكن هل هناك من أساس يقوم عليه هذا التهديد؟ لقد قالها الأكاديمي الإيراني سيد محمد طبطبائي عام ٢٠٠٨، «إن الذين يملكون أكبر ترسانة عالمية في السلاح النووي، والذين استخدموه فعلاً، يلعبون دور المعتدى عليهم، في حين يتحتم على الذي لا يملك أي ترسانة، ويرغب في حيازتها، بحكم الواقع وبحكم القانون، يتحتم عليه أن يلعب دور المعتدي! يقوم المالك الأول للقنبلة الذرية، الذي كان دوماً يرفض التوقيع على معاهدة حظر الانتشار النووي، والذي لا يخضع لأي عملية تفتيش، يقوم مقام المدعي

العام لمتهمٍ لا يملك هذه القنبلة، ذلك المتهم الذي التزم بالتوقيع على معاهدة حظر انتشار السلاح النووي، ويخضع لعمليات تفتيش دورية مفاجِئة، وغير منقطعة على أراضيه[1]».

إني أشاطره الرأي: هذا الإنشاء الإعلامي يحوّل المعتدي الأصلي إلى معتدى عليه.

*** إنما، يتم تصوير أحمدي نجاد بأنه إنسان معادٍ للسامية، إذ غالباً ما نسمعه يردد «أنه يريد محو إسرائيل من الخريطة». ألا تعتقد أن تطوير القنبلة الذرية يعمل على تنفيذ هذا الهدف غير العقلاني؟**

كلا، إن الرئيس الإيراني ليس مناهضاً للسامية، ولا يرغب في محو أي أحد من الخريطة. إنه تصريح مبتور، قد تم بثه مراراً وتكراراً عبر وسائل الإعلام الغربي. في الواقع، أورد أحمدي نجاد قول آية الله الخميني بأن النظام الذي يحتل القدس عليه «أن يزول من صفحة الزمان»؛ كان يقصد بكلامه هذا نظام الفصل العنصري، لا اليهود!

أضف إلى ذلك أنه يتحتم علينا أن نعرف أن الاحترام الذي يحظى به المجتمع اليهودي الإيراني يفتقر إليه أي مجتمع يهودي آخر على مستوى الشرق الأوسط. إنك لتجد نواباً من أصل يهودي، يشغلون مقاعد في مجلس النواب الإيراني. بل يجب الاعتراف في حقيقة الأمر، أن المعاملة التي يلقاها اليهود الإيرانيون لهي أفضل بكثير من تلك التي يلقاها بعض اليهود في

---

(١) Seyed Mohammad Tabatabaei, La diplomatie nucléaire iranienne, in Confluence méditerranée, n°65, printemps 2008

إسرائيل نفسها. أنا أقصد المعاملة التي يلقاها اليهود الذين هم من أصل إثيوبي داخل دولة إسرائيل، التي تقوم على أساس عنصري لا حدود له.

*** مع ذلك، تدّعي إسرائيل أنها دولة مهدّدة. ألم ينكر أحمدي نجاد المحرقة اليهودية؟**

من يرغب في معرفة موقف الرئيس الإيراني من المحرقة، فليتابع عبر شبكة المعلومات (الإنترنت)، اللقاء الذي أجرته معه محطة NBC الفضائية، الذي أوضح فيه الرئيس الإيراني موقفه من هذا الجدل الذي أُثير حوله.

فماذا قال؟ لم يفهم أحمدي نجاد كإنسان جامعي وأكاديمي السبب الحقيقي الذي يكمن وراء منع مناقشة موضوع المحرقة اليهودية. أضاف، إن العلوم التاريخية في تطوّر مستمر، مؤكداً أنه كلما تعمقنا في دراسة هذا الموضوع، ازدادت فرصتنا في فهم مجريات الأمور. ومن جهته، دافع نعوم شومسكي، الباحث الجامعي، عن الموقف عينه في قوله: «لا يمكن لأي قانون أن يحول دون إثارة النقاش حول التاريخ».

فضلاً عن ذلك، قال الرئيس الإيراني إنه لا يفهم لماذا يترتب على الفلسطينيين تحّمل مسؤولية الإبادة الجماعية أو العنصرية التي تمت ضد اليهود، بطردهم من أرضهم لإنشاء دولة إسرائيل. لقد بادرت ألمانيا إبان الحرب العالمية الأولى، إلى تعويض جيرانها الذين اعتدت عليهم، فحصلت كل من بلجيكا وفرنسا على تعويضات، فلماذا إذاً يُفرض على الشعب الفلسطيني سداد فاتورة المجزرة التي ارتكبت إبان الحرب العالمية الثانية؟ يعتقد أحمدي نجاد أنه يجب علينا إجراء دراسة حول هذا الحدث المأساوي،

وإعلان النقاش على الملأ من أجل التوصّل إلى معرفة هوية الذين أقدموا على هذه المحرقة، والذين يتحتم إلزامهم بسداد الفاتورة. مما لا شك فيه أن هذه العبارات التي يستحيل أن تصدر عن إنسان مناهض للسامية، لم تخضع لجولة في مكاتب المحررين، كالجولة التي خضع لها التصريح الكاذب!

*** هب أن أحمدي نجاد لا يسعى إلى تدمير إسرائيل بالقنابل النووية، فكيف نفسّر إذاً هذه الحملة التي لا يتوقف حلف الناتو عن نشرها باستمرار ضد إيران، والعقوبات التي يفرضها عليها وتهديده لها بالتدخل العسكري؟**

تكمن المشكلة، من وجهة نظر دول الاستعمار الجديد، في السياسة المستقلّة التي تتبعها إيران، وفي الدعم الذي تقدمه للمقاومة الفلسطينية في الأراضي المحتلة. ومن ناحية أخرى، تحتل الجمهورية الإسلامية مركزاً إستراتيجياً مهماً، فضلاً عن أنها بلد غني بالغاز والنفط، وتقع في قلب المنطقة الأوروبية الآسيوية (منطقة أواسيا)...

كسنجر وبريجنسكي
ممارسة الرقابة في المنطقة الأوراسية
بهدف الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة
الأمريكية على العالم

*** ما السبب وراء النشاط المكثّف الذي تبذله الولايات المتحدة الأمريكية في القارة الآسيوية؟**

يرى زبيجنيو بريجنسكي، المختص بالعلوم السياسية، في كتابه «رقعة الشطرنج الكبيرة» أن منطقة أوراسيا (المنطقة الأوروبية الآسيوية) هي أهم منطقة على الإطلاق على مستوى العالم، إذ فيها تتمركز غالبية سكان العالم، وفيها تنشُط أهم حركة اقتصادية على ظهر الكوكب.

يعتقد بريجنسكي أن من يتحكم بأوراسيا قادر على التحكم بالعالم كله. لذا يتحتم على الولايات المتحدة الأمريكية الحيلولة دون قيام وحدة في قارة آسيا، وهذا ما يفرض عليها غرس بذور الشقاق بين البلدان المهمة في القارة (الصين وروسيا، والهند على وجه الخصوص)، والقضاء على أي نظام حكم يتمتع بقدر كبير من الاستقلالية، كالموجود في إيران.

وفي السياق عينه، أوضح الخبير الإستراتيجي الأمريكي الكبير، هنري كسنجر، قائلاً : «يجب منع قارة آسيا من إنشاء سوق مشترك مرتبط بالصين، إذ من الممكن أن يفلت من رقابة الولايات المتحدة الأمريكية. هناك توجهات نحو إنشاء منطقة تبادل حر في آسيا تدعمها كل من الصين واليابان. فأي نشوب محتمل لأزمة مالية جديدة في قارة آسيا، أو في إحدى الدول الديمقراطية الصناعية، قد يدفع الدول الآسيوية إلى مضاعفة جهودها للتحكّم بمستقبلها الاقتصادي والسياسي. إن تشكّل تكتّل آسيوي معاد، يجمع الدول الأكثر اكتظاظاً بالسكان في العالم إلى جانب كونها الأغنى من حيث الموارد الطبيعية، وبعض الدول الصناعية الأكثر أهمية، لهو بالأمر المنافي للمصلحة القومية الأمريكية. من أجل كل تلك الأسباب يتحتم على أمريكا الحفاظ على وجودها في المنطقة، إذ إن هدفها الجيوسياسي يفرض عليها منع تحوّل قارة آسيا إلى تكتّل معاد (وهذا ما قد يحصل في الأغلب تحت رعاية إحدى هذه الدول العظمى)»[1].

تلك هي إستراتيجية واشنطن الأساسية. سياسة علينا أخذها على محمل الجد عندما نريد تفسير واقعة ما، تدور أحداثها في القارة الآسيوية. سواء كان تدخل الولايات المتحدة الأمريكية ظاهراً للعيان، أم يجري في الخفاء.

*** هل تُعدُّ إيران «مذنبة» بسبب علاقاتها مع الصين؟**

نعم، إذ يبلغ استهلاك الصين من النفط الذي تنتجه إيران نسبة ١٥%. في الواقع، يشكل النمو الصيني التهديد الأخطر الذي يتحتّم على الولايات

---

(١) Henry Kissinger, Does America need a foreign policy? Simon & Schuster, New York,2001, p. 111-112.

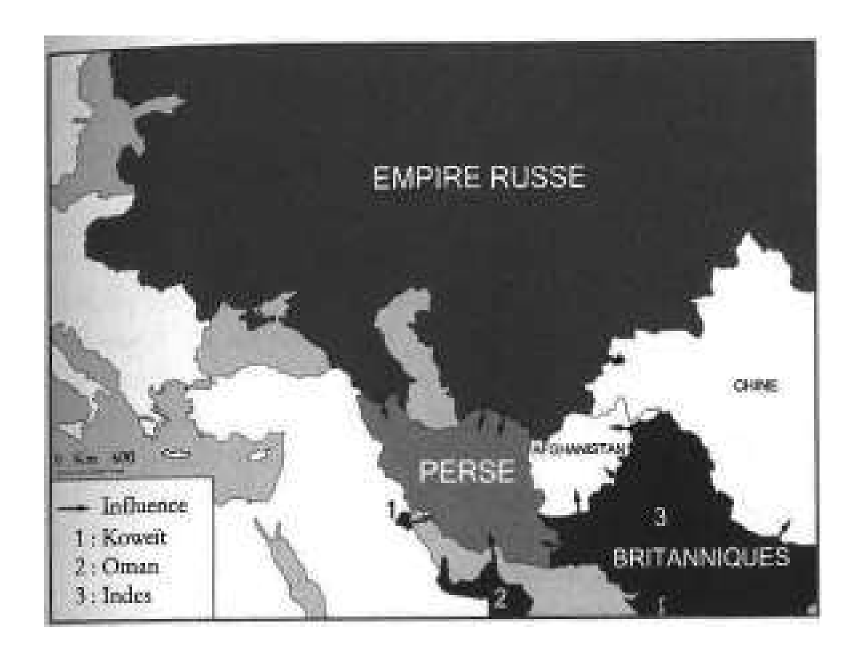
المتحدة الأمريكية مواجهته. ففي حال وضعت يدها على إيران، تستطيع أمريكا الحد من تقدم منافسها الاقتصادي الرئيس.

إلّا أن الصين ليست الوحيدة في الساحة. هناك أيضاً الهند وروسيا أو البرازيل، تلك الدول التي بدأت تبرز في الساحة، والتي عقدت معها إيران علاقات تجاريّة، بهدف إنشاء تكتّل مستقلّ بغرض تحدّي الهيمنة الأمريكية. تلعب الحكومة الإيرانية بما تملكه من احتياطات نفطية مهمة، دوراً كبيراً في هذا الانتقال من عالم أحادي القطب، يقع تحت سيطرة دول الغرب إلى عالم متعدد الأقطاب، حيث تملك دول الجنوب أن تكون جزءاً من أي عملية.

*** يبدو أن الموقع الإستراتيجي لدولة إيران كان دوماً محل إثارة لشهوات الدول العظمى. فقبل «رقعة الشطرنج الكبيرة» لبريجنسكي كان الحديث جارياً عن «اللعبة الكبرى» من أجل وصف التنافس القائم على هذه المنطقة، بين الروس والبريطانيين في القرن التاسع عشر الميلادي...**

تماماً. لم تكن إيران موجودة كدولة قومية في تلك الحقبة الزمنية. كانت تُعرف بالإمبراطورية الفارسية، وكانت دولة إقطاعية متعددة الأعراق، تحكمها سلالة قادجار (١٧٨٦-١٩٢٥). وكانت هناك دولتان عُظميان، ذاتا نظام إمبريالي، تتنافسان للهيمنة على تلك المنطقة، وعلى بلاد فارس... تقدم الروس من الشمال، وبسطوا سيطرتهم على دول آسيا الوسطى، وصولاً إلى بلاط القادجار. أما حكومة سان بطرسبورغ، فأرادت من ناحيتها، إنشاء منطقة آمنة حول روسيا ومتابعة امتدادها، انتهاءً بالمحيط الهندي. كانت تريد أيضاً السيطرة على بلاد الهند، التي تُعد جوهرة الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية. وفيما بعد، ومع بدء اكتشاف النفط في دول آسيا الوسطى، باتت المنطقة أكثر إغراءً.

بسط البريطانيون نفوذهم على بلاد فارس من الناحية الجنوبية، وذلك في رد على موقف الروس الذين سيطروا على القسم الشمالي. عمدت بريطانيا العظمى إلى إنشاء محمية في البحرين عام ١٨٢٠، ثم احتلت عدن عام ١٨٣٨. ومع بدايات القرن العشرين، أعلنت لندن سيطرتها على كامل الشرق الأوسط. في عام ١٩٠٨، أحدث اكتشاف حقل نفطي مهم في إيران تغييراً ثورياً. استخدم الجيش البريطاني هذا النفط لتزويد سلاحه الجوي، وسلاحه البحري بالوقود في المعركة التي خاضها ضد ألمانيا، وكانت هذه الأخيرة تعتمد بالدرجة الأولى على الفحم كوقود لسلاحها. جاء هذا الامتياز المصيري سبباً داعماً لكسب الحرب العالمية الأولى. إنما في بداية الأمر، كان هدف البريطانيين هو إنشاء منطقة آمنة حول المستعمرة الهندية الغنية.



بلاد فارس في وسط اللعبة الكبرى

← مناطق النفوذ:

١ - الكويت.

٢ - عُمان.

٣ - بلاد الهند.

*** كيف انعكست تبعات اللعبة الكبرى على بلاد فارس؟**

تطورت التبادلات التجارية بين دولة فارس من جهة، والإمبرياليتين الروسية والبريطانية من جهة أخرى، انبثق عنها ظهور نوعين من البورجوازية: «الكمبرادور» (التي تبني ثروتها على التجارة الخارجية) و«الوطنية»...

*** ما موقف البورجوازية الوطنية الإيرانية؟**

كانت هذه الطبقة تحمل «أفكاراً ثورية». طلبت إلى الملك التوقف عن منح الحق في استغلال موارد البلاد لشركات الدول العظمى التي دخلت في منافسة معها، حيث أرادت هذه الطبقة الاهتمام بذلك بصورة فردية.

بورجوازية الكمبرادور والبورجوازية الوطنية، ودورهما المتباين

حينما نتطرق إلى موضوع البورجوازية، بشكل عام، يتبادر إلى ذهننا أنها طبقة اجتماعية واحدة. إنما ينبغي لنا التمييز بين قطاعين مختلفين من هذه الطبقة في دول العالم الثالث، في حال أردنا إجراء تحليل للصراعات القائمة بين دول الشمال ودول الجنوب، هناك بورجوازية الكمبرادور والبورجوازية الوطنية. كلاهما يشترك في استغلال العمّال، في حين تتباين مواقفهما فيما يتعلّق بعلاقاتهما الدولية.

تميّز بورجوازية الكمبرادور بأنها بورجوازية طفيلية، ليس لها أي نشاط إنتاجي على المستوى المحلي للبلاد، فهي تبني ثروتها من خلال الصفقات التي تعقدها مع الدول العظمى الغربية، إذ تمدها بالمال لتمكنها من الاستيلاء على المواد الأولية، أو على المنتجات المحلية بأسعار زهيدة للغاية، وكذا من أجل مساعدتها في تصريف بضائعها في السوق المحلية، ولا يتم ذلك إلّا بالقضاء على المنافسين المحليين. لا تملك هذه الطبقة رؤىً مستقبلية لتطوير بلدها، بل تستثمر ثرواتها في الخارج، لتنعم بالمال هي وذريتها.

في المقابل، تسعى البورجوازية الوطنية إلى تحقيق ثروتها عن طريق بيع منتجاتها المحلية الصناعية أو الزراعية. إذ تكمن مصلحتها بالدرجة الأولى

في تطوير الموارد الطبيعية للبلد، ودعم السوق المحلي كي يصمد البلد في وجه الاستيراد من الدول العظمى، إلى جانب تشجيعها للتقدّم العلمي، ودعمها للتربية والإنتاج المحلّي. تقتضي مصلحتها قيادة ثورة ديمقراطية وطنية ضد النظام الاستعماري، فهي إذاً الحليف المناسب، بل الحليف المنطقي لقيام ثورة شعبية ضد القوى الإمبريالية.

إن التمييز بين بورجوازية الكمبرادور والبورجوازية الوطنية هو أمر مهم في دول العالم الثالث. في الحقيقة، يتحتّم على التقدميين تأسيس جبهة من الكوادر كافة للتحرر من القوى الاستعمارية التقليدية، أو الاستعمارية الحديثة لفتح الطريق أمام التطور الذاتي للبلاد.

*** مع ذلك بقي الملك خاضعاً للروس والبريطانيين...**

هذا صحيح. فهو لم يكن يعارض الشركات الأجنبية - فجاء موقفه هذا في مصلحة بورجوازية الكمبرادور - في حين شكل عائقاً في طريق تقدّم البورجوازية الوطنية، فكان لا بد للقوى الاستعمارية من دعم هذا النظام الإقطاعي المتسلط في سبيل الاستمرار في استغلال موارد البلاد وثرواتها.

*** أدّى هذا الموقف الانهزامي أمام المصلحة الأجنبية إلى اندلاع ثورة عام ١٩٠٦ التي فرضت تشكيل دستور للبلاد ومجلس نواب. كيف أُجبر الملك قادجار على تقديم هذه التنازلات؟**

اعتصم أكثر من ستة عشر ألف شخص في المساجد مطالبين بإنهاء الحكم الملكي المستبد، ووضع حدّ لقراراته الجائرة. تحالفت البورجوازية

الوطنية مع رجال الدين للمطالبة بتنظيم دستور للبلاد، وتشكيل مجلس نواب. أرادت بهذه الخطوة التحرر من النظام الإقطاعي الذي كان يقف حائلاً دون تقدمها. إنما، يا للأسف، لم تحقق هذه الثورة النجاح المطلوب، فقد استولت الطبقة الإقطاعية على غالبية المقاعد في مجلس النواب الذي لم يمضِ على تشكيله فترة طويلة، ومنعت الحركة الثورية من بلوغ غايتها.

*** كيف يُفسّر هذا الفشل؟**

يُفسر بغياب تحالف قوي بين مختلف الطبقات التي كانت تصبو إلى التخلص من الوصاية الاستعمارية. فشلت البورجوازية الوطنية في التحالف مع الفلاحين عن طريق تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي الذي كان يرمي إلى إضعاف النظام الإقطاعي.

*** ألم تنجح البورجوازية الوطنية في تطبيق قانون الإصلاح الزراعي؟**

كان عليها مواجهة عدد كبير من الأعداء في آن واحد. على الصعيد الخارجي، كانت كل من الإمبرياليات الروسية والبريطانية والألمانية ترفض رؤية البلد يسير في طريق تحقيق الاستقلال. أما على الصعيد الداخلي، فقد اصطدمت البورجوازية الوطنية ببورجوازية الكمبرادور، التي كانت ثروتها مرهونة باستمرار العلاقات التجارية مع الإمبريالية، كما اصطدمت البورجوازية الوطنية بالطبقة الإقطاعية التي هي المالك الوحيد للأراضي وللمناجم، إذ كانت هذه الأراضي وتلك المناجم تشكّل محور مفاوضات هذه الطبقة مع الشركات الأجنبية من أجل استغلالها.

الإصلاح الزراعي: بأي قوى؟ ووفق أي برنامج؟

ما الذي يؤثّر في قوة الثورة الديمقراطية أو ضعفها؟ تستمد البورجوازية الوطنية، من حيث المبدأ، القدر الأكبر من قوتها عن طريق إنشاء تحالف مع طبقة الفلاحين والطبقات المغلوبة على أمرها كافة، من أجل الإطاحة بالسلطة الإقطاعية القائمة، وهذا جدير بتهيئة الأسباب لقيام ثورة ديمقراطية كتلك التي اندلعت في فرنسا عام ١٧٨٩.

حينما تتحسن ظروف البورجوازية الوطنية من حيث القوة والثروة، تنمو حركة التصنيع وتتنظم المدن، ما يجذب الفلاحين الذين يعيشون في قراهم للنزوح إلى المدينة، وبسبب حركة النزوح هذه تجد الحكومة نفسها مجبرة على تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الذي يسمح بتنمية القطاع الزراعي لتأمين قوت الشعب. لذلك فهي تحتاج إلى برنامج زراعي أكثر فاعلية. حينما يتعاضد كبار ملّاك الأراضي، يُهدر جزء كبير من الأراضي والمياه. فإذا لم يلجأ البلد إلى اتباع سياسة الإصلاح الزراعي، فإنه سيعيش حالة كساد.

من هو القادر على إنجاح قانون الإصلاح الزراعي؟

توجد فرصتان: عن طريق البورجوازية الوطنية في حال كانت قوية بما فيه الكفاية من الناحية الاقتصادية، وعلى درجة عالية من الجرأة السياسية؛ لكن، إذا لم تكن على قدر كاف من المسؤولية، فسيتحقّق ذلك عن طريق الفئات العاملة في المجتمع، وينحصر في طبقة العمال وطبقة فقراء الفلاحين، شريطة أن تمتلك هاتان الطبقتان القوة الكافية لأخذ زمام المبادرة، والرؤية الصائبة للظروف المحيطة، من أجل المضي قدماً في الثورة.

يمكننا إذاً أن نحصل على شكلين مختلفين من نظام الإصلاح الزراعي. يهدف البرنامج العمالي إلى وضع حد لفقر الفلاح، ويسمح ببناء تحالف متين للمطالبة بالسلطة السياسية وممارستها. وهذا بالضبط ما تخشاه البورجوازية الوطنية. إذ ينحصر هدفها الأساسي في إنشاء نظام زراعي أكثر حداثة، وأكثر فاعلية لتطوير القدرات الإنتاجية للبلد.

وبالنتيجة، لم تكن الثورة تشكل محور اهتمام لدى هاتين القوتين. ومن ناحيتها، لم تتمكن البورجوازية الوطنية من تجنيد الطبقة الكادحة وطبقة الفلاحين من أجل إنجاح الثورة الديمقراطية، لكونها منهكة من تنوع الفصائل في المجتمع الإيراني.

ومن جهة أخرى، كانت البورجوازية الثورية تفتقر إلى رؤوس الأموال الكافية لتطوير اقتصاد وطني مستقل. في حين لم يكن المال يشكل عقبة لدى الطبقة الإمبريالية، لكن هذه الأخيرة كانت مصرّة على إبقاء إيران دولة ذات نظام رأسمالي شبه تابع، لذا لم تكن تستثمر أموالها لدى البورجوازية الوطنية، فكان الرابح الأول من ميزان القوى هو بورجوازية الكمبرادور التي تزايدت قوتها إلى درجة مكّنتها من السيطرة على زمام الأمور.

*** هل كان ذلك تهيئة للانقلاب الذي قام به رضا شاه بهلوي عام ١٩٢٥؟**

تماماً. كان رضا شاه يمثّل بورجوازية الكمبرادور. ولما وصل إلى السلطة، أخذ على عاتقه تحديث البلد بإنشاء السكك الحديدية، وشبكات الطرق، إلى جانب بناء الجامعات وغيرها... كما أدخل استخدام اسم الأسرة في الإدارة، وهذا دليل على التقدم الملحوظ. قد يبدو لنا هذا أمراً

تافهاً، لكنه في تلك الفترة لم يكن كذلك. تصور! كيف يمكنك فرض سيطرتك على بلد مترامي الأطراف بمساحته وبتعداد سكانه الكبير دون استخدام اسم الأسرة! لكن على الرغم من هذا التحديث، فقد بقيت إيران رهينة مصالح القوى الإمبريالية.

مع ذلك، أفصح الشاه، فيما بعد، عن رغبته في نيل الاستقلال. ففي عام ١٩٢٧، وبمساعدة آرتور شيستر ميلزبوغ، أحد مستشاري وزارة الخارجية الأمريكية، أسس أول مصرف وطني إيراني، أطلق عليه اسم «مصرف ملّي إيران». يُعدُّ هذا الإنجاز تحولاً جديراً بالاهتمام، إذ جاء رداً على البريطانيين الذين كانوا يسيطرون على موضوع إصدار العملة. ثم في عام ١٩٣٣، أعاد الشاه مجدداً مناقشة موضوع الامتياز الحصري للتنقيب عن النفط الذي مُنح في بداية القرن العشرين إلى بريطانيا العظمى. بقي هذا الاتفاق الجديد ورقة رابحة بيد الإمبريالية، لكنه جاء بفائدة كبرى لإيران، إذ تضاءل مجال هذا الامتياز بنسبة ٨٠%، وتم استبدال ثلاثة أرباع الموظفين الأجانب بمواطنين إيرانيين، والتزمت شركة النفط الأنكلو- إيرانية (AIOC) الجديدة التي أُنشئت بموجب هذا الاتفاق، بسداد مدفوعاتها لحكومة طهران. إضافة إلى ذلك، حاول الشاه دعم تطوير الصناعة النسيجية الإيرانية التي كانت خاضعة لمنافسة قاسية، نتيجة عمليات الاستيراد، بإرغام الموظفين على ارتداء ملابسهم من المنسوجات التي تُصنّع في المعامل الإيرانية.

ينحدر رضا شاه من بورجوازية الكمبرادور التي جمعت ثروتها نتيجة علاقات تجارية أقامتها مع القوى الإمبريالية. بيد أنه أراد إعادة التوازن إلى

هذه العلاقات. لذا سعى إلى إدخال التنويع في المبادلات التجارية. ففي حين كان البلد يرزح تحت سيطرة الروس والبريطانيين، لم يتوانَ الشاه عن عقد اتفاقيات جديدة مع ألمانيا وفرنسا والسويد، وهذا كان كافياً لإثارة غضب الإنكليز بصورة خاصة.

*** هذا يفسر سبب النفي القسري الذي تعرّض له الشاه عام ١٩٤١...**

نعم. أصبحت ألمانيا الشريك الاقتصادي الأول لإيران. وحين اندلاع الحرب العالمية الثانية طلب البريطانيون من الشاه طرد جميع العاملين الألمان لديها من البلد، فقابل الشاه طلبهم بالرفض، بسبب اتخاذه، على نحوٍ رسميّ، موقفاً محايداً في الصراع القائم بينهما.

خشيت بريطانيا العظمى فقدانها لهيمنتها على مصفاة عبدان التي كانت تحت سيطرة شركة النفط الأنغلو-إيرانية (AIOC). فقد شكّل هذا النفط الوقود الأساسي لسلاح القوات السوفييتية التي شاركت في الحرب ضد ألمانيا على الجبهة الشرقية. فما كان من بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتي إلّا الإقدام على غزو إيران عام ١٩٤١، وإرغام الملك على التنحي عن عرشه، فسارع البريطانيون إلى تعيين ابنه الشاب محمد رضا بهلوي مكانه.

*** لا بد أن الوضع العالمي كان سيشهد تغييراً كاملاً...**

بالفعل، شهد العالم انقلاباً جذرياً. لقد رأينا في بداية هذا الكتاب كيف خرجت كل من بريطانيا وروسيا منهكتين في أعقاب الحرب العالمية الثانية بسبب الجهد الذي بذلتاه في أثناء هذه الحرب، في حين استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية اغتنام الفرصة لقيادة العالم، علماً أنها لم تقدّم

فيها أي تضحيات تذكر، كما تمكنت واشنطن تدريجياً من أن تحل محل لندن في الإشراف على منطقة الشرق الأوسط.

ومن جهتها أيضاً، شهدت إيران تطوراً في موازين القوى، فقد مارست الإمبريالية البريطانية سيطرتها على الشاه الابن، في حين اكتسبت بورجوازية «السوق» مزيداً من الثقة بالنفس.

*** وماذا تقصد بـ «بورجوازية السوق»؟**

إنها الطبقة البورجوازية التي تُعرف بالـ «البازاري»، نهضت ونمت في أسواق المدن الصغيرة، بممارستها لتجارة السجاد وغيرها من منتجات الصناعات الحرفية. أخذت هذه الطبقة تكتسب مزيداً من القوة بالتزامن مع تطور البلاد، فلقد عاد تطور البنية التحتية بالفائدة على تجارتها. فضلاً عن إتاحة هذه البورجوازية الفرصة أمام الحرفيين لتحديث صناعتهم باستثمار أموالهم في تأسيس نظام الورشات، مع الإبقاء على الطابع المتواضع لهذه الاستثمارات.

*** هل يمكننا القول إن «بورجوازية السوق» أو «البازاري» تنتمي إلى البورجوازية الوطنية؟**

تختلف هذه الطبقة (البازاري) عن البورجوازية الوطنية، إذ تعتمد في معيشتها على التجارة، ولم تكن تجمع رؤوس الأموال لاستثمارها في تطوير وسائل الإنتاج الذي يُعد شرطاً أساسياً لتطوير اقتصاد مستقل.

كما تختلف هذه الطبقة عن بورجوازية الكمبرادور، إذ لم تكن أعمالها متوقفة على العلاقات التجارية مع الدول الاستعمارية بشكل كامل، حتى لو لجأت إلى المساومة مع الدول العظمى الأجنبية، فقد كانت تتاجر في الداخل

الإيراني، وتدعم منتجات الصناعات الحرفية. في حين اتصفت بورجوازية الكمبرادور بكونها طفيلية لا تقدم أي مصدر ثراء للبلد.

*** كيف كانت العلاقة بين بورجوازية «البازاري» والسلطة الحاكمة؟**

جرياً على العادة، كانت متحالفة مع رجالات الدين. كانت هي الطبقة الرئيسة القادرة على التصدي لسلطة الشاه. لقد اتسم الوضع داخل إيران بخصوصية معيّنة. كان الملك الذي اعتلى العرش شاباً لا يملك أي تجربة، ويخضع للوصاية البريطانية التي ما لبثت الحرب أن نالت من قوتها بشكل خطر. من ناحية أخرى، انبثق عن التحديث الذي شهدته البلاد ظهور طبقة مهمّة هي طبقة العمال، التي تمتلك القدرة الأكبر على المعارضة.

جاء تدخّل محمد مصدِّق (١٨٨٢-١٩٦٧) في ظل هذا السياق. ينحدر مصدِّق من سلالة قادجار، إذ كانت أمه أميرة، وكان والده يشغل منصباً مهماً في وزارة المالية. ينتمي هذا الشاب إلى تيار البورجوازية الوطنية الإيرانية. بدأ حياته السياسية وهو لا يزال في ريعان شبابه، وشارك في ثورة ١٩٠٦ التي كان من أهدافها إنشاء دستور للبلاد. استغل منصبه كنائب في مجلس النواب، ليتصدّى لتتويج رضا بهلوي، وكان يشجع إجراءات التحديث التي يقوم بها الشاه، مع اعتقاده بأن استيلاء الملك على السلطة وممارستها بشكل مطلق ينافي مفهوم الدستور النيابي. في إثر هذه التصريحات، نُفي إلى ولاية متاخمة للحدود مع أفغانستان، ليعود إلى طهران في إثر تنازل الشاه عن العرش عام ١٩٤١. لمع نجم محمد مصدِّق حين عودته إلى العاصمة بمنصب نائب في مجلس النواب، عندما أعلن التصويت على القانون الذي يحظر منح امتيازات نفطية دون الحصول على موافقة مسبقة من مجلس النواب.

*** هل كانت هذه هي الخطوة الأولى في طريق تأميم النفط الإيراني؟ وهل التزم الشاه الشاب محمد رضا الصمت حيال هذا الإجراء؟**

لقد تغيرت موازين القوى في الداخل الإيراني. فمع تحديث البلاد، ومع تطور الطبقة العاملة، اكتسب الحزب الشيوعي المعروف باسم «توده» قوة لا يستهان بها. وعرفت الأفكار الشيوعية طريقها إلى إيران في القرن التاسع عشر. تم تأسيس حزب «توده» عام ١٩٤١، وبدأ بالحصول على مقاعد عدة عبر الانتخابات النيابية عام ١٩٤٤ قبل أن يتفاقم عددها بشكل مروع، إلى درجة وصل به الأمر لأن يصبح أحد أهم القوى على الساحة السياسية، والحزب الأكثر تأثيراً على صعيد الشرق الأوسط.

*** وهل كان حزب «توده» يدعم مصدِّق؟**

نعم، تماماً كما هو الأمر بالنسبة لموقف بورجوازية «البازاري» التي أبدت تحمّسها لذلك الزعيم السياسي الذي وقف في وجه القوى الإمبريالية وبورجوازية الكمبرادور. حازت أفكار مصدِّق إعجاب الرأي العام، وفي عام ١٩٥١ صوّت مجلس النواب الإيراني بالإجماع على قرار تأميم النفط. بعد فترة وجيزة، تم انتخاب مصدِّق ليشغل منصب رئيس الوزراء، جاء ذلك بدعم من الغالبية العظمى من الشعب الإيراني. لم يكن بمقدور الشاه الاعتراض على رئيس وزراء يتمتّع بكل تلك الشعبية.

*** كيف كانت ردة فعل البريطانيين؟**

كانوا حانقين! لقد أنزل التأميم خسارة في الأرباح للإمبراطورية الاستعمارية الآخذة في التدهور. نذكر في سبيل المثال، مصفاة عبدان، كانت

تغذي ٨٥% من متطلبات البحرية الملكية من الوقود، في حين بلغت الأرباح السنوية التي كانت توفرها شركة النفط الأنكلو-إيرانية إلى بريطانيا العظمى المنهارة اقتصادياً من جراء الحرب العالمية الثانية، اثنين وتسعين مليون جنيه.

قررت بريطانيا، في عام ١٩٥٢، المرافعة عن قضيتها أمام المحكمة الدولية في لاهاي، فجاء دفاع محمد مصدِّق بهذه العبارات: «كانت شركة النفط الأنغلو- إيرانية دولة داخل دولة. وكان الإنجليز يسيطرون فيها على أدق التفاصيل. ولم يكن لإيران أي حق في التفتيش حول كميات أو أسعار النفط المستخرج. هذه القضية هي من اختصاص إيران».

لقد ربح مصدِّق القضية، إذ اعترفت محكمة لاهاي بأنها غير كفية لتسوية النزاع القائم.

مع ذلك، لم تستسلم بريطانيا العظمى، إذ لجأت إلى تنفيذ سلسلة من التدابير التي تهدف إلى زعزعة استقرار إيران وأمنها، منها فرض الحظر على النفط الإيراني، وقوبل هذا النهج بدعم من الشركات النفطية الغربية التي ضاعفت من إنتاجها النفطي، بغية صرف الزبائن عن شراء النفط الإيراني.

إضافة إلى ذلك، لجأت لندن إلى إفساد النواب الأعضاء في حزب مصدِّق كي يصوتوا ضد رئيس الوزراء، فما كان منه إلا أن طالب بالصلاحيات الكاملة قبل أن يتقدّم باستقالته من حكومة الشاه الذي رفض التنازل للحكومة عن قيادة الجيش، فثار الشعب غاضباً، ونزل إلى الشارع للمطالبة بعودة مصدِّق، ما اضطر الشاه إلى إعادة تنصيب رئيس وزرائه بعد مضي ثلاثة أيام على الشغب. عندئذٍ، وبهدف الحد من انتشار الفساد، لجأ مصدِّق في اليوم الثالث من شهر أغسطس من عام ١٩٥٣ إلى تنظيم استفتاء

من أجل حلّ مجلس النواب، فجاءت نتيجة التصويت بموافقة غالبية الشعب على حل المجلس.

*** هل لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دوراً في هذا التهديد؟**

لعبت دور الوسيط بين إيران وبريطانيا العظمى في بداية الأمر، ولما هدّدت لندن باجتياح إيران، تصدت لها واشنطن بحزم، وهددتها بدعم مصر التي كانت في صراع مع بريطانيا، غير أن دور الوساطة لم يكن يسيراً على الولايات المتحدة من جراء موقف مصدِّق المتشدد. لقد رفض هذا «العجوز العنيد» كما كان خصومه يسمونه، رفض دفع أي تعويضات إلى لندن مقابل تأميم النفط الإيراني. كان يرى أن الأرباح الطائلة التي جنتها شركة النفط الأنكلو- إيرانية على حساب الشعب الإيراني، تضاهي كل تعويضات العالم.

زد على ذلك، عبرت الولايات المتحدة الأمريكية عن مخاوفها من رؤية تقارب في المواقف بين مصدِّق والسوفييت. لقد تدهورت العلاقات التجارية بين إيران وبريطانيا العظمى نتيجة تأميم النفط، فإلى جانب الحظر على النفط، أسهمت هذه الخسارة التجارية في إبقاء صناديق الدولة الإيرانية في المنطقة الحمراء.

مع ذلك، لم يكن مصدِّق شيوعياً، على الرغم من دعم حزب «توده» له، ولم يكن يرغب في إقامة علاقات خاصة مع موسكو. بل لم يكن يريد أن تؤدي عملية تأميمه للنفط، التي جاءت في فترة الحرب الباردة، إلى إشعال أزمة بين الشرق والغرب. إنما وجد نفسه مضطراً للبحث عن شركاء

تجاريين وسط المواجهة الحاسمة التي يقودها مع البريطانيين من جهة، والوضع المالي السيئ للدولة الإيرانية من جهة ثانية، فكان البديل فرنسا والجمهورية الفدرالية الألمانية والاتحاد السوفييتي الذي تضاعفت معه التبادلات التجارية بشكل مكثف، ما أثار القلق لدى واشنطن.

*** كان عام ١٩٥٣ موعد تنفيذ عملية آجاكس لقيادة عملية الانقلاب على مصدِّق وإسقاطه. وبعد مضي أكثر من خمسين عاماً على تلك الوقائع، اعترف الرئيس باراك أوباما رسمياً بتورط وكالة الاستخبارات الأمريكية في عملية الانقلاب. فما دور هذه الوكالة بالضبط؟**

أسهمت الأزمة، التي اندلعت بسبب عملية تأميم النفط، بإجراء تغيير في موازين القوى داخل المجتمع الإيراني، فقد تغير موقف كل من الحزب الشيوعي «توده» من جهة، وبورجوازيي «البازاري» ورجال الدين (الملالي) من جهة ثانية من مصدِّق، وتوقفوا عن دعم مواقفه علناً. كلٌّ كان يبحث كيفية تحويل النزاع لمصلحته.

فما كان من الشاه الذي كان يحظى بدعم قوي من الولايات المتحدة الأمريكية، إلّا استغلال هذه الفرصة، فحاول في المرة الأولى إسقاط مصدِّق بتعيين الجنرال زاهيدي رئيساً جديداً للوزراء في الخامس عشر من شهر آب، لكن لما تسربت أخبار المؤامرة إلى مصدِّق، بادر إلى استدعاء المتآمرين، فما كان من الشاه الذي علم بفشل الانقلاب إلا مغادرة إيران.

عندئذٍ، قادت وكالة الاستخبارات الأمريكية حملة لإثارة الشغب والفوضى في البلاد. فدفعت بوكلاء مأجورين من قبل واشنطن لتهديد رجال الدين (الملالي)، وفعلاً تمّ تنفيذ هجوم مزيف على منزل أحدهم،

لإيهام الجماهير أن ذلك من فعل أعضاء الحزب الشيوعي «توده». كما دفعت بمتظاهرين مأجورين إلى الشارع أيضاً لإدخال الريبة في قلوب الجماهير، بانتماء مثيري الشغب إلى الحزب الشيوعي، ولزرع الذعر في شوارع طهران. فجاء جواب حزب «توده» لأعضائه بالتزام منازلهم، وعدم مغادرتها بعد اطلاعه على هذه الخديعة.

بهذه الطريقة، أصبح المجال مفتوحاً أمام المتظاهرين الساخطين على مصدِّق، وقد انضم إليهم العديد من الإيرانيين الذين خُدعوا بالمظاهرات المضلّلة، وعمليات وكالة الاستخبارات السوداء. انقلب الشعب ضد رئيس وزرائه، واستولت وحدات عسكرية مناهضة لحكومة مصدِّق على زمام الأمور في العاصمة. بعد ثلاثة أيام من إفشاله لمحاولة الانقلاب الأولى، اضطر مصدِّق إلى تسليم نفسه، وتم توقيفه في الثامن عشر من شهر آب من عام ١٩٥٣.

مَثُل مصدِّق أمام المحكمة العسكرية التي حكمت عليه بثلاث سنوات من السجن الانفرادي مراعاة لكبر سنه، نُقل بعدها إلى منزله لتنفيذ حكم الإقامة الجبرية. صرّح مصدِّق في أثناء محاكمته: «إن الجريمة الوحيدة التي اقترفتها هي القرار الذي اتخذته بشأن تأميم النفط. لقد وقفتُ في وجه أكبر إمبراطورية على وجه الأرض... كما ناضلتُ ضد أكبر مؤسسة تجسّس عالمية. إنما أراد هؤلاء الذين حققتُ نصراً عليهم إعلام شعوب المشرق عن المصير الذي ينتظر الرجل الذي يجرؤ على التصدي لهم وتحديهم». توفي مصدِّق بعدها بسنوات قليلة، أي في عام ١٩٦٧، ولم يشغل الإعلان عن وفاته في الصحف الإيرانية سوى ثلاثة أسطر: إذ لم يرد الشاه إثارة تلك الحقبة من تاريخ إيران مجدداً.

*** هل كانت تلك هي المرة الأولى التي قادت فيها الولايات المتحدة الأمريكية هذا النوع من العمليات؟**

نعم، لكن ما كان لهذا النص السينمائي أن يتوقف... لقد لعبت شخصيتان سياسيتان الدور الأهم في عملية آجاكس الأمريكية، وهما الأخوان دالاس. كان الأول ويدعى آلن، عميلاً سرياً ذائع الصيت، نجح في اختراق الاستخبارات السرية النازية إبان الحرب العالمية الثانية. وبعد النزاع، أنشأ تنظيماً جديداً أطلق عليه اسم وكالة الاستخبارات الأمريكية، كان الهدف من إنشائه هو قيادة عمليات سرّيّة، للحد من النفوذ السوفييتي في المنطقة. شهدت أوروبا أولى تلك المحاولات (في ألبانيا وأوكرانيا وبرلين)، لكنها مع ذلك، لم تلقَ أي نجاح، بل أعطت للوكالة انطباعاً عن عجزها. فما كان منها إلا تنفيذ عملية آجاكس لاستعادة هيبتها.

أما الأخ الثاني، ويُدعى جون فوستر، فكان يشغل منصب وزير خارجية الولايات المتحدة في عهد الرئيس آيزنهاور. كان محامياً ماهراً وقادراً على إقصاء أي شخص يحاول أن يختلف معه في أمر ملف من الملفات. كان مصدر ثقة لدى آيزنهاور، وكان موهوباً في إبعاد أي أحد يحاول منافسته في مَلَكة التأثير في الرئيس. كان الأخوان دالاس يلوّحان بخطورة تحول إيران إلى دولة شيوعية قادرة على نقل العدوى إلى الشرق الأوسط، فكان لا بد من التدخل السريع لاجتناب «هذا النص التمثيلي الكارثي» حتى لو اضطر الأمر إلى اللجوء إلى طرائق غير شرعية، فكان الحديث جارياً عن القيام بانقلاب للإطاحة به.

إنما، قوبلت فكرة الانقلاب بمعارضة مجموعة من المسؤولين في وكالة الاستخبارات الأمريكية، وانضم إلى هذه المجموعة عملاء، كانوا موجودين في إيران، متذرعين بأن حزب «توده» لا يملك الوسائل الكافية لبسط نفوذه في البلاد. وفي حال تنحية مصدِّق، فسيحل مكانه رجل آخر، ليكمل مسيرته. وقد اعتقدوا أن مثل هذه العملية حري بها أن تربط بين الولايات المتحدة والاستعمار الفرنسي-البريطاني، هذا وقد حرص البيت الأبيض على الابتعاد عن مثل هذا الربط.

*** فكان الانتصار لرأي الأخوين دالاس. هل جاء ذلك في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية؟ أو ضدها؟**

كانت للأخوين دالاس سطوة كبيرة، فيما منح آيزنهاور الضوء الأخضر لوكالة الاستخبارات الأمريكية معللاً ذلك بقوله: «نفّذوا الموضوع، ولا ترهقوني بكثرة التفاصيل».

عُهد إلى كيرميت روزفلت، حفيد الرئيس الأمريكي الأسبق، مهمة قيادة العملية. أحرزت عملية الانقلاب نجاحاً في اتجاه معيّن، إذ تمكنت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية من إسقاط الحكومة، دون اللجوء إلى استخدام كثير من الوسائل. ثم ما لبثت هذه العملية أن تكررت في غضون أقل من عام في غواتيمالا، من أجل الإطاحة بالرئيس غوزمان الذي كان يعارض مصالح شركة الفاكهة المتحدة، واستبداله بالطغمة العسكرية، المعروفة بشركة تشيكيتا براندز حالياً.

مع ذلك، نستطيع القول إنه، وعلى المدى الطويل، لم تأتِ عملية آجاكس ملبية لمصالح الولايات المتحدة، بل مهّدت لقيام الثورة الإسلامية

عام ١٩٧٩، وعملت على تضاؤل حزبين علمانيين مهمين، هما الجبهة الوطنية لمصدِّق، والحزب الشيوعي «توده». يضاف إلى ذلك أنه لم تزل عملية آجاكس تغذي لدى الشعب الإيراني شعوراً عميقاً بالحقد الدفين تجاه الولايات المتحدة الأمريكية حتى يومنا هذا.

*** ساد الاعتقد لدى المسؤولين الأمريكيين المعارضين لعملية الانقلاب أن إسقاط مصدِّق لن يغيّر من عملية توزيع ورق اللعب، بل سينعكس سلباً على صورة الولايات المتحدة. كيف عالجت واشنطن هذا الموضوع؟**

تغلبت الولايات المتحدة على هذه الصعوبات بإعادة تنصيب الشاه في السلطة، وبتمويل جهازه القمعي. فقد اندثرت فكرة الملكية الدستورية إلى الأبد، وتحول الحكم في إيران إلى نظام ديكتاتوري، يتم فيه قمع أي شكل من أشكال المعارضة، باللجوء إلى القسوة الوحشية، بقيادة السافاك، وهي ما يعرف بالسلطة السياسية السرية (أو منظمة المخابرات)، التي تم إنشاؤها عام ١٩٧٥، بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، والموساد الإسرائيلي، ومكاتب الاستخبارات السرية في جنوب أفريقيا. باتت السافاك تمتلك سلطات شبه مطلقة، وتستطيع اللجوء إلى تعذيب المناهضين للشاه بصورة منتظمة.

كما حققت عودة الشاه إلى دفة الحكم انتصاراً لبورجوازية الكمبرادور، فقد انحازت إيران بشكل كلي إلى تلبية مصالح الشركات الأجنبية. لا ننكر هنا تطور المدن، ونمو الصناعة النفطية، إلى جانب تطور الطبقة العاملة والبورجوازية البسيطة، التي حظيت بشيء من التعليم. غير أن اقتصاد إيران بقي متوقفاً على الدول الإمبريالية العظمى، وباتت

الطبقات الاجتماعية تتفاوت من ناحية الثروات في الداخل الإيراني بشكل مـأساوي، فكانت ثروة القلة القليلة من الإيرانيين تفوق ثروة كل من هم في بيفرلي هيلز، في حين كانت الأغلبية الساحقة من الشعب الإيراني تسير في الشوارع حافية القدمين.

*** مع ذلك، أطلق الشاه ما يُعرف بالثورة البيضاء عام ١٩٦٢ بهدف تطوير البلاد، وتحديثها في مجالات الزراعة والتربية ووضع المرأة، أليست كلها مظاهر إيجابية؟**

في الواقع، تشمل هذه الثورة التي أطلقتها إيران بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية مظاهر متعددة، فهي سمحت للشاه أن يضعف من شأن القوى المعارضة المتمثلة بالليبراليين، وطبقة البورجوازية الوطنية، وبورجوازية البازاري، ورجال الدين (الملالي). ففي سبيل المثال، لم يتم إعادة توزيع الأراضي على الفلاحين، على نطاق واسع، في ظل نظام الإصلاح الزراعي الذي أقره، بل أسهم الإصلاح الزراعي في إضعاف إقطاعيي الأراضي الذين تربطهم علاقات تقليدية برجال الدين (الملالي). ومن المنطلق نفسه، كان لانتشار المدارس العامة المجانية دور في تثبيط همة الفقراء في إرسال أولادهم إلى مدارس تحفيظ القرآن. وهكذا بدأ رجال الدين يفقدون شيئاً فشيئاً من هيمنتهم على المجتمع الإيراني.

*** إنما، ألم تسهم الثورة البيضاء في تطوير البلد؟ إضافة إلى ذلك، أسهمت أزمات أسعار النفط في مطلع السبعينيات من القرن العشرين في إحداث تدفق لمبالغ ضخمة استفادت منها البلاد المنتجة، مثل إيران.**

بالتأكيد، شهدت البلاد نمواً صناعياً ملحوظاً، لكن انحصرت رؤوس الأموال اللازمة للاستثمارات في أيدي رجالات الدولة من جهة، ومن جهة أخرى، تم التوسع الاقتصادي بمشاركة شركات متعددة الجنسيات، منها الأمريكية بشكل أساسي.

نتيجة لذلك، أسهم نمو الاقتصاد في دعم بورجوازية الكمبرادور التي يمثلها الشاه. إذ تضامنت هذه البورجوازية مع شركات متعددة الجنسيات، لتطوير مشاريع عدّة في إيران، لكنها في واقع الأمر، كانت تستغلّ علاقاتها لدى البلاط الملكي لانتزاع العقود مقابل حصولها على عمولات كبيرة، وكانت الشركات متعددة الجنسيات هي التي تدير دفة الأمور.

إضافة إلى ذلك، فرضت هذه التبعية استيراد منتجات وتجهيزات ليعاد طرحها للبيع مجدداً في أسواق إيران، وأخذت الدولة على عاتقها مسؤولية التكاليف الإضافية بموجب علاقاتها مع زبائن المحسوبيات.

نستنتج من كل ذلك، أن النمو الاقتصادي في ظل حكم الشاه بقي مرهوناً بالدول الأجنبية العظمى، واتسم بانتشار الفساد على نطاق واسع.

*** أصبحت العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران وثيقة جداً...**

احتلت واشنطن مكانة لندن كدولة عظمى ذات نفوذ في منطقة الشرق الأوسط، غير أن هذه المنطقة كانت مسرحاً لمعركة قائمة بين معسكرين. فمن جهة، تجد القوميين العرب المتأثرين بالاتحاد السوفييتي، الذين أرادوا اتباع سياسة مستقلة، وقلب أنظمة الحكم الإقطاعي. ومن

جهة أخرى، تجد القوى الرجعية التي حظيت بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية كالسعودية وإيران.

فمن أجل القضاء على كل أشكال المعارضة، ومن أجل البقاء في السلطة، وجد الشاه نفسه محتاجاً إلى طلب الدعم من واشنطن، ولكن في المقابل أسهم الحكم العسكري المستبد القائم في إيران في انتصار القوى الإمبريالية المحترفة في الشرق الأوسط.

*** ما الشكل الذي اتخذته المعارضة في إيران رداً على نظام الحكم الديكتاتوري العسكري التابع للإدارة الأمريكية؟**

اتسم توزيع الثروات في إيران بتباين صارخ. فقد عاشت بورجوازية الكمبرادور ثراءً فاحشاً، في حين عانت الأغلبية الساحقة من الشعب من الفقر الشديد. ومن ناحية أخرى، تسببت تبعية الكمبرادور للولايات المتحدة الأمريكية ولأوروبا بإضفاء سمة «محاكاة الغرب» (إضفاء الطابع الغربي) في الأوساط الاجتماعية الإيرانية، وبشكل خاص لدى النخبة منها، ما دعا إلى ظهور طبقة من المثقفين الإيرانيين الذين بدؤوا بتوجيه الانتقادات لما يُسمى بالـ «السم الغربي». لم يكن رفضاً خالصاً وبسيطاً للقيم الغربية فقط، بل تعداه إلى نقد تبعية المجتمع الإيراني للعالم الغربي، والتنديد بغياب العدالة الاجتماعية .

اهتم الأديب جلال الأحمد (١٩٢٣-١٩٦٩)، في سبيل المثال، بنقل مؤلفات سارتر وكامو إلى اللغة الفارسية، فصبّ جل انتقاده على النظام التربوي بشكل خاص، قائلاً إن التعليم في إيران قد أُصيب بالتسمم من

جراء هذه النزعة الغربية التي تهدف إلى «إنتاج» أناس حاملين للشهادات الجامعية وجاهزين للعمل، بدلاً من الاهتمام بتخريج المثقفين.

كما وجّه انتقاده إلى التنمية الصناعية في البلد، وإلى ظاهرة التمدّن التي حرّضت على هجرة الريف إلى الحضر. لقد اعتقد أن مكننة الزراعة في إيران تلبي حاجة الغرب، بإعادة تدوير النفط عن طريق بيع الجرارات، كما رأى أن إيران أصبحت خاضعة للآلات وللغرب، في حين كان يترتب عليها السيطرة على هذه التقنيات الحديثة وتصنيعها في الداخل الإيراني. وبصورة عامة، أظهر جلال حدّة تجاه بورجوازية الكمبرادور المهيمنة في البلاد، التي كانت تعمل في خدمة المصالح الأمريكية.

*** وهل كان النظام يغض الطرف عن تلك الانتقادات؟**

كلا، كان جهاز السافاك يقمع المعارضة بكل مستوياتها، وبشكل وحشي، لذا عمل جلال وغيره من طبقة المثقفين على التحايل على الرقابة المفروضة، وذلك بالتعبير عن انتقاداتهم عبر القصص، على غرار الأديب الفرنسي لافونتين وحكاياته الخرافية.

إنما، هناك مع ذلك استثناء، إنه علي شريعتي، ذلك الطالب المتفوّق الذي أثبت وجوده في مجال علم الاجتماع. تابع علي دراسته في جامعة السوربون في فرنسا في الخمسينيات من القرن العشرين، في الوقت الذي كانت فيه الثورة الجزائرية في أوجها. شهد المظاهرات في باريس، واستمع إلى النقاشات التي تناولت القضية الجزائرية، وعلم بوضع الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يعارض تصفية الاستعمار... قرر هذا الطالب المشاركة

في جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وتأثر بفرانتز فانون، أحد مؤسسي أيديولوجية العالم الثالث، وترجم أشهر كتب هذا الرجل الثوري الذي يحمل الجنسيتين الفرنسية والجزائرية، بعنوان: «المعذبون في الأرض».

حين عودته إلى طهران، عمل شريعتي على تطوير أيديولوجية تجمع بين ماركس والإسلام. استوحى من علم اللاهوت الذي ينادي بالتحرر في أميركا اللاتينية، وعدَّ أن الدين يجب أن يخدم صراع الطبقات. مع ذلك، كان هذا المفكر مناهضاً للشيوعية، لذلك سمح له الشاه بالتدريس في جامعة طهران، بعد تعرضه للقمع السياسي، في إثر عودته من فرنسا. بالفعل أسهمت تنمية البلد في خلق طبقة البورجوازية البسيطة، وعززت من مكانة الطبقة العاملة. كانت هذه الرسالة ملائمة لحزب «توده»، إذ تبيّن أن الحزب لم يندثر بعد سقوط مصدِّق، بل تابع مسيرته في الخفاء، على الرغم من نظام حكم الشاه المستبد. من جانبه، اعتقد الشاه أنه بالسماح لشريعتي التحدث عن أفكاره الدينية، ومناهضته للشيوعية دون قيد أو شرط، فإنه يُضعف من تأثير حزب «توده».

*** وهل كان لهذه السياسة من ثمرة؟**

ليس تماماً. انتقد شريعتي السلطة الحاكمة، ودافع عن حق المظلومين، ونادى بالتغيير على الرغم من كونه معارضاً للشيوعية، واتسم خطابه بالطابع الديني. لقد تأثر إلى حد كبير بكتابات جلال الأحمد حول «التسمم الغربي» الذي انتشر في البلاد، و كان يدعو الشبان إلى المشاركة في المقاومة قائلاً: «إذا لم تكن مشاركاً في ساحة القتال، فالأمر سيان أن ترتاد المساجد أو البارات».

وأخيراً، أثار تأثير شريعتي القوي غضب السلطة الحاكمة التي حكمت عليه بالنفي خارج البلاد. توفي عام ١٩٧٧ عن عمر ناهز ٤٤ عاماً. ذكرت الأنباء الرسمية أنه توفي في إثر نوبة قلبية، إلّا أن الشكوك كلها تحوم حول رجال السافاك. توفي شريعتي قبيل اندلاع المظاهرات الأولى التي أدت إلى إسقاط الشاه بفترة وجيزة. مع ذلك، لعب شريعتي دوراً أساسياً في مجريات أحداث الثورة الإسلامية، وفي الحقيقة، يعدّه كثيرون قائداً أيديولوجياً للثورة.

*** أطاحت الثورة الإسلامية بالشاه عام ١٩٧٩، لكن، ألم تكن هذه الدعامة للإمبريالية الأمريكية على قدر كاف من الصلابة، كما كانت توحي بذلك؟**

شكلت الظروف المعيشية الصعبة التي كانت تحياها الغالبية العظمى من الشعب الإيراني، إضافة إلى فساد النظام الحاكم، مرتعاً خصباً وملائماً لاندلاع الثورة. نجحت الأحزاب المعارضة في تشكيل قاعدة شعبية متينة على الرغم من ممارسات القمع السياسي، فإلى جانب حزب «توده» الذي تحدثنا عنه سابقاً، هناك أيضاً الفدائيون الذين خرجوا من صفوف الشعب، وهم مجموعة استلهمت أفكارها من الحزب الشيوعي الماوي (نسبة إلى ماو تسي تونغ) الذين تمكنوا من إشعال فتيل المقاومة المسلحة ضد نظام الشاه المستبد، إلّا أن هذه المنظمة قوبلت بالقمع الوحشي على يد السلطة، وتلاشى أثرها قبل قيام الثورة الإسلامية.

كما كانت هناك منظمة مجاهدي الشعب الإيراني (OMPI)، تأثرت هذه المجموعة من الشبان الإيرانيين المثقفين بفكر علي شريعتي. فبعد أن عملت

على دراسة تاريخ الحركات الاجتماعية المهمة في إيران، توصّلت إلى النتيجة التي تفرض وجود مقاومة مسلّحة، بقيادة زعيم يتمتع بشخصية جذابة، فوقع اختيارهم على آية الله خميني.

*** وهل كان الخميني ذا شخصية مؤثرة؟**

نعم. كان أحد وجهاء رجال الدين، وقد جذب إليه الأنظار في بداية الستينيات من القرن العشرين، عندما تصدّى للثورة البيضاء التي قادها الشاه، في محاولة منه لإضعاف رجال الدين (الملالي). أُلقي القبض عليه عام ١٩٦٣، بسبب الدور المهم الذي لعبه في أعمال الشغب التي هزت إيران. وإنما، إدراكاً منه للدعم الشعبي الذي يحظى به آية الله خميني، قرر الشاه إطلاق سراحه، تجنباً لوقوع أعمال شغب أخرى. تابع الخميني توجيه انتقاداته للنظام الحاكم، فوجد نفسه منفياً إلى العراق، ومنه إلى فرنسا.

وفي الأول من شهر شباط من العام نفسه، وبينما كانت الثورة محتدمة، أعادت منظمة مجاهدي الشعب الإيراني OMPI آية الله الخميني إلى إيران، على أمل الاستفادة من شخصيته المؤثرة لدى الشعب، فنزل ملايين من الإيرانيين إلى الشوارع، وتوقف الجيش عن دعم النظام الحاكم، فوجد الشاه نفسه مضطراً للهروب خارج البلاد.

مع ذلك، رأت منظمة مجاهدي الشعب الإيراني أن الثورة لم تنته بعد. لقد عملت الانتفاضة الشعبية على الإطاحة بالنظام الحاكم المستبد، لكن توجب الآن بناء مجتمع ديني، لا يعترف بالطبقية، كما نادى بذلك علي شريعتي. اعتقدت هذه المنظمة أن أمر تطوير هذا المشروع يقع على عاتقها، وأن رجال الدين (الملالي) غير قادرين على القيام به. لقد ارتكبت هذه

المنظمة، في حقيقة الأمر، خطأً فادحاً عندما أغفلت التمعن في كتابات الخميني قبل أن تستخدمه، فلو أنها درست كتاباته بروّية، لأدركت أن للخميني رؤيته الخاصة للأمور، وأنه شخص صعب المراس، ولا يتمتع بالمرونة المطلوبة.

*** ما مذهب الخميني الفكري؟**

كان يستلهم أفكاره من دول العالم الثالث، تلك الأفكار التي تطورت في تلك الحقبة من التاريخ، وكان يؤمن بضرورة عودة السلطة إلى الشعب الذي قهرته الإمبريالية، كما كان يعتقد أنه يتوجب على السلطة الدينية أن تمارس دورها في مفهوم الديمقراطية الإسلامية الذي أنشأه.

*** «ديمقراطية»؟ نحن لسنا على دراية كافية بالمفاهيم التي تحكم إيران في هذا المجال...**

يعتقد الخميني أن السلطات الدينية هي التي تقرر الخطوط العريضة لقضايا الجمهورية، أما فيما يتعلّق بموضوع الإدارة اليومية للسياسة، فيوكل الأمر فيها إلى مجلس النواب ورئيسه المنتخب من قبل الشعب. إذاً لديك في إيران، في أعلى الهرم المرشد الأعلى الذي يمثل الدعامة الأساسية للنظام الحاكم، الذي كان الخميني أول من شغله في اليوم التالي للثورة. ثم تأتي من بعد ذلك جمعية الخبراء، وهي عبارة عن مجلس يضم ستة وثمانين رجل دين، قد يدعم أو لا يدعم المرشد في مهامه، وهناك انتخابات دورية يتم الإعداد لها بشكل دوري كل ثمانية أعوام، يجري فيها انتخاب الأعضاء، بيد أنه يجب أن يحظى المرشحون بموافقة أعضاء جمعية الأوصياء. إذ يمثّل هؤلاء شكلاً من أشكال مجلس الشيوخ، منهم ستة أعضاء يسميهم المرشد الأعلى، أما

الستة الآخرون، فتقع تسميتهم على عاتق مجلس النواب، وتنحصر مهمتهم بالمصادقة على القوانين التي تمّ التصويت عليها في مجلس النواب أو رفضها، إلى جانب إقرار ترشيح المرشحين للانتخابات النيابية أو الرئاسية. يبلغ مجموع الأعضاء المنتخبين في كل من الجمعية التأسيسية الإسلامية ومجلس النواب الإيراني ٢٩٠ عضواً، يتم انتخابهم لولاية مدتها أربعة أعوام. تماماً كما هو الأمر بالنسبة لرئيس الجمهورية الذي لا يحق له تجديد ولايته إلّا لمرة واحدة فقط، مباشرة بعد فترة حكمه الأولى. لاحظ أيضاً أنه في عام ١٩٨٨، أُسّس مجلس التمييز من أجل التحكيم في الخصومات التي تنشأ بين مجلس النواب وجمعية الأوصياء.

*** كيف تمكّن الخميني من فرض نفسه على باقي قوى المعارضة في أثناء الثورة الإسلامية؟**

سارع الخميني إلى تنفيذ أمرين مهمين، فقد ضمن لنفسه بادئ الأمر دعم بورجوازية البازاري، ثم أنشأ ميليشيا خاصة بالثورة الإسلامية، أطلق عليها اسم الحرس الثوري أو «الباسداران»، في الوقت الذي شهد فيه قسم كبير من جيش النظام السابق تفككاً في صفوفه.

بعد أن استمد قوته من هذا الدعم المضاعف، بادر المرشد الأعلى الذي وصل لتوه إلى سدة الحكم، بادر إلى قمع معارضيه بعنف من أجل بسط سلطته ونفوذه؛ فكان الثمن كماً هائلاً من الاعتقالات والاغتيالات. ومن جانبه، وجد حزب «توده» نفسه مضطراً إلى الاختفاء في بدايات الثمانينيات، بعد أن نجح في التعايش مع النظام الحاكم إبان سنوات قليلة. أما منظمة مجاهدي الشعب (OMPI)، فقد عانت من أساليب القمع أكثر من غيرها. ففي اليوم

التالي من الثورة، تصدّت هذه المنظمة للخميني الذي عدَّتهُ وسيلة لتحقيق أهدافها الخاصة، ولكن كان النصر حليف الخميني في هذه المعركة، في إثر عملية تطهير دموية، قام بها ضد هذه المنظمة، ما دعاها إلى التعاون مع عدو البلاد العراقي في محاولة منها لقلب نظام الحكم، فكانت هذه الخطوة العقيمة كافية لفقدان مصداقيتها لدى الأوساط الشعبية الإيرانية.

*** هناك من يدّعي بأن ثورة ١٩٧٩ الإسلامية نجحت بدعمٍ من حكومة كارتر، وبالأخص من مستشار الأمن القومي بريجنسكي. يحكى أن هذا الأخير كان يخطط لإنشاء محور أزمات مع الدول الإسلامية المتاخمة للاتحاد السوفييتي لعرقلة مساعي موسكو في بسط نفوذها على منطقة الشرق الأوسط.**

لا بد أن تكون الولايات المتحدة قد أدركت قرب سقوط نظام حكم الشاه المستبد، كما كانت تفضل وصول رجالات الدين إلى سدة الحكم بدلاً من سيطرة الشيوعيين على البلد. إلّا أنني لست متأكداً من معرفة واشنطن للمذهب الفكري للخميني الذي لا ننكر أنه كان معارضاً للشيوعية، كما كان معارضاً للنظام الرأسمالي. ومن ثمَّ، لم يعلن الخميني انحيازه لأي من المعسكرين في أثناء الحرب الباردة التي نشأت بينهما، لذا لم يكن بالإمكان استخدامه، فقد اتسم موقفه بالاستقلالية الحازمة؛ فمن جهة كان الخميني يشوه صورة الشيوعية لمحاربة حزب «توده»، ومن جهة أخرى، كان يندد بالنظام الرأسمالي الذي كان الشريك لنظام الحكم السابق الذي دعمته القوى الإمبريالية. في كل حال، جاء تأميم النفط الإيراني في مقدمة مجموعة الإجراءات التي اتخذها المرشد الأعلى بعد نجاح الثورة.

*** هل نستطيع أن نصف الثورة الإيرانية التي اندلعت عام ١٩٧٩، بأنها ثورة وطنية ديمقراطية؟**

مما لا شك فيه أنها ثورة وطنية، كانت إيران حتى ذلك التاريخ تقبع تحت سيطرة القوى الإمبريالية، ومن المعلوم أن هذه الاستقلالية تسبب مشكلة لهذه القوى في عصرنا الحاضر.

ثم هل يوجد في إيران ما يسمى بديمقراطية ذات طابع غربي؟ بالتأكيد، لا، إذ يلعب الدين دوراً قيادياً داخل الجمهورية الإسلامية، حيث يمارس المرشد الأعلى سيطرة كبيرة على النظام السياسي.

يجب أن نكون أكثر وضوحاً حول هذه النقطة. بادئ ذي بدء، أنا لا أعتقد أن أنظمة الديمقراطية الغربية تمثّل «قمة الهرم» الديمقراطي، بسبب تحيّزها المفرط لتلبية المصالح الاقتصادية للأقليّات. ينبغي التوصّل إلى أداء فعّال للنظام الديمقراطي الذي يأخذ في الحسبان تلبية حاجات الأكثرية، إلى جانب إشراكها الفعّال في اتخاذ القرارات. ثم لا يمكن عدُّ الديمقراطية الغربية بأنها أنموذج يحتذى به، قابل للتصدير إلى جميع أرجاء العالم على كوكب الأرض ليتم فرضه على سائر الدول، وإهمال موضوع التفاوت التاريخي والثقافي للشعوب. فالثورة الإسلامية في هذه النقطة بالذات، تتماشى مع فكر التيار الذي يندد بما يسمى بالـ «التسمم الغربي» في إيران. وأخيراً، أعتقد، على الصعيد الشخصي، أن الثورة الإيرانية أحدثت نقطة تحوّل في البلاد عن طريق تحسين الظروف المعيشية للكثير من المواطنين الذين كانوا يعانون من حالة الفقر المدقع في ظل نظام حكم الشاه الاستبدادي.

*** تعرّضت إيران لغزو مسلّح من قبل صدام حسين بعد انقضاء عام على الثورة الإيرانية، أي في عام ١٩٨٠. استمرت هذه الحرب لمدة ثماني سنوات، خلّفت مئات الآلآف من الضحايا، وتسببت في إضعاف ملحوظ في طاقات البلدين. ما رأيك؟**

تم إشعال هذه الحرب للحيلولة دون انتشار الثورة الإسلامية. إذ نجحت الولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع شركائها الرجعيين في منطقة الشرق الأوسط - المملكة العربية السعودية بشكل خاص- في إقناع صدام حسين بضرورة شن هجوم على إيران. كانت الولايات المتحدة تخشى أن تستلهم بلاد أخرى في المنطقة من أفكار هذه الثورة القومية، وتهدد وجود الدمى المتحركة الحاكمة في باقي البلاد التي سُخّرتْ لخدمة مصالح القوى الإمبريالية.

اعترف صدام حسين فيما بعد، باقترافه خطأً استراتيجياً فادحاً. بالفعل، استطاعت الولايات المتحدة إقناعه لخوض صراع مطوّل، إذ كانت واشنطن ترغب في رؤية انهيار قوى الطرفين المتقاتلين، لذلك لجأت إلى دعم كلا المعسكرين على حد سواء، وقد صرّح بذلك وزير الخارجية الأميركي هنري كسنجر قائلاً: «دعوهم يتقاتلون فيما بينهم».

*** هل تقصد أن إيران المعروفة بموقفها المناهض للغرب، تلقت دعماً من واشنطن؟ يبدو الأمر على درجة كبيرة من التناقض.**

تميّز الخميني بأنه كان رجلاً إستراتيجياً، عرف عنه تخصصه في حلّ الأزمات، واشتهر بذكائه وواقعيته. أعتقد شخصياً أن حربه ضد العراق

أسهمت في إنقاذ ثورته. بالفعل، أتاح له هذا الصراع المسلّح تعبئة الشعب بأكمله، لتأجيج شعوره الوطني ضد العدو العراقي. فلو لم تقع هذه الحرب، لما حصل على الدعم الكافي لبقائه في سدة الحكم. لقد رغب الخميني هو أيضاً في أن تستغرق هذه الحرب أطول فترة زمنية ممكنة.

ومن أجل استمرار الصمود في الحرب، كان لا بد من تأمين السلاح الكافي. غير أن إيران كانت رسمياً مشمولة بالحظر. وهنا تطالعنا الفضيحة السياسية الكبرى، فضيحة «إيران غيت». عمدت الولايات المتحدة في الثمانينيات إلى بيع السلاح لإيران عن طريق إسرائيل. ونظراً لأنه رجل واقعي، لم ير الخميني أي مشكلة في مساومة أعدائه المعلنين، لقد كان في حاجة إلى السلاح. من جهتها، استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية الأموال التي حصلت عليها من إيران لقاء صفقة الأسلحة، لتمويل جماعة الكونترا في نيكاراغوا، وهي جماعة مسلحة كانت تمارس الإرهاب لقلب نظام الحكم الاشتراكي بقيادة دانييل أورتيغا.

*** لقد أشرتَ إلى أن الثورة الإسلامية أسهمت في تحسين الظروف المعيشية للشعب الإيراني. هل بإمكانك تجسيد ذلك؟**

لقد كان السياق الاقتصادي صعباً على هذه الجمهورية الفتية. شهدت البلاد إبان سقوط نظام حكم الشاه، وقيام الثورة، عمليات تهريب لمبالغ كبيرة من رؤوس الأموال، تقدر بمليارات عدّة من الدولارات. إضافة إلى النتائج السلبية التي خلفتها الحرب ضد العراق على الاقتصاد الإيراني، لقد دُمر كثير من البنى التحتية.

على الرغم من كل ذلك، اتخذت الحكومة تدابيرها لإقامة العدل الاجتماعي امتثالاً للمبادئ التي نادت بها الثورة الإسلامية. ففي سبيل المثال، صودرتْ أملاك الشاه وحلفائه، في سبيل توظيفها لإنشاء مؤسسات مكلَّفة بدعم الطبقة المعدمة. إضافة إلى ذلك، عملت الحكومة على مراقبة حركة الاقتصاد لتأمين إعادة توزيع الثروات بشكل أفضل.

*** فكيف كان وقْع الثورة الإسلامية على العلاقات بين الطبقات الاجتماعية في إيران؟**

حملت روح الثورة الإسلامية في طياتها تناقضات، تبلورت داخل المجتمع الإيراني. فقد نادت الثورة بإقامة العدالة الاجتماعية، مستلهمة أفكارها من واقع نضال المضطهدين الذين وقفوا في وجه الإمبريالية. إلا أن طابعها الديني قدم للبعض تفسيراً متناقضاً بعض الشيء. فقد رأت الطبقة البورجوازية «البازاري» وقسم من رجال الدين أن الإسلام يحظر حيازة الأملاك، لكنه لا يحظر تجميع الثروات. تدخلت الدولة بقوة بعد الثورة في سير عملية الاقتصاد، سواء كان ذلك في عملية توزيع المنتجات، أو في فرض نظام التقنين، أو في مراقبة التجارة الخارجية وضبطها. خلَّف ذلك أعباءً إدارية، وإضعافاً لطبقة البورجوازية البازارية، وتداعيات فريدة على الاقتصاد الوطني، كان السبب في تعزيزه الحرب ضد العراق؛ فقد تطور في الثمانينيات ما يعرف بالسوق السوداء الحاصل على الموافقة الضمنية للحكومة، ما أدى إلى تشجيع ظهور نظام المضاربة. فمن جهة، كان هناك سوق يعتمد على العملة الإيرانية المحليّة، تسيطر عليه الحكومة، بالتوازي مع سوق يعتمد على سعر الدولار الذي تحكمه القوانين الليبرالية الهمجية.

تمكنت طبقة البورجوازية البازارية، بهذه الطريقة، من تعزيز وجودها، مستفيدة من المضاربة. أدت هذه الفوضى الاقتصادية، إلى جانب الأضرار الناتجة عن الحرب، إلى الحد من تطوّر قطاع التصنيع الحر. في الواقع، استمر توظيف عائدات النفط في استيراد البضائع، ثم إن هناك عاملاً آخر زاد الأمر سوءاً، ففي منتصف الثمانينيات، أقدمت العربية السعودية، التي وجدت نفسها منخرطة بطريقة غير مباشرة في الحرب الجارية في أفغانستان ضد السوفييت، أقدمت على زيادة إنتاجها النفطي بصورة خطرة، ما أدى إلى انخفاض ملحوظ في سعر البرميل الواحد، من ثلاثين دولاراً إلى ثمانية دولارات، مما تسبب في أضرار جسيمة في اقتصاد الدول المنتجة كإيران وفنزويلا.

*** على الرغم من ذلك، أعادت إيران بناء نفسها بعد حربها على العراق...**

انتُخب هاشمي رفسنجاني رئيساً للبلاد عام ١٩٨٩، ليستمر في شغل منصبه حتى عام ١٩٩٧. ينحدر رفسنجاني من بورجوازية البازاري. بدأ ببناء ثروته بالمضاربة في العقارات، ثم بالسيطرة التامة على صناعة الفستق الإيراني، أحد المنتجات الإيرانية التي تأتي على رأس صادرات البلاد، ليصبح رفسنجاني صاحب مليارات، ويصنف عالمياً أحد أغنى الأغنياء.

لما أصبح رئيساً للبلاد، بادر رجل الأعمال هذا إلى وضع خطة عمل لإعادة البناء مع إعطاء الأولوية لعملية رفع القيود عن الاقتصاد، سياسة اتبعها خلفه محمد خاتمي **(١٩٩٧-٢٠٠٥)**. إذ حين وصولها إلى السلطة، استفادت بورجوازية البازاري من السياسة الليبرالية، ومن رؤوس أموال الدولة، لدعم ثروتها بمزيد من الأموال.

*** أما وقد قلت ذلك، فلا بد وأن تكون أحوال الطبقة الوسطى قد ازدهرت هي أيضاً...**

نعم، بيد أن التفاوت الاجتماعي قد ازداد سوءاً، وفي النهاية لم يسجل الوضع الاقتصادي ازدهاراً يذكر بوجود التضخم والارتفاع الكبير في معدل البطالة.

*** لم يُسجل أي تطور يذكر في الوضع الاقتصادي للبلاد مع تولي أحمدي نجاد منصب رئيس البلاد عام ٢٠٠٥. إذ لم يُقضَ على مشكلتي التضخم والبطالة...**

إلّا أن انتخاب أحمدي نجاد سجل نقطة تحول مهم، لم يكن الرئيس الجديد ممثلاً لبورجوازية البازاري، فهو ينحدر من أسرة متواضعة، وقد اتخذ في أثناء حملته للانتخابات الرئاسية موقفاً مناهضاً من البازاري، ولم يتوانَ عن وصف رفسنجاني في أثناء مقابلة متلفزة بأنه سارق، وهذا ليس خطأً.

في الواقع، يمثل وصول أحمدي نجاد إلى كرسي الرئاسة التناقض الموجود في الثورة الإسلامية، الذي تحدثنا عنه. يمثل رفسنجاني والمتواطئون معه تلك النخبة التي تترجم شرائع الإسلام بما يتوافق ومصالحها الشخصية لأغراض الإثراء الشخصي. في حين دعا أحمدي نجاد إلى العودة إلى مبادئ الثورة، بإحقاق المزيد من العدالة الاجتماعية. تأثر في أثناء دراسته الجامعية في طهران، في السبعينيات من القرن الماضي، بعلي شريعتي الذي يُعدُّ القائد الفكري للثورة الإيرانية، وكان يؤمن بضرورة الاستفادة من الإسلام في تحسين وضع المظلومين.

لذلك اتخذ أحمدي نجاد مجموعة من التدابير التي تخدم الفئة المعدمة في البلاد، ووعد بوضع عائدات النفط على طاولة الفقراء، علماً أنه، ومنذ توليه زمام الأمور في البلاد عام ٢٠٠٥، دعا إلى إنشاء صندوق الإمام الرضا للرعاية، ما أدى إلى الإفراج عما يقارب المليار يورو، سُخرت لدعم الشبان الذين يواجهون مشكلات عدّة، كالبطالة وتكاليف الزواج الباهظة والسكن. فما كان من مجلس النواب إلّا التصويت رسمياً ضد هذا القرار، لكن ذلك لم يثنِ أحمدي نجاد عن المضي قدماً في تنفيذ قراره حسب رأي بعضهم. كما عمل أحمدي نجاد على زيادة رواتب الموظفين والمعاشات التقاعدية للفئات الأقل حظاً في العيش.

*** قال بعض معارضيه إنه بذلك يكون قد لجأ إلى «الخطاب الشعبوي»، على غرار موقفه الداعم للمقاومة الفلسطينية الذي قد يهدف منه إلى إغواء جمهور الناخبين.**

لا تصدق أبداً أن الشعب الإيراني شعب ساذج. صحيح أنه متضامن مع الشعب الفلسطيني بسبب معاناته هو أيضاً من الحرمان في أثناء حكم الشاه، لكن لا يمكن للقضية الفلسطينية أن تلعب دوراً حاسماً في الانتخابات الإيرانية، إذ لن يثري الفلسطينيون موائد الإيرانيين!

ثمّ، لا أعتقد أن الرئيس لجأ إلى الخطاب الشعبوي. كلا، فقد انتهج سياسة متماسكة تخدم مصالح الفقراء. لقد سجّل انتخابه كما سبق لي أن ذكرت، نقطة تحوّل في العلاقات بين الطبقات الاجتماعية؛ فقد كان والده ينتمي إلى طبقة العمّال، ما دفعه إلى اتخاذ موقف حازم من حالات الغش والاختلاس التي تمارسها بورجوازية البازاري، فقرر أن يأخذ البلاد إلى طريق الاستقلال. تعتمد سياسته على مفهوم الاكتفاء الذاتي.

*** لقد قلت إن بورجوازية البازاري قد ضاعفت ثروتها نتيجة علاقاتها التجارية مع الخارج. هل ترى أن مصالحها مرتبطة بالكليّة بمصالح الغرب على غرار بورجوازية الكمبرادور؟**

كلا، فهي لا تخدم المصالح الغربية كما تفعل بورجوازية الكمبرادور، غير أن اعتمادها التام على عملية الاستيراد والتصدير أعاقت تطوير قواعد التجارة المحليّة المستقلّة في البلاد. ذلك كان الهدف الذي سعى أحمدي نجاد إلى تحقيقه، فقد آثر طرح منتجات إيران للاستهلاك المحلي، على استيراد البضائع من الخارج، حتى لو لم تكن المنتجات المحلية من النوعية المتميزة، لذلك لجأ إلى دعم القوانين المتعلقة بمراقبة عمليات الاستيراد، كما عمل منذ وصوله إلى كرسي الرئاسة، على تجميد الإجراءات التي اعتمدها سلفه لضم إيران إلى منظمة التجارة العالمية. فهو يعتقد - وله الحق في ذلك - أن هذه المؤسسة ليست سوى أداة في يد القوى الغربية العظمى، أنشأتها كوسيلة لتفرض عبرها على دول العالم الثالث أنظمة التجارة المعمول بها عالمياً، إذ أن المستفيد الأول من هذه الأنظمة هي الشركات متعددة الجنسيات الغربية.

*** يبدو، مع ذلك، أن بورجوازية البازاري تتمتع بنفوذ كبير في إيران. فنحن أشد ما نكون بعداً عن «تجّار السجاد» الذين سادوا في إيران في القرن التاسع عشر، وذلك بوجود مالكي المليارات مثل رفسنجاني. كيف استطاع أحمدي نجاد التصدي لهم؟**

يحظى الرئيس الإيراني بدعم الحرس الثوري «الباسداران» فقد كان هو نفسه أحد جنوده الذين شاركوا في حرب العراق. وبعد الصراع، استغل «حرس الثورة الإسلامية»، أو الباسداران، الصفة الشرعية التي حظي بها لدى الحكومة

ولدى الشعب، ليمارس دوراً أكثر أهمية داخل الجهازين السياسي والاقتصادي. ويدير الحرس الثوري الإيراني «الباسداران» اليوم شركات ضخمة في إيران، لذلك نجد أن هذه الميليشيا تملك القوة الكافية التي تستطيع بوساطتها التصدّي للبازاري ولباقي القوى الموجودة في إيران. ولم يتوقف الحرس الثوري الإيراني عن دعم صفوفه منذ تولي أحمدي نجاد السلطة في البلاد، فقد عمد هذا الرئيس ضمن خياراته السياسية، إلى تقديم الدعم لهذا الحرس الذي يقدم له الحماية.

إلى جانب هذا، حظي أحمدي نجاد بدعم جماعة «المحافظين» الذين تصدوا فيما مضى للسياسة الليبرالية التي اتبعها كل من رفسنجاني وخاتمي وغيرهما من الإصلاحيين، مثل موسوي (المرشح الذي لم يحصل على الأصوات الكافية في انتخابات ٢٠٠٩)، فقد أدت سياسة الانفتاح الاقتصادي التي انتهجتها دولة إيران إلى شيء من التحرر في العادات إلى جانب نزعة علمانية خجول طالت سياسة البلاد. بذلك دعم المحافظون أحمدي نجاد الذي دعا للعودة إلى القيم الدينية التي نادت بها الثورة الإسلامية.

وأخيراً، لا بد أن نشير إلى وجود تناقض واضح في نهج موظفي المناصب العليا، الذين ينتمون إلى منظمات ثورية من جهة، والتكنوقراط الذين غالباً ما يلقون تدريباتهم في الخارج من جهة أخرى. إذ يستند موظفو المناصب العليا – ويصنف أحمدي نجاد ضمنهم- إلى القيم الدينية، ويشغلون المناصب الحساسة. أما التكنوقراط الذين تلقوا تدريباتهم في الخارج، فإنهم - بشكل عام - يتمتعون بقدر كبير من الكفاءات، لكنهم يعملون تحت إمرة كبار موظفي الدولة. الكثير من هؤلاء لا يعتنقون الفكر الإسلامي، ويعيشون مشكلات يومية تتعلق بوضع المرأة وتربية الأطفال.

يرغب كثير من التكنوقراط في أن ينشأ نظام ليبرالي منفتح على الغرب، لكنهم يصطدمون بالكوادر العليا، إذ ينتمي هؤلاء إلى المنظمات الثورية.

*** اضطر أحمدي نجاد إلى وضع خطة إنقاذ في شهر كانون الأول من عام ٢٠١٠ بسبب تدهور الوضع الاقتصادي. إنما، ألا تعتقد أن هذه الإصلاحات التي لا تحظى بالقبول لدى الفئات الشعبية، قد تهدد بخلق توتر في الداخل الإيراني؟**

يجب أن نعلم أن انتخابه عام ٢٠٠٥ قد تميّز بعمليات واسعة لتهريب رؤوس الأموال. إذ تم تهريب ملايين الدولارات من إيران إلى دول الخليج، ولا سيما إلى إمارة دبي. ولا ننسى أن العقوبات الدولية التي فرضت على الجمهورية الإسلامية أسهمت في تصعيد الوضع داخلياً.

لذلك كله، اضطر الرئيس الإيراني إلى وضع خطة «لإجراء تدخل جراحي على الصعيد الاقتصادي» يهدف عبرها إلى إلغاء الدعم المباشر الذي كان يختص بمجال الطاقة، وببعض المواد الغذائية، وذلك بغية توفير مئات المليارات من الدولارات، مع وعد المعدمين بإعطائهم الحوافز والمكافآت.

على الرغم من كل ذلك، ينبغي لنا ألا ننخدع. لم تكن ثورة ١٩٧٩ ذات طابع اشتراكي، إذ إنها أتاحت لإيران التحرر من براثن الإمبريالية الغربية، لكنها في الوقت عينه، أقامت نظاماً اقتصادياً يدعى «رأسمالية الدولة». يشهد البلد اليوم مواجهة بين قوى مختلفة، تسعى كلها إلى السيطرة على السلطة، وتكمن المشكلة التي يواجهها الإيرانيون اليوم في غياب البديل التقدمي الحقيقي؛ لذا تجد المعارضة الحالية نفسها أمام خيار واحد، ينحصر في التحالف مع القوى الأجنبية.

*** كالولايات المتحدة مثلاً؟ لقد عمّت المظاهرات شوارع إيران بعد فوز أحمدي نجاد لفترة ولاية جديدة، بعد انتخابات ٢٠٠٩، منددة بتزوير الانتخابات. فجاء اعتراف هيلاري كلينتون بتورط وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في حشد الجماهير عبر وسائط التواصل الاجتماعي كالتويتر والفيس بوك.**

لا تستند الاتهامات بتزوير الانتخابات إلى أي دليل. بالفعل، كان مفاد التصويت الذي أجرته مؤسسة أميركا الجديدة - وهي مركز أبحاث أمريكي، يصعب توجيه الاتهام إليه بأنه متعاطف مع أحمدي نجاد- في إيران قبل أسبوعين من بدء حملة الانتخابات، كان مفاده بأن فوز الرئيس جاء بصوتين مقابل واحد.

*** اللافت للنظر أن هذه المظاهرات جرت في طهران...**

نعم، لأنك تجد فيها الطبقة الوسطى وطبقة الأثرياء، لذا فهي تربة مناسبة للموسوي، المرشح الإصلاحي. إلّا أن أحمدي نجاد يحظى بدعم أعداد كبيرة من الطبقة الشعبية في إيران، ولا سيما، أولئك المقيمون في الأقاليم والأرياف. لذلك لم تكن النتيجة مثيرة للدهشة.

*** إذا، فكيف تفسر كل هذا الجدل الذي أثير حول إعادة انتخابه؟**

لنراجع معاً مجريات الأحداث في إيران... أقدم ثلاثة من المرشحين للانتخابات الرئاسية على الطعن بالنتائج. استقبلهم المرشد الأعلى، آية الله خامينئي، وتحقّق من صحة الخطوات التي من المزمع أن يأخذها هؤلاء أمام مجلس الأوصياء، لتقديم شكواهم، ومن ثمَّ المطالبة بإعادة فرز الأصوات؛ فكان محسن رضائي هو المرشح الوحيد الذي ذهب إلى المجلس، ثم ما لبث

أن سحب اعتراضه بعد إعادة الفرز الجزئي للأصوات. أما موسوي فإنه لم يذهب قط إلى مجلس الأوصياء.

عملياً، السؤال الذي يفضل طرحه هنا هو: ما الذي دفع هؤلاء المقيمين في أوروبا وأمريكا للادعاء بأن ثمة تزويراً في الانتخابات الإيرانية؟ لماذا لم يقودوا حملة للتنديد بالاحتيال في انتخابات أفغانستان التي حصلت في العام نفسه؟ لماذا لم يثيروا ضجة لشجب إعادة انتخاب بن علي في تونس من العام نفسه؟ هذا الحاكم المستبد الذي حصد كراهية العالم، اليوم قد حصل على نتيجة بمعدل ٨٩,٦٢% من دون إثارة فضيحة.

في واقع الأمر، يصدّر الإمبرياليون شهادات «انتخابات نزيهة» في الأماكن التي ترعى مصالحهم، وتنصاع إليهم في كل أمر، وشهادات «انتخابات مزورة» في الأماكن التي تتصدى لهم. فلا يوجد هناك مشكلة لهم في حال فاز مرشحهم بانتخابات مزورة، أما إذا لم يحقق فوزاً في الانتخابات، فإنهم يبادرون إلى شجب المخالفات التي تمت في عملية الاقتراع، غير آبهين بإرادة الشعب. اعلم أنه منذ عام ٢٠٠٦، خصص مجلس الشيوخ الأميركي في الولايات المتحدة ميزانية تُقدَّر بأربعمئة مليون دولار لزعزعة الأمن والاستقرار في إيران، وزيد هذا الرقم في عام ٢٠٠٩.

*** ما السبب وراء دعم الولايات المتحدة الأمريكية للمرشح الرئاسي موسوي؟**

يمثل المرشح الإصلاحي موسوي، على غرار البازاري، شريحة من النخبة الواقعية التي تهدف بشكل أساسي إلى ممارسة التجارة، وبالنتيجة تفضل اجتناب أي مواجهة مع الغرب. لذا تميل الولايات المتحدة الأمريكية

إلى مثل أولئك المحاورين على أحمدي نجاد الذي يسعى إلى تعزيز استقلال إيران، ويحاول تشكيل تكتّل مع الدول الناشئة.

*** في النهاية، نستطيع أن نجزم أن طبيعة العلاقات بين الطبقات هي التي تساعدنا في فهم حقيقة الصراعات التي تنشب في وقتنا الحالي؟**

تماماً. منذ «اللعبة الكبرى» التي جرت أحداثها في القرن التاسع عشر، حتى يومنا الحاضر، مروراً بالثورة الدستورية، والانقلاب الذي أطاح بمصدِّق، وإنشاء الجمهورية الإسلامية، تشكل كل تلك التناقضات بين طبقات المجتمع المختلفة مدخلاً لإدراك وفهم مجريات الرهانات التي خلقت الأزمات التي عاشتها إيران في تاريخها المعاصر.

*** وكيف ستتطور الأمور؟**

من الصعب استباق الأحداث. قد تؤدي الإجراءات التي ينبغي على أحمدي نجاد اتخاذها في سبيل تصحيح الأوضاع الاقتصادية داخل البلاد، إلى خلق توتر. علماً أن عملية إنشاء قاعدة اقتصادية صلبة ومستقلة تأتي في مصلحة إيران. أما التبعات، فهي مرهونة بالاضطرابات الجيوسياسية على الصعيد العالمي، إذ إن الهيمنة الأمريكية آيلة إلى الزوال، ولا يُتوقع لها النجاح في قلب نظام الحكم في إيران، الذي لا ينفك يتصدى لها.

*** في عام ٢٠٠٩، صرّح مستشار أوباما، زبيجنيو بريجنسكي، الذي سبق أن تكلمنا عنه، أنه في حال توجهت قاذفات القنابل الإسرائيلية نحو إيران، فإنه يتوجب على الولايات المتحدة اعتراضها. إنه لأمر غريب!**

لو حصل ذلك منذ سنوات عدة، لبدا الأمر بعيداً عن التصور والخيال. إنما المقاومة العراقية، والفشل الذريع الذي حصدته في أفغانستان،

تسببا في جلب كارثة على واشنطن. أما الثورات التي قامت في كل من تونس ومصر، فقد شهدت انهيار ركنين أساسيين للإمبريالية. ما يشير إلى حدوث اضطراب كبير في ميزان القوى في العالم العربي- الإسلامي. ومن جهة أخرى، بدأت القوة المتزايدة للصين وللدول الناشئة ترسم محوراً، جنوبي-جنوبي، مستقلاً عن القوى الغربية العظمى. لقد جاءت إعادة تشكيل العلاقات الدولية في صالح أحمدي نجاد.

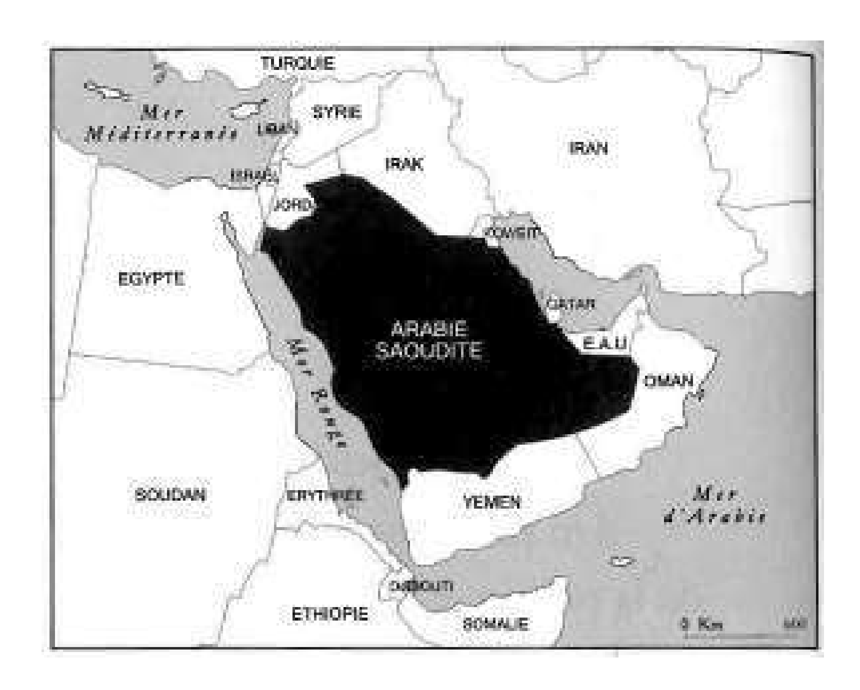
وأخيراً، تجسّد القضية الإيرانية التناقض الكبير الذي سيطغى على الكوكب. لم يعد الأمر يتعلق بالتنافس بين قوتين عظميين من أجل تقاسم الثروات، بل بات يتعلق بالمواجهة بين قوات الاستعمار، بشكله الجديد، ودول العالم الثالث الآخذة في التحرّر.

قائمة المراجع:

- K. Pollack, the Persian Puzzle, Random House, 2004
- Ervand Abrahamian, Iran Between Two Revolutions, Princeton University Press, 1982.
- Ervand Abrahamian, The Iranian Mojahedin, yale University Press, 1992.
- Trita Parsi, Treachrous Alliance : The Secret Dealings of Israël, Iran and the United States, Yale University Press, 2007.
- Noam Chomsky, Israël, Palestine, Etats-Unis : Le triangle fatidique, Broché, 2006.
- Zbigniew Brzezinski, "An agenda for Nato", in Foreign Affairs, septembre- octobre 2009.

المملكة العربية السعودية
الركيزة الأساسية الداعمة لسياسة
الولايات المتحدة الأمريكيّة الدولية

كيف تمكنت لندن من تقديم دعمها للنخاسين الأشد همجية من أجل بسط نفوذها على منطقة الشرق الأوسط، وعلى الطريق المؤدي إلى بلاد الهند؟ كيف يمكن لعميل إنجليزي سابق أن يقدم دعمه للولايات المتحدة الأمريكيّة كي تستحوذ على مكانة بريطانيا العظمى في السيطرة على حقول النفط الأكثر أهمية في العالم؟ كيف تمكنت المملكة العربية السعودية بدعم من نادي السفاري، أو ما يعرف بتحالف أجهزة الاستخبارات العامة، من تشكيل الركيزة الأساسية الداعمة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكيّة، ليس فقط في منطقة الشرق الأوسط، بل على مستوى العالم أجمع؟ كيف استطاعت الرياض إنشاء شبكة مساجد في أوروبا، وتسخيرها لخدمة السياسة الدولية؟ كيف قدمت واشنطن دعمها للتيارات الدينية الأكثر تعصباً، التي ما لبثت أن انقلبت ضد الولايات المتحدة الأمريكيّة؟ كيف تلتزم وسائل الإعلام الصمت إزاء البلد الأكثر رجعية في العالم؟



لمحة سريعة عن المملكة العربية السعودية

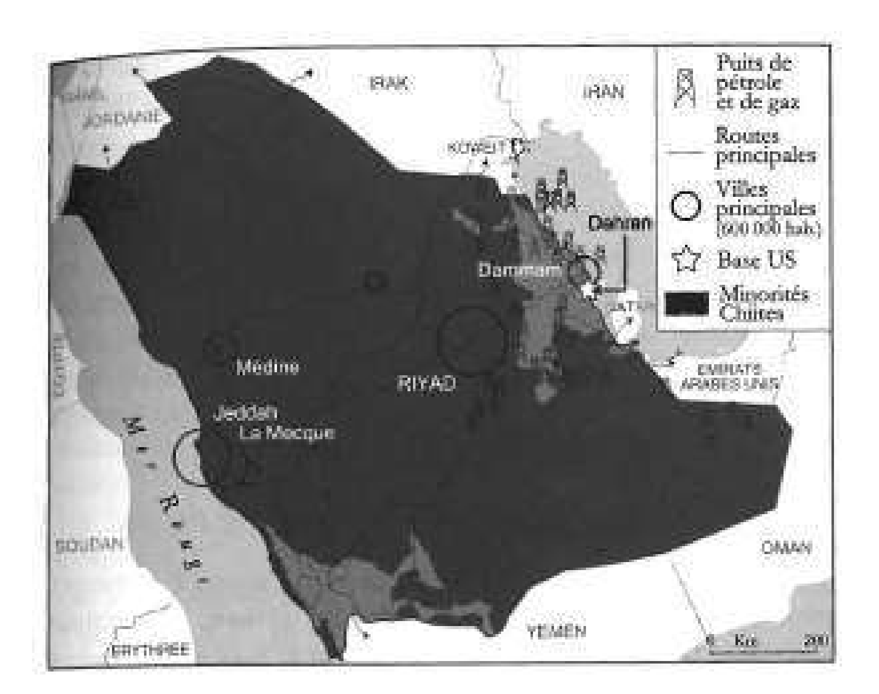
على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** الرياض.
- **المساحة: ٢١٤٩٦٩٠ كم٢ .**
- **تعداد السكان: ٢٧١٤٠٠٠٠ (أي بمعدّل ١٣,٣٤ نسمة/ كم٢)**، وهو رقم رسمي مبالغ فيه، وفقاً لرأي بعض الخبراء.

على الصعيد الاجتماعي:

- **مكونات الشعب:** يشكّل المذهب السنّي الغالبية العظمى في البلاد، في حين يشكّل المنتمون إلى الفرقة الشيعيّة الأقلية نسبة **(٦,٨%)**، ويتمركز هؤلاء في شرقي البلاد وغربيها وجنوبها، غرب المملكة، إضافة إلى نسبة **(٣١%)** من المهاجرين.

- **متوسط العمر: ٧٤,١ عاماً.**
- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: ٢٩,٤%**
- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: ٧٨,٨%.**



 آبار النفط والغاز

______ الطرق الرئيسة

 المدن الرئيسة

 قواعد عسكرية أمريكية

 مناطق الأقليات الشيعية

السياسة:

- **نظام الحكم:** نظام ملكي مطلق.
- **الملك:** عبد الله الأول **(٢٠٠٥).**
- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٣٢ **(**أُنشئت المملكة العربية السعودية بدعم من المملكة المتحدة**).**
- **الاقتصاد :**
- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ٤٦٧,٧ مليار دولار **(٢٠٠٨)**
- **الموارد:** النفط **(**٩٠**%** من عائدات الصادرات، و٨٠**%** من الإيرادات الحكومية**)**
- **معدل النمو:** ٣,٧ **% (**٢٠١٠**).**
- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ٢٠٧٠٠ دولار **(**٢٠٠٨**).**
- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٧٥٢ **(**٥٧ من حيث الترتيب**)**
- **نسبة البطالة:** ١١,٨ **% (**٢٠٠٨**)**
- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** غير معروف.

*** تروي الأسطورة أن عبد العزيز بن سعود كان رجلاً ذا بصيرة، استطاع تجاوز الانقسامات التي تمزق العشائر البدوية في شبه الجزيرة العربية، وأسّس المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢. هل صحيح ما ورد في الأسطورة؟**

نعم، وكلا. نعم، فالأسطورة صحيحة في حدود ما يُروى عن تأسيس المملكة العربية السعودية على يد ابن سعود. وكلا، لم يكن رجلاً ذا رؤية ثاقبة. كان مجرد أداة في يد الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية، فهو لم

يتمكن من تأسيس المملكة السعودية إلّا بدعم مالي وعسكري من بريطانيا العظمى. في الواقع، كان كل من ابن سعود والبريطانيين في حاجة إلى بعضهما من أجل قتال عدوهما المشترك، العثمانيين.

*** ما حاجة بريطانيا لابن سعود؟**

كانت بريطانيا إمبراطورية استعمارية تحتاج إلى كثير من العملاء في الخارج للدفاع عن مصالحها. لقد تحدثنا في الفصل الأول عن التنافس القائم بين بريطانيا العظمى وفرنسا. حاولت لندن القضاء على الثورة الفرنسية والنمو الاقتصادي لمنافِستها، غير أن جهودها باءت بالفشل، فقررت اللجوء إلى تنظيم تحالف أوروبي، أدّى إلى إشعال معركة واترلو عام ١٨١٥، وانتهت بهزيمة نابليون. كان لقيام الإمبراطورية الفرنسية تأثير سلبي في السيادة البريطانية على العالم، وبشكل خاص، على المستعمرات التابعة لها.

إنما وكما سبق أن ذكرنا، جاءت خطوة بريطانيا لإيقاف هذه الثورة وهذا التوسع الفرنسي متأخرة جداً. ومنذ ذلك الحين، اتسم التنافس بين القوتين الاقتصاديتين الرئيستين بالعنف. في حين اتخذ استغلال المستعمرات بعداً جديداً...

*** من أين اكتسبت تلك المستعمرات هذا القدر من الأهمية؟**

سمحت هذه المستعمرات بتأمين المواد الأولية الضرورية لتشغيل الآلة الصناعية في أوروبا من جهة، ومن جهة أخرى، كانت بمنزلة سوقٍ لتصريف المنتجات الأوروبية، وتأمين رؤوس الأموال التي كانت القوى الأوروبية تعمل على تجميعها.

*** كيف استطاعت بريطانيا العظمى بسط نفوذها على المملكة العربية السعودية، وعلى كل تلك المنطقة؟**

كما أشرت إليه سابقاً، كانت الهند هي الجوهرة الثمينة للإمبراطورية البريطانية الاستعمارية، إذ شكّلت هذه المستعمرة مصدر ربح كبير لبريطانيا، ما دفع لندن إلى تطوير خطة متكاملة، تهدف إلى حماية جوهرتها ضد أطماع القوى الإمبريالية الأخرى. ففي سبيل المثال، بينما كان الفرنسيون يعملون لاحتلال جيبوتي الواقعة على الساحل الشرقي من القرن الأفريقي، سارع البريطانيون إلى السيطرة على جنوبي اليمن ودولة البحرين. وانطلاقاً من المنظور نفسه، حاولت بريطانيا عرقلة المساعي التوسعية لكل من ألمانيا وروسيا، وإضعاف الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تشكّل مصدر القوة الوحيد في المنطقة.

لجأ البريطانيون، في واقع الأمر، إلى استخدام معايير مزدوجة مع العثمانيين. فمن جهة، قدمت بريطانيا دعمها للإمبراطورية التركية في خطوة منها لمنع المنافسين الأوروبيين من استغلال تفككك هذه الإمبراطورية، لكن، من جهة أخرى، كانت تعمل جاهدة لإضعاف العثمانيين، بهدف بسط سيطرتها على المناطق الاستراتيجية المحيطة بالهند. من هذا المنظور تحديداً، بادرت بريطانيا العظمى إلى تقديم دعمها لآل سعود في شبه الجزيرة العربية التي كانت بأكملها تحت سيطرة العثمانيين.

*** نستخلص من ذلك أن عشيرة آل سعود لم تتمكن من تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ إلّا بدعم من بريطانيا. لكنها لم تكن المحاولة الأولى لآل سعود...**

بالفعل، أرادت قبيلة آل سعود البدوية بسط نفوذها على شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر، وضمت جهودها إلى جهود الوهابيين،

تلك العشيرة الدينية المتعصبة. أدى هذا التحالف إلى تأسيس المملكة الأولى. غير أن التعامل الهمجي، كان سمة هاتين القبيلتين اللتين كانتا تمارسان أعمالاً وحشية ضد قبائل المنطقة. حتى إن بعض المؤرخين تحدثوا عن أعمال تدنيس للأماكن المقدسة. فعمدت الإمبراطورية العثمانية – تلك السلطة السياسية التي كانت تسيطر على الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية، وتتحمل مسؤولية الحفاظ على الأماكن المقدسة الإسلامية فيها - عمدت إلى إرسال قوات مصرية لإيقاف الممارسات المروّعة التي كان يمارسها كل من آل سعود والوهابيين، وانتهى الأمر بإلقاء القبض على الزعيم عبد الله بن سعود، وزجه في سجن إسطنبول قبل تنفيذ حكم الإعدام بحقه في الساحة العامة.

بعد هذا الفشل الأول، سارعت الأسرتان إلى تأسيس مملكة جديدة، غير أن الخلافات الداخلية التي نشبت بينهما أضرت بشرعية قبيلة آل سعود، ما مهّد الطريق أمام السلطنة العثمانية لبسط نفوذها مجدداً على الأراضي التي فقدت السيطرة عليها آنفاً. أدت هذه الإخفاقات لدى الناجين من قبيلتي آل سعود والوهابيين إلى تأجيج الشعور بالحقد الدفين تجاه العثمانيين والمصريين. لذا، لما استولت بريطانيا العظمى على دولة البحرين عام ١٨٢٠، وبحثت عن فرص مناسبة لمتابعة تمددها، اكتشف آل سعود فيها حليفاً محتملاً. سارعت كل من القبيلة البدوية والقوّة الاستعمارية إلى عقد اتفاقات فيما بينهما، في محاولة لمواجهة نفوذ العثمانيين في شبه الجزيرة العربية.

*** ما طبيعة التحالف بين آل سعود وبريطانيا العظمى؟**

يتعهّد البريطانيون عبر هذا التحالف بتقديم المال والحماية إلى آل سعود في مقابل خدمة هؤلاء لمصالح القوة المستعمرة في المنطقة. وفي عام

١٩٠١، أرسل عبد العزيز آل سعود رسالة إلى الحاكم البريطاني في الخليج مفادها: «ليتولنا الحاكم البريطاني برعايته، ولنكن في كنفه».

إلا أن العلاقة بين الإمبراطورية الاستعمارية والقبيلة البدوية لم تكن قائمة على الاحترم، على الرغم من منح زعيم ابن سعود لقب «السيد»؛ فقد كان ابن سعود مجرد خادم يعمل لصالح بريطانيا العظمى، ودمية متحركة، تتسلم سلاحها وتمويلها من لندن، مقابل بسط بريطانيا سيطرتها على أرض الجزيرة العربية. نذكر هنا أن ابن سعود أرسل ابنه فيصل عام ١٩١٩ للقاء الملك جورج الخامس. حمل الأمير الشاب رسالة شكر من والده، وسيفاً رائعاً مرصعاً باللآلئ داخل غمد مصنوع من الذهب الخالص، تسلّم فيصل في مقابل هديته الثمينة صورة يظهر فيها الملك جورج الخامس إلى جانب زوجته الملكة، مذيلة بتوقيعهما! هذه الطرفة كفيلة بتجسيد طبيعة العلاقات التي كانت تربط البريطانيين بقبيلة آل سعود.

*** مع ذلك وجد فيها ابن سعود حسابه...**

بالتأكيد. بادرت قبيلتا آل سعود والوهابية إلى مضاعفة عدد غزواتهما في المنطقة، من أجل بسط سيطرتهما على أرض الجزيرة، بدعمٍ من البريطانيين. وفي عام ١٩٢٤ نشبت معركة حاسمة في الحجاز، انتهت بانتصار آل سعود، وسُجلت المعركة بأنها من أبشع المجازر التي حصلت في تاريخ العالم العربي.

تقع مملكة الحجاز في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية، حيث توجد المدينتان المقدستان مكة والمدينة، وكانتا تحت سيطرة العثمانيين. غير أنه في عام ١٩٢٤، قامت الدولة التركية الجديدة ذات التوجّه العلماني على أنقاض الإمبراطورية الإسلامية...

*** ماذا تقصد؟**

كانت الخلافة عبارة عن منظومة حكم إقليمي، ترتكز على سلطة الخليفة الذي ينحدر من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. في هذه الأثناء، أعلن شريف مكة، وسليل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حسين بن علي، أعلن نفسه الخليفة الجديد للمسلمين المنتشرين في كل بقاع العالم، ما أثار غضب ابن سعود، وقلق البريطانيين الذين رأوا فيه عقبة في طريقهم للسيطرة على العالم العربي - الإسلامي. لذا لم يكن من القوى الاستعمارية إلّا الموافقة على خطة غزو بلاد الحجاز، التي أعد لها ابن سعود.

وفي عام ١٩٢٤، أقدم الجيش الوهابي على غزو مملكة الحسين بكل ما أوتي من شراسة، وارتكب المجازر بحق السكان، وقطع رؤوس المسنين، وذبح الأئمة على المنابر، ونهب الثروات التي وجدها في طريقه. كما أقدم على تدمير كل ما يمثل في نظره «عمل الشيطان»، بدءاً من أجهزة المذياع، وصولاً إلى السجائر.

فما كان أمام الحسين إلا الفرار، مصطحباً معه أسرته والآفاً من سكان الحجاز من الجزيرة العربية قاصدين الأردن أو مصر أو أي بلد عربي آخر. ولم يعودوا إليها أبداً. انجرفت بعدها الجزيرة العربية بصحافتها الحرة، وأحزابها السياسية، ودستورها التقدمي نوعاً ما، إلى مستنقع التعتيم، تحت سيطرة آل سعود والوهابيين. فما كان من بريطانيا العظمى إلّا الإعراب عن ابتهاجها بما حصل، إذ كان الحسين بن علي يمثّل خطر قيام عالم عربي موحّد، ومستقل عن القوى الاستعمارية. سارع ابن سعود من جهته، إلى التعبير عن رغبته في متابعة معاركه التوسعية، لتصبح المنطقة بأكملها تحت

سيطرته، فما كان من بريطانيا العظمى إلّا أن وجهت تذكيراً لمن هو في حمايتها بضرورة الانضباط، ورسمت له حدود الجزيرة العربية، التي تقع بين العراق والكويت والأردن، وفقاً للقول المأثور الشهير «فرّق تسد». كان عليها منع تأسيس مملكة عربية مترامية الأطراف بأي ثمن، لئلا تشكل منافساً خطراً في الساحة.

*** إذاً لم تتوانَ بريطانيا العظمى في سبيل بسط سيطرتها، عن الاستعانة بالعناصر الأشد همجية ووحشية في المنطقة، الذين هم آخر ما تبقى من سلالة تجار العبيد؟**

هذا صحيح. هذا ما يعرف أيضاً بالـ «الحضارة» الغربية!

*** حافظت لندن، طيلة النصف الأول من القرن العشرين، على مركزها كسيدة الموقف، والمسيطر الوحيد على منطقة الشرق الأوسط. فكيف تمكنت واشنطن من الاستحواذ على مكانتها؟**

طوّر عالِم الاجتماع روبرت ك. ميرتون مفهوم «العواقب غير المتوقعة» ليقدم وصفاً للنتائج المفاجئة للأعمال المتعَّمدة. يمكننا إسقاط هذا المفهوم على عالم التأريخ.

ففي بداية القرن العشرين، كانت لندن هي المسيطر الوحيد من دون منازع على شبه القارة الهندية، وهي التي قررت مصير فلسطين، واستغلت النفط الإيراني، وأسّست المملكة الهاشمية في الأردن، أما في شبه الجزيرة العربية، فقد ساندت بريطانيا العظمى قبيلة آل سعود، للتصدّي لنفوذ العثمانيين، غير أن «النتيجة التاريخية المفاجئة» تمثلت في عدم معرفة بريطانيا

بوجود النفط في المملكة العربية السعودية. علماً أن النفط احتل أهمية إستراتيجية منذ عمليات التنقيب عنه، التي أجريت في إيران، بدءاً من عام ١٩٠١، واستثمار أول حقل من الذهب الأسود عام ١٩٠٨. أنما، لما طلب ابن سعود زيادة الدعم المالي من بريطانيا العظمى رفضت هذه الأخيرة النزول عند رغبته، بسبب جشعها، فهي لا ترى أي سبب يدفعها إلى تلبية طلبات الملك السعودي، في حين وافقت الولايات المتحدة الأمريكيّة على ذلك، وما لبثت أن اكتشفت أهم حقل بترول على ظهر البسيطة.

*** ما الذي دفع واشنطن للاستجابة لرغبات ابن سعود؟**

كتب مدير المصرف الكندي إدوارد ماكيه عام ١٩١٩: «إن حقول النفط كافة، سواء منها ما اكتشف، أو تلك المحتمل وجودها خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكيّة، تقع تحت سيطرة البريطانيين، أو يدار العمل فيها بإدارة البريطانيين، أو تموّل برؤوس أموال بريطانية». لقد آن الأوان لأن تضع واشنطن حداً لسياسة الاحتكار هذه.

في عام ١٩٢٨، تم تجاوز المرحلة الأولى من الخطة الأمريكيّة، فقد وافقت كل من لندن وباريس اللتين كانتا تتحكمان بالنفط العربي، وافقتا على انضمام واشنطن إلى اتفاق «الخط الأحمر». نص هذا الاتفاق على امتناع أي من الشركاء المجتمعين في شركة النفط التركية التي أطلق عليها فيما بعد اسم شركة النفط العراقي IPC، عن التنقيب عن النفط لحسابه الخاص. يشمل هذا البند الأراضي التي كانت تقع سابقاً تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية، غير أن بريطانيا لم تغفل عن استثناء الكويت لتبقي سيطرتها على هذه الصحراء الملأى بالذهب الأسود.

وفي عام ١٩٣٣، رفضت شركة النفط العراقي IPC أن تدفع لابن سعود المبلغ الذي طالب به في مقابل السماح للشركة بالتنقيب عن البترول في أراضي مملكته. ما دفع شركة نفط كاليفورنيا الأنموذجية للانقضاض على الفرصة، ومنح الملك ابن سعود كل ما كان يرغب فيه.

*** هل كان الملك ابن سعود ينجز صفقة رابحة بتفاوضه مع الولايات المتحدة الأمريكيّة؟**

بكل تأكيد. اقتضت مصلحة ابن سعود أن يتعامل مع الشركة الأمريكيّة؛ فمن جهة، كانت الولايات المتحدة بارعة في مجال الهندسة، من حيث تقنيات ضخ النفط، ونقله، وتنقيته... ومن جهة ثانية، يستطيع ابن سعود بموجب هذا الاتفاق قطع الحبل الذي يربطه بالقوة البريطانية العظمى.

تضمّن تصرف الولايات المتحدة الأمريكيّة، في هذا الصعيد، قدراً كبيراً من الخبث. فقد أخذ الشعور بالاستياء يتفاقم في دول الجنوب تجاه الاستعمار. لذا اتبع الرئيس روزفلت نهجاً مختلفاً، أوكل فيه إلى الشركات الخاصة مهمة الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة في الخارج. وبذلك أظهرت واشنطن الفارق بينها ودول أوروبا ذات السياسة الاستعمارية، فجاءت صورتها أكثر وديّة. لذا آثر ابن سعود التفاوض مع شريك من هذا النوع بدل القوة الاستعمارية التي أوشكت على التدخّل في الأمور الداخلية للعربية السعودية، وإعادة تنظيم أمور البلد سياسياً.

يوجد عامل آخر أسهم في قلب الموازين السعودية لصالح الولايات المتحدة الأمريكيّة، تجسّد بشخص جون فيلبي، ذلك الجاسوس البريطاني الذي كان النفور يملأ قلبه تجاه حكومته، حتى تم اختياره كأحد مستشاري الملك ابن

سعود المقرّبين. بادر فيلبي إلى تهيئة الأمور كي يحصل السعوديون على عقد دسم مع شركة نفط كاليفورنيا الأنموذجية. كان يساوره الشك بخصوص المساعي التي تقوم بها شركة النفط العراقية، للحصول على حق الامتياز من السعودية، في سبيل تحقيق هدف واحد، يتمثّل بإبعاد الشركة الأمريكيّة عن النفط العربي. فإذا حققت مرادها، لن تلجأ شركة النفط العراقية التي كانت تحقق مكاسب هائلة من العراق، إلى استقصاء الامتيازات السعودية بالسرعة القصوى، ما يضيع على ابن سعود فرصة تحقيق الربح.

*** فما تأثير اكتشاف النفط السعودي؟**

وقعت شركة نفط كاليفورنيا اتفاقية مع شركات أمريكية أخرى لتأسيس شركة أرامكو السعودية، أو ما يعرف بشركة الزيت السعودية الوطنية. اتسمت هذه الشركة بقوة تأثيرها، حتى إنها كانت توصف في بعض الأحيان، بأنها دولة داخل دولة. فبعد سنوات عدة من الأبحاث، اكتشفت شركة أرامكو أن احتياطي النفط الذي تملكه العربية السعودية يعادل **%**٢٥ من احتياطي العالم. وبناءً عليه، لم يلبث إنتاجها من النفط أن زاد فيما بعد، لينتقل بعد ثلاثين عاماً من معدل ٢١ مليون برميل في عام ١٩٤٥ إلى ٢٥٨٢ مليون برميل.

ومن البديهي أن يحتل هذا البلد مكانة إستراتيجية لدى واشنطن، كما شهدت بذلك المذكرة الدبلوماسية الصادرة عن الولايات المتحدة الأمريكيّة عام ١٩٤٢، التي تقول فيها: «إننا نجزم بقوة أنه يترتب علينا إدراج موضوع الزيادة الملحوظة في النفط السعودي ضمن قائمة مصالحنا الوطنية وعلى أعلى المستويات». وبعد مضي ثلاث سنوات، التقى الرئيس روزفلت

الملك ابن سعود على متن طراد كوينسي وهو عائد من مؤتمر يالطا، حيث أكّد الرئيس الأمريكي لنظيره أن أمن العربية السعودية وسلامتها يدخلان ضمن «المصالح الحيوية» لأميركا، وأنه يدعم المملكة لتبقى هي الدولة الأولى المهيمنة في المنطقة. ثم جاء الرئيس ترومان فيما بعد خلفاً للرئيس روزفلت، ليؤكد مجدداً وبكل عطف «أن الولايات المتحدة الأمريكيّة تُدخِل ضمن اهتماماتها المباشرة توفير الحماية للمملكة ضد أي تهديد خارجي قد تتعرّض له».

النفط:
ما سبب التنافس بين القوى العظمى «الحليفة»؟

ما الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى تكريس جل اهتمامها للسيطرة على الذهب الأسود في المملكة العربية السعودية؟ في عام ١٩٤٨، بلغ معدل النفط الذي تستورده الولايات المتحدة الأمريكيّة ٦% من حاجتها، وكانت تستورد القليل منه من العربية السعودية... لذا، لم يكن النفط السعودي هو مصدر تمويلها الرئيس. في حين كانت أوروبا تستورد القدر الأكبر من نفطها من المملكة العربية السعودية. ولما عمدت الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى مراقبة المملكة العربية السعودية، والاطلاع على معدل الاحتياطي الضخم الذي تمتلكه، كان همها الأوحد امتلاك وسيلة، تضغط بها على منافسيها الأوروبيين.

تحوّل الذهب الأسود إلى مصدر حيوي لتشغيل آلة الاقتصاد الصناعي، وهذا ما يتيح للقوة التي تسيطر على إمدادات البترول أن تتحكّم بالنمو الاقتصادي لمنافسيها، بل العمل على إضعافه، وهذا ما يفسر أيضاً جلّ سياسية الولايات المتحدة الأمريكيّة الحالية لبسط هيمنتها على دول الشرق الأوسط، وعلى أي منطقة من العالم تمتلك النفط.

لا تحتاج الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى الحصول على معدل احتياطي كبير من النفط لتلبية حاجاتها المحلية، علماً أنها تستهلك منه كميات هائلة، إذ ينصبّ اهتمامها في ممارسة الضغط على منافسيها، كدول أوروبا واليابان والهند، وبصورة خاصة الصين.

وفي المرحلة الحالية للنظام الرأسمالي، تضطرم المعارك من أجل الحصول على المواد الأولية، وتتأجج بسبب الهدر والإسراف. وهناك ملحوظة غاية في الأهمية: لا ينحصر سبب الصراع الذي ينشب بين الدول في تحقيق المزيد من الأرباح من هذه المواد الأولية، بل يتعداه أيضاً - وبشكل خاص - إلى حرمان المنافسين من الاستفادة منها، سواء كان هؤلاء من «الخصوم» أو من «الحلفاء».

لقد اتصفت الحروب الأخيرة بالطابع التنافسي؛ فلم تبسط الولايات المتحدة الأمريكيّة نفوذها على العراق إلا من أجل إبعاد فرنسا عنه، إذ كانت أفضل منها وضعاً، وتنافست فرنسا وبريطانيا العظمى على احتلال ليبيا، بهدف السيطرة على حقول النفط فيها، ومن أجل إقصاء كل من إيطاليا وألمانيا اللتين كانتا قد تمكنتا من إبرام عقودٍ مميزة.

وبلغ الأمر بشركة الزيت السعودية الوطنية (أرامكو) حد إعداد دراسة تاريخية ورعايتها. تتناول هذه الدراسة أصول أسرة آل سعود، من أجل إضفاء صفة الشرعية عليها، وقد ابتكر بعض الخبراء المختصين شجرة نسب، تثبت الأصول العربية النبيلة لأفراد القبيلة البدوية، بل وبأنهم أحفاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم!

نعود لنؤكّد أن فوز الولايات المتحدة الأمريكيّة بالامتيازات السعودية في السنوات الثلاثين من القرن الماضي سجّل تحولاً في سياستها، استطاعت بموجبه التمركز في منطقة الشرق الأوسط، الذي كانت غالبية دوله ترزح تحت هيمنة بريطانيا العظمى.

*** لقد تزايد نفوذ الولايات المتحدة الأمريكيّة في دول المنطقة بشكل أكبر بعد الحرب العالمية الثانية...**

نعم. خرجت أوروبا من هذه الحرب مهزومة ومنكسرة، في حين حققت الولايات المتحدة الأمريكيّة التي لم تتكبد أي خسارة، نصراً مؤزراً. لم يعد لدى الإمبراطورية البريطانية القدرة على إبقاء الوطن العربي تحت سيطرتها، فكانت الولايات المتحدة جاهزة لاحتلال مكانها تدريجياً.

*** هل كانت المصلحة المرجوة من المملكة العربية السعودية ناتجة عن امتلاكها للنفط فقط؟ علماً أن هناك دولاً أخرى منتجة للبترول لكنها لم تحظَ بكل تلك الاعتبارات...**

كلا. تعتقد واشنطن أن هذا البلد يحتل مركزاً جغرافياً إستراتيجياً، ففي عام ١٩٤٣، كتب دين آشيسن، الذي تولى فيما بعد منصب وزير الخارجية الأمريكيّة، «تحتل المملكة العربية السعودية موقعاً حيوياً، فهي تقع بين البحر الأحمر والممرات المائية للخليج العربي، كما تقع على المسار الجوي المؤدّي مباشرة إلى بلاد الهند والشرق الأقصى». وفي عام ١٩٤٥، توصلت كل من المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكيّة إلى إبرام اتفاق لإقامة قاعدة عسكرية في الظهران، على الضفة الغربية من الخليج العربي. بنيت القاعدة بمحاذاة المدينة التي أنشئت بشكل خاص للعاملين في

شركة آرامكو، وبذلك ضمن الجيش الأمريكي مراعاة مصالحه النفطية بشكل مباشر. كما أتاح موقع هذه القاعدة المركزي للولايات المتحدة الأمريكيّة التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، الربط بين جميع القواعد العسكرية التي أقامتها في جنوب أفريقيا في ساحة القتال في المحيط الهادئ.

*** هل لا تزال ثمة فائدة مرجوة من وجود القاعدة العسكرية، بعدما وضعت الحرب أوزارها؟**

أكثر من أي وقت مضى! ففي اليوم الذي تلا الحرب العالمية الثانية، اتخذت الولايات المتحدة الأمريكيّة الاتحاد السوفييتي عدواً لها. فقد خشيت واشنطن أن يمتد تأثير الشيوعية ليصل إلى دول الشرق الأوسط. لذلك شكلت القاعدة العسكرية المقامة في الظهران نقطة انطلاق مهمة للتدخل العسكري الآني في الوطن العربي.

وهنا، لا بد أن أذكر العامل الرئيس الذي يربط المملكة العربية السعودية بالولايات المتحدة الأمريكيّة، ألا وهو مقاومة الشيوعية. ففي معركتها لبسط هيمنتها على العالم، سعت واشنطن إلى مواجهة التأثير السوفييتي في أرجاء المعمورة. من جهتها، كانت سلالة آل سعود تشعر بحقد عنيف تجاه الشيوعية. فمثلاً، بعد أن ألقى جيش الولايات المتحدة الأمريكيّة القنبلة الذرية على هيروشيما بوقت قصير، سارع الملك ابن سعود إلى إرسال رسالة قصيرة إلى الرئيس الأمريكي ترومان، مفادها طلب إلقاء القنبلة الثانية على الاتحاد السوفييتي. بعد انقضاء سنوات عدة، أرسل الملك ابن سعود رسالة إلى ضابط أميركي، يقول له فيها: «اذا استطعتَ أن تجد شيوعياً واحداً في المملكة العربية السعودية، فسأقدم لك رأسه.»

*** كيف تفسر حقد آل سعود على الشيوعية؟**

تُعدُّ المملكة العربية السعودية دولة إقطاعية متخلفة، لا تمتلك دستوراً للبلاد حتى الآن. يصنف نظامها مع نظام سلطنة بروناي، وسلطنة عُمان وسوازيلاند بأنه النظام الملكي المطلق الأخير في التاريخ. لا يوجد لديها مجلس نواب، ولا يملك شعبها الحق في إبداء رأيه في طريقة إدارة البلاد. تُعدُّ المملكة في واقع الأمر كأنها ملكية خاصة لآل سعود. فضلاً عن ذلك، ألم يعطِ ابن سعود اسمه للدولة؟ كل الشعب السعودي هو في حقيقة الأمر، وكما هو شائع هناك، «سعودي».

*** ماذا يعني هذا الكلام؟**

«أنت مُلكٌ لنا»! وإذا رفضت ذلك فسيجردونك من جنسيتك! «السعودي» هو إنسان... إنه ليس دولة... إنه فقط ذلك الرجل الذي يسمى الملك عبد العزيز بن سعود الذي منح اسمه للدولة. هل أدركتَ الآن سبب خشية السلالة السعودية من الشيوعية، ومن أفكارها التي تتسم بالمساواة، ومن القومية التقدمية التي كانت أفكارها ملهِمة للعالم العربي ولغيره من الأماكن على ظهر هذا الكوكب؟ فلو اقتنع الشعب السعودي بمثل تلك الأفكار، لأعيد طرح موضوع شرعية الأسرة المالكة ونظامها القمعي على طاولة البحث مجدداً.

*** إنما، ألم يتم الإعداد لإجراء انتخابات عام ٢٠٠٥؟**

كانت مجرد مهزلة! صنفت صحيفة نيوزويك الأسبوعية في عدد صدر لها منذ سنوات عدة، الملك عبد الله في مقدمة الحكام العشرة الذين يعملون

على تشجيع انتشار الديمقراطية في العالم. كان الأمر عبارة عن مهزلة! إذ كان هذا الاستفتاء الوحيد في تاريخ المملكة، وكان موضوعه الانتخابات البلدية عام ٢٠٠٥. يعتقد المحللون المحليون أن الأمر كان مجرد مهزلة. إذ إنتخب الشعب نصف عدد مستشاري البلديات، بينما عيّن النصف الآخر الأميرُ المسؤول عن القضايا المحلية. ولكن، لم يكن لهؤلاء الممثلين أي سلطة بشكل ملموس. كان من المفترض إجراء انتخابات جديدة عام ٢٠٠٩، لكن أُجِلَّ الموضوع بسبب غياب ثقة المواطنين بمثل تلك الانتخابات!

لطالما قابل النظام الدكتاتوري مسألة الديمقراطية بالعنف، باستثناء هذا الخداع. ففي التسعينيات من القرن الماضي، في سبيل المثال، طالبت جماعة من الشيوخ المستقلين التابعين للمؤسسة الرسمية بإجراء عدد من الإصلاحات. جاء رد السلطة مخالفاً لمطالبهم، إذ تمثل بإنشاء جمعية استشارية، عيّن الملك أعضاءها. عبّر هؤلاء الإسلاميون الإصلاحيون عن استيائهم أمام هذا التدعيم للسلطة الملكية، فما كان من الحكومة إلّا زج زعماء المعارضة الأساسيين في غياهب السجون!

*** يُعدُّ النظام الحاكم في السعودية النظام الأكثر قمعاً لحقوق المرأة...**

نعم، إنه البلد الذي لا يوقّر المرأة. فالتمييز العنصري الذي يمارس ضد المرأة يخضع لطابع مؤسسي ممنهج، لذا لا تملك أي وسيلة للدفاع عن حقوقها. فمثلاً، لا يحق للمرأة السعودية قيادة السيارة! كما لا تعالج في المستشفى، ولا يسمح لها بالسفر دون إذن من المحرم الذي هو ولي أمرها (سواء كان الزوج، أو الأب أو الأخ...). إلّا أن عبثية هذا التمييز تنتهي غالباً بمأساة.

ففي عام ٢٠٠٢، اندلعت النار في مدرسة للإناث في مكة المكرمة، فتدخلت المطوعة، التي هي بمنزلة الشرطة الدينية في المملكة، بالتزامن مع قدوم رجال الإطفاء. وبما أن الحريق حدث في وقت مبكر من الصباح، ولم تكن بعض الفتيات قد ارتدين لباسهن الرسمي، فقد منعتهن المطوعة من مغادرة المسكن الذي كان يحترق، لئلا يراهن رجال الإطفاء المسؤولون عن إخماد الحريق، ولا سيما أن المحرم المسؤول عن كل واحدة منهن لم يكن قد وصل بعد. ووفقاً لبعض الشهود، ومنهم موظفو منظمة رصد حقوق الإنسان، لقيت خمس عشرة فتاة مصرعهنّ، في حين أصيبت خمسون آخريات بالجروح نتيجة لهذا الحريق. وفي إثر ذلك، أقيلت مديرة المدرسة، بينما لم ينتب أي من المطوعة أو لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي قلق.

*** نشاهد وسائل الإعلام تشن حملات إعلامية منظّمة ضد إيران في سبيل المثال، في حين تلتزم هذه الوسائل نفسها الصمت المطبق حيال المملكة العربية السعودية، أليس في ذلك مدعاة للدهشة؟**

نعم، ولا سيما عندما تدّعي الولايات المتحدة الأمريكيّة أنها «تناضل من أجل حقوق المرأة» في أفغانستان أو في إيران. هذا الصمت المطبق الذي تلتزمه وسائل الإعلام يثير تساؤلات جمة حول كنه دورها!

*** لنعد إلى الصراع ضد الشيوعية، لقد أُعِدَّ له بالتعاون الوثيق مع الولايات المتحدة الأمريكيّة ...**

هذا صحيح، نالت العديد من الدول الأفريقية ودول الشرق الأوسط ودول في آسيا استقلالها غداة الحرب العالمية الثانية، وتخلصت من نير الاحتلال، فخشيت واشنطن أن تسقط هذه الدول الفتيّة في الحضن

السوفييتي. لذا شرع الرئيس آيزنهاور، بالتعاون مع وزير خارجيته جون فوستر دالاس في الإعداد لمخطط إستراتيجي، يُسنَد فيه الدور الأهم إلى المملكة العربية السعودية. كان عليها تقديم الولايات المتحدة الأمريكيّة بأنها بلد مناوئ للاستعمار، كما توجب عليها تقديم إثبات للعالم بأسره، يتناول النجاح الذي أحرزته، عندما أقامت علاقات مع واشنطن. إنما، في حقيقة الأمر، انحصر الدور الذي لعبه كل من آيزنهاور ووزير خارجيته دالاس في تكييف شكل الاستعمار بما يتنافى مع الشكل التقليدي، وبإضفاء طابع مغاير له، إذ حلّت الشركات الخاصة الكبرى محل الدول الاستعمارية القديمة، ولعبت دورها، وانكبّت على نهب المواد الأولية للدول المستَعمَرة، في حين كانت واشنطن تموّل النخبة لقمع الشعوب في تلك الدول التي باتت تخضع لشكل جديد من الاستعمار. فكانت تلك الشعوب هي الخاسر الأكبر للمرة الثانية.

*** إلّا أننا رأينا أن بلداً كبيراً تجرأ وتصدى للاستعمار عندما قلب نظام الحكم، وعزل الملك المصري فاروق عن عرشه عام ١٩٥٢، وأسّس جمهورية اشتراكية، وجّه عبد الناصر بفعله هذا تحدّياً كبيراً لواشنطن وللرياض في آن واحد. فكيف جاءت ردة فعل هاتين الدولتين؟**

جاء خبر هذا الانقلاب كالصاعقة على المملكة العربية السعودية. أقدم عبد الناصر على قلب نظام حكم ملكي، وهذا المثال كان بمنزلة دعوة موجهة إلى باقي البلدان لاستبدال نظام الحكم الملكي الإقطاعي بآخر جمهوري. إضافة إلى أنه كان يدعو إلى القومية العربية في كل المنطقة العربية. أي إلى التحرر من هيمنة الاستعمار الحديث.

شعرت المملكة العربية السعودية منذ ذلك الحين بأنها موضع تهديد مباشر، إذ يعتمد استمرار السلالة السعودية على رأس الحكم، وبقاء نظامها المتخلّف على الدعم الذي تقدمه الولايات المتحدة الأمريكيّة، فكان من المحال لها اتباع سياسة مستقلة عن واشنطن.

من جهته، اعتقد الرئيس آيزنهاور، في بداية الأمر، أن بإمكانه استمالة الرئيس المصري عبد الناصر إلى المعسكر الغربي، غير أن هذا الأخير، وفي عام ١٩٥٥، عقد صفقة سلاح مهمة مع تشيكوسلوفاكيا. كانت صفقة السلاح السوفييتي هذه الأولى في نوعها، تمت مع بلد كمصر، غير شيوعي، بمنزلة إعلان صريح عن موقف عبد الناصر، الذي اختار المعسكر الشرقي، متيحاً بذلك الفرصة للاتحاد السوفييتي في التمركز في منطقة الشرق الأوسط. ما أثار انزعاجاً قوياً في كل من إسرائيل وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكيّة.

*** بعد عام من هذا الحدث، بادر الرئيس المصري إلى تأميم قناة السويس، لترد عليه فرنسا وبريطانيا العظمى، بالاشتراك مع إسرائيل، بغزو بلاده في التاسع والعشرين شهر العدوان الثلاثي على مصر من عام ١٩٥٦، غير أن الولايات المتحدة بقيت على الحياد، ولم تشارك في هذا الصراع. يبدو الأمر مثيراً للدهشة.**

لم يكن في نيّة دالاس وآيزنهاور تشويه الصورة التي اجتهدا في تصديرها للعالم، والتي تنفي أي مطامع استعمارية لدولتهما. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الأمريكيّة تدرس إمكان المشاركة في غزو مصر، سأل آيزنهاور: «كيف ستتمكن من تقديم الدعم لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى إذا كنا بهذه الخطوة سنفقد العالم العربي بأكمله؟»

كان الوضع لدى الدول الإمبريالية وأنظمتها حرجاً جداً من الناحية المنهجية. بادرت الدول العربية إلى فرض الحظر على النفط العربي ضد أوروبا تعبيراً منها عن تضامنها مع عبد الناصر، وإنكارها لغزو بلاده، ووجدت العربية السعودية نفسها مضطرة على الرغم من نفورها من الرئيس المصري، للمشاركة في هذا الحظر كي لا تضع نفسها في موقف حرج مع الدول العربية كافة. غير أن الرئيس آيزنهاور أعلن رفضه لنجدة حلفائه الأوروبيين، فلجأ إلى مضاعفة إنتاجه من النفط الأمريكي، ما اضطر القوات الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية إلى الانسحاب من مصر، وكان ذلك رضوخاً لأوامر واشنطن وموسكو.

خرج عبد الناصر من هذا الغزو لبلاده أقوى من ذي قبل، وتزايدت شعبيته على صعيد العالم العربي، وتقربَّ من الاتحاد السوفييتي، وفشلت الولايات المتحدة الأمريكيّة في استغلال موقفها من الصراع، ولم تتمكن من جذب عبد الناصر إلى دائرة نفوذها، في الوقت الذي أخذت القومية العربية للرئيس المصري في التوسع والامتداد لتشمل سورية والعراق واليمن.

*** امتدت القومية العربية إلى شمالي اليمن بالتحديد، حيث اشتعلت ثورة ١٩٦٢. وبينما قدمت المملكة العربية السعودية دعمها للأسرة المالكة التي كان الخطر يحدق بها، كانت مصر تساند الثوار الجمهوريين. هل نستطيع التحدث عن حرب عربية باردة، كما يصفها بعض المؤرخين؟**

إلى حدٍّ ما. قلب الثوار نظام الحكم الإقطاعي، بزعامة الإمام الملك محمد البدر في اليمن الشمالي، لتأسيس جمهورية متحضرة ومستقلة عن القوى الإمبريالية. لاقت هذه الحركة الدعم الكامل من عبد الناصر الذي

كان يدعم القومية العربية الشاملة. أرسل الرئيس المصري قواته لمساندة الثوار في قتالهم ضد القوى الملكية، ما أثار الذعر لدى كل من الحكام السعوديين، والولايات المتحدة، وإسرائيل وأوروبا على حدٍّ سواء.

رأت الرياض شبح الثورة ضد الإقطاع يتهدد أمنها، فجندت قواتها المسلّحة لمساعدة الملك البدر في استعادة سلطته. كان الخطر الذي يحدق بالسعوديين جسيماً، إذ وجدت الأفكار التي كان يحملها الجمهوريون اليمنيون صدىً لها في المملكة العربية السعودية، تمثَّل ذلك في رفض الطيارين الذين يعملون في الجيش السعودي قصف الثوار، بل وصل بهم الأمر حدّ الذهاب إلى اليمن. من جهتها، شاركت المملكة العربية السعودية في الحرب بعد أن تلقت دعماً من الدول الغربية، لإجهاض الثورة اليمنية التي كان عبد الناصر يؤازرها. انتهى الصراع الدموي ببقاء النظام الجمهوري والقومي في اليمن، إلّا أنه خرج منهكاً من هذه الحرب.

*** اتسم موقف الولايات المتحدة الأمريكيّة بالغرابة في بداية هذا الصراع. فبينما كان الأمير السعودي فيصل يطلب إلى واشنطن إمداده بالمال والسلاح لقتال القوات المصرية، كان الرئيس كندي يدعو الأمير فيصل للمبادرة إلى إجراء الإصلاحات في بلده. ما السبب في ذلك؟**

سارع الرئيس كندي إلى الاعتراف بالحكومة الجديدة في اليمن، ما أثار القلق لدى الأمير فيصل. وبدل أن يحصل على الدعم اللازم للتصدي للقوات المصرية في اليمن، وجد نفسه مطالباً بتقديم مخطط إصلاحي لتحديث البلاد، وتحسين صورة المملكة في المشهد الدولي.

في واقع الأمر، كان كندي يأمل في إبعاد عبد الناصر عن الحضن السوفييتي. لذا لم تكن واشنطن ترغب في الإعلان عن دعمها للعربية السعودية، الخصم الرئيس لمصر. انصاع الأمير فيصل بادئ الأمر لمطالبات البيت الأبيض، وقدم برنامج إصلاحات، انحصر في عشر نقاط لتحديث الاقتصاد السعودي، والقضاء على نظام الرق الذي كان لا يزال سائداً في المملكة.

في نهاية المطاف، أدرك كندي، على غرار سلفه آيزنهاور قبل أعوام عدة، أنه لن ينجح في استقطاب رضا عبد الناصر. لذا بقيت السعودية بموقفها الرافض للشيوعية وللقومية العربية، أفضل حليف للولايات المتحدة الأمريكيّة في المنطقة. فما كان منه إلا النزول عند رغبة الأمير فيصل، وتقديم الدعم له في حربه في اليمن، متناسياً تماماً مخطط الإصلاحات. وفيما بعد، تخلّى الرئيس الأمريكي ليندون جونسون، الذي خلف الرئيس كندي، عن بذل أي محاولة تودد للرئيس عبد الناصر، مؤكداً دعمه الكامل للمملكة العربية السعودية.

*** إذاً انتهت حرب اليمن بوقف إطلاق النار بين المملكة العربية السعودية ومصر عام ١٩٦٥، لكن بعد مضي عامين، وجد عبد الناصر، الوحش الأسود بالنسبة للسعوديين، وجد نفسه وسط زوبعة حرب الأيام الستة. هل كانت هذه بمنزلة فرصة ثمينة لآل سعود؟**

بالفعل، في شهر حزيران من عام ١٩٦٧، نشأ صراع بين إسرائيل وحلف الدول العربية، الذي يضم مصر والأردن وسورية. كانت معركة قصيرة الأمد، أشعلت تل أبيب فتيلها، وألحقت بعبد الناصر هزيمة نكراء. ففي اليوم الأول، دمرت إسرائيل نصف السلاح الجوي العربي، وبعد انقضاء ستة أيام كانت

إسرائيل تسيطر على كلّ من قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء المصرية، والضفة الغربية وشرقي القدس في الأردن، وهضبة الجولان في سورية.

كانت نكسة ساحقة لعبد الناصر وللقومية العربية، التي تعهد عبد الناصر بالدفاع عنها. لم يعد أحد يلتفت إلى أفكاره التي كان ينادي بها وسط العالم العربي، والتف كثيرون منهم حول البديل الأساسي في ذلك العصر، الإسلام السياسي الذي كانت المملكة العربية السعودية تحمل لواءه.

*** كيف تمكنت المملكة العربية السعودية من استعادة دورها الرائد في قيادة الإسلام السياسي؟**

استحدث الرئيس آيزنهاور خطة إستراتيجية، تمثّلت في تقديم الدعم المادي والعسكري لكل دولة ضمن حدود الشرق الأوسط، تجد نفسها «عرضة للخطر الشيوعي». كانت خطته تهدف بالدرجة الأولى إلى الوقوف في وجه تأثير الاتحاد السوفييتي، غير أن عقيدته هذه باءت بالفشل. فمن جهة، أثار موضوع إرسال المبالغ الكبيرة إلى دول تنعم بالثراء نتيجة امتلاكها للنفط، أثار جدلاً كبيراً في الداخل الأمريكي، ومن جهة أخرى، كان على الدول العربية التي ستقبل هذه المساعدة أن تظهر عداءها لمصر بقيادة الرئيس عبد الناصر، الذي لا يزال يحظى بشعبية كبيرة لدى شعوب المنطقة في تلك الحقبة.

لذا عمدت واشنطن إلى تبنّي خطة بديلة، تمثّلت في استخدام الإسلام كسلاح سياسي لمواجهة القومية العربية، ذات الطابع العلماني، التي ينادي بها الرئيس عبد الناصر. انطلقت هذه الخطة في بداية الستينيات في عهد الملك سعود بن عبد العزيز، الابن الأكبر لعبد العزيز آل سعود وخلفه. غير أن هذا السلطان كان مشهوراً بحبه للنساء والقمار والخمور، كما عرف

عنه ضعف الإدارة وسوء التنظيم لأمور المملكة، ولم يكن يمتلك المواصفات الملائمة لتحمّل أعباء الدور الذي ينتظره؛ لذا أُبعد عن الساحة السياسية لصالح أخيه فيصل.

امتثالاً لهذه الخطة الجديدة، أنشأت المملكة العربية السعودية رابطة العالم الإسلامي، وهي عبارة عن منظمة محافظة، مستوحاة من الفكر الوهابي المتطرّف، لمواجهة تأثير الرئيس عبد الناصر. وعليه، فقد صرحت الرابطة، في سبيل المثال، أن النزعة القومية هي ألد أعداء العرب. لم يتوج هذا الإسلام السياسي بالنجاح في بداية أمره، فقد كان عبد الناصر لا يزال يحظى بشعبية كبيرة، غير أن الهزيمة التي مُني بها في حرب الأيام الستة غيرت من قواعد اللعبة. فبعد هذا الصراع، وخسارة التيار الناصري حظوته، لقي الخيار البديل الذي قدمه فيصل ترحيباً شعبياً، وباتت المملكة العربية السعودية هي العنصر الفاعل الرئيس على صعيد منطقة الشرق الأوسط. وجاءت الأزمة النفطية الأولى عام ١٩٧٣ لتعزز هذا الدور القيادي لها.

*** كيف تمثّل دور الأزمة في تعزيز نفوذ المملكة العربية السعودية؟**

شهد عام ١٩٧٣ حرباً بين إسرائيل وحلف الدول العربية الذي قادته كل من سورية ومصر التي كانت آنذاك تحت حكم أنور السادات، عُرفت بحرب أوكتوبر / تشرين أو حرب الغفران. اتخذت الدول العربية المنتجة للنفط قراراً بفرض الحظر على الدول التي تساند إسرائيل، ومنها الولايات المتحدة الأمريكيّة بالطبع. فما كان من المملكة العربية السعودية إلّا الانضمام إلى هذا التحالف، لكنها في حقيقة الأمر، كانت تنتهك هذا الحظر باستمرارها في إمداد سفن الحرب الأمريكيّة في حربها ضد فيتنام .

ارتفع سعر برميل النفط الذي جاء كنتيجة حتمية لهذا الحظر، ما عاد بالنفع على منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك)، فكان لهذه الصدمة النفطية عام ١٩٧٣ أثرها في تحويل الأموال الطائلة من دول الغرب إلى دول العالم الثالث. وحققت المملكة العربية السعودية فائدة من هذا الحدث تجسدت في ثلاثة اتجاهات...

تجسدت النتيجة الأولى للصدمة النفطية بتدفق المال الهائل على المملكة بتحديث البلد، إلّا أن هذا التحديث تسبب في خلق تناقضات في الداخل السعودي، بين المجتمع المثقف والنظام المتخلّف الذي يحكم هذا المجتمع.

نظام بريتون وودز للصرف المالي
مخطط مارشال الاقتصادي
وطباعة الأوراق النقدية
الأسرار الثلاثة وراء نمو الاقتصاد الأمريكي
(١٩٤٤-١٩٦٠)

تموز ١٩٤٤، نظام بريتون وودز (الولايات المتحدة الأمريكيّة). أعادت الدول الحلفاء الأربع والأربعون هيكلة النظام المالي العالمي؛ ففي حين كانت أوروبا تعاني من نقص في رؤوس الأموال واليد العاملة، نتيجة الانهيار الكبير الذي تعرض له اقتصادها غداة الحرب، خشيت الولايات المتحدة الأمريكيّة من اندلاع ثورات شعبية مؤيدة للتوسع الشيوعي وسط هذه التربة الخصبة والملائمة.

لذا، كان لا بد من إعادة إعمار أوروبا بالسرعة القصوى، والسعي في الوقت عينه إلى جني أكبر قدر ممكن من الأموال؛ فقد استفادت الولايات المتحدة الأمريكيّة من هذه الحرب في تحقيق ثروة هائلة نتيجة القروض التي منحتها لأوروبا، والسلاح الذي باعتها إياه، ما أدى إلى تضاعف إنتاجها الصناعي من جراء ذلك، فسعت إلى رفع القيود عن التجارة الدولية، وإلى

تحقيق الفائدة الأكبر عبر مركزها، كقوة مهيمنة، وذلك عن طريق تصريف منتجاتها في الأسواق العالمية، والتحكم بحرية كاملة بالمواد الأولية.

تحول الدولار إلى عملة احتياطية دولية للقيمة كالذهب

أدت الاتفاقيات إلى اعتماد نظام جديد تمثّل بالمعيار الذهبي؛ فقد تقرر منذ ذلك التاريخ تحديد قيمة العملة لكل بلد عضو في النظام المالي العالمي نسبةً إلى الدولار الأمريكي، الذي باتت قيمته ترتبط بقيمة الذهب بنسبة رسمية تعادل ٣٥ دولاراً للأونصة الواحدة. وعليه، فرض هذا النظام المالي بسهولة، ما أتاح للولايات المتحدة الأمريكيّة جمع ثلاثة أرباع مخزون العالم من الذهب، ليبقى الدولار هو العملة الوحيدة التي حافظت على قيمتها التي كانت عليها في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية. أصبح الدولار العملة الأكثر قوة الذي يلقى دعماً من الاقتصاد الأكثر نمواً، فقد ساد القول آنذاك **«بلغ الدولار مرتبة الذهب بقيمته»**.

ومن أجل الشروع في العملية، اعتُمد «مشروع مارشال الاقتصادي» الذي اقتضى تزويد أوروبا بالقروض اللازمة من العملة الأمريكيّة، من أجل إعادة الإعمار. عادت هذه القروض على أمريكا بفوائد كبيرة، إذ كان يتم شراء السلع في السوق الأمريكي وبالعملة الأمريكيّة، ما انعكس إيجاباً على شركات النفط الكبرى، وعددها خمس شركات أمريكية، فقد لجأت هذه الشركات إلى تزوير الفواتير بمضاعفة الأسعار الواردة فيها قبل إعطائها للأوربيين، مقابل بيعها النفط الذي كانت تأخذه من دول الشرق الأوسط بأسعار زهيدة.

بداية النهاية...

إنما، في فترة الستينيات، بدأ الاقتصاد الأمريكي يفقد من زخمه، بعد أن عاش مرحلة انتعاش نتيجة الحرب العالمية الثانية وإعادة إعمار أوروبا؛ إذ بدأت القارة العجوز تسترد استقلالها الصناعي، فتضاءل تالياً اعتمادها على البضاعة الأمريكيّة المستوردة. إضافة إلى ذلك، تحولت المصارف الأمريكيّة إلى دول أمريكا اللاتينية لاستثمار أموالها فيها، وبشكل خاص لإعادة إعمار أوروبا، ما عاد عليها بأرباح مضاعفة. لذا، أهملت هذه المصارف الأمريكيّة الاستثمار في مجال الصناعة الوطنية، فكانت بداية لتدهور الاقتصاد الأمريكي...

انهيار الاقتصاد الأمريكي، ونهاية المعيار الذهبي.

شهدت الخمسينيات هبوطاً حاداً في الآلة الصناعية الأمريكيّة، فقد رجحت كفة الاستيراد مقابل تراجع في كفة الصادرات، فكان هذا العجز التجاري سبباً رئيساً في أزمة المديونية الأمريكيّة الآخذة في التفاقم...

اللجوء إلى إصدار الأوراق النقدية!

لم يكن ذلك ليسبب مشكلة للولايات المتحدة الأمريكيّة بادئ الأمر، فما كان عليها إلّا إدارة اللوح الخشبي لطباعة الأوراق النقدية لسد العجز، فكان ذلك سبباً في محافظة الدولار على قيمته. في الحقيقة، كان نظام المعيار الذهبي مشروطاً باتفاق ضمني، إذ كانت المصارف المركزية مدعوّة للاحتفاظ بالدولارات في خزائنها الحديدية، عوضاً عن مبادلتها بالذهب لدى المصرف الاحتياطي الفدرالي.

الرئيس نيكسون يكسر الاتفاق

غير أنه، وفي الستينيات، ازداد الوضع الاقتصادي سوءاً للولايات المتحدة الأمريكيّة، وبشكل خاص، بسبب الحرب الفيتنامية التي أثقلت كاهل الدولة بتكاليفها الباهظة. لذا ارتفع رقم العجز المالي الفدرالي للولايات المتحدة الأمريكيّة من ثلاثة مليارات دولار عام ١٩٦٠ ليبلغ تسعة مليارات عام ١٩٦٧، ثم ليسجل ارتفاعاً آخر عام ١٩٦٨ بلغ خمسة وعشرين مليار دولار!

ما سبب المشكلة؟ لم تتوقف كتلة الدولارات المتداولة خارج الولايات المتحدة الأمريكيّة عن الارتفاع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هبط مخزون الاحتياطي من الذهب في البنك الاحتياطي الفدرالي. فلو لجأ أصحاب الدولارات، خارج الولايات المتحدة الأمريكيّة، إلى المطالبة بتبديل أوراقهم النقدية الخضراء بالذهب في عام ١٩٧٠، لما تمكّنت واشنطن من تلبية إلّا ربع عدد الطلبات. لقد فقد الدولار «دوره كاحتياطي رسمي للقيمة». باتت هذه حقيقة مؤكّدة.

أصبح الوضع غير مقبول، ففي الخامس عشر من شهر آب من عام ١٩٧١، صرّح الرئيس نيكسون، وبصورة انفرادية، إنهاء عملية تحويل الدولار إلى الذهب، واضعاً بذلك حداً لثبات سعر الصرف المرتبط بالدولار، فبدأ بذلك عهد المرونة لسعر الصرف، ما فتح الصمامات أمام المضاربة العالمية.

في الواقع، أتاحت اتفاقيات نظام بريتون وودز الفرصة أمام الولايات المتحدة لتوسيع دائرة عجزها الخارجي من دون دفع تكاليف. فما إن أُلغي

العمل بهذه الاتفاقيات حتى بدأ البحث عن نظام جديد، يحافظ على هيمنة الدولار. ففي العام الذي أعلن فيه الرئيس نيكسون إلغاء المعيار الذهبي، كان يوقّع على اتفاق مع منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) الذي ينص على بيع النفط من تاريخ توقيع العقد بالدولار الأمريكي حصراً **(كما سيرد في الصفحة؟؟؟ فصل: قد ينهار الاقتصاد الأمريكي في حال غياب الدولارات النفطية)**. لا يزال أمام الورقة النقدية الخضراء مستقبل جميل...

تمثلت النتيجة الثانية للصدمة النفطية بقيام هنري كسنجر، المسؤول عن سياسة الولايات المتحدة الأمريكيّة الدولية حينها، بتطوير نظرية تهدف إلى جعل المملكة العربية السعودية شريكاً مسهماً مهماً في الاقتصاد الأمريكي، للحيلولة دون استخدامها النفط كوسيلة ابتزاز ضد واشنطن. وهكذا حملت الولايات المتحدة الأمريكيّة المملكة النفطية على استثمار المبالغ الكبيرة التي حصلت عليها بعد الصدمة الأولى، داخل أميركا. فكانت النتيجة ارتباط مستقبل الرياض بمستقبل واشنطن ارتباطاً وثيقاً.

فضلاً عن ذلك، بينما كانت الولايات المتحدة الأمريكيّة تعيش حرب فيتنام، كانت اليابان تُصنّف في طليعة **الدول المتطورة اقتصادياً باحتلالها المرتبة الثانية عالمياً، أما الدول الأوروبية، فقد استردت عافيتها بعد أن ضمدت الجراح الذي أصاب منها مبلغاً عميقاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية. في تلك الفترة الزمنية بالذات، أُدخلت الدولارات النفطية في الاقتصاد الأوروبي. كانت هذه العملية كفيلة بمنح الدولار قيمة دولية، ما أتاح الفرصة** أمام الولايات المتحدة للحفاظ على دورها القيادي.

أما المملكة العربية السعودية، فإنها لم تكتفِ باستثمار أموالها في الاقتصاد الأمريكي، بل تعدى الأمر إلى تسخير مبالغ كبيرة لمحاربة الشيوعية في كل مكان من العالم، فكانت تلك النتيجة الثالثة للصدمة النفطية التي حصلت عام ١٩٧٣.

*** كيف تمكّنت المملكة العربية السعودية فعلياً من تسخير عائداتها النفطية لمحاربة الشيوعية؟**

مات عبد الناصر عام ١٩٧٠ نتيجة أزمة قلبية عن عمر ناهز ٥٢ عاماً، فخلفه أنور السادات الذي تابع نهج سلفه بإثارة النعرة القومية في بداية سنوات حكمه، عندئذٍ سارعت المملكة العربية السعودية إلى استخدام عائدات النفط كسلاح فكري، وبادرت إلى انتزاع مصر من براثن التأثير السوفييتي، فكانت الرياض تستثمر ما يقارب المليارين وخمسمئة مليون دولار في الاقتصاد المصري، وكان لذلك أثره الإيجابي، ما دفع بالسادات إلى الالتفات نحو دول الغرب، متخلياً بصورة نهائية عن التيار الناصري، كما فتح المجال أمام الشركات متعددة الجنسيات، واستسلم لإسرائيل.

*** لكنك أثرت موضوع العملية العالمية التي قام بها آل سعود...**

نعم، بينما كان العالم الرأسمالي يعيش أزمته في السبعينيات، كانت أفريقيا تعيش فترة حافلة بالأحداث... حصلت كل من أنغولا وموزامبيق وزمبابوي التي كانت فيما مضى مستعمرات تابعة للبرتغال، حصلت على استقلالها. ونشأ خلاف بين إثيوبيا التي كانت تتلقى دعمها من الاتحاد السوفييتي، والصومال التي كانت تتلقى دعمها من الولايات المتحدة الأمريكيّة، بشأن منطقة أوغادين الإثيوبية. بالمقابل، كانت روح التضامن والتعاون تكبر يوماً بعد يوم مع شعب

جنوب أفريقيا الأسمر، فقد قطعت دول إفريقيّة عدّة علاقاتها مع إسرائيل المحتلَّة، التي كانت تقّدم دعمها لحكومة الفصل العنصري...

في تلك الفترة الزمنية، وفي عام ١٩٧٦ تحديداً، أُسس نادي السافاري الذي يعرف بتحالف أجهزة الاستخبارات. كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكيّة خارجة لتوها من فضيحة ووترغيت (التي عرفت بتجسس الرئيس نيكسون على مكاتب الحزب الديمقراطي في مبنى ووترغيت) ولا تزال عاجزة عن الإقدام على أي فعل. فما كان من مدير وكالة الاستخبارات المركزية وجورج بوش الأب ووزير خارجيته هنري كيسنجر إلّا تأييد فكرة إنشاء هذا النادي، من أجل محاربة سطوة الاتحاد السوفييتي على دول أفريقيا ودول الشرق الأوسط.

*** «نادي السافاري»! لا أعتقد أن للأمر علاقة بالسياحة!**

كلا، كان هذا النادي يضم مكاتب التجسّس الفرنسية التي كانت تعمل تحت إمرة الضابط الفرنسي إسكندر دي مارينش، ومكاتب التجسس المغربية في زمن حكم الملك الحسن الثاني، ومكاتب التجسّس المصرية في زمن حكم السادات، ومكاتب التجّسس الإيرانية في زمن حكم الشاه، ومكاتب التجسّس في الكونغو تحت حكم موبوتو، وأخيراً مكاتب التجسّس في المملكة العربية السعودية. أقدمت هذه المنظّمة على تطوير شبكة تمويل، فساعدت موبوتو الذي كان رئيساً للكونغو، في عملية قمعه للمعارضة في كاتانغا، أي منطقة التعدين الغنية، كما قدمت الدعم للرئيس الصومالي زياد بري في حربه مع إثيوبيا على منطقة أوغادين الإثيوبية، وعملت على تيسير التقارب بين إسرائيل ومصر، وغيرها من الأعمال.

إضافة إلى ذلك، لعبت المملكة العربية السعودية دوراً في «رابطة مكافحة الشيوعية العالمية»، التي تضم أيضاً الولايات المتحدة الأمريكيّة، ومجرمي الحرب من النازيين واليابان، وطائفة كنيسة التوحيد برئاسة القس موون، إلى جانب جماعات فاشية من أوروبا وأميركا اللاتينية. تصدّت هذه الرابطة المناهضة للشيوعية بشكلٍ فعّال في آسيا، كما تصدّت للكنيسة التحريرية في أميركا اللاتينية، ولظهور أحزاب يسارية متطرفة في أوروبا في أثناء النصف الثاني من القرن العشرين.

نستنتج أن السعوديين لم يبخلوا في تسخير عائداتهم النفطية في سبيل التصدي للشيوعية، وللنفوذ السوفييتي في كل أـرجاء العالم. أسهم ذلك في قيام ركيزة أساسية للسياسة الأمريكيّة في منطقة الشرق الأوسط، بل وتجاوزتها إلى العالم أجمع، تضم كل من المملكة العربية السعودية وإسرائيل وشاه إيران.

*** إلّا أنه، في عام ١٩٧٩، انهارت إحدى تلك الركائز بالانقلاب الذي أحدثته الثورة الإسلامية، بقيادة آية الله خميني، الذي أطاح بشاه إيران. فكيف انعكس هذا الحدث على المملكة العربية السعودية؟**

كانت تلك ضربة قاسية للولايات المتحدة الأمريكيّة التي فقدت أحد حلفائها المخلصين؛ إذ لم يكن النظام الإيراني الجديد ليخفي عداءه لواشنطن. ومن ناحية أخرى، أرسلت الثورة الإيرانية مؤشراً سيئاً إلى دول المنطقة، كشفت عبره عجز الولايات المتحدة الأمريكيّة عن تأمين الحماية للرؤساء الدمى، والعملاء الذين يخدمون مصالحها.

كما كانت ضربة قاسية للمملكة العربية السعودية، تمثّلت بظهور إسلام سياسي متناقض في شكله ومضمونه مع إسلام المملكة، وانتشاره في منطقة الشرق الأوسط بشكل واسع. ففي حين استخدمت المملكة العربية السعودية الإسلام كسلاح لمحاربة النزعة القومية العربية ولخدمة مصالح واشنطن، انتهجت الثورة الإسلامية خطاً مغايراً ضد الإمبريالية.

من جهة أخرى، خشي النظام السعودي تأثير الخميني في الأقلية الشيعية التي تدين بمذهب النظام الإيراني، المتمركزة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، إذ لم يكن النظام السعودي يوليها أي أهمية.

*** كيف تصدّت كل من واشنطن والرياض للخميني؟**

أراد الرئيس ريغان استخدام المملكة العربية السعودية كحصن في وجه انتشار تأثير الثورة الإيرانية. حاول الملك فهد عام ١٩٨١، رشوة عقيد في الطيران الإيراني لقلب نظام الحكم على الخميني، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل.

*** هل خشي السعوديون أن يندرج بلدهم على قائمة الغزو بعد الكويت؟**

كانت المملكة العربية السعودية متأهبة للحرب، إلّا أن قدرة شن الحرب عليها من قبل صدام حسين كانت ضعيفة جداً؛ فالمشكلة الحقيقية كانت بعيدة جداً عن هذا الخيار لدى صدام، فهو لو سيطر على إمارة الكويت التي هي تاريخياً جزء من العراق - لولا أن قام الاحتلال البريطاني بفصلها عنه بصورة تعسفية - لتمكّن العراق من احتلال المكانة الأولى عالمياً

من حيث إنتاجه للنفط. إنما هذا الوضع لم يكن ليلقى القبول لدى المملكة العربية السعودية أو الولايات المتحدة الأمريكيّة .

فبعد أن تمركزت في الكويت، أصبحت القوات العراقية على مشارف المملكة العربية السعودية، لكن هذه الأخيرة لم تكن على قدر كاف من القوة لتجابه جيش صدام حسين، علماً أنها أنفقت مبالغ فلكية لشراء السلاح من الولايات المتحدة الأمريكيّة .

تأتي هذه المعلومة على قدر كبير من الأهمية، فهي تبرز أن الطلبات الهائلة من السلاح التي تقدمت بها إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة لم تكن كافية لتأمين الحماية للمملكة، بل كانت مجرد هدايا، ترسلها الرياض في شكل حوالات مالية إلى واشنطن.

اعترف حكام المملكة العربية السعودية بعجزهم عن الدفاع عن المملكة، وقرروا استقبال قوات أمريكية على أراضيهم لقيادة عملية عسكرية تحت مسمى «عاصفة الصحراء»، استطاعت عبرها وضع حد لاحتلال العراق للكويت. كان هذا القرار السعودي كفيلاً بإثارة الاحتجاجات الحادة على مستوى الشعب السعودي، إذ اعترض الكثير من فئاته على وجود جنود من أمريكا الشمالية على الأراضي الإسلامية للمملكة العربية السعودية.

*** كان بينهم أسامة بن لادن...**

تماماً. ينحدر أسامة بن لادن من إحدى الأسر الأكثر ثراءً في المملكة العربية السعودية؛ ففي عام ١٩٦٠ ناهز عدد حفارات الآبار البترولية الموزعة في العالم المئة، تعود ملكية ما يزيد عن نصفها إلى أسرة ابن لادن**!**

لفت أسامة بن لادن، هذا الرجل فاحش الثراء، الأنظار إليه على الساحة السياسية إبان حرب أفغانستان في الثمانينيات؛ فقد تدخل الاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٩ في هذا البلد الذي يقع في آسيا الوسطى ليقدم الدعم للنظام الاشتراكي الحاكم، في سبيل قمع حركة التمرد الداخلية التي كانت تهدد البلاد. جاء هذا الحدث كتنبيه لكل من الولايات المتحدة الأمريكيّة والمملكة العربية السعودية، اللتين خشيتا تعزيز موسكو لوجودها في المنطقة، فوجدت واشنطن فرصتها المواتية لتوجيه الضربة القاتلة إلى منافستها الرئيسة. وبالفعل، نجحت الولايات المتحدة الأمريكيّة في تحويل أفغانستان إلى «فيتنام السوفييت»، فكانت حرباً طويلة الأمد، باهظة التكاليف ومضنية. فمن أجل توريط الاتحاد السوفييتي، كان لا بد من دعم المقاومة الوطنية لتتصدى لهذا التدخل. وفي هذه المرحلة بالذات، أدّت المملكة العربية السعودية دورها...

*** وما دافعها إلى ذلك؟**

شهد عام ١٩٧٩، بوجه خاص، أحداثاً حافلة للمملكة العربية السعودية؛ إذ تمت الإطاحة بحليفها شاه إيران، ودخلت قوات من الاتحاد السوفييتي أفغانستان، أما في مكة المكرمة، فقد استولت مجموعة من الأصوليين والمناهضين للأسرة المالكة وقد بلغ عددها مئتي مسلح، على الحرم المكي في العشرين من شهر نوفمبر / تشرين الأول، واتخذت من المصلين رهائن لها.

لم يكن آل سعود قادرين على طرد المتمردين من الحرم المكي، ما اضطرهم إلى اللجوء إلى كتيبة التدخّل التابعة للدرك الفرنسي، فانعكست هذه العملية سلباً على صورة الأسرة المالكة لسببين مهمين. فقد ثبت أن آل سعود عاجزون عن قيادة مثل هذه العمليات بأنفسهم، وأن عليهم الاعتماد

على دول الغرب في ذلك؛ أما السبب الثاني فيتمثل في أنه لا يحق لغير المسلمين دخول الحرم المكي. كان على السلالة الحاكمة بعد هذا الحدث استعادة شرعيتها، وكسب تأييد الشعب لها مجدداً، فقد باتت موضع طعن وتشكيك، فجاءت حرب أفغانستان لتفي بالغرض.

*** كيف ذلك؟**

كانت هذه الحرب فرصة أمام المملكة العربية السعودية للظهور بمظهر المدافع عن الأراضي الإسلامية التي تتعرض لهجمات من قبل الشيوعيين في أفغانستان. في حين تمثّل الهدف الذي تسعى إليه كل من واشنطن والرياض في حقيقة الأمر، في هزيمة عدوهما المشترك، روسيا.

وقّع كل من الملك خالد وزبيجنيو بريجنسكي، مستشار الشؤون الخارجية في عهد الرئيس جيمي كارتر، اتفاقيّة، نصّ أحد بنودها على أن تدفع المملكة العربية السعودية دولاراً مقابل كل دولار تدفعه الولايات المتحدة الأمريكيّة في حرب أفغانستان، ليرتفع المبلغ الذي دفعته كل منهما في النهاية إلى مليارات عدة من الدولارات! أثّر ذلك في اقتصاد المملكة العربية السعودية، فلجأت إلى القروض، وعملت على رفع إنتاجها من البترول، كي تتجاوز مشكلة السيولة النقدية، ما أدى بدوره إلى انخفاض في سعر البرميل الواحد من ثلاثين دولاراً إلى ثمانية دولارات، مسببة بذلك خسارة للبلدان المصدرة للنفط (أوبك). في واقع الحال، لم يعد بمقدور هذه المنظمة استخدام الذهب الأسود كسلاح سياسي للتعبير عن مطالبها. نشأ عن ذلك شرخ كبير بين منتجي النفط الصغار ودول الخليج الثرية. وهذا بالضبط ما كان يخطط له هنري كيسنجر منذ عام ١٩٧٣.

*** ما الدور المحدد الذي لعبته المملكة العربية السعودية في حرب أفغانستان؟**

جنّدت مكاتب الاستخبارات السعودية المقاتلين لمواجهة السوفييت باسم الإسلام. جاء معظم هؤلاء المقاتلين من الأقليّات المسلمة الموزعة في أوروبا.

*** وكيف تم التواصل مع هؤلاء؟**

كان للمملكة العربية السعودية تنسيق مميّز مع هذه الأقليات، عبر المساجد المنتشرة التي كانت تمولها في أوروبا. بدأ هذا النشاط الاستيطاني منذ الستينيات بإنشاء رابطة العالم الإسلامي. وحسب ما جاء في صحيفة سعودية، بلغت المبالغ التي أنفقتها المملكة في إنشاء المساجد في أوروبا ٤٥ مليار دولار. ففي بروكسل، في سبيل المثال، تبنّى الملك فيصل تكاليف الأعمال الإصلاحية للمسجد الكبير الذي تنازل له عنه الملك بودوان. بذلك، تكون المملكة العربية السعودية قد أسهمت في تمويل ما يقارب الألف وخمسمئة مسجد، وألفي مركز إسلامي حول العالم، فتوافرت لديها في الثمانينيات شبكة كبيرة، أتاحت لها عملية تجنيد المقاتلين لإرسالهم إلى أفغانستان.

وفي النهاية، استعان الملك خالد بالقوى الدينية الأكثر تطرفاً داخل المملكة، بهدف التصدّي للنفوذ الإيراني، وإعادة تلميع صورته الدكناء بعد عملية رهائن مكة، وتجنيد المقاتلين لإرسالهم إلى أفغانستان. علماً أن والده، مؤسس المملكة ابن سعود، حاول استيعاب تأثير هؤلاء الحلفاء المتطرفين بعد أن اتفق مع الوهابيين على غزو أراضي شبه الجزيرة العربية. من جهته، حاول الملك فيصل هو أيضاً، بعد أن طوّر الإسلام ليصبح سلاحاً سياسياً

في يده، حاول الحد من تطلعات الجماعات «الأصولية» المتطرفة. في حين عمل الملك خالد، وبمساندة الولايات المتحدة الأمريكيّة، على إطلاق سراح القوى الدينية المحافظة الأكثر تشدداً التي ما لبثت أن انقلبت عليهم.

*** نستخلص من ذلك أن تدخّل أسامة بن لادن جاء لتجنيد المقاتلين لإرسالهم إلى أفغانستان ...**

هذا صحيح. جند أسامة بن لادن المجاهدين والمقاتلين المسلمين، وذهب بنفسه إلى أفغانستان ضمن ما يعرف بالاتحاد الإسلامي، الذي هو عبارة عن جماعة من «الأصوليين» أنشأها زعيم الحرب الأفغاني عبد الرسول سياف.

نجحت الولايات المتحدة الأمريكيّة والمملكة العربية السعودية في نهاية المطاف في تحقيق أهدافهما المشتركة، وبعد انقضاء عشرة أعوام على الحرب، انتهى الأمر بالاتحاد السوفييتني إلى الخروج من أفغانستان، تاركاً إياه في فوضى التنافس والتناحر بين قادة الحرب المحليين وأباطرتها. وبعد مضي عامين على خروجه من أفغانستان، انتهى الأمر للاتحاد السوفييتي، بتفككه التام، بسبب كثرة المشكلات الداخلية، والفشل الذريع الذي لاقاه في أفغانستان.

*** يمكن أن نقول إن أسامة بن لادن دخل أفغانستان ليخدم المصالح الأمريكيّة. مع ذلك، أقدم بعد عشرة أعوام على تنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر. ما السبب في ذلك؟**

لم يكن تدخل بن لادن في أفغانستان إرضاءً لواشنطن، لكن دفاعاً عن بلد مسلم تعرّض لاعتداء من قوى أجنبية. إنما، ما حدث كان مفاجأة على الصعيد التاريخي، تمثّلت في مواقف الأفراد الذين جندتهم كل من واشنطن

والرياض، فقد انقلبوا فيما بعد ضد هذين البلدين، علماً أنهم تلقوا دعماً منهما في المجالين المالي والعسكري لقتال السوفييت في أفغانستان.

حين عودة بن لادن من أفغانستان، كانت المملكة العربية السعودية عرضة لغزو محتمل من قبل صدام حسين، انطلاقاً من الكويت التي كان قد سيطر عليها. فاقترح بن لادن على الأسرة المالكة تكوين جيش لصده، قوبل بالرفض، بل استنجدت المملكة بالجنود الأمريكيين. كما سبق وذكرت. أثار وجود القوات الأمريكيّة على أراضي المملكة استنكاراً شعبياً واسعاً، كذلك الأمر لبن لادن، فقد استنكر وجود تلك القوات في بلاده. غضب أشد الغضب، وطالب بانسحاب القوات الأجنبية من العربية السعودية، كما طالب بوضع حدٍّ للعقوبات التي فرضت على العراق. رأى بن لادن أن هذه العقوبات بعيدة عن كونها شرعية، وأنه ينبغي للعرب أن يتحدوا لإيقاف تلك المجازر التي ترتكب بحقهم. بدا لبن لادن أن الولايات المتحدة هي العدو الأول الذي يهدد العالم العربي، وكانت واشنطن هي نفسها من يساند هذه السلالة السعودية الحاكمة، فكانت مواقفه مناوئة لمواقفها.

*** كيف تمثّل التعارض بين بن لادن والنظام السعودي؟**

بعد طفرة الأسعار النفطية التي حدثت في عام ١٩٧٣، وتدفق عائدات النفط على المملكة العربية السعودية، بدأت السعودية تسير في طريق التحديث، فشهد المستوى التربوي تقدماً ملحوظاً، في حين بقي النظام الإقطاعي ثابتاً في تخلفه، ما تسبب في إحداث توتر داخل المجتمع، وفي الطبقة البورجوازية السعودية. كان مصير النخبة الحاكمة مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمصير واشنطن.

بيد أن هناك شريحة من الطبقة المتوسطة أرادت تدعيم الاستقلال الوطني للبلاد، فنشأ صراع بسبب هذا الانقسام. وتزايد التذمر حتى طال قطاعات اجتماعية عدّة، بما فيها الجيش وقوات حفظ الأمن. انتهى الأمر بزج العديد من المعارضين داخل السجون. أدى هذا الصراع إلى نشوء حركة طالبت بإعلان دستور للبلاد.

كان بن لادن سليل هذه البورجوازية الوطنية التي كانت تطالب بإجراء إصلاحات، وقد استعان بالدين معتقداً أنه اللغة الوحيدة التي قد تلقى صدى لدى حكام المملكة العربية السعودية. لم تنشأ حركة القاعدة في بداياتها لإرهاب الناس، لكنها كانت تهدف إلى إجراء تغيير اجتماعي.

*** عن طريق قتل الأبرياء بالتفجيرات؟**

أنا بالتأكيد لا أتغاضى عن أعمال القاعدة، لكن علينا أن نتناول الأمور الأساسية دون المساس بالمحرمات، كي نستوعب هذه الظاهرة. علينا أن نميّز بين الثائر واللص الخارج عن القانون؛ فالأول يقود عملياته بهدف إحداث تغيير، أما الثاني، فإنه قد يترأس منظمة، ويقود زعماء مؤثرين، لكن تبقى أعماله منحصرة في السلب والنهب، لاهثاً وراء تحقيق ثرائه الشخصي.

مع أن بن لادن لجأ إلى أساليب الخارجين عن القانون، إلّا أننا لا يمكن أن نعدّه كأنما ينتمي إلى المافيا أو إلى الياكوزا، فهو سليل أسرة فاحشة الثراء. فكيف نفسّر إذاً تخليه عن كامل ثروته، واختياره العيش متخفياً في كهوف تورا بورا؟

*** حينما نتكلم عن بن لادن، فإننا نظهره بأنه ذلك الرجل المتعصّب دينياً، الذي يقود حرباً مقدسة ضد الغرب...**

من الذي يحظر على النساء السعوديات الجلوس خلف مقود السيارات؟ من الذي يرفض وضع دستور في المملكة العربية السعودية؟ إنه النظام القائم والوهابية. ومع ذلك، يلقى هؤلاء دعمهم من الولايات المتحدة الأمريكيّة!

يُرى أسامة بن لادن مناوئاً للملَكية السعودية؛ فهو في كل حال، لا يتكلم أبداً في خطاباته عن المملكة العربية السعودية، لكنه يتكلم فقط عن الجزيرة العربية. ويستخدم الدين لمواجهة النظام. فهو يسأل مثلاً أين ورد القانون الخاص الذي يمنع النساء من قيادة السيارات، في أي كتاب تفسير للإسلام؟ في حين يعتقد هو أن النساء قادرات على قيادة الطائرات. كما يسأل لماذا لا تملك الدولة دستوراً، في حين وضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، دستوراً في المدينة المنورة، بيّن فيه الحقوق المتساوية التي يتمتع بها كل من المسلمين والمسيحيين واليهود على حدّ سواء؟

حينما نعرّف شخصية أسامة بن لادن بأنه ذلك الإرهابي الذي عميت بصيرته بسبب تعصبه الديني فإننا نتجنب بذلك التعرض لأسئلة محرجة. غير أن هذا الوصف لشخصيته بعيد جداً عن الحقيقة والواقع.

*** فكيف إذاً نصف عمل بن لادن؟**

قدّم مايكل شوير استقالته عام ٢٠٠٣ من منصبه في جهاز الاستخبارات المركزي الأمريكي، فقد كان عضواً فيه، وكان مسؤولاً بصورة رسمية عن ملف أسامة بن لادن، جاءت استقالته تعبيراً عن عدم

موافقته على سياسة حكومة الرئيس بوش في محاربته للقاعدة. ومنذ ذلك الحين، صدر له كتابان، أقبل فيهما على إجراء تحليل لخطابات بن لادن. إنها دراسة قيّمة، تدين التحليل الذي يتميز «بقصر البصر»، الذي يهدف إلى وصف عدو الدولة الأول بأنه مجرد رجل متعصب دينياً.

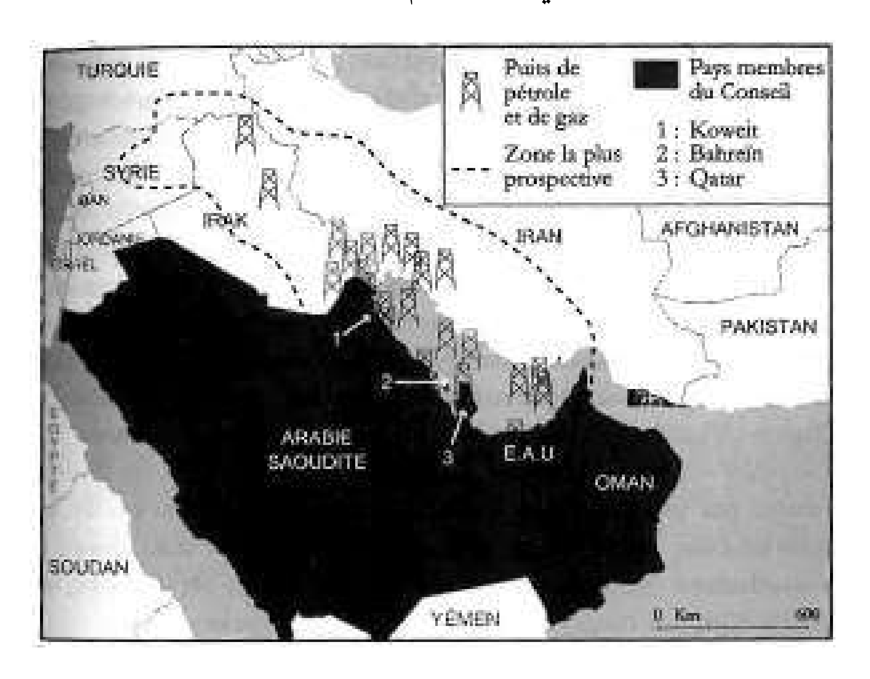
بيّن شوير أن القاعدة لم تهاجم الولايات المتحدة الأمريكيّة بحسبان أن القيم الغربية هي بحد ذاتها تهديد للإسلام. إن بن لادن لا يعترف بالملكية السعودية، لذا بدأ بهجماته في المملكة العربية السعودية، ثم بدا له أن عليه مهاجمة الداعم الأول للسلالة الملكية التي تقف حائلاً في وجه كل أشكال الإصلاح، إنها الولايات المتحدة الأمريكيّة. إنها واشنطن التي تساند الأنظمة الفاسدة في العالم العربي، واشنطن التي فرضت العقوبات على العراق، واشنطن التي قادت الحروب لبسط نفوذها على منطقة الشرق الأوسط. إن محاولتنا لفهم النضال الذي قادته القاعدة تقودنا حتماً إلى السياسة التي تنتهجها الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط.

لهذا السبب حينما نتكلم عن بن لادن، فإننا نصوره بأنه ذلك الرجل المجنون. إنما، هذا لا يسوّغ سبب عده لدى كثير من المسلمين في العالم أنه ذلك البطل، كما لا يفسر سبب دعم كثير من السعوديين لمواقفه. يقول شوير إن بن لادن يقود جهاداً دفاعياً ضد السياسة المدمّرة التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكيّة في العالم الإسلامي.

هذا الكلام لا يقوله رجل دين متعصّب، بل رجل من بلاد الغرب، كان عضواً سابقاً في جهاز الاستخبارات المركزية الأمريكيّة، وهو أحد الأشخاص الذين عرفوا بن لادن عن كثب.

*** لقد تفكك الاتحاد السوفييتي ولم يعد له وجود في زماننا المعاصر، وأصبح النفط متوافراً في جميع أنحاء العالم تقريباً، فلماذا لا تزال الولايات المتحدة الأمريكيّة تعدُّ المملكة العربية السعودية بلداً إستراتيجياً؟**

لا تزال المملكة العربية السعودية تمتلك **%** ٢٥ من مخزون النفط العالمي. إضافة إلى أنها فرضت نفسها كحارس على منطقة الخليج العربي. وبالفعل أطلق الملك خالد منذ الثمانينيات، وبمساندة الولايات المتحدة الأمريكيّة ما يُعرف بمجلس التعاون الخليجي، يهدف عبره إلى الحد من نفوذ إيران في المنطقة. يضم هذا المجلس الذي يقع تحت رقابة الرياض كل من سلطنة عمان، وإمارة الكويت، ومملكة البحرين، ودولة قطر والإمارات العربية المتحدة. بذلك تسيطر المملكة العربية السعودية بشكل مباشر أو غير مباشر على ٤٥**%** من احتياطي نفط العالم.



يسيطر مجلس التعاون الخليجي بقيادة المملكة العربية السعودية على ٤٥% من احتياطي نفط العالم

- حقول النفط والغاز

--- المنطقة المستقبلية

■ الدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي

١ - الكويت

٢ - البحرين

٣- قطر

لم تعد الشيوعية أو الاتحاد السوفييتي هما اللذان يشكلان خطراً على النظام الإقطاعي، بل بات التهديد منحصراً في التباين الموجود داخل المجتمع السعودي نفسه. مع ذلك، ترى الولايات المتحدة الأمريكيّة أن من شأن أي شكل من أشكال الإصلاح الذي يمكن للنظام السعودي أن يُقدِم عليه، إضعاف المصالح الإمبريالية في المنطقة. فالنظام الوحيد القادر على رعاية المصالح الأمريكيّة يتجسد في ذلك النظام القمعي، الفاسد، والمتسلّط الذي يجسده النظام السعودي.

*** لماذا؟**

لأنه في حال تسلّم النظام الديمقراطي السلطة في البلاد، فإنه سيستجيب إلى تطلعات الشعب بشكل أكثر ملاءمة. فالشعب غير مهتم بالمتاجرة بثروات البلاد للدفاع عن سياسة الولايات المتحدة الأمريكيّة، أو بتأمين نمط حياة مرفّه للأسرة الحاكمة.

بدأت أولى مشكلات آل سعود في السنوات الستين، عندما أطلقت طبقة العمّال التي تشكّلت في المملكة بالتزامن مع عمليات استثمار النفط، موجة إضرابات للمطالبة بتحسين ظروف العمل، فجاء رد النظام بشكل جذري، إذ أقدم، وبكل بساطة، على إلغاء وجود الطبقة العاملة السعودية، واستبدالها بأعداد ضخمة من العمال المهاجرين. لا يمكننا الحصول على إحصائيات تظهر أرقاماً دقيقة لتعداد السكان، فالحكومة تتلاعب بالأرقام. مع ذلك، بلغ عدد العمال الوافدين إلى المملكة زهاء سبعة ملايين عامل، يشكلون ٧٠ % من الشريحة العاملة. بلغ عدد العمال القادمين من دول العالم الثالث أربعة ملايين، وجميعهم من جنسيات غير عربية، وذلك تلافياً لتنمية التطلعات التقدمية للقومية العربية الشاملة. يعمل هؤلاء العمال في ظل ظروف هي أقرب ما تكون إلى الاسترقاق، ويعانون من قدر كبير من التمييز العنصري. جاء في تقرير منظمة رصد حقوق الإنسان، أن رب العمل يعدُّ هؤلاء الخادمات ضمن ملكيته الخاصة، فمنهن من تعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة في اليوم، ويفترشن أرض المطبخ أو أرض الحمام بأجسادهن من دون فراش، ولا يحق لهن الخروج. ومنهن من يتعرضن للاعتداء الجنسي، وحينما تتقدم إحداهن بشكوى، وهذا لا يحصل إلا في حالات نادرة، ينحاز رجل الشرطة إلى طرف الجلّاد السعودي.

*** ألا يوجد إطار عمل قانوني للدفاع عن حقوق هؤلاء العمال؟**

توجد بعض الإجراءات من الناحية النظرية، لكن الأمر يختلف على أرض الواقع. يجب على العامل أن يعرف أولاً أين يذهب، ويجب أن يمتلك الشجاعة الكافية لتقديم الشكوى ضد رب العمل، مع تحمّل تبعات هذه الشكوى، من التوبيخ والشتائم التي ستنهال عليه أكثر من ذي قبل، فضلاً

عن عجزه عن تجاوز حاجز اللغة. إذ يفشل غالبية هؤلاء العمّال حين نقل صورة معاناتهم بطريقة واضحة أمام القضاء. لذا خلصت منظمة رصد حقوق الإنسان إلى أنه من الأفضل لهؤلاء الوافدين تجنب التعامل مع النظام القضائي السعودي. وغالباً ما يتم إكراههم على الاعتراف تحت التعذيب، حتى إن قنصليات بلادهم لا تعرف أي شيء عن أمر اعتقال مواطنيها، وهذا مناف للقانون الدولي. وفي عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ حُكم على ٤٠**%** من هؤلاء العمال الوافدين بعقوبة قطع الرأس، وقد بدا من خلال إفادة بعض الشهود أن هؤلاء المحكومين بالإعدام لم يدركوا ما يحصل لهم إلّا لحظة تنفيذ الحكم. لم يكن بين الحاضرين ممثلون عن قنصليات بلادهم، في حين كان بعضهم ممن سُمح له بالحضور، ومن الذين كان بمقدورهم الاتصال بمحامي، يجهلون اللغة العربية للتعبير.

إلى جانب كل هذا، تجد عمالاً من دول الغرب، بأعداد هائلة، يقيمون داخل أحياء معزولة فاخرة، ويحصلون على أجور لم يكونوا يحلمون بالحصول عليها في بلدهم الأصلي، وتتقاضى زوجات هؤلاء العمال الأجانب مخصّصات من دون أن يمارسن أي عمل. كما تحصل كل أسرة سنوياً على ست بطاقات سفر مجانية، لتتمكن من زيارة البلد الأم في أعياد رأس السنة. إلى جانب حصول الأولاد على منح دراسية!

*** كيف تفسّر هذا الفارق في المعاملة بين عمال دول العالم الثالث وعمال دول الغرب؟**

تحتاج المملكة لاستقطاب عمال مؤهلين من الخارج، فهي تميل إلى هذا الخيار، بدلاً من تشكيل طاقم من الموظفين الذين تحتاجهم، فهي لا تود ظهور نخبة حاكمة من العرب.

*** هل تعتقد أن هذه التناقضات التي نشهدها في المملكة العربية السعودية، إضافة إلى تأثير الثورات العربية التي قامت في كل من تونس ومصر، قد تفضي إلى حدوث تغيير في الداخل؟ لقد شهدنا نزول المئات من المواطنين إلى الشارع في بداية ٢٠١١، على الرغم من كون مثل هذه التظاهرات ممنوعة رسمياً. يبدو الأمر في غاية الغرابة...**

لقد ناشدت الثورات الشعبية التي قامت في كل من تونس ومصر واليمن، الحكام السعوديين على وجه الخصوص. حاولت الأنظمة الملكية المتخلفة في منطقة الخليج العربي القيام بثورة خاصة بها، بمساعدة القوى الإمبريالية. فمن جهة، حاول هؤلاء الحكام السيطرة على مجريات الأحداث في تونس ومصر، ومن جهة ثانية، حرّضوا على الانتفاضة الشعبية في بلدان أخرى كسورية وليبيا. والجدير بالذكر أن قناة الجزيرة الفضائية تحولت إلى أداة دعاية إعلامية تلبية لهذه الأهداف. ففي سبيل المثال، نشرت صوراً كاذبة عن عمليات القمع التي تحصل في سورية، في حين لم تتكلم في واقع الأمر عن المظاهرة الكبيرة التي كانت في أوجها في اليمن، في التوقيت عينه.

لا ننكر وجود مشكلات حقيقية في سورية، ولكن لعبت المملكة العربية السعودية دوراً فعالاً في تفاقم التوتر، بمساندتها «للأصوليين». يأمل آل سعود، إلى جانب حلفائهم من الإمبرياليين، بهذه الطريقة، إضعاف دولتي لبنان وإيران. باختصار، تحاول دول الخليج تحقيق فائدة من الثورات العربية، بهدف تعديل ميزان القوى لمصلحتها.

*** وبذلك تكون المملكة العربية السعودية في مأمن من كل خطر قد يحدق بها؟ لقد نزل كل من الشعب المصري والشعب التونسي إلى الشارع،**

نتيجة معاناتها من ظروف اجتماعية مروعة. بالمقابل، يستطيع آل سعود الاعتماد على ثروتهم النفطية لتهدئة الشعب. بالإضافة إلى كل ذلك، فإن البؤس الحقيقي هو ذاك الذي يعيشه العمال الوافدون من غير العرب...

هل تعلم أن الثورة بدأت في المملكة العربية السعودية منذ عشرات السنين، لكن وسائل الإعلام لا تتكلم عنها؟ في الواقع، هناك نسبة كبيرة من طبقة البورجوازية الوطنية تقف موقف المعارض، حيال الاحتكار السياسي الذي تمارسه الأسرة الحاكمة. نتجت عن ذلك أحداث كثيرة، وحالات اعتقال، وعقوبات إعدام، وعمليات نفي...

تجسّدت مطالب بعض أفراد هذه الطبقة في تأسيس نظام ملكي دستوري، كأفضل ما يمكن فعله، في حين آثر بعضهم الآخر الذهاب إلى أبعد من ذلك، إلى الإطاحة بالأسرة الحاكمة.

كنتَ مصيباً حين أشرت إلى أنه بإمكان الأسرة المالكة تمويل بعض البرامج الاجتماعية كحل لتهدئة المواطنين لبعض الوقت، بيد أن مستوى الوعي السياسي آخذٌ في الارتقاء، ولا يمكن إيقافه بحفنة من الدولارات النفطية. لقد تنبه الكثيرون إلى المستوى المتخلّف الذي يتصف به النظام الحاكم.

*** في حال اندلعت ثورة في البلاد، هل يمكن للجيش أن يؤدي دوراً مهماً كالدور الذي أدّاه الجيش في مصر؟**

الأمر مختلفٌ تماماً. إذ لا وجود لجيش وطني في المملكة العربية السعودية. هناك فقط ميليشيات مجهزة بأسلحة ثقيلة، تنفذ أوامر الأمراء. إنه جيش إقطاعي مزود بآلات حديثة، لكنه غير فعّال، كما سبق أن رأيناه يوم احتلال صدام حسين لدولة الكويت.

ينبغي للجيش الوطني في الأحوال العادية أن يضم في صفوفه شرائح المجتمع كافة، فهو غالباً ما يشكّل جنين الأمة. غير أن الحكام السعوديين لم يسعوا إلى ذلك قط. يشار هنا إلى أن قوات الجيش هي التي أطاحت بالملوك العرب في كل من العراق، وسورية، ومصر، وليبيا، لذا خشي آل سعود أن يكون مصيرهم مشابهاً لهؤلاء الملوك، فهم يعلمون أن الجيش الوطني لا يمكن أن يتبنّى فكر الأسرة الحاكمة، بل قد يكون لديه استعداد للإطاحة بها.

*** هل هذا يعني أن البلد لا يتمتع بحماية كافية؟**

ينصبّ اهتمام الأسرة الحاكمة بالدرجة الأولى في الحفاظ على النظام الحالي. لذا، فهي ترفض أي وجود لجيش نظامي وطني تقليدي. إنما في حال تعرّض البلد لمشكلة تتعلق بأمنه، يستطيع آل سعود الاعتماد على دعم الولايات المتحدة الأمريكيّة. أما في حال نشوب اضطرابات على درجة من الأهمية في المملكة، فإنني لن أفاجأ أمام مشهد عملية إنزال للجنود الأمريكيين.

*** تمتلك المملكة العربية السعودية ثروات ضخمة، وتتمتع بمركز إستراتيجي مميّز، أليس في مقدور الحكام السعوديين إجراء تغييرات على سياستهم الحالية، في محاولة منهم لبناء قوة مستقلة؟**

يرتبط مصير الأسرة الحاكمة ارتباطاً وثيقاً بمصير القوى الإمبريالية. فمن جهة، لا يستطيع النظام المتخلّف الاستمرار في دفة الحكم إلّا بفضل حماية الولايات المتحدة الأمريكيّة. ومن جهة أخرى، توفّر المملكة العربية السعودية مزايا جمّة للإمبريالية الغربية، حتى إن هذه الأخيرة لا يمكن أن تجازف وتفرّط بهذه الدعامة الأساسية.

في الحقيقة، اعتمدت القوات الأمريكيّة منذ الستينيات على النفط السعودي لشن حملاتها العسكرية، وبشكل مجاني. إنه دعم هائل بالنظر إلى الآلة العسكرية الأمريكيّة الضخمة التي تضم الآليات، والمدرعات، والطائرات، والسفن الحربية، وهذه الآلة العسكرية تُزوَّد بالوقود من قبل السعودية، ومن دون مقابل.

إضافة إلى ذلك، حينما يعيش الاقتصاد الغربي أزمة مالية، تستطيع القوى الإمبريالية الاعتماد على السلالة الحاكمة لشراء كميات كبيرة من السلاح من التجار الأنكلوساكسون. بذلك تغذّي الدولارات النفطية التي تعود ملكيتها إلى دول الخليج الغنية، المنظومة المعقّدة للشؤون العسكرية والصناعية التي تحتل مكانة رئيسة في الاقتصاد الغربي. ويصبح الأمر أكثر سخاءً عندما لا تُقْدِم المملكة على استخدام الأسلحة التي تبتاعها من الغرب!

يضاف إلى ذلك أن الدولارات النفطية الخليجية تحقق مهمة ربحية أخرى، تنحصر في إعادة استثمارها داخل المؤسسات المالية الأنغلوساكسونية، فاتحة بذلك المجال أمام لندن ونيويورك للعب دور كبير في هذا المجال.

*** إذاً، فأي تغيير قد يطرأ على نظام الحكم في المملكة العربية السعودية سيكون له تبعات خطرة على الولايات المتحدة الأمريكيّة ...**

في حال تمّت الإطاحة بالأسرة الحاكمة، فإن ذلك سيولّد أزمة حادة داخل الولايات المتحدة الأمريكيّة، وستشهد القوة العسكرية عجزاً مروعاً في غياب النفط السعودي. كما ستنعكس آثار تغيير النظام في المملكة العربية السعودية على دول الخليج كافة، وقد يؤدي ذلك إلى نهاية عهد تداول الدولار في عمليات شراء النفط.

كانت الدول المنتجة للنفط، باستثناء إيران، تبيع ذهبها الأسود، حتى يومنا هذا، بالدولار الأمريكي. كما تمتلك هذه الدول كميات هائلة منه لإعادة استثمارها في الاقتصاد الأمريكي. ففي حال بِيع هذا النفط في المستقبل عبر سلة العملات الأجنبية التي تحتوي على اليورو أو اليوان الصيني أو الين الياباني، فإن الخسارة ستكون كارثية للولايات المتحدة الأمريكيّة. وهذا سيكون بمنزلة مؤشر لانهيار الإمبريالية الأمريكيّة. في كل حال، لقد طُرح موضوع سلة العملات الأجنبية للنقاش داخل دول منظمة البلدان المصدرة للبترول، لكنه لقي معارضة المملكة العربية السعودية.

في نهاية المطاف، سيبقى لموضوع الصحوة الديمقراطية داخل المملكة العربية السعودية أو داخل أيّ من دول الخليج، سيبقى له الأثر الخطر على القبيلة السعودية، كما على واشنطن. يعدُّ هذا النظام المتخلّف المتمثّل بالقبيلة السعودية، بمنزلة دعامة أساسية للإمبريالية الأمريكيّة، ويضمن الطرف الثاني المتمثّل بالإمبريالية الأمريكيّة، بدعمه للأسرة الحاكمة استمرارها في السلطة. إن أي اضطراب في هذا التوازن الإستراتيجي قد يولّد حتماً آثاراً على الصعيد العالمي.

قد ينهار الاقتصاد الأمريكي في حال غياب الدولارات النفطية

أعلن الرئيس ريتشارد نيكسون في عام ١٩٧١ إلغاء اتفاقات بريتون وودز، ووقف قابلية تبديل الدولار إلى الذهب، لكنه في المقابل، أبرم عقداً مع دول منظمة البلدان المصدِّرة للبترول، من أجل المحافظة على هيمنة الدولار. بات النفط بموجبه يباع بالدولار حصرياً، فجاءت النتائج التي ترتبت على ذلك وفق ما يلي : ١- ينبغي على الدول التي تريد شراء النفط حيازتها الدولارات بالضرورة. ٢- إذا أرادت الولايات المتحدة الأمريكيّة شراء النفط، ما عليها سوى طباعة أوراق نقدية جديدة.

وهذا ما تمّ بالفعل، ومع ذلك بقي الدولار محافظاً على قوته، في حين كان الاقتصاد الأمريكي يشهد انهياره. كيف يمكن ذلك؟ في الحقيقة، تعتمد قيمة العملات، بوجه خاص، على الثقة التي تمنحها إياها الأسواق العالمية، وقد حاز الدولار الثقة الكاملة في كل أوقاته، بسبب أنه أساس التبادل النقدي لإحدى ثروات الأرض الأكثر تقديراً، ألا وهو النفط. والسبب الثاني يعود إلى استقطاب الولايات المتحدة الأمريكيّة المستمر لرؤوس الأموال منذ السبعينيات، وهنا أيضاً نشتم رائحة النفط.

في حقيقة الأمر، دعت واشنطن العاملين الأساسيين في منظمة البلدان المصدرة للبترول إلى إعادة ضخ دولاراتها النفطية في المواقع المالية في نيويورك، أو إلى شراء سندات الخزينة الصادرة عن المصرف الاحتياطي الفدرالي، من أجل تغطية ديون الولايات المتحدة الأمريكيّة. ومع ذلك سجلت الثروة الناتجة عن الدولارات النفطية ارتفاعاً ملحوظاً إبان السبعينيات...

الطفرة النفطية عام ١٩٧٣

في السابع عشر من شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٣، نشبت حرب يوم الغفران، التي اشتهرت بحرب تشرين الأول، بين إسرائيل من جهة، ومصر وسورية من جهة أخرى. اتخذت البلدان العربية المنتجة للبترول قراراً بخفض إنتاجها النفطي بنسبة ٥% شهرياً، كورقة ضغط، تمارسها بهدف إجلاء إسرائيل عن الأراضي المحتلة، والاعتراف بحقوق الفلسطينيين. ثم هددت هذه البلدان بقطع النفط عن الدول الداعمة لإسرائيل، فاستقرت الأزمة.

كان من نتائج هذه الطفرة النفطية زرع الرعب داخل الولايات المتحدة الأمريكيّة وأوروبا الغربية، إذ سجل النشاط الصناعي تراجعاً في حركته، وباتت الطوابير الطويلة تقف أمام محطات الوقود، وفرضت القيود على قيادة السيارات في أيام الأحد... إضافة إلى حدوث ارتفاع حاد على سعر البرميل، من ٣ دولارات إلى ١٢ دولاراً في سنة واحدة. كان لذلك الأثر الكارثي على العديد من بلدان العالم الثالث، إذ أدت تكاليف الطاقة

إلى عرقلة نمو اقتصادها الناشئ. فما كان أمام هذه الدول إلّا اللجوء إلى اقتراض المبالغ الكبيرة كي تسدد الحساب.

ما الزمن المقدّر لصمود خدعة الدولارات النفطية؟

إذا حسبنا أن الارتفاع المفاجئ لسعر البرميل كان سبباً في إثارة الذعر لدى عدد كبير من البلدان، على صعيد الكوكب الأرضي منذ عام ١٩٧٣، فهو يُعدُّ أيضاً صفقة رابحة للبعض الآخر. لقد تحوّلت الدول النفطية الحليفة للولايات المتحدة الأمريكيّة بين ليلة وضحاها إلى دول ثرية، وبادرت إلى شراء كميات كبيرة من سندات الخزينة الصادرة عن المصرف الاحتياطي الفدرالي، ما أدى إلى تغطية ديون الولايات المتحدة الأمريكيّة التي باتت قادرة على الانطلاق من جديد.

ومع ذلك، لم يتوقف الاقتصاد الأمريكي عن تسجيل تراجع ملحوظ في سنوات الانفتاح المسعور لحكم الرئيس ريغان، وكان للتعاقد الخارجي أثره السلبي في الطاقة الإنتاجية داخل الولايات المتحدة الأمريكيّة. مع ذلك، احتفظت الورقة النقدية الخضراء بثقة الأسواق، بفضل تدفق رؤوس الأموال الأجنبية (وبشكل خاص، الدولارات النفطية) إلى الداخل. إنما، سجل الحساب الجاري بدوره، انخفاضاً بنسبة ١٤.٥٤٤% فيما بين ١٩٧٠ و٢٠٠٩. يشير هذا العجز إلى أن البلد يعيش فوق طاقاته، إذ تفوق نسبة استهلاكه واستثماره حجم الثروات التي ينتجها. كما أن الاستثمارات الأجنبية تلاشت هي أيضاً. ويبقى الدولار عملة قوية، في حين لم تعد قيمته ترتكز على أي شيء ملموس داخل البلد.

الوهم الكبير

لم يتجاوز النظام المالي الجديد الذي أنشأه الرئيس نيكسون عام ١٩٧١ كونه قَصْراً من ورق. إليك التفسير... المرحلة ١ - : ستعمل زيادة رؤوس الأموال في الخارج (الدولارات النفطية، ونمو الاقتصادين الياباني والصيني، إلخ) على إنعاش أسواق المال وأسواق الأسهم الأمريكيّة. المرحلة ٢ - سترتفع نسبة الأسهم في المداولة، ما سيؤدي إلى إثراء النخبة الأمريكيّة، وستعمل المصارف على تعزيز الاستهلاك الأسري عبر الائتمان. المرحلة ٣- نظراً لضعف قدراتها الإنتاجية، ستعمد واشنطن إلى استيراد كثير من البضائع لتلبية هذا الاستهلاك. المرحلة ٤ - ستعمل هذه البضاعة المستوردة على إثراء البلدان المصدرة إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، لتضاعف هذه البلدان بدورها ضخ أموالها في شارع المال. ومن هنا، ستكون العودة إلى المرحلة الأولى! عبر هذه الخدعة الاستعراضية، تبقى الدولة الأكثر مديونية على ظهر الكوكب هي الدولة الأقوى اقتصادياً. إنما، هذا الوضع لا يمكن أن يستمر طويلاً. لماذا؟

١ - يستطيع أي انهيار في سوق الأوراق المالية أن يتسبب في سقوط أسواق الأسهم، وإغلاق صنابير الائتمان، وتجميد الاستهلاك الأسري.

٢ - ليس في مصلحة الجهات المنتجة أو الجهات المشترية - سواء كانت أوروبية أم آسيوية – الاعتماد على الدولار دون غيره من العملات الأجنبية لسداد قيمة صفقاتها. ففي حال بيع النفط في المستقبل بعملة أخرى غير الدولار، فإن ذلك سيكون سبباً في انهيار الولايات المتحدة الأمريكيّة، لوجود نقص في رؤوس الأموال.

فكم سيطول استمرار هذه الخدعة؟

قائمة المراجع :

- Rachel Bronson, Thicker Than Oil. America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia, Oxford University Press, 2006.
- Robert Lacey, The Kingdom : Arabia & The House of Sa'ud, Harcourt Brace Jovanovich, Inc., 1982
- Dr. Abdullah Mohammad Sindi, The Direct Instruments of Western Control over the Arab: The Shining Example of the House of Saud (disponible en ligne)
- William Enghdal, Pétrole, une guerre d'un siècle, Jean-Cyrille Godefroy Editions, Broché, 2007.

تونس
كيف تحول مختبر «مذهب الأحرار الديمقراطي»
إلى نظام حكم استبدادي، مطلق، وفاسد في جميع هيئاته

ما السبب الذي دفع فرنسا إلى الاستيلاء على تونس؟ وكيف تمّ لها ذلك؟ ما السبب وراء دعم الولايات المتحدة الأمريكية للرئيس بورقيبة، ذلك الرجل المخادع ذو النزعة القومية؟ كيف تحوّلت «طليعة الحركة الليبرالية في الوطن العربي» إلى نظام حكم استبدادي مطلق، فاسد بكل هيئاته، ومنغلق على نفسه؟ هل هناك أي مستقبل يلوح في الأفق للثورات العربية؟ لماذا يرفض الغرب أن تحظى تونس بنظام اقتصادي قائم بذاته، ومتوازن؟ كيف أصبح الإسلام هو الضامن للمصالح الإمبريالية؟ هل ثمّة حاجة إلى تشكيل جبهة موحدة لضمان استقلال حقيقي للبلد؟



لمحة سريعة عن تونس

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** تونس.

- **المساحة:** ١٦٣ ٦١٠ كم٢ .

- **تعداد السكان:** ١٩٨٦ ٦٢٩ ١٠ (أي بمعدل ٦٥ نسمة / كم٢).

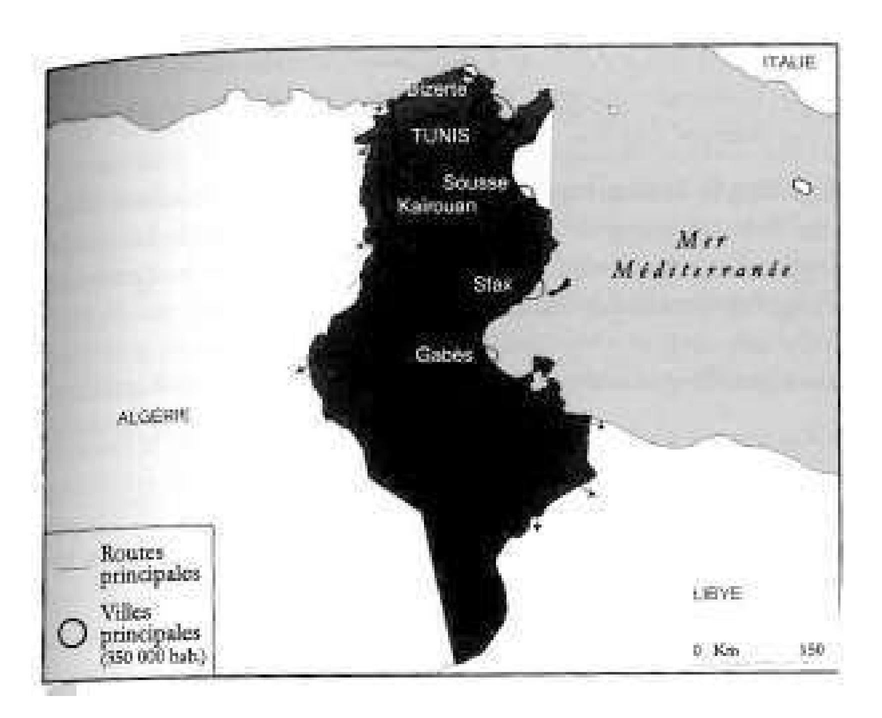
على الصعيد الاجتماعي:

- **تنوع المذاهب:** يشكّل المذهب السنّي الغالبية العظمى للسكان (٩٨%)، إلى جانب أقليات صغيرة من اليهود والمسيحيين.

- **متوسط العمر:** ٧٥ عاماً.

- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: ٢، ٢٣ %**

- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: ٣، ٧٤ %.**



---- الطرق الرئيسة.

المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ٣٥٠ ٠٠٠ نسمة.

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية رئاسية.
- **رئيس الدولة:** فؤاد المبزّغ (رئيس الجمهورية التونسية المؤقت من ١٥ يناير / كانون الثاني ٢٠١١ - ١٣ ديسمبر / كانون الأول ٢٠١١).
- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٥٦ عن فرنسا.

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ٧، ٤١ مليار دولار (٢٠٠٨).
- **الموارد:** الزراعة، السياحة، مناجم الفوسفات، صناعات تحويلية.

- معدل النمو: ٧، ٣ % (٢٠١٠).

- إجمالي الناتج المحلي للفرد: ٩٤٠٠ دولار (٢٠٠٨).

- مؤشر التنمية البشرية: ٦٨٣، ٠ (٨٣ من حيث الترتيب).

- نسبة البطالة: ١٤ %.

- نسبة السكان الذين تحت خط الفقر: ٧، ٢٤ %.

*** كانت تونس تشكّل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ما بين عامي ١٥٧٤ و١٨٨١. فكيف اهتم الغرب بهذا البلد الصغير في مساحته، الفقير في ثرواته، وما السبب وراء ذلك الاهتمام؟**

في الحقيقة، كانت تونس ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، لكنها أخذت في الانفصال شيئاً فشيئاً عن العاصمة إسطنبول، وأصبحت دولة قائمة بذاتها - أي أصبحت محافظة في الولايات البعيدة - وتتمتع بسلطة فعلية.

*** هل كان ذلك نتيجة لضعف الإمبراطورية العثمانية، كما سبق أن رأينا في الفصل الثاني؟**

هذا صحيح. لم تلحق الإمبراطورية العثمانية بركب الثورة الصناعية طيلة القرن التاسع عشر، ما تسبب في ضعفها وتراجعها عن مركزها كقوة عظمى. يضاف إلى ذلك، نجاح أوروبا عام ١٨٧٣ في التوصل إلى إيجاد حل لأزمتها الاقتصادية عن طريق إثقال كاهل الإمبراطورية العثمانية بالديون، ما أدى إلى انهيارها التام في نهاية حرب ١٩١٤-١٩١٨.

*** لكن تونس...**

أصبحت تونس في هذا السياق مركزاً إستراتيجياً للقوى العظمى. ليس بسبب ثرائها – فهي بلد ريفي متخلف - لكن بسبب مركزها

الإستراتيجي، فقد كانت دولة الجزائر المجاورة تحت سيطرة الفرنسيين منذ ١٨٣٥. لذا لم تلبث تونس أن تحولت إلى محمية فرنسية عام ١٨٨١.

*** ما السبب في ذلك؟**

صرّح وزير المستعمرات الفرنسي، جول فيري، أنه يتحتم على فرنسا التدخل لصد هجمات اللصوص الذين يتسللون إلى الجزائر، غير أن القضية الحقيقية انحصرت في كونها موضوعاً إستراتيجياً محضاً، فالسيطرة على تونس تتيح لفرنسا المجال لتوفير الحماية لقواعدها العسكرية في الجزائر، ضد أطماع القوى الإمبريالية العظمى. يقول جول فيري: «إن القضية التونسية قديمة قدم القضية الجزائرية. هذه الأرض ليست سوى مفتاح لمنزلنا، بأوسع معاني هذه العبارة».

*** إنّما، ماذا تعني بالضبط كلمة «محميّة»؟**

إنها أحد أشكال الاستعمار العملي. ففي الثاني عشر من شهر أيار، من عام ١٨٨١، فرضت باريس على تونس، عن طريق معاهدة باردو، التخلي عن غالبية سلطاتها، والتنازل عنها لصالح المقيم العام الفرنسي، الذي يمثّل المصالح الفرنسية في تونس. كان من آثار هذه المعاهدة سلب الدولة التونسية حقها في التفويض، «بتكليف المبعوثين الدبلوماسيين، وممثلي القنصلية الفرنسية في الدول الأجنبية» [...] بحماية مصالح التونسيين، ورعايا عهد الوصاية». أما فيما يتعلّق بالباي التونسي، فلم يعد باستطاعته إبرام أي عقد ذي طابع دولي، دون الحصول على إذن مسبق من الدولة الفرنسية.

*** كيف تجسدت التبعات على الشعب التونسي؟**

انعكست التبعات على الصعيد الاقتصادي بشكل خاص. أدخلت هذه المحمية الفرنسية النظام الرأسمالي في تونس، وحرّضت الفرنسيين على الاستيطان فيها. كان الشعب التونسي يعتمد آنذاك بشكل رئيس على الزراعة، لذا لم يكن يعرف الحضارة بكل مظاهرها. قَدِمتْ أولى طلائع المستوطنين من العمال المهاجرين من جنوبي إيطاليا، ثم تبعهم عمال من جنسيات أخرى كالإسبان والفرنسيين. استحدث هؤلاء المواطنون الجدد الأعمال التجارية على أوسع نطاق، فقد طالت مناطق متحضرة عدة على قلتها. ومن ناحية أخرى، لعبت الكنيسة الكاثوليكية دوراً مهماً في إحكام سيطرتها على الناحية التربوية.

أحدث ظهور هذا الشكل الجديد من التجارة اضطراباً داخل المجتمع التونسي، فظهرت في المدن طبقة البورجوازية التي تجسدت رعايتها لمصالحها الخاصة في سعيها إلى الحصول على مزيد من الموارد والقدرات لتحقيق تنميتها، ثم ما لبثت أن تبلورت لديها بوادر المعارضة للحكام الفرنسيين. إلى جانب هذه الطبقة، ظهرت طبقة جديدة هي طبقة العمال، وبالتزامن مع ظهور هذه الأخيرة، أُسّست نقابة الاتحاد العام للعمّال التونسيين، فكانت الأولى في نوعها داخل مستعمرة فرنسية، وكان ذلك عام ١٩٢٥، ولعبت هذه النقابة دوراً فعالاً في ثورة ٢٠١١.

*** ابتداءً من عام ١٩٠٧، بدأت الحركات القومية المناوئة للاستعمار في الظهور، على الرغم من محاولات فرنسا لإفشالها ...**

فعلاً، ازدادت الحركة القومية قوة في تونس. تمثّل ذلك بشكل خاص إبان الحرب العالمية الأولى، فقد خرج الحزب الحر الدستوري إلى

الوجود عام ١٩٢٠، وكان يهدف إلى تحرير البلاد من الوصاية الفرنسية. وفي عام ١٩٣٣، انضم إليه الحبيب بورقيبة الذي عُيّن رئيساً للبلاد فيما بعد. إنّما، ما لبثت الانقسامات أن ظهرت بين فئة النهج التوافقي، وتلك الأكثر تعصباً للنزعة القومية، فبادرت هذه الأخيرة إلى تأسيس حزب خاص بها عام ١٩٣٤، أطلقت عليه تسمية «الحزب الحر الدستوري الجديد». كان الحبيب بورقيبة شخصية مرموقة فيه. إلّا أن السلطات الفرنسية حظرت هذا الحزب، واعتقلت بورقيبة عام ١٩٣٨، ثم ما لبثت أن أرسلته إلى أحد السجون في فرنسا ليُطلق سراحه عام ١٩٤٣، على يد القوات الفرنسية الحرّة.

*** ما دوافع بورقيبة؟**

ولد بورقيبة في المنستير عام ١٩٠٣، وكان والده يعمل ضابطاً في الحرس. تلقى تربية غربيّة، وحصل على شهادة الليسانس في الحقوق والعلوم السياسية من جامعات باريس. وحين عودته إلى تونس، انخرط في مجال السياسة. في الأربعينيات من القرن الماضي سعى جاهداً إلى الحصول على استقلال بلاده، بممارسة الضغط على فرنسا. عرض قضية بلاده أمام الجامعة العربية، وأمام الأمم المتحدة لتدويلها، كما التقى بحكام أمريكيين... في الحقيقة، كان بورقيبة يأمل بالحصول على استقلال بلاده بالطرائق السلمية، أي «بمساعدة فرنسا وبرعايتها». فحصلت تونس في بداية الأمر على الحكم الذاتي على الصعيد الداخلي، ثم ما لبثت أن حصلت على استقلالها التام عام ١٩٥٦، وعُيّن بورقيبة رئيساً للبلاد.

*** ما البرنامج الذي أتى به بورقيبة؟**

إنه ذلك الرجل السياسي التحرري القومي الملتهب، المؤمن بالنظام الرأسمالي، والمناهض بشدة للشيوعية. ففي عام ١٩٥٧، أي بعد عام واحد

من حصول بلاده على استقلالها، نشر مقالاً في مجلة «الشؤون الخارجية» الأمريكية المرموقة، تحت عنوان (القومية، وسيلة لمحاربة الشيوعية)، كتب فيه «اختارت تونس بشكل قاطع لا لبس فيه، أن تسلك طريق العالم الغربي». نشير هنا إلى الاهتمام الذي تبديه القوى الإمبريالية، وبشكل خاص الولايات المتحدة الأمريكية، لهذا النوع من تصريحات المحبّة.

*** ما الأهمية التي تشكلها تونس للولايات المتحدة الأمريكية؟**

علينا، بادئ ذي بدء، إجراء تحليل للسياق السياسي في العالم العربي، في الفترة الواقعة بين الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، من أجل التوصل إلى إدراك الأهمية التي يشكلها هذا البلد في إستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية.

نبدأ من مصر عام ١٩٥٢، حيث أعلنت مجموعة من الضباط المصريين نظام الحكم الجمهوري، بعد قلبها لنظام الحكم الملكي، وتنحية الملك فاروق عن عرشه، فأصبح هذا البلد قاعدة لانطلاق النزعة القومية العربية، وانتشار الأفكار الثورية المستلهمة من النظام الاشتراكي، فكان قرار تأميم قناة السويس أكبر برهان على ذلك. جاء تولي عبد الناصر لمقاليد السلطة ضربة قاسية للغرب، إذ كانت سياسة الرئيس المصري متعارضة تماماً مع المخططات التوسعية للقوى الغربية العظمى في الشرق الأوسط والشرق الأدنى. أما أفكار عبد الناصر المناهضة للإمبريالية، فقد شكلت مصدر إلهام لدول المنطقة، ما زاد الأمر سوءاً، فقد أدت الثورة التي اندلعت في اليمن عام ١٩٦٢ إلى انقسام البلد إلى اليمن الشمالي واليمن الجنوبي، وأصبح اليمن الجنوبي معقلاً للحركة الثورية العربية. وفي العام نفسه جاء

استقلال الجزائر بمنزلة تنبيه قوي الدلالة للدول الأفريقية ولدول العالم الثالث، ما وضع القوى الإمبريالية العظمى في حالة تأهب. يضاف إلى ذلك، الانقلاب الذي قاده القذافي في ليبيا عام ١٩٦٩، إذ بادر على الفور إلى إغلاق القواعد العسكرية الأمريكية كافة، وتأميم النفط وقطاعات تجارية أُخر. ثم أعقب ذلك قيام الثورة الإسلامية في إيران، التي أسفرت عن سقوط حكم الشاه، أحد أهم الدعائم للإستراتيجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

باختصار، شكّلت الحركة المناهضة للإمبريالية التي ظهرت في تلك الحقبة مصدر تحدٍّ للمصالح الإستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية داخل الوطن العربي. تلقى عبد الناصر دعماً من السوفييت، فامتد تأثيره إلى المنطقة العربية، باستثناء بعض الدول، التي منها تونس، فجاء ذلك في صالح واشنطن. فضلاً عن حاجة الولايات المتحدة الأمريكية إلى عملاء إمبرياليين محترفين، مثل الرئيس بورقيبة، كي لا تفقد زمام السيطرة الإستراتيجية على العالم العربي.

*** لم يكن جميع أعضاء الحزب الحر الدستوري الجديد موافقين على التماهي مع الغرب، فنشب خلاف حاد بين بورقيبة ونائبه صالح بن يوسف...**

في حقيقة الأمر، دخل بورقيبة في صراع مع نائبه صالح بن يوسف منذ أن دعا إلى الكفاح لنيل الاستقلال، برعاية من فرنسا، وحصل على الحكم الذاتي في بداية الأمر. فقد عدَّ بن يوسف أن عملية الحصول على الحكم الذاتي، على الصعيد الداخلي، بمنزلة مكسب غير كاف. كان أقرب ما يكون إلى عبد الناصر بأفكاره الثورية، واعتقد أنه يتوجب على التونسيين

النضال من أجل انتزاع حريتهم من الدولة الفرنسية. عندئذٍ لجأ بورقيبة إلى إقصاء بن يوسف من الحزب الحر الدستوري الجديد، فما كان من نائب الرئيس المخلوع إلّا متابعة نضاله انطلاقاً من جنوبي البلاد، قبل أن يضطر إلى الفرار بعيداً عن البلد، عند صدور حكمين بالإعدام بحقه، وفي عام ١٩٦١ وجد مقتولاً في أحد الفنادق في ألمانيا، حيث كان مختبئاً.

*** كيف نفسّر موقف بورقيبة المزدوج؟ فهو في آن واحد، مناصر للقومية، ومؤيّد للإمبريالية. ألا يوجد تناقض بين هذين الاتجاهين؟**

من الواضح أن بورقيبة قد تأثر بجورج بادمور، ذلك الزعيم الأفريقي الآتي من جزر الكاريبي. أصدر بادمور عام ١٩٥٦ كتاباً تحت عنوان (الوحدة الأفريقية أو الشيوعية، المعركة القادمة ستكون في أفريقيا). مع أنه كان يدّعي التعصب لقوميته، كان على غرار بورقيبة، يروّج للأفكار المناهضة للشيوعية، وكانت رؤيته السياسية تخضع بشكل كليّ لمصالح القوى الإمبريالية. إنّما، في واقع الأمر، لم تكن القومية سوى غطاء يتستر به، إذ إن سياسة الرجلين كانت أبعد ما تكون عن النهج الاستقلالي.

من ناحية أخرى، كان لبادمور الأثر الأكبر في رئيس غانا الأول، كوامي نكروما، أحد مؤسسي الاتحاد الأفريقي. لقد انتشرت أفكاره المناهضة للإمبريالية في القارة الأفريقية، وجاءت النتيجة التي نشاهدها اليوم، إذ يتم إحياء ذكرى الاستقلال السنوية الخمسين في مختلف أنحاء أفريقيا، علماً أن الغالبية العظمى من الأفارقة تدرك جيداً أن الاستقلال المنشود لم يتحقق لدولهم. وقد أبدى نكروما شخصياً ندمه على اتباع النصائح التي قدمها بادمور إليه.

*** ما وقع التعصب القومي الغريب للرئيس بورقيبة على تونس؟**

لم تحصل تونس من استقلالها إلا على راية البلاد. في حقيقة الأمر، حوّل بورقيبة، الذي كان يقول عن نفسه «أنا أشد العرب فرنسية» حوّل بلاده إلى مستعمرة جديدة. علماً أنه، ومع بداية الستينيات، بادر الحزب الحر الدستوري الجديد إلى تغيير اسمه ليصبح الحزب الاشتراكي الدستوري. وكانت هناك محاولة فاشلة لإصدار قانون الإصلاح الزراعي لتنظيم الفلاحين ضمن تعاونيات. عندئذٍ، شرع بورقيبة في تطوير البلاد معتمداً نهج النظام التحرري الهمجي، وبادر إلى إبعاد كل العناصر المعروفة بتعصبها للتقدمية من حزبه الاشتراكي، الذي لم يبقَ منه سوى اسمه.

أجازت القوانين الجديدة للشركات الأجنبية قدرة شراء الأراضي في تونس، واستحضار الآلات الخاصة بها، وجلب العاملين لديها، وترحيل الجزء الأكبر من الأرباح خارج البلاد. بقيت اليد العاملة هي الوحيدة التي يتم توظيفها من الشعب التونسي، مقابل حصولها على أجورٍ زهيدة للغاية. في حقيقة الأمر، جسّدت تونس في وقت مبكر الوضع الجديد الذي عملت ظاهرة العولمة الليبرالية الجديدة فيما بعد على توسيع نطاقه. فمع بداية السبعينيات، عمدت شركات النسيج إلى نقل مراكز إنتاجها إلى تونس، للاستفادة من اليد العاملة، ذات التكلفة الزهيدة، فكانت تنتج الملابس بتكلفة منخفضة للغاية، لتبيعها بعشرة أضعاف سعرها الحقيقي في الأسواق الأوروبية.

بالتأكيد، لم تكن هذه السياسة لتحقق ثراء التونسيين، إنما كانت الشركات متعددة الجنسيات هي المستفيد الوحيد من هذا الوضع. أراد بورقيبة جذب الاستثمارات الأجنبية ليحقق نمو البلاد، غير أن هذه الاستثمارات لم تكن تلبي إلّا مصالح الشركات الأجنبية، ضاربة حاجات

الشعب عرض الحائط. فإذا سجل سعر الفوسفات مثلاً انخفاضاً في السوق العالمي، سارعت الشركة الأوروبية التي تدير مصنعها في تونس إلى تخفيض إنتاجها، ورمي العمالة الزائدة عن حاجتها في الشارع. لا يمكن لمثل هذا النهج أن يحقق تطوراً داخل أي بلد.

*** إنّما... ألم تحرز تونس قدراً من التقدّم الملموس في عهد بورقيبة؟**

نعم، كان هناك بعض التطورات الإيجابية على الصعيد التربوي ووضع المرأة.

الجنّة التونسية

بعد مضي عشرين عاماً، نشرت صحيفة «لوموند ديبلوماتيك» ضمن تحقيق صحفي لها أجرته عام ١٩٧٥، الإعلان الصادر عن التجمع المهني المشترك في المنطقة الشرقية من باريس، جاء فيه:

سيدي العزيز،

هل تعاني من تكاليف باهظة في الإنتاج؟

هل خسرت مكانتك كشركة منافسة؟

هل تعلم بوجود وفرة في اليد العاملة المؤهّلة والرخيصة (٢,٤٠ فرنكاً في الساعة)، فضلاً عن إتقانها للغة الفرنسية، وذلك على بعد ساعتين فقط من باريس؟

إنها «الجنّة» للصناعة، اتخذت من تونس مقراً لها، ذلك البلد الصديق لفرنسا، وهي تقدّم للصناعيين الأجانب فرص استيطان، وتسهيلات مغرية وليبرالية، وذلك بغية تحقيق انطلاقة صناعتها الفتية، منها:

- إعفاء ضريبي على الأرباح التي تجنيها الشركات لمدة عقد كامل؛
- إعفاء من الضرائب والرسوم كافة، في أثناء عقدين من الزمان؛
- إعفاء ضريبي على دخل الأوراق المالية نتيجة القروض التي تم التعاقد بشأنها بغرض الاستثمار أو التوسع؛
- فرض ضرائب بمعدلات مخفضّة على أساس معدّل مدعّم **(٦ %)** على الدخل الناتج عن الإيرادات الموزعة. تمتلك الشركات نتيجة هذا الإجراء الحرية المطلقة لتنفيذ الحوالات الخاصة بإنتاجها، وتلك الخاصة بتوزيع أرباح الأسهم العائدة ملكيتها للشركاء غير المقيمين.

*** ألا يوجد تناقض في الموضوع؟**

كلا، إذ تعد تونس ضمن نخبتها، عناصر فاعلة ذات نهج تقدمي على الرغم من إقصائهم عن مواطن التأثير. ومن ناحية أخرى، توجّبَ على تونس أن تظهر بأبهى حلة.

لعب هذا البلد دوراً أساسياً في إستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية من أجل الحد من تأثير الشيوعية في العالم العربي.

فكيف كان الوضع في الطرف الآخر؟ قامت حركات ثورية اتصفت بالطابع التقدمي، وحظيت بدعم شريحة كبيرة من الشعب، وقلبت أنظمة الحكم الملكية المتخلفة. لم يكن من الممكن التصدي لهذه الحركات بترويج نظام إقطاعي في حينها.

*** المملكة العربية السعودية...**

نعم، تمكنت من ذلك، بسبب لجوئها إلى استخدام عائداتها النفطية التي تقدّر بمليارات الدولارات. إلا أن تونس وجدت نفسها مضطرة لأن

تبدو كبلد تقدمي بسبب شح مواردها. فهي لما تصدّت للشيوعية، توجب عليها التركيز على صورة النجاح الذي حققته، كونها أحد بلدان العالم الثالث، الذي اختار طريق القومية الليبرالية.

إلّا أن المشهد من خلفه كان أقل إشراقاً؛ فقد استُخدمت تونس كمختبر للقوى الإمبريالية العظمى، ومع تفاقم الأزمة العامة للنظام الرأسمالي، تحوّل الوضع الذي كان يفترض أن يمثل نجاح القومية الليبرالية، تحوّل في نهاية المطاف إلى نظام دكتاتوري خانق...

*** لما مات بورقيبة عام ٢٠٠٠، أثنى عليه العديد من التونسيين، إذ يمكن عدُّ عهده بالفترة الرائعة، مقارنة بسنوات حكم بن علي، هل تدرك ذلك؟**

حين وفاة بورقيبة، كان بن علي يمارس السلطة منذ ثلاث عشرة سنة، وقد ذاق التونسيون طعم نظامه المتسلط والفاسد بوجه خاص. إضافة إلى ذلك، لم يكن بن علي يملك أي شرعية، لذا حظي بورقيبة بلقب المجاهد الأكبر الذي حقق الاستقلال لتونس.

بيد أن هذا الاستقلال لم يكن حقيقياً. إذ تعود الأسباب التي ثار من أجلها الشعب التونسي عام ٢٠١١ إلى السياسة التي وضع قواعدها بورقيبة فيما مضى. وفي النتيجة، نستطيع القول إن بن علي سار وفق نهج سلفه بورقيبة، بفارق بسيط، تجسّد بتعزيز الرضوخ للمصالح الغربية، وبتحقيق الثراء على الصعيد الشخصي.

لقد قلتَ إن عهد بورقيبة اتصف بالحقبة الجميلة؟ هذا يعني إغفال أن تونس لم تكن تنتظر مجيء بن علي إلى سدة الحكم لتتعرّف الحكم الاستبدادي.

كان المجاهد الأكبر شخصية متغطرسة، ومعجباً بنفسه. لقد صرّح : «لن يكون من السهل استبدال شخص مثلي» وكان يقول أيضاً «لن تخلق الطبيعة إلّا القليل ممن هم في منزلتي ومقامي، على مدار قرن كامل، وعلى مستوى العالم بأكمله»، لقد فرض على الشعب انتخابه كرئيس للبلاد مدى الحياة، وحارب فكرة قيام أحزاب سياسية أخرى، وعمل على إقصاء جميع الأعضاء الذين لا يتبعون خط سياسته من الحزب الحر الدستوري. لقد رأينا كيف دبر لاغتيال صالح بن يوسف. كما أنه لم يبدِ أي تعاطف مع أحمد بن صلاح الذي ترأس الحكومة بين عامي ١٩٥٧-١٩٦٩. فبعد فشله في تطبيق سياسة الإصلاح الزراعي، فقد بن صلاح الحظوة التي كان يتمتع بها لدى الرئيس، فأُقيل من الحزب، وحُكم عليه بالأشغال الشاقة. غير أن بن صلاح تمكّن من الفرار إلى الجزائر، حيث قاد حملة مقاومة ضد سياسة بورقيبة. من جهته، صرّح بورقيبة في أثناء خطاب عام، متحدثاً عن منافسه: «يجب رمي الحشرات من هذا الصنف بالرصاص! لا شيء غير الرصاص!». وفعلاً نجا بن صلاح من محاولات اغتيال عدّة.

*** هل تمتع التونسيون بقدر كبير من الحريات في عهد بورقيبة؟**

بلغت سياسة القمع نقطة عدم العودة في عهد بن علي، فإذا أراد أي نظام فاسد ومعارض لمصالح الشعب الاستمرار في الحكم، توجب عليه قمع كل أشكال المعارضة بقسوة. وذلك حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه...

إلّا أنّ بورقيبة لم يكن ليدع الفرصة تفوته في هذا المضمار؛ فقد نفذ بورقيبة حكم الإعدام بالذين خططوا للمؤامرة العسكرية التي كُشف النقاب عنها في الستينيات، واستغلّ الحدث لحظر الحزب الشيوعي،

ولاعتقال عدد من النشطاء. وانطلاقاً من عام ١٩٦٧، اندلعت حركات اجتماعية عدة، وتضاعف عدد المحاكمات السياسية.

فُرضتْ الرقابة على الإعلام، كما فُرضت على الثقافة، فتارة كان يُعمد إلى تغيير هيئة تحرير إحدى الصحف، وتارة أخرى كان يُمنع عرض عمل مسرحي، كما كانت تُقتطع مشاهد من فيلم يصوّر البؤس الاجتماعي... إذاً لا يمكن أن نصف تلك الحقبة بالجميلة!

*** هل مشى بن علي على خطا بورقيبة نفسها عندما تولى الحكم من بعده عام ١٩٨٧؟**

تماماً. بل وتعزز في عهده الخضوع للمصالح الغربية. كان بن علي دمية متحركة في يد الإمبريالية الأمريكية، وعميلاً مميّزاً لها، حتى وصل به الأمر إلى لعب دور الوسيط بين وكالة الاستخبارات الأمريكية، وزعيم نقابة العمال البولندي ليش فاليسا، الذي كان يناضل ضد الاتحاد السوفييتي، وذلك عندما شغل بن علي منصب سفير لبلاده في بولندا.

حين توليه الحكم عام ١٩٨٧، كانت البلاد غارقة تحت وطأة الديون الخانقة، نتيجة أزمة ١٩٧٣. يضاف إلى ذلك، رواج أفكار ميلتون فريدمان وأتباعه في ذلك العصر. فقد اعتقد هؤلاء الاقتصاديون الليبراليون أن السوق هو عبارة عن كيان مستقل بحد ذاته، قادر على إدارة ذاته، لذا لا يترتب على الدولة إقحام نفسها في بوتقة الاقتصاد. فكانت النخبة التقنية التونسية التي أتت في معظمها من معاهد الولايات المتحدة الأمريكية، متأثرة بهذه النظريات.

تخلى بن علي عن نظام رأسمالية الدولة الذي كان نافذاً في بداية عهد بورقيبة، وباشر في إعداد برنامج الخصخصة تحت رقابة صندوق النقد

الدولي والمصرف الدولي، لكن على نطاق أوسع من ذاك الذي بدأه سلفه في سبعينيات القرن الماضي.

*** كيف انعكست نتائج هذه السياسة الاقتصادية الجديدة؟**

الجدير بالذكر أن برنامج الخصخصة أتاح لبن علي ولأسرة زوجته، أسرة الطرابلسي، جني ثروة طائلة خاصة بهم، وانتشر الفساد في تونس ليبلغ أعلى مستوياته، حتى باتت الدولة برمتها خاضعة للإمبريالية، تحكمها بورجوازية الكمبرادور، التي انحصر اهتمامها في تسليم ثروات البلاد للدول الأجنبية.

*** إلّا أنَّ بن علي وجماعته لا يملكون كثيراً من المواد الأولية لبيعها بأسعار زهيدة إلى الشركات الغربية متعددة الجنسيات...**

هذا صحيح، غير أنهم استغلّوا النظام التربوي الذي استحدثه بورقيبة في عهده لتطوير اقتصاد الخدمات، فاليد العاملة التونسية تحمل الشهادات العليا، وتقبل بالأجر الزهيد، لهذا فهي تستقطب المستثمرين الأجانب.

*** ثم إن هناك قطاع السياحة في تونس...**

لقد تطور قطاع السياحة إلى أقصى درجاته، حتى أصبح الركيزة الأساسية للاقتصاد في تونس، وهنا نلمس قصور الرؤية السياسية للنخبة السياسية الحاكمة.

*** يبقى قطاع السياحة مع ذلك مصدراً لتدفق النقد الأجنبي إلى البلاد...**

نعم، لكن لا يمكن لأي بلد أن يحرز ازدهاراً باعتماده على قطاع السياحة دون باقي القطاعات، في غياب قاعدة اقتصادية وطنية متطورة.

أضف إلى ذلك، استهلاك الصناعة السياحية التونسية لمبالغ طائلة لا تعود إلّا بالفتات على الشعب. فبينما يستهلك السيّاح الأجانب كميات كبيرة من الماء، وينعمون بالراحة داخل حمامات السباحة، أو داخل أحواض الاستحمام الساخنة، أو في ملاعب الغولف المشمولة بالعناية الفائقة، يواجه الفلاحون الفقراء جفافاً في الأرض في جنوبي البلاد!

مع ذلك، لم يكن الفلاحون هم وحدهم الذين عانوا من هذه السياسة، فقد شهدت الظروف الاجتماعية للشعب التونسي تدهوراً صارخاً، في الوقت الذي كانت فيه حاشية الرئيس تجمع الثروات الطائلة.

*** كان الكل على دراية بفساد النظام المتفاقم.**

نعم، وبالنتيجة، ترتّب على النظام منع أي شكل من أشكال المعارضة، للبقاء في سدة الحكم؛ فأخذ القمع أعنف صوره في عهد بن علي، وكان الانتقاد البسيط أو الرغبة في التحديث والانفتاح من المحظورات. شكّل هذا الوضع تربة خصبة لقيام الثورة الشعبية. كما أثار بن علي حفيظة قسم كبير من البورجوازية التقليدية التونسية، بالاستحواذ على ثروات البلاد وتخصيصها لعشيرته.

*** بدا هذا النظام منيعاً، ومع ذلك لم يحُل دون اندلاع الثورة الشعبية في كانون الأول ٢٠١٠، ما اضطر بن علي إلى الهروب خارج البلاد، بعد مضي شهر من قيامها، واضعاً حداً لفترة حكم دامت ٢٣ عاماً. كيف تفسر ذلك؟ الجدير بالذكر أن هناك محاولات أُخر باءت بالفشل...**

إن من أسباب قيام الثورة، رفض الشعب الاستمرار في الرضوخ للعيش كما كان في السابق، وفشل الطبقة الحاكمة في متابعة ضبط الأمور. في

السابع عشر من شهر كانون الأول من عام ٢٠١٠، أقبل الشاب محمد بوعزيزي على إضرام النار في نفسه، تعبيراً عن يأسه، في رد منه على قيام الشرطة التونسية بمصادرة العربة التي كان يبيع عليها الخضار والفاكهة لكسب الرزق، ومنعه من مزاولة عمله من قبل السلطات المحلية. اجتمعت الشروط للانتفاضة الشعبية، ولاندلاع الثورة في تونس، فجاء انتحار بوعزيزي بمنزلة الفتيل الأول لإشعالها.

*** رفض التونسيون متابعة هذا النمط في الحياة...**

لم يعد بإمكان التونسيين القبول بالفساد، والرضوخ للممارسات القمعية على يد الشرطة، والقبول بغياب الحرية، وانتشار البطالة، إلى غير ذلك... ومن جهة أخرى، لم يعد بإمكان الطبقة الحاكمة فرض سيطرتها على البلاد كما في السابق. اتخذ الفساد أبعاداً ضخمة في عهد بن علي، في حين كان على الشعب مواجهة حالة من عدم الاستقرار. انقطعت الاتصالات بين النخبة السياسية الحاكمة والشعب الذي لم يكن يملك أي جهة اتصال. لذلك، لم تكن الطبقة الحاكمة تملك خياراً بديلاً عن القمع العنيف لمواجهة الانتفاضة الشعبية، إلا أن أعمال القمع هذه آلت إلى الانهيار في مواجهة هذه العزيمة، وهذا التصميم لدى الشعب.

على كل، إن من أسباب نجاح الثورة الشعبية التونسية وصولها إلى شرائح المجتمع كافة، بما فيها أفراد الجيش والشرطة، الذين أبدوا تعاطفاً مع المتظاهرين. أدى هذا الأمر إلى تعطيل الجهاز القمعي. ففي حال لم تتمكن أي ثورة من حشد جميع أطياف المجتمع، فسيكون الفشل مصيرها في تحقيق أهدافها كثورة حقيقية.

*** غير أن الاحتجاجات استمرت حتى بعد رحيل بن علي. هل هذا يعني أن الوضع الذي رفضه التونسيون لم يكن متعلقاً بشخصه؟**

تغيرت اللافتات التي كانت تطالب برحيل بن علي إلى لافتات تطالب برحيل حزب التجمع الدستوري الديمقراطي، أي حزب بن علي، لكن في حقيقة الأمر، تجاوزت الأسباب التي قادت الشعب التونسي إلى الانتفاضة، تجاوزت شخص بن علي وحزب التجمع الدستوري الديمقراطي، وبالنتيجة، لا يمكن القول إنّ موضوع حصول الشعب على حريته وتحسين ظروفه المعيشية متوقف على طرد الرئيس الحاكم.

تتجسد هذه الظروف بالفساد، والبطالة، والتفاوت الطبقي... إنها آثار سيطرة القوى الإمبريالية الغربية على دولة تونس. لقد قُدِّم هذا البلد لقمة سائغة للشركات متعددة الجنسيات، المتعطشة للثروات التونسية التي نهبتها ومنعت حدوث أي شكل من أشكال التطور الحقيقي للبلاد.

*** تجمّعت أحزاب المعارضة التي كانت محظورة فيما مضى ضمن تكتّل واحد تحت مسمى جبهة ١٤ كانون الثاني. هل يعدُّ ذلك مؤشراً محرضاً؟**

يُعد تشكيل جبهة متضامنة لمنع نظام بن علي من الصمود في غياب شخص بن علي هو الطريق الأمثل. ولا ننسى أيضاً الدور الذي لعبته قاعدة نقابة الاتحاد العام التونسي للعمل. كان رئيس هذه النقابة المرخصة في عهد بن علي فاسداً ومتعاوناً مع الدولة البوليسية. إنّما، منذ ذلك الحين، مارست هذه النقابة الشعبية ضغوطاً على رؤسائها، ما حمل أعضاء هذا الاتحاد الذين كانوا ينتمون إلى الحكومة التونسية، على تقديم استقالاتهم. لا يزال هناك

كثير من العمل، ومع ذلك بدأت الديمقراطية تترسخ في المؤسسات التونسية، تحت ممارسات الضغط الشعبي.

*** لقد ذكرتَ أن القمع السياسي بلغ أشده في عهد بن علي، فهل يوجد اليوم قوى معارضة قادرة على قيادة الثورة الشعبية؟**

حسناً، هناك بعض الأحزاب التي عملت في الخفاء، واستطاعت الصمود إبان العهد الدكتاتوري. ففي سبيل المثال، لم يكن باستطاعة الحزب الشيوعي التونسي الأول أن يخرج إلى العلن، وينظّم صفوفه كأي حزب سياسي ديمقراطي آخر. إنّما، مع ذلك تابع مزاولة عمله في الخفاء، عن طريق جمعيات المجتمع المدني (كالأساتذة، والمزارعين، والأطباء والسجناء...). تمكن هذا الحزب من تشكيل قاعدة اجتماعية خاصة به، مع استخلاصه في الوقت عينه تجربة متينة إبان تلك الفترة. تُعدُّ هذه حالة استثنائية في الوطن العربي.

*** هل سيكون لذلك أي أثر يذكر؟**

أعتقد أن على أحزاب المعارضة مواجهة تحديين مهمين. عليهم أولاً الخروج من الظل، وإعلام التونسيين بوجودهم، ثم من ناحية ثانية، يترتب عليهم تنظيم جبهة تصدي للإمبريالية، إذ إن القوى الإمبريالية تحاول جاهدة دعم نظام بن علي حتى في غياب شخص بن علي، عن طريق محاولتهم فرض إجراءات انتخابية، لدعم المرشحين الذين يدافعون عن مصالحهم. لذا لا بد من التصدي لهذا التدخل بتشكيل جبهة موحدة، تعمل على تأسيس نظام ديمقراطي حقيقي.

*** يا تُرى هل ستنجح أحزاب المعارضة في تجاوز خلافاتها، في سبيل إنشاء مثل هذه الجبهة؟**

أنا أعلم أن بعض التشكيلات السياسية اليسارية أبدت تحفظاً لفكرة التعاون مع الحركة القومية الإسلامية - النهضة. لقد تشكلت هذه الحركة في ثمانينيات القرن العشرين، وكانت تدعو إلى تبنّي سياسة مناهضة للإمبريالية، ما أدى إلى تعرضها للاضطهاد السياسي في حينه. فما الذي يمنع انضمام حركة النهضة إلى جبهة المقاومة التي تسعى إلى الحد من تدخّل القوى العظمى الأجنبية، طالما أن سياسة حزب النهضة متطابقة مع السياسة التي ترمي إلى مقاومة الإمبريالية؟ تونس بلد إسلامي، لذا من الطبيعي جداً أن تبرز قوة سياسية ذات اتجاه قومي إسلامي. لا يمكنك الوقوف في وجه هذه القوة. لذا يتحتم إخضاع جميع هذه الحركات، بكل ما تحمله من سمات خاصة بها، إلى دراسة بشكلٍ منفصل. لقد سبق أن شهدنا دراسة للظروف الموضوعية للبلاد، أجراها عدد من الشيوعيين، بهدف التوصل إلى تحديد إمكان إبرام تحالف مع القوى السياسية ذات الاتجاه القومي الإسلامي، التي كانت هي بدورها ضحية الاضطهاد السياسي. فمع وجود اختلاف في منهجهم، إلا أنهم ينطلقون جميعاً من قاعدة مشتركة، تهدف إلى إنهاء الاستبداد، وتحقيق الاستقلال للبلد. ومن ثمَّ، يستطيع الشيوعيون تقديم اقتراح لمثل هذا النوع من التحالف مع القوميين الإسلاميين. هذا لا يعني، بالتأكيد، أنهم يريدون تحويل البلد إلى دولة إسلامية، لوجود اختلاف في برنامجهما. إنّما، في النهاية، يتحتّم على الشعب الفصل في هذه الخلافات بشكل ديمقراطي، فالانتخابات هي عبارة عن منافسة يشترك فيها الجميع، وهذا هو الوجه الحقيقي للديمقراطية.

*** كيف تفسّر موقف القوى الغربية العظمى؟**

تسعى القوى العظمى إلى فرض أنموذج نظام ديمقراطي، ضعيف المستوى في تونس، بحيث يُسمح للمرشحين «الأكفاء» فقط بالتقدم للانتخابات.

إذا كنت تبحث عن أنموذج للنظام الديمقراطي الذي يحظى برضا الولايات المتحدة الأمريكية، فإنك ستجده في إثيوبيا. ففي عام ٢٠١٠، زوّدت الحكومة الأمريكية هذا البلد الذي يقع في القرن الأفريقي بمبلغ ٩٨٣ مليون دولار. وبالفعل، أُعيد انتخاب ميليس زيناوي، الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء منذ ستة عشر عاماً، وفاز بنسبة ٩٩,٥ % من الأصوات! جاءت نتيجته أفضل من تلك التي حصل عليها بن علي!

في حقيقة الأمر، تعتمد القوى العظمى أسلوب المراوغة، عبر خطاباتها الرنانة الموجّهة إلى الشعب التونسي، وتواصل دعمها الفعّال لشخصيات أخرى عديدة على طراز بن علي في دول العالم كافة.

*** ألا تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية، بهذا الصدد، تقديم دعمها لمرشحين آخرين من الموالين للإمبريالية، شريطة كونهم غير مرتبطين بنظام بن علي، حسب رأي التونسيين؟**

ذلك أمر صعب المنال. فقد لحق الضرر بقسم كبير من بورجوازية الكمبرادور بسبب نظام بن علي الفاسد. غير أن هذه النخبة لا تملك القوة المطلوبة لضبط الحراك الشعبي، كما أنها تفتقر إلى الدعم المؤسساتي اللازم لتفرض نفسها.

إلّا أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تخطط لإستراتيجية بديلة. وذلك، حين أقدم السفير الأمريكي منذ أشهر عدّة على زيارة زعيم شيوعي، يقبع في سجون تونس، في الوقت الذي كان فيه بن علي لا يزال في سدة الحكم. فُسِّرتْ هذه الزيارة على الصعيد الرسمي، بأنها مجرد زيارة لمراقبة ظروف السجناء ضمن إطار احترام حقوق الإنسان، في حين كانت في حقيقة الأمر، تستبق موضوع رحيل بن علي، وتسعى إلى جس نبض الشعب.

كان هدف الولايات المتحدة يكمن في تصعيد موقف الشيوعيين ضد القوميين الإسلاميين، لولا الحذر الذي أبداه الشيوعيون من التونسيين. لقد كشفوا النقاب عن الإستراتيجية التي خطط لها هنري كسنجر في الثمانينيات لمنطقة الشرق الأوسط. إذ نشروا دراسة موثّقة حول الموضوع، وهم يعرفون جيداً أنه يترتب عليهم رفض أي أمر يأتي من خارج البلاد، أو التقيّد بأيديولوجيات تصنّعها القوى الأجنبية.

*** ما الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى التخلّي عن بن علي؟ هل كان ذلك بسبب تماديه في تحقيق ثرائه الشخصي؟ فقد جاء في برقية ويكيليكس أن السفير الأميركي وجه انتقاداً لنظام الرئيس التونسي الذي كاد يكون نظام عصابات، موضّحاً فيها أن هذا الفساد الممنهج يعمل على عرقلة استثمارات المؤسسات الأجنبية.**

لم تكن مشكلة الفساد هي التي تثير قلق الولايات المتحدة الأمريكية، بل على العكس، كانت ترى أن الفساد هو أحد المكونات الأساسية التي تساعدها في فرض نظام السيطرة الإمبريالية على دول الجنوب. كانت واشنطن على علم بحقيقة الوضع الداخلي في تونس، كما أنها كانت تدرك تماماً أن بن علي بات عاجزاً عن إدارة دفة الحكم في البلاد.

انحصر اهتمام الدول الغربية في التيقن من السياسة التي سينتهجها الرئيس الذي سيخلف بن علي، وهل سيستمر في حماية مصالحها، فالتحدي الذي تواجهه هذه الدول كان كبيراً، إذ إن الأزمة الرأسمالية خلقت مشكلات خطرة في الغرب. فضلاً عن تزايد قوة دولة الصين، فالقروض التي كانت تمنحها هذه الأخيرة فاقت بكثير تلك التي يمنحها المصرف الدولي والقوى الإمبريالية مجتمعين. بل أرادت الصين الذهاب إلى أبعد من ذلك، عن طريق شراء جزء كبير من ديون الدول الغربية! فمن جهة، أرادت الصين بهذه الخطوة إنقاذ مصالحها الاقتصادية مع الدول الأوروبية، ومن جهة أخرى، كانت تسعى إلى إحداث شرخ في صفوف القوى الإمبريالية، كون الاتحاد الأوروبي مرتبطاً تاريخياً بالولايات المتحدة الأمريكية.

في مثل هذه الظروف، يستطيع الحراك الشعبي التونسي تشكيل حكومة مستقلة برعاية زعيم ثوري، والاستفادة من وضع هذا العالم متعدد الأقطاب. وبشكل أدق، كانت القوى الإمبريالية تخشى حصول الدول التي كانت تاريخياً تحت سيطرتها على استقلالها الاقتصادي، في حال عقدها اتفاقات مع دولة الصين. وبذلك ستتمكن تونس من إنشاء علاقات مع العملاق الآسيوي، بتوسيع نطاق مرافئها التجارية، ما سيقوّض مفهوم «الحوار المتوسطي»، هذا التوسع لحلف الناتو الذي يشمل دول البحر الأبيض المتوسط، الذي خرج عن كونه داخل نطاق الحوار، وأصبح أداة هيمنة بيد الغرب.

*** هناك دولة أخرى تخشى توطيد الديمقراطية في تونس، بل وفي المنطقة برمتها: إنها إسرائيل. فقد صرّح نائب رئيس الوزراء سيلفان شالوم عقب**

سقوط نظام بن علي، أن تنمية الديمقراطية في البلاد العربية تشكل تهديداً لأمن إسرائيل. فهل يخشى هذا البلد الذي غالباً ما يصنف بأنه البلد الديمقراطي الأوحد في منطقة الشرق الأوسط، قيام دولة ديمقراطية منافسة له؟

تتصف إسرائيل بأنها دولة فاشية، وتتميّز بالفصل العنصري، على الرغم من مظهرها الديمقراطي الخدّاع. لذا لا يمكن أن تتحالف في المنطقة إلا مع دول ذات نظام دكتاتوري قمعي، تدير دفة الحكم فيها طائفة من بورجوازيي الكمبرادور، الذين يعملون على إضعاف نسيج الأمة العربية. هذه الدول العربية هي في الوقت الراهن، دول غنيّة، تقطنها شعوب فقيرة. أما إذا ظهرت حكومة ديمقراطية إلى الوجود - بكل ما تحمله هذه العبارة من معانٍ - فإنها ستنهض بالأمة العربية برمتها على الصعيد الاقتصادي، وستقود هذه التنمية الاقتصادية إلى نشوء تحالف بين الدول العربية ضد الدولة العنصرية التي تمارس الظلم بحق الفلسطينيين. هذا بالتأكيد ما تخشاه إسرائيل.

ومن ناحية أخرى، ثمّة فجوة كبيرة في المواقف الرسمية للأنظمة الاستبدادية العربية من جهة، والمشاعر الشعبية بشأن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني من جهة أخرى. فمنذ أن ذهب الرئيس المصري أنور السادات إلى إسرائيل عام ١٩٧٧، أصبح الموقف الرسمي لدولة مصر «نريد السلام». إنّما، الحكومة المصرية في حقيقة الأمر، لم تقف عند حد الحفاظ على العلاقات السلمية مع تل أبيب، إنما شاركت، وبشكل فعّال، في تشديد قبضتها على دولة غزة؛ فعملت بذلك على فرض موقفها بالقوة على الشعب المصري، لكن تبقى الغالبية العظمى من الشعب المصري متضامنة مع الفلسطينيين.

والأمر مشابه لسياسة الانحياز التي تنتهجها الأنظمة الدكتاتورية في علاقتها مع واشنطن، إذ تُعدُّ كل من تونس والمملكة العربية السعودية ومصر دولاً حليفة للولايات المتحدة الأمريكية، في حين تبقى شعوب هذه الدول مناهضة للإمبريالية. لقد كنتُ في زيارة لدولة مصر عندما كرّم الشعب المصري الإعلامي العراقي «منتظر الزيدي» كبطل، عندما ألقى هذا الأخير حذاءه في وجه جورج بوش. حتى إني سمعت عن آباء، أرادوا تزويج فتياتهم من هذا الإعلامي! غير أن الرئيس حسني مبارك يُعدُّ من أوفى الحلفاء لواشنطن.

*** هل تعتقد أن الثورة الشعبية التونسية قد يكون لها تأثير في باقي دول الوطن العربي، كتأثير أحجار الدومينو، وستعمل على إسقاط الأنظمة الدكتاتورية فيها؟**

تبلغ نسبة الشبان الذين لم تتجاوز أعمارهم سن الثلاثين في الدول العربية ٧٠ %، وهؤلاء لا يعرفون معنى البطالة أو القمع الذي تمارسه الشرطة أو الفساد. كل ما يرمي إليه هؤلاء الشبان هو العيش، ومن أجل ذلك، يحتاجون إلى التغيير. تلك هي حقيقة الدول العربية. لذلك لا حاجة لتأثير أحجار الدومينو، فالشروط الموضوعية متاحة لقيام ثورات في هذه الدول.

*** باتت الشعوب ترفض العيش ضمن الظروف التي كانت تعيشها سابقاً، فهل ستتمكن الطبقات الحاكمة من الاستمرار في طريقة حكمها التقليدية؟**

كلا. ففي مصر، ينتشر رجال الشرطة في كل مكان، ومع ذلك، لا يمكن وضع كل شيء تحت المراقبة. إن الدولة التي تعتمد على رجال الشرطة في سياستها، لا يمكن أن تتجاوز حدود معينة، وهذه الأنظمة قد بلغت هذه الحدود في الوطن العربي. يضاف إلى ذلك، الدور المهم الذي بات

الإعلام يلعبه، لذا تجد أن نسبة الوعي لدى الشعب التونسي والشعب المصري وجميع الشعوب في دول العالم الثالث، في تزايد مستمر بفضل الأقنية الفضائية، وبفضل الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي. لقد أسهم تطور تكنولوجيا المعلومات في رفع مستوى التربية والوعي لدى الشعوب. لقد خرجت هذه الشعوب من بوتقة الفلاحين الأميين، بل أصبحت هناك فئة من الشبان تتمتع بقدرات عالية، وحس عملي مميّز، بل وقادرة على الالتفاف على الرقابة، واستخدام شبكة الإنترنت لتعبئة الجماهير.

*** هل يوجد في تلك الدول قوى معارضة، قادرة على قيادة الثورات الشعبية؟**

ما الذي يدفع تلك الأنظمة الدكتاتورية إلى ممارسة القمع إن لم تشعر بالخطر على وجودها؟ ولماذا تنفق بورجوازية الكمبرادور تلك المبالغ الطائلة، على الرغم من جشعها، على أجهزة القمع، إن لم تكن تخشى زوالها؟ فإذا لم تكن المعارضة موجودة، فلن يكون لكل تلك الممارسات أي ضرورة.

*** هناك العديد من المراقبين الغربيين ممن يخشون تسلّم الإسلاميين لدفة الحكم، في حال سقوط تلك الأنظمة العربية. وكما أوجز كريستوفر باربييه، رئيس تحرير الإكسبريس، الموضوع بدقة قائلاً: «من الأفضل بقاء بن علي على هؤلاء الملتحين». هل تستند هذه المخاوف إلى مسوّغات تقوم عليها؟**

تحول الإسلام إلى المدافع الأول عن مصالح الإمبريالية، إذ لجأت القوى الإمبريالية الغربية إلى تسويغ الاستراتيجية التي تتبعها للهيمنة على العالم العربي - الإسلامي بأنها تهدف إلى التصدى للإسلاميين ومقاومتهم.

وها نحن أولاء اليوم نجد الإسلاميين في كل مكان! وغداً قد يقال لنا إنّ هناك آثاراً للقاعدة على كوكب المريخ، إذا كان هذا السبب كافياً لخدمة مصالح الإمبريالية في احتلال هذا الكوكب!

في حقيقة الأمر، احتاج الغرب على مر العصور إلى اختلاق عدو له، ليسوّغ مخططاته التوسعية ونفقاته العسكرية المذهلة (التي يموّلها دافعو الضرائب). فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، واندثار العدو الشيوعي، بات الإسلام والقاعدة هما العدو الشرير.

ومع ذلك، ليس لدى الغرب أي مشكلة في التعامل مع الإسلاميين، فهو يتعايش بشكل جيد مع هذا التيار في بعض الدول كالمملكة العربية السعودية. فضلاً عن أن الغرب هو من هيأ الظروف لوصول الحركات الإسلامية إلى سدة الحكم، للتصدي للقومية العربية في وقت من الأوقات. أما المشكلة الحقيقية التي تواجه الغرب، فهي الحركة المناهضة للإمبريالية. لهذا السبب يحاول الغرب تشويه سمعة أي حراك شعبي عربي، يتناقض مع مصالحه، ويصفه بالتشدّد الإسلامي.

وأخيراً، لا يحتاج الأمر إلى قدرات عالية للتوصّل إلى القول إنّ الأنظمة الدكتاتورية العربية تشكل سداً منيعاً في وجه تنامي التعصب الديني، بل على العكس، كانت هذه الأنظمة القمعية هي السبب المباشر في ظهور التطرّف لدى فئة من الشعب.

من يستطيع أن يعطي لنفسه الحق في الادّعاء أنه لا يحق لأي من الشعوب أن يعيش في ظل نظام ديمقراطي؟ تستطيع قوى سياسية عدة أن

تنشأ في بلد يمارس الديمقراطية بشكل حقيقي. أما بورجوازية الكمبرادور التي تمارس الحكم داخل الأنظمة الدكتاتورية، فإنها لن تتوصل إلى إقناع الشعب. حتى إنها تعجز عن مواجهته. فإذا أردت أن ترعى مصالح القوى الإمبريالية، يتحتّم عليك منع ظهور قوى سياسية أخرى قادرة على مواجهة الشعب الذي يعاني من النخبة الفاسدة. يحاول الغرب باستمرار المحافظة على الأنظمة الدكتاتورية التي تخدم مصالحه بالتلويح بفزّاعة الإسلاميين. إلّا أنّ الشعوب العربية تحتاج إلى نظام ديمقراطي حقيقي، تطالب بذلك في الوقت الراهن، ولا يمكن لأحد أن يقف حائلاً ضد هذه المطالبات.

قائمة المراجع:

- Habib Bourguiba, « Nationalism : Antidote to Communism », in *Foreign Affairs*, 1957.
- Yves Lacoste, *Ibn Khaldoun. Naissance de l'histoire. Passé du tiers-monde,* La Découverte, 2009.
- Fadela M'Rabet et Maurice T. Maschino, « La Tunisie, vingt ans après », in *Le Monde Diplomatique*, décembre 1975.

ليبيا
كيف نجح حلف الناتو في فرض ديمقراطية المقابر

هل تمكّن الحراك الشعبي والديمقراطي من النيل من معمر القذافي؟ هل كان العقيد الليبي ذلك الحاكم الطاغية، المتعطش للدماء؟ هل تمكّن من قمع الربيع العربي على أراضيه؟ هل لجأ الإعلام مرة أخرى إلى استخدام الكذب كي يسوّغ هذه الحرب؟ ما المصالح التي كانت دول حلف الناتو وحلفاؤها تنشدها من جراء الإطاحة بالحاكم الليبي؟ وما الدور الذي لعبه القذافي في تاريخ الوطن العربي وفي أفريقيا؟



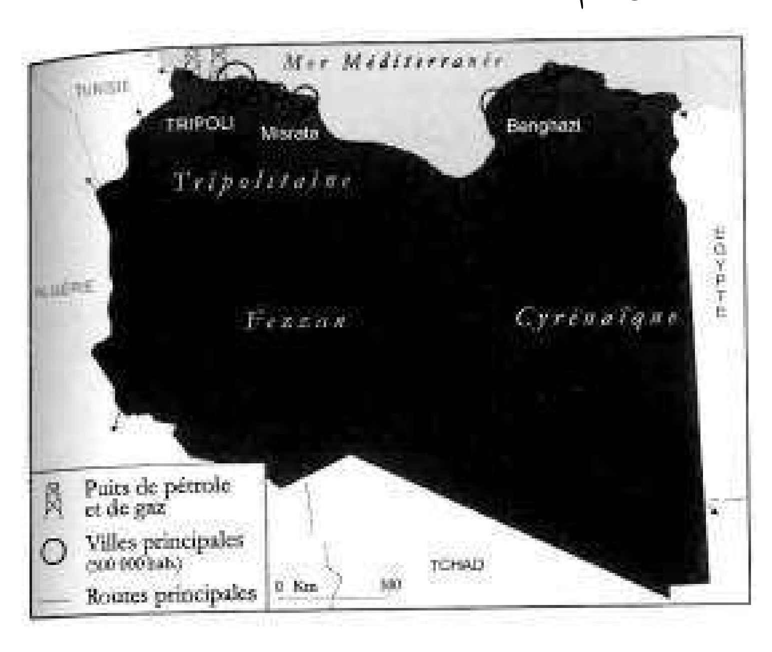
لمحة سريعة عن ليبيا

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** طرابلس.
- **المساحة:** ١ ٧٥٩ ٥٤٠ كم٢.
- **تعداد السكان:** ٦ ١٧٣ ٥٧٩ (أي بمعدّل ٣،١٣ نسمة / كم٢).

على الصعيد الاجتماعي:

- **نسيج المجتمع:** يؤلف العرب والبربر الغالبية العظمى للسكان، وهم من أهل السنّة والجماعة، مقابل ١٠,٤ % من الأجانب.
- **متوسط العمر:** ٧٧,٦ عاماً.
- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً:** ٣٢,٨ %
- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة:** ٨٢,٦ %.



 آبار النفط والغاز

◯ المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ ٠٠٠

ـــــــ الطرق الرئيسة

السياسة:

- **نظام الحكم:** جماهيرية.
- **رئيس الدولة:** مصطفى عبد الجليل (رئيس ليبيا المؤقت ما بين ٥ مارس /آذار ٢٠١١ و٨ أغسطس /آب ٢٠١٢).
- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٥١ من فرنسا ومن المملكة المتحدة.

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ١٠٨,٥ ميليارات الدولار (٢٠٠٨)
- **الموارد:** يشكّل البترول (٣٠%) من الناتج المحلي الإجمالي، ويشكّل قطاع الإنشاءات (٢٠%) من الناتج المحلي الإجمالي.
- **معدل النمو:** ٤,٢%.
- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ١٣٨٠٠ دولار (٢٠١٠).
- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٧٥٥ (٥٥ من حيث الترتيب).
- **نسبة البطالة:** ٣٠%.
- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** ٧,٤%.

*** هل استطاع الربيع العربي بعد الحراك الشعبي الذي عاشته كل من تونس ومصر، قهر دكتاتور ليبيا؟**

يختلف موضوع سقوط الرئيس معمر القذافي عن مجريات الأحداث في كل من تونس ومصر. حتى إن عبارة «الربيع العربي» هي من اختراع وسائط الإعلام الغربية، فضلاً عن أنها لا تعبّر عن شيء في جوهرها، بل تهدف إلى دمج أحداث متباينة فيما بينها ضمن بوتقة واحدة.

عمل الحراك الشعبي في كل من تونس ومصر على حشد الفئات الشعبية كافة للتخلص من الحاكم الطاغية، فقد كان كلٌّ من الرئيسين زين العابدين بن علي وحسني مبارك صناعة إمبريالية، مجرد حاكمَين مستبدَّين، انحصر اهتمامهما في استغلال الفرص لتحقيق الإثراء الشخصي، كانا يفتقران إلى الرؤية السياسية لتطوير بلادهما، فدفعا بشعبيهما إلى الفقر المدقع، وبادرا إلى قمع أي شكل من أشكال المعارضة، بغية الاحتفاظ بكرسي الحكم. لقد كان غياب الحريات في كل من تونس ومصر حقيقة صارخة، لكن الأوضاع الاجتماعية المزرية بشكل خاص، هي التي دفعت فئة الشبان للقيام بالثورة. لم يكن أمام التونسيين والمصريين أي فرصة لرؤية المستقبل.

*** هل كان الوضع مختلفاً في ليبيا؟**

مما لا شك فيه أن الحريات في ليبيا كانت غائبة، وأن نظام الحكم فيها اتسم بالاستبداد والتسلّط، إلّا أن الأوضاع الاجتماعية للشعب الليبي كانت أفضل بكثير مما هي عليه في دول الجوار، فقد سجل متوسط العمر رقماً متقدماً عما هو عليه في باقي البلدان الأفريقيّة. أما نظام الرعاية الصحية والتعليم، فكان يقع على عاتق الدولة. فضلاً عن أن ليبيا تُعدُّ من أوائل الدول الأفريقيّة

التي قضت على مرض الملاريا بشكل جذري، وبالنسبة للناتج المحلي الإجمالي للفرد، فقد تقدمت فيه ليبيا على باقي الدول العربية، إذ بلغ ١١,٠٠٠ دولار، يضاف إلى هذا أنها فاقت باقي دول أفريقيا بالنسبة لمؤشر التنمية البشرية. من جهة أخرى، كانت ليبيا تقدم فرص عمل لعدد كبير من المهاجرين القادمين من تونس ومصر ودول جنوب الصحراء الكبرى. أما قطاع الماء والكهرباء للاستخدام المنزلي فكانت الدولة توفره بالمجان، فضلاً عن ذلك، لم يكن بالإمكان مصادفة أي متسول نائم على قارعة الطريق في ليبيا.

حين سؤاله عن أساليب القمع السياسي في ليبيا، أجاب السفير الروسي السابق فلاديمير شاموف: «عن أي اضطهاد تتكلم؟ يحصل الليبيون على قروض لمدة عشرين عاماً لبناء منازلهم دون تغريمهم بفوائد، ويبلغ سعر الليتر الواحد من وقود السيارة ١٤ سنتاً، وتقدم الدولة المواد الغذائية بالمجان، ويمكن لأي مواطن اقتناء سيارة جيب جديدة من نوع «كيا» من صنع كوريا الجنوبية مقابل ٧٥٠٠ دولار (...)، أما العاطلون من العمل، فإنهم يتقاضون راتباً شهرياً من الدولة، بمقدار ٧٣٠ دولاراً، ويبلغ راتب الممرضة التي تعمل في المستشفى ١,٠٠٠ دولاراً شهرياً، وتحصل الأسرة على ٧٠٠ دولار عن كل طفل حديث الولادة. أما المتزوجون حديثاً، فإن الدولة تصرف لهم مبلغاً بقيمة ٦٤,٠٠٠ دولار لإعانتهم في شراء شقة خاصة بهم. وتدفع الدولة مبلغ ٢٠,٠٠٠ دولار كمساعدة لمن يريد تأسيس مشروع خاص به. أما الرسوم والضرائب الثقيلة، فهي ممنوعة تماماً».

أي عقل راجح يمكنه أن يتصور أن ينتفض شعب بكامل أطيافه للإطاحة بمثل هذا النظام؟ حتى في ظل غياب الحريات، فإنك لن تجد في

ليبيا ظروفاً موضوعية اجتماعية واقتصادية مماثلة لتلك التي آلت إلى قيام الثورات الشعبية في كل من تونس ومصر. وهذا يفسِّر في كل حال السبب الذي أدى بحركة المعارضة في كل من تونس ومصر إلى حشد كل فئات المجتمع. لقد بلغت آلة القمع السياسي ذروتها في هذين البلدين وأطيح بزعيميهما. أما في ليبيا، فقد احتاج موضوع إزاحة القذافي إلى تدخل قاذفات الطائرات التي أتت بها منظمة دول حلف الشمال الأطلسي (الناتو). وليُعلم أن التظاهرة الكبرى التي احتشدت إبان الأزمة لم تكن بفعل متظاهرين يسعون إلى قلب نظام الحكم، كتلك التي حصلت في ساحة التحرير في مصر، كلا، لقد فاق عدد المواطنين الذين تجمعوا في الساحة الخضراء في طرابلس في الأول من شهر تموز من عام ٢٠١١، المليون، جاؤوا للتعبير عن دعمهم للرئيس القذافي! لم يكن بإمكان ما يسمى بالثوار الليبيين حشد مثل هذا العدد. ألا يدعو هذا الأمر إلى العجب عندما يتكرر على مسامعنا أن القذافي كان مكروهاً من شعبه كلّه؟

*** ومع ذلك، أليس الليبيون هم الذين ثاروا ضد القذافي، لماذا؟**

لا بد لنا من وضع الأحداث في سياقها التاريخي، كي يتسنى لنا فهم وإدراك مجريات الأزمة الليبية. كانت ليبيا فيما مضى ولاية تركية في عهد الإمبراطورية العثمانية. وفي عام ١٨٣٠، استولت فرنسا على دولة الجزائر. ومن جهته، أخذ الحاكم المصري يبتعد عن الإمبراطورية شيئاً فشيئاً، بانتهاجه سياسة مستقلة (انظر الفصل الخاص بدولة مصر). فخشي العثمانيون من فقدهم السيطرة على المنطقة من جراء وجود الفرنسيين في الجزائر من جهة، ومحمد علي في مصر من جهة أخرى، ما دفعهم لإرسال قواتهم إلى ليبيا.

في تلك الحقبة من التاريخ أحكمت الحركة السنوسية سيطرتها على البلاد. يُدعى مؤسس هذه الحركة سيد محمد بن علي السنوسي، جزائري الأصل. فبعد أن أنهى دراسته متنقلاً بين بلده الجزائر ودولة المغرب، زار كلاً من تونس وليبيا، لينشر رؤيته عن الإسلام. ومع بداية القرن التاسع عشر، التف حوله كثير من الأتباع، غير أنه لم يحظ برضا بعض الشخصيات من السلطات الدينية العثمانية، بسبب توجيهه الانتقاد لهم في مواعظه. اتخذ السنوسي قراراً بالعيش في المنفى الذي اختاره لنفسه، في برقة تحديداً غربي ليبيا، بعد أن زار كلاً من مصر ومكة.

تزايد عدد أفراد حركته في تلك المنطقة من ليبيا، وشرع في تنظيم الحياة فيها، بدءاً من جباية الضرائب، إلى تسوية الصراعات القبلية، وغير ذلك من الأعمال... وصل الأمر بهذه الحركة إلى تشكيل جيش خاص بها، وكانت هذه الحركة تعرض خدماتها لمواكبة قوافل التجار الذين يعبرون المنطقة. وانتهى الأمر بها إلى أن تفرض نفسها كحكومة الأمر الواقع في برقة، ليمتد نفوذها حتى شمال دولة تشاد الحاليّة. إنّما ما لبثت القوى الاستعمارية الأوروبية فيما بعد، أن قدِمَتْ إلى أفريقيا وتمركزت فيها، ثمّ بادرت إلى تقسيم منطقة جنوب الصحراء الكبرى في أثناء انعقاد مؤتمر برلين (١٨٨٥)، ما أثّر سلباً في الحركة السنوسية. وازداد الأمر سوءاً عندما أعلنت إيطاليا الحرب على الإمبراطورية العثمانية، واحتلّت ليبيا عام ١٩١١، مخترقة بذلك الهيمنة السنوسية في المنطقة بشكل خطير.

*** لجأت إيطاليا في عام ٢٠٠٨ إلى دفع مبالغ مالية إلى ليبيا تعويضاً عن جرائمها إبان الاحتلال. وهذه خطوة استثنائية. هل اتصف احتلال إيطاليا**

بالفظاعة إلى هذه الدرجة؟ أو كان هدف برلوسكوني استمالة الرئيس القذافي لعقد اتفاقات اقتصادية ثنائية معه؟

اتسم الحكم الاستعماري لليبيا بالوحشية. فقد عمد بعض الإيطاليين الفاشيين في مطلع القرن العشرين، إلى نشر دعاية مطوّرة، يدّعون فيها ضرورة إعادة بسط سيادة الرجل الأبيض على القارة السوداء، وذلك في رد منهم على تغلب الجيش الإثيوبي على القوات الإيطالية عام ١٨٩٦ في معركة عدوة. كان عليهم غسل العار الذي ألحقه البربر بتلك الأمة المتحضرة، ورد اعتبارها. كما أكدت هذه الدعاية أن ليبيا ليست سوى دولة همجية، وأن سكانها هم فئة من البدو المتخلفين، لذا يتعيّن على الإيطاليين الاستقرار في هذه المنطقة، الرائعة بمناظرها الطبيعية الخلابة، كما يترتب على كل مستوطن إيطالي اقتناء أرض بمساحة ٤ -٥ هكتارات مع منزل ومرافقه.

انتهى الغزو الإيطالي لليبيا بنشوب حرب بين إيطاليا وتركيا عام ١٩١١، أسفرت بعد مضي عام واحد من اندلاعها عن انتصار إيطاليا، واتخذ الصراع طابعاً دموياً. إنّما على الرغم من ذلك، لم تسيطر روما إلّا على منطقة طرابلس، وكان عليها مواجهة مقاومة شرسة في باقي أرجاء الدولة، وعلى نحو خاص، في منطقة برقة، حيث قدّمتْ الحركة السنوسية دعمها للمجاهد عمر المختار الذي توغل في الجبال، ليقود مقاومة مسلحة مميّزة عن طريق حرب العصابات، ملحقاً أضراراً جسيمة بالجيش الإيطالي الذي فاقه بالعتاد والعدة.

وفي نهاية المطاف، وفي بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، اتخذ موسوليني تدابير حاسمة للقضاء على المقاومة. اتخذ القمع صبغة الوحشية

والشراسة، حتى إن أحد أكبر جزاري هذه الحملة، الجنرال رودولفو غرازياني، كتب قائلاً: «كان الجنود الإيطاليون على قناعة تامة بأنهم مكلفون بقيادة مهمة نبيلة وحضارية. (...) وتوجب عليهم القيام بهذا الواجب الإنساني على أكمل وجه مهما كلف الأمر. (...) ففي حال لم يقتنع الليبيون بالمزايا التي تُقدم إليهم، فسيجد الإيطاليون أنفسهم مضطرين لقيادة معركة مستمرة ضدهم، وسيتمكنون من القضاء على الشعب الليبي، وتدميره برمته، للتوصل إلى السلام، ذلك السلام الذي يخيّم على المقابر...».

في عام ٢٠٠٨، قدّم سيلفيو برلسكوني تعويضات إلى ليبيا، تكفيراً عن جرائمه إبان العهد الاستعماري. بالطبع كانت خطوة مدروسة، أراد برلسكوني منها استمالة القذافي، ليعقد معه اتفاقات اقتصادية ثنائية. مع ذلك، نستطيع أن نجزم أن معاناة الشعب الليبي كانت هائلة من جراء الاستعمار. ولن نبالغ إذا قلنا إن الممارسات التي شهدتها ليبيا لم تكن سوى إبادة جماعية ضد الشعب الليبي.

*** كيف حصلت ليبيا على استقلالها؟**

في الوقت الذي كان فيه المستوطنون الإيطاليون يمارسون أعمالهم القمعية في مدينة برقة، اتخذ السنوسي قراره بالعيش في مصر، بلد المنفى الذي اختاره لنفسه، من أجل التفاوض مع البريطانيين. غير أن الإمبراطورية الاستعمارية الأوروبية أخذت في التفكك تدريجياً، غداة الحرب العالمية الثانية، ما ساعد في نيل ليبيا استقلالها عام ١٩٥١، وتمكن إدريس من الاستيلاء على الحكم، بعد أن تلقى دعماً من بريطانيا العظمى. إلّا أن ذلك لم يثنِ جماعة من الطبقة البورجوازية الليبية عن عزمها على إقامة رابط بين ليبيا

ومصر، نتيجة تأثرها بالنزعة القومية التي كانت آخذة في التنامي في القاهرة، إلّا أن القوى الإمبريالية رفضت أن تقوم قائمة موحّدة للأمة العربية، ما دفعها إلى دعم استقلال ليبيا بتعيين إدريس، دميتها المتحركة، في سدة الحكم.

*** هل استجاب الملك إدريس للتوقعات؟**

تماماً، كانت ليبيا آنذاك بلداً متخلفاً جداً. فمع أن مساحة أراضيها تفوق مساحة فرنسا بثلاثة أضعاف، إلّا أنها لم تتوصّل إلى رسم حدودها إلا بعد اختراع الطائرة، بسبب افتقارها إلى الطرقات والمرافق الأساسية! وبذلك تم التوصل إلى توحيد كل من طرابلس وفزّان وبرقة تحت لواء نظام فدرالي، غير أن هذه المناطق كانت تفتقر إلى وسائل اتصال حقيقية تربط فيما بينها، فضلاً عن اختلاف جذري فيما بينها من حيث الثقافة والتاريخ.

هذا التشكيل الخاص بليبيا، جعل منها دولة ضعيفة وهشة، لذا لا يمكننا التحدث عن دولة قومية حقيقية بكل معنى الكلمة، فقد نشأت ليبيا في مرحلة سابقة للنظام الرأسمالي. شكّل البدو الخارجون عن السيطرة السواد الأعظم من السكان، بذلك كانت الانقسامات داخل المجتمع الليبي كبيرة للغاية، وكان نظام الرق لا يزال ساري المفعول... فضلاً عن ذلك، لم يكن الملك إدريس يملك أي مشروع يعمل بوسطاته على تطوير البلاد، فكان يعتمد كلياً على دعم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، في مقابل خدمته لمصالح القوى الإمبريالية. ففي عام ١٩٦٧ مثلاً، لما أرادت الجزائر إرسال قوات مسلّحة لدعم دولة مصر التي كانت تخوض نزاعاً ضد إسرائيل، وقف إدريس حائلاً دون مرور الجنود الجزائريين من أراضيه.

*** ما السبب الذي يكمن وراء دعم كل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية للملك إدريس؟ هل كان ذلك بسبب النفط؟**

لم يتم الكشف عن حقول النفط في ليبيا عام ١٩٥١. إلا أن الدول الأنكلوساكسونية كانت تهدف من إنشاء قواعدها العسكرية في ليبيا، إلى ممارسة الرقابة على حركة الملاحة في البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، نظراً للموقع الإستراتيجي الذي يتمتع به البلد.

لم يُكتشف النفط الليبي إلا فيما بعد، وتحديداً في عام ١٩٥٦، عندما نقّب عنه نلسن بونكر هانت، الرجل الأميركي الثري. كان النفط العربي آنذاك يباع بنحو ٩٠ سنتاً للبرميل الواحد، في حين بلغ سعر شراء البرميل الواحد من النفط الليبي ٣٠ سنتاً، ويعود السبب في ذلك إلى تخلّف البلد، بل ربما كان هذا البلد الأكثر بؤساً على مستوى القارة الأفريقيّة. كما أن الضعف الكبير الذي كانت تعيشه الحكومة جعلها تقف عاجزة حيال شركات النفط الأجنبية للتفاوض معها بشأن السعر.

*** إنّما، مع ذلك، كانت عائدات النفط تدخل البلد، فأين كانت تذهب؟**

حرص الملك إدريس وقبيلته على تحقيق الإثراء على الصعيد الشخصي. كان يعيد توزيع قسم من العائدات النفطية، بالتعاون مع قبيلته، على رؤساء باقي القبائل، للتخفيف من حدة التوتر. نتج عن ذلك نمو جماعة صغيرة من النخبة، بسبب عملها في تجارة النفط، وأُنشئت بعض المرافق الأساسية، ولا سيّما على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تلك المنطقة التي تحظى بأهمية كبيرة لتعزيز التجارة الخارجية، في حين بقيت المناطق الريفيّة في الداخل الليبي تعاني من الفقر المدقع، وتجمعت أعداد هائلة من

المعوزين في الأحياء الفقيرة خارج المدن. استمر هذا الوضع حتى عام ١٩٦٩ عندما قلبت مجموعة من الضباط، كان ضمنهم القذافي، نظام الحكم ونحّت الملك.

*** هذا يعني أن الذين قاموا بالثورة هم ضباط في الجيش، كيف حدث ذلك؟**

كان الجيش هو المؤسسة الوطنية الوحيدة في ذلك البلد الذي يعاني بشدة من الانقسامات القبلية. لم يكن لليبيا أي وجود على مستوى المؤسسات الوطنية إلا من هذا الجيش. الجدير بالذكر أن السنوسيين شكلوا ميليشيا خاصة بهم، في حين تشكّل الجيش الوطني من الشبان الليبيين الذين قَدِموا من مناطق وقبائل مختلفة من البلد.

لا بد من الإشارة هنا إلى تأثر الضباط الليبيين، الذين قادوا الانقلاب ضد الملك إدريس، بالرئيس عبد الناصر، فقد كان عبد الناصر هو نفسه ضابطاً في الجيش المصري، وهو من أطاح بالملك فاروق. لقد دفعه تأثره بالفكر الاشتراكي إلى معارضة تدخّل قوى الاستعمار بشكله الجديد، وإلى الدعوة إلى توحيد الصف العربي (انظر الفصل الخاص بمصر). كان لاعتزاز الرئيس عبد الناصر بعروبته ذات الطابع الثوري الأثر الأكبر في ليبيا، وبشكل خاص في الجيش الوطني. انضم القذافي بادئ الأمر إلى الحزب الناصري، ثم ما لبث أن أدرك أن هذا التشكيل السياسي عاجز تماماً عن قلب نظام الحكم الملكي، فما كان منه إلّا الانخراط في صفوف الجيش الوطني.

بعد نجاح الثورة الليبية، توجّه الرئيس القذافي إلى مصر في أول زيارة رسمية له، واجتمع بعبد الناصر الذي عين العقيد الشاب ذا السبعة والعشرين عاماً، كضامن للوحدة العربية.

*** كيف انعكست آثار الثورة في ليبيا؟**

كان أمام القذافي خياران سياسيان، تمثل أولهما بترك النفط الليبي بين أيدي الشركات الغربية، تماماً كما فعل سلفه الملك إدريس، لتتحوّل ليبيا إلى مملكة نفطية، على غرار الممالك النفطية الموجودة في الخليج العربي، حيث يُمارس نظام العبودية، وتُحرم المرأة من حقوقها، ويستمتع المهندسون الأوروبيون بتشييد الأبراج الغريبة، بتسخيرهم لميزانيات فلكية، هي في الواقع، ملك الشعوب العربية. أما الخيار الآخر، فكان يتمثّل باتباع طريق مستقلّ عن قوى الاستعمار الجديد. وهذا كان خيار القذافي، فبدأ بإغلاق القواعد العسكرية التي أنشأتها الدول الغربية في البلد، وتأميم النفط الليبي، ما أثار غضب وحفيظة القوى الإمبريالية. استطاع قائد الثورة الليبية إحداث كثير من التغييرات الإيجابية في الداخل الليبي باعتماده على العائدات النفطية، فعمد إلى تطوير البنى التحتية، والاهتمام بمجالي التربية والصحة.

كما وضع رؤية جديدة للإسلام تميّزت بالمرونة. ففي غالبية الأنظمة الملكية النفطية كالمملكة العربية السعودية، في سبيل المثال، يتم الرجوع إلى علماء الدين المتخصصين الذين يملكون وحدهم الحق في تفسير القرآن الكريم، ويحددون القواعد الدينية التي يلتزم المؤمنون باتباعها. أما في ليبيا فقد أضفى القذافي على الدين علاقة أكثر ديمقراطية عندما منح كل مؤمن حرية تفسير القرآن بما يتناسب ومتطلباته. لقد ضمن القذافي بهذا النهج حقوق المرأة، فمنع تعدد الزوجات، وأصبح الحجاب الشرعي غير مُلزِم للمرأة، كما سمح بالطلاق. حصلت المرأة الليبية في عهده على حقها في التعليم، إذ إنها كانت محرومة من ارتياد المدارس في عهد الملك إدريس.

*** كيف جاء رد القوى الغربية تجاه الثورة الليبية؟**

انتشرت طُرفة في البيت الأبيض في ظل ولاية الرئيس آيزنهاور في الخمسينيات من القرن الماضي، لتتحول إلى نظرية سياسية حقيقية في عهد الرئيس ريغان، كيف يمكن التمييز بين أخيار العرب وشرارهم؟ فجاء الجواب أن العرب الأخيار هم الذين يمتثلون لأوامر الولايات المتحدة الأمريكية، فيحصلون بالمقابل على الطائرات، ويسمح لهم بإيداع أموالهم في المصارف السويسرية، ويتلقون دعوة لزيارة واشنطن، إلخ. بل أطلق آيزنهاور وريغان على ملوك المملكة العربية السعودية والأردن، وشيوخ وأمراء دول الخليج العربي، وشاه إيران، وملك المغرب، بالإضافة إلى الملك الليبي، إدريس، اسم الرؤساء الأخيار. أما الرؤساء الأشرار، فهم الذين يعصون أوامر واشنطن، كعبد الناصر، والقذافي وصدام حسين فيما بعد...

*** أسفرت ثورة القذافي عن تغييرات إيجابية. ثم ما لبثت ليبيا، وبعد أربعين عاماً، أن غرقت في بحر الفساد، وطالت سياسة القمع فيها أشكال المعارضة السياسية كافة، ثم ما لبث القذافي في العام ٢٠٠٠ أن سمح مجدداً بدخول الشركات متعددة الجنسيات إلى البلد. كيف تفسر هذا التطور؟**

عرف عن القذافي منذ بداية حكمه موقفه المعارض للدول الاستعمارية العظمى، فكان يقدّم دعماً سخياً لحركات التحرر حول العالم كافّة، منها فلسطين ونيكاراغوا وإيرلندا وإقليم الباسك، إلخ. إني أعتقد شخصياً، بل أكاد أجزم أنه أبلى بلاءً حسناً في هذا المضمار. إنما لتكتمل الصورة وتتضح، علينا أن نبيّن أن العقيد القذافي كان مناهضاً للشيوعية. نذكر هنا، في سبيل المثال، أنه عمد عام ١٩٧١، إلى تحويل مسار الطائرة التي

كانت تقلّ على متنها جماعة من المنشقين الشيوعيين يحملون الجنسية السودانية، إلى السودان، حيث أمر الرئيس النميري بتنفيذ حكم الإعدام على الفور.

لقد فشل القذافي في واقع الأمر في تطوير رؤيته السياسية التي تقوم على أسس متينة، على الرغم من النوايا الطيبة التي انطلق منها في مشروعه. اتسمت ثورته بطابعها القومي البورجوازي، وإلى جانب ذلك، أوجد في ليبيا نظام رأسمالية الدولة. واذا أردنا أن نتوصل إلى فهم سبب سقوط نظام العقيد في الهاوية، ينبغي لنا تحليل الظروف المحيطة به التي لم تكن في مصلحته، كما يتوجب علينا الاطلاع على الأخطاء التي ارتكبها على الصعيد الشخصي.

لقد تبيّن لنا أن القذافي انطلق من نقطة الصفر عندما تولى السلطة في بلاده، إذ كان الشعب في ليبيا يعاني من الفقر والجهل، حتى إن طبقة العمال لم تكن على قدر كاف من القوة كي تدعم الثورة؛ إذ إن العلم كان محصوراً بالنخبة التي بنت ثروتها على أنقاض المتاجرة بموارد البلد مع القوى الاستعمارية الجديدة. لذلك لم تكن هذه الطبقة قادرة على دعم الثورة، بل غادر الأكثرية منها إلى الخارج، من أجل تنظيم صفوف المعارضة.

أضف إلى ذلك أن تأثر الضباط الليبيين الذين أطاحوا بالملك إدريس، بشخصية عبد الناصر بلغ ذروته. بل إن رئيسي الدولتين كانا يخططان لإقامة تحالف إستراتيجي بين البلدين، إلا أن موت عبد الناصر عام ١٩٧٠ أفشل هذه المشروع، وتحولت مصر إلى دولة مناوئة للثورة، متماهية مع الغرب. انتهج الرئيس المصري الجديد أنور السادات سياسة التزلّف للولايات

المتحدة الأمريكية، فبدأ بتحرير قطاع الاقتصاد تدريجياً، وتحالف مع إسرائيل. ثم ما لبث أن اندلع صراع قصير الأمد عام ١٩٧٧ بين مصر وليبيا. بإمكانك أن تتصور الوضع الذي وجد القذافي نفسه فيه، أصبح البلد الذي استلهم فكره الثوري منه، والذي كان سيعقد معه تحالفاً رئيساً، بين ليلة وضحاها بلداً عدواً!

هناك عنصر سياقي آخر لم يكن مؤاتياً لمصلحة القذافي، تمثّل بالانخفاض الكبير الذي طرأ على سعر النفط في الثمانينيات. ففي عام ١٩٧٣، وضمن إطار الحرب التي نشبت بين العرب وإسرائيل، أعلنت الدول المصدِّرة للبترول فرض حظر نفطي، ما أدى إلى ارتفاع أسعار النفط. تسبب هذا الحظر بأول عملية ضخمة لنقل الثروات من الشمال إلى الجنوب. ثم في الثمانينيات، حصل ما يمكن أن نسميه بالحركة المضادة للثورة النفطية، التي أشرف على تنظيمها كل من الرئيس الأمريكي ريغن والحكام السعوديين. إذ عملت المملكة العربية السعودية آنذاك على زيادة إنتاجها النفطي بشكل ملحوظ، ما أدى إلى إغراق السوق بالنفط، وإحداث انخفاض جذري في سعر البرميل الواحد، الذي تراجع من ٣٥ إلى ٨ دولارات!

*** إنّما، ألم تكن المملكة العربية السعودية تدرك آنذاك أنها أخطأت بهذه المبادرة، فكانت كالذي أطلق النار على قدمه، فأصابها؟**

لقد كانت لهذه الخطوة بالفعل آثار سلبية على الاقتصاد السعودي، غير أن البترول لم يكن هو الهدف الأهم للمملكة العربية السعودية، إذ إن علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية تندرج ضمن أولوياتها، فمن المعلوم أن استمرار الأسرة الحاكمة في السلطة لا يأتي إلا بدعم من واشنطن.

أسفرت هذه الموجة النفطية العارمة عن نتائج كارثية للعديد من الدول المصدّرة للبترول التي وجدت نفسها مضطرة إلى الاستدانة. كل تلك الأحداث وقعت بعد عشرة أعوام من تسلّم القذافي لمنصبه الرئاسي. لقد أدرك الرئيس الليبي الذي انطلق من نقطة الصفر، أن الوسائل الوحيدة التي يمتلكها للشروع في بناء بلده تذهب أدراج الرياح مع أول تدهور للأسعار تشهده أسواق النفط.

من الملاحظ أيضاً أن هذه الحركة المضادة للثورة النفطية سارعت في انهيار الاتحاد السوفييتي الذي كان آنذاك متورطاً في أفغانستان. فمع زوال الكتلة السوفييتية، فقدت ليبيا التأييد السياسي الرئيس الذي كانت تتلقاه، ووجد هذا البلد نفسه في عزلة تامة على المسرح الدولي.

*** هل كان القذافي الذي اشتهر بموقفه المناهض للشيوعية، حليفاً للسوفييت؟**

تّعدُّ ليبيا قياسياً بعدد سكانها، بلداً صغيراً. كان القذافي على يقين من أنه لن يحقق أي هدف بمفرده، ولن يتمكن من الوقوف في وجه النظام الإمبريالي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد حاول في أعقاب نجاح الثورة الليبية، متابعة مشروع عبد الناصر في توحيد الدول العربية، تحت لواء الأمة الواحدة القوية، فواجه صعوبة كبيرة في إيجاد شركاء أقوياء لدعم مشروع الوحدة العربية، إذ وجد نفسه وحيداً بين الدمى المتحركة التي كانت ألعوبة بيد الغرب، كالرئيس بورقيبة من جهة، والحكام المستقلّين الذين كانوا اتخذوا منه موقف الحذر، كالرئيس حافظ الأسد من جهة أخرى.

كانت أوروبا هي الخيار البديل، غير أن العقيد القذافي أدرك تماماً أن القارة العجوز كانت خاضعة لمصالح واشنطن، فكان يردد دوماً أنه سيتعاون مع الأوروبيين في اليوم الذي يعود فيه هؤلاء إلى أصلهم الأوروبي!

لذا، كان من الطبيعي جداً أن تلجأ ليبيا إلى الاتحاد السوفييتي الذي كان الثقل الموازي لسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية، ويضمن شكلاً من أشكال الحماية الدبلوماسية.

*** غير أن الكتلة السوفييتية ما لبثت أن انهارت لتجد ليبيا نفسها في عزلة تامة. فكيف أثّر ذلك في القذافي؟**

عاشت ليبيا في التسعينيات مرحلة صعبة للغاية عندما فرضت عليها منظمة الأمم المتحدة العقوبات. مع بداية عام ١٩٨٦، تتابعت الأحداث عندما انفجرت قنبلة في أحد الملاهي الليلية في مدينة برلين، الذي كان يرتاده بشكل رئيس الجنود الأميركيون، حيث لقي ثلاثة أشخاص حتفهم. صرّح ريغن آنذاك أنه اعترض رسالة تتضمن تورط دوائر الأمن الليبية، فجاء الرد الأمريكي فورياً، فبعد انقضاء تسعة أيام على هذه الحادثة، هاجمت طائرات السلاح الأميركي مقر إقامة القذافي في طرابلس، فقتلت طفلته بالتبني التي كانت تبلغ من العمر خمسة عشر شهراً. رأت واشنطن أنها نجحت في أداء مهمتها على الرغم من أن الرئيس الليبي لا يزال حياً. لقد أرسلت رسالة مقتضبة إلى الرؤساء العرب كافة، تقول لهم فيها إن الولايات المتحدة الأمريكية سترد على كل من يقف في وجهها، وإن ردها سيكون قوياً وسريعاً حتى على بعد آلاف الكيلومترات. لم يكن بمقدور الاتحاد السوفييتي الذي كان في ذلك الحين يعيش بداية نهايته، تقديم أي ضمانات للدول التي تسعى إلى التفلت من سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية.

في عام ١٩٨٨، أي بعد عامين من هذه الحادثة، تعرّضت طائرة أمريكية تابعة لشركة بان أمريكان للانفجار في اسكتلندا، وتناثر حطامها فوق قرية لوكاربي. لم يكن هناك أي دليل يؤكد تورط القذافي، وأنه هو من رتب لهذا الاعتداء. توصل الضباط الأمريكيون إلى هذه النتيجة فيما بعد، وتوجهت الشكوك إلى كل من سورية أو إيران. إلّا أن رونالد ريغن سارع في ذلك الوقت إلى توجيه الاتهام إلى ليبيا، مدعياً أن الرئيس القذافي أراد الانتقام من الغارة التي شنتها أمريكا على بلاده عام ١٩٨٦، وطلب إلى حلف الناتو فرض عقوبات على ليبيا. وبناءً عليه، عُلّقت الملاحة الجوية في عام ١٩٩٢ من وإلى ليبيا، وحُظر بيع السلاح لهذا البلد. وفي العام الذي تلاه، أي ١٩٩٣ جُمّدتْ الممتلكات والأصول الليبية المودعة في الخارج، كما أُوقفَ تصدير المواد المخصّصة للتنقيب عن الغاز والنفط.

*** في عام ١٩٩٩، بادرت الحكومة الليبية إلى تسليم المشتبه فيهم إلى محكمة العدل الدولية، ضمن إطار قضية لوكاربي. وفي عام ٢٠٠٣، وافق القذافي على تقديم مبلغ عشرة ملايين دولار، لكل أسرة من أسر ضحايا الاعتداء، الذين يبلغ عددهم ٢٧٠. فلماذا أقدم على هذه الخطوات إذا لم يكن متورطاً في حادثة الاعتداء؟**

عملت عقوبات الأمم المتحدة على تقويض النمو الاقتصادي في ليبيا، فكانت فترة التسعينيات قاسية للغاية. فقد جاءت محاولات القذافي في تكثيف محاولات الانفتاح على الغرب، محاولة منه لكسر العزلة التي فرضت عليه. لقد دفع التعويضات المالية، وسلّم المشتبه فيهم، لكن مع إصراره على إنكار تورطه في حادثة الاعتداء. أُدين أحد المشتبهين وحُكم عليه بالسجن المؤبّد، لتطلق

الحكومة البريطانية سراحه، بعد مضي عشرة أعوام، مدّعية بتصريح رسمي لها، أنه يعاني من مشكلات صحية. أمّا في حقيقة الأمر، فقد اتُّفق مع ليبيا على توقيع عقود تجارية، في مقابل إطلاق سراحه. هذا هو ملخص التحقيق بإيجاز. إنّما، بعد مضي سنوات عدة على هذه الحادثة، تقدم ضابط في الشرطة الاسكتلندية بشهادة مفادها أن وكالة الاستخبارات الأمريكية هي من كتبت هذا السيناريو من ألِفِه إلى يائه، كما أن هناك عدداً من الشهود طعنوا في الرواية الرسمية التي قدمتها الحكومة البريطانية في ذلك الحين.

*** هل آتت محاولات القذافي في إخراج ليبيا من عزلتها أكلها؟ فحققت نجاحاً يذكر؟**

رُفعت العقوبات عنها في عام ١٩٩٩، ثم ظهرت ليبيا، وبعد الهجمات الإرهابية التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، كشريك مفضّل للقوى الغربية، إذ لم تتوقف عن محاربة الجماعات الإسلامية على أراضيها، وذلك عندما قدّم الخبراء الليبيون قدراً مهماً من المعلومات عن جماعة القاعدة.

وفي عام ٢٠٠٣، حدث أمر آخر، أثّر في القرار الذي اتخذه القذافي في مسألة التقرّب إلى دول الغرب، إنه أمر اعتقال الرئيس صدام حسين وتنفيذ حكم الإعدام فيه. لقد شكل موضوع صدام حسين صدمة للقذافي، وأعلن في بيانٍ أمام مجلس جامعة الدول العربية، «لقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام شنقاً بأحد أعضاء هذا المجلس وأنتم صامتون. تعتقدون أنكم في مأمن من مصير مماثل لمصيره، بسبب تحالفكم مع الولايات المتحدة الأمريكية، لكن صدام حسين كان هو الآخر حليفاً للولايات المتحدة الأمريكية في يوم من الأيام».

فما كان من الحكومة الليبية إلا الإعلان عن قرارها بإيقاف برنامج الأسلحة ذات الدمار الشامل الذي عملت على تطويره طوال سنين عدّة. وفي النتيجة، أصبح موضوع إعادة تأهيل ليبيا أمراً متكاملاً، ما أدى إلى تهافت الحكام الغربيين على أبواب القذافي من أجل الحصول على عقود.

*** هذا ما يفسّر رغبة القذافي في الانضمام إلى لائحة «أخيار العرب» التي نظّمها البيت الأبيض فيما مضى. إنّما، ماذا عن سياسة الفساد والقمع السياسي في بدايات حكم القذافي؟ لقد سبق أن ذكرتَ موضوع أخطاء اقترفها القذافي على الصعيد الشخصي...**

كانت الثورة التي قادها معمر القذافي في بداياته مشروعاً مشرّفاً، نتج عنه تغييرات إيجابية في الداخل الليبي. غير أن القذافي لم يكن يمتلك رؤية سياسية سديدة. لقد استهلّ السبعينيات بثورة ثقافية، ونشر ما يعرف بالكتاب الأخضر. عرض في هذا الكتاب أفكاره المناهضة للإمبريالية، وأثار موضوعات عدّة، منها الإسلام، والنزعة القومية، ورأسمالية الدولة. ترتب على الثورة الثقافية التي قادها، محاربة أوجه القصور في الإجراءات الروتينية أو ما يعرف بالبيروقراطية، وتحفيز اهتمام الشعب لمواجهة التحديات السياسية، والقضاء على الترتيبات التقليدية والنزعات القبلية للأجداد، التي كانت تعوق عمل جهاز الدولة.

إنّما، باءت محاولة القذافي بالفشل، إذ كان يترتب عليه تشكيل حزب خاص به لدعم ثورته، وتدريب الشعب على مواجهة التحديات السياسية بشكل أفضل. ربما أتاح له هذا الحل تنمية الفكر الديمقراطي.

*** تماماً، ففي عام ١٩٧٧، شُكِّلت اللجان الثورية، بهدف رفع مستوى الوعي السياسي لدى الشعب.**

صدر الزخم من رأس الهرم في الدولة، وانحصر دور اللجان الديمقراطية القائمة على أساس المشاركة، التي شُكلتْ على مستويات أدنى من الحكومة، انحصر دورها في موضوع الاستشارة التي كانت تُطلب إليها، فهي لم تكن تتمتع بسلطة صنع القرار في مواجهة التحديات السياسية المهمّة. تمخض عن ذلك نتائج عدة. فبدل أن تسخَّر هذه اللجان الثورية لتطوير النظام الديمقراطي، تحولت إلى جهاز رقابة للجهاز السياسي.

إضافة إلى ذلك، سجل القذافي فشلاً آخر في موضوع التغلّب على الانقسامات القبلية. مما لا شك فيه أن هذه الانقسامات القبلية كانت تشكّل جانباً إيجابياً في موضوع المفاوضات وتسوية النزاعات، لكنها شكّلت في الوقت عينه، عبئاً على كفاءة الدولة. لقد استغل القذافي التناحرات القبلية منعاً لنمو روح المعارضة في صفوفها. لذا استمرت حالات التوتر بين القبائل القريبة إلى القذافي من جهة، وتلك القريبة إلى قبيلة السنوسي، من جهة أخرى. فالملك إدريس الذي أُطيح به عام ١٩٦٩، ينتمي إلى قبيلة السنوسي، وبعد الثورة، عمد القذافي إلى تفكيك أواصر هذه القبيلة، وقوّض دورها التاريخي في استقلال ليبيا. لذا لم تتشكّل انتفاضة الشعب عام ٢٠١١ في برقة، شرقي البلاد، نتيجة المصادفة، حيث تشكل قبيلة السنوسي الغالبية العظمى من السكان.

*** هل نستخلص مما سبق أن غياب المنظور السياسي لدى القذافي هو السبب في الانجراف الديكتاتوري للنظام الليبي؟**

إلى حدّ كبير. هناك أمران لا يمكننا تسويغهما، الانجراف الدكتاتوري من جهة، والسياسة القمعية للمعارضين من جهة ثانية. إنّما، كي نلمَّ بالمشهد بكل تفاصيله، علينا التمييز بين شخصية القذافي كحاكم وبقية الحكام العرب المتسلطين كالرئيس حسني مبارك وملك المملكة العربية السعودية. بالتأكيد، لم يكن القذافي ليتقبل فكرة وجود المعارضة في صفوف شعبه، لكن يبقى هذا المفهوم غريباً عن رؤيته السياسية، إذ لم يشكّل القذافي حزباً خاصاً به، وحين سؤاله عن المعارضة الليبية أجاب بسؤال آخر: «عن أي معارضة تتكلمون؟ إن الشعب الليبي هو من يقود هذا البلد، فكيف يمكن أن يتمرّد على نفسه؟»

من المؤكّد أن القذافي عمد إلى قمع معارضيه السياسيين، ومع ذلك كان هناك اتصال بينه وشعبه، إذ لم يكن منقطعاً عنه، كالعديد من الحكام في الوطن العربي. لنتناول في سبيل المثال مشروع النهر الاصطناعي العظيم. هذا المشروع الفرعوني الذي بدأ في الثمانينيات، بهدف ضخ المياه من مستودعات المياه الجوفية الموجودة في عمق الأرض، لري المناطق الصحراوية الليبية. بالفعل لم تكن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في هذا البلد تتجاوز نسبة **٣%**. لقد طلب الليبيون من العقيد القذافي عن طريق اللجان الثورية أن يبادر إلى عمل مشروع لوقف امتداد الجفاف إلى الأراضي االليبية كافة. لا بد لهذا المشروع أن يثير مشكلات بيئية، بل جيوسياسية، إذ إنه قد يؤثر سلباً في احتياطي الماء في البلدان المجاورة. حتى إن احتياطي المياه الليبية هي نفسها موضع شكوك. لقد حصر

١٢٠,٠٠٠ مليار من الأمتار المكعبة في ليبيا، بهدف نقل مليارين سنوياً، لكن لا يوجد هناك ما يؤكد إمكان التعويل على هذا المشروع على المدى البعيد. مع ذلك، جعل القذافي من هذا المشروع تحدياً أساسياً لتحقيق أهداف عدة. جاءت مكافحة التصحّر في شمال أفريقيا في مقدمة هذه الأهداف، ثم تلاه موضوع الاستغناء عن عملية تحلية المياه، الذي يُلزم ليبيا الاعتماد على وسائل التكنولوجيا الغربية. وأخيراً، تمثّل الهدف الثالث للقذافي في سعيه إلى تطوير القطاع الزراعي، ما سيمكنه من توزيع ٢٠.٠٠٠ مزرعة، بواقع ٥ هكتارات للمزرعة الواحدة، وسيعمل هذا النهر الاصطناعي على دعم **%**٥٠ من الميزانية الليبية.

هل تعتقد أن قائداً طاغية فاسداً ومنفصلاً عن شعبه يُقْدِم على إنفاق مبالغ طائلة في استجابة منه لمتطلبات شعبه؟

*** هذا يعني أن القذافي كان يتمتع بدعم شعبه خلافاً لادّعاءات وسائط الإعلام وحكام الغرب؟**

حظي القذافي بدعم شريحة كبيرة من الشعب الليبي، لقد تمكّنتُ من رصد ذلك في الزيارتين اللتين قمت بهما إلى ليبيا في صيف ٢٠١١. كان بعضهم يطالب بإجراء إصلاحات ديمقراطية، لكنهم لم يطالبوا قط بتغيير نظام الحكم، في حين كانت الغالبية العظمى تعارض تدخل منظمة حلف شمال الأطلسي.

في آيار ٢٠١١، عقد ألفان من ممثلي القبائل الليبية اجتماعاً لتحليل الأوضاع في البلد، وتوصل هؤلاء الممثلون، وفقاً لما جاء عن المتحدث باسمهم، إلى أن «كل ما يجري في ليبيا هو من تدبير أطراف خارجية». ثم اتخذت هذه القبائل قراراً، أدانت فيه التدخل الخارجي، ووجهت نداءً مناهضاً

للحرب. تابع المتحدث باسم القبائل قائلاً «مهما بلغت أوجه التضارب الداخلية في مجتمعنا، فإن هذه المسألة تبقى غير قابلة للتفاوض، نحن نرفض أن يصار إلى تقسيم هذا البلد. لقد وجهنا نداءً إلى إخوتنا في الشرق، لنوضّح لهم الموضوع، ونبيّن لهم أن هذه المشكلات الحاصلة لا تتجاوز كونها مشكلات داخلية، وأنه سيصار إلى تسويتها فيما بيننا، وعن طريق الحوار، وقلنا لهم إنه إذا ارتكبت أي أعمال، مهما كانت هوية الجهة الفاعلة، فإننا سنطالب بفتح تحقيق، تقوم عليه لجنة مستقلة. غير أن إخواننا في الشرق رفضوا التفاوض».

*** ما هوية أولئك الليبيين الذين أرادوا الإطاحة بالقذافي؟**

تتشكّل المعارضة الليبية في الواقع، من جماعات غير متجانسة، إذ تجد لديهم اختلافاً في الاتجاهات والآراء. هناك أولاً فئة بورجوازية الكمبرادور، التي فرّت من ليبيا إبان ثورة ١٩٦٩، وتابعت حشد جهودها ضد نظام القذافي، من مكان إقاماتها في دول الغرب، وأقامت علاقات وثيقة مع القوى الإمبريالية.

ثم هناك جماعة من النخبة المقيمة في ليبيا، التي كانت تسعى إلى مواصلة تحرير الاقتصاد. الجدير بالذكر أن هناك فئة من اليساريين التي تدعم المعارضة الليبية، وتشيع بين صفوفها أن القذافي لم يعد ذلك الحاكم الذي يسخّر العائدات النفطية لخدمة الشعب. بالفعل، عاشت ليبيا في أثناء العقد الأول من القرن الحالي موجة من الخصخصة، وكانت قد دخلت في مفاوضات، سعياً منها للانضمام إلى منظّمة التجارة العالمية. غير أن الشخصيات التي كانت تدفع بالاقتصاد الليبي في هذا الاتجاه قد انضمت إلى صفوف المعارضة في أثناء الأزمة الليبية، وكانت ترغب في القضاء على دولة الرفاهية والاستئثار بالعائدات النفطية، ما سيخلق فوارق اجتماعية كبيرة.

هناك، ثالثاً، مجموعة من وزراء القذافي السابقين، وهنا يتجلى لك النفاق في أعلى درجاته. فعلى الصعيد الرسمي، تجد دعم حكام الغرب وعشاق ما يسمّى بالربيع العربي للمجلس الوطني الانتقالي، بحجة تخليص ليبيا من الجلّاد والنظام الديكتاتوري. إنّما من هم الذين يترأسون المجلس الانتقالي الوطني؟ إنه مصطفى عبد الجليل، وزير العدل الأسبق، وقائد فرقة القمع، الذي أدرجت هيئة العفو الدولية اسمه ضمن لائحة أسوأ المسؤولين عن انتهاكات حقوق الإنسان في شمالي أفريقيا.

قال لي المتحدث باسم القبائل الليبيية، الذي كان لي معه لقاء في تموز ٢٠١١: «لقد انضم الوزراء السابقون وكبار المسؤولين في ليبيا إلى صفوف المعارضة الليبية، بعد أن نهبوا موارد البلد، وحققوا الإثراء على الصعيد الشخصي، وعلى حساب الشعب الليبي. إنهم المتهمون الأساسيون في انتشار جرائم الفساد، ومحاباة الأقارب، وانتهاكات حقوق الإنسان التي عرفها البلد إبان السنوات الأخيرة».

وأخيراً، تتجلى قمة النفاق في انخراط مقاتلين ليبيين من تنظيم القاعدة في صفوف المتمردين.

*** نستخلص من ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية التي تتظاهر بأنها تقاتل الإرهاب الإسلامي في كل أنحاء العالم، هي من يدعم القاعدة في ليبيا؟ يقال إن الرئيس نيكولا ساركوزي كان يمد الإرهابيين بالسلاح عبر عمليات إسقاط جوي، إنها تهمة خطرة!**

إلّا أنها الحقيقة. في تسعينيات القرن الماضي تشكلت الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة في أفغانستان. ولمّا تسلّمت حركة طالبان السلطة، عاد معظم

هؤلاء المقاتلين إلى ليبيا، وقد أعدوا العدة لاغتيال القذافي، وإنشاء إمارة إسلامية. فما كان من القذافي، في ذلك الحين، إلّا محاربتهم بقوة، وتمكن من ذلك، بمباركة من القوى الغربية آنذاك.

غير أنه، وكما قال هنري كسنجر: «ليس للقوى العظمى أي مبادئ تحترمها، إنما هي مصالح خاصة تسعى إلى تحقيقها». لذلك لم يتوانَ حلف الناتو (منظمة دول حلف الشمال الأطلسي) عن التحالف مع هؤلاء المقاتلين الإسلاميين للإطاحة بالقذافي.

بين زعماء المتمردين، كان هناك عبد الهادي الحصادي الذي قاتل في أفغانستان والعراق ضمن جماعة القاعدة، ثم أُلقي القبض عليه في باكستان عام ٢٠٠٢، واعتقل في أمريكا، ثم رُحّلَ إلى ليبيا، عام ٢٠٠٨، حيث أُطلق سراحه. اعترف الحصادي أنه جَنَّد أعضاءً من القاعدة لمقاتلة القذافي، وأضاف موضحاً: «يتألف تنظيم القاعدة من جماعة مسلحة، تقاتل ضد المحتل».

وهذا الأمر لا يخفى على أحد، لقد أكّد الأميرال ستافريديس، القائد الأعلى لحلف الناتو «أن هناك العشرات من مقاتلي الجماعة الإسلامية الليبية، ممن يشاركون المتمردين في جهودهم لقلب نظام القذافي»، وأوضح قائلاً «لكنهم يقومون بذلك بصفة شخصية».

*** لقد قالوا لنا، مع ذلك، إنها حرب عادلة وشرعية وحاصلة على تأييد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.**

لو أنك اطلعت على الحملة الدعائية، فهي تعلن عن مشروعية وعدالة الحروب التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها، سواء كانت الحرب التي نشبت في يوغسلافيا، أم في أفغانستان، أم في العراق، أم تلك

التي في ليبيا في الآونة الأخيرة. إنما في حقيقة الأمر، تعتمد كل تلك الحجج المقدمة على سلسلة من الأكاذيب.

ففي الحرب على ليبيا، ادّعى هؤلاء استخدام القذافي للعنف في قمعه للحركة الشعبية، وأنه أقدم على قصف شعبه بالقنابل، مزهقاً بذلك أرواح ستة آلاف نفس بشرية. أما المصدر الوحيد الذي أدلى بهذا الرقم الزائف، فهو علي زيدان الذي نصّب نفسه المتحدث الرسمي باسم رابطة ليبيا للدفاع عن حقوق الإنسان. إذ إنه لم يكن لعلي زيدان أي نشاط يذكر ضمن هذه الرابطة قبل نشوب الصراع. هذا الرجل ليس سوى الناطق الرسمي باسم المجلس الوطني الانتقالي في أوروبا. فلم يكن من وسائط الإعلام الغربية إلا نقل كلام أحد الأطراف المتصارعة، دون التحقق منه، إنما جاءت التحقيقات في وقت لاحق، داحضة لهذه الرواية بعد أن اتُّخذتْ ذريعة لشن الحرب على ليبيا.

*** إذاً ما الذي حصل في حقيقة الأمر؟**

بادرت الكتيبة التابعة لإمرة خميس، أحد أبناء القذافي، إلى قمع المظاهرات التي قامت في بنغازي، ما عرضه لانتقادات حادة من قبل الحكومة، فتدخل العقيد القذافي، ودعا صراحة إلى عدم إطلاق النار على الحشود.

وعلى عكس ما أكده علي زيدان، لم تسفر أعمال القمع هذه عن ستة آلاف قتيل، بل يشير تقييم المراقبين، ومنهم منظمة العفو الدولية، أن عدد الضحايا قد تراوح بين ١٠٠ - ١٥٠ قتيلاً. إنه رقم كبير، لكنه بعيد جداً عن المجزرة التي أعلن عنها علي زيدان. إضافة إلى ذلك، لم يتم الحصول على أي دليل يؤكد أن القذافي أمر بقصف مدينتي بنغازي وطرابلس بالقنابل.

من جهته، أبلغ المركز الدولي للأبحاث والدراسات المتعلقة بالإرهاب، وبتقديم المساعدات لضحايا الإرهاب، الذي يرأسه المدير السابق الفرنسي للاستخبارات: «عن انتقال اللجنة إلى الموقع، وعدم ملاحظتها لأي شيء من هذا القبيل. لم تسقط أي قنبلة ليبية على العاصمة (...)، فجاءت نتيجة المعلومات المضلِّلة واضحة، لقد سبق أن تم التصويت على القرار من قبل الأمم المتحدة (...) دون قدوم أي لجنة إلى الموقع لإجراء التحقيق اللازم.» فضلاً عن قيام الأقمار الصناعية الروسية التي تراقب السماء الليبية باستمرار، بتكذيب المعلومات المضلِّلة حول قصف القذافي للمدن الليبية بالقنابل.

*** ألم يتعهد سيف الإسلام، أحد أبناء القذافي، بإغراق البلد بأنهار من الدماء؟ لقد نُقلت تصريحاته عبر البرامج الإخبارية المتلفزة، مما أصاب الكرة الأرضية بالصدمة.**

هنا أيضاً، نحن بصدد تشويه فاضح للوقائع، قامت به وسائط الإعلام الغربية. لم يكن تصريحه في الواقع سوى دعوة إلى التفاوض، فقد قال: «إن ليبيا اليوم تقف على مفترق طرق، إما أن نتفاهم فيما بيننا على مجموعة إصلاحات، وإما أننا سنذرف الدموع، ليس فقط على ٨٤ قتيلاً بل على الآلاف، وستجري في ليبيا أنهار من الدماء». لقد كان سيف الإسلام صائباً في رأيه، فقد تسبب قصف دول حلف الشمال الأطلسي بإسقاط عشرات الآلاف من الضحايا.

*** هل كان القذافي وأبناؤه مستعدين للمفاوضات؟**

اقترحت كل من منظمة الوحدة الأفريقيّة ودول أمريكا اللاتينية وساطة، كان من المفترض أن يشارك فيها رئيس الولايات المتحدة السابق جيمي كارتر، فوافق القذافي، في حين رفض كل من المتمردين وفرنسا

والولايات المتحدة الأمريكية. اقترح القذافي وقفاً لإطلاق النار، وطالب بإرسال مفتشين دوليين، فقوبل طلبه بالرفض، مدعين أنه لا يحترم اتفاق وقف إطلاق النار. اقترحت الحكومة الليبية من جانبها إجراء استفتاء حول مغادرة القذافي بإشراف مفتشين دوليين، فرفض المتمردون ودول حلف الشمال الأطلسي هذا الاقتراح مجدداً. وأخيراً تدخل ممثلو القبائل الليبية، وعرضوا وساطتهم، فقوبل طلبهم بالرفض من قبل المتمردين.

*** في السادس والعشرين من شهر شباط ٢٠١١، صوّت مجلس الأمن على قرار لإنشاء منطقة حظر جوي في سماء ليبيا بناءً على طلب من آلان جوبيه، يدخل هذا القرار ضمن نطاق الأعمال العسكرية. فإذا كانت جميع القرارات السلمية غير ملزِمة، ألا يُعدُّ هذا القرار خرقاً لميثاق الأمم المتحدة الذي ينص على اللجوء إلى القوة العسكرية كآخر الحلول؟**

تماماً. جاء هذا القرار منافياً للمبادئ الأساسية للميثاق برفضه لاقتراحات التفاوض. يضاف إلى ذلك أنه جرى التصويت على هذا القرار بدعوى تقديم الحماية للشعب الليبي، لكن البلد كان يخوض حرباً أهلية. في واقع الأمر، كان هناك تطور سريع في طبيعة حركة الاحتجاج في بنغازي، كما أشار إلى ذلك التقرير الصادر عن المركز الدولي للأبحاث والدراسات المتعلقة بالإرهاب وبتقديم المساعدات لضحايا الإرهاب، وقد جاء فيه: «لقد استغل الإسلاميون والمجرمون الأوضاع السائدة منذ بداية المظاهرات، واقتحموا سجون الأمن الرئيسة خارج مدينة بنغازي، حيث كان زملاؤهم مسجونين. وبعد تحرير زعمائهم، اقتحم هؤلاء المتمردون مراكز الشرطة والمباني الرسمية، ليستيقظ أهل المدينة في اليوم التالي على جثث رجال الشرطة، معلقة على الجسور، بعد أن أعدموا شنقاً». ثم استولى المتمردون

على السلاح، وبدؤوا بمقاومة القوات التابعة للقذافي. تشير أقوال الشهود إلى وجود قوات خاصة أوروبية وأخرى قطرية في الساحة، وبشكل مسبق. بيد أنه، وفي مثل هذه المواقف، هناك بند في ميثاق الأمم المتحدة يحظر التدّخل لتقديم الدعم لأحد الطرفين.

فإذا كان قرار الأمم المتحدة قد انتهَك الميثاق، فإن هذا القرار بدوره كان عرضة للانتهاك أيضاً. فعلى الصعيد الرسمي، توجب على قوات الناتو إنشاء منطقة حظر جوي منعاً من قصف القذافي لشعبه. لم نحصل قط على دلائل تشير إلى هذا القصف، هذه النقطة الأولى. ثم بدا جلياً أن قوات الناتو عندما جاءت إلى ليبيا، لم تكن تبحث عن حماية المدنيين، بل جاءت بهدف الإطاحة بالقذافي، وهذه هي النقطة الثانية. لقد صرّح رئيس الوزراء البلجيكي إيف لوترن، في الأول من شهر مارس، أن الهدف من تدخل قوات حلف الناتو يكمن في إزاحة الرئيس الليبي، ليتبعه اعتراف آلان جوبيه في شهر يونيو: «إن القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة لم تطالب برحيل القذافي، بل نحن من طالبنا بذلك». فمن أجل بلوغ هذا الهدف غير الشرعي، عمدت دول حلف الناتو وحلفاؤها إلى تجاهل قرار الأمم المتحدة، وانتهاكه، بإرسال قواتها البريّة وبتسليم السلاح للمتمردين.

*** هل كان الهدف الحقيقي لتدخل دول حلف الناتو العسكري الإطاحة بالقذافي؟ ألم يكن هذا التدخل يهدف إلى حماية المدنيين؟**

بالفعل. كلما أرادت دول حلف الناتو بلوغ مأربها غير الرسمي، ابتعدت عن هدفها الرسمي. لقد أسفر قصف دول حلف الناتو، الذي دام ثمانية أشهر، عن سقوط عشرات الآلاف من الضحايا المدنيين. لم تكن هذه

القوات تهدف إلى تأمين حماية للمدنيين، بل مواكبة تقدّم المتمردين لإحكام سيطرتهم على ليبيا. ففي طرابلس، حيث كانت المقاومة ضد الغزو قوية جداً، عمدت طائرات الحلف إلى إلقاء منشورات تدعو فيها الشعب الليبي للتوقف عن دعم القذافي ومغادرة المدينة. ثم استمر سقوط القنابل على المدينة لأيام عدة على التوالي، ولم تتوقف إلا بعد دخول المتمردين بنغازي.

أما في مدينة سرت، مسقط رأس القذافي، التي كانت آخر معقل للمقاومة، فقد عمل القصف الجوي لدول حلف الناتو على تدميرها بكامل منشآتها الرسمية ومستشفياتها ومدارسها ومساجدها... وكان المخطط يتكرر في كل مرة: قصف جوي مكثّف لدول حلف الناتو، يتبعه تقدم للمتمردين، الذين هم أقل عدداً من رجال المقاومة، لاتخاذ مواقعهم.

*** لماذا أرادت دول حلف الناتو الإطاحة بالقذافي، علماً أن هذا القائد الليبي قد فتح أبواب بلده على مصراعيها أمام الغرب منذ عشرة أعوام؟**

لأسباب عدّة. يأتي في مقدمة الحرب على ليبيا تنافس القوى الأوروبية للاستيلاء على ثرواتها. في حين كانت إيطاليا وألمانيا، الدولتان الأوروبيتان الأكثر إحجاماً عن المشاركة في غزو ليبيا، شريكين اقتصاديين للرئيس القذافي.

في عام ٢٠٠٧، فرش نيكولا ساركوزي السجادة الحمراء تحت قدمي العقيد القذافي، إلا أن انحناءاته لم تلقَ الأثر المنشود، ولم تؤت أكلها، فقد صرّح دبلوماسي فرنسي في برقية، عام ٢٠١٠، نُشِرَتْ على موقع ويكيليكس، مفادها: «لقد تكلمنا كثيراً مع الطرف الليبي، لكننا استنتجنا مؤخراً أن الأعمال لا تواكب الأقوال لديهم، فالليبيون يتكلمون ويتكلمون، لكنهم في النهاية لا يقْدِمون على عقد صفقات تجارية معنا».

لذا أرادت فرنسا بأسلوبها الإمبريالي الصرف، اندلاع هذه الحرب كي تحصل على النصيب الأكبر من الكعكة. من جهته، صرّح علي زيدان صاحب أكذوبة الستة آلاف ضحية، ومنذ الأيام الأولى لبدء قصف دول حلف الشمال الأطلسي على ليبيا، أن الحكومة الجديدة ستأخذ بعين النظر حين منحها للعقود، الدول السباقة التي دعمت المتمردين الليبيين. وبعد أيام قلائل من مقتل القذافي، وصل وفد فرنسي من منظمي المشاريع إلى مدينة طرابلس، للتوقيع على عقود مع الحكومة الجديدة، وإبرام عقود أخرى. ترأس هذا الوفد بيير لالوش، أمين السر المسؤول عن التجارة الخارجية، الذي لخّص الموقف بقوله: «إن الليبيين يدركون تماماً أنهم عندما كانوا في قلب المحنة لم تتهافت الدول على البوابة لمساندتهم، لم يكن هناك إلّانا والإنكليز، وهنا تنتهي الأمور».

*** وماذا عن الولايات المتحدة الأمريكية؟**

استغلت الولايات المتحدة انفتاح الرئيس الليبي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لكنه لم يكن موضع ثقة لديهم، لقد أدركوا أنه لم يغير موقفه السياسي إلّا عندما شعر بالعزلة التامة. أما اليوم، فقد انقضى عهد الهيمنة الأمريكية، وبات العالم متعدد الأقطاب بقيادة الدول الناشئة. كان بإمكان الرئيس القذافي البحث عن داعمين له، لكن بعيداً عن سيطرة الغرب، واتخاذ خطٍّ مناهضٍ للإمبريالية بشكل صريح.

في كل حال، لم يتخلَّ القذافي قط عن موقفه هذا. ففي سبتمبر ٢٠٠٩ في سبيل المثال، اعتلى منصة الأمم المتحدة، وعبّر عن موقفه. ونقلت المحطات الفضائية العالمية رعونته، عندما أقدم على زجر مترجمه، وتوجيه

انتقاد شديد اللهجة للميثاق الأممي. وفي نهاية المطاف، لم يستحوذ خطابه على اهتمام الكثيرين على الرغم من أنه كان فعلاً خطاباً ذا شأن، إذا ما تجاوزنا الظاهر لنمعن النظر في دقائقه.

لقد قال القذافي في خطابه: «لقد نصت ديباجة الميثاق على تساوي جميع الأمم في الحقوق، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، إلّا أن مجلس الأمن عمل على انتهاك هذا المبدأ. فالمقعد الدائم لا يملكه سوى أعضاء دائمين عدة، وهؤلاء هم من يحق لهم ممارسة حق الفيتو. لذا تبقى دول العالم الثالث ناقصة التمثيل، ومضطرة للخضوع لإرادة الدول العظمى». أضاف القذافي أنه لا يجب اللجوء إلى استخدام القوة إلّا في حال وجود مصلحة مشتركة لكل الأمم. إنّما، منذ نشأة منظمة الأمم المتحدة اندلعت ٦٥ حرباً، وكانت في مصلحة عدد قليل من الدول.

*** لا بد أن كلامه لم ينل إعجاب الكثيرين...**

هذا صحيح. لم يكن القذافي تلك الشخصية المتصلّبة والعقائدية، بقدر ما كان شخصية واقعية وعملية، وذلك بخلاف الرأي الذي كنا نميل إليه. لقد أدركت واشنطن ذلك تماماً، لذا لم تمنح ثقتها الكاملة للقائد الليبي. بل، وفي عام ٢٠٠٧، عبّر دبلوماسي أمريكي، مقيم في طرابلس، عن قلقه قائلاً: «لا يزال أولئك الذين يسيطرون على الدائرة السياسية والاقتصادية في ليبيا ينتهجون سياسات من نوع خاص في قطاع الطاقة، تعبّر أكثر فأكثر عن شعورهم القومي».

أرادت الولايات المتحدة الأمريكية الإطاحة بالقذافي من أجل استبداله بزعماء ليبيين يعملون على دعم التقارب مع القوى الإمبريالية. وبالفعل،

عمدت منظمة دول حلف شمال الأطلسي إلى تنظيم انقلاب لتوطين بورجوازية الكمبرادور في الحكم، وتحويل ليبيا إلى مستعمرة جديدة.

*** عمد المجلس الوطني الانتقالي بعد أيام قلائل من مقتل القذافي، إلى الاستيلاء على السلطة بشكلٍ رسمي، وصرّح أن الشريعة الإسلامية ستكون أساس القانون الليبي. ألا يُعدُّ هذا الإجراء تحدياً لدول الغرب؟**

لا أعتقد ذلك. إذ إن دول حلف شمال الأطلسي تعلم يقيناً من هي الأطراف الفاعلة التي قدمت لها الدعم. إنّما ما يثير القلق لا يكمن في لجوء الحكومة المؤقتة إلى عدِّ الشريعة الإسلامية الأساس في الحكم، بل في إصدارها لمثل هذا القرار، دون الرجوع إلى المواطن الليبي. ومع ذلك، يفترض من المجلس الوطني الانتقالي أنه يمثّل ليبيا الجديدة، ليبيا الحرة، ليبيا الديمقراطية. لقد اتضحت الأمور، وظهر أن كل ذلك لم يكن سوى عملية تسترّ. أضف إلى ذلك، ما عمله مصطفى عبد الجليل، رئيس المجلس الوطني الانتقالي، فقد أعطى بعض الأمثلة في المجالات التي ستشهد تطبيقاً للشريعة الإسلامية في دولة ليبيا الجديدة، فقد بدأ بإلغاء الحظر المفروض على مسألة تعدد الزوجات، وقرر التشديد على الشروط التي يباح فيها الطلاق، فمنع بذلك المرأة الليبية من الحصول على الطلاق إلّا بموافقة الزوج. هل أخذ رأي النساء الليبيات في ذلك؟ إنها عودة إلى الوراء، إلى الفترة التي سبقت نظام القذافي. ومن جهة أخرى، أريد تسويغاً لسياسة دول حلف شمال الأطلسي التي حاربت طالبان بشكل رسمي، من أجل تحرير المرأة الأفغانية، وهي الآن تقدّم دعمها لحكومة كهذه في ليبيا!

*** ينصبُّ جلّ اهتمام القوى العظمى على خدمة مصالحها فهي لا تحترم المبادئ...**

تماماً! ففي واقع الأمر، فتحت دول حلف شمال الأطلسي صندوق الباندورا، إذ إنها بتقديمها الدعم للمقاتلين الإسلاميين في ليبيا، عملت على زعزعة الاستقرار في المنطقة برمتها، ما قد ينعكس سلباً على مصالحها الخاصّة. وقد علّق ماو بهذا الصدد قائلاً: «تعمد القوى الإمبريالية إلى رفع الحجر الكبير، لتلقي به على قدميها».

تساورني الشكوك، على الصعيد الشخصي، حول قدرة الحكومة الجديدة في ليبيا على ضبط شؤون البلد بأكملها. لقد مهدت دول حلف شمال الأطلسي لخلق حرب أهلية، فقد أقدم الليبيون المقيمون في شرقي البلاد على قتل إخوانهم في غربي البلاد، من أجل الاستيلاء على السلطة. هل تعتقد أن آلاف الليبيين الذين فقدوا أفراداً من أسرهم سينصاعون لقبول سلطة الحكومة الجديدة بعد موت القذافي؟ من المؤكد أن ليبيا مقبلة على حالة من الفوضى العارمة.

*** هل تعتقد أنها ضربة قاسية موجّهة إلى مقاولي بيير لولوش؟ في هذه الحال، كيف ستتمكن دول الغرب من الاستفادة من ثروات ليبيا إذا فشلت في إحكام سيطرتها عليها؟**

هذه المشكلة تمس فرنسا بشكل خاص، لكن بصورة شاملة، تأتي حالة الفوضى التي تعيشها ليبيا في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك تأكيداً للمثل القائل: «دمّر البلد الذي لا قدرة لك في السيطرة عليه!» يلخص هذا المثل الاستراتيجية الإمبريالية للولايات المتحدة الأمريكية في

وقتنا المعاصر، إذ تؤْثر واشنطن تدمير البلد، وسلب ثرواته، وإضرام النار فيه، على أن ترى منافسيها من دول الصين والهند أو البرازيل يحققون المكاسب من بترول القذافي.

أما الهدف الثاني، فإنه يتمثّل بصورة أساسيّة في إيقاف حركات التحرر التي تشهدها دول القارة الأفريقيّة. فأرض أفريقيا ملأى بالمعادن الأساسية التي تدخل في إنتاج تقنيات جديدة، ويريد الغرب من جهته ضمان حصوله على هذه المواد الأولية، بتكلفة منخفضة، عن طريق إحكام قبضته على القارة الأفريقيّة. لقد عمد القذافي إلى تسخير العائدات النفطية الليبية لدعم تحرير القارة، واستثمر لذلك مبالغ طائلة من هذه العائدات في صندوق النقد الأفريقي والمصرف المركزي الأفريقي، بانتهاجه طريقة الدول التقدمية في أمريكا اللاتينية، في سبيل تقديم البديل لأعمال الابتزاز التي يقوم بها كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

فضلاً عن ذلك، استثمرت ليبيا عائداتها النفطية في عدد من البلدان الأفريقيّة. ففي أوغندا في سبيل المثال، كانت تصَدّر القهوة المنتجة محلياً إلى ألمانيا من أجل إضفاء الطابع التجاري عليها، فوفّر الليبيون التمويل اللازم من أجل إنشاء المرافق المحليّة، لوضع اللمسات الأخيرة على المنتج، ما أدّى إلى رفع مكاسب الشعب الأوغندي من ٢٠**%** إلى ٨٠**%!**

وهناك مثال آخر بليغ في مدلوله، لم تكن أفريقيا تمتلك حتى وقت قريب ساتلاً للاتصالات، خاصاً بها، بل كان عليها الحصول عليه عن طريق أوروبا، فكانت الفواتير التي تسددها لأوروبا باهظة التكاليف، وبالمناسبة، لا يفوتنا هنا أن نشير إلى المبالغ الطائلة التي كان الأوروبيون يحصلون عليها

من هذه الفواتير. أرادت أفريقيا تطوير ساتل الاتصالات الخاص بها، لكن المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي كانا يترددان في منحها القروض اللازمة لتنفيذ هذا المشروع، مما دفع القذافي، في عام ٢٠٠٦، إلى وضع مبلغ ٣٠٠ مليون دولار على الطاولة، في حين وضع مصرف التنمية الأفريقي من جهته، مبلغاً وقدره ٥٠ مليون دولار، ووضع مصرف التنمية لغرب أفريقيا مبلغ ٢٧ مليون دولار، حينها تمكنت أفريقيا من إنشاء ساتل للاتصالات خاص بها. لم يعمل القذافي على تخفيف عبء فواتير الهاتف على الأفريقيين فحسب بل كان لهذه المبادرة أثرها الهائل في العديد من المجالات، كالإعلام، والتطبيب عن بعد والتعليم عن بعد.

*** غير أن القذافي لم يكن دوماً كريماً مع إخوانه الأفارقة، ففي السبعينيات من القرن الماضي عمد إلى غزو دولة تشاد. ما الذي دفعه إلى ذلك؟**

تلك كانت غلطة فادحة ارتكبها القذافي. فقبل أن ترسم القوى الاستعمارية الحدود المصطنعة لدولة تشاد، كانت قبيلة السنوسيين تسيطر على قطاع أوزو شمالي البلاد. إضافة إلى ذلك، لما كانت ليبيا ترزح تحت نير الاحتلال الإيطالي في الثلاثينيات، حاول الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية، بيير لافال، مساومة موسوليني ليتنازل له عن قطاع أوزو، غير أن الدكتاتور الإيطالي آثر التقرّب إلى هتلر، ولم تتم عملية المصادقة على هذا الاتفاق.

ضمّ القذافي في سبعينيات القرن الماضي هذا الإقليم، مدعياً أنه يتبع تاريخياً للأراضي الليبية، فسارعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، ومصر السادات، والسودان وغيرها من القوى الرجعية في المنطقة،

إلى مضافرة جهودها لدعم الجيش التشادي، ودحر القوات الليبية عن المنطقة.

لم يبدِ القذافي اهتمامه لتوحيد دول أفريقيا، وتحرير القارة الأفريقيّة إلا فيما بعد، وبالتحديد في التسعينيات. لقد أدرك في وقت من الأوقات عجزه عن الوقوف بمفرده في وجه الولايات المتحدة الأمريكية، كما سبق وشهدنا ذلك، فما كان منه إلّا الأخذ بزمام الأمور، في محاولة منه لمتابعة مشروع عبد الناصر، في توحيد الدول العربية، ولما باءت جهوده بالفشل، التفت إلى الداخل الأفريقي لتنفيذ هذا المشروع. كان يقول: «لقد بتُّ الليل مع خمسة ملايين ليبي، وصحوت مع تسعمئة مليون أفريقي». بدءاً من ذلك الوقت، قرر الإسهام، وبسخاء، في وضع القارة الأفريقيّة على طريق التحرر. لذا لم تأتِ معارضة الدول الأفريقيّة الشديدة لتدخل قوات حلف شمال الأطلسي في ليبيا من فراغ. لقد أدركت هذه الدول أن الحرب على ليبيا إنما هي حرب تشنها الدول الاستعمارية ضد القارة الأفريقيّة برمتها.

*** شهدت الحرب الليبية انقسام حلف اليسار. ما رأيك في هذا؟**

يوجد العديد من التوجهات. نذكر في مقدمتها انطلاق بعضهم من معلومات مغلوطة، بتقديمهم الدعم للمجلس الوطني الانتقالي، ظناً منهم أن هذا المجلس قادر على إدخال الديمقراطية في البلد، وكان لبراعة وسائط الإعلام في تسويغ الأحداث، وإدخالها ضمن هذا المفهوم الغامض للربيع العربي الأثر الأكبر، فقد سادت حالة من الغليان بعد ثورات تونس ومصر، وانجرف كثيرون في هذا التيار، بعد أن شاع خبر قمع القذافي للحركة الشعبية، وحقيقة دعم القذافي لزين الدين بن علي في بداية الأمر لم تصلح

شيئاً في القضية. أما أولئك الذين اعتقدوا أن أحداث بنغازي مشابهة لأحداث تونس أو القاهرة، فإن معرفتهم بالعالم العربي عامة، وبليبيا على وجه الخصوص، محدودة جداً.

ومن ناحية أخرى، إذا كنا قد نسينا أن هذا التدخل العسكري يعتمد على أكذوبة، فإنه يمنح حق «التدخل الإنساني»، وهذا مناف تماماً لمبادئ القانون الدولي برمتها. فلماذا تم التدخل في ليبيا، في حين لم يتم التدخل في البحرين أو في اليمن؟

*** قد يجيب بعضهم أنه لا يمكن التدخل في كل مكان، لكن على الأقل «تم تقديم العون» للشعب الليبي.**

بهذا التسويغ يتم إضفاء صفة الشرعية على الأعمال التعسفية. يجب على هؤلاء أن يستيقظوا من حالة السبات التي غرقوا فيها، إذ لم يحصل قط أن تدخلت قوى حلف شمال الأطلسي لتقديم المساعدة للشعوب. ففي الوقت الذي كانت فيه صواريخ وقذائف حلف الناتو تقصف ليبيا «من أجل تحريرها»، كانت القوات السعودية تدخل الأراضي البحرينية من أجل قمع الحركة الشعبية، وتمّ ذلك بتأييد من دول الغرب!

من جهته، أوضح جان بريكمون الذي برع في تحليل قانون «التدخل الإنساني»، أن هذا النوع من التدخّل لا يميل إلى إقرار السلام في العالم، بل على العكس، يساعد في إشاعة حالة من الفوضى الدائمة. فقد صرّح بريكمون: «في حال تطبيقنا لمبادئ» التدخل الإنساني «التي يرتكز عليها الهجوم على ليبيا، فإننا بهذا نفسح المجال أمام كل القوى العسكرية للتدخل

في أي مكان. لنتصور مثلاً تدخل الروس في البحرين، أو تدخل الصين في اليمن، سيؤدي ذلك حتماً إلى اندلاع حرب شاملة ومستمرة».

*** توجد شخصيات اتخذت موقف المعارض من تدخل حلف الناتو، ومن القذافي في آن واحد.**

هذا الموقف ليس بالغريب، بل نجده في كل النزاعات. يعرف أولئك بأنصار وداعمي «اللاءات»، بمعنى أنهم بمواقفهم لا يميلون إلى دعم الولايات المتحدة، ولا يميلون إلى دعم صدام حسين، ولا يناصرون إسرائيل، ولا يناصرون حماس، وفي هذه المرة لا يؤيدون حلف الناتو، ولا يؤيدون القذافي. يتسم هذا الموقف بالجبن. هناك دوماً في مثل هذا النوع من النزاع جهة معتدية، وجهة معتدى عليها. أما أن تميل إلى اتخاذ موقف حيادي، فهذا يعني أنك تؤيد الجهة المعتدية، وتترك المجال مفتوحاً أمامها دون حدود. وهذا تماماً ما تصبو إليه الجهة المعتدية. يذكّرنا هذا الموقف بالعبارة الشهيرة التي قالها هوارد زين : «لا يمكنك البقاء ثابتاً على متن قطار متحرك».

*** ألم تكن هناك ردة فعل لدى بعضهم لدعم القذافي من الناحية الأيديولوجية، ولو من أجل موقفه المناهض للإمبريالية؟ خوفاً من إغفال التطلعات الشرعية للشعب الليبي على الأقل...**

إن مجرد التفكير بتقديم الدعم للقذافي، انطلاقاً من موقف عقائدي، هو في حقيقة الأمر... موقف عقائدي بحد ذاته. يجب تجاهل الملصقات الأيديولوجية، والانتقال إلى تحليل الموقف بطريقة عملية وواقعية. فأنا لم أعارض التدخّل العسكري لدول حلف شمال الأطلسي، والدمى المتحركة

التابعة له، التي تعمل من داخل المجلس الوطني الانتقالي من أجل إرضاء القذافي، بقدر ما أعارضه بدافع القلق على مصير الشعب الليبي نفسه. ففي غضون ثمانية أشهر، تجاوز عدد الضحايا التي سقطت من جراء قصف حلف الناتو، عدد الضحايا التي خلفها القذافي طيلة فترة حكمه التي استمرت اثنين وأربعين عاماً. لقد تعرّض هذا البلد وشعبه للكثير من الآلام. ولم يستحدث المجلس الوطني الانتقالي إلا بهدف تدمير دولة الرفاه في ليبيا، لوضع حد لتمويل حركات تحرر الدول الأفريقيّة ودعمها.

من جهة أخرى، ارتكب المتمردون أعمالاً وحشية مروعة ضد السكان الزنوج في ليبيا، لكن بالطبع، لم تُعرض هذه الجرائم على شاشات التلفزة الغربية، ومع ذلك حدثت فظائع رهيبة، يمكنك مشاهدتها على شبكة الإنترنت. لقد أُعدم كثيرون منهم شنقاً دون محاكمة، على أيدي الجماهير المحتشدة في الساحات العامة، بسبب لون بشرتهم. وبالنتيجة، إذا لم تكن موافقاً على كل الأعمال التي قام بها القذافي، فإنه يتحتم عليك أن تدرك أن وضع الليبيين سيتفاقم مع الحكومة الجديدة. إذ لا يمكنك إنشاء دولة حرة وديمقراطية فوق دماء إخوانك، وفي ظل مخالب القوى الإمبريالية.

لقد شاهدنا في بداية الاحتجاجات التي اندلعت في بنغازي كيف تظاهر بعض الشبان ضد القذافي، بعد أن استلهموا من فكر إخوانهم في مصر وتونس، لكنهم في الوقت نفسه، حملوا لافتات يطلبون فيها من حلف الناتو عدم التدخل. هذه المبادرة كانت شرفاً لهم. إذ لا يمكنك أن تعمل على تطوير بلد مستقل، في حين هو خاضع لنير القوى الإمبريالية العظمى. أذكر أن والدي كان ينتمي إلى صفوف المقاومة الإثيوبية، وناضل في بداية

القرن العشرين ضد الإمبراطور هيلا سلاسي لإقامة نظام ديمقراطي في إثيوبيا، لكنه لم يتوانَ عن انضمامه إلى صف هذا الإمبراطور، لقتال القوات الإيطالية الأجنبية التي شنّت حملة لغزو البلاد في الثلاثينيات، فالشعب الإثيوبي كان الوحيد القادر على إحداث تغيير في النظام السائد في البلاد. كذلك الأمر لشعب ليبيا، فهو الوحيد القادر على الإطاحة بالحكومة. إنّما، في حقيقة الأمر، لم يكن عدد الذين يطالبون برأس القذافي كبيراً، كما لم يكن لديهم الدعم الكافي لدى صفوف الشعب لتحقيق رغبتهم.

*** على عكس وضع القذافي؟**

كان يتمتع بمكانة شعبية تفوق الصورة التي أرادوا إقناعنا بها. لقد رأينا في الفصل السابق أن الشعب التونسي أبدى تعاطفاً أكبر مع بورقيبة، بالمقارنة مع بن علي، فعُرف عن الأول أنه «المجاهد الأكبر»، وأنه كان رمزاً للاستقلال. كذلك الأمر للقذافي، فهو يمثل رمزاً لثورة ١٩٦٩. إنه ذلك الضابط الشاب الذي تجول في جميع أنحاء البلاد كالخنفساء، ليلتقي الشعب، إنه ذلك الشاب الذي أطاح بنظام الملك إدريس الإقطاعي ليسخّر عائدات النفط في خدمة الشعب الليبي. فلو استحوذ أحد أبنائه على زمام السلطة في البلاد، لكان أمر الإطاحة به أكثر سهولة، لكن القذافي كان يمتلك الشرعية التي كان كل من آل بن علي وآل مبارك يفتقدانها، فلماذا إذاً لم يحتج الأمر في تونس وفي مصر سوى بضعة أسابيع، ومن دون اللجوء إلى العنف لقلب نظام الحكم، في حين احتاج الأمر إلى ثمانية أشهر وآلاف القذائف من دول حلف الناتو في ليبيا؟

وأخيراً، لماذا تظن أن المجلس الوطني الانتقالي دفن جثمان القذافي في مكان سري وسط الصحراء الليبية؟ خشية من الحكام الجدد، لئلا يتحول قبر القائد إلى مزار، ويلجأ الآلاف من الليبيين إلى تكريمه، والتعبير عن تقديرهم له. إذ كانت تلك الصور ستتناقض مع الدعاية التي تتكرر على مسامعنا، التي تدّعي أن ليبيا صرخت من الفرح حين مقتل العقيد القذافي. هذا ليس صحيحاً. خلافاً لبن علي ولمبارك وغيرهما من الحكام، الذين شهدهم التاريخ، لم يكن القذافي ذلك الحاكم الجبان الذي آثر الهروب، لقد بقي ليقاتل قوات الاحتلال حتى آخر رمق. ونتيجة لموقفه هذا، أُعدم من دون محاكمة، ثم اغتيل برصاصة في الرأس، على أيدي المتمردين ومرتزقة حلف الناتو.

*** لقد حرم القذافي من حقه في المحاكمة، ومرة أخرى أسهمت الأساليب التي اتبعها المجلس الوطني الانتقالي في جعل القذافي حليفاً محرجاً لدول الغرب.**

تم تداول صور إعدام القذافي بلا محاكمة على الشابكة، ولم يتمكن المجلس الوطني الانتقالي من إخفاء الحقيقة لفترة أطول. لقد ادّعى أعضاء هذا المجلس أن موت القذافي جاء نتيجة تبادل إطلاق النار، لكن كل العالم استطاع أن يكشف زيف هذا الادعاء. لقد جرى تداول مقاطع الفيديو التي رأينا فيها القذافي لا يزال حياً يتلقى الإهانات من الحشود التي كانت تجره من شعره، وتصوب إليه اللكمات... قبل أن يُغتال برصاصة في رأسه.

افتخر هؤلاء المتمردون بارتكابهم لهذه الجرائم، فصوروا مقاطع لمآثرهم عبر الهواتف النقالة ثم نشروها على الشابكة. يبدو الوضع مزعجاً، إذ إن الرأي العام العالمي لم يتقبل هذه الأمور. لقد وضع هذا العمل

الوحشي حداً لكفاح رسمي، قاده العقيد القذافي باسم الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان. غير أن موت القذافي لم يأت بالمصادفة. لقد رحّب به معظم حكام الغرب، دون إخفاء شعورهم بالاغتباط. أما هيلاري كلينتون، فقد مثّلت قمة الفجور عندما صرّحت بكل بساطة : «لقد أتينا، وشاهدنا، وقد مات!» ثم انفجرت ضاحكة.

في الحقيقة، حين القضاء على القذافي، شعر عدد كبير من زعماء دول حلف الناتو وأعضاء المجلس الوطني الانتقالي بالغبطة والارتياح. بل، وحسب التسريبات التي جاءت بها الصحيفة الأسبوعية الساخرة «البطة المقيّدة»، التي تصدر في فرنسا، أن ضباطاً من البنتاغون والمخابرات الفرنسية كانوا على تواصل في اللحظة التي أُخرج فيها من مخبئه في سرت، واتفقوا على تصفية الحاكم الليبي، حيث صرح الضابط الأميركي: «إننا إذا تركنا هذا الإنسان في قيد الحياة، فإنه سيتحول إلى قنبلة ذرية حقيقية». كان يجب منع القذافي بأي ثمن من اعتلاء المنصة في أثناء قضيته. كان لدى هذا القائد الليبي الكثير ليقوله عن بعض الحكام الغربيين وأعضاء المجلس الوطني الانتقالي لفضحهم. كان ينبغي أيضاً منع قيام مظاهرة يقودها مؤيدو القذافي الذين لم يكن يستهان بعددهم.

غير أن الانقسامات التي باتت تهدد استقرار ليبيا لا يمكن دفنها مع العقيد القذافي في عمق الصحراء. يُعد القذافي لدى كثير من الليبيين شهيداً وبطلاً للمقاومة، على غرار عمر المختار «المقاتل الأسطورة» الذي تحدى المستعمر الإيطالي.

قائمة المراجع:

- Jonathan Bearman, *Qadhafi's Libya*, Zed Books, 1986
- Max Boot, *The Savage Wars Of Peace: Small Wars And The Rise Of American Power*, Basic Books, 2002
- Michel Collon, *Libye, Otan et médiamensonges. Manuel de contre-propagande*, Investig'Action- Couleur livres, 2011
- Jean Bricmont, *Impérialisme humanitaire. Droits de l'homme, droit d'ingérence, droit du plus fort ?* Edition Aden, 2005.

المحيط الهندي
هنا تدور مجريات المعركة الكبرى بهدف السيطرة على العالم

يا تُرى، هل يتم اليوم الإعداد للمقامرة بمصير العالم من منطقة المحيط الهندي، تلك المنطقة التي تربط قارة آسيا بالجهة الشرقية من قارة أفريقيا وصولاً إلى أستراليا؟

يعيش في قارة آسيا قرابة ٦٠% من سكان العالم. تعمل كل من الهند، والصين بشكل خاص، التي تعيش في هذه الأيام نمواً اقتصادياً غير مسبوق، على زعزعة موازين القوى في العالم. إذ تستقطب بكين حالياً دول الجنوب، وبالتحديد دول أفريقيا عن طريق تقديمها لعروض مغرية، بصفتها شريكاً جديداً. ما دفع الولايات المتحدة الأمريكية التي باتت تعيش حالة قلق نتيجة الوضع المتدهور الذي تعانيه، إلى التساؤل: كيف تحافظ على دورها الرائد في العالم كزعيم مهيمن بلا منازع؟ علماً أن ٧٠% من عمليات التبادل التجاري العالمي للنفط تمر عبر المحيط الهندي، هذا المحيط الذي بات مضطرباً من جراء الصراعات المتفجرة التي يشهدها العالم في كل أرجائه. ما العامل المشترك الذي يربط هذه النزاعات الساخنة ببعضها؟ يا تُرى، هل يعزى ذلك إلى ارتقاء بكين؟ أم إلى الإستراتيجية المتحفظة التي

تعد لها واشنطن في الخفاء؟ أو أنه خطر «القوس الإسلامي» الذي يحيط بهذا المحيط؟

ثمّة أمر مؤكّد، لقد تحولت هذه المنطقة إلى مركز ثقل إستراتيجي جديد، على مستوى الكرة الأرضية، على الرغم من حالة الغفلة التي لا يزال يعيشها الأوروبيون.



المحيط الهندي: الحوض الذي يشهد اضطرابات حادة

١ - مدغشقر: انقلاب عام ٢٠٠٩.

٢ - الصومال: تفتقر إلى وجود دولة منذ ١٩٩٢.

الحرب الدائرة بين إثيوبيا والمحاكم الشرعية.

أعمال قرصنة.

٣- إريتريا: توترات مع إثيوبيا

صراع مسلح على الحدود عام ٢٠٠٨

٤ - اليمن: عصيان مسلّح، وتدخل عسكري سعودي عام ٢٠٠٩.

انتفاضة عام ٢٠١١.

٥ - البحرين: اندلاع ثورة شعبية، قُمعت على أيدي قوات المملكة العربية السعودية.

٦ - العراق: غزو أميركي عام ٢٠٠٣.

٧- إيران: عصيان مسلح في بلوشستان.

٨- أفغانستان/ الباكستان

صراع مسلّح بين دول حلف الناتو وطالبان.

٩ - الهند: عصيان ماوي المسلّح.

توترات في كشمير.

١٠ - ميانمار: اضطرابات سياسية.

١١ - تايلاند: انقلاب عام ٢٠٠٦.

١٢ - سيريلانكا: أعمال قمع ضد المناضلين من أجل استقلال التامول عام ٢٠٠٩.

١٣ - إندونيسيا: توترات طائفية.

حركات انفصالية في أتشه.

حركات انفصالية في غينيا الغربية الجديدة.

*** مدغشقر، الصومال، اليمن، باكستان، ميانمار، تايلاند... يبدو حوض المحيط الهندي حافلاً بالأحداث المضطربة! هل ثمّة قاسم مشترك بين هذه التوترات؟**

نعم، تعيش موازين القوى، على الصعيد العالمي، اضطرابات خطرة. وتتوسط منطقة المحيط الهندي هذه العاصفة الجيوسياسية.

*** دعنا بادئ ذي بدء نحدد المنطقة التي نتحدث عنها...**

نحن نتحدث عن كامل المنطقة الساحلية التي تحدّها أفريقيا من جهة الغرب، وميانمار، وإندونيسيا وأستراليا من جهة الشرق، وايران والهند وباكستان من جهة الشمال، وفيها حوض (بحر قزوين)، وتطل على ثلاثة أبحر: الخليج العربي، والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط.

*** ما الذي يضفي على هذه المنطقة كل تلك الأهمية؟ فالأوروبيون يؤثرون التفكير في المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ...**

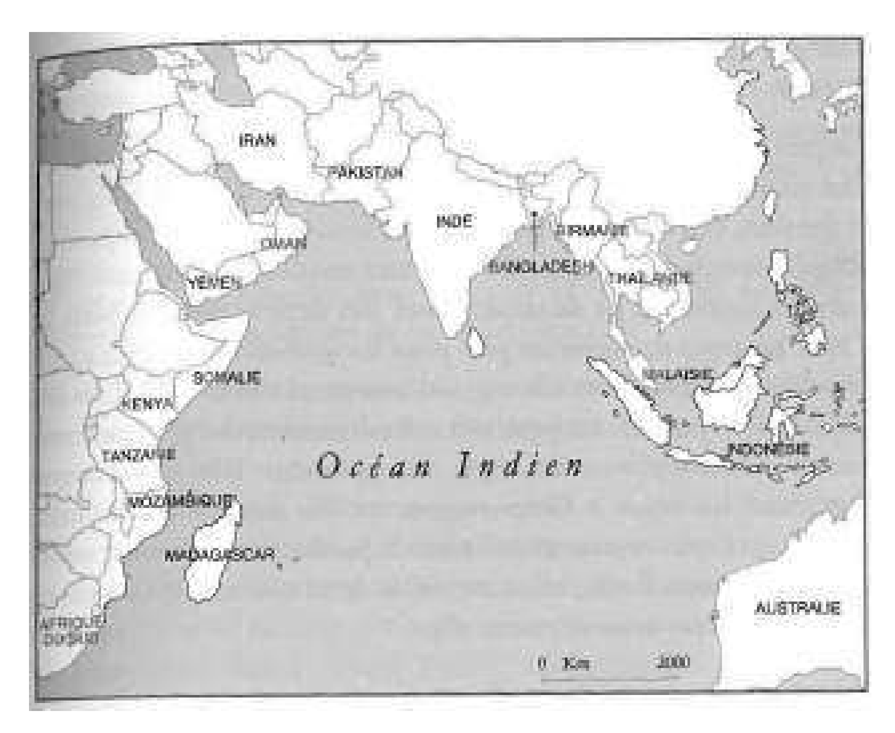
يعود السبب في ذلك إلى تمركز أكثر من ٦٠% من سكان العالم في آسيا، وهم على اتصال مباشر بالمحيط الهندي. وتستأثر كل من الصين والهند بنسبة ٤٠% من سكان العالم. إضافة إلى ذلك، فقد أصبح المحيط الهندي منطقة إستراتيجية مهمّة بسبب النمو الاقتصادي لهاتين القوتين. وها هي ذي اليوم ناقلات النفط العالمية تعبر عن طريق هذا المحيط بواقع ٧٠%، ويتوقع تزايد هذه النسبة المئوية بالتزامن مع نمو هذين البلدين. من المعلوم أيضاً أن نسبة ٩٠% من التجارة العالمية تتم بوساطة السفن التي يمر نصفها عبر المحيط الهندي.

*** نحن نعتمد عادة على تقييم الدول، لكنك تقول إن العلاقة التي تربط هذه الدول لا تقل أهمية.**

نعم. وكما تنبأ الإعلامي الأميركي روبير د. كابلان، أحد المستشارين المقربين من أوباما ومن وزارة الدفاع الأمريكية، إذ قال إنّ المحيط الهندي سيتحول عما قريب إلى مركز الجاذبية العالمية في القرن الحادي والعشرين. ليس فقط لكونه ممراً حيوياً للتبادل التجاري ولتبادل موارد الطاقة بين منطقة الشرق الأوسط وشرقي آسيا، إنما لكونه أيضاً يقع في قلب المحور الاقتصادي الآخذ في النمو بين دولة الصين من جهة، وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من جهة أخرى.

*** هل نستنتج من ذلك أن نمو العلاقات التجارية الجديدة ما هو إلّا إشارة إلى بدء تحرر دول الجنوب من تبعيتها لدول الغرب؟**

هذا صحيح. هناك من الأرقام ما يثير الجزع، لقد تضاعفت نسبة التبادل التجاري بين الصين ودول أفريقيا عشرين مرة، عما كانت عليه منذ ١٩٩٧، وأربع عشرة مرة بين الصين وأمريكا اللاتينية، عما كانت عليه في السابق، في أقل من عشرة أعوام! وها هو ذا معدّل التعاون بين الهند والبرازيل من جهة، ودول القارة السمراء من جهة أخرى، يتزايد يوماً بعد يوم. لقد أسهم نمو الصين في مضاعفة أرقام الاستثمارات بين دول الجنوب بشكل سريع. فبعد عمليات السلب والتخريب التي تعرضت لها دول الجنوب لقرون طويلة، ها هي ذي أخيراً تصحو من سباتها العميق.



المحيط الهندي، مركز الثقل الإستراتيجي الجديد للقرن الحادي والعشرين

* ما السبب الذي يدفع كثيراً من دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى التحول إلى دولة الصين؟

لقد مارست دول الغرب، على مدى قرون طويلة، عمليات السلب والنهب لموارد دول الجنوب، ما أعاق عملية التطوّر فيها. ولا تزال على هذه الحال حتى يومنا هذا، ويتجلى ذلك، على وجه الخصوص، بالديون التي تفرضها بشكل غير شرعي، من أجل تمويل نفقات عديمة الفائدة، بل حتى ضارّة، كعملية دعم الحكام المستبدين، أي إنها تفرض ديوناً جائرة على هذه الدول. في حين أن الصين تقدم أسعاراً منافسة لدول الجنوب مقابل شرائها للمواد الأوليّة، وللمنتجات الزراعية التي تحتاجها بشكل كبير، كما أنها

تستثمر أموالها في هذه الدول، بهدف تطوير البنية التحتية فيها، وبرامج الرعاية الاجتماعية، أو لإقامة مشاريع الطاقة الصديقة للبيئة. إضافة إلى ذلك، عملت الصين على إلغاء الضرائب على منتجات عدّة تستوردها من دول أفريقيا مما حثّ على التوسع في الإنتاج والتجارة في هذه القارة. وأخيراً، ألغت الصين ديونها المستحقة على الدول الأفريقيّة الأكثر فاقة.

*** هذا فيما يتعلّق بالأسباب الاقتصادية. هل هناك بواعث سياسية أيضاً؟**

نعم، إذ لا تنوي الصين، وبخلاف القوى الغربية العظمى، إقحام نفسها في السياسة الداخلية لشركائها الاقتصاديين. لقد لخّص رئيس الوزراء الصيني وين جيابو سياسة بلده في أثناء كلمة ألقاها في المؤتمر الوزاري بين الصين وأفريقيّة في نهاية ٢٠٠٩: «يعتمد تعاوننا الاقتصادي وتجارتنا على المنفعة المتبادلة. (...) لم يسبق لنا أن فرضنا شروطاً سياسية على دول أفريقيا ولن نفعل ذلك في المستقبل». كم يبدو الوضع مختلفاً مع القوى الغربية العظمى التي لم تتوقف عن تنصيب حكومات، وإفشال أخرى في دول أفريقيّة! إن دول الجنوب عطشى لنيل استقلالها، وهي حينما تتحالف مع الصين، فإنها تحصل على فرصة حقيقية لترتوي، وتطفئ ظمأها.

*** هل كان للأزمة الاقتصادية التي ضربت اقتصاد الدول الغربية، بشكل رئيس، أثر في تغيير التحالفات؟**

بكل تأكيد. لقد كان لهذه الأزمة تداعيات على الصين أيضاً، لكنها لم تعوقها عن المضي قُدماً في طريق نموها السليم. لذلك كان من الطبيعي، في مثل هذه المواقف، أن تلجأ الدول الأفريقيّة والدول اللاتينية إلى الشريك الاقتصادي الأكثر قوة. لنأخذ في سبيل المثال، دولة البرازيل، لقد تأثرت

تأثراً شديداً من جراء الأزمة التي أصابت الولايات المتحدة الأمريكية فيما مضى، لكن اقتصادها لم يتوقف عن النمو عام ٢٠٠٩، وأصبحت الصين شريكها الاقتصادي الأكثر أهمية، وهذا لم يأت مصادفةً.

*** يمثّل التحالف الجنوبي- الجنوبي تحدياً كبيراً للهيمنة الغربية. يا تُرى، هل ستترك كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا المجال أمام الصين للمساس بمصالحها؟**

يمثل تطور المحور الجنوبي- الجنوبي بشكل إجمالي تهديداً مزدوجاً للمصالح الإمبريالية، وعلى وجه الخصوص مصالح الولايات المتحدة الأمريكية. إذ ستفلت هذه الدول الغنية بالمواد الأولية من قبضتها، هذا بالدرجة الأولى. وبالدرجة الثانية، ستتمكن الصين من الحصول على كل الموارد الضرورية اللازمة لمتابعة تطورها الباهر. ففي خضم ارتقائها، تعمل بكين على اللحاق بركب القوة الاقتصادية المهيمِنة في العالم، التي تمثلها حالياً الولايات المتحدة الأمريكية. يُرجِّح آلبير كيدل، الخبير الاقتصادي في البنك الدولي، والعضو في مجلس المحيط الأطلسي (أحد مراكز الأبحاث الأمريكية الأكثر نفوذاً، وأحد فروع اللجنة الثلاثية)، ارتقاء الصين اقتصادياً إلى المرتبة الأولى عام ٢٠٣٥.

لهذا السبب تحاول واشنطن، اليوم، احتواء ظهور الصين على الساحة العالمية، حرصاً منها للحفاظ على دورها القيادي عالمياً. وتأتي السيطرة على منطقة المحيط الهندي في صميم الخطة الإستراتيجية التي تُعدُّ لها واشنطن. أما عملية التصدّي لأعمال القرصنة التي تقودها واشنطن ضد الصومال، فهي مجرد ذريعة مختلقة من أجل تهيئة الأجواء لتمركز قوات حلف الناتو في

المحيط الهندي، وبالنتيجة، الحفاظ على هيمنة القوى العظمى الغربية على هذا الحوض، وقد شرعت اليابان فعلاً في إنشاء قاعدة عسكرية خاصة بها في جيبوتي، من أجل «التصدّي لأعمال القرصنة».

*** تارة يثيرون موضوع القرصنة، وطوراً يثيرون موضوع الإرهاب الإسلامي. هل هناك تهديد حقيقي؟ أو أنها مجرد ذريعة؟**

أنا لا أنفي وجود التهديد. غير أن القوى العظمى الغربية تلجأ لاستخدام هذا التعبير من أجل حماية مصالحها الإستراتيجية في المنطقة. إنّما، كيف تطورت أعمال القرصنة في الصومال؟ منذ أكثر من عشرين عاماً والحكومة غائبة في البلاد، مما دعا بعض الشركات الأوروبية إلى استغلال الوضع من أجل نهب الثروات المائية، في حين أقدمت شركات أخرى على إلقاء النفايات السامة في البحار. لقد مُنع الصيادون الصوماليون من مزاولة أعمال الصيد، ما اضطرهم في مثل تلك الظروف إلى الانغماس في أعمال القرصنة، وذلك حرصاً منهم على بقائهم على قيد الحياة. بالطبع اتخذت هذه الظاهرة حجماً آخر منذ ذلك الحين، لكن إذا أردنا إيجاد حل لموضوع القرصنة، ينبغي لنا معالجة المشكلة من جذورها، وإعادة إرساء نظام سياسي شرعي في الصومال.

*** الأمر الذي ترفض الولايات المتحدة الأمريكية تنفيذه حتى الآن، كما سنشاهد في فصل لاحق...**

نعم، وقد تتسبب السياسة الطائشة التي تنتهجها الولايات المتحدة بحدوث اضطرابات خطرة. نشير هنا إلى أن الصومال هو المركز التاريخي للإسلام في شرقي أفريقيا. فقد كان لعلماء الدين الصوماليين نفوذٌ كبير فيما مضى، فقد عملوا على نشر الإسلام حتى وصلوا إلى موزامبيق. كان للفرقة

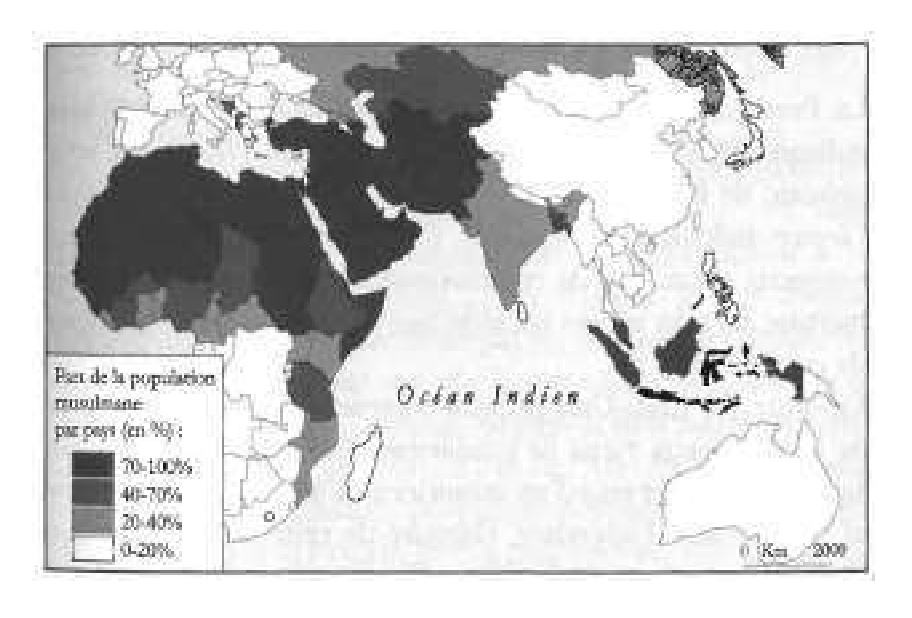
الشيعية العُمانية التي بسطت نفوذها على أفريقيا الوسطى في القرن الثامن عشر، الأثر الأكبر في تغيير ثقافة المنطقة، لكنها، على الرغم من ذلك، لم تتمكن من إرغام السكان المسلمين على تغيير مذهبهم واعتناق المذهب الشيعي.

قد يشهد القرن الأفريقي اليوم انتشاراً واسعاً للدين الإسلامي، بسبب الأخطاء التي ترتكبها الولايات المتحدة في هذه المنطقة، وفي حال استخدم الحكام المسلمون ورقة التاريخ المشترك الذي يربطهم من أجل حشد الأعضاء المسلمين في كل أرجاء أفريقيا، والدفاع عن الصومال، المركز التاريخي لانتشار الإسلام في أفريقيّة، عندئذ ستواجه الولايات المتحدة الأمريكية تهديداً حقيقياً خطراً.

*** يمتد الهلال الإسلامي من شرق أفريقيا حتى إندونيسيا مروراً بدول الخليج العربي وآسيا الوسطى، مسيطراً بذلك على سواحل المحيط الهندي. فكيف وقع هذا المحيط، الذي كان مهداً للقوى الإسلامية الكبرى، تحت سيطرة القوى الغربية؟**

قبل افتتاح قناة السويس، كانت هناك أربع قوىً عظمى مهيمنة في منطقة المحيط الهندي، وهي الإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الفارسية، وإمبراطورية المغول (وهي إمبراطورية إسلامية أخذت تنمو في الهند) وأخيراً الصين، وقد حقق التبادل التجاري عبر المحيط الهندي، الاتصال بين الشعوب الإسلامية وباقي شعوب المنطقة، وانتشر الإسلام نتيجة ذلك حتى وصل إلى الصين وشرقي أفريقيا. وهكذا تشكّل القوس الإسلامي، وسيطرت القوى الإسلامية العظمى على جزء كبير من المحيط الهندي.

ثم حدث أمر مهم في بلاد الهند، تجسّد بثورة الهند، أو ما يعرف بثورة السيبوي عام ١٨٥٧، التي مهّدت للسيطرة الأوروبية على هذه المنطقة. جُنّد شبان السيبوي الهنود لخدمة الشركات الإنكليزية، لكن سرعان ما تمرد هؤلاء الشبان نتيجة الظلم الذي أنزله بهم أرباب العمل، ثم تحوّل هذا التمرد إلى انتفاضة شعبية كبرى، اتسمت بالعنف، قُتل فيها عدد كبير من الإنكليز على أيدي السيبوي الهنود، لكن ما لبث الإنجليز أن أخمدوا هذه الانتفاضة في نهاية المطاف. أسفرت عملية القمع هذه عن نتائج مهمّة، منها إحكام سيطرة الحكومة البريطانية بصورة رسميّة على المستعمرة الهندية بدلاً من الشركات الخاصّة، ومن جهة أخرى، أطاحت الحكومة البريطانية بالزعيم الهندي المسلم، إمبراطور المغول محمد بهادور شاه، الذي ما لبث أن توفي في منفاه في ميانمار، أو بورما.



القوس الإسلامي يحيط بمنطقة المحيط الهنديذ

*** بعد مضي أحد عشر عاماً على إخماد هذه الثورة، افتُتحت قناة السويس التي لعبت دوراً مهماً في ربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندي. هل جاء ذلك بمنزلة دعم حقيقي للأوروبيين من أجل إحكام نفوذهم على هذا المحيط؟**

تماماً. لقد ساعدت قناة السويس في تمركز الاستعمار الأوروبي؛ فقد استقرت فرنسا في جيبوتي، واحتلّت إنكلترا مصر، ثم ألحقت بها البحرين، من أجل حماية «مستعمرتها الهندية» في وجه التوسع الروسي. اتسمت هذه الفترة، أي نهاية القرن التاسع عشر، باضطرابات عدّة بين القوى الإمبريالية، نتج عنها اتحاد ألمانيا وإيطاليا، وتقاسم أفريقيا ما بين القوى الغربية العظمى... ولم يبق في النهاية سوى الإمبراطورية العثمانية، القوّة الإسلاميّة الكبرى التي تسيطر على المحيط الهندي. خطط الأوروبيون للإطاحة بهذه الإمبراطورية المتبقية، وشنّوا حملة دعائية ضدها، تفيد باستغلال العمانيين للأفارقة، واتخاذهم عبيداً لهم. وتحت ذريعة القضاء على تجارة الرقيق، حشدت أوروبا قواتها في المحيط الهندي، وقضت على السلطنة العثمانية في عُمان. بهذه العملية، رزح المحيط الهندي بأكمله تحت نير السيطرة الغربية.

*** تخضع هذه السيطرة الأوروبية اليوم لعملية تقويض من جانب القوى الناشئة في آسيا، ليتحول المحيط الهندي إلى مسرح تنافس بين الصين وأمريكا. إلّا أن دور الولايات المتحدة الأمريكية آخذ في التراجع على الصعيد العالمي، في حين يشهد العالم ارتقاءً هائلاً لدولة الصين. فكيف ستتمكن الولايات المتحدة الأمريكية من الوقوف في وجه منافسها الرئيس وصده؟**

لقد اتخذت وزارة الدفاع الأمريكية لها جذوراً عميقة في المنطقة، فأنشأت قاعدة عسكرية في أوكيناوا (اليابان)، وأبرمت اتفاقات مع

الفيليبين تحت ذريعة محاربة الإرهاب، كما أقامت علاقات ممتازة مع الجيش الإندونيسي (الذي شكلته واشنطن من أجل إبادة مليون شيوعي، وإقامة حكومة دكتاتورية عسكرية في الستينيات من القرن الماضي، في بلد خارج لتوه من هيمنة الاستعمار)...

إضافة إلى ذلك، تستطيع الولايات المتحدة الاعتماد على قاعدتها العسكرية التي أنشأتها في دييغو غارسيا، تلك الجزيرة المرجانية الواقعة وسط المحيط الهندي، وتستقطب الراغبين في قضاء إجازاتهم على شواطئها المفروشة بالرمال البيضاء تحت ظلال النخيل. مع ذلك، يبقى تاريخ هذه الجزيرة أقل بريقاً من طبيعتها، ففي عام ١٩٦٥، ضُمّت جزيرة دييغو غارسيا وباقي أرخبيل تشاغوس إلى الأراضي التابعة للسيطرة البريطانية في المحيط الهندي؛ وفي عام ١٩٧١، شيدت الولايات المتحدة قاعدة عسكرية لها في هذه الجزيرة، بعد أن طردت منها سكانها الأصليين. من هذا الموقع الإستراتيجي، قادت واشنطن بعض العمليات العسكرية، ضمن إطار الحرب الباردة، كما قادت عملياتها العسكرية في كل من العراق وأفغانستان. واليوم أصدر حاكم المملكة البريطانية أمراً بمنع عودة سكان جزيرة دييغو غارسيا الأصليين إلى مسقط رؤوسهم، على الرغم من اعتراف المحاكم البريطانية بحقهم في العودة.

وبالنتيجة، تُعدُّ الجذور العسكرية للولايات المتحدة راسخة في هذه المنطقة. من جهتها، تعاني الصين من موطني ضعف، يتمثّل الأول في مضيق هرمز، والثاني في مضيق ملقا. يقع المضيق الأول بين عُمان وإيران، ويشكّل المنفذ الوحيد إلى الخليج العربي، ولا يتجاوز طوله ستةً وعشرين كم في

أضيق ممر له. وتحمل ناقلات النفط التي تعبر هذا المضيق ما يقارب ٢٠% من واردات الصين. أما موطن الضعف الثاني الذي تعاني منه الصين، فيكمن في مضيق ملقا (الذي يقع بين ماليزيا وجزيرة سومطرة الإندونيسية) حيث إنه مزدحم، وبالغ الخطورة، بيد أنه يُعدُّ المعبر الرئيس للبضائع الصينية التي تعبر المحيط الهندي، وصولاً إلى سواحلها. وتحمل ناقلات النفط التي تعبر هذا المضيق ٨٠% من واردات الصين. بذلك تستطيع الولايات المتحدة المتمركزة في المنطقة، منع الصين من استخدام هذا المضيق في حال نشوب نزاع بينهما، ما سيكون له أثر كارثي على الصين.

*** هل هذا ما يفسر سعي الصين إلى تنويع مصادر إمدادها بموارد الطاقة؟**

نعم. عملت الصين على تطوير استراتيجيات عدة للتصدّي لهذه المشكلة الكبرى. اقتضت الإستراتيجية الأولى اعتمادها على آسيا الوسطى للحصول على المؤن، هناك حالياً خط أنابيب لنقل الغاز يصل بين تركمنستان والمقاطعة الصينية شينجيانغ؛ من المتوقع أن يزوّد هذا الخط الصين بأربعين مليار من الأمتار المكعبة سنوياً من الغاز حتى عام ٢٠١٥، أي ما يعادل نصف الاستهلاك السنوي للصين. كما تم تمديد خط أنابيب يصل بين الصين وكازاخستان، لنقل البترول عبر بحر قزوين.

وتتعلّق الإستراتيجية الثانية، التي أعدّتها الصين، بجنوب آسيا. لقد وقعّت بكين اتفاقيات مع بنغالاديش من أجل تزويدها بالغاز الطبيعي والنفط. وعليه أُعلن مؤخراً عن إنشاء خط أنابيب نفط، وخط أنابيب غاز تصلها بميانمار (بورما)، وتزود الصين باثنين وعشرين مليون طن من النفط، واثني عشر ملياراً من الأمتار المكعبة من الغاز سنوياً.

وهناك إستراتيجية ثالثة، أطلقت عليها الصين اسم «عقد اللآلئ». تنص هذه الإستراتيجية على بناء موانئ لدى الدول الصديقة على طول الساحل الشمالي للمحيط الهندي، تسعى الصين، ببناء هذه الموانئ، إلى تأمين حركة مرور بحرية خاصّة بها في هذه المنطقة. يدخل في هذه الإستراتيجية توسعة ميناء غوادار في دولة الباكستان، الذي يتميز بمياهه العميقة. يُعدُّ هذا النوع من الموانئ ملائماً تماماً للتجارة البحرية، ولحركة مرور السفن الحاملة للحاويات، كما ستنشئ الصين موانئ أخرى، وبشكل خاص في أفريقيا. نشير هنا إلى أن حجم بعض السفن الناقلة للحاويات التي تحمل البضائع إلى الصين، انطلاقاً من أمريكا اللاتينية، وصولاً إلى المحيط الهادئ، ضخم جداً لعبور قناة باناما. بهذه الطريقة ستعبر هذه السفن الحاملة للحاويات المحيط الأطلسي، وصولاً إلى الصين، عبر المحيط الهندي. فبفضل «عقد اللآلئ»، لن تحتاج الصين إلى المرور عبر أوروبا وقناة السويس، وصولاً إلى المحيط الهندي، كما هي الحال الآن. إذ ستتمكّن السفن من المرور عبر أفريقيا متنقلة بين أمريكا اللاتينية وآسيا، ضمن إطار المحور الجنوبي - الجنوبي.

*** هل سيكون لذلك آثاره الكبيرة في أفريقيا؟**

بل آثار هائلة! إذ تستطيع دول كموزامبيق والصومال وجنوب أفريقيا أو مدغشقر اللحاق بهذا الركب، والانضمام إلى شبكة المحيط الهندي. وإذا ما وُسّعت موانئ أُخر، كميناء غوادار، فسيحدث ذلك ازدهاراً ضخماً على الصعيد الاقتصادي، في هذه البقعة من أفريقيا. وبالتزامن مع هذا الازدهار، سيشهد نشاط الموانئ الأوروبية الكبرى، كميناء مارسيليا وميناء آنفير،

انهياراً ملحوظاً. إن عملية وصل أفريقيا بالسوق الآسيوي عبر المحيط الهندي هي من أكبر النعم التي ستغمر القارة السمراء. كان نلسن مانديلّا يتمنى تنفيذ هذا المشروع عندما كان رئيساً لجنوب أفريقيا، غير أن الولايات المتحدة الأمريكيّة وأوروبا اتخذتا موقف المعارض. أما اليوم، فإن الصين تمتلك الإمكانات اللازمة لاتخاذ زمام المبادرة. بدأ المحور الجنوبي- الجنوبي بوضع قواعده، وها هي ذي دول العالم الثالث تنأى بعيداً عن سياسة الانقسامات التي أقيمت فيما بينها، وها هي ذي تتعاون فيما بينها بصورة متزايدة. يشهد العالم اليوم تغيرات جوهرية!

*** كيف تحولت الصين إلى قوة عظمى في غضون وقت قصير؟**

عُدَّت الصين حتى القرن التاسع عشر، قوة عظمى. كانت تبيع بضائع عالية الجودة، وتمتلك القطع الأجنبي والذهب والفضة أكثر مما تمتلكه بعض القوى الأوروبية العظمى. إلّا أن البلد لم يكن منفتحاً على التجارة الخارجية بشكل كامل، ما عدا بعض المكاتب التجارية على السواحل، ما أثار حفيظة بريطانيا العظمى التي كانت تعيش ثورتها الصناعية، وتحاول تصريف الكم الأكبر من بضائعها في أنحاء الصين كافة.

لذلك لما أصدر نائب الملك الصيني لين زيكسو أمراً عام ١٨٣٨، يقضي فيه بإتلاف صناديق الأفيون التي كانت بريطانيا العظمى تصدّرها بصورة غير شرعية إلى الأراضي الصينية، وجد البريطانيون في ذلك ذريعة لإعلان الحرب على الصين. وعليه، أرسل اللورد ميلبورن حملة على مقاطعة كانتون الصينية، وكانت تلك حرب الأفيون الأولى، استمرت أربع سنوات، وانتهت بهزيمة الصين التي وجدت نفسها مضطرة لفتح أبوابها أمام التجارة الخارجية.

إلّا أن القوى الإمبريالية كانت تريد التغلغل بصورة أكبر في العمق الصيني، من أجل تصريف صادراتها في السوق الصيني. كما طالبت بإضفاء الطابع القانوني على بيع الأفيون، على الرغم من الآثار المدمرة التي تلحق بالشعب الصيني، نتيجة الإدمان، فقد أتاحت لهم تجارة الأفيون المربحة التعامل مع الصين بالسبائك الفضية، ما أدّى إلى تعزيز الميزان التجاري لتلك الدول. إنّما، لما قوبل طلب بريطانيا وفرنسا برفض الإمبراطورية الصينية، قررت تلكما الدولتان استخدام القوة، فكانت حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦ - ١٨٦٠) التي اضطرت الصين في إثر هزيمتها، إلى الرضوخ لمطالبهما، وتحوّلت إلى شبه مستعمرة خاضعة للقوى الغربية العظمى. وأخيراً، أصبح بيع الأفيون قانونياً في البلاد، وعاودت كل من بريطانيا والولايات المتحدة تصديره، محققتان بذلك أرباحاً طائلة.

*** لم يتكلّم أحد عن هذه الأحداث في أوروبا، حيث يبدو، في النهاية، أن تاريخ الصين غير معروف جيداً...**

هذا صحيح، لم يتكلم أحد عن هذه الأحداث. يجدر بنا أن نعرف أن هذه الحروب الإمبريالية، وتلك الأعمال التدميرية التي تسببت بها القوى الاستعمارية، أسفرت عن سحق أرواح أكثر من مئة مليون مواطن صيني. واقتيد بعضهم كعبيد للعمل في مناجم في البيرو، في ظروف عمل مروعة، اضطرتهم للإقدام على عمليات انتحار جماعي. كما اقتيد الآخرون إلى الولايات المتحدة، من أجل استغلالهم في عمليات بناء السكك الحديدية. في حين اختُطف الآلاف من الأطفال الصينيين للعمل في حفر آبار النفط لشركة شل في بروناي، في الوقت الذي كانت فيه تقنيات الحفر الميكانيكية

بدائية. كانت فترة قاسية جداً على الصين. لم يسبق لأي شعب أن عاش معاناة مماثلة لتلك التي عاشها الشعب الصيني. كان علينا الانتظار حتى عام ١٩٤٩، حين قاد ماو ثورته التي أعادت إلى الصين مجدها، فعادت دولة مستقلة سياسياً، ومزدهرة اقتصادياً.

*** بعضهم ينسب هذا الازدهار الرائع الذي شهدته الصين إلى دينغ شياوبينغ، فابتعاده عن الماويّة (فكر ماو تسي تونغ) مع بداية عام ١٩٨٠، وفتحه الصين أمام رؤوس الأموال الأجنبية، سمح للبلاد بالتطوّر...**

هذا يعني إغفال النمو والتطور الذي شهدته البلاد في عهد ماو، الذي تراوحت نسبته بين ٧ و١٠%! نحن لا ننكر أن ماو ارتكب أخطاءً إبان الثورة الثقافية التي عاشتها البلاد، لكنه أيضاً نجح في تحرير بلد يبلغ عدد سكانه المليار، من حالة الفقر المدقع التي كان يعاني منها، كما سمح للصين باستعادة مركزها كدولة مستقلة بعد معاناة امتدت قرناً من الزمان، عاشته في ظل الجور والطغيان. لذلك من الخطأ بمكان أن ننسب تطور الصين إلى سياسة الانفتاح التي انتهجها دينغ شياو بينغ. لقد انطلق هذا البلد من مستوىً متخلّف جداً، بل تابع مسيرته في التطور والنمو منذ ثورة ١٩٤٩. ولم تبلغ هذه العملية نهايتها حتى يومنا هذا.

إن سياسة الانفتاح الحالية على النظام الرأسمالي التي تنتهجها الصين تثير كثيراً من التساؤلات حول مستقبلها. مما لا شك فيه أنه سيتولّد عن دعم طبقة البورجوازية المحلية تفاوتٌ كبير بين مختلف القوى الاجتماعية. يمكن للصين أن تتحول إلى دولة رأسمالية بشكل كامل، لكنها لن تقع تحت سيطرة الإمبريالية. غير أنه، وفي كلتا الحالتين -سواء بقيت دولة اشتراكية،

أو أصبحت دولة رأسمالية - ستسعى الولايات المتحدة إلى عرقلة مساعيها، والوقوف حائلاً دون تحولها إلى قوة عظمى، تمتلك الإمكانات الكافية للوقوف في وجهها.

*** بالضبط، هناك من يدّعي أن الصين تحولت هي نفسها إلى قوة إمبريالية عظمى، فقد باتت تصدّر رؤوس أموالها إلى أرجاء الكرة الأرضية كافة، وتنقّب في كل دول الجنوب بحثاً عن المواد الأولية للتزود بها...**

هناك التباس في تعريف الإمبريالية الذي أتى به لينين (الذي لا بد أنه كان أفضل من درس هذه الظاهرة)، حتى لدى المعسكر الشيوعي. بعضهم لم يفهم سوى عنصر واحد من هذا التعريف الذي يتلخص بتصدير رؤوس الأموال إلى الدول الأجنبية. لا شك أن تصدير رؤوس الأموال إلى الخارج هو عامل رئيس. إذ إن هذه العملية كفيلة بدعم نمو ثروة الدول الرأسمالية بشكل أسرع، لينتهي بها المطاف إلى السيطرة على اقتصاد الدول الأقل تطوراً. إنّما، في إطار الإمبريالية، تأتي السيطرة الاقتصادية ملاصقة تماماً للسيطرة السياسية، ما يحوّل البلد المعني إلى شبه مستعمَرة.

بتعبير آخر، إذا كنتَ تمثّل دولة إمبريالية، فإنه يتوجب عليك إيجاد دمية متحركة في كل بلد، تصدر إليه رؤوس أموالك، تتمثّل هذه الدمية المتحركة بحكومة عميلة ومسخّرة لخدمة مصالحك. بإمكانك من جهة ثانية، تدريب الجيش داخل هذه المستعمرة ليقوم بانقلاب عسكري على هذه الدمية المتحركة في حال توقفها عن تنفيذ الأوامر. لقد حدث هذا منذ فترة قريبة في الهندوراس، حين أُطيح بالرئيس مانويل زيلايا على يد فرقة عسكرية، دُرّب ضباطها في المعاهد العسكرية الأمريكية. يمكنك أيضاً

اختراق الجهاز السياسي بهيئات خاصة، كوكالة الاستخبارات المركزية، من أجل إنشاء جهات متعاونة في الداخل. باختصار، تقوم أواصر الإمبريالية على أساس سيطرة مزدوجة، اقتصادية وسياسية في آن واحد، كي تدعم إحداها الأخرى. وهذا هو الفارق الكبير مع دولة الصين. فالصين لا تتدخل في الشؤون السياسية للدول التي تتعامل معها تجارياً، كما لا تهدف بتصدير رؤوس أموالها إلى الدولة الشريكة إلى خنقها اقتصادياً أو حتى السيطرة عليها.

فالصين بعيدة عن كونها قوة إمبريالية، فضلاً عن أنها تقدم الدعم للدول التي وقعت ضحية الإمبريالية، كي تمكّنها من التحرر من براثنها، عن طريق زعزعة علاقات الهيمنة التي نظمتها دول الغرب.

*** هل لا يزال بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية الوقوف في وجه منافستها الصين؟ نحن لا ننكر تمركز وزارة الدفاع الأمريكية في المنطقة، لكن تبقى المواجهة العسكرية المباشرة مع الصين أمراً بعيد الاحتمال، إذ إن واشنطن لا تزال غارقة في الشرق الأوسط، وتبدو حسب تقارير الخبراء، عاجزة عن إحراز أي فوز على بكين، بخلق نزاع مباشر معها.**

بالفعل، لا يبدو موضوع قصف الصين واحتلالها خياراً محتملاً. لذلك أعدّت الولايات المتحدة إستراتيجيات بديلة. تتمثّل الأولى باعتمادها على دول خاضعة لإملاءاتها في أفريقيا، تعمل على مراقبة نشاط الصين في القارة، لمنعها من الوصول إلى المواد الأولية. وهذه الإستراتيجية ليست بالمبتكرة، فقد صيغتْ ونُفِّذت إبان الحرب العالمية الثانية، بهدف احتواء تطور دولة اليابان.

*** ومن هي هذه الدول التابعة لأمريكا، التي تخضع لإملاءاتها في عصرنا الحالي؟**

هناك مصر في شمالي أفريقيا، وإثيوبيا في شرقي أفريقيا، ونيجيريا في غربي أفريقيا، أما فيما يتعلّق بالمنطقة الجنوبية والوسطى، فقد راهنت واشنطن على دول جنوب أفريقيّة. إنّما، باءت إستراتيجيتها هذه بالفشل. لقد سبق أن رأينا عجز الولايات المتحدة عن منع الدول الأفريقيّة من إبرام صفقات تجارية مع الصين، وبذلك فقدت واشنطن كثيراً من نفوذها في هذه القارة. والدليل على ذلك، الصفعة التي تلقتها وزارة الدفاع الأمريكية عندما كانت تبحث، ودون جدوى، عن دولة توافق على استضافة مقر القيادة العسكرية الإقليمية الأمريكية التابع لها في أفريقيا (أفريكوم). إذ رفضت دول القارة الأفريقيّة كافة إيواء تلك القاعدة العسكرية، وقال وزير الدفاع لجنوب أفريقيا إن هذا الرفض هو بمنزلة «قرار أفريقي جماعي»، بل وذهبت زامبيا إلى أبعد من ذلك، فوجهت خطابها إلى وزير الخارجية الأميركي قائلة: «هل تحب رؤية فيل يتنقل بحرية في غرفة جلوسك؟» لقد اختيرت في الوقت الراهن مدينة... شتوتغارت كمقر للقيادة العسكرية الأمريكية لدول أفريقيا! ما ألحق العار بواشنطن.

أما الإستراتيجية الثانية التي وضعتها الولايات المتحدة لمراقبة تحركات الصين في المحيط الهندي، فتجسدت باستخدام الهند عن طريق تأجيج التوترات ما بين الدولتين. لقد لجأت إلى هذه التقنية في الثمانينيات من القرن الماضي ما بين العراق وإيران، فقد كانت الولايات المتحدة تزوّد المعسكرين بالسلاح على حد سواء، وكان من تصريحات هنري كسنجر في وقتها: «دعوهم يتقاتلوا!»

إن تطبيق هذه النظرية على دولتي الهند والصين كفيل بقتل عصفورين بحجر واحد، وذلك بإضعاف تلك القوى الصاعدة في آسيا.

أنتهز الفرصة لأقول إن الولايات المتحدة لجأت بالفعل إلى تلك الخطة في الستينيات، عندما دفعت الهند إلى الدخول في نزاع مع الصين، مقابل تمويلها للثورة الخضراء في الهند. فكان أن انتهى النزاع بخسارة الهند، ولا أعتقد أن الحكام الهنود سيقعون في الخطأ عينه مجدداً، ويخوضون حرباً ضد الدولة الجارة، خدمةً لمصالح دولة أجنبية. هناك كثير من التناقضات بين بكين ونيودلهي، لكنها ليست ذات أهمية. لا يجدر بتلك القوى الصاعدة في آسيا الشروع في هذا النوع من الصراعات ذات الطابع الإمبريالي الصرف.

*** إذاً لا يوجد أي مخرج للولايات المتحدة الأمريكية عبر الهند أو أفريقيا. إنّما، أليس لها حلفاء كثر في شرقي آسيا، ألا يمكن الاعتماد عليهم من أجل احتواء الصين؟**

لقد أخفقت واشنطن مرة أخرى في هذا الخيار بسبب جشعها. ففي عام ١٩٩٧، واجهت منطقة جنوب شرقي آسيا أزمة اقتصادية رهيبة، وكانت الولايات المتحدة هي من تسبب بخلقها، وذلك بارتكابها خطأً فادحاً. بدأت العملية عندما أقدم المضاربون على توجيه ضربة للعملة التايلاندية، بإعلانهم تخفيض قيمتها، ما أدى إلى انهيار في أسعار الأسهم التايلاندية، وإعلان شركات كبرى إفلاسها. توقعت تايلاند من الولايات المتحدة الأمريكية الحصول على دعمها، فقد كانت حليفاً وفياً لها، بيد أن البيت الأبيض لم يحرك ساكناً، حتى إن واشنطن رفضت فكرة إنشاء

صندوق نقد آسيوي لمساعدة الدول الأكثر تضرراً. في حقيقة الأمر، استفادت الشركات متعددة الجنسيات من هذه الأزمة، وذلك بإقصائها المنافسين الآسيويين، إذ كان صعودهم الاقتصادي يشكّل مصدر قلق لها.

وأخيراً، كانت الصين هي من أنقذ المنطقة من الكارثة، عندما قررت الحفاظ على قيمة عملتها. من المعلوم أن انخفاض قيمة العملة كفيل بتعزيز الصادرات، فإذا انخفضت قيمة اليوان الصيني، فإن زيادة حجم الصادرات الصينية ستعمل على انهيار كامل لاقتصاد الدول المجاورة لها، التي كانت في أسوأ حالاتها. إذاً لما حافظت الصين على قيمة عملتها، سمحت لدول المنطقة بإنعاش حركة صادراتها والنهوض مجدداً.

في الوقت الذي كان فيه العديد من الحكومات الآسيوية يحمل مشاعر الضغينة على واشنطن، نتيجة الدور الذي لعبته في هذه الأزمة، صرّح رئيس الوزراء الماليزي قائلاً: «إن التعاون الذي أبدته الصين، وإحساسها الرفيع بالمسؤولية، عملا على حفظ المنطقة من مواجهة سيناريو أكثر مأساوية».

ومنذ ذلك الحين، تطوّرت العلاقات التجارية بين الصين وجاراتها بشكل مطرد، وفي عام ٢٠٠٧، احتلت بكين دور الصدارة كشريك اقتصادي لليابان التي تلعب في الوقت عينه دور الحليف الإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية في آسيا.

إضافة إلى ذلك، لا تسعى الصين إلى تحقيق أهداف أو مطامع توسعية في المنطقة. لقد ساد الاعتقاد لدى الولايات المتحدة الأمريكية أن دول المحيط الهندي ستشعر بالفزع نتيجة صعود القوة الاقتصادية لدولة الصين،

وستلجأ إلى من يؤمّن لها الحماية اللازمة. إلا أن العلاقات التي أقامتها الصين مع جاراتها قامت على مبدأ المساواة والتكافؤ. فمن هذا المنظار، نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تحرز أي نجاح في شرقي آسيا. ولا سيما أن التعاملات التجارية التي أقامتها أستراليا مع الصين تبلغ نسبتها ٤٠%، في حين لاحظت اليابان من جهتها تطوراً في تحركات مناهضة للقواعد العسكرية الأمريكية.

*** إذاً لا تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية أي قدرة لمنع الصين من منافستها؟**

يبدو الأمر كذلك. لذا فهي تحاول إفشال خطط الصين. فمن أجل أن تحقق نموها الاقتصادي، تحتاج الصين بشكل رئيس إلى مصادر الطاقة، لذلك تحاول واشنطن جاهدة ضبط هذه المصادر، والتحكم بها، لمنع الصين من الوصول إليها. كان ذلك هو الهدف الأول للحروب التي أشعلتها في كل من أفغانستان والعراق، غير أن هذه الحروب تحولت إلى فشل ذريع. دمّرت الولايات المتحدة هاتين الدولتين من أجل تعيين حكومات تطيعها في كل أوامرها، لكنها أخفقت مرة أخرى. بل، وفوق كل هذا، باشرت الحكومات الجديدة العراقية والأفغانية في التعامل اقتصادياً مع الصين! لذلك لم تجد الصين نفسها مضطرة إلى إنفاق مليارات الدولارات في حرب غير عادلة، للحصول على الذهب الأسود العراقي، فقد حازت الشركات الصينية الامتيازات النفطية عن طريق دخولها في مزاد علني مستوفٍ للشروط النظامية!

*** باختصار، يبدو أن الخطة الإستراتيجية الأمريكية حقّقت فشلاً ذريعاً...**

بقي أمامها خيار واحد، يتجسّد في الحفاظ على الفوضى، كي لا تحقق الصين الفائدة المرجوة من انتشار حالة الاستقرار في هذه الدول الإستراتيجية. وهذا يفترض استمرار الحرب في كل من العراق وأفغانستان، بل وتوسيع نطاقها إلى دول أخرى كإيران واليمن أو الصومال.

يمكن لهذه الرؤية، قصيرة المدى، أن تكشف عن عواقب وخيمة، إذ إنها ستحمل المزيد من الشعوب على الانضمام إلى الجبهة المعادية للولايات المتحدة الأمريكية، ودول حلف الناتو والدول الغربية. ولمن يريد الاستمرار في الطريق العسكري عليه أن يبحث في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية إبان السنوات الستين الأخيرة: إذ لم تحرز واشنطن أي انتصار في أي حرب خاضتها، باستثناء تلك العملية العسكرية التي خاضتها ضد جزيرة غرينادا الصغيرة (١٩٨٣).

*** كيف بدأ تدهور «الإمبراطورية الأمريكية»؟**

استغلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الثانية للحصول على الجائزة الكبرى. شرعت في بداية الأمر في تقديم دعمها للمعسكرَين المتقاتلَين دون أن تقدم أي تضحية من جانبها، بل استغلت ضعف المتنافسين لتبرز كقوة عظمى على الصعيد العالمي.

إلّا أنها اضطرت إلى إنفاق هذه الجائزة الكبرى لقتال الشيوعية. ثم اتخذ الاقتصاد الأمريكي فيما بعد طابعاً عسكرياً، واشتعلت الحروب،

امتداداً من كوريا، وصولاً إلى العراق، مروراً بحرب فيتنام، كي لا نقتصر على ذكر هذه الدول الثلاث. أما اليوم، فيُقتطع خمسة وخمسون سنتاً من كل دولار يتم الافراج عنه من ميزانية الحكومة الأمريكية، لتُخصّص للجيش. أصبحت الحالة كارثية! فكان أن دُمرت الصناعات الرئيسة في البلاد، نتيجة لهذه السياسة، وأصبح الحال في المدارس والمستشفيات العامة مزرياً للغاية.

فبعد انقضاء سنوات ست على إعصار كاترينا، لا يزال سكان نيوأورليانز يعيشون داخل المعسكرات. بإمكانك مقارنة وضع هؤلاء، بوضع مماثل في لبنان، لقد وجد أولئك الذين فقدوا منازلهم نتيجة القصف الإسرائيلي على لبنان عام ٢٠٠٦، سقف بيت يؤويهم بفضل مساعي حزب الله، ما دفع أحد رجال الدين الشيعة المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية لأن يقول إنّ من الأفضل العيش في دولة لبنان، من البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يمكنك أن تجد سقفاً يؤويك في بلد الأرز.

*** إذاً يمكننا القول إن عملية التسلّح التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية قد أغرقتها في الديون. إنّما، ما نلاحظه اليوم أن مَنْ يقف موقفَ الدائن ليست سوى... دولة الصين! ومن المثير للاهتمام أن مصير هاتين الدولتين المتنافستين مرتبط بشكل وثيق فيما بينهما.**

نعم، يمكننا القول إن الاقتصاد عملية مثيرة للدهشة! ففي الواقع، تصدّر الصين إلى الولايات المتحدة الأمريكية كثيراً من منتجاتها، ما يعود عليها بكثير من الدولارات. فتستفيد الصين من تراكم هذا النقد الأجنبي لديها، للحفاظ على سعر ثابت للصرف بين الدولار واليوان الذي يبقى ثابتاً نوعاً ما، ما يعمل على نمو حجم صادراتها. من ناحية أخرى، تستخدم بكين

الدولارات المتراكمة لديها لإنفاقها في شراء سندات الخزانة الأمريكية التي تموّل بدورها الديون الأمريكية. إنها بتمويلها لديون الولايات المتحدة الأمريكية، فإن الصين تموّل في الوقت عينه الحرب التي يقال عنها «حرب ضد الإرهاب،» التي هي في حقيقة الأمر ليست سوى حرب ضدها، إذ إن وزارة الدفاع الأمريكية تقود هذه الحرب، لتشديد الرقابة على مصادر الطاقة على مستوى العالم، في محاولة منها لاحتواء صعود القوة الاقتصادية الصينية. كما ترى، فإن الوضع يدعو إلى السخرية!

إنّما، هذه الحملة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية تعكس فشلها، إذ إن اقتصادها وصل إلى حافة الإفلاس، ولم يبقَ أمامها سوى خيار واحد، يتجسّد في استخدام ميزانية النفقات العسكرية، بعد تقليصها، في سبيل إنعاش الاقتصاد. إلّا أن المنطق الذي يسيطر على عقلية الفكر الإمبريالي ينحصر دوماً في تحقيق الربح الفوري، والإبقاء على المنافسة غير المقيّدة، لذا تواصل الإمبريالية مسيرتها حتى تحقق سقوطها بشكل نهائي.

أجرى المؤرّخ بول كندي دراسة حول تاريخ الإمبراطوريات المندثرة، وتوصّل إلى أنه في كل مرة يضمحل اقتصاد إمبراطورية ما، ويتعثّر عندما تتزايد نفقاته العسكرية، يكون ذلك مثل مؤشرٍ على قرب زوال هذه القوة العظمى.

*** إذاً هذا ينذر بقرب زوال «الإمبراطورية الأمريكية»؟**

لا أحد يدري، فالتاريخ ليس سوى مجموعة خطوط متعرجة، ولست أملك كرة من الكريستال، تمكنني من التنبؤ بالمستقبل. إنّما، كل الدلائل تشير إلى قرب زوال هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية. لن تكون هناك قوة عظمى على مستوى العالم، ويرجّح أن تعود الولايات المتحدة الأمريكية قوة

إقليمية مهمة كما كانت. سيشهد العالم العودة مجدداً إلى نظام الحماية الجمركية، ما سيضع حداً لعصر العولمة. ستنشأ تكتلات اقتصادية جديدة، وسيكون تكتّل آسيا هو الطرف الأقوى على الإطلاق، فأصحاب المليارات اليوم يؤثرون التعامل مع الآسيويين، كبديل عن الغربيين من ذوي البشرة البيضاء، حيث وفرة الثروات والطاقات الإنتاجية.

*** وما الذي سيحل بأوروبا؟**

تربطها علاقات وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية. ولا سيما عبر منظمة حلف الناتو، تلك التي أوجدتها الولايات المتحدة الأمريكية غداة الحرب العالمية الثانية، بهدف وضع القارة العجوز تحت المراقبة. إنّها أعتقد، مع ذلك، أن حكام أوروبا ينقسمون إلى فئتين، الفئة الموالية لأمريكا، والأوروبيون الحقيقيون. تبقى الفئة الأولى تابعة لواشنطن، في حين تسعى الفئة الثانية إلى تعزيز المصالح الخاصة بأوروبا، وتبني علاقات مع روسيا. ففي سياق الأزمة الاقتصادية العالمية، ومع قرب زوال الولايات المتحدة كقوة مهيمنة، يبدو أن التحول إلى دول آسيا أمرٌ منطقي.

*** في كتابه الشهير، رقعة الشطرنج، عبّر أستاذ العلوم السياسية زبيجنيو بريجنسكي عن خشيته من ظهور مثل هذا التحالف بين دول أوروبا ودول آسيا، ولكنه علّق قائلاً إن هذا التحالف لن يكتب له أن يرى النور، بسبب تباين الثقافات.**

بسطت الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها على المشهد الاقتصادي غداة الحرب العالمية الثانية، وبشكل خاص، المشهد الذي يخص أوروبا، حيث تمكنت الولايات المتحدة من تصدير ثقافتها، ونمط حياتها. من

المعروف أن الاقتصاد يعمل على توثيق الروابط الثقافية، في حين لا تعمل الثقافة على توطيد الروابط إلّا بعد امتلاء المعدة. فالثقافة لا تعد سبباً في التغذية. لذلك، حينما تكون المعدة فارغة، ينصب الاهتمام على الاقتصاد، ومن ثمّ على الثقافة.

لهذا السبب، ونتيجة لما نراه اليوم على الصعيد العالمي من الأزمة الاقتصادية التي أصابت العالم الرأسمالي، ينبغي لأوروبا إيلاء جلّ اهتمامها لمصالحها الاقتصادية، وتقديمها على الروابط الثقافية التي تجمعها مع الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك من المنطقي جداً أن تتوجّه إلى دول آسيا، سيّما وأنه قد صيغتْ هذه الروابط الثقافية الأوروبية الأمريكية في هوليوود. إنّما، إذا رجعنا إلى الوراء تاريخياً، فسنجد أن الروابط الثقافية كانت أقوى ما يكون بين إيطاليا وليبيا، وبين إسبانيا والمغرب، هذا في سبيل المثال.

*** لما كان هنري كسنجر يمتنع عن إعطاء أوامره بتأجيج القتال بين الإيرانيين والعراقيين، كان يسوّغ ذلك بضرورة هيمنة الولايات المتحدة على العالم حفاظاً على سيادة السلام وانتشار الديمقراطية على الصعيد العالمي. ثم جاء بريجنسكي وغيره من المحللين من بعده، ودعموا الفكرة نفسها. ألا ينذر زوال «الإمبراطورية الأمريكية» باندلاع صراعات خطرة؟**

إن الديمقراطية التي يتحدثون عنها هي السائدة في الدول الإمبريالية الغربية، التي لا يمثّل سكانها سوى ١٢% من سكان العالم. علاوة على ذلك، لا يمكن أبداً أن ندّعي أن هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية قد أسهمت في نشر السلام والاستقرار في العالم، بل على العكس! لقد تابعت بين الحروب، وأججت الصراعات في جميع أنحاء العالم، كي تحافظ على

مركزها كدولة عظمى على الصعيد العالمي. هناك اليوم كثير من الأوروبيين ممن لا يتمنون رؤية سقوط «الإمبراطورية الأمريكية»، مع أنهم يُدينون تجاوزاتها. يعود تاريخ سيطرة واشنطن العسكرية على القارة العجوز إلى ما يزيد عن الستين عاماً، في تأكيد منها على ضمانة أمن هذه القارة. لذلك ترى كثير من الأوروبيين يخشون مجرد فكرة التخلّي عن هذه «الحماية»، ما قد يضطرهم إلى تولّي مسؤولية أمنهم بأنفسهم.

إن عملية تشكيل جيش أوروبي قد تحتاج إلى استثمار جزء مهم من الاقتصاد في الآلة العسكرية، إذ إن إعادة تمويل هذا القطاع غير الإنتاجي بمبالغ ضخمة، كفيلة بخلق أزمة اقتصادية جديدة. فضلاً عن ذلك، فإن هناك سؤال يطرح نفسه في حال تم الاستثمار في مجال الجيش، «من ذا الذي سيقاتل»؟ ففي حال نشوب الحرب، ستجد أوروبا نفسها أمام تحديات خطرة على المستوى الديمغرافي.

يبدو لي أن هذا الوضع يمكّننا من إدراك إرادة بعض الحكام الأوروبيين تقربهم من روسيا. إنها الائتلاف الأوحد الذي يمكن اللجوء إليه، إذ إنه ينعم بالسلم والرخاء. إنّما هذا الحل، يفترض إعطاء الفرصة لروسيا، كي تعتلي الصدارة كقوة عظمى، وحينئذ، سيتمكن الأوروبيون من استثمار تقنياتهم لديها. إلّا أنّ الولايات المتحدة الأمريكية كانت دوماً تعارض فكرة انضمام روسيا إلى أوروبا، فإذا تم الأمر على الرغم من ذلك، يتوجب على واشنطن أن تنسحب من الساحة، أي من القارة العجوز، حيث ستكون عندئذٍ طرفاً غير مرغوب فيه.

*** لقد عملت السنوات الثماني لحكم جورج بوش الابن، وسياسته الحربية، ونفقاته الفرعونية على العتاد العسكري وإخفاقاته الذريعة، عملت على تسريع عملية سقوط الولايات المتحدة الأمريكية. هل تعتقد أن باراك أوباما سيتمكن من إحداث تغييرات في هذا الشأن؟**

تُعدُّ قصة انتخابه شأناً تاريخياً. عانى الأميركيون الذين هم من أصول أفريقيّة الكثير في الماضي! لقد سُلبت حقوقهم السياسية على الرغم من إسهاماتهم الهائلة في عملية تطور الولايات المتحدة. بالفعل، وقع الأميركيون من أصول أفريقيّة ضحية الاسترقاق في دول الجنوب إبان الحرب الأهلية الأمريكية، فاشترطت عليهم طبقة البورجوازية في الشمال منحهم حريتهم، في مقابل انخراطهم في القتال لأجلها، فوافق هؤلاء العبيد، وأدى اشتراكهم في القتال إلى انتصار الشمال. عاشت الولايات المتحدة الأمريكية بين ١٨٦٠-١٨٨٠ فترة عرفت «بإعادة البناء»، أشرف عليها الزعيم الأمربكي الأفريقي الأصل، الشهير وليم إدوارد بورغاد دو بوا، وكانت فترة رخاء، خالية من ضروب العنصرية. إنّما، سرعان ما عبرت طبقة النخبة الأمريكية عن فزعها حين رؤيتها العمال ينضمون إلى المواطنين العاديين، متجاوزين لون البشرة، ما شكّل تهديداً لممتلكات الأقلية البورجوازية، بسبب التضامن الحاصل بين طبقات الشعب. ما فتح الطريق أمام عودة التمييز العنصري مجدداً. كان الهدف من هذا التمييز كسر وحدة طبقات الشعب، وتأجيج الضغائن بين المواطنين العاديين، من أجل حماية الأقلية من قيام أي ثورة. لقد شكّلت عملية ارتقاء رجل من البشرة السمراء إلى البيت الأبيض أمراً مهماً، قياساً إلى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. إنّما، لا

يكفي أن يكون باراك أوباما رئيساً تقدمياً بسبب لون بشرته، فلقد طغى الطابع الرجعي للإمبريالية الأمريكية على السطح من جديد، وبات يظهر بشكل متزايد. وبالنتيجة، لا أعتقد أن باراك أوباما قادر على إحداث أي تغيير يذكر في الأشهر أو السنوات القادمة. لا يمكن للإمبريالية أن تتغيّر، أو أن تتعدّل. يجب الإطاحة بها.

*** وما دور العالم الإسلامي في هذا الصراع الأميركي الصيني؟ هل يلعب دوراً مهماً؟**

مهماً جداً. كما سبق وذكرنا في بداية هذا اللقاء، عملت الولايات المتحدة الأمريكية على تشويه صورة «الخطر الإسلامي» في الدول المطلة على المحيط الهندي كافة، في الصومال، ودول الخليج، ودول آسيا الوسطى، والباكستان وإندونيسيا... تمثّل هدفها المرتبط بمصالح الشركات متعددة الجنسيات بالسيطرة على النفط وموارد الطاقة والممرات الاستراتيجية في المنطقة.

إلّا أن دول الشرق الأوسط ومجموع العالم الإسلامي قد طوروا لأنفسهم تياراً مناهضاً للإمبريالية، وهم يرفضون الخضوع للسيطرة الأمريكية. يعد هذا عاملاً إيجابياً للغاية. باتت شعوب العالم تهتم بإنشاء علاقات تعتمد في أساسها على مبدأ المساواة، وعلى التحرر بشكل نهائي من الهيمنة الغربية، التي تسببت بكثير من العمليات العدوانية والجرائم.

لقد حاولت كل الشخصيات وكل التيارات السياسية في الماضي دفع العالم الإسلامي إلى أحضان الولايات المتحدة الأمريكية وائتلافها المناهض للشيوعية. إنّما، في حقيقة الأمر، تكمن مصلحة الشعوب التي تشكّل «القوس الإسلامي»، في الطرف الآخر. فإذا أدركت هذه الشعوب الموقف

الصيني الإيجابي في إعادة التوازن إلى القوى العالمية في تاريخنا المعاصر وقدمت دعمها، عندئذٍ ستتمكن الدول كافة من إنشاء تحالف كبير في سعيٍ منها لتطوير نفسها بشكل ذاتي، على أن يأتي هذا التطور في مصلحة شعوبها ومن ثمّ، تتخلص من عمليات سلب ونهب القوى الإمبريالية، ومن تدخلها في شؤونها الخاصة.

يترتب على كل أحد إعلام من حوله بخصوص هذه التغيرات المهمّة والإيجابية، ودفعه إلى إدراكها. فإننا إذا وضعنا حداً لهيمنة القوى الإمبريالية، سنتمكن من فتح آفاق عظيمة لتحرير الشعوب.

أما الآن، وقد عملنا على بفضح هذه الإستراتيجية الخطرة التي تتعلق بمنطقة المحيط الهندي، فإننا نفسح في المجال أمام القارئ لإدراك المسرحية التي تدور أحداثها في منطقة أفغانستان- والباكستان...

قائمة المراجع

- Robert D. Kaplan, Monsoon : The Indian Ocean and the Future of America Power, Random House, 2010
- Martin Jacques, When China Rules the World: The End of the Western Union and the Birth of a New Global Order, Penguin Press, 2009.

أفغانستان

هل هي مقبرة الإمبراطوريات وبوّابة للولوج إلى آسيا؟

نعم، إنها «مقبرة الإمبراطوريات»، شامخة ومستقلة بنفسها. تتميّز أفغانستان بتاريخها الغني بالاضطرابات والأحداث القتالية رفيعة المستوى. حينما يُقبِّل بعضهم اليد التي يعجزون عن قطعها، يبادر الأفغان إلى المناطق الجبلية فيتحصنون فيها لعضّ تلك اليد.

تقع أفغانستان وسط قارة آسيا، عند مفترق طرق، بالغ الأهمية، ومنذ عهود طويلة، فرض الشعب الأفغاني احترامه على الجميع، ولا يزال حتى يومنا هذا يبذل دماءه رخيصة في سبيل نيل حريته. إنّما، ما الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى دخول أفغانستان؟ هل كان ذلك من أجل محاربة حركة طالبان؟ أو من أجل مطاردة بن لادن؟ أو هو للحيلولة دون تهريب المخدرات؟ أو بهدف الاقتراب من دولة الصين؟ يا تُرى، هل ستتمكن الولايات المتحدة من الخروج من أفغانستان؟ وضمن أي شروط؟



١ - جورجيا

٢ - أرمينيا

٣ - أذربيجان

٤ - أوزباكستان

٥ - تركمانستان

٦ - قيرغيزستان

٧ - طاجيكستان

بحر قزوين

بحر عُمان

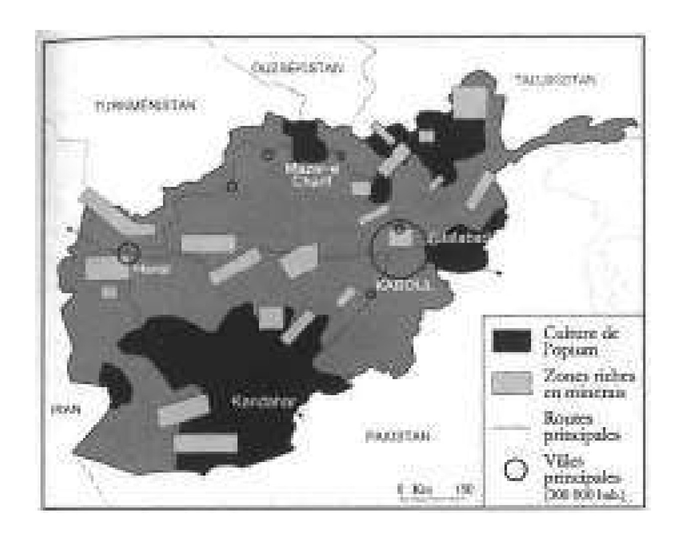
لمحة سريعة عن أفغانستان

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** كابول.
- **المساحة:** ٦٤٧ ٥٠٠ كم٢ .
- **تعداد السكان:** ٢٩ ٨٣٥ ٣٩٢ **(**أي بمعدّل ٣٨ نسمة **/** كم٢**).**

على الصعيد الاجتماعي:

- **نسيج المجتمع:** يتألف الشعب الأفغاني من مجموعات إثنية عدة، يشكّل البشتون أي الأفغان نسبة **(**٥٠**%)**، يليهم الطاجيك، ويشكلون نسبة **(**٢٥**%)**، ثم مجموعة الهزارة **(**٢٤**%)**، وأخيراً، الأوزبك ويشكلون نسبة **(**٧**%)**.
- **متوسط العمر:** ٤٥ عاماً.
- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: ٤٢,٣ %**
- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: ٢٨,١ %**



الكثافة السكانية:

ثقافة الأفيون

مناطق غنية بالمعادن

المدن الرئيسة: يبلغ تعداد سكانها ٣٠٠ ٠٠٠

الطرق الرئيسة

على الصعيد السياسي:

- **نظام الحكم:** جمهورية إسلامية.

- **رئيس الدولة:** حامد كرزاي (شغل منصب رئيساً للبلاد ٢٢ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠١ - ٢٩ ديسمبر /كانون الأول ٢٠١٤)

- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩١٩ (من المملكة المتحدة، التي كانت تمارس وصاية دبلوماسية على البلاد).

على الصعيد الاقتصادي:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ١١,٥ ميليار دولار (٢٠٠٨)

- **الموارد:** الزراعة، المعادن، كما اكتشفت مؤخراً حقول الغاز والنفط.
- **معدل النمو:** ٨,٢% (٢٠١٠).
- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ١٠٠٠ دولار (٢٠١٠).
- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٣٤٩ (١٥٨ من حيث الترتيب)
- **نسبة البطالة:** ٣٥%.
- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** ٥١%.

*** ما مكوّنات الشعب الأفغاني؟**

من المهم أن نعرف أن شعب أفغانستان يتألف من مزيج من الإثنيات. إذ يشكل البشتون الذين هم الأفغان، الفئة الرئيسية (حوالي ٥٠%)، يأتي الطاجيك في المرتبة الثانية، ثم تتبعهم الطائفة الشيعية الهزارة، وتتمركز في مقاطعة هيرات، غربي أفغانستان على الحدود مع إيران. يعيش الطاجيك حتماً في طاجاكستان، ويعيش الكازاخستانيون في مقاطعة كازاخستان، أما الطوائف التي تنحدر من أصلٍ تركي، فهي تعيش في الشمال، تحت قيادة الجنرال دوستوم.

نجد جميع هذه المجموعات العرقية أيضاً في الدول المجاورة لأفغانستان. فالبشتون يشكلون المرتبة الثانية في دولة الباكستان. هذا ما يفسّر الأثر الخطير للمشكلة الأفغانية على جميع المنطقة. فالموضوع متشابك.

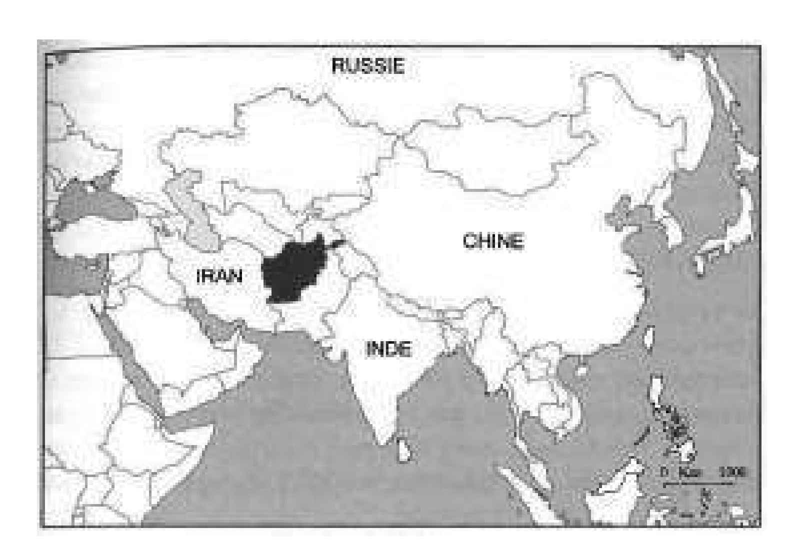
*** ما الذي يميّز الشعب الأفغاني عن غيره من الشعوب؟**

يتّسم هذا الشعب بدرجة عالية من الاستقلالية، فهو يرفض سيطرة الغير، لذلك تراه مستعداً للقتال حتى آخر رمق في حياته، في سبيل الحفاظ على استقلاله، مهما بلغت قوة خصمه. تتجسّد مواطن القوة لديه في الصبر والصلابة، ما جعله قادراً على تحمّل الحروب المتعاقبة.

*** ومع ذلك، حينما يتحدث أحدهم عن الشعب الأفغاني، فإنه يثير موضوع خيانته للعهد...**

في حال استقبلك أحد الأفغان في منزله، وقدّم لك الحماية، فإنه لن يخونك أبداً، بل يؤثر التشاجر حتى لو لقي مصرعه على أن يخلف وعده. هذه هي الفضيلة التي يتميّز بها الشعب الأفغاني غير سائر الشعوب. قد يبدو لنا هذا الشعب معدماً ومتخلفاً، لكنه على قدر كبير من الكياسة وعزة

النفس والكرامة. ولديه أيضاً ثقافة السرّيّة والتكتّم، ومعرفة متقدمة بعلم النفس تجاه عدوه.



أفغانستان المركز الإستراتيجي لقارة آسيا

*** ما ثروات هذا البلد؟ ولماذا تستقطب هذه المنطقة اهتمام القوى العظمى؟**

تمتلك أفغانستان المعادن والغاز والبترول، لكن هذا لا يُعد مسوّغاً لاهتمام الغرب بهذا البلد. إذا أمعنت النظر في خريطة المنطقة، فستلاحظ أن الحدود المشتركة بين أفغانستان والصين تشكّل عاملاً جوهرياً. بالفعل، تُعدُّ أفغانستان المفتاح الذي يصار عبره إلى التحكّم في قارة آسيا، القارة التي تشهد أقوى تطور اقتصادي على الإطلاق، التي ستدور على أرضها أخطر معركة من أجل السيطرة على العالم. تسعى الولايات المتحدة الأمريكية جاهدة كي تمنع تشكّل ائتلاف بين القوى الآسيوية العظمى الرئيسة، روسيا والصين وإيران، ولا ننسى أيضاً الهند. تريد الولايات المتحدة بسط نفوذها بلا منازع على هذه المنطقة.

وللعلم، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تنهار كقوة عظمى على الصعيدين الاقتصادي والصناعي منذ ما يقارب الثلاثين عاماً. فمنذ التسعينيات، كرّس المحافظون الجدد اهتمامهم بهذه القضية لإيجاد حلٍّ، وشكلوا ما يعرف «بمجموعة خبراء الأبحاث». اهتمت هذه المجموعة بصياغة إستراتيجية جديدة، أُطلق عليها ما يسمى بـــ «مشروع القرن الأمريكي الجديد» ورمزوا له بـ (PNAC)، يهدف هذا المشروع إلى إعادة تشكيل «الشرق الأوسط الكبير» الذي سيشمل كلاً من باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى. كما ترى، لم يغب عن ذهنهم أن كل شيء مرتبط بهذه المنطقة ارتباطاً وثيقاً.

*** ما الهدف من إنشاء مخطط «الشرق الأوسط الكبير»؟**

إذا أمعنتَ النظر في هذه المنطقة، فستعلم أن السيطرة عليها تعني السيطرة على ثروات العالم الرئيسة المتعلقة بالطاقة. إنها أداة ابتزاز مُقْنِعة للغاية! يمكن استخدامها كورقة رابحة ضد الصين، وباقي الدول الآسيوية، وفي الوقت عينه، ضد روسيا، للحد من نفوذها الآخذ في التوسع.

*** مع ذلك، سُوّغتْ عملية غزو أفغانستان عام ٢٠٠١، كعملية رد على اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر...**

لا يوجد أي رابط بين أحداث الحادي عشر من سبتمبر وأفغانستان أو حكومة طالبان. لقد طالبت حكومة طالبان الرئيس بوش بتقديم الدلائل القاطعة التي تثبت تورط بن لادن في تلك الهجمات إذا كان يعتقد ذلك. كما

اقترحت الحكومة مثول ان لادن أمام أي محكمة في أي بلد إسلامي محايد. إلّا أن الولايات المتحدة لم تقدم أي دليل إدانة، بل باشرت بقصف البلد على الفور.

*** لقد قالوا لنا حينها، إن القصف يهدف إلى إحلال السلام في البلاد، وتوطيد الديمقراطية، وكسب قلوب السكان ونفوسهم...**

أمّا ما يحصل على أرض الواقع فهو العكس تماماً، إذ تنهال القذائف على المدنيين وتُنفذ المجازر بحقهم! لكن حينما يُستهدف جندي أو جنديان أو ثلاثة جنود، أو حتى عشرة من حلف الناتو، يسارع التحالف إلى إرسال طائرات B-52 ويقصف تجمّعاً للمدنيين في حفل زواج، أو في مأتم. الجدير بالذكر أن قوات حلف الناتو تستخدم على وجه الخصوص القنابل الانشطارية من نوع CBU 87 حيث يصل وزن القنبلة الأم منها إلى ٤٥٠ كغ، وحينما تُلقى، تنشطر إلى ٢٠٢ قنبلة صغيرة، كل واحدة منها مجهزة بمظلة خاصة بها. فضلاً عن ذلك، هناك قسم من هذه القنابل صغيرة الحجم لا ينفجر بصورة آلية حين ملامسته للأرض، لذلك تجد الآلاف منها منتشر في أفغانستان، (وعلى أرض يوغسلافيا أيضاً) كألغام حقيقية، جاهزة للانفجار في أي وقت، حسب قول الخبراء المختصين.

في حقيقة الأمر، يشكل التفوّق التكنولوجي والطائرات الأكثر تطوراً لقوات حلف الناتو قوتها الحقيقية والوحيدة، لكنهم قوم جبناء، يكتفون بإلقاء وابل من القنابل من مكان بعيد، ومن علو شاهق. أتعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى لإحلال السلام؟

*** أما السبب الآخر الذي ذكر لتسويغ هذه الحرب، فهو وضع المرأة الأفغانية. بادر جورج بوش الابن عام ٢٠٠٢ إلى تهنئة نفسه قائلاً: «ها هو ذا العلم الأميركي يرفرف فوق سفارتنا في كابول. (...) وها هي ذي المرأة الأفغانية قد حصلت اليوم على حريتها».**

استُغلّ موضوع المرأة الأفغانية وسيَّسته وسائل إعلام الولايات المتحدة الأمريكية الحربية. لقد وقعت المرأة الأفغانية ضحية الاضطهاد حتى قبل وصول حركة طالبان إلى البلاد. فلماذا لم يُعِرها البيت الأبيض اهتمامه آنئذٍ؟ هذا هو النفاق بعينه.

في واقع الأمر، عاشت المرأة الأفغانية عصرها الذهبي عندما كان النظام الاشتراكي هو النظام السائد في البلاد، وكان ذلك في الفترة الواقعة بين ١٩٧٠-١٩٨٠. لم تشهد أفغانستان في تاريخها أعداداً كبيرة من الطبيبات والمدرسات والمحاميات كتلك التي شهدتها في تلك الحقبة. أما الولايات المتحدة الأمريكية التي تدّعي أنها تهتم بوضع المرأة في أفغانستان، فكانت هي أول من حارب النظام الاشتراكي، عندما قَدَّمتْ دعمها للمجاهدين المتطرفين والرجعيين. إذاً أخذ وضع المرأة في أفغانستان يتدهور قبل عصر طالبان بفترة طويلة، كما أدلت بشهادتها أرملة شابة عام ١٩٩٥ حين قالت: «عرفت النساء في أفغانستان الحرية لمدة ٣٠-٤٠ عاماً، ثم فرض المجاهدون عليها التقيّد بالحجاب الإسلامي، فكانوا يحطمون أجهزة التلفاز، ويمنعون تداول أشرطة التسجيل وينهبون المنازل».

باختصار، استبق جورج بوش الابن الأحداث عندما قال إن المرأة الأفغانية أصبحت تتمتع بحريتها اليوم. لقد زُجّ البلد في واقع الأمر، في

حالة من الفوضى والاضطراب، حتى إن الرئيس حامد كرزاي، المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية، أثبت فشله في فرض سلطته على البلد، وضحى بوضع المرأة في سبيل إقامة تحالفات مع الطوائف المختلفة. ففي سبيل المثال، أصدرت الحكومة قانوناً يسمح بإدخال التعديلات على قانون الأسرة وفق العرقيات، وبذلك سُمح بالاغتصاب في إطار الزوجية. كما أن موضوع الحد الأدنى لزواج الفتيات في سن التاسعة خاضع للدراسة، وهذا أسوأ بكثير مما جاءت به حكومة طالبان!

*** مع حيازته هذا السلاح الفتاك، كان يجدر بحلف الناتو أن يحقق النصر في حربه على أفغانستان. فضلاً عن إرسال الدول الأعضاء لقواتها العسكرية غداة تفجيرات الحادي عشر من أيلول تضامناً مع الولايات المتحدة الأمريكية...**

نعم، لكن الحصيلة جاءت مأساوية، فبعد انقضاء عشر سنوات على وجودها، تبين لقوات حلف الناتو أن التكاليف كانت باهظة، والإنجازات غير مُرضية. فعلى الرغم من امتلاكها للمعدات المتطورة، ولحضورها العسكري، لم تنجح في تعيين حكومة أفغانية مستقرة وعميلة، قادرة على فرض سيطرتها على مساحة لا تتجاوز ٣٠ كم حول العاصمة! لقد عجزت هذه القوات كلياً عن ضبط الأمور في كل أرجاء البلد!

*** وهذا يكلف مبالغ ضخمة تقع على عاتق دافعي الضرائب الأوروبيين!**

نعم، إن تكاليف هذه الحرب تضاهي اليوم في الوقت الراهن تكاليف حرب العراق. مع ذلك نستطيع أن نقرّ اليوم بهزيمة حلف الناتو.

*** حقاً؟**

لم تتمكن قوات حلف الناتو من فرض سيادتها على أي شبر من أرض أفغانستان، ويستمر الأفغان في المقاومة على الرغم من القصف الذي يتعرضون له على نحوٍ يومي. تُرسَل الإمدادات إلى قوات حلف الناتو عبر باكستان وخط بيشاور، إلّا إن المقاومة تسيطر على هذا الطريق وتعمل على تدمير ٤٠-٥٠% من العتاد أو الاستيلاء عليه. يكفي أن يتمركز ثلاثة شبان في المناطق الجبلية، مسلحين بمدافع الهاون، وبالكلاشنكوف من أجل تدمير القوافل التي تعبر من أمامهم، إنه أمر يسير، ولا يكلف كثيراً. بالمناسبة، صرّح ريتشارد هولبروك، الوزير السابق والمبعوث الخاص لأوباما إلى أفغانستان، قبيل وفاته، أن الولايات المتحدة قد منيت بهزيمة في أفغانستان، وما عليها إلّا الانسحاب من المنطقة.

*** لكنها لم تغادر! لماذا!**

لأسباب نفسية قبل أي شيء آخر، إذ إن الهيبة هي مشكلة المشكلات للولايات المتحدة الأمريكيّة، ولدول حلف الناتو، على حدّ سواء. إن أمر مغادرة أفغانستان بعد الهزيمة التي لحقت بقواتها يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية معرّضة لخسارة مناطق أخرى، إذ بات من الممكن لأي دولة أن تتمرد عليها وتنتصر.

*** تتهم القوى المحتلّة في أفغانستان أفراد المقاومة بتهريب المخدرات...**

لقد استخلصت المقاومة بما فيها حركة طالبان دروساً وعبراً من أخطاء ارتكبتها في الماضي. حظرت طالبان زراعة الخشخاش عندما كانت في السلطة، وعملت على إحراق العديد من الحقول المزروعة بهذه المادة، لكنها أثارت بهذه

العملية عداء شريحة من الفلاحين الذين كانوا يعانون من الفقر المدقع والعوز. أما الآن، فقد اختلف الوضع، وباتت القوى الأجنبية تحتل البلاد، وتشكّلت المقاومة، ما دفع طالبان إلى التساهل في زراعة الخشخاش، لكنها في المقابل فرضت على الفلاحين نسبة معينة من الضرائب.

*** حسناً، هذا ليس بالأمر الأخلاقي في أي حال!**

من المهم أن ندرك أن مادة الأفيون تدخل في الصناعة. إذ إن إنتاجه يحتاج إلى عالِم كيميائي ومختبر. فبعد أن يُنتَج الأفيون داخل المعمل، يحتاج الأمر إلى شبكة نقل وإمداد، من أجل عملية تسويق البضاعة التي ستباع في الأسواق، وتعود بالأرباح الطائلة، أعني أسواق الولايات المتحدة الأمريكية، وأوروبا الغربية.

باختصار، يحتاج الموضوع إلى قاعدة متينة من الإمداد والنقل، كما يحتاج إلى أجهزة استخبارات على مستوى عالٍ من أجل تسويق المنتج إلى أماكن استهلاكه. وتفتقر المقاومة الأفغانية إلى هذه الإمكانات. فلو امتلك الشعب الأفغاني تلك الإمكانات لتصنيع الأفيون، لارتقت البلاد إلى صفوف الدول المتطورة، ولحمل الجميع شهادة الكيمياء في جيبه.

*** فمن إذاً الذي يُنتِج العقاقير المشتقة من مادة الأفيون؟ ومن الذي يضبط عملية التهريب؟**

إنهم أباطرة الحروب الذين يحظون بدعم الولايات المتحدة الأمريكية، وبالمناصب الحكومية العليا، كل ذلك يتم بمساعدة الاستخبارات السرية للسلطات المحتلّة.

تجارة المخدرات:
مصدر التمويل الخاص بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية

قادت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية العديد من العمليات السريّة ضد الشيوعية في فترة الحرب الباردة. فقد لجأت إلى تغذية صندوقها الأسود بأموال كانت تجنيها من تجارة المخدرات، وذلك تلافياً لمراقبة مجلس الشيوخ لميزانيتها، فتمكنت بهذه الطريقة من إنفاق هذا المال بحرية تامّة، وفي مأمن من العقاب.

سجل المؤرّخ ألفريد مكوي أدلّة دامغة تثبت متاجرة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بالمخدرات في الخفاء، مع كل من صقلية ومرسيليا ونابولي ولاوس وبورما وأفغانستان وباكستان وعصابات الكارتل في أمريكا اللاتينية... كما زودت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية كبار تجار المخدرات بالسلاح، وقدمت لهم الدعم السياسي واللوجيستي والحصانة...

*** تبدأ عملية تفريغ الحمولة من صقلية...**

يعود تاريخ تواطؤ أجهزة الاستخبارات الأمريكية مع عصابة المافيا إلى أربعينيات القرن الماضي. كانت دائرة الاستخبارات الأمنية، التي تُعَدُّ

المؤسّس الأول لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية الحاليّة، تتعامل مع عصابة المافيا في صقلية من أجل الإعداد لتفريغ حمولة مراكب الجنود الأمريكيين في الجزيرة. وكانت دائرة الاستخبارات الأمنية الأمريكية تحتاج إلى من يزودها بمعلومات مباشرة من المصادر الأساسيّة، من أجل إتمام الصفقة العسكرية. من جهتهم، وجد أفراد عصابة المافيا متعة في المشاركة في النضال ضد نظام موسوليني، الذي ضيّق الخناق على الأنشطة الإجرامية التي تقودها المافيا الإيطالية، التي تعرف باسم (لا كوسا نوسترا).

مع ذلك، استمر هذا التعاون حتى بعد اندثار النظام الفاشي، فقد خشيت واشنطن، كما خشيت الطائفة المسيحية الديمقراطية في إيطاليا، من انتصار الشيوعيين بعد سقوط النظام الفاشي، بسبب النشاط المكثف الذي أبداه هؤلاء، في أثناء المقاومة، ما أكسبهم تأييد الرأي العام، فلجأت واشنطن والطائفة المسيحية الديمقراطية إلى الاعتماد على عصابة المافيا الإيطالية المشهورة «بتقواها». وبذلك تسلّم أعضاء هذه العصابة المناصب الرئيسة داخل الجهاز الإيطالي السياسي الجديد.

صرّح فيكتور مارشيتي، العميل السابق في وكالة الاستخبارات المركزية: «لقد اعتمدت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على أفراد المافيا المعادين للشيوعية، من أجل ضبط الأمور في إيطاليا». نتيجة لذلك، وجدت عصابة المافيا نفسها مدعومة على جميع مستويات السلطة، ما أتاح لها الفرصة لمتابعة أنشطتها الإجرامية وهي تتمتع بكامل الحصانة. لقد تمكنت هذه العصابة من التغلغل داخل المجتمع الإيطالي، متسببة بتآكله، كما أشار إلى ذلك ليولوكا أورلاندو، الحاكم الأسبق لباليرم، والمعروف بنضاله

ضد المافيا الإيطالية: «يتحمّل الأمريكيون المسؤولية الكبرى في النفوذ الذي حصلت عليه المافيا الإيطالية».

*** ... وتنتهي عند عصابة المافيا الفرنسيّة.**

لقد برعت المافيا الإيطالية في تمويل الصناديق السود العائدة إلى وكالة الاستخبارات المركزية، وبدل أن يقضي العرّاب الشهير لوكي لوسيانو عقوبة السجن لمدة خمسين عاماً، بادرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الإفراج عنه، بسبب مساندته لها في تيسير التواصل بين وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والمافيا الإيطالية. وحين عودته إلى صقلية، عمل لوكي لوسيانو على تطوير شبكة كاملة لتجارة الهيرويين، بالتعاون مع الكورسيين، أطلق عليها اسم عصابة المافيا الفرنسية. أما المخدرات فتُنقل من جنوب شرقي آسيا، من موضع تمركز الولايات المتحدة الأمريكية. فبينما كانت الحرب مشتعلة مع فيتنام ولاوس، في سبيل المثال، كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تموّل حرب العصابات المناهضة للشيوعية بقيادة فانغ باو، بتجارة الأفيون، مستخدمة لنقله الخطوط الجوية الأمريكية للتمويه.

صرح غاري ويب، الحائز جائزة بوليتزر، عبر استقصاء أجراه، أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية عملت في الثمانينيات على إغراق الأحياء المعزولة في أميركا بالمخدرات، موجهة ضربة قاصمة ضد الحركة الثورية التي قادها الفهود السود. وسخّرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية فيما بعد المال الذي جنته من هذه العملية، في عملية تمويل إرهابيي الكونترا في نيكاراغوا. وفي عام ٢٠٠٤، وُجد غاري ويب مقتولاً برصاصتين، استقرتا في رأسه. أفاد تقرير القضاء أنه حادث انتحار.

حرب أفغانستان وتجارة الأفيون

استخدمت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في أفغانستان الأساليب عينها في تمويل المقاتلين المعارضين للقوات السوفييتية. إذ لمّا بدأ الصراع عام ١٩٧٩، كان كل أفراد هيئة مكافحة المخدرات الأمريكية قد غادروا باكستان وأفغانستان، ما سمح بتعزيز إنتاج الأفيون وازدهار تجارة الهيروين، فباتت الشحنات تتدفق متجهة إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

وإبان السنوات العشرين التي تلتها، اجتهدت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بحماية الجهات المشتركة، بدءاً من زراعة الخشخاش، وانتهاءً بتوزيع الهيروين.

في غضون هذه الفترة، ارتفع معدّل إنتاج الأفيون السنوي في أفغانستان من ٢٥٠ طنّاً إلى ٤٦٠٠ طن. وفي الثمانينيات أُنشئ ما بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ معمل خاص، لتكرير الهيروين في باكستان، وكان الجنرال فضل حق، حاكم الإقليم الواقع على الحدود الشمالية الغربية للبلاد، يشرف شخصياً على هذه المعامل، وأعلن صراحة على الملأ، في أثناء المؤتمر القبلي الذي عقد في وانا، أن الهيروين أصبح مصدراً ربحياً للباكستان.

يأتي الهيروين المكرر في باكستان من الأفيون المنتج في أفغانستان. كان حكمت يار زعيم الحرب، يشرف بنفسه على عملية التصنيع في وادي

هيلماند الخصيب، إذ إنه كان يعمل بصفة مباشرة لمصلحة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وكانت أرباح تجّار المخدرات الباكسانيين والأفغانيين تودع في مصرف الائتمان والتجارة الدولية. كل ذلك، تمّ بموافقة من محمد ضياء الحق، الرئيس الباكستاني في ذلك الوقت، وبتواطؤ أجهزة الاستخبارات الباكستانية المعروفة بالـ (ISI).

نتيجة لذلك، بلغ إنتاج الأفيون وتجارة الهيروين أبعاداً مأساوية، ما دفع دافيد موستو، أحد أعضاء المجلس الإستراتيجي في البيت الأبيض لأن يوجه أسئلته بشأن القضايا المتعلقة بالمخدرات إلى أعضاء المجلس في حكومة كارتر: «لقد ذهبنا إلى أفغانستان من أجل تقديم الدعم لمزارعي الأفيون في حركة التمرد التي قادوها ضد الاتحاد السوفييتي. ألا يجدر بنا القيام بمبادرة تلافياً لما اقترفناه في لاوس؟ ألا يجدر بنا القيام بمحاولة لتزويد هؤلاء المزارعين بالمال إذا هم أقلعوا عن إنتاج الأفيون؟»

أعقب هذه الأسئلة صمت مضجر.

*** وكيف هو الوضع اليوم؟**

بعد انقضاء ثلاثين عاماً، تبيّن أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لا تزال تلجأ إلى الحلول عينها. يُقدّر أن يصل إنتاج الأفيون الأفغاني عام ٢٠٠٩ إلى ٦.٩٠٠ طن، وفقاً لتقديرات هيئة الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات والجريمة. وحسب رأي مارسيل شويت، الرئيس الأسبق للاستخبارات الفرنسية، «أن أفراداً من القوات المسلّحة، يشرفون على تأمين تجارة المخدرات في أفغانستان». لا تملك أفغانستان أي منفذ بحري، مع ذلك، لا تُنقل المخدرات عبر الجبال الوعرة، بل عن طريق الجو، عبر المطارات والطائرات

الضخمة، وبإشراف مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية. فمن مدمني المخدرات في لوس أنجلوس، إلى التجار الذين يتعرضون للابتزاز في جنوبي إيطاليا، مروراً بفلاحي لاوس، أو فلاحي أفغانستان. لقد أغدق المعنيون الأموال الطائلة، ولا يزالون يغدقونها، في مقابل الممارسات المشبوهة التي تنفذها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، الممارسات التي تنتمي إلى الجريمة المنظّمة، والإرهاب والمخدرات.

*** إنه اتهام بالغ الخطورة!**

تهتم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في الحقيقة بإنتاج الأفيون بشكل خاص، وتطلق عليه تسمية (العمليات السود). إذ تأخذ هذه الوكالة على عاتقها نقل المخدرات إلى الدول الغربية حيث يباع. أما الأموال القذرة التي تجنيها، فتستخدمها في زعزعة الاستقرار داخل الدول التي صنّفتها كبلدان معادية، لينتهي المطاف بهذه الأموال القذرة داخل الصندوق الأسود للوكالة، الذي يقع في معزل عن الرقابة البرلمانية. لذا لم يعد من الضروري أخذ موافقة البرلمان على بعض الميزانيات. تستطيع الوكالة بهذا الإجراء الاستفادة من الصندوق الأسود بشكل سري للغاية، دون حاجة إلى تقديم مسوّغات بشأن المبالغ التي تنفقها.

*** وكيف تجري الأمور عملياً اليوم؟**

يشحن الأميركيون المخدرات ضمن طائرات الشبح الأمريكية، التي لا تحمل لوحات، ولا تحتاج إذناً بالهبوط في المطارات. إذ تقلع هذه الطائرات، وتهبط في قواعدها الخاصّة، في أي بلد يخضع للولايات المتحدة الأمريكية، مثل مونز في بلجيكا.

*** دون أن توجّه إليهم الحكومة البلجيكية أي سؤال؟**

إن الصلة الوثيقة التي تربط بلجيكا بواشنطن تجعلها تغضّ الطرف. ليُعلم أن الولايات المتحدة الأمريكية تمارس نشاطات سرية في بروكسل، ولا تدري عنها الحكومة البلجيكية أي شيء!

*** بالعودة إلى أفغانستان؛ نحن في النهاية لا نملك أي معلومة عن هذا المجتمع، إنهم يُظهِرون الشعب الأفغاني «كشعب همجي»، لا يملك تاريخاً خاصاً به...**

ومع ذلك يتميّز هذا الشعب بتاريخ أصيل وزاخر بالمعلومات. لقد أوجد البشتون ما يعرف بـ«مجلس اللويا جيرغا أو الاجتماع الكبير» من أجل تطبيق الديمقراطية. يأتي زعماء القبائل من كل أطراف البلد، لمناقشة موضوع السلم والحرب. تجتمع هذه الهيئة كلما دعت الحاجة إلى اتخاذ قرارٍ مهم.

ولدت دولة أفغانستان من الداخل الأفغاني عام ١٧٤٧، ولم يكن للقوى الاستعمارية الأجنبية أي دور في ذلك. ضم الملك الأول للبلاد، أحمد شاه دوراني، جهوده إلى جهود الجيرغا[١]، بهدف إقامة أفغانستان ضمن الحدود التي نراها اليوم.

*** إلّا إنها مع ذلك سلطة إقطاعية تتسم بالتركيز والمركزية...**

هنا لفتة مهمّة، نجح البشتون في دمج مختلف الفئات العرقية في بلدهم، ولم يستعمروهم. نحن لا ننكر أن هذا النظام الذي هو بالتأكيد إقطاعي، يحفظ للفلاحين حقوقهم، إذ لا يمكن قتلهم والإفلات من العقاب.

---

(١) الجيرغا هو مجلس قبلي، يتم فيه اتخاذ القرارات بتوافق الآراء – المترجم.

مما لا شك فيه، توجد دولة تقود الشعب، لكن الأمر مختلف جذرياً عن الدولة البورجوازية الأوروبية المركزية التي تطبق قانون نابليون، ومبادئ سياسته وتنظيم جيشه. تعتمد الدولة على نظام منبثق عن الهيئة التقليدية. أما الجيش، فيتألف أفراده من الفلاحين. وفي حال الحرب، توجِّه السلطة المركزية نداءً إلى الشعب، فيحمل السلاح، مستجيباً للنداء، ليدافع عن نفسه. لقد احتاج الأفغانيون عام ١٧٤٧ إلى دولة، فأسسوا قواعدها، وبعد سنوات عدة لعبت هذه الدولة دوراً بالغ الأهمية عندما اقتربت القوات المحتلة منها...

بمَ كانت أفغانستان تثير اهتمامهم؟

يجب أن نذكر جيداً أن إلدورادو البلدان الاستعمارية، في تلك الحقبة الزمنية، تجسّدت بالهند التي كانت ثرواتها تحت سيطرة البريطانيين. إلّا أن الإمبريالية الروسية عززت من مركزها، وقاتلت الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٤٠، واستولت على القوقاز وآسيا الوسطى. ثم توجهت القوات الروسية نحو الهند، فأصيبت بريطانيا العظمى بالهلع، فأرادت حماية مستعمرتها. وهكذا اشتعلت الحرب الأولى بين إنجلترا وأفغانستان، واستمرت ما بين عامي ١٨٣٨ - ١٨٤٢.

*** ماذا كان البريطانيون يريدون آنذاك؟**

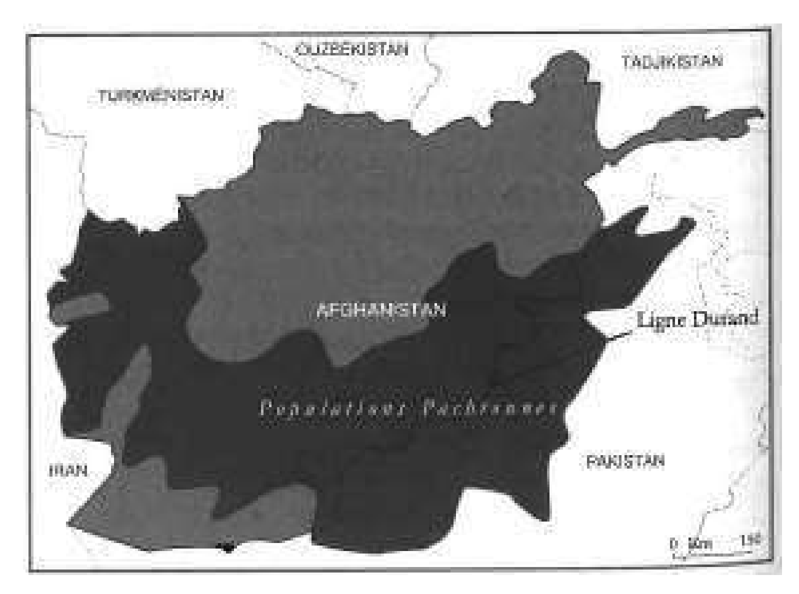
كانوا يسعون إلى استخدام الأفغان ضد الروس، إنّما، من الصعب التحكّم بالشعب الأفغاني واستمالته، فهو لا يعير أي اهتمام للأموال التي سيجنيها بالمقابل. لم يذعن الشعب الأفغاني لمضايقات البريطانيين بل

عاملهم على قدم المساواة مع الروس. حينئذٍ بادرت بريطانيا إلى غزو أفغانستان حتى وصلت إلى مشارف كابول. غير أن الشخصيات التي سلمتها القيادة لم تحقق أي نجاح، ووجدت القوات البريطانية نفسها مطوقة ومحرومة من مصادر إمدادها. كانت هزيمتها أليمة، ولم يتمكّن سوى ثلاثمئة جندي من مغادرة البلاد!

*** إلّا أنّ هذا لم يثنِ لندن عن شن حربٍ ثانية على أفغانستان عام ١٨٧٨؟**

ذلك أن هدفها لم يتحقق في المرة الأولى: احتواء التوسع الروسي في آسيا الوسطى، من أجل حماية مصالحها الاستعمارية. أشرف على قيادة هذه الحرب الجديدة الحاكم البريطاني دوران، فجهز لها مجموعة من الرجال، قوامها أربعون ألف مقاتل، استولوا على كابول، وبقيت روسيا على الحياد، ولم تتدخّل. فقوبل دوران بانتفاضة شعبية، بادرت إلى قتل القنصل البريطاني، واستأنفت الأعمال القتالية.

قرر دوران، في النهاية، الانسحاب من أفغانستان بعد فشله في السيطرة على هذه المقاومة، غير أنه استخدم الاستراتيجية البريطانية التقليدية، التي تنص على سياسة «فرّق تسد»، فعمل على تقسيم إقليم البشتون إلى منطقتين، وعرف هذا الخط فيما بعد بخط دوران الحدودي، الذي يفصل باكستان عن أفغانستان، هذا الشريط الحدودي الذي لم يعترف به البشتون حتى الآن. وفي عام ١٩٤٧، كانت أفغانستان هي أول دولة تعترض على اعتراف منظمة الأمم المتحدة بدولة الباكستان.



خط «دوران» الذي قسم إقليم البشتون عام ١٨٩٣.

*** أليست باكستان الحالية جزءاً من الهند؟**

كلا، فالقسم الأكبر من باكستان هو الجزء الذي اقتطعته بريطانيا من أفغانستان، وسيطرت عليه بعد الحرب الأولى التي شنتها على أفغانستان.

*** بعد هزيمة ألمانيا عام ١٩١٨، شنت بريطانيا حربها الثالثة على أفغانستان...**

طالب الأفغان باستقلال بلادهم الكامل، غير أن حرب ١٩١٤-١٩١٨ أحدثت نقلة نوعية في فنون الحرب. بات النفط، وللمرة الأولى، عنصراً حاسماً في تاريخ الحروب. كان الأفغان شعباً بدائياً جداً، لم يشاهد في حياته السلاح الثقيل أو الدبابات أو الطائرات. بادرت بريطانيا العظمى إلى حشد ٧٤٠.٠٠٠ جندي، لكنها فشلت مرة أخرى، وهُزمت على الرغم من تفوقها في العدد والعتاد، فقد باغتها الأفغان بحرب العصابات وانتصروا

عليها. وأُعلنت أخيراً أفغانستان دولة مستقلة، وفُتحت فيها سفارة بريطانية، وأقامت هذه الأخيرة علاقات دبلوماسية مع عدوها القديم.

*** حصل الأفغان على استقلالهم عام ١٩١٩، واندثرت الإمبراطورية الروسية ليحل محلها الاتحاد السوفييتي. يختلف هذا الجار الجديد بصورة كلية عن الجار القديم! فما طبيعة العلاقات التي تربط أفغانستان بالاتحاد السوفييتي؟**

حاول الإنكليز في بداية الأمر التحكّم بالأفغان، وتحريضهم على السوفييت، لكن الأفغان تقرّبوا إلى جارهم الشيوعي، وتطورت العلاقات بين الدولتين، وللمرة الأولى، عرفت أفغانستان معنى التحديث. شهدت شق الطرق، وفتح المدارس والجامعات، وبات الطلبة يذهبون إلى الاتحاد السوفييتي لمتابعة دراساتهم.

في واقع الأمر، تواجه كل من أفغانستان والاتحاد السوفييتي مشكلات متشابهة. هناك مجموعات إثنية متعددة في كلا البلدين، حيث يعاني بعضها من الاضطهاد. يبدو الأنموذج السوفييتي الدَوَلاني أكثر جاذبية لكثير من الأفغان، لذلك تطورت الروابط بين البلدين لتصبح أقوى من ذي قبل. كان تأثير التحديث والتطوير الذي أدخله السوفييت في أفغانستان أكثر أهمية مما جاء به الغربيون.

*** ما طبيعة العلاقات التي تربط الدولة الأفغانية بدول الغرب؟**

أُنشئت علاقات دبلوماسية، كما فُتحت سفارات لدول غربية في أفغانستان. ظهرت في تلك الحقبة عوامل التحديث، وتطوّر النظام الرأسمالي داخل البلاد. إلا أن الدرس الذي استخلصه الغرب من حروبه السابقة التي شنها ضد أفغانستان لقنته درساً واضحاً، فمن المتعذر اللعب بمصير

الشعب الأفغاني، فهو لا يسمح لأحد أن يستخدمه كقطع الشطرنج خدمةً للقوى الإمبريالية، فالذي يحاول تسخير هذا الشعب لأغراضه الشخصية، أو يحاول استعباده، يكافأ بالهزيمة. ومن جانب آخر، يسمح الشعب الأفغاني للدول الغربية بعقد صفقات معه وفتح مشاريع تجارية، ولا مانع لديه من فتح سفارات غربية في كابول، مع احتفاظه بالسيادة في بلده.

*** ما شكل العلاقات التي تربط هذه الدولة بباقي دول العالم؟**

لقد رزحت كل دول أفريقيا وآسيا، ولا تزال، تحت نير الحكم الاستعماري، باستثناء بعض دول أمريكا الجنوبية التي تمكنت من الحصول على استقلالها. شكّلت أفغانستان استثناءً على مستوى المنطقة بنظامها المستقل، فبادرت إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع العديد من الدول، وشاركت كعضو مؤسِّس في عصبة الأمم عام ١٩١٩، ثم فيما بعد في منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥.

*** لقد تحدثْتَ فيما تقدّم عن تطوّر المجتمع الأفغاني...**

نعم، لقد شهد البلد تطوره من جراء اتصاله بالتيارات الداخلية والخارجية، فنشأت طبقة العمال، وبرزت طبقة المثقفين، لكن مع احتفاظه بطابعه الريفي بصفة أساسية. انطلقت طبقة المثقفين لتتابع دراستها في الاتحاد السوفييتي كما في فرنسا وإنجلترا ... وتشكلت طبقتا بورجوازية التجار، وبورجوازية الكومبرادور، فيما أدخلَ التجار الأجانب التكنولوجيا الحديثة في البلد. وأخيراً، أُعدّ جيش وطني مدرّب وفق الطريقة الحديثة، وأصبح عماد الدولة، فهو يضم في إطار مشترك، أفراداً من جميع الأعراق والطبقات الاجتماعية، أي إنه يسهم في تكوين الشعب الأفغاني.

*** في عام ١٩٦٥، شُكِّل حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وهو حزب شيوعي تسبب في إشعال الاضطرابات في الداخل الأفغاني...**

هذا صحيح، شكّل تأسيس أول حزب سياسي حدثاً مهماً بالنسبة للبلد، ولم تكن الطبقة العاملة هي التي أسست هذا الحزب، بل البورجوازية المتوسطة. بدا هذا الحزب في ظاهره كبنية موحّدة، إلّا أنه في حقيقة الأمر، كان منقسماً إلى معسكرين سياسيين، الأول من أنصار خلق، والآخر من أنصار برشام. فمن أجل إنجاح الثورة الديمقراطية، أكّد المعسكر السياسي الأول أنه يتوجب على طبقة العمال أن تلعب دور الصدارة، في حين أوصى المعسكر السياسي الآخر بضرورة إنشاء تحالف يضم، على قدم المساواة، الطبقات الاجتماعية الداعمة للثورة كافة. إلّا أن هذا الخلاف المماثل للعديد من الحركات الشيوعية، لم يمنع من توحّد معسكري خلق وبرشام في جبهة مشتركة، في الانتخابات التي نظمت عام ١٩٦٥ ثم في عام ١٩٦٩ في ظل الحكم الملكي لمحمد ضاهر شاه. إنّما فيما بعد، تبلورت هذه الخلافات في الإستراتيجية التي أعدها الطرفان للتوصل إلى إحداث تغيير في أفغانستان. ففي حين كان خلق حريصاً على تشكيل قاعدة اجتماعية له في الأوساط الشعبية، مع حرصه على تنحية النخبة جانباً، وذلك وفاءً منه لرؤيته الأورثوذوكسية، كان برشام يرمي إلى اختراق السلطة، بتعيين أعضاء من القيادات العسكرية والبيروقراطيين. وأخيراً، نجح برشام في تحقيق أهدافه بتقربه إلى الأمير داوود. وفي آب من عام ١٩٧٣، قُلب نظام الحكم الملكي، وعُيِّن الأمير داوود رئيساً للجمهورية الجديدة.

غير أن رئيس الدولة الجديد لم يكن على قدر كاف من المسؤولية، وعلى مستوى الآمال المعقودة عليه، فقد لجأ إلى قمع معارضيه الذين طالبوا بتطبيق الديمقراطية التي كانوا يحلمون بها. رأى خلق، في بادئ الأمر، أن انقلاب عام ١٩٧٣ هو أهون الشرين، وانتهى إلى ضرورة استئناف القتال لإنقاذ الثورة الديمقراطية. من جانبه، رأى برشام الذي أسهم في وصول الأمير داوود إلى كرسي السلطة، أن العملية كانت فشلاً ذريعاً، ما جعل التياران يُقدمان على توحيد مسعاهما مرة أخرى لقلب نظام الحكم، وشهد بذلك عام ١٩٧٧ إعادة توحيد حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني. وبعد انقضاء عام نُحي الأمير داوود، واعتلى حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني عرش السلطة، ممثلاً بمحمد تركي على رأسه. وكانت فترة حكمه هي أفضل عهد للشعب الأفغاني؛ فقد باشرت حكومته بإجراء تعديلات وإصلاحات في النظام الزراعي على أوسع نطاق، كمساعدة للفلاحين الذين يعانون من الفقر. ثم انتقل إلى شق الطرق وبناء المدارس والاهتمام بالبنى التحتية الصحية. كما كان هذا العهد هو الأفضل للمرأة الأفغانية باعتماد برنامج جديد لمحو الأميّة. إنّما هذه الإصلاحات لم تنل رضا الطبقات الأكثر رجعية في البلاد، بل تسبّبت في خلق معارضة شديدة.

*** غالباً ما يرددون أن المشكلة بدأت مع الغزو السوفييتي للبلاد عام ١٩٧٩، الذي عمل على توحيد صفوف الشعب...**

كلا. لقد بدأت المشكلة في وقت مبكر، حتى قبل غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان من أجل دعم الحكومة، أي عندما استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية الشعب الأفغاني. فمن أجل التصدي للثورة،

عمدت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى تسليح العديد من زعماء الحرب المحليين بفضل التمويل السعودي، فكانت السعودية تنفق دولاراً سعودياً في مقابل كل دولار تنفقه أميركا.

*** من هم أباطرة الحرب الذين دُعموا بالسلاح والتمويل؟**

إنهم البشتون، حكمتيار، وأحمد شاه مسعود الطاجيكي، والجنرال دوستم الأوزبيكي، وإسماعيل خان هيرات. كل أولئك كانوا ممثلين عن المجتمع الإقطاعي والقبلي القديم. لقد اعتمدت عليهم الولايات المحتدة الأمريكية، إذ كانوا يشكلون العناصر الأكثر رجعية!

*** هل نستخلص مما تقدّم أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تنصب فخاً لاستدراج الاتحاد السوفييتي بهذه الطريقة؟**

نعم، لقد أعلنها، وبكل فخر، زبيجنيو بريجنسكي بعد سنوات عدة، وكان يشغل آنذاك منصب وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في عهد جيمي كارتر... كانت الولايات المتحدة الأمريكية خارجة لتوها من حرب فيتنام، في إثر الهزيمة الثقيلة التي مُنيت بها، بعد عقدين من الزمن خاضت فيهما حرباً باهظة الثمن وسيئة السمعة، فأراد زبيجنيو بريجنسكي تطوير نظرية «مصيدة الدب» مستغلاً الفرصة لزج الاتحاد السوفييتي في مستنقع «فيتنام الخاصة به». لذلك ما كان من الأمريكيين إلّا إرسال «البعوض» لإزعاج الدب.

زبيجنيو بريجنسكي:
«أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على تمويل الإسلاميين في أفغانستان»

في الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٩٨، أجرت الصحيفة الأسبوعية «المراقب الجديد» (Le Nouvel Observateur) لقاءً مع زبيجنيو بريجنسكي...

- مراسل الصحيفة : أكّد مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق روبير غيت، في مذكراته، أن شبكات الاستخبارات ومكاتب التجسّس السرية الأمريكية باشرت بتقديم المساعدة لمجاهدي الأفغان، قبل ستة أشهر من التدخل السوفييتي. لقد كنتَ في ذلك الوقت تشغل منصب مستشار الرئيس كارتر للشؤون الأمنية. لا بد أن الدور الذي قمت به كان محورياً في هذه القضية. هل تؤكّد ذلك؟

- زبيجنيو بريجنسكي: نعم. حسبما ورد في الرواية الرسمية للقصة، بدأت وكالة الاستخبارات المركزية بتقديم دعمها للمجاهدين عام ١٩٨٠، وتحديداً في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٩٧٩، أي بعد غزو الجيش السوفييتي لأفغانستان. إنّما الحقيقة التي بقيت طي الكتمان حتى هذه اللحظة، تختلف تماماً عن مجريات هذه الرواية الرسمية، فقد وقّع الرئيس كارتر مذكرة التوجيه الأولى، التي تتضمّن الدعم السرّي لمعارضي النظام

المؤيد للسوفييت، في كابول، في الثالث من شهر تموز من عام ١٩٧٩. وفي ذلك اليوم، دونتُ حاشية، أرسلتها إلى الرئيس، شرحتُ له فيها أن هذه المساعدة، حسب اعتقادي، ستفضي إلى تدخل عسكري سوفييتي.

- **مراسل الصحيفة:** لمّا سوّغ السوفييت تدخلهم في أفغانستان بأنه عملية تصدّي للتدخل السرّي للولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان، لم يصدقهم أحد. مع ذلك لم يأت ادعاؤهم من فراغ... ألا تشعر بالندم اليوم؟

- **زبيجنيو بريجنسكي:** وعلام أندم؟ كانت هذه العملية السرية فكرة رائعة. نتج عنها استدراج الروس للوقوع في مصيدة أفغانستان، وتريدني أن أشعر بالندم حيال هذه العملية؟ في اليوم الذي اجتاز فيه السوفييت الشريط الحدودي بشكل رسمي، كتبتُ إلى الرئيس كارتر بإيجاز: «لقد حصلنا الآن على الفرصة التي عبرها أُقحِم الاتحاد السوفييتي في حربه ضد فيتنام». وبالفعل، اضطرت موسكو إلى خوض حرب استمرت لعشر سنوات تقريباً، لم يستطع النظام تحملها، أدى هذا الصراع إلى انهيار معنويات الإمبراطورية السوفييتية، ومن ثمّ سقوطها في نهاية المطاف.

- **مراسل الصحيفة:** ألا تشعر بالندم أيضاً لدعمكم للأصوليين الإسلاميين، وذلك بتزويدهم بالسلاح وبالنصائح ليتحولوا إلى إرهابيين في المستقبل؟

- **زبيجنيو بريجنسكي:** ما الخيار الأهم لتاريخ العالم؟ هل هي حركة طالبان؟ أو انهيار الإمبراطورية السوفييتية؟ بعض الإسلاميين المتحمسين، أو تحرير أوروبا الوسطى، ووضع نهاية للحرب الباردة؟

*** ما الذي فعلته الولايات المتحدة الأمريكية و«البعوض» من الناحية العمليّة؟**

كان هؤلاء الإسلاميون يتابعون دراستهم في جامعة كابول، وكان ذلك في السبعينيات. أصبح معظمهم مناهضين للشيوعية ومعارضين للحزب، وبعد قيام ثورة ١٩٧٩، فروا إلى باكستان، حيث عُيِّنوا في جهاز الاستخبارات الباكستاني، الذي زودهم بالسلاح عن طريق مركز الاستخبارات المركزية، وبتمويل من السلطات السعودية. كان الجنرال ضياء الحق في سدة الحكم في باكستان، البلد الجار، وكان قد أمر بتنفيذ حكم الإعدام برئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو (والد بنظير بوتو). وبذلك تحولت باكستان إلى ألعوبة بيد الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبحت مرتعاً لتهيئة الإطار للمجاهدين، ولتقديم الدعم لهم.

*** لماذا سعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إشعال هذه الحرب؟**

كانت الدول الغربية تمر بمحنة حرجة منذ ١٩٧٣، تمثلت بالأزمة الاقتصادية الحادة. لذلك سعت إلى محاربة الاتحاد السوفييتي، في مسعى منها للخروج من أزمتها، وبحثاً عن أسواق جديدة لتصريف بضائعها. أضف إلى ذلك أن ثورة ١٩٧٩ أفقدت الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها على إيران. لهذه الأسباب المجتمعة، قررت هذه الجهات اتخاذ مواقف عدائية.

*** لقد أثرتَ في معرض كلامك موضوع «دول الغرب»، هل كانت فكرة محاربة الاتحاد السوفييتي مشتركة بين قوىً عظمى أخرى؟**

تشكلت جبهة مناهضة للشيوعية في تلك الحقبة الزمنيّة، وكانت تدعم برنامج الرئيس ريغان، وقد انضمت إليها كل الأحزاب من الطائفة

المسيحية الديمقراطية، كما انضمت إليها منظمات غير حكومية، مثل منظمة «أطباء بلا حدود».

غير أن السلطات السعودية لعبت دوراً رئيسياً، فقد أرادت نشر حركتها المناهضة للثورة الإسلامية، فما كان منها إلّا استغلال هذا الموقف السائد في أفغانستان، فبادرت إلى تجنيد شبان من الدول العربية والدول الأفريقية الموجودين في دول أوروبية، لإرسالهم إلى أفغانستان، للمشاركة في الحرب القائمة. حتى في بروكسل، عمدت السلطات السعودية إلى فتح باب التجنيد للشبان، بحجة دعم المجاهدين، مستغلة وجود المساجد لهذا الغرض، وقد تم هذا التجنيد بشكل علني، تحت شعار «وجوب التضامن مع المسلمين» و«محاربة إمبراطورية الشر». كان الاتحاد السوفييتي هو العدو المستهدف الذي يتحتم القضاء عليه.

تضمنت هذه الرابطة المناهضة للشيوعية مكاتب الاستخبارات السرية في كوريا الجنوبية، وطائفة موون، وهيئات إسلامية أصولية أخرى أنشأتها السلطات السعودية، إلى جانب الموساد الإسرائيلي، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

*** لماذا وجدت دولة باكستان نفسها في أتون في هذا الصراع؟**

أسفرت الحرب الإنجليزية الأفغانية الثانية عن تقسيم إقليم الباشتون إلى جزأين. غير أن الدولة الأفغانية لم تعترف قط بهذا الخط الحدودي الفاصل، ما أجّج الصراع مع جارتها باكستان. في عام ١٩٤٧، وبعد أن تحقق لباكستان استقلالها، بادرت أفغانستان إلى توقيع تحالف مع الهند، بغية محاربة هذا البلد الناشئ.

أما فيما يتعلّق بالطبقة البورجوازية الباكستانية، فقد رغبت في إيجاد سوق لتصريف بضاعتها في آسيا الوسطى، لذلك كانت تحتاج إلى دولة أفغانية ضعيفة لتلبية احتياجاتها. عندئذٍ أوكل ضياء الحق مسؤولية نقل السلاح إلى المجاهدين المناهضين والمناوئين للحكومة إلى جماعة البشتون. مع ذلك، كانت فرقة المجاهدين تضم ضمن تشكيلها أربع فرق عرقية، منها البشتون والكازاخ والطاجيك والفرس.

*** إذاً تطالعنا مرة أخرى سياسة «فرق تسد»...**

بالتأكيد. لم تكن النخبة الباكستانية ترغب في توحيد هذه التيارات الأربعة ضمن حركة أفغانية موحدة، لذلك حرّضت على سياسة تقسيم أفغانستان، بل عمدت إلى بلقنتها (أي إلى استغلال القوميات الصغيرة وتجزئة الشعوب بموجبها) منعاً من قيام أي نوع من التحالفات ما بين هذه القوميات، لذلك كانت تعطي السلاح للبعض، وتمنعه عن الآخرين، فعملت بذلك على محاباة بعضهم على حساب آخرين.

*** غادر الاتحاد السوفييتي أفغانستان عام ١٩٨٨، ورفض المجاهدون اقتراح الشيوعيين تشكيل حكومة ائتلافية. واستمر المجاهدون في الحرب الأهلية طيلة سنوات أربع من أجل احتلال المدن. وفي النهاية، تمكن القائد مسعود من الاستيلاء على كابول، ومع ذلك، لم تنعم البلاد بالهدوء...**

شُكّلت حكومة إسلامية انتقالية بعد عملية عزل الرئيس محمد نجيب الله عام ١٩٩٢، وتقاسم زعماء الحرب الأقاليم وفق المعايير العرقية. ثم ما لبثت الحرب أن اشتعلت بين الرئيس المؤقت برهان الدين رباني والقائد

مسعود الذي كان يرأس الوحدات الطاجيكية من جهة، والزعيم البشتوني حكمتيار من جهة أخرى، بغية السيطرة على العاصمة. دامت هذه الحرب الأهلية أربع سنوات، وأسفرت عن مقتل آلاف عدة من الأفغان، ونزوح أكثر من مئتي ألف مدني عن ديارهم.

*** مع ذلك، توصّل زعماء الحرب إلى اتفاق يقضي بتناوب كرسي الرئاسة فيما بينهم كل ستة أشهر، لكن هذا الاتفاق لم يدم طويلاً ...**

تولى الفترة الرئاسية الأولى الطاجيكي برهان الدين رباني. وقد بسط له الرئيس ريغان السجادة الحمراء، واستقبله في البيت الأبيض، ثم كان عليه أن يتنازل عن السلطة بعد ستة أشهر لصالح البشتوني حكمتيار، لكنه رفض، فقامت الحرب الأهلية في البلاد مرة أخرى، وتعرضت كابول لدمار كامل، عاشت العاصمة في إثره سنوات عدّة دون ماء ولا اتصالات ولا كهرباء.

*** لم تأتِ حصيلة هذه الحملة الصليبية الكبيرة المناهضة للشيوعية التي قادتها دول الغرب بنتائج إيجابية على أرض الواقع...**

تسبب زعماء الحرب بتدمير اثني عشر ألف مدرسة، وإشاعة الفوضى في النظام الزراعي بكل طاقاته، وتخريب المرافق العامة الأساسية كافة، بدعوى أنها من آثار الشيوعية. إنّما في حقيقة الأمر، أقدم الأفغان على تدمير إمكاناتهم الإنمائية بانغماسهم في الحملة الصليبية المناهضة للشيوعية، بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية التي هيأت لها.

*** كما كان لهذه الحرب الأثر السيئ في المنطقة أيضاً...**

تخلّت الولايات المتحدة الأمريكية عن أباطرة الحرب بعد استغلالها إياهم كاستخدامها للعازل المطاطي البالي. أما باكستان، ذلك البلد الجار، فكانت ضعيفة للغاية، بسبب الدمار الذي لحق بها، من جراء الحرب، فضلاً عن اضطرارها إلى استقبال العديد من اللاجئين، فهي بذلك لم تحقق أي فائدة، نتيجة هذا الصراع.

*** وكذلك الأمر للولايات المتحدة، فهي أيضاً لم تحقق أي فائدة...**

نعم، لم تتمكن القوى الإمبريالية من استباق إنشاء القاعدة. لم تتمكن هذه القوى من رؤية إلا ما كانت تريد رؤيته، مصالحها الآنية. غير أن الوضع على الصعيد العالمي شهد تغيراً كبيراً بسقوط الاتحاد السوفييتي، وغزو العراق، ولا ننسى أيضاً تدهور الوضع الاقتصادي الذي شهده العالم الغربي...

*** كيف تمكّنت طالبان من الوصول إلى سدّة الحكم في ظروف «أفغانستان المحررة»؟**

تمّ ذلك نتيجة حالة الفوضى السائدة التي خلقها الغرب. عملت الولايات المتحدة الأمريكية على استغلال كل من باكستان وأفغانستان، حتى حولتهما إلى خراب. في تلك الأثناء، تزايدت قوة الهند، وأدركت البورجوازية في باكستان أن العالم من حولها في تغير مستمر، فأرادت تطوير القطاع الصناعي لديها، وقررت استعادة دورها كسوق مركزي لدول آسيا الوسطى، فكان عليها تصدير المزيد من البضائع إلى هذه الدول، في محاولة منها لتعزيز مركزها. وهذه الخطة بدورها تحتاج إلى أن تنعم جارتها أفغانستان

بالسلام والأمن، حيث لا يمكن للتجارة أن تزدهر في بلد تمزقه الحرب، من أجل ذلك، قررت باكستان دعم طالبان.

*** لقد شهدنا عام ١٩٩٦، ترحيب وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت بوصول هذه الحركة إلى سدة الحكم، وعدَّتها خطوة إيجابية، أمّا ما نشاهده اليوم فهو محاربة الولايات المتحدة الأمريكية لهذه الحركة... فما أصل حركة «طالبان»؟**

إنهم مجموعة من الشبان الأفغان (كلمة طالبان تعني «طلاب») لجؤوا إلى باكستان، هرباً من الصراع القائم في بلدهم. كان الشعب الأفغاني منهكاً من الحرب والبؤس الذي خلفته هذه الحرب، كما أنه سئم زعماء الحرب المتصارعين الذين يسعون إلى تحقيق مصالحهم الشخصية على حساب الشعب. في هذا السياق ظهرت حركة طالبان، بدعم من جهات فاعلة مختلفة. لقد نجحت رئيسة الوزراء الباكستانية بنظير بوتو في تلخيص جلّ العملية قائلة: «انطلقت الفكرة من إنكلترا، بتمويل سعودي، وإشراف باكستاني، وتسليح أمريكي».

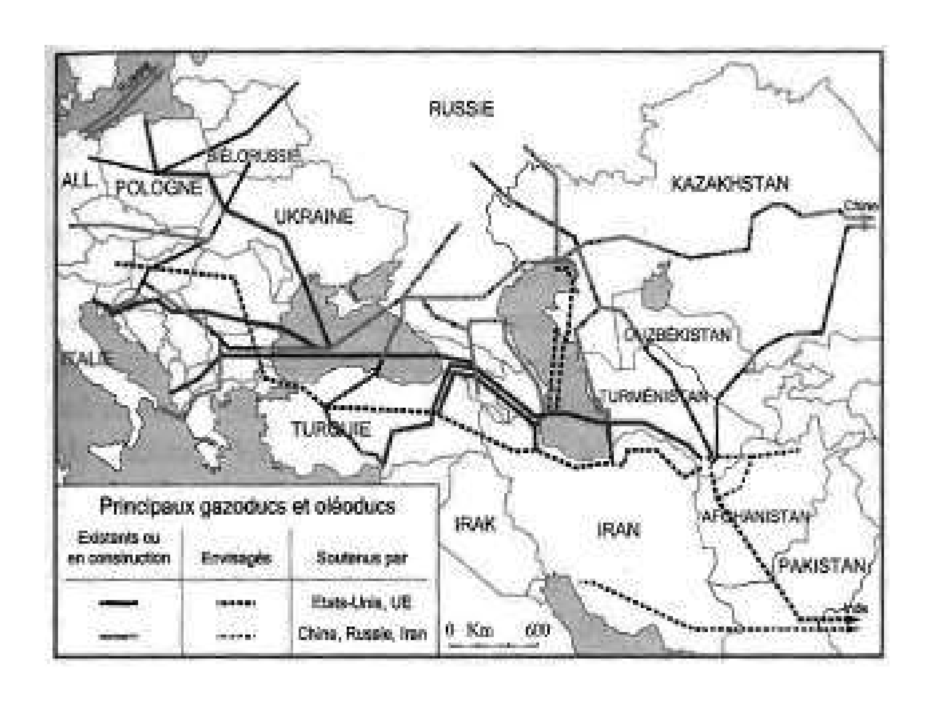
عادت حركة طالبان إلى أفغانستان، حيث رحب بها الشعب، وطلب إليها طرد زعماء الحرب. تمكنت هذه الحركة، وبفترة وجيزة، من بسط نفوذها على ٩٠% من أرض أفغانستان. كانت أيديولوجية هؤلاء الشبان بدائية، لكنهم تميزوا بكونهم محاربين شجعان.

*** كيف تمثلت مصالح القوى الداعمة لطالبان؟**

اعتقدت السلطات السعودية أنها بتقديم دعمها لطالبان، فستتمكن من تصدير رؤيتها الخاصة بالإسلام الوهابي إلى آسيا الوسطى. في حين

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى إلى مد خط أنابيب بين باكستان وأفغانستان، قادر على نقل النفط من بحر قزوين إلى جنوبي آسيا حيث يشهد نمواً اقتصادياً واضحاً، ما سيحقق مكاسب جمّة لشركة يونوكال النفطية الأمريكية. إلّا أن هذه الشركة النفطية، كانت تحتاج إلى بلد ينعم بالسلام لإنجاح مشروعها. أما باكستان، فهي أيضاً كانت تتمنى عودة الاستقرار إلى البلد الجار، لفتح طرق تجارية جديدة نحو سوق دول آسيا الوسطى.

وبالنتيجة، كان لدى الكل مسوّغاته الخاصة به. إلّا أن جميع هذه المشاريع لم تأخذ في الحسبان روح الاستقلال التي كان البشتون يتميزون بها، وصعوبة استغلالهم. لهذا رفضت حركة طالبان المخططات التي رسمها لها الآخرون.



أهم خطوط أنابيب النفط وأنابيب الغاز

الخطوط الموجودة، أو تلك قيد الإنشاء ————

الخطوط المستقبلية *******

الخطوط التي تدعمها الولايات المتحدة وبريطانيا والصين وروسيا وإيران

معركة خطوط النفط في منطقة الأوراسية

*** لماذا رُفض إنشاء خط أنابيب النفط؟**

أرادت الولايات المتحدة تخصيص **١٠%** لحركة طالبان، في حين طالبت هذه الحركة بنسبة ٩٠**%.** إنهم أناس يصعب الاقتراب منهم، إنهم متصلبو الرأي. في شهر أيار من عام ٢٠٠١، أي قبل ستة أشهر من تاريخ الهجوم على مركز التجارة العالمي، قدّمت الولايات المتحدة إعانة إلى نظام طالبان، بمقدار ٤٣ مليون دولار، على أمل التقدم في مشروع شركة يونوكال النفطية، لكنها لم تحقق النتيجة المرجوّة. وفي الحادي عشر من أيلول، انهار المشروع، ولجأت واشنطن إلى استخدام القوة.

*** في اليوم التاسع من أيلول من عام ٢٠٠١، اغتيل القائد مسعود. فمن الذي قتله؟ ومن الذي كان يدعمه؟**

ارتكبت حركة طالبان أخطاء عدة عندما سيطرت على أفغانستان، فقد أقدمت على قتل ستة من الموظفين الدبلوماسيين الإيرانيين، حين استيلائها على كابول، ما أثار الفزع لدى الإيرانيين، الذين ساد لديهم

الاعتقاد بأن حركة طالبان تتمتع بحماية من السلطات السعودية، وبأنها ستعمل على نشر العقيدة الوهابية. كما كان الإيرانيون على يقين من شجاعة مقاتلي طالبان حين احتلوا جزءاً من الأراضي الإيرانية.

في ذلك الوقت من عام ٢٠٠١، لم يتبقَّ سوى ثلاثة من زعماء الحرب: القائد محمد إسماعيل خان، والجنرال عبد الرشيد دوستم، والقائد أحمد شاه مسعود، وكانوا يسيطرون على ١٠% من الأراضي الأفغانية. استمر مسعود وحده في قتال طالبان، لذا دُعي إلى أوروبا، إلى بروكسل تحديداً، حيث لم يحظَ أي من الرؤساء – باستثناء بوش - بمثل الحفاوة التي لقيها، ومع أنه لم يكن سوى زعيم حرب، إلّا أن الإمبرياليين بسطوا له السجادة الحمراء.

عندئذٍ أرسلت القاعدة رجالاً للقضاء عليه، فتظاهروا بأنهم إعلاميون، ووافق مسعود على استقبالهم وإجراء اللقاء الصحفي معهم، بغية التواصل مع العرب عبر وسائط الإعلام. وبعد أن اجتاز الصحفيان المزيفان عمليات التفتيش الأمني ضمن منطقة نفوذه، فجّرا القنبلة التي كانت في الكاميرا، وأجهزا على مسعود. حزنت دول الغرب لمصرعه، ووصفوه بالقائد الشجاع، والجنرال الوسيم، إنّما في الواقع لم يكن سوى جزار، ومجرم حرب، أقدم على تدمير العديد من المستشفيات والمدارس. كان رجلاً من قش، ومجرد واجهة في أيدي الدول الغربية العظمى. أما لدى كثير من الأفغان، فكان إلى جانب القائد حكمتيار، السبب في إطالة أمد الحروب بعد انسحاب القوات السوفييتية، ما أوقد نار الحرب الأهلية في البلد. لم يكن لمسعود أي مكانة في قلوب كل من البشتون والأوزبك والهزارة.

*** بعد مضي عقد من الزمن على عملية «الحرية الدائمة» التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان، بهدف القضاء على نظام طالبان، وجدت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها صعوبة فائقة في التغلب على عدوهم المشترك. يا تُرى، هل وقعوا في فخ أفغانستان الذي سبق لهم أن نصبوه للسوفييت قبل سنوات عدّة؟**

لقد باءت كل الجهود التي بذلتها الدول العظمى في محاولة منها للسيطرة على مفترق الطرق الإستراتيجي الواقع في وسط قارة آسيا بالفشل الذريع، وتحطمت آمالهم على جبال أفغانستان. ولن يكون الأمر مختلفاً للولايات المتحدة الأمريكية ولدول حلف الناتو.

لم تنجح واشنطن في فرض سيطرتها على البلد من الناحية السياسية. لقد اجتهد حامد كرزاي، دميتهم المتحركة، في سبيل خدمة شركة يونوكال النفطية الأمريكية. صحيح أنه من جماعة البشتون، لكنه لا يملك أي قاعدة اجتماعية في أفغانستان. حاولت الولايات المتحدة الأمريكية شراء جماعة البشتون التي تمتلك بعضاً من الشرعية الشعبية، من أجل دعم حكومة كرزاي. إنّما، كما سبق لي القول، إن البشتون يتميزون بالاستقلالية التامة! إضافة إلى ذلك، يعمل زعماء الحرب المشاركون في حكومة كرزاي كلٌّ وفق مصلحته الشخصية. يمتنعون عن سداد الضرائب للحكومة المركزية، ولا يترددون في الاستيلاء على ثروات البلد. فكل وزير هو وزير مستقل لأحد زعماء الحرب. لقد أصيبت الحكومة بالشلل نتيجة لحالة الفوضى هذه.

وفي النهاية، فإن زعماء الحرب لا يولون جماعة البشتون ثقتهم. فهم يعتقدون أنه في حال حصول البشتون على الغالبية العظمى في الحكومة،

فإنهم سيفرضون رؤيتهم على البلد. باختصار، جميع أفراد هذه الحكومة يتبادلون مشاعر العداء.

أما على الصعيد العسكري، فقد مُنيت الولايات المتحدة الأمريكية بخسارة جسيمة في محاولتها القضاء على مقاومة طالبان. ولم تتوقف دول حلف الناتو عن ارتكاب المجازر بحق المدنيين على نحو أسبوعي.

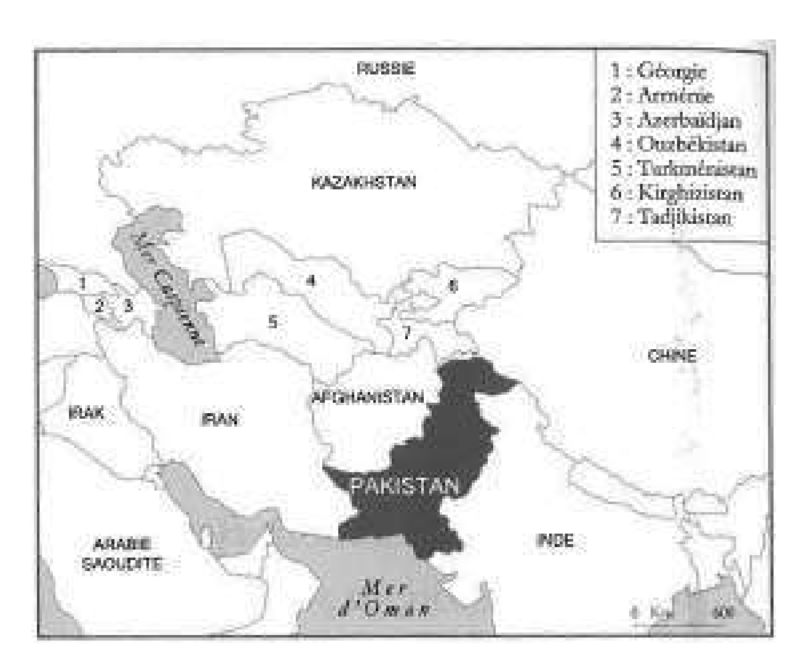
في واقع الأمر، يواجه الأفغان زعماء الحرب الإمبرياليين الذين لا يتوانون عن قصف المدنيين من جهة، ومن جهة أخرى، يواجهون زعماء الحرب الإقليميين الذين ينهبون ثروات البلد، ويتاجرون بالمخدرات. ففي ظل هذه الظروف، لم يكن أمام الشعب الأفغاني سوى التقرّب إلى طالبان. ليس بسبب أفكارها التقدمية، بل من أجل إحلال السلام في البلد، كما حصل عام ١٩٩٢. انخرطت طالبان في صفوف الشعب، وسيطرت على جنوبي البلد، وأبدت مقاومة شرسة وعنيدة. نتيجة لذلك، لم تستطع دول حلف الناتو إحراز أي نجاح أو تقدم، أما إدارة أوباما، فقد انشغلت بتهيئة مخطط للانسحاب مما أسماه القائد الفرنسي جورجلان بـ «الفوضى الخارجة عن نطاق السيطرة». فوضى تجاوزت حدود البلد، ليصل الصراع إلى باكستان، كما سنعرف في الفصل القادم...

قائمة المراجع

- Ahmad Rashid, L’ombre des Talibans, Autrement, 2001
- Antonio Giustozzi, War, Politics and Society in Afghanistan. 1978-1992, Georgetown University Press, 2000.
- Alfred W. McCoy, La politique de l’héroïne. L’implication de la CIA dans le trafic de drogues, Ed. du Lézard, 1998.
- Michel Collon, Monopoly, L’Otan à la conquête du monde, EPO, 2000.
- Mark Adkin, Mohammad Yousaf, The Bear Trap: The Defeat of a Superpower, Casemate, 2001.
- Raja Anwar, Fred Halliday, The Tragedy of Afghanistan: A first Hand Account, Verso Books, 1990.

باكستان
تداعي نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية في العالم
مرتبط بصورة وثيقة بطردها من هذه المنطقة

انقضى ستون عاماً على انحسار الإمبراطورية البريطانية، ولا تزال المنطقة تعاني من الفوضى، وتعيش حالة عدم استقرار، نتيجة الإرث الذي خلفه هذا المستعمر، باتباعه سياسة «فرق تسد»، وتكديسه لبراميل البارود بين كل من الهند وباكستان وبنغلادش. كيف تمكّنت لندن من تعطيل تطور مستعمرتها الهندية؟ كيف يمكن لمحامٍ تلقى تدريبه في جامعة كامبردج، ويتعاطى الويسكي أن يقود حزباً إسلامياً للتفريق بين باكستان والهند، غداة حرب ضارية نشبت بينهما؟ كيف تحاول باكستان اليوم بسط هيمنتها على أفغانستان؟ ما الخطة التي رسمتها الولايات المتحدة الأمريكية لزعزعة الاستقرار داخل باكستان نفسها، ولدفعها لأن تعمل ضد مصالحها الخاصة، ولتمنعها من عقد تحالفات جديدة مع دول أُخر؟ كيف تتبلور سياسة المواجهة بين واشنطن وبكين في هذه المنطقة الإستراتيجية؟ ...



١ - جورجيا

٢ - أرمينيا

٣ - أذربيدجان

٤ - أوزبكستان

٥ - تركمنستان

٦ - قيرغيريستان

٧ - طاجيكستان

لمحة سريعة عن باكستان

على الصعيد الجغرافي:

- العاصمة: إسلام أباد.

- المساحة: ٨٠٣ ٩٤٠ كم٢ .

- تعداد السكان: ١٧٧ ٢٧٦ ٥٩٤ **(**أي بمعدّل ٢٢٥ نسمة **/** كم٢**).**

على الصعيد الاجتماعي:

- نسيج المجتمع الباكستاني:

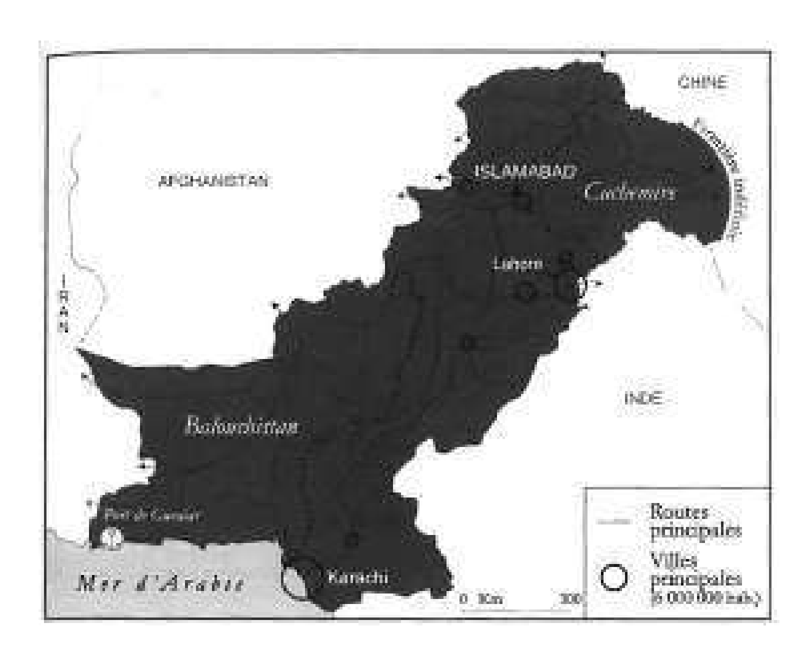
- البنجابيون، يشكلون الغالبية العظمى من السكان، ويشغلون المناصب الرئيسة في الجهاز الحكومي، وفي الجيش.
- السندهيون، ويتمركزون في الجنوب الشرقي من البلاد.
- البلوشيون، ويشغلون ٤٢% من مساحة الإقليم الجنوبي الغربي للبلاد.
- البشتون الذين يتمركزون قريباً من الحدود مع أفغانستان.

يشكّل مذهب أهل السنّة والجماعة الغالبية العظمى للسكان، في حين تشكل الطائفة الشيعية ١٥% من المجتمع الباكستاني.

- متوسط العمر: ٦٥,٩ عاماً (وفق إحصائية ٢٠١٠).

- تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: ٣٥,٤%.

- معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: ٤٩,٩%.



○ **المدن الرئيسة:** يبلغ عدد سكانها ٦ ٠٠٠ ٠٠٠

ــــــ الطرق الرئيسة.

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية إسلامية.

- **رئيس الدولة:** آصف علي زرداري **(**إيلول ٢٠٠٨ **-** ٨ سبتمبر **/** إيلول ٢٠١٣**).**

- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٤٧، من المملكة المتحدة.

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي:** ١٦٠,٩ ميليار دولار **(**٢٠٠٨**).**

- **الموارد:** الزراعة، المنسوجات، تكرير النفط، الشحن البحري.

- **معدل النمو:** ٤,٨ **%** **(**٢٠١٠**).**

- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ٢٦٠٠ دولار **(**٢٠٠٨**).**

- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٤٩٠ **(**١٢٨من حيث الترتيب**).**

- **نسبة البطالة:** ٧,٤**%** **(**٢٠٠٨**).**

- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** ٤١**%** .

*** تُصنّف باكستان في الواقع بأنها دولة حديثة الولادة...**

نعم، أُسّست دولة باكستان عام ١٩٤٧، عندما انسحبت بريطانيا العظمى من إمبراطوريتها الهندية. بيد أنه من أجل فهم تاريخ باكستان، يترتب علينا أولاً تعرّف تاريخ الهند التي اشتهرت إبان فترة زمنية طويلة بكونها «جوهرة» الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية.

*** ما الذي أضفى على الهند كل تلك الأهمية؟**

عُدَّت بلاد الهند المموّل الرئيس لثروة بريطانيا العظمى. كانت تزوّد العاصمة لندن بالمواد الأوليّة، وكانت بمنزلة سوق لتصريف المنتجات المصنّعة في بريطانيا، إلى جانب توفيرها للفائض المالي، وكونها خزّاناً لأفراد العسكر، الذين كانت بريطانيا تزج بهم في غزواتها الاستعمارية.

*** كيف نجحت بريطانيا العظمى في فرض سيطرتها على المنطقة؟**

لقد حققت البرتغال في القرن السادس عشر ثروة ضخمة بسبب تجارة التوابل التي أقامتها مع دول الشرق، ما أثار رغبة بريطانيا العظمى في المشاركة في هذه التجارة. ففي عام ١٦٠٠، أقبل رجال أعمال من أصل بريطاني، ومن ذوي النفوذ، على تأسيس شركة الهند الشرقية الإنكليزية في لندن. هذا، وقد منحت الملكة إليزابيت الأولى هذه الشركة الخاصة، حق الاحتكار في المحيط الهندي على مدى واحد وعشرين عاماً. بيد أنه كُتب لهذا الاحتكار أن يستمر لفترة أطول، وتزايد نفوذ هذه الشركة على مر السنين، لتحتل المرتبة الأولى في التاريخ، من حيث كونها شركة متعددة الجنسيات.

في عام ١٦٠٨، حصلت هذه الشركة من الإمبراطور المغولي جهانكير على حق تأسيس أول مركز تجاري في مدينة سورات، على الساحل الغربي للهند. كان المغول في ذلك الوقت يسيطرون على المناطق الشمالية من الهند، بما فيها الأقاليم الحالية، باكستان وبنغلادش، في حين كانت باقي الأراضي الهندية مؤلفة من العديد من الممالك والإمارات.

تفاوض البريطانيون في المرحلة الأولى مع المغول، ومع هذه الدويلات، وأُنشئت مراكز تجارية في كل من مدراس عام ١٦٣٩، وبومباي عام ١٦٦٨،

ثم في كالكوتا الواقعة في إقليم البنجاب الغني بالثروات عام ١٦٩٠. اعتمدت هذه النشاطات في مجملها، التي كانت ذات طابع اقتصادي بشكلٍ أساسي، على حسن نيّة الإمبراطور المغولي. ثم فيما بعد، أخذت هذه الإمبراطورية في الانهيار، بعد أن بلغت أوجها في القرن السابع عشر، ليبدأ هيكلها السياسي المركزي بالاضمحلال في القرن الثامن عشر، إلى جانب هذا، طالبت بعض الولايات التابعة لها الحصول على استقلالها شبه التام.

استغل الأوروبيون ضعف هذه الإمبراطورية لغزو المزيد من الأقاليم. كما اعتمدوا على تفوّق سلاحهم، والقوات المنضبطة لديهم، المؤلفة بشكل جزئي من جنود محليين، ومن جنود السيباي، الذين خدموا في الجيش البريطاني، تحت إمرة ضباط أوروبيين.

*** ألم يكن هناك تنافس بين المستوطنين؟**

بلى. كان الكل يطالب بحصته من الكعكة: البريطانيون، البرتغاليون، الفرنسيون والهولنديون. غير أن التنافس لم يكن يستهدف بلاد الهند وحدها. كان العالم بمجمله في ذلك الوقت، محط أطماع القوى الاستعمارية التي أرادت الحصول على أفضل المناطق.

أدّت هذه المنافسة إلى نشوب صراع بين الجهات الفاعلة الرئيسية في تلك الحقبة من التاريخ. فقد اندلعت حرب؛ عرفت بحرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)، بين بريطانيا العظمى وبروسيا من جهة، وفرنسا والنمسا من جهة أخرى. بدأ الصراع عندما تشاجر المستعمران الإنكليزي والفرنسي على احتلال كندا (المنطقة التي كان يطلِق عليها الأديب الفرنسي فولتير تسمية «بضعة هكتارات من الثلج»)، وانتهى هذا الصراع بهزيمة

مؤلمة، تكبدتها فرنسا، تنازلت على إثرها عن كندا، ووادي أوهايو، والضفة الغربية لنهر المسيسيبي، كما تنازلت في أي حق لها، أو مطلب سياسي في الهند. لم يبق لباريس سوى خمس مدن، مفكّكة، خالية من أي حامية عسكرية. في حين استمر البريطانيون في قيادة حملتهم العسكرية. ففي عام ١٧٦٤، بسط العقيد روبير كليف، الذي هزم الفرنسيين فيما مضى، في معركة بلاسي، سيطرته على ولاية البنغال، الولاية الأكثر ازدحاماً من حيث الكثافة السكانية، والأغنى من حيث الثروات.

*** وماذا بشأن الإمبراطور المغولي؟ هل وقف موقف المتفرج؟**

لقد ضعفت سلطته، فمن الناحية النظرية، كان هو المسيطر على ولاية البنغال، لكن من الناحية العملية، كانت شركة الهند الشرقية الإنكليزية هي التي تمارس السلطة فعلياً. في عام ١٧٧٣، سيطرت على ولايات بومباي ومدراس. ثم فيما بعد، وسعت نطاق نفوذها بإعلانها عدداً من الولايات الهندية محميات، وببسط سيطرتها على بعضها الآخر، بعد غزوها عسكرياً. لقد ساعد سقوط إمبراطورية المارات في وادي الغانج عام ١٨١٨، الذي تبعته خسارة السيخ في البنجاب في منتصف القرن التاسع عشر، ساعد بريطانيا في تعزيز هيمنة شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

*** تُعدُّ الهند حسب التصورات الغربية، أرض السلام والحكمة العريقة، غير أن تاريخها يبدو بعيداً كل البعد عن هذه العبارة التقليدية...**

هذا صحيح. فمن أجل أن تُحكِم سيطرتها على الثروة الزراعية للهند، لجأت الإمبريالية البريطانية إلى استخدام النظام الإقطاعي السائد في الهند، ونظامها الطبقي المتميّز بالعنف المتطرّف، ذلك النظام الذي يعتمد على التمييز والإقصاء.

في المقابل، ردت المعارضة على الاحتلال البريطاني بالدرجة نفسها من العنف، ففي سبيل المثال، قاد السيباي، أولئك الجنود الذين دُمجوا ضمن الفيالق البريطانية، قادوا ثورة عام ١٨٥٧، اتصفت بقدر كبير من العنف، لم يتوقعه البريطانيون، ما كان لها الأثر البالغ لديهم. حتى إن كارل ماركس نفسه أدان عملهم، ووصف ثورتهم بأنها «مروّعة، ومرعبة، ويعجز الإنسان عن وصفها». إلّا أنه أضاف قائلاً إن هذا التصرف لم يكن سوى مرآة عاكسة للتصرف الوحشي «للدولة إنكلترا المحترمة» في الداخل الهندي. إنّما في نهاية الأمر، تمكّن المستوطنون البريطانيون من القضاء على هذه الثورة، وتنازلت شركة الهند الشرقية الإنكليزية عن مكانتها القيادية لمصلحة الحكومة البريطانية، التي أحكمت سيطرتها على هذه المستعمرة. يجب أن تلاحظ، في هذا السياق، أن الجزء الغربي من باكستان لم يكن يدخل ضمن سيطرة المستعمر البريطاني في ذلك الوقت، بل كان يشكّل المنطقة العازلة، التي كانت تابعة إدارياً لمهراجا إقليم البنجاب.

*** لقد رأينا في فصول سابقة من هذا الكتاب أن بريطانيا العظمى كانت تهتم بشكلٍ خاص بمواجهة المزاعم الروسية الآتية من الشمال، من أجل حماية مستعمرتها الهندية. من أجل ذلك، شنت ثلاث حروب متتالية ضد باكستان، في محاولة منها لإخضاع الدولة الأفغانية...**

نعم، حتى إنه إبان الحرب الإنكليزية الأفغانية الثانية (١٨٧٨-١٨٨٠) استولى القائد البريطاني دوران على جزء كبير من الأراضي الباكستانية ما أتاح له فرصة السيطرة على إقليم البشتون.

*** تصنّف ثورة السيباي أحياناً بأنها أولى الحروب التي قامت بها الهند في تاريخها الرسمي، بغية الحصول على استقلالها، فقوبلت برد عنيف من قبل المستوطنين البريطانيين، ما أدى إلى قمعها. فهل هذا يعني اندثار المعارضة الهندية؟**

كلا. لقد تشكلت في إثرها تيارات معارضة عدّة، وعمد البريطانيون من جانبهم، إلى إنشاء السكك الحديدية، لتمكين قواتهم من التحرك، والتدخل السريع داخل الأراضي الشاسعة لهذا الإقليم، من أجل إحكام السيطرة عليها. إنّما في المقابل، عملت طرق المواصلات السريعة على تنمية التجارة، وإحلال النظام الرأسمالي و... تنامي الشعور بالسخط تجاه الحكم الاستعماري الذي يساند النظام الإقطاعي القديم.

*** هل هذا يعني أن دخول الهند طور التحديث جاء «محض مصادفة»؟**

نعم، لأن ذلك لم يكن هدف لندن المنشود، لكن النظام الرأسمالي شهد تطور نوعين من الطبقة البورجوازية، إحداهما هندوسية والأخرى مسلمة. وسيطرت على هاتين الطبقتين النزعة القومية، مع احتفاظهما بفكر بورجوازية الكمبرادور.

*** هل كان هناك أي علاقة بين المسلمين والهندوس في ذلك الوقت؟**

ليس في بداية الأمر. من المعلوم أن الهند بلد هندوسي على مدى التاريخ، ويخضع لنظام طبقي صارم. ويكون انتماء الفرد إلى الطبقة التي ولد وترعرع فيها، وهذا كفيل بتحديد طبيعة عمل الفرد وعلاقاته الإنسانية. تُعدُّ طبقة البراهمان التي ينتمي إليها أيضاً رجال الدين، الطبقة العليا في

البلاد، وهناك في المقابل طبقة المنبوذين، وهي أدنى طبقة في المجتمع الهندوسي، ولا يجوز لأحد الاقتراب منهم، أو لمسهم. أما الدين الإسلامي، فإنه بالمقارنة مع الديانة الهندوسية، يُعدُّ ديناً تقدمياً، بسبب المرونة التي يبديها في تعامله مع التجار، ومع الموظفين. الأمر يشبه البروتستانت في أوروبا إبان العصور الوسطى.

ثم إن الإسلام دخل البلاد على نحوٍ تدريجي، باستخدام العنف أو بصورة سلمية. هناك كثير من الهندوس ممن اعتنق الديانة الإسلامية هرباً من الطبقة الاجتماعية التي ولدوا فيها. إضافة إلى ذلك، أفضى بناء السكك الحديدية إلى تطور التبادل التجاري، الذي أسهم بدوره في انتشار الإسلام.

*** لا بد أن البريطانيين كانوا على علم بالاستياء الذي يسببه الاستعمار والنظام الإقطاعي لدى طبقات المجتمع.**

نعم، لقد تنبهوا إلى ذلك، لكن جاء هذا الأمر في وقت متأخر. لقد أعمت أبصارهم الامتيازات وحياة الرفاه التي كانوا يتمتعون بها. يروى أن آلان أوكتافيان هيوم، الشاب الذي كان يشغل منصب مدير مستعمرة، إلى جانب كونه عالِم طيور، قام في عام ١٨٨٥ بجولة في الأراضي الهندية، وصعق للتناقض الذي رآه، هناك من جهة المستعمِر البريطاني الذي يرتدي قميصاً ناصع البياض، ويتناول الويسكي، ويمارس لعبة الكريكت أو البولو في ناديه المعتاد، وإلى جانبه الفقير الجائع. لقد شاهد ذلك في كل مكان من البلاد، وترسّخ لديه اليقين بأن ردود الأفعال المتفجرة آتية لا محالة، وستفجّر معها حرباً دامية، تنادي بالاستقلال.

كانت البلاد في تلك الحقبة تعاني من المجاعة. ومما يدعو إلى السخرية أن البريطانيين كانوا ينتجون كميات كبيرة من مادة القمح، لكنهم كانوا يصدّرونها إلى خارج الهند. في المقابل، لم تكن الثورة تضم الذين يتضورون جوعاً وحدهم، بل اشتركت فيها أيضاً كل من الطبقة الحاكمة، وطبقة النبلاء، تعبيراً عن استيائهم من الوضع السائد.

*** معنى ذلك أن البريطانيين استمعوا إلى أقوال آلان أوكتافيان هيوم؟**

نعم، فقد أصبح هيوم مستشاراً للمسؤول الإداري عن بلاد الهند. ويعود إليه الفضل في تأسيس حزب المؤتمر الهندي عام ١٨٨٥. أراد هيوم إجراء تطبيقات إصلاحية داخل النطاق الاستعماري: «إذا كنا نرمي إلى إيقاف الثورة، فإنه يتوجب علينا تقديم الدعم للطبقة الأرستقراطيّة ومختلف الطبقات الهندية المثقفة، واستخدامهم، والطلب إليهم المشاركة في إدارة البلاد إلى جانبنا. علينا الإشراف على النخبة، وتوجيهها، من أجل المشاركة في إدارة البلاد.»

ثم تطور هذا الحزب، فيما بعد، ليتخذ شكل حزب قومي، يتزعمه كل من غاندي ونهرو. ولا يزال هذا الحزب يحتفظ بأهميته حتى يومنا هذا.

*** كيف أدّت هذه التحركات إلى انفصال باكستان عن الهند؟**

أخذ الوعي السياسي الحديث يتأصّل مع بداية القرن العشرين، بالتزامن مع ظهور الشعور القومي المعارض للهيمنة الاستعمارية، الذي يدعو إلى التحرر. ففي الوقت الذي ظهرت فيه الحركات القومية المصرية، والصينية، والإيرانية، اكتسب الشعور القومي الهندي قوته، لينمو داخل

حزب المؤتمر الهندي. وسرعان ما أدركت الطبقة البورجوازية المسلمة أنها تشكّل الأقلية، قياساً لأعداد الهندوس الموجودين داخل الحزب. لذلك، وحفاظاً على حقوق الهنود المسلمين، أُسّس حزب الرابطة الإسلامية في الهند عام ١٩٠٦، وتولّى رئاسته المحامي محمد علي جناح، بعد مضي سبعة أعوام على تشكيله. وبذلك أصبح مؤسس دولة باكستان.

*** هل نستخلص إذاً أن دوافعه كانت دينية؟**

كلا، كانت الفكرة المحورية لتشكيل حزب الرابطة الإسلامية تكمن في حاجة المجتمع المسلم إلى إقليم خاص به، وإلى سوق خاص به. إذاً، كانت الأسباب تتعلق بالتجارة بعيداً عن الدين. لم يكن جناح الذي تلقّى تعليمه في جامعة كامبردج، ويشرب الويسكي، ويعيش وفق الطريقة الغربية، يولي أي اهتمام للدين الإسلامي.

*** هذا مثير للسخرية!**

حقاً، كان جناح ذا توجّه علماني، وكان الدين لديه يمثّل أداة لتأسيس دولة خاصة به، وتهيئة سوق يليق بقطاع خاص من الطبقة البورجوازية. إلّا أن حزب الرابطة الإسلامية لم يكن يعارض الاحتلال البريطاني في بداية تأسيسه. ثم ما لبث أن غيّر رأيه تدريجياً مع بداية عام ١٩١٣، داعياً إلى الكفاح لنيل الاستقلال.

*** اتسمت حرب التحرير في الهند بالعنف الشديد...**

أجل، ويعود السبب في ذلك، إلى اتباع البريطانيين لنظام هيمنة، بالغ التعقيد، يعتمد على أربع أوراق رابحة: ١- النظام الطبقي القديم،

٢- الاستفادة من التنافس الديني بين المسلمين والهندوس، ٣- تقسيم البلاد إلى دويلات تتمتع باستقلالها، ٤- استغلال التوتر بين المناطق الجنوبية والمناطق الشمالية، حيث يعيش الهنود أصحاب البشرة البيضاء.

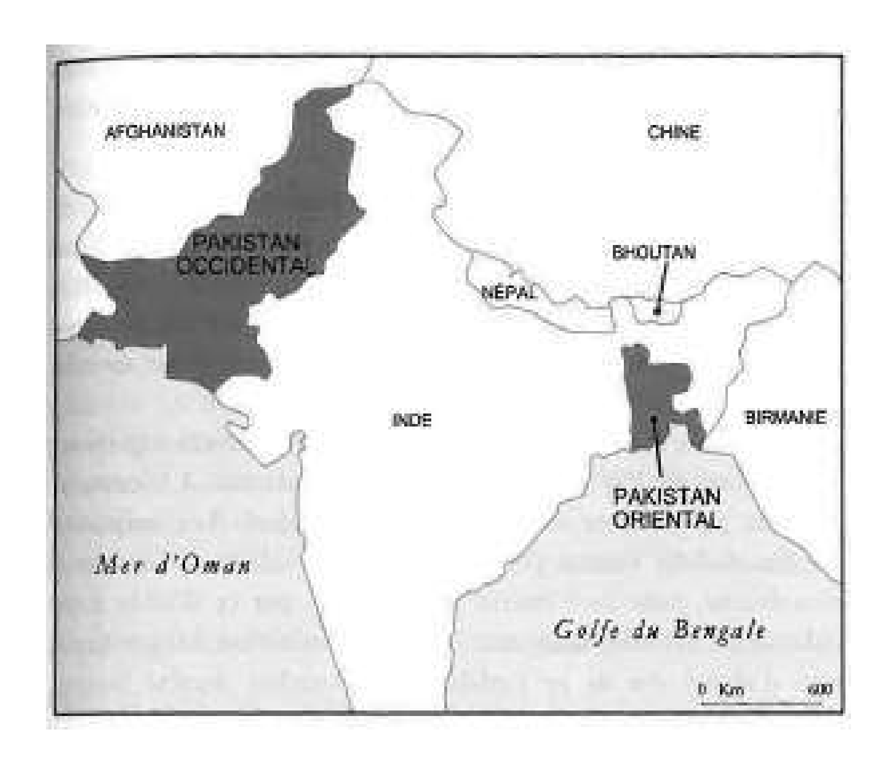
*** أربعة تطبيقات للسياسة الشهيرة «فرّق تسد»...**

بالضبط. يُعدُّ غاندي الشخصية البارزة التي حققت الاستقلال، فقد أعدّ إستراتيجية للنضال ضد هذا التقسيم، لكنه لم يعر أي اهتمام للتنافس الديني القائم بين المسلمين والهندوس. لذلك، لما حصل الشعب الهندي على حريته، بعد قيامه بالعديد من الإضرابات وتقديمه للتضحيات، طالب حزب الرابطة الإسلامية بحيازته إقليماً خاصاً بالمسلمين، وخاض من أجل ذلك حرباً اتسمت بالدموية، فقد لقي مئات الآلاف حتوفهم. وهكذا كانت ولادة دولة باكستان عام ١٩٤٧. كان الأمر بمنزلة تطهير عرقي مروّع، اضطر عشرات الملايين من المسلمين إلى اللجوء إلى باكستان، في حين وجد ملايين عدة من الهندوس أنفسهم مجبرين على مغادرة باكستان، ما أدى إلى تفكك أسر بأكملها، من جراء هذه العملية، فقد كانت هذه الأسر تقطن على جانبي الشريط الحدودي...

*** ما السبب الذي دفع البريطانيين إلى إضعاف مستعمرتهم القديمة، وتقسيمها إلى دويلات؟**

كانوا على دراية تامة أن الهند على درجة عالية من الحضارة، وبأنها تستطيع أن تتفوّق على بريطانيا، في غضون عشرين عاماً، نتيجة الثروات التي تمتلكها، والنمو الذي قد تحققه، فيما إذا أُتيحت الفرصة للهنود بحكم

أنفسهم. كان على بريطانيا أن تضمن الحد الأدنى من تطور الهند كي لا تلعب دور المنافس؛ فعمدت إلى تخريب النظام التعليمي في البلاد، كإحدى الطرائق التي اتبعتها بريطانيا، أما الطريقة الثانية، فتمثلت في إشعال النزعة الطائفية وتأجيجها.



باكستان عام ١٩٤٧، ذلك المخلوق الجغرافي

*** هل تدخلت الدول العظمى في تأسيس دولة الباكستان عام ١٩٤٧؟**

كلا. إنّما علينا أن ندرك أن الوضع العام في ذلك الوقت اتسم بخصوصية معينة. لقد انهزمت الإمبراطورية البريطانية، وتفككت أمام المقاومة الهندية. أما أوروبا، فخرجت من الحرب العالمية الثانية وهي في حالة دمار، في حين كانت الصين توشك أن تنال حريتها. لذلك فرضت كل من

واشنطن ولندن على بقية الدول العظمى الإسراع في إنهاء استعمارها للبلاد التي كانت خاضعة لسيطرتها. إذ إنه في حال رفضها، فستسارع الشيوعية إلى تقديم الدعم لحركات التحرر، ولو على حسابها، ما سيخلق المزيد من المشكلات. وبناء على ذلك، انسحبت الدول الإمبريالية من مستعمراتها، لكنها - حفاظاً على مصالحها - دعمت عمليات تقسيم البلاد التي حصلت على استقلالها للتو.

*** إنّما، كيف تمكنت باكستان من إنشاء دولتها، تلك الدولة التي تتألف من منطقتين منفصلتين، وتبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ١٦٠٠ كم؟ إنها مسخٌ جغرافي حقيقي!**

أرادت الطبقة البورجوازية الباكستانية غزو السوق، وتأسيس دولة صورية مصطنعة. فمن المعلوم أن تأسيس دولة قومية ينبني على معايير موضوعية تراعي وحدة الأرض ووحدة اللغة، لكن باكستان اعتمدت في إنشاء دولتها على المعتقدات الدينية، ما جعل هذا البناء متداعي الأركان.

ومما زاد الأمر سوءاً هو الشكل الجغرافي للدولة، فكان خارجاً عن السيطرة بشكل كلي. كانت دولة باكستان تنقسم إلى جزأين عام ١٩٤٧: جزء في غربي البلاد، ويمثل باكستان فعلياً؛ وجزء في شرقي البلاد ويمثل بنغلادش. كان سكان بنغلادش في معظمهم أعضاءً في حزب الرابطة الإسلامية الباكستانية، غير أنهم لم يكونوا راضين عن هذه الدولة المزدوجة، إذ كانوا يخضعون لعملية تمييز ثلاثي الأبعاد. تمثل التمييز الأول بكونه لغوياً، إذ إنهم لم يكونوا يتكلمون الأوردو التي تُعدُّ اللغة الرسمية في البلاد، في حين كانت نسبة الناطقين بهذه اللغة لا تتجاوز ٧%. وتمثّل التمييز الثاني بكونه

سياسياً، فقد تمركزت إدارة البلاد في غربي البلاد، في إسلام أباد التي تُعدُّ خزان جنود الجيش الباكستاني. وأخيراً كان شكل التمييز الأخير اقتصادياً، فكانت الأموال تنقل من الجزء الشرقي من الدولة إلى جزئها الغربي.

كان بالإمكان التوصل إلى إيجاد حلٍّ وديّ لهذه المشكلات، غير أن النظام الباكستاني كان يعمل انطلاقاً من خدمة مصالحه الخاصّة، فلقد زجّ بزعيم رابطة عوامي، مجيب الرحمن، في المعتقل، بسبب نضاله لنيل الحكم الذاتي في بنغلادش. حصلت هذه الرابطة على الغالبية العظمى في انتخابات ١٩٧٠، ومع ذلك جُمِّد نشاطها، ولم يسمح لها بتولي مقاليد الأمور. عندئذٍ، شنّ يحيى خان هجوماً عسكرياً قاسياً جداً ضد باكستان الشرقية، أسفر عن سقوط مليون قتيل، واضطر عشرة ملايين من سكان بنغلادش إلى مغادرة بيوتهم، واللجوء إلى الهند. وفي العام التالي، انفصلت بنغلادش نهائياً عن باكستان.

*** حرب الاستقلال، صراع مع الهند، ثم صراع مع بنغلادش... لا بد أن ولادة دولة باكستان كانت أليمة!**

نعم، واجهت البلاد تحديات عدّة، ومات مؤسّسها علي جناح بعد عامين من نيل البلاد استقلالها، فخلفه الجنرال أيوب خان في تولي زمام الأمور في البلد بين عامي ١٩٥٨-١٩٦٩، وكان قائداً للجيش. ثم شهدت الأعوام بين ١٩٦٠-١٩٧٠ بعض الحملات الانتخابية، التي أسفرت عن تولّي حزب الشعب الباكستاني (PPP) زمام السلطة، إلا أنه تمت إقالة علي بوتو، الذي شغل منصب رئيس وزراء البلاد، في إثر الانقلاب العسكري الذي قاده ضياء الحق عام ١٩٧٨، وقد أمر بإعدامه شنقاً، على الرغم من الاحتجاجات التي جاءت من شتى أنحاء العالم. تميّز حكم العسكر

بمحاولة إضفاء الطابع الإسلامي على البلاد، لكن في حقيقة الأمر، كان الجيش يستغل الدين الإسلامي كواجهة لسحق الشعب.

*** ولِمَ هذا العدوان الذي أبداه الجيش؟ هل هو جهة فاعلة مستقلّة؟**

في هذا البلد؟ نعم كان كذلك. الجيش هو العنصر الأكثر رجعية في باكستان، كما أنه المنظمة الأكثر قوة في البلاد. يضم الجيش بين مؤسسيه العديد من مالكي الأراضي، التي تصل مساحة بعضها إلى خمسة أضعاف مساحة بلجيكا! كما كان كبار قادة الجيش يملكون حصصاً مهمّة في المؤسسات الكبرى في البلاد. باختصار، لعب الجيش دوراً قيادياً في سياسة الدولة الباكستانية.

عمل الجنرال ضياء الحق، الذي تولى حكم البلاد بين عامي ١٩٧٨ - ١٩٨٨، على نقل البلد من دولة علمانية، كانت تحترم الأقليات الدينية، إلى بلد متخلّف، يحمل عقلية العصور الوسطى المظلمة. كما عمل هذا الحاكم المتسلط على تشريع قانون يقضي بتنفيذ عقوبة الإعدام لمن تسوّل له نفسه الطعن في الدين، ثمّ فرض تنفيذ العقوبات في الساحات العامة، واشترط ارتداء الحجاب على المرأة التي تظهر على شاشات التلفزة... لقد عمل على تدمير بلاده، مسخّراً الدين الإسلامي في ذلك، بالطريقة عينها التي سخرها السادات في مصر، عندما أراد التخلص من الإرث الناصري.

*** إلّا أنَّ ذلك لم يأتِ عليه بالخير...**

هذا صحيح، ففي عام ١٩٨٨، لقي ضياء الحق حتفه في حادث تحطّم طائرة، وكان على متنها أيضاً قسم كبير من قياديي الدولة، وسفير الولايات المتحدة الأمريكية. شُكّلت لجنة مؤلفة من خبراء من أمريكا وباكستان لاستقصاء أسباب هذا الحادث، فجاءت النتائج متباينة. لقد رأت واشنطن

أنه حادث بسيط، نتج عن أسباب فنية. أما الخبراء الباكستانيون فقد رأوا فيه عملية تخريبية. فقد وجدوا آثاراً للمتفجرات على بذور فاكهة المانغا، التي كانت فاكهة الجنرال ضياء المفضلة. من المعلوم أن فاكهة المانغا الباكستانية تشتهر بطعمها اللذيذ.

*** تميّزت فترة الثمانينيات بحركات مناهضة للثورات على النطاق الدولي: فكانت الحرب الإيرانية العراقية، وتأسست حركة المجاهدين للقضاء على الثورة التقدمية في أفغانستان... ما السبب في تقديم باكستان دعمها للحركة المناهضة للثورة الأفغانية؟**

كانت باكستان تعاني من مشكلات مع جارتها أفغانستان. وسبق أن رأينا أن الشريط الحدودي الذي رُسم بين البلدين، قسّم إقليم البشتون بطريقة مصطنعة، إلى جزأين، ما أسفر عن رفض أفغانستان الاعتراف بباكستان دولة مستقلة.

ولا ننسى رغبة البورجوازية الباكستانية في توسيع نطاق سوقها، ليمتد إلى آسيا الوسطى. لذلك كانت تحتاج أن تكون الجارة أفغانستان دولة ضعيفة، لتلبي جميع احتياجاتها. ومن أجل بلوغ هذه الغاية، أعدّ الجنرال ضياء الحق إستراتيجية اعتمدت على تقسيم قبائل البشتون بين البلدين، كما عيّن هذا الحاكم المستبد أفراداً من قبائل البشتون على رأس جهاز الاستخبارات الباكستانية، والدوائر الاستخباراتية الباكستانية. كُلِّف هؤلاء المسؤولون بدعم مجاهدي الأفغان بالسلاح، فزودوا مقاتلي البشتون على حساب بقية الطوائف الأقلية، كالكازاخ، والطاجيك، والفرس. كان ضياء الحق يطمع في إنشاء علاقة خاصة مع جارته أفغانستان. وفي نهاية المطاف،

تولّت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والسلطات السعودية موضوع تمويل قبائل البشتون، كما تلقت هذه الطائفة الدعم من الدول الغربية كافة.

*** غير أن هذه الإستراتيجية لم تأتِ في مصلحة النخبة الباكستانية...**

كلا. تخلّت الولايات المتحدة عن دعمها لأفغانستان بعد سقوط الحكومة الأفغانية، وانهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٩، فبعد أن سخّرتها في خدمة مصالحها الإستراتيجية (راجع الفصل السابق)، عمدت إلى التخلّص منها. نتيجة لذلك، شهدت باكستان نزوح ملايين اللاجئين الأفغان إلى أراضيها، ما خلق لها تحديات خطرة ، إذ إنها كانت تعاني من وضع اقتصادي مزعزع، ومن نظام سياسي يفتقر إلى الأمن.

*** إذاً، دفعت باكستان ثمن أعمالها، وتحملت مغبة أفعالها؟**

تتميّز باكستان بكونها بلداً غنياً يؤوي شعباً فقيراً، فهي تمتلك كل الخيرات التي يمنّ الله بها على عباده. بدءاً من فاكهة المانغا، بحجمها الكبير، إلى أفضل نوعية من الغاز الطبيعي. ونؤكّد، وبكل عقلانية، أنه ليس من مصلحة باكستان أن تشارك الولايات المتحدة الأمريكية في أي شيء، أو أن تعمل لديها كما المرتزقة. إنك عندما توافق على أن تكون من المرتزقة، عليك أن تأكل من طبق الآخر. وباكستان لا تحتاج إلى ذلك. صحيح أن الطبق الذي تمتلكه صغير، لكن لديها القدرات الكافية لملئه بما تشاء.

*** بمَ تفسر إذاً تصرف باكستان الذي جاء في عكس مصالحها الخاصة؟**

جاء ذلك بسبب سيطرة طبقة الكمبرادور على الحكم. إذ تبلغ الثروات التي في حوزة هذه الطبقة الطفيلية أكثر مما تملكه دول اتحاد البنلوكس مجتمعة، لكنها تفتقر إلى أدنى حد من الرؤية المستقبلية لتطوير

بلدها. تعمد هذه الطبقة إلى إيداع رؤوس أموالها خارج البلد. لذلك حينما تستغني دولة عظمى عن خدمات بورجوازية الكمبرادور في أي بلد، فإنها تسارع إلى التخلص منها.

*** إذاً، لو سيطرت البورجوازية الوطنية على البلاد، لكان الوضع أفضل مما هو عليه...**

نعم، لتطورت باكستان، ولأمكنها أن تسبق بلداً كتركيا بسرعة فائقة. كما يمكن لباكستان أن تمتلك ثروة تماثل بها البرازيل أو تضاهيها. بيد أن مشكلة باكستان تكمن في غياب ثورة وطنية ديمقراطية.

الثورة الوطنية الديمقراطية

تتضمّن ثورة كهذه – في جدول أعمال معظم بلدان العالم الثالث، التي لا تزال مستعمرات جديدة - جانبين: جانب وطني وآخر ديمقراطي.

أما «الجانب الوطني»، فإنه يتناول الاستقلال من القوى الإمبريالية والتحرر منها، أي أن تتولّى طبقات المجتمع داخل البلد اتخاذ القرارات المهمّة على الصعيدين الاقتصادي والمالي، بعيداً عن خدمة المصالح الأجنبية، ويتم ذلك بدافع تطوير الاقتصاد المحلي للبلد بالدرجة الأولى، لا لتحقيق مكاسب الشركات متعددة الجنسيات.

لا يغيب عن أذهاننا أن القوى الإمبريالية، على اختلافها، سترغب في منع حدوث هذا النوع من التغيير، وستلجأ إلى استخدام عملائها ووسائلها الخاصة، التي منها تسخير الطبقة البورجوازية العاملة في التجارة الداخلية من جهة، وإبقاء الشعب في ظلمات الجهل، ومنعه من استخدام عقله للتفكير، كي تتمكن هذه القوى الإمبريالية من فرض سياسةٍ تُلحق أكبر

قدر ممكن من الضرر بهذا الشعب. من أجل هذا، عمدت الولايات المتحدة الأمريكية وباقي القوى الإمبريالية العظمى إلى تقديم دعمها للقوى الأكثر رجعية داخل المجتمعات، ففي ذلك ما يخدم مصلحتها.

ومن هنا، تأتي ضرورة توسيع نطاق الإصلاحات الديمقراطية، من أجل توطين دولة قائمة بذاتها. وهذا يفترض شن معارك عدّة...

أما «الجانب الديمقراطي»، فإنه يعني محاربة القوى الرجعية، والسلطات الإقطاعية والضلالية، إذ تَدّعي هذه الجماعات، في سبيل المثال، عدم جواز عمل المرأة خارج منزلها، كما تعارض إضفاء الطابع الديمقراطي على المجتمع. لذلك ينبغي، من أجل التغلّب على هذه العقبات، تطوير برنامج تعليمي حديث، يتيح الفرصة أمام الناس للبحث عن مصالحهم، والبحث في حلول بديلة.

فمن أجل إنجاح الثورة الديمقراطية الوطنية يجب أن تقاتل في جميع الجهات، وأن تتمتّع بقوة فائقة، ولا تأتي القوة المطلوبة إلّا عن طريق حشد طبقات الشعب كافة. ففي سبيل المثال، يجب منح ملكية الأراضي للفلاحين الذين تعرضوا للنهب فيما مضى على أيدي مالكي الأراضي. لذلك في حال إحجام أي دولة عن تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، فإنها ستدفع بالبلد إلى حالة الركود.

*** ما الذي حال دون تحقيق ثورة وطنية ديمقراطية في باكستان؟**

يستدعي توطيد الثورة محاربة تلك الطبقة المعادية والمتحالفة مع الخارج، التي تتمثّل بالجيش. لذلك كان من الصعوبة بمكان للحزب الباكستاني مواجهة هؤلاء الأعداء المجتمعين، وحينما تطلب الطبقة الثورية

من الفلاح «هيا بنا نعلن الثورة!»، فسيدور في خلد هذا الفلاح أن هذه الطبقة الإقطاعية تكرر باستمرار : «العدو هو الهند، لأنه ينتمي إلى الطائفة الهندوسية». إنها معركة صعبة للغاية، في زمن تستعر فيه الحرب الإعلامية وتتأجج. كما يستلزم الأمر محاربة العقول المتعفنة.

*** ماذا تعني بهذا؟**

سأعطيك مثلاً، هناك قسم من المهاجرين المسلمين الذين قدموا من الهند بحثاً عن مكان يلجؤون إليه. اعتنق هؤلاء الدين الإسلامي تعبيراً عن تمردهم على النظام الطبقي الهندوسي. إنّما هذا يخص الرجال دون النساء، فقد بقي النظام الطبقي قائماً لهن.

فإذا كنت تنوي قيادة ثورة ديمقراطية، فعليك القضاء على هذه الظاهرة أيضاً. يجب أن تُمنح المرأة حقوقها الديمقراطية. إنّما هذا يعني أنك ستواجه حرباً من قبل الفلاح الفقير الذي سيعتقد أنك تسعى إلى حرمانه من المرأة «التي تعمل لديه كالعبيد، وفي النتيجة، هو يمتلكها». وسيتهمك أيضاً أنك تريد أن تسوّي في معاملة المرأة والرجل. فالمآل أنه سينحاز إلى عدوك دون أن يدرك أن قيام هذه الثورة الديمقراطية يهدف في الأصل إلى الدفاع عن مصالحه. لهذا يبدو الموضوع صعباً وشائكاً.

*** بعد موت الجنرال ضياء الحق عام ١٩٨٨، نُظمت انتخابات فازت فيها بنظير بوتو، وهي امرأة! لكن يبدو أن الديمقراطية لم تنجح في باكستان. ما السبب في ذلك؟**

بالضبط، مما يدعو إلى التفاؤل أن ترى عودة السلطة إلى المدنيين، واستقرار التعددية السياسية مجدداً. إلّا أنَّ هذه المرأة كانت محط وهمٍ في دول

الغرب، فهي أول امرأة تتسلّم دوراً قيادياً في دولة إسلامية. كانت تجسّد التحديث لدى الغربيين، بسبب تلقيها العلم في جامعة أكسفورد، بينما في واقع الأمر، لم تكن تمثل سوى بورجوازية الكمبرادور، لذا لم يكن في مقدورها توطين الديمقراطية، والحرية، والاستقلال في البلاد.

*** مع ذلك، كان والدها، ذو الفقار علي بوتو وطنياً، ويعود الفضل إليه في تأسيس حزب الشعب الباكستاني (PPP)، لقد شغل منصب رئيس الوزراء قبل إقالته وتنفيذ حكم الإعدام فيه من قبل الجنرال ضياء الحق.**

هذا صحيح، غير أن بنظير بوتو لم تتبع خطا أبيها. علينا في الحقيقة، الاطلاع على مختلف الطبقات الاجتماعية التي يتألف منها المجتمع الباكستاني. هناك أولاً الطبقة الإقطاعية، وغالبيتها من البنجابيين، وتضم كبار أصحاب الأراضي ورجالات الجيش. وهذه الطبقة على صلة وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية التي تدعم الجيش الباكستاني مالياً. مع ذلك، لا تخضع هذه الطبقة لمصالح القوى الإمبريالية بشكل كامل، فقد منحت نفسها الحرية الكاملة في إقامة علاقات وثيقة مع الصين.

وعلى النقيض من ذلك، فإنك تجد أن طبقة الكمبرادور التي تنتمي إليها بنظير بوتو، متصلة مباشرة بالقوى الإمبرياليّة، فقد أقامت هذه الطبقة تحالفاً مع قسم من البورجوازية البوروقراطية التي تشكّلت في دول الغرب.

هناك أيضاً البورجوازية البسيطة، ونجد فيها طبقة المثقفين من سكان باكستان. تدعو هذه الطبقة إلى إضفاء الطابع الديمقراطي على المجتمع، وتأمل أن يمتنع الجيش عن التدخل في الشؤون السياسية للبلاد. لديك بالتأكيد طبقة الفلاحين والعمّال. وأخيراً هناك طبقة البورجوازية الوطنية

التي كان ذو الفقار علي بوتو يمثّلها. لقد عملت هذه الطبقة على تطوير الصناعة في باكستان، لذا لا يمكن عدُّ هذا البلد أنه مصدِّر للمواد الأولية فقط. تستطيع هذه البورجوازية، في بعض الأحيان، التحالف مع الجيش من أجل إيقاف بورجوازية الكمبرادور.

*** إذاً، استولت بورجوازية الكمبرادور على السلطة مع وصول بنظير بوتو إلى منصبها عام ١٩٨٨. فكيف انعكس ذلك على باكستان؟**

اتصف الوضع على الصعيد السياسي بعدم الاستقرار. فبعد مضيّ واحد وعشرين شهراً على نجاح بنظير بوتو في الانتخابات، أقدم الرئيس غلام إسحق خان على تجريدها من مهامها، ليخلفها نواز شريف في هذا المنصب، لكنه ما لبث هو أيضاً أن أُقيل من منصبه على يد الرئيس خان عام ١٩٩٣، لتعود بنظير بوتو إلى منصبها مجدداً، عندما تسلّم فاروق ليغاري زمام الحكم في البلاد. إنّما، في عام ١٩٩٦، أقال هذا الرئيس بنظير بوتو، وأعاد نواز شريف إلى منصبه كرئيس للوزراء، في حين اختارت بنظير المنفى. في النهاية، جاء الانقلاب الذي قاده الجنرال بيرفيز مشرّف عام ١٩٩٩، ليضع حداً للعبة المقاعد الموسيقية هذه.

*** هل شهدت البلاد انقلاباً عسكرياً مرة أخرى؟**

حينما تدعو الضرورة، يتدخل الجيش في باكستان كي «يعيد النظام مجدداً». وقد غاب الاستقرار في البلاد، في التسعينيات، مع هذه التغيرات المتكررة، على صعيد القيادة في الدولة. كما قادت بورجوازية الكمبرادور في هذه السنوات، برنامجاً واسعاً للخصخصة والضوابط التنظيمية، تحريضاً منها لخلق بيئة ملائمة للاستثمارات الأجنبية في البلاد. لقد باعت هذه

الطبقة المواد الأولية للبلاد إلى الشركات متعددة الجنسيات بأسعار زهيدة، متسببة في ذلك بتوطيد التفاوت الاجتماعي في باكستان. وأخيراً، حثّت بنظير بوتو في تلك الفترة تحديداً، وبالمشاركة مع الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية، على وصول جماعة طالبان إلى سدة الحكم في أفغانستان.

*** لماذا انضم الرئيس مشرّف إلى جورج بوش الابن في حربه ضد الارهاب عام ٢٠٠١؟**

لقد خلق انخراط باكستان في الحرب التي قادها بوش الابن ضد الإرهاب مشكلات خطرة. إذ لمّا تمت الإطاحة بجماعة طالبان في كابول، لجأ كثير منهم إلى إقليم وزيرستان في الجانب الآخر من الحدود. وترددت الحكومة الباكستانية لفترة من الوقت قبل أن تسعى إلى إلقاء القبض عليهم، إذ إن حركة طالبان لم تكن جماعة معادية، ولا سيّما أنها تنتمي إلى قبائل البشتون، تماماً كسكان المنطقة التي لجؤوا إليها.

وأخيراً، وصل الجنود الباكستانيون إلى منطقة وزيرستان الجبلية، ولمّا رفضت القبائل المحليّة تسليم رجال طالبان الذين لجؤوا إليهم، تعرض أهالي المنطقة لموجة قمع عنيفة.

نتيجة لذلك، أخذت جماعة طالبان تعزز صفوفها في باكستان، فبادرت إلى استقطاب الشبان المستائين من جراء تصرفات النخبة الفاسدة، وكذلك الفلاحين المعدمين الذين ثاروا ضد أصحاب الأراضي، إلى جانب أناس آخرين عاطلين من العمل...

إنّما، كلما كانت حركة طالبان تزداد قوة، وتوسّع نطاق نفوذها على طول الحدود الأفغانية، ازداد قمع الجيش الباكستاني ضراوة، فكان يقصف المنطقة دون تمييز، فقد أفادت إحدى الصحف اليومية الرئيسة التي تصدر في البلاد، أن بين سبعمئة مدني ممن لقوا حتفهم من جراء عمليات القصف العشوائي بين كانون الثاني ونيسان ٢٠٠٩، أربعة عشر فقط كان يشتبه بأنهم ينتمون إلى حركة طالبان. غير أنه كلما تزايدت أعمال القمع تزايد دعم شعب المنطقة لجماعة طالبان. لقد خلق الرد العسكري الباكستاني الذي كان غير ملائم على الإطلاق، حلقة مفرغة.

*** أعلنت وسائط الإعلام عام ٢٠٠٩، أن حركة طالبان وصلت إلى مشارف إسلام أباد وأطلقت صفارات الإنذار معلنة أن السلاح النووي الذي تمتلكه باكستان قد يقع في أيدٍ غير أمينة...**

هذا الأمر فيه كثير من المبالغة. حسب ما جاء على لسان الحكومة الباكستانية، لم يتجاوز عدد جماعة طالبان خمسة آلاف رجل، ففي الوقت الذي كانوا فيه يراقبون وادي سوات، توغلت مجموعة صغيرة منهم في وادي بونر المجاور والقريب من إسلام أباد. إنّما حركة طالبان لم تكن في وضع يسمح لها بالاستيلاء على العاصمة. ومع ذلك، ونتيجة الضغوط الكثيرة التي تعرّضت لها الحكومة الباكستانية من الدول الغربية، عمدت إلى قمع هؤلاء النشطاء بطريقة وحشية، فكانت النتيجة نزوح ثلاثة ملايين مدني، وقتل الكثير ممن لم يغادروا المنطقة، أما الذين بقوا على قيد الحياة، فلم تقدّم لهم الحكومة الباكستانية أي نوع من أنواع المساعدة.

*** ما الذي دفع باكستان إلى تطوير القنبلة الذرية عام ١٩٩٨؟**

اعتراضاً على الهند، فقد طوّرت هذه الأخيرة قنبلتها، فكان لا بد لباكستان من تطوير قنبلتها هي أيضاً. إنها الطريقة التي اختارتها الطبقة الحاكمة لتتباهى بها أمام شعبها، ولتنشر البلبلة في صفوفه. إنّما لم يكن هناك أي هدف معيّن لتطوير هذه القنبلة، كان الأمر عبارة عن هدر للأموال التي كان من الممكن استغلالها في تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، ورفع المستوى المعيشي لدى الشعب. يضاف إلى ذلك أن السلاح الذري ليس خياراً إستراتيجياً، إنه لا يتجاوز كونه وسيلة ردع. باستطاعتك استخدام السلاح النووي لتدمير مدينة أو إحدى الصناعات، لكنك لن تتمكن أبداً من تدمير جيش.

*** ألم تخشَ دول الغرب هذه القنبلة؟**

كلا. إنك إن امتلكت القنبلة النووية، وكنت مستقلاً عن القوى الإمبريالية فإنهم سيخشونك. لذلك هم يخشون اليوم كوريا الشمالية. إنها اللغة الوحيدة التي يفهمونها. إنهم قوم جبناء، على الرغم من امتلاكهم لترسانة هائلة من الأسلحة. غير أن باكستان هي بلد تابع للولايات المتحدة الأمريكية، فستستخدمها ضد من؟ لا يعود خطر هذه القنبلة إلّا على باكستان نفسها.

*** بالعودة إلى حركة طالبان، ألم تكن مشاركة الحكومة الباكستانية للحرب التي قادها بوش الابن ضد الإرهاب، عملية انتحارية بالنسبة إليها؟**

إن عملية قمع حركة طالبان التي جرت أحداثها على أراضي باكستان، والمجازر التي نُفِّذتْ بحق العديد من المدنيين بالقرب من الحدود

الأفغانية، عملت على انقسام الجيش. هناك تيار لا يزال على ارتباط وثيق بالولايات المتحدة الأمريكية، أما التيار الآخر، فإنه يرغب في اتباع سياسة النأي بالنفس، بعيداً عن هذا الحليف المربك، الذي لم يعد يمتلك الكثير لتقديمه. لم تكن هذه الشريحة من الجيش معارضة بصورة مطلقة لحركة طالبان، وهي ترغب في رؤية الولايات المتحدة الأمريكية تستنفد قوتها في هذا الصراع غير المتناهي، وتأخذ أمتعتها، وتغادر المنطقة بلا عودة. أضف إلى ذلك أن هذا التيار قد حكم على عملية اغتيال بن لادن على أيدي القوات الأمريكية الخاصة، بأنها انتهاك للأراضي الباكستانية.

*** هل تخشى الولايات المتحدة الأمريكية فقدانها دولة باكستان؟**

منذ خمس عشرة سنة أو عشرين تقريباً، كان العداء الذي يكنه الشعب الباكستاني للشعب الهندي يفوق بكثير العداء الذي يكنّه للولايات المتحدة الأمريكية. أما اليوم، فقد تغير موقفه بالكليّة، وأصبح معارضاً تماماً للولايات المتحدة الأمريكية، بسبب الدمار الذي خلفته في البلاد. ففي كل يوم، تقتل الولايات المتحدة الأمريكية مسلمين من باكستان، ومن أفغانستان، ومن كل أرجاء العالم. كل ذلك، يُدرج على فاتورة واشنطن!

لقد أدرك الشعب وقسم من الجيش أن من الممكن إدخال التغيير في التحالفات. إذ إنه من الممكن التوصل إلى إقامة تفاهم مع الهند، وطرد الولايات المتحدة الأمريكية خارج بلدهم. فإذا اقتُلِعت الولايات المتحدة الأمريكية خارج هذه المنطقة، فسيكون ذلك نذيراً لنهايتها، إذ ستكون عاجزة تماماً عن مجابهة جبهة موحدة، تضم كل من إيران وباكستان والهند والصين. لذا ينبغي لها مغادرة هذه البلاد في طريق لاعودة عنه.

*** إذا كان الخطر كبيراً إلى هذا الحد، فكيف ستتصرّف واشنطن لمنع إقامة تحالف بين هذه البلدان؟**

تتضمن إستراتيجيتها توسيع رقعة الحرب الأفغانية، لتصل إلى باكستان. لذا يتحتّم عليها منع حدوث أي تقارب بين إيران والهند وباكستان.

*** هل من الممكن أن يحصل تقارب بعد هذا الكم من الصراعات؟**

أرجّح ذلك. لقد وقّعت كل من الهند وإيران على صفقة كبيرة جداً منذ سنوات عدة، سعياً منهما إلى بناء خط أنابيب لنقل الغاز من بلوشستان الإيرانية، وصولاً إلى الهند، مروراً بباكستان. فلو كتب لهذا المشروع النجاح، لنُقل الغاز من باكستان إلى الهند، ولتقاربت المسافة بين البلدين، نتيجة التعاون الاقتصادي بينهما، إلّا أن المشروع لم يكلل بالنجاح.

*** إنك تجزم أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تهدف إطلاقاً إلى إحلال السلام في المنطقة، بل تهدف إلى زرع بذور الفوضى فيها!**

نعم، إنها بتوسيع نطاق الحرب ضد حركة طالبان في باكستان، تعمل على زعزعة الأمن والاستقرار في البلد. لقد أشاعت واشنطن أن بن لادن لجأ إلى باكستان، بدعم من السلطات المحلية للبلاد، وهذه ذريعة تتخذها واشنطن في أي وقت، لتنفيذ هجمات انتقامية مستقبلية.

كذلك الأمر لإيران، فهي في مرمى النيران. إذ إن أمريكا تدعم حركة جند الله البلوشية ضد الحكومة الإيرانية. اتخذت هذه الحركة قاعدة لها في بلوشستان الباكستانية. أما رجالها، فهم من مسلمي السنّة، المحافظين والمناوئين لشيعة إيران. وقد أقدموا على اغتيال جنرالات إيرانيين في أعمال تفجيرية. إنهم في حقيقة الأمر جماعة من الإرهابيين.

*** وكيف هي العلاقة مع الصين؟**

تقيم باكستان علاقات جيدة مع الصين منذ حصولها على استقلالها. فكانت أول دولة تعترف بالجمهورية الشعبية حين قيامها عام ١٩٥٠. وقد شيدت الصين منذ سنوات عدة ميناء غواندار في بلوشستان، أكبر الأقاليم في باكستان. يشكل هذا الميناء عنصراً جوهرياً للصين، فهو بمنزلة منفذ لها يربطها بالمحيط الهندي، وتستطيع عبره تبادل التجارة مع قارة أفريقيا وباقي دول العالم (راجع فصل المحيط الهندي).

*** لقد ذكرتَ أن الصين كانت حليفاً دائماً لدولة باكستان، ألم يخلق ذلك تحديات للولايات المتحدة الأمريكية؟**

أبداً... طالما أن الاتحاد السوفييتي هو العدو الرئيس لواشنطن. إنّما مجريات الأمور قد تغيرت منذ ذلك الحين. فالصين اليوم هي المنافس الأول للولايات المتحدة، وتتوسطهما باكستان التي سيتحتم عليها إجراء خيارات استراتيجية لتحالفاتها، فمن جهة، هناك بلد مفلس، لم يعد يملك شيئاً يقدمه، فضلاً عن أنه يعيث فساداً في المنطقة، ومن جهة أخرى، هناك الصين الآخذة في النمو والارتقاء، التي تقدّم الفرص الذهبية على الصعيد الاقتصادي.

*** أعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية لا ترغب في حصول أي تقارب بين الصين وباكستان...**

بالتأكيد. لهذا السبب لم تتوقف عن ممارسة الضغوط على الحكومة الباكستانية بخصوص حركة طالبان. ولهذا السبب أيضاً، تقدم الولايات المتحدة الأمريكية دعمها لحركة بلوشستان الانفصالية. كما تسعى الولايات

المتحدة الأمريكية إلى فرض هيمنتها على ميناء غواندار، لتحول دون دخول هذه الولاية الباكستانية المهمّة في دائرة سيطرة الصين.

تفضل الولايات المتحدة الأمريكية تقسيم باكستان إلى دويلات صغيرة، وتدمير قارة آسيا بأكملها لمنع التقارب الباكستاني الصيني، ولمنع الصين من الهيمنة على ميناء غواندار، لهذا السبب تجدها مستعدّة لتأجيج صراع قارّي ضخم. إلّا أنها في حقيقة الأمر، تطلق النار على قدمها، لأنها لن تجني إلّا الخسارة.

*** أعتقد أن الصين وباكستان لن تسمحا بحدوث ذلك...**

أمّا الصين، فهي ماضية في توسيع بناء ميناء غواندار، وأما باكستان، فإنها تطلب إلى الصين حالياً بناء قاعدة عسكرية على أراضيها. ستعمل هذه القاعدة على إحداث توازن مقابل السيطرة الأمريكية في الخليج العربي، وستشكّل بصورة خاصة، نقطة إستراتيجية لمراقبة المحيط الهندي، تلك المنطقة التي تشهد أحداث التنافس بين القوى العظمى.

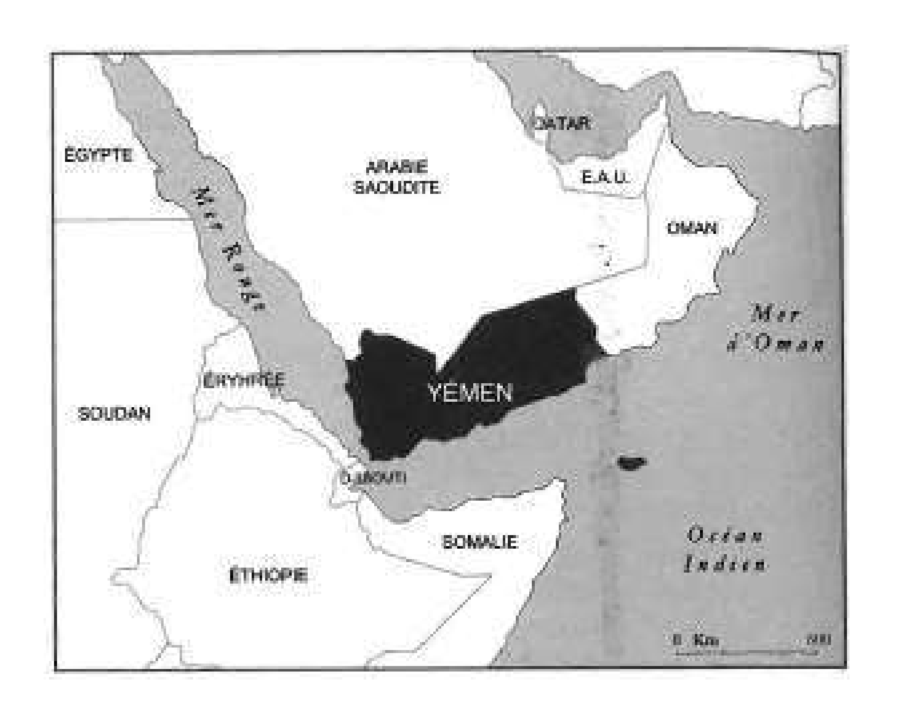
قائمة المراجع

- Ahmad Rashid, Descent into Chaos: The United States and the Failure of Nation Building in Pakistan, Afghanistan and Central Asia, Viking Adult, 2008.
- Suniti Kumar Ghosh, India and the Raj 1919-1947, Sahitya Samsad, 2007.
- Tariq Ali, Can Pakistan Survive, Random House, 1998.
- Ian Talbot, Pakistan: A Modern History, Palgrave Macmillan, 1999.
- Mohammad Asghar Khan, Islam, Politics and the State: The Pakistan Experience, Zed Books, 1986.
- Hassan Gardezi and Jamil Rashid, Pakistan, the roots of dictatorship, Zed Press, 1983.

اليمن
الولايات المتحدة الأمريكية لا تقاتل القاعدة، بل نظام الحكم الديمقراطي

بقي اليمن لفترة طويلة على هامش الأحداث في وسائل الإعلام، وها هو ذا يظهر فجأة للعيان في السادس والعشرين من شهر كانون الأول من عام ٢٠٠٩. فما إن اشتعل السروال الذي كان يرتديه شاب «إرهابي» من أصل نيجيري على متن الطائرة المتجهة من أمستردام إلى ديترويت، سارعت واشنطن إلى قصف ... اليمن، بذريعة التهديد الناشئ عن تنظيم القاعدة. وفي عام ٢٠١١، رمى الرئيس المستبد علي عبد الله صالح، شعبه الثائر بالرشاشات بطريقة وحشية، فبذلت واشنطن قصارى جهدها في تقديم الحماية له، متذرعة مرة أخرى بوجود تنظيم القاعدة.

أين المنطق في كل ذلك؟ ما الذي تفعله الولايات المتحدة الأمريكية في اليمن؟ من الذي يريد تجميد كل أشكال التغيير في هذا البلد الذي يكاد يكون غير معروف؟



لمحة سريعة عن اليمن

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** صنعاء.

- **المساحة:** ٥٢٧ ٩٦٨ كم٢.

- **تعداد السكان:** ٢٦ ٩٨٨ ٩٠٠ **(**أي بمعدّل ٤٠ نسمة **/** كم٢**).**

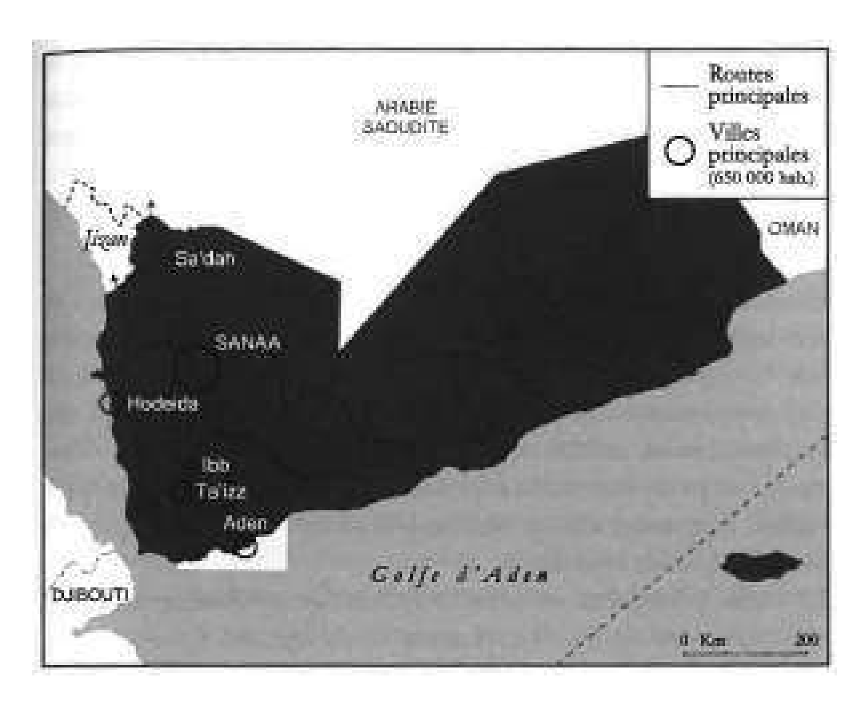
على الصعيد الاجتماعي:

- **نسيج المجتمع:** يشكّل مذهب أهل السنّة والجماعة نسبة **(٥٠%)**، ويتمركزون جنوبي البلاد، وجنوبي شرقها. وتشكّل الفرقة الشيعية نسبة **(٥٠%)**، وتتمركز شمالي البلاد وشمالي غربها، بالقرب من الحدود السعودية.

- **متوسط العمر:** ٦٣,٧ عاماً.

- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: ٤٣%**

- **لا: ٥٠,٢%.**



الكثافة السكانية:

الطرق الرئيسة

المدن الرئيسة**:** يبلغ عدد سكانها ٦٥٠ ٠٠٠

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية رئاسية

- **رئيس الدولة:** علي عبد الله صالح (٢٢ أيار ١٩٩٠- ٢٥ شباط ٢٠١٢)

- تاريخ نيل الاستقلال: عام ١٩٩٠ **(**إعادة توحيد اليمن بشطريه الشمالي والجنوبي**)**

الاقتصاد:

- إجمالي الناتج المحلي في عام واحد: ٢٧,٥ مليار دولار **(**٢٠٠٨**)**

- الموارد: الزراعة، مساعدات دولية، عمليات تنقيب عن النفط والغاز**.**

- معدل النمو: ٨% **(**٢٠١٠**).**

- إجمالي الناتج المحلي للفرد: ٢٤٠٠ دولار **(**٢٠٠٨**).**

- مؤشر التنمية البشرية: ٠,٤٣٩ **(**١٣٦ من حيث الترتيب**)**

- نسبة البطالة:٤١ **%.**

- نسبة السكان الذين تحت خط الفقر: ٥٨% **.**

*** لم يكن أحد يورد ذكر اليمن قبل محاولة الاعتداء الغريبة الفاشلة التي تمت على متن الطائرة المتجهة من أمستردام إلى ديترويت (عندما اشتعلت النار في سروال ذلك القرصان). إنّما، منذ ذلك التاريخ، أصبح اليمن يتصدّر عناوين الصفحات الرئيسة في الصحف، «لا بد أن هذا الإرهابي الشاب قد تلقى تدريباته في اليمن»، فعمدت الولايات المتحدة الأمريكية، في إثرها، إلى قصف اليمن، مؤكّدة مطاردة تنظيم القاعدة...**

علينا، قبل أي شيء، رصد هذه الظاهرة التي باتت متكررة، ففي كل مرة يجد نظام ما، يحظى بدعم من واشنطن، يجد نفسه موضع تهديد، يظهر

الإرهابيون فجأة في الساحة. وحينما يتعلّق الموضوع بالدول الإسلامية يتمثّل الإرهاب في تنظيم القاعدة. لا تظهر هذه الجماعة الإرهابية، الضبابية بما فيه الكفاية، إلّا في الأمكنة التي تعمل فيها الحركات الوطنية، أو تلك المناهضة للإمبريالية، على تهديد أنظمة الحكم العميلة، التي تتلقى دعمها من الولايات المتحدة الأمريكية. هذا ملخّص ما يحصل اليوم في اليمن. إن مَنْ يتولى مقاليد الحكم في هذا البلد هو نظام فاسد، حليف لواشنطن، غير أنه يواجه تهديداً من حركات المقاومة.

وهنا، ظهر ذلك الشاب النيجيري الذي سافر على متن الطائرة المتجهة إلى ديترويت حاملاً معه المتفجرات. إنه لأمر غاية في السخف. لقد أُدرج اسم هذا الإرهابي المزعوم على قوائم المراقبة منذ أن أخطر والده السلطات الأمريكية بأمره. ثم إن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك أجهزة أمن ومعدات متطورة جداً، كما يمكنها عبر الأقمار الاصطناعية التي في حوزتها أن تحدد لكَ نوع الشطيرة التي تتناولها، أهي بالتونة أم بالدجاج!

إنني لا أنكر وجود تنظيم القاعدة، لكنني أصوّب إصبعي إلى تلك الحرب على الإرهاب التي تتزعّم قيادتها الولايات المتحدة الأمريكية. هذه الحرب ليست سوى ذريعة، وغطاء لبلوغ الأهداف الإستراتيجية المتعلّقة بممارسة المراقبة على الدول الإسلامية. فتارة تلوّح واشنطن بفزاعة تنظيم القاعدة لتسوّغ تدخلها العسكري في اليمن أو في الصومال، وطوراً تتحالف مع هؤلاء المقاتلين - في تنظيم القاعدة - من أجل الإطاحة بالقذافي في ليبيا.

*** ما الذي يدعوها إذاً إلى التلويح بفزاعة تنظيم القاعدة في اليمن؟ وما الذي أكسب هذا البلد تلك الأهمية المفاجئة لواشنطن؟**

تولّى علي عبد الله صالح حكم اليمن منذ ثلاثين عاماً، وتميّز حكمه بالفساد، غير أن سياسته في الحكم تنسجم وتتوافق مع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. في وقت لاحق، اندلعت احتجاجات ضده، قادها رجال المقاومة في شمالي البلاد، إلى جانب الانفصاليين في جنوبي البلاد.

إنّما، في حال تمكنت الحركة الثورية من الإطاحة بصالح، فإن ذلك سيكون له الأثر في المنطقة برمتها، كما سيكون ذلك بمنزلة حافز يقود رجال المقاومة إلى القيام بثورات ضد الحكومات المؤيدة للإمبريالية في المنطقة، وبشكل خاص ضد النظام الإقطاعي الحاكم في المملكة العربية السعودية.

*** من هم رجال المقاومة في الشمال؟ وما مطالبهم؟**

تواجه الحكومة اليمنية منذ سنوات عدة المقاومة الحوثية المسلحة في شمالي البلاد. عُرفت الحركة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها حسين الحوثي. مات حسين الحوثي عام ٢٠٠٤، وتولى أخوه من بعده زعامة الحركة. ينتمي الحوثييون إلى الطائفة الزيدية، على غرار غالبية اليمنيين في شمالي البلاد. لقد انقسم المسلمون إلى مذاهب وفرق عدة ، منها مذهب أهل السنّة والجماعة، والفرقة الشيعية. وتنقسم هذه الفرق بدورها إلى فروع مختلفة، منها الزيدية وهي أحد فروع الطائفة الشيعية.

ينتمي الرئيس صالح أيضاً إلى الطائفة الزيدية، إلّا أن الحوثيين لا يعترفون بسلطته. بل يرون أن نظامه فاسد، ويلبي مصالح الولايات المتحدة

الأمريكية وإسرائيل، لذلك فهم يرغبون في الإطاحة به. يعيش الحوثيون في المناطق الجبلية، بين العديد من فقراء اليمن، ويواجهون الممارسات القمعية الصادرة عن الدولة بشكل يومي، فما كان منهم إلّا حمل السلاح، وتشكيل حركة لتحرير البلاد. اتهم صالح من جهته، هؤلاء المقاتلين بأنهم يتلقون الدعم من إيران، ويهدفون إلى زعزعة الاستقرار في اليمن. لقد ذكر هذه الأسباب طمعاً في الحصول على المساعدات الخارجية، وبغية تسويغ السياسة القمعية التي ينتهجها.

*** هناك أيضاً الحركة الانفصالية الي قامت في الجنوب. ما الدافع؟**

إن الإلمام بتاريخ اليمن، بغية تعرّف مجريات الأحداث على الساحة اليمنية، في الوقت الراهن، لهو بالأمر الحيوي. لقد شهد عام ١٩٩٠ قيام دولة اليمن بشكلها الحالي، نتيجة لتوحّد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في الجنوب، والجمهورية العربية اليمنية في الشمال. إذ كان لهاتين الدولتين نظامان مختلفان...

يعود قيام دولة اليمن الشمالي إلى عشرة قرون خلت، وكان ذلك قبل وصول الزيديين إلى صعدة. ثم اندلعت ثورة عام ١٩٦٢، معلنة سيادة النظام الجمهوري، بعد الإطاحة بالنظام الإقطاعي. أعلن الرئيس المصري عبد الناصر، الذي أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن استقلال الدول العربية، أعلن تأييده للنظام الجمهوري. من جانبها، ما كان من الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا العظمى، والمملكة العربية السعودية وشاه إيران، إلّا إرسال قوات من المرتزقة لنجدة العناصر الرجعية التابعة للنظام الإقطاعي القديم، ولإضعاف موقف عبد الناصر. أدّى هذا الصراع إلى اندلاع حرب مروّعة،

أدت إلى سقوط آلاف الضحايا. وفي نهاية الأمر، لم يتمكّن التحالف من الإطاحة بالحكومة الجمهورية، فبقيت، لكنها خرجت منهكة من هذا الصراع، وعاجزة تماماً عن توطيد أركان الثورة الثقافية، وعن إضفاء الطابع الديمقراطي في البلد، أو تحويله إلى بلد صناعي، فبقي الطابع الإقطاعي لليمن الشمالي هو المهيمن، على الرغم من فرار الإمام الملك إلى المملكة العربية السعودية. لم تنجح الثورة الديمقراطية في إحداث تطوير حقيقي في البلد.

*** وماذا عن الجنوب؟**

اختلف مسار اليمن الجنوبي عنه في اليمن الشمالي. دخلت بريطانيا العظمى المنطقة في القرن التاسع عشر، وفرضت هيمنتها عليها، للحد من توسّع كلٍّ من الفرنسيين الذين أعلنوا استيلاءهم على جيبوتي، والروس الذين بسطوا سيطرتهم حتى وصلوا إلى آسيا الوسطى. بيد أن هدف البريطانيين تجاوز هذا المطلب، فهم يطمعون في الحفاظ على هيمنتهم في منطقة الخليج العربي. لقد بنوا مدينة عدن الساحلية في اليمن الجنوبي، وأصبحت مركزاً مهمّاً للإمبراطورية البريطانية. نستطيع القول إنها هونغ كونغ عصرها، أو ماكاو عصرها. كما يُرسل كثير من الأجانب إلى هذه المنطقة.

يتربع المستوطنون البريطانيون على رأس هرم البناء الاجتماعي، داخل المجتمع الاستعماري، ثم تأتي الجاليات الصومالية والهندية لتشكّل المنطقة العازلة مع اليمنيين الذين يأتون في المرتبة الأخيرة. هذه هي إستراتيجية المستعمر البريطاني التقليدية، استخدام مجموعة ضد أخرى، من أجل حماية وجوده. من جهة أخرى، يعمد المستعمر البريطاني إلى نفي كل الأفراد الذين صنّفهم أناساً خطرين في مستعمرته الهندية -كالوطنيين والشيوعيين - إلى عدن.

*** كان لهؤلاء الأسرى السياسيين الأثر في تغيير مجرى التاريخ في المنطقة...**

نعم، لقد تحولت عدن إلى مركز لبث الأفكار التقدمية التي انتشرت في أرجاء الوطن العربي كافة، وفي منطقة القرن الأفريقي. تنامت حركات الاستقلال في هذه المدينة الساحلية، ما أدى إلى فرار المستوطنين البريطانيين عام ١٩٦٧. رأت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية النور بقيادة الحزب الاشتراكي اليمني، وهو عبارة عن تحالف مؤلف من مختلف العناصر التقدمية التي هي إلى حد ما، ميراث سجناء عدن، حيث نجد الشيوعيين والوطنيين والليبيراليين والبعثيين القادمين من سورية أو العراق... تجتمع كل تلك الجهات الفاعلة تحت لواء الحزب الاشتراكي.

بذلك، أصبح جنوبي اليمن الدولة العربية الأكثر تقدمية في المنطقة، وعاشت أفضل مرحلة من تاريخها عندما طُبِّق قانون الإصلاح الزراعي، وتحقّقت المساواة بين الجنسين، إلخ. إلّا أن الحزب الاشتراكي بقي مؤلفاً من عناصر عديدة من أصول متفرقة. بات الشيوعيون يشرفون على الحزب، ويحافظون على قدر معيّن من تماسكه. إنّما، في كل مرة يحتاج فيها الأمر إلى مواجهة تحدّ هائل، كانت التناقضات تنشب في وضح النهار، وتنتهي بحوادث اغتيال، نتيجة غياب القاعدة الصناعية، وطابع البورجوازية الصغيرة للتحالف. بات أعضاء هذا التحالف يتقاتلون فيما بينهم بكل معنى الكلمة!

نتيجة ذلك، عرف الحزب ثلاث ثورات داخلية، اتصفت بالدموية، وكانت آخرها القاضية، إذ أُجهز على معظم الكوادر الأيديولوجية، وسيطر

الجناح الليبرالي على الحركة. لذلك لمّا توحّد اليمن بشطريه الشمالي والجنوبي عام ١٩٩٠، كان الحزب الاشتراكي الحاكم في اليمن الجنوبي في أشد حالات ضعفه. ومع كون مساراتهما مختلفة، توصّل كل من اليمن الشمالي واليمن الجنوبي إلى تسجيل وحدة البلاد ضمن جدول أعمالهما.

*** إذاً، لماذا توجب الانتظار حتى ١٩٩٠ لتوحيد شطري اليمن؟**

عانى اليمن الشمالي من ضعف شديد في الفترة التي تلت الحرب، وكان الحزب الليبرالي الذي كان يفتقر إلى الأفكار الثورية، ويخضع لدول الخليج، وعلى نحوٍ خاص، للمملكة العربية السعودية، هو من يدير دفة الحكم في البلد. فكانت الجارة السعودية تزوّد الطبقة الإقطاعية بالسلاح والمال، بغية إضعاف الحكومة المركزية، إذ كانت المملكة العربية السعودية ترى أن السيطرة على اليمن الشمالي المجزأ قبلياً هو أمر سهل. في حين تحول اليمن الجنوبي إلى معقل للأفكار التقدمية. لذا كان يُعدُّ إبان الحرب الباردة، أنه العدو الأول في المنطقة، الذي ينبغي احتجازه في الحجر الصحي.

في المقابل، شهدت المنطقة تغييرات في المشهد السياسي، مع حلول عام ١٩٩٠، تجسّدت بسقوط الاتحاد السوفييتي، وانتهاء الحرب الباردة معه، وضعف الحزب الاشتراكي اليمني، إذ لم يعد يشكّل أي مصدر تهديد بعد القضاء على زعمائه ومفكريه إبان الثورة الثالثة التي جرت داخل الحزب. لذا لم يعد توحيد اليمن يشكّل خطراً كبيراً على دول المنطقة، ولم يعد يهدد مصالح دول الغرب الإستراتيجية. فتسلّم علي عبد الله صالح الذي كان يشغل منصب رئيسٍ للجمهورية العربية اليمنية في الشمال، مقاليد حكم اليمن الموحّد، ولا يزال في السلطة حتى تاريخه.

*** كان اليمن، إلى جانب كوبا، الدولتين الوحيدتين اللتين اتخذتا موقف المعارض من الحرب التي شُنّت ضد العراق عام ١٩٩٠. وبعد انقضاء عشرين عاماً، لا يزال كاسترو يقف في وجه اليانكيز (الأمريكان)، في حين آثر صالح، من جهته، الانضمام إلى صف الولايات المتحدة الأمريكية في حربها ضد الإرهاب. كيف تفسّر هذا التغير؟**

لا يمكن عدُّ الموقف اليمني المعارض للحرب في العراق بأنه الثمرة الناتجة عن السياسة التي ينتهجها صالح، لكنه ثمرة فكر أعضاء الحزب الاشتراكي اليمني السابق، الذين كانوا يشغلون المناصب المهمّة في الحكومة الجديدة. ومع أن الحزب الاشتراكي كان يتمنى منذ زمن بعيد توحيد اليمنين على أساس تقدمي، إلّا أنه كان يعاني من ضعف كبير في صفوفه، نتيجة الصراعات التي ألمت به من الداخل، ومنعته من فرض خياراته السياسية. كما أن المملكة العربية السعودية، ذلك الحليف الوفيّ للولايات المتحدة الأمريكية، جعلت اليمن يدفع ثمناً باهظاً نتيجة الموقف المعارض الذي اتخذه من الحرب على العراق، فقد بادرت إلى طرد العمّال اليمنيين الذين كانوا يتمتعون بوضع خاص، يتيح لهم العمل بحرية في الجانب الآخر من حدود اليمن. ما خلق أزمة اقتصادية خطرة في الداخل اليمني، إلى جانب الإنذار الذي أُرسل إلى الرئيس صالح، الذي أعاد النظر في سياسته، واختار أن يكون تلك الدمية المتحركة، التي تعمل وفقاً لرغبة الإمبريالية الأمريكية التي باتت معروفة لدى الجميع اليوم.

*** وهل وافقت العناصر التقدمية في الجنوب على هذه الخطوة؟**

شكّل توحيد اليمن بشطريه خيبة أمل كبيرة لحكام اليمن الجنوبي. لقد انخرطوا في هذه العملية دون أن يكون لديهم أي إستراتيجية حقيقية. وكما

سبق ورأينا، كان الحزب الاشتراكي يعاني ضعفاً كبيراً في صفوفه. لذا كانت السلطة محصورة في اليمن الشمالي في شخص الرئيس صالح، ما أدى إلى تفشي الفساد في نظام الحكم، إلى جانب الأزمة الخطرة التي عاشها البلد في إثر طرد السعودية العمّال اليمنيين، وهذا ما ساعد في تدهور الوضع الاقتصادي في البلاد.

لقد حملت كل تلك العوامل اليمن الجنوبي على المطالبة بالانفصال عن اليمن الشمالي عام ١٩٩٤. كانت المملكة العربية السعودية تساند الانفصاليين، فهي تؤثر أن تكون الدولة الجارة مجزأة وضعيفة، وهذا يعود لأسباب عدة، منها أولاً أنها كانت في خلاف مع هذه الجارة، حول رسم الخط الحدودي بينهما، إذ كان اليمن يطالب بضم بعض الأقاليم الموجودة ضمن حدود المملكة العربية السعودية إلى أراضيه. أما السبب الثاني فيعود إلى خشيتها من وجود جارٍ موحّد بقيادة جيدة، قد يخلق مشكلات لدى الطبقات الإقطاعية في دول الخليج، كالمملكة العربية السعودية.

انتهت هذه التوترات بين الشمال والجنوب إلى نشوب صراع بينهما، فبادر رئيس الطائفة الزيدية في الشمال، إلى تعبئة الشعب، مع شريحة كبيرة من الجيش، حول معتقداته الدينية، لمواجهة اليمن الجنوبي ذي الأغلبية السنيّة. انتهت الحرب بهزيمة الانفصاليين، ما زاد في إضعاف أعضاء الحزب الاشتراكي السابقين، داخل الحكومة اليمنية. وفي النهاية، أتاحت هذه الحرب الفرصة أمام اليمن الشمالي والرئيس صالح لبسط سيطرتهما على كامل اليمن، على الصعيدين السياسي والعسكري.

*** في ربيع ٢٠١١، عمدت الجموع في اليمن الشمالي واليمن الجنوبي إلى الطعن بالحكم الدكتاتوري للرئيس صالح. ما أسباب هذه الانتفاضة الشعبية؟**

يعيش الشعب اليمني فقراً مدقعاً، إذ يعتمد اقتصاده بشكل رئيس على الزراعة التي باتت تشهد تراجعاً بيّناً، وعلى بعض الإيرادات النفطية، وبعض أعمال الصيد، وكذلك على بعض الإعانات الدولية، إلى جانب المال الذي يرسله العمال المغتربون. وهكذا، استأثرت الحفنة التي تحيط بالرئيس بهذه الثروة الضئيلة، في حين تراجعت حالة الشعب وازدادت تدهوراً وفقراً. لا يتمتّع السواد الأعظم من الشعب اليمني، الذين هم من فئة الشبان، الذين لا تتجاوز أعمارهم الثلاثين عاماً، لا يتمتعون بأي رؤية مستقبلية، لقد بلغت نسبة البطالة ٤٠%، وهي مستمرة في الارتفاع. حتى أولئك الحاصلين على شهادة أكاديمية، فإنهم يعانون من البطالة. بلغت نسبة التضخم في البلد حداً كبيراً للغاية، أما الوضع الاقتصادي، فهو في تدهور مستمر، في حين تنعم فئة قليلة من البورجوازية البسيطة والبورجوازية الطفيلية بمستوى معيشي جيد.

*** كان اليمن يبدو كبلدٍ متجمد، لا يملك تاريخاً، ولا حتى رؤية مستقبلية. ما سبب كل هذه التغييرات التي طرأت عليه اليوم؟**

في حقيقة الأمر، تبدلت الأمور في اليمن بشكل سريع، وكما حصل في كل من تونس ومصر، واجه اليمنيون انعدام الفرص. كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية في وضع مزرٍ، لكن في المقابل، ارتفع مستوى الوعي

السياسي لديهم. أصبح الشعب اليمني أكثر تحضراً، وذهبت النساء إلى الجامعة، إلخ. أصبح هذا التطور متناقضاً مع الطابع المتخلّف للنظام.

لقد تغيّر اليمن عما كان عليه قبل أربعين سنة، وشهد تغيراً في طريقة التفكير، وفي الوضع الاقتصادي، وفي أوضاع الطبقات الاجتماعية، وفي النسيج السياسي. تحوّل اليمن إلى بلد شبه متحضر. ففي الريف، ظهرت طبقة جديدة من الفلاحين الذين حدّثوا طرائق الزراعة. وأقدم بعض الصناعيين على الإنتاج على الصعيد المحلي. لقد تطلب هذا التطوّر في الطبقات الاجتماعية أنموذجاً جديداً من الإدارة. حتى إن زعماء القبائل الذين كان لهم دور قيادي، لم يعد بإمكانهم التصدي لهذا الحراك الشعبي. لقد بات المجتمع اليمني متوافقاً مع الحياة العصرية، كما أن نفوذ القبائل قد ضعف، ولم يعد كسابق عهده. لذلك، قدّم غالبية زعماء القبائل دعمهم لهذه الثورة، في حين كانوا بالأمس يساندون الحكومة. وبدأ الرئيس صالح يفقد عدداً من داعميه بشكل تدريجي، ومن أولئك، آل الأحمر الذين لعبوا دوراً جوهرياً في أثناء الأحداث.

*** من هم هؤلاء آل الأحمر؟**

لعب آل الأحمر دوراً بارزاً في كل الحكومات التي تعاقبت على اليمن الشمالي. إنها قبيلة كبيرة، لكن مع كونها تنتمي إلى الفرقة الشيعية، إلّا أنها تقيم علاقات وثيقة مع المملكة العربية السعودية. إنها إحدى الأسر الأرستقراطية الكبيرة في اليمن، تعود جذورها إلى منطقة صعدة اليمنية. ينتمي الإمام الملك الذي حكم اليمن الشمالي قبل الثورة الجمهورية التي قامت بتاريخ ١٩٦٢، إلى هذه الأسرة. فضلاً عن ذلك، تصدَّى آل الأحمر

بادئ الأمر للحكم الجمهوري قبل أن يتقرّبون من صالح. شغل رب الأسرة عبد الله الأحمر، الذي توفي منذ فترة ليست بالبعيدة، منصب رئيس البرلمان، وكان له نفوذ كبير في الحكومة، فتولى ابنه صادق الأمر من بعده، وقدم دعمه لثورة ٢٠١١.

*** لماذا يقدّم آل الأحمر اليوم دعمهم للثورة، وهم المقرّبون إلى الرئيس صالح؟**

منذ وفاة عبد الله الأحمر، رب الأسرة، عام ٢٠٠٧، أخذت التناقضات تتفاقم. أصبح فساد الحكومة وباءً مستشرياً، فبدلاً من تسخير عائدات النفط والغاز لتطوير البنى التحتية، كان صالح والطغمة التي حوله يسخّرونها لتحقيق ثرائهم الشخصي، حتى أصبحت أسرته من أثرى أثرياء العالم. لذلك هُمّش عدد لا بأس به من أفراد الطبقة البورجوازية اليمنية، ومنهم آل الأحمر. إنهم ليسوا زعماء قبائل متخلفين بل يمنيون، وينتمون إلى العالم المتحضّر، إلى كبار التجار، وفي نهاية المطاف، لم يملكوا سوى التعبير عن غضبهم، عندما تبيّن لهم أن طغمة صالح تختلس أموال المصرف الوطني.

*** هل فقد الرئيس صالح داعمين من غير آل الأحمر؟**

نعم، لقد فقد دعم الجيش. فبعد فترة قصيرة من الاحتجاجات، دخلت الحكومة في مفاوضات مع اللجنة الممثلة للثورة الشعبية. غير أن صالحاً لم يقدّم سوى الوعود الكاذبة، وبقي متمسكاً بكرسي السلطة. كما أمر بإطلاق النار على المحتجين السلميين، ما أدّى إلى حدوث سلسلة من الانشقاقات في صفوف الجيش.

توجد في الحقيقة ثلاثة عناصر أساسية فاعلة على الصعيد العسكري، وهي الحرس الجمهوري الذي يقوده نجل الرئيس صالح، الذي بقي موالياً للرئيس، إلّا أن الفرقة التي من المفترض أنها تتولى حراسة القصر الجمهوري، هاجمت الحاكم اليمني في شهر حزيران من عام ٢٠١١، ما اضطره إلى مغادرة البلاد، في إثر إصابته بجروح بليغة، ليعود إليها مجدداً، ويمارس سلطته.

يلي الحرس الجمهوري، الفرقة المدرّعة الأولى التي يتزعمها علي محسن الأحمر. كان هذا الجنرال يشغل منصب المستشار العسكري للرئيس، لكنه أعلن انشقاقه في آذار ٢٠١١، وانضمامه إلى صفوف المتظاهرين.

وأخيراً، هناك قبيلة حاشد، التي انضمت هي أيضاً إلى صفوف الثورة، وكانت إحدى أهم الاتحادات اليمنية التي يتزعمها صادق الأحمر، ولديها ميليشياتها الخاصة.

*** لم يطل الأمر في كل من تونس ومصر، حيث نجحت حركة الاحتجاجات بالإطاحة بالرئيسين الدكتاتوريين في وقت قصير، إلّا أن الوضع في اليمن تميّز بصعوبته، لماذا؟**

المشكلة أن السعودية والولايات المتحدة الأمريكية أرادتا أن يبقى الوضع على ما هو عليه. فهما لا تحبذان رؤية ما تشاهدانه على أرض الواقع، وتحاربانه منعاً لحدوث التغيير. لا تريدان حتى إحلال النظام الديمقراطي الذي تتحدثان عنه باستفاضة، فهما على يقين أنه في حال اللجوء إلى الانتخابات العامة، فلن يكون لطغمة صالح أي نصيب في الفوز. لقد لمستنا على أرض الواقع أن الانتخابات تتصادم مع مخططاتهما. يكمن هدفهما في

إجراء انتخابات مزوّرة، تشرفان على تنظيمها، وتضعان عملاءهما في السلطة. هؤلاء العملاء هم الذين تمولانهم في الخفاء، عبر لجنة السفراء، وتقدمان لهم المال اللازم والإمداد.

كما تخشى المملكة العربية السعودية من حصول تغييرات في اليمن بسبب قضية الحدود. حيث تتشاجر الدولتان على ولاية جازان. إلّا أن الرئيس صالح لم ير بأساً من التنازل عنها لصالح السعودية منذ سنوات عدّة، وبذلك استحق غضب الشعب اليمني الذي أصيب في كبريائه. لذلك ترى السعودية أن تسلّم حكومة ديمقراطية لزمام السلطة في اليمن قد يقوّض هذا الاتفاق الحدودي.

ومنعاً لحدوث هذا الأمر، عمدت المملكة العربية السعودية إلى استخدام ورقة ضغط ضد اليمن، بإرسالها الأموال منذ بداية الثورة، بهدف إحداث انقسامات في صفوف الشعب، لكن دون أن تحرز أي نجاح في هذا الاتجاه. فلجأت إلى تضييق الخناق على اليمنيين، إذ إن غالبية العلاقات التجارية اليمنية مرتبطة بالسعوديين، فحاول السعوديون استخدام ذلك كوسيلة ضغط أخرى على الدولة الجارة. ففي سبيل المثال، ارتفعت أسعار الوقود والغذاء في اليمن، ومع ذلك، صمد المحتجون، وأبدوا تضامناً مميزاً فيما بينهم لتجاوز هذه العقبات.

*** كيف تنظِّم المعارضة صفوفها؟**

استحدث المتظاهرون لجاناً من أجل جمع المال وتوصيل الماء والغذاء إلى الشعب. لم ييئسوا قط. اليمنيون شعبٌ منضبط. الكل يملك السلاح، لكن آثر اليمنيون إضفاء الطابع السلمي على ثورتهم. لقد كان مثيرو

الشغب وفصائل من الجيش وراء كل أعمال العنف التي تمّت في الساحة اليمنية. أما الشعب، فإنه مسيطر على الوضع.

حاولت الحكومة، من جهتها، استغلال الانقسامات بين اليمن الشمالي واليمن الجنوبي، وبين مذهب أهل السنّة والجماعة، والفرقة الشيعية، لإضعاف الثورة، غير أن الشعب بقي محافظاً على لحمته. يواجه اليمنيون العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، والاختلاسات، كما يواجهون نظام رصد تحركات الأسر والأطفال، إلخ، لكن الشعب أدرك أن كل تلك المشكلات إنما هي صادرة عن سمة الحكومة المعادية تماماً للديمقراطية، وأن عليه التخلّص منها.

لديّ قناعة شخصية أن الشعب اليمني يستحق جائزة نوبل للمعركة المميزة التي يقودها. لقد تميّزت المرأة اليمنية بالدور المثالي الذي لعبته. لا يمكنك أن تتصور طريقة التعبير التي تستخدمها المرأة اليمنية في أثناء المظاهرات. المرأة اليمنية هي أفضل من يعبّر عن رهانات الثورة اليمنية، لقد استمعتُ إليها. تتمتع المرأة اليمنية بمستوى وعي سياسي عال جداً. لم تشترك المرأة اليمنية في الثورة السابقة، لكنك تجدها هنا أخت المتظاهر وزوجته وأمه، كلهنّ يشكلن العمود الفقري والدعامة للحراك الثوري. يدور محور النقاشات داخل البيوت حول الإطاحة بالرئيس صالح، وحول الديمقراطية. لم تعد الأم اليمنية تخشى على أطفالها في حال مشاركتهم في المظاهرة، كما أنها لم تشعر بالأسى على أطفالها الذين لقوا حتوفهم، فهم سقطوا شهداء دفاعاً عن قضيتهم العادلة. ربما يتحتم على القوى الإمبريالية مجابهة إصرار المرأة اليمنية، فهذا يشكّل أكبر خطر، قد تواجهه هذه القوى.

*** هل باستطاعة الثورة إحلال الديمقراطية في اليمن؟**

من الصعب التنبؤ بكيفية تطوّر الأحداث. قد تتوصل القوى الإمبريالية على المدى القصير، إلى الإبقاء على النظام، مع إعطائه صبغة ديمقراطية مزيّفة. إلّا أنَّ الوضع سيتغيّر لا محالة على المدى البعيد، وهذا ينطبق على جميع الدول العربية التي شهدت ثورات شعبية وديمقراطية.

إنها الظروف الاجتماعية الصعبة التي قادت الشبان اليمنيون إلى الثورة. وهذه الشروط هي ثمرة هيمنة القوى الإمبريالية التي تنهب الثروات، وتبقي بورجوازية الكمبرادور في السلطة. ففي حال نجاح نظام ديمقراطي حقيقي في اعتلاء السلطة في اليمن، فإنه سيسخّر حتماً ثروات البلد لتحسين الظروف المعيشية للمواطنين. إنّما في حال حافظت القوى الإمبريالية على هيمنتها، وأبقت على النظام القائم، وأضفت عليه شكلاً ديمقراطياً، فإن الشعب اليمني سيبقى يواجه المشكلات نفسها. إلّا أنَّ الوعي السياسي الذي توصل إليه هذا الشعب لن يسمح لهذه القوى باستغلاله مجدداً.

*** هل بات الشعب اليمني يرفض وجود الولايات المتحدة الأمريكية؟**

لقد أدرك الشعب اليمني أن النظام الحاكم وحده هو من يستغل ثروات البلاد، في حين تزداد الحالة المعيشية سوءاً لدى الشعب اليمني. لقد تيقّن هذا الشعب أن بلاده باتت معقلاً للإمبريالية الأمريكية، وأن الرئيس صالح بات عميلاً لواشنطن في حربه المزعومة «ضد الإرهاب». لقد شاهد الشعب اليمني ما الذي حصل في كل من أفغانستان، وباكستان، والعراق.

إنهم يشنون حرباً ضد المسلمين، حتى لو كان باراك حسين أوباما يحمل اسماً إسلامياً، حتى لو استطاع خداع العالم بخطاباته الرنانة، فإنه لا توجد تسمية أخرى ممكن أن تطلق على هذه الحرب.

إضافة إلى ذلك، أثبتت الحكومة عجزها عن توفير الحماية لمواطنيها. فبعد الهجمات الإرهابية التي وقعت في الحادي عشر من أيلول، اختُطف بعض المواطنين واحتُجزوا دون تقديم أي مسوّغ. لقد حصل ذلك بحق عالم ديني يمني بارز، فقد اعتُقل في أثناء توجهه إلى الولايات المتحدة الأمريكية لزيارة ابنه، وأُرسل إلى سجن غوانتانامو بشكل مجحف، ودون تقديم أي سبب وجيه. في نهاية الأمر، أُفرج عنه بعد أن أمضى ست سنوات في الاعتقال، لكنه فارق الحياة بعد ثلاثة أسابيع من خروجه، بسبب المرض الذي فتك به في ذلك المعتقل. أحدثت قصته صدمة بالغة في أوساط الشعب اليمني.

في نهاية المطاف، اعترف الرئيس صالح بحدود المملكة العربية السعودية، واضعاً بذلك حداً للخلاف الدائر بين الدولتين، كما سمح للقاذفات السعودية بقصف المنطقة التي لجأ إليها المتمردون الحوثيون. إلّا أنَّ هذا الوضع لم ينل القبول لدى الشعب اليمني، إذ إن صالح يجلس على كرسي مزعزع، قد يُقذف به في أي حين. ولا يمكن أن يستمر في كرسي السلطة إلّا بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية، الذين لا يترددون بالتلويح بفزاعة تنظيم القاعدة، كي يتصرفوا بحرية مطلقة، ومن دون مراقب في البلد.

*** هل يمكننا القول إن اليمن سيصبح الجبهة الثالثة للولايات المتحدة الأمريكية بعد أفغانستان والعراق؟**

أعتقد أنه كذلك الآن. لقد أرسل الجيش الأميركي الصواريخ وقوات خاصة إلى المكان. ويقدم الجيش الأميركي كثيراً من المواد لليمن، غير أن الجزء الأكبر من هذه المواد يصل إلى أيدي رجال المقاومة، بسبب العلاقات التي تربطهم مع الزيديين الموجودين في الجيش اليمني!

*** هل هذا فشل جديد مرتقب ينتظر واشنطن؟**

يبدو أن التاريخ يعيد نفسه للولايات المتحدة الأمريكية. فمهما كانت الثقافة الإسلامية التي ترعرع فيها الرئيس الجديد الذي يحكم اليوم الولايات المتحدة، إلّا أن سياسته لم تتغيّر. كما أن خطاب أوباما يشبه إلى حد كبير خطاب سلفه جورج بوش الابن، فهو يقدم الوعود لملاحقة الإرهابيين حيثما كانوا، ويلوّح بفزاعة تنظيم القاعدة لمقاتلة المتمردين المتحصنين في جبال اليمن. هذه السياسة انتهجها بوش منذ عشرة أعوام في أفغانستان، والحرب لم تنته بعد.

*** كم من الوقت سيستغرق ذلك؟**

أشار المؤرّخ بول كندي إلى أن الفجوة والتناقض بين القاعدة الاقتصادية والتوسّع العسكري هما من العوامل الجوهرية التي تمهّد لسقوط الإمبراطوريات الكبيرة. فإذا شهد اقتصاد الإمبراطورية تراجعاً وضعفاً ملموسين في الوقت الذي يتزايد فيه إنفاقها في المجال العسكري، فإن ذلك يعني أن هذه الإمبراطورية محكوم عليها بالسقوط وبالوهن. هذا هو حال الولايات المتحدة الأمريكية اليوم.

قائمة المراجع:

- Victoria Clark, Yemen : Dancing on the Heads of Snakes, Yale University Press, 2010.
- Fred Halliday, Arabia Without Sultans, Saqi Books, 2001.
- Paul Kennedy, Naissance et déclin des grandes puissances, Transformation économiques et conflits militaires entre 1500 et 2000, Edition Payot, 1989.

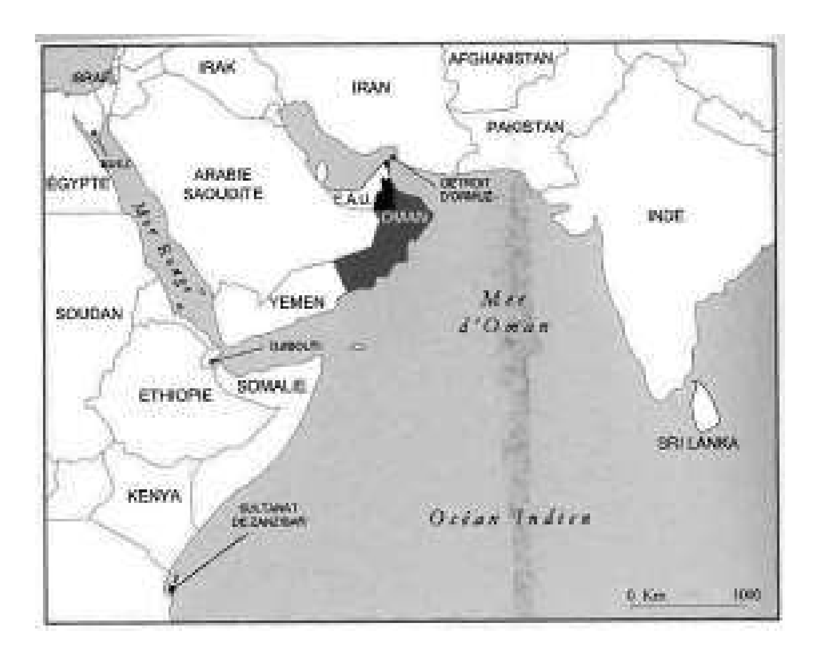
عُمان،

السلطنة الإستراتيجية والمنسية

توجد دول لا يتحدث عنها أحد، على الرغم من الأهمية الإستراتيجية التي تستحوذ عليها على صعيد العلاقات الدولية بين القوى العظمى. هناك سلاطين يبذلون ما في وسعهم للبقاء في الظل، بعيداً عن أضواء الإعلام، ويتجنبون اتخاذ أي موقف. ذلك هو وضع عُمان.

أهي الجنّة إذاً؟

ليس تماماً. إنها قصة ذلك البلد الذي رسّخ فيه البريطانيون شعارهم الشهير بفنٍّ متناهٍ، وفريدٍ في نوعه، إنه شعار «فرّق تسد». إلّا أن الأيام تنذر بمستقبل أقل هدوءاً...



لمحة سريعة عن سلطنة عُمان

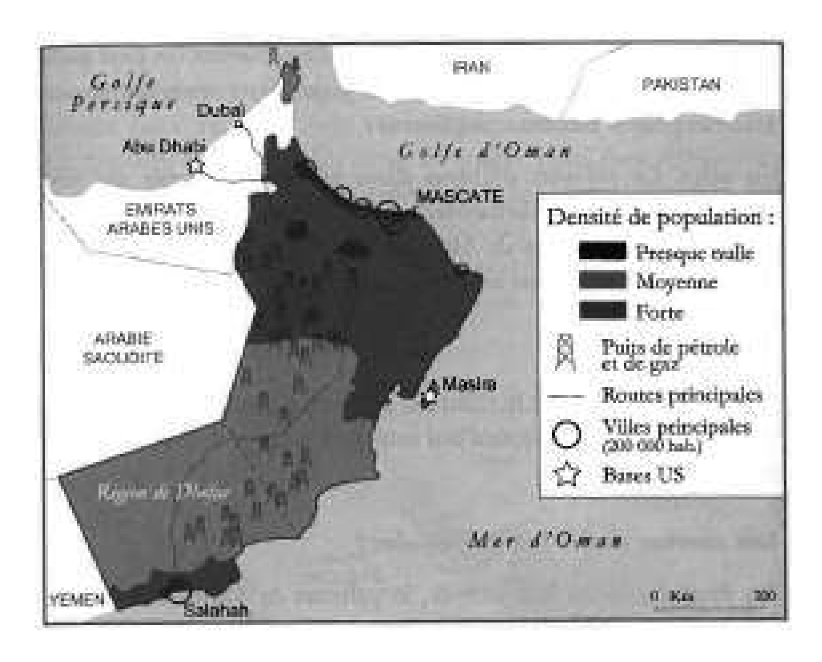
على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** مسقط.
- **المساحة: ٣٠٩٥٠٠ كم٢ .**
- **تعداد السكان: ٢٦٩٤٠٩٤ (**أي بمعدّل ٨,٧ نسمة **/** كم٢**).**

على الصعيد الاجتماعي:

- **نسيج المجتمع:** الغالبية العظمى من السكان من الإباضيّة، إلى جانب أقليّة هامة من قبائل البلوشية، وأقليّة من قبائل الجبل في محافظة ظفار، و٢٨,٤**%** من المهاجرين.
- **متوسط العمر:** ٧٤,٢ عاماً.
- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً: ٣١,٢%**

- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: ٧٨,٨%.**

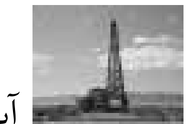


الكثافة السكانية:

مناطق خالية تقريباً

مناطق تشهد كثافة سكانية متوسطة

مناطق تشهد كثافة سكانية عالية



آبار النفط والغاز

المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ٠٠٠

الطرق الرئيسة

قواعد أميركية

السياسة:

- **نظام الحكم:** سلطاني وراثي

- **السلطان:** قابوس بن سعيد منذ ١٩٧٠

- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٧٤٩ بعد طرد الفرس.

- **الاقتصاد:**

- **إجمالي الناتج المحلي:** ٥٦,٣ مليار دولار **(٢٠٠٨)**

- **الموارد:** النفط **(٦٥%** من إجمالي الناتج المحلي**)**، والسياحة.

- **معدل النمو:** ٤,٢ **%.**

- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ٨٠٠١ دولار **(٢٠٠٨).**

- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٨٤٦ عام ٢٠٠٧ **(**٥٦ من حيث الترتيب**)**

- **نسبة البطالة:** ١٥**%.**

- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** غير معلوم.

*** لم تورد وسائل الإعلام ذكر عُمان. مع ذلك، لا يمكن للقوى العظمى أن تتغاضى عن بلدٍ يمتلك النفط، ويحتلّ موقعاً جغرافياً استراتيجياً.**

هذا صحيح. إن الشكل الحالي لسلطنة عمان هو من تصميم الإمبراطورية البريطانية، إذ كانت هذه السلطنة فيما مضى، تتمركز بشكل أساسي حول مسقط، غير أن بريطانيا العظمى استغلتها بغية بسط نفوذها...

*** ماذا تقصد؟**

حاولت بريطانيا العظمى وضع يدها على مناطق أخرى في الخليج العربي، منها إقليم ظفار في الجنوب الذي ضُمّ اليوم إلى عمان، إذ كان هذا الإقليم مستقلاً عن عمان في الماضي.

*** إذاً، كل شيء يبدأ مع البريطانيين؟**

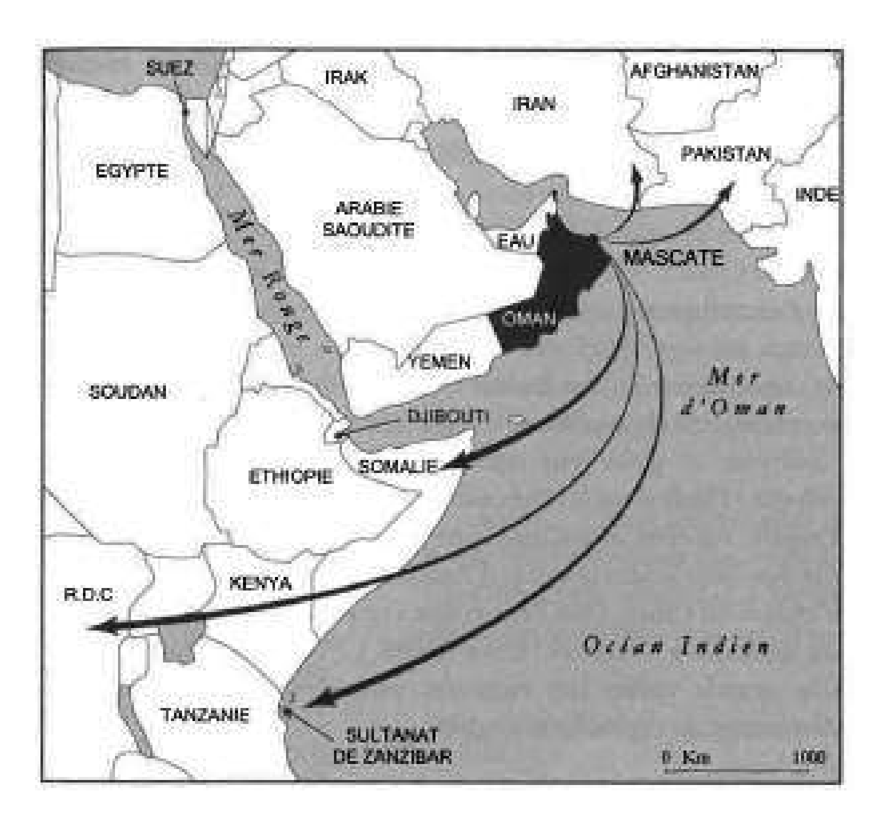
أبداً. قبل وصول البريطانيين إلى المنطقة، كانت سلطنة مسقط تشكّل قوّة بحرية إقليمية مهمّة، كانت بلداً متخلفاً جداً، غير أن اهتمام سكانها بوصفهم صيّادي أسماك، كان موجهاً إلى البحر. نتيجة لذلك، أصبحوا خبراء حقيقيين يلمّون بأسرار المحيط الهندي.

يُعدُّ المحيط الهندي منذ زمن بعيد مركزاً إستراتيجياً، والسيطرة على هذا المحيط تعني السيطرة على قارة آسيا. لقد تمكن المسلمون من نشر الدين الإسلامي عبر تجارتهم، عن طريق هذا المحيط. باختصار، كان العمانيون هم القوة الإقليمية المسيطرة على هذا الجزء من المحيط، وذلك قبل وصول البريطانيين إليه...

*** هل بإمكانك ترجمة هذا الكلام على أرض الواقع؟**

حسناً، امتدت إمبراطورية السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي في أثناء فترة حكمه التي دامت لسنوات طويلة (١٨٠٤-١٨٥٦) حتى شملت جنوبي بلاد فارس، ومضيق هرمز، وجزءاً من باكستان الحالية، وصولاً إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، كما امتد نفوذه إلى سلطنة زنجبار (جزيرة تنزانيا حالياً الواقعة شرق وسط أفريقيا) التي كانت تعيش على تجارة الرقيق؛

ومنها انطلق إلى موغاديشو (الصومال)، وكيلوا (تنزانيا)، وموباسا (كينيا) وانتهاءً بكيفو (الكونغو). اشتهر العرب المسلمون بخبرتهم في التجارة، وقد وصلت تجارتهم إلى المناطق النائية في أفريقيا، هذا ما يفسر التقارب الكبير بين اللغة الساحلية التي يتكلّمها سكان غربي أفريقيا واللغة العربية. غير أن سلطنة مسقط التي كانت من الطائفة الإسماعيلية (وهي أحد فروع الفرقة الشيعية) لم تنجح في نشر التيار الشيعي في هذه المناطق، حيث كان مذهب أهل السنّة والجماعة هو الأقوى على الإطلاق. لقد وصل نفوذ السلطنة إلى الصين عن طريق التجارة.



مناطق نفوذ سلطنة سعيد بن سلطان البوسعيدي في بداية القرن التاسع عشر

*** إذا كان في حسباننا أن المحيط الهندي بلغ هذا القدر من الإستراتيجية، فلا بد أنه كان موضع إثارة لأطماعٍ خارجية.**

نعم، لقد كثر الطامعون. فقبل وصول الأوروبيين إلى المنطقة، كانت هناك ثلاث دول كبرى تتقاسم النفوذ البحري. تأتي بلاد الهند في المقدمة، وكانت آنذاك تحت حكم المغول المسلمين (١٥٢٦-١٨٥٨)، ثم تلتها الصين، وأخيراً الإمبراطورية العثمانية. لقد بسطت هذه القوى الثلاث سيطرتها على الطرق التجارية التي كانت تمثّل ٦٠% من التجارة العالمية، وتصل قارة أوروبا بقارة آسيا.

*** في هذا السياق، لماذا اهتم البريطانيون بسلطنة عُمان؟**

بدأت بريطانيا تولي اهتمامها بكلّ من عدن وعُمان كمراكز إستراتيجية مهمّة في بداية القرن التاسع عشر، وذلك عندما أقدم نابليون على غزو مصر، مهدداً بقطع سبل الاتصال بين بريطانيا العظمى وبلاد الهند. فبسيطرتهم على عدن، استطاع البريطانيون تأمين الطريق الواصل بين المحيط الهندي والبحر الأحمر، الذي يُعدُّ جسر العبور إلى البحر الأبيض المتوسّط. وبسيطرتهم على عُمان، تمكنوا من الربط بين المحيط الهندي والخليج العربي، ما ساعد في تزايد نفوذهم الاقتصادي.

بعد أن بسطت بريطانيا سيطرتها على هذا الخليج، تمكّنت من حماية الهند، مستعمرتها الرئيسة، حيث كان لثروات هذا البلد دور كبير في دعم الإمبراطورية البريطانية. بالفعل، عملت شركة الهند الشرقية البريطانية في تجارة التوابل وغيرها من المواد المستوردة من آسيا، كما كانت تمد دولة الصين

بمادة الأفيون، ما أتاح الفرصة لهذه الشركة باحتلال المركز التجاري الأول عالمياً على مدى قرنين من التاريخ، السابع عشر والثامن عشر. استطاعت هذه الشركة تجميع القدر الأكبر من الثروات الخارجية، ما سمح لرأس المال الإنكليزي بالانطلاق.

*** وهل كان نفوذ عُمان في المنطقة يعوق مسيرتهم؟**

نعم، أراد البريطانيون الحد من نشاط العمانيين في المحيط الهندي، وتولّي الدور الريادي في المنطقة في مجال التجارة، والحيلولة دون تنفيذ أطماع الدول المستعمِرة الأخرى فيها، مثل روسيا التي كانت تطمح إلى بسط هيمنتها على المحيط الهندي.

نجح البريطانيون في مسعاهم، ففي عام ١٨٩١ تحوّلت عُمان إلى محمية بريطانية، عندما استغلّت بريطانيا الضعف الاقتصادي الذي أصاب عُمان، بعد القضاء على تجارة الرقيق في زنجبار، كما استغلّت حالة الاحتجاجات السائدة التي قادتها القبائل في الداخل العماني ضد السلطة.

باختصار، كان البريطانيون يسعون إلى تحقيق مصالح عدّة في هذه المنطقة، منها ١- حماية شركة الهند الشرقية البريطانية. ٢- التحكّم بالمحيط الهندي، وبسط هيمنتهم عليه. ٣- توسيع سيطرتهم على منطقة الخليج العربي، ما عاد عليهم بفوائد جمّة بعد اكتشاف حقول النفط فيها. لذلك كانت لديهم أسباب جوهرية ثلاثة لإنشاء سلطنة عُمان، عن طريق توسيع سلطنة مسقط من جهة، ودعم النظام الإقطاعي فيها بتقديم دعمهم لسلالة البوسعيدي، أجداد السلطان قابوس الحالي، من جهة أخرى.

*** لقد تمّ كل ذلك قبل اكتشاف النفط، بما أن حقوله في إيران لم يكتشفها البريطانيون إلّا في عام ١٩٠١.**

أجل، لقد أدّى اكتشاف حقول النفط إلى تعزيز أهمية المنطقة لديهم!

*** إنّما يبقى هناك أمر مثير للريبة. فعلى الصعيد الرسمي، لا يمكن عدُّ عُمان كمستَعمرة، لكنها في الواقع، ترزح تحت سيطرة البريطانيين. كيف تمّ لهم ذلك؟**

لقد انطلق البريطانيون من إستراتيجيتهم التقليدية التي مفادها «فرّق تسد». فأنشؤوا في عُمان شكلاً من أشكال النظام الاتحادي، يعرف بالفدرالية، الذي يعتمد على تأجيج النزعة الطائفية بين القبائل العُمانيّة. بهذه الطريقة، استطاع زعماء القبائل في المناطق الريفية الإبقاء على درجة من الاستقلال الذاتي في أقاليمهم مع احتفاظ كلٍّ بجيشه.

*** ألم يكن الجيش البريطاني موجوداً في الساحة؟**

بلى، بيد أن كل زعيم من زعماء القبائل احتفظ بجيشه الصغير. فما كان من البريطانيين إلّا استغلال أوجه التناقض التي أوجدوها بين القبائل الإقطاعية من أجل بسط هيمنتهم على المنطقة. لقد كان تفرّق القبائل فيما بينها سبباً لنجاح بريطانيا العظمى في التحكّم في المنطقة، وسبيلاً للاستحواذ على الموارد والثروات، وبشكل خاص، تلك النفطية.

«فرّق تسد»

اعتمدت هذه الإستراتيجية التي طالما لجأ إليها البريطانيون ضمن إمبراطوريتهم، على تجربتهم الأولى التي طبّقوها في ماليزيا، في نهاية القرن

التاسع عشر، حيث ضمّ ذلك البلد ثلاث طوائف، بديانات ولغات مختلفة، فكان هناك سكان ماليزيا الأصليون، إلى جانب الهنود والصينيين. لقد بذل الإنكليز جهداً خاصاً في سبيل تجزئة هذه المناطق إلى دويلات.

وتجب الإشارة هنا إلى أن النظام الرأسمالي لم يكتفِ في مرحلته الإمبرياليّة الجديدة، انطلاقاً من عام ١٨٨٠ حتى ١٩٠٠، بتصدير بضائعه لبيعها في أسواق آسيا وأفريقيا، أو في أمريكا اللاتينية، بل تميّزت هذه المرحلة إلى جانب ذلك، بتصديره لرؤوس الأموال من أجل تصنيع هذه البضائع بتكلفة زهيدة، ومن ثمَّ بيعها في دول الغرب، بل وفي أنحاء العالم كافة. لقد هيأت لهم هذه السياسة مصدر ربح وفير أكثر من ذي قبل.

إنّما، من أجل استغلال المواد الأوليّة والموارد المحلية لهذا البلد، اضطر الرأسماليون إلى نقل العديد من الأشخاص من جميع تلك الطوائف. فمن أجل تحقيق مكاسب ضخمة، كان عليهم تشكيل أعداد كبيرة من العاملين لاستغلالهم بشكل مفرِط. إلّا أنه في حال اتحد أولئك المضطهدون، وطالبوا بحقوقهم، فإن ذلك سيكون له انعكاسات خطرة على الإمبرياليين، ما قد يؤدي إلى خلق حركات تمرّد يصعب قمعها.

لذلك، واجتناباً لمثل هذه المجازفة، كان لا بد من تقسيم تلك الكتل البشرية، وفقاً للأوضاع الخاصّة بكل بلد، واللغة والدين والانتماء القبلي. لقد أثبتت هذه العوامل فاعليتها الكبيرة في تأمين السيطرة على هذه الثروات. في بعض الأحيان، كان يتم استقدام جماعات إثنية أجنبية، لاستخدامها كدرع فاصل بين السلطات المستعمِرة، والشعوب الخاضعة للاستعمار.

فبينما ينشغل المضطَهدون بالتشاجر فيما بينهم، ويشنون الحرب ضد بعضهم، كان الطغاة يحققون الحد الأقصى من المكاسب، بنهب ثرواتهم المحلية.

لهذه الأسباب، لجأ البريطانيون في عُمان إلى استخدام النزاعات القبلية في المناطق الأكثر تخلفاً. ولم تغب عنهم مراقبة سلطنة مسقط عن كثب، حيث كان النظام الإقطاعي فيها أكثر تنظيماً على المستوى السياسي. كما تطلّب منهم الأمر مراقبة عدن التي قد تساعد في تنظيم طبقة العمّال بسبب اقتصادها المتطور... لذلك، قدمت بريطانيا العظمى دعمها لسلطنة مسقط على نطاق واسع، مع حرصها على منع نمو النزعة القوميّة التي تنادي بالوحدة، كما هو الأمر في مستعمراتها الأُخر. فوجدت أن أفضل طريقة للتصدي للفكر الوحدوي تكمن في دعم النظام الإقطاعي، ذلك النظام الذي تنحصر فيه السلطة بين أيدي النخبة التي يسهل التحكّم بها، والقادرة في الوقت عينه على قمع تطلعات الشعب.

*** مع ذلك، أعلن العمانيون تمردهم على المستعمر البريطاني عام ١٩٦٤. وبقي البلد طيلة اثني عشر عاماً - وبشكل خاص منطقة ظفار - مسرحاً لمقاومة شرسة بين الثوار ومناهضي الثوار الموالين للإمبريالية. كيف نفسّر هذا الانفجار المفاجئ؟**

ترتب على بريطانيا العظمى بادئ الأمر، التصدّي للثورة التي اشتعلت في جنوبي اليمن، حيث برزت الحركة الوطنية التي استوحت أفكارها من النظام الشيوعي (راجع الفصل السابق). امتدت هذه الحركة لتطال ظفار، البلد المجاور، تلك المنطقة التي عمل عاهل مسقط، السلطان سعيد بن تيمور، على ضمها قبل سنوات قليلة إلى أراضيه، بمساعدة من

البريطانيين. بذلك أصبح الشعب في ظفار ضحية أشكال التمييز، وضحية استغلال اقتصادي صارم.

وكنتيجة لذلك، كان من المنطقي جداً أن تمتد ثورة اليمن إلى هذه المنطقة. أضف إلى هذا أن قبائل ظفار تتميّز بهوية قوية وفريدة، فهم لا ينتمون إلى الشعب اليمني، ولا إلى الشعب العُماني، إنهم خليط من ذوي البشرة السمراء، ومن العرب. فقبل مجيء البريطانيين، كانوا يتمتعون باستقلالهم، بعيداً عن سلطنة مسقط. وكانت عملية ضم ظفار إلى عمان تهدف بشكل خاص إلى تحفيز السياحة، فقد اشتهرت ظفار بجمال طبيعتها الساحرة، فكانت تجذب إليها الأوروبيين الأثرياء. كما سبق أن بيّنّا، إنهم البريطانيون الذين رسموا الحدود الجغرافية لسلطنة عُمان بشكلها الحالي.

إنّما، كردة فعل ساخطة على عملية الدمج القسرية هذه، شكّل زعيم إحدى القبائل، مسلّم بن نفل، جبهة لتحرير ظفار عام ١٩٦٢، ثم ما لبث أن قاد حرب عصابات ضد الاستعمار البريطاني، كما قاد عمليات تخريبية ضد منشآت التنقيب عن النفط.

*** مع ذلك، هذا لا يسوّغ العنف الذي تميّز به هذا الصراع ...**

هذا صحيح. يعود الطابع الثوري الذي اتخذته حركة التمرد هذه إلى تطور حدثين مهمين عام ١٩٦٧، تجسد أولهما في حرب الأيام الستة التي دارت رحاها بين جمهورية مصر العربية وإسرائيل. أدى هذا الصراع إلى حدوث تطرّف في الرأي لدى غالبية شعوب الوطن العربي. وتمثّل الحدث الثاني بانسحاب بريطانيا من عدن، ذلك الانسحاب الذي نتج عنه إنشاء جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

عندئذٍ، تغيّر اسم حركة ظفار ليصبح حركة تحرير منطقة الخليج العربي. لقد ساد الاعتقاد لدى قبائل ظفار أن سلطنة عمان، وكذلك الأمر بالنسبة لكامل منطقة الخليج العربي، مستعمرة بريطانية، يمكن تحريرها من براثن الإمبرياليّة، ما يفرض النضال ضد الإستراتيجية البريطانيّة.

وبحكم الواقع، ثمّة عوامل عدّة مشتركة تربط شعوب منطقة الخليج، يأتي في مقدمتها الدين الإسلامي، والاستعمار، واللغة العربية. وعلى هذا الأساس، وبالإضافة إلى الثروة النفطية التي في حوزة هذه الشعوب، قد يصبح موضوع الوحدة أمراً ممكناً، فيما لو نشأت بينهم وسائل الاتصال.

*** أي نهاية سياسة «فرّق تسد»؟**

بالضبط! لقد أدركت حركة تحرير دول الخليج العربي ما كان يخشاه البريطانيون أكثر من أي شيء آخر... لم يكن استخدام القوى الإقطاعية الأكثر رجعية التي لجأت إليها لندن في حربها من أجل إخماد النزعة القومية سدى. في المقابل، عمدت ثورة ظفار إلى تطبيق الأساليب الماوية من أجل توحيد الشعوب. لقد اعتمد الثوّار على دعم طبقة الفلاحين، وعلى الدعم المقدّم من اليمن الجنوبي، فكان هدفهم إنشاء دولة ماركسية لينينية. فعمدوا مجدداً إلى تغيير اسم الحركة لتصبح «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج المحتل».

*** إلّا أن حركتهم هذه منيت بالهزيمة في نهاية المطاف...**

نعم، لقد أُخمدتْ حركة التمرّد هذه بصورة عنيفة على الرغم من تطورها وشراستها. استطاع البريطانيون الاعتماد على مساعدة شاه إيران، الذي كان يلعب آنذاك دور الشرطي في المنطقة، ويعمل في خدمة المصالح الإمبريالية. علاوة على ذلك، كانت له مصالح في سلطنة عمان، إذ كان جزء

من قواته العسكرية متمركزاً فيها. لذلك التزم بصورة كاملة في الحرب ضد ثوّار ظفار، مستخدماً ذريعة الدين، ليسوّغ تدخله في الحرب. لقد ادّعى شاه إيران نجدة إخوانه من الطائفة الشيعيّة في عُمان، الذين وقعوا تحت تهديد تمرد أهل السنّة والجماعة في ظفار، لكنه في حقيقة الأمر، أراد حماية مصالح الدول الأوروبية والأمريكية في السلطنة.

*** هل ترتبط هذه المصالح بالموقع الجغرافي لعُمان؟**

نعم، من المعلوم أن مضيق هرمز الواقع بين عمان وإيران، يشكّل المدخل الأكثر أهمية للخليج العربي. ففي حال فقد الغرب السيطرة عليه، فإنه سيعجز عن الوصول إلى ٧٠% من النفط العالمي. ولو سمح النظام الرأسمالي الغربي لحركة التمرد الماوية بالانتصار في ظفار، لتعرّض إلى مجازفة خطرة. لذلك اتخذ السلطان سعيد بن تيمور موقفاً هجومياً، بناءً على نصيحة بريطانيا العظمى، ودعم إيران.

*** مع ذلك، لم ينجُ السلطان منها هو أيضاً...**

كلّا. لقد لجأ البريطانيون إلى وضع حدٍّ للحرب، وذلك بتدبير انقلاب ضد السلطان، وتعيين نجله مكانه. كان على بريطانيا العظمى إيهام الجميع بإحداث تغيير ظاهري، مع إبقاء كل شيء على حاله، حفاظاً على مصالحها. لقد كان السلطان في الحقيقة، رجلاً متخلفاً. هناك حقيقة مضحكة تتعلّق بشخصه، إذ اعتاد إخفاء بعض الأسلحة تحت سريره ليلاً... كما كان رجلاً شريراً، ومثيراً للاستياء. لذلك لم تقم الثورات في ظفار فقط، بل تعدتها إلى مسقط. فنُحّي لتهدئة النفوس.

فلئن كان الأب جاهلاً، فإن الابن شاب مؤدب، تلقى تربيته على يد البريطانيين وعمل في خدمتهم، وتابع دراسته في بريطانيا منذ أن بلغ السادسة عشرة من عمره، وتخرج في الأكاديمية العسكرية الملكية في ساندهيرست. تسلّم مقاليد الحكم في عمان حين عودته إليها في إثر انقلاب ٢٣ تموز ١٩٧٠، وتمكّن من قمع الثورات بدعمٍ من البريطانيين. لذلك، لجأ إلى تحديث البلد، لكن من دون تقويض أداء النظام الإقطاعي. يضاف إلى ذلك، أن السلطان قابوس يمتلك موهبة في شراء المتمردين، واستمالتهم إلى قضيته.

*** إذاً، حُدّثت السلطنة عام ١٩٧٠، فمن المستفيد؟**

كانت سنوات ١٩٧٠ للدول الغربية العظمى، صعبة للغاية. فقد عانت الرأسمالية العالمية من أزمتين سياسية واقتصادية في آن واحد. نتج عن الارتفاع الحاد في أسعار الوقود، وتدفق هائل للدولارات إلى الداخل الخليجي. فأصبحت عُمان بين ليلة وضحاها، تمتلك من المال ما لم يسبق لها أن امتلكته. كما شهدت نمو الرأسمالية، إلى جانب ظهور البورجوازية المحليّة، وتطوّر في البنى التحتيّة.

فما كان من بورجوازية الكمبرادور إلّا احتكار تطوّر البلد، والدولارات النفطيّة التي تدفقت إلى البلد، بعبارة أخرى، عملت هذه البورجوازية التي ترتبط مصالحها الاقتصادية بمصالح القوى العظمى، على تمويل أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. بالفعل، احتاجت السلطنة إلى شراء كثير من المواد من دول الغرب، من أجل إجراء تحديث في البلد، فكانت تشتري الطائرات، والأجهزة والعتاد اللازم لتشييد الطرق، إلخ...

وذلك بدلاً من تطوير قاعدة صناعيّة محليّة داخل حدودها لبناء اقتصاد مستقلّ عن الغرب.

بهذه الطريقة، أي بفضل الدول المنتجة للنفط، التي منها عمان، تمّت المحافظة على مصالح الدول الإمبريالية، كما انخفضت نسبة البطالة في دول الغرب التي خلفتها أزمة السبعينيات، حيث وصل كثير من العمال الأجانب إلى السلطنة للعمل فيها، وكسب أجور تفوق سبعين ضعفاً إيراداتهم السابقة.

*** كل هذه الأموال التي تتدفق إلى البلد... هل هذا يفسّر سبب صمود السلطة الدكتاتورية للسلطان حتى يومنا هذا؟**

نعم بالفعل، هناك كثير من الأموال في سلطنة عمان! غير أن التدخل العسكري لشاه إيران كان له دور فعّال أيضاً.

*** ما المركز الذي يشغله السلطان من الناحية الجغرافية الإستراتيجية في الوقت الراهن؟**

إنه لا يلتزم بأي شيء! وهذا تخصصه الكبير الذي يأتي في الدرجة الثانية بعد قدرته على حسن الاختيار. فالسلطنة لا تتخذ أي موقف تجاه الأحداث التي تطرأ في المنطقة، سواء كان ذلك للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، أم غيره من الأحداث. تؤمّن السلطنة استقرارها، غير أنها تؤوي إليها قاعدة عسكرية أمريكية. يعود ذلك إلى الثمانينيات، حين وُقّع اتفاق بين البلدين، سمح باستخدام الأراضي العمانية، وإقامة المنشآت العسكرية، لتقوم بعملياتها في المنطقة.

*** هل هناك منفعة محققة؟**

نعم، إذ تنطلق العمليات العسكرية من القواعد العسكرية في عمان، لتُنفّذ ضد العراق أو أفغانستان أو إيران. كما عملت الولايات المتحدة على تكثيف وجودها العسكري فيها منذ هجمات الحادي عشر من أيلول. بذلك، حلّت الإمبريالية الأمريكية بدلاً من الاستعمار البريطاني الجديد في عُمان...

*** هل تعتقد شخصياً أنه يمكن لعدوى الربيع العربي أن تنتقل إلى عمان؟**

لقد شهدت البلاد في بداية آذار ٢٠١١ مظاهرات في الموانئ، احتجاجاً على ارتفاع الأسعار، فسارعت الحكومة إلى إخمادها على الفور.

*** هل نستطيع القول إن النظام في عمان في خطر؟**

من الصعب التنبؤ ما إذا كانت الثورات الشعبية التي اشتعلت في تونس ومصر بدافع الظروف المعيشية المزرية، قد تزعزع أمن بلدٍ غنيٍّ بالنفط كعمان. مع ذلك، تشهد موازين القوى تطوراً في المنطقة. من ناحية أخرى، أصبح الشبان العرب منذ الصدمة النفطية عام ١٩٧٣، وتحديث دول الخليج، أكثر ثقافة واستنارة، وأقل قابلية للفساد. أعتقد أن من الصعب على النظام الإقطاعي للسلطنة أن يصمد بشكله الحالي، إذ إن قدرته على الاختيار معرضة للتقويض، ولا يمكنه التزام الصمت طويلاً، لما يهز المنطقة العربية من أحداث.

إن من الصعب التنبؤ بهذا، في الوقت الذي نتكلم فيه. إنّما لو اتسعت رقعة هذا الحراك الثوري، أو استمر لفترة أطول، فإنه قد يكون من الصعب على عمان أن تصمد.

قائمة المراجع:

- Farhad Daftary, The Isma'ilis : their History and Doctrines, Cambridge University Press, 1992.

- Phipil K. Hitti, History of the Arabs, Palgrave Macmillan, 2002 (10 edition).

الصومال

لم تعد قضية قرصنة، بل تجاوزتها إلى أبعد من ذلك

كانت الصومال تمتلك جميع مقومات النجاح! الموقع الجغرافي المميّز، النفط، المعادن... أضف إلى ذلك، أنها تتمتّع بميّزة خاصة ونادرة في أفريقيا، ألا هي الدين المشترك، واللغة المشتركة في جميع أقاليمها. كان من الممكن أن تتحوّل إلى دولة عظمى في المنطقة برمتها. غير أن الحقيقة جاءت منافية لكل ما تقدّم، فقد انتشرت المجاعات، والحروب، وعمليات النهب والقرصنة، والأعمال الإرهابية...

كيف آل هذا البلد إلى الانهيار؟ لماذا لا تزال الحكومة الصومالية غائبة عنه منذ أكثر من عشرين عاماً؟ ما الفضائح التي تختبئ خلف هؤلاء القراصنة الذين يختطفون السفن؟ هل المجاعة قدرٌ محتوم؟



١ - أوغندا

٢ - راوندا

٣- بوروندي

لمحة سريعة عن الصومال

على الصعيد الجغرافي:

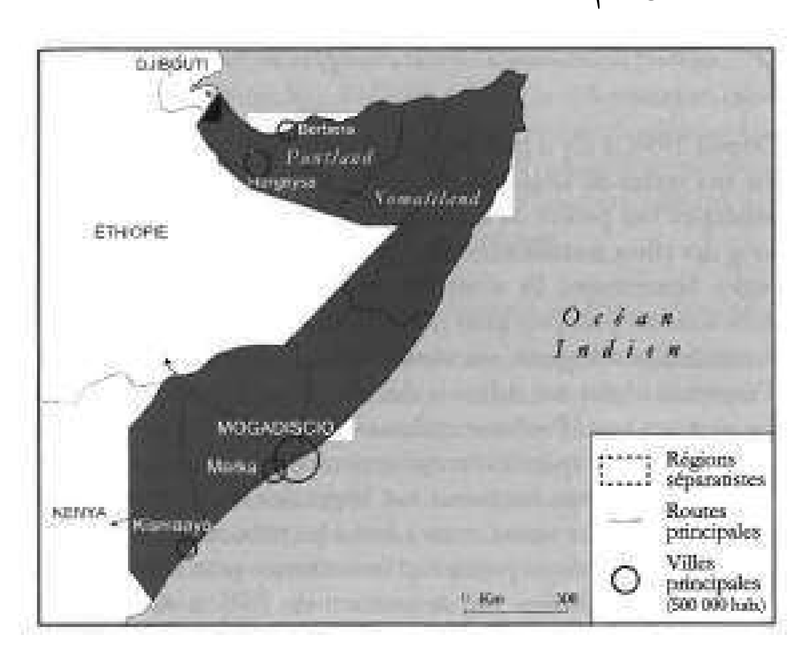
- **العاصمة:** مقديشو.

- **المساحة:** ٦٣٧ ٦٥٧ كم٢ .

- **تعداد السكان:** ٨ ٨٦٣ ٣٣٨ **(**أي بمعدّل ١٣,٩ نسمة **/** كم٢**).**

على الصعيد الاجتماعي:

- **نسيج المجتمع:** يشكّل الصوماليون السواد الأعظم من السكان **(٩٢%)**، إلى جانب الأقليات العرقية **(**قبائل البانتو**)** التي تشكّل **(٧%)**.
- الإسلام السنّي هو الدين الرسمي للبلاد.
- **متوسط العمر:** ٥٠,٤ عاماً.
- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً:** ٤٤,٧%
- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة:** ٣٧,٨%.



مناطق انفصاليّة

◯ **المدن الرئيسة:** يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ ٠٠٠

—— الطرق الرئيسة

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية

- **رئيس الدولة:** شريف الشيخ أحمد (٣١ كانون الثاني ٢٠٠٩- ١٠ أيلول ٢٠١٢ - معترف به على صعيد المجتمع الدولي، لكنه لا يسيطر بحكمه على كل مناطق البلد).

- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٦٠ من إيطاليا والمملكة المتحدة.

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ٩١٧ مليون دولار (٢٠٠٩)

- **الموارد:** الزراعة، النفط، إعانات دولية، وإعانات من المغتربين.

- **معدل النمو:** ٢,٦% (٢٠٠٩).

- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ٦٠٠ دولار (٢٠٠٨).

- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٢٨٤ عام ٢٠٠١ (١٦١، قبل الأخيرة من حيث الترتيب).

- **نسبة البطالة:** ١٥%.

- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** الرقم غير معروف.

*** كيف تطورت أعمال القرصنة في الصومال؟ ومن هم هؤلاء القراصنة؟**

لقد غابت الحكومة في الصومال منذ ١٩٩٠، ووقعت البلاد في أيدي أباطرة الحرب. فما كان من السفن الأوروبيّة والآسيوية إلّا استغلال الوضع الفوضوي، لممارسة أعمال الصيد على طول السواحل الصوماليّة، دون

الحصول على تراخيص، مخترقين بذلك القواعد الأساسيّة. لم يراعوا احترام نظام الحصص المعمول به في بلادهم، للحفاظ على الكائنات الحيّة، مستخدمين تقنيات الصيد – القنابل بشكلٍ خاص- التي تسبّبت بخلق أضرارٍ جسيمة للثروات البحرية الصومالية.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد! بل عمدت بعض الشركات الأوروبية، بمساندة من المافيا، إلى التخلّص من النفايات النووية، بدفنها قبالة السواحل الصوماليّة، مستغلةً بذلك غياب السلطة السياسية في البلد.

كانت أوروبا على دراية بهذا الأمر، لكنها غضّت الطرف، إذ إن هذا الحل يقدّم فائدة عملية واقتصادية للتخلّص من المخلفات النووية. ثم جاءت أمواج تسونامي عام ٢٠٠٥ لتلقي بجزء كبير من هذه المخلفات داخل الأراضي الصومالية، محدثة بذلك أمراضاً غريبة، ظهرت أول مرة بين أوساط الشعب الصومالي.

تلك هي الخلفية التي أدّت إلى انتشار أعمال القرصنة بشكل رئيس. فإذا جاءت المنظمات الإجرامية فيما بعد لتفرض نفسها، وتنضم إلى المشهد، فإن القرصنة انبثقت بدايةً من البؤس الذي لم يأتِ عرضاً. لم يعد بإمكان الصيادين الصوماليين الذين يمتلكون تقنيات جدَّ بدائية، متابعة أعمال الصيد. لذلك اتخذوا قراراً بحماية مياههم الإقليمية بأنفسهم.

وهذا بالضبط ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في أثناء حرب الاستقلال التي خاضتها، لنيل حريتها من المستعمِر البريطاني (١٧٧٥-١٧٨٣)، إذ لم يكن لديها أي قوات بحرية، ما دفع الرئيس جورج واشنطن إلى توقيع اتفاق مع القراصنة، من أجل تأمين الحماية للثروات البحرية الأمريكية.

*** لا وجود للدولة الصومالية منذ ما يقارب العشرين عاماً! كيف حصل ذلك؟**

هنا أيضاً، لم يأتِ الأمر مصادفة. ففي ١٩٩٠ كان البلد يعاني كثيراً، نتيجة الصراعات، والمجاعة، وعمليات النهب، ما أدّى إلى انهيار الدولة. وأمام هذا الوضع، بادرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى شن حملة عسكرية عام ١٩٩٣، أطلقت عليها اسم «عملية استعادة الأمل»، بعد أن توصّلت قبل سنوات قليلة، إلى اكتشاف وجود حقول نفط احتياطية في البلاد. وللمرة الأولى تدخّلت قوات المارينز البحرية الأمريكية في أفريقيا، في محاولة منها لإحكام سيطرتها على البلد. وللمرة الأولى أيضاً، شُنتْ حملة عسكرية تحت شعار «التدخّل لأسباب إنسانية»!

*** هل تتحدّث عن كيس الأرز الشهير الذي تباهى به برنارد كوشنر على أحد الشواطئ الصوماليّة؟**

نعم، لا تزال تلك الصور التي حُضِرَّ لها بعناية فائقة، من قبل وسائل الإعلام، حيّة في ذاكرة شعوب العالم. إنّما كانت الأسباب الحقيقية لتلك الصور إستراتيجيّة، وأُحيط بها إعلامياً، وبوضوح شديد، فقد وردت بشكل خاص ضمن وثيقة البنتاغون ١٩٩٣، تحت مسمى **(**دور وزارة الدفاع الأمريكية في السياسة الأفريقيّة**)**. تكشف هذه الوثيقة أن أفريقيا الغنيّة بمعادنها وثرواتها المتنوعة، تشكّل مصدراً للمصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية. فلمّا كان الاتحاد السوفييتي يشهد انهياره، ولمّا اتسم الاقتصاد العالمي بالعولمة، كانت وزارة الدفاع الأمريكية تدعو إلى دعم وجودها العسكري في القارة الأفريقيّة، لمنع منافسي الولايات المتحدة من

تحقيق أي مكسب من الثروات الأفريقيّة. ففي هذا الإطار الإستراتيجي تحديداً سُجلت عملية «استعادة الأمل».

*** بالرغم من ذلك، تكلّلت هذه العملية بالفشل الذريع. وبالمناسبة، خُلّد ذكر هذا الفشل في فيلم هوليوودي. يروي لنا فيلم (سقوط الصقر الأسود) مأساة أولئك الجنود الأمريكيين الذين سقطوا ضحية هجوم المتمردين الصوماليين الأشرار...**

نعم، فقد جاء هؤلاء «الجنود الأخيار» لإحلال السلام في الصومال، ضمن إطار مهمة إنسانيّة، فوقعوا ضحية هجوم جماعة من الأفارقة الأشرار، المتلهفين للعنف!

في حقيقة الأمر، قَدِم الجنود الأمريكان من أجل بسط سيطرتهم على البلد، فقوبلوا بمقاومة صومالية وطنية، ألحقت بهم الهزيمة.

*** ما الآثار التي ترتبت على هذا الفشل العسكري؟**

كانت الولايات المتحدة الأمريكية عاجزة تماماً عن بسط هيمنتها على الصومال، لذلك لجأت إلى إبقاء البلد من دون حكومة فعّالة؛ أردات «بلقنة» البلد أي تفكيكه إلى دويلات.

وفي كل مرة يطالعنا شعار «فرّق تسد»! هذا هو سبب غياب الدولة في الصومال، منذ ما يقارب العشرين عاماً. لقد عملت الولايات المتحدة الأمريكية على تطبيق ما يشبه نظرية الفوضى، منعاً لحصول أي مصالحة صومالية وطنيّة، ولإبقاء البلد مجزأً إلى دويلات.

*** ألا تتعارض سياسة إغراق البلد في الفوضى مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، فلا يعد بإمكانها استغلال الثروات؟**

لا يُعدُّ استغلال النفط الصومالي من أولويات الولايات المتحدة الأمريكية، فهي لا تحتاجه في الوقت الراهن، لكنها تعلم جيداً أن احتياطي النفط موجود. هناك عاملان يفوقان النفط أهمية ضمن إستراتيجيتها.

يترتب عليها بادئ ذي بدء، منع الدول المنافسة من التفاوض على نحوٍ فعّال مع دولة صوماليّة غنية وقويّة. لقد أوردْتَ ذكر السودان، يبدو أن المقارنة جديرة بالاهتمام في هذا المقام. لقد اكتشفت بعض الشركات الأمريكية وجود حقول النفط في السودان منذ ثلاثين عاماً، وها هو ذا السودان اليوم، يبيع نفطه إلى دولة الصين!

قد يتكرر الأمر في الصومال. لم يعد البلد يعيش في ظل حكومة رسمية، غير أن الدول الغربية العظمى تساند الحكومة الانتقالية. إذا نظرنا إلى الأمر من الناحية العملية، فإن هذه الحكومة الانتقالية لا تسيطر على أي شبر من الأراضي الصوماليّة، ولا تدين بشرعيتها إلّا إلى الدعم المقدّم لها دولياً. بيد أن عبد الله يوسف، الذي ترأس الحكومة الانتقاليّة قبل سنوات قليلة (٢٠٠٤-٢٠٠٨)، توجّه إلى الصين، على الرغم من الدعم الذي تقدمه له الولايات المتحدة.

انتقدت وسائل الإعلام الأمريكية بشدة هذه الزيارة. الحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تملك أي ضمان بشأن هذه المسألة. ففي حال خرجت حكومة صومالية إلى الوجود، أياً كان توجهها السياسي، فإنها ستكون قادرة على اتباع استراتيجية مستقلّة، بعيداً عن الولايات المتحدة

الأمريكية، وعلى إقامة علاقات تجارية مع الصين. لهذا السبب، ترفض الدول الإمبريالية الغربية فكرة قيام دولة صومالية قوية وموحّدة.

ويرتبط الهدف الثاني لنظرية الفوضى هذه بالموقع الجغرافي الإستراتيجي للصومال، سواء كان ذلك للإمبرياليّين في الولايات المتحدة الأمريكية، أم أولئك الذين في أوروبا.

*** ما الذي يجعل موقعها إستراتيجياً؟**

تحكّمها بالمحيط الهندي. كما سبق وذكرت لك، يقع على عاتق الدول الغربية العظمى جزء كبير من المسؤولية في موضوع تطوّر عمليات القرصنة في الصومال. إنّما بدلاً من اعترافها بالحقيقة، وبدلاً من دفعها للتعويضات، كتكفير عما ارتكبته من جرائم، لجأت هذه القوى العظمى إلى تجريم هذه الظاهرة، بغية تسويغ تمركزها في المنطقة. لذا عمدت منظّمة حلف شمال الأطلسي، توظيفاً لذريعة محاربة القرصنة، إلى ترسيخ وجود قواتها البحرية العسكرية في المحيط الهندي.

*** وما الهدف من ذلك؟**

مراقبة النمو الاقتصادي للدول الصاعدة، وبشكل رئيس دولتي الهند والصين. بالفعل، يمر نصف أسطول الحاويات العالمي، و٧٠% من إجمالي تجارة المنتجات النفطية عبر المحيط الهندي. من هذا المنطلق الإستراتيجي، نجد أن الصومال يحتل مكانة مهمّة، فهو يمتلك الساحل الأطول على مستوى أفريقيا (حيث يبلغ طوله ٣.٣٠٠ كم)، كما يطلّ على الخليج العربي ومضيق هرمز، وهما المركزان العصبيان لاقتصاد المنطقة.

يضاف إلى ذلك أنه في حال قُدّم حلٌّ سلميّ للمشكلة الصوماليّة، فإن ذلك سيسهم في توطيد العلاقات بين أفريقيا من جهة، والهند والصين من جهة أخرى، وذلك عبر المحيط الهندي، وسيتمكّن هؤلاء المنافسون للولايات المتحدة الأمريكية من إحكام نفوذهم على هذه المنطقة من أفريقيا، ما سيعود بالنفع على كل من موزامبيق وكينيا ومدغشقر وتنزانيا وزنجبار وجنوب أفريقيا... وستتمكّن كل هذه الدول المطلّة على المحيط الهندي من الوصول إلى السوق الآسيوي، وتطوير علاقات اقتصاديّة مثمرة فيما بينها.

لقد ذكر نلسن مانديلّا، عندما كان رئيساً لجنوب أفريقيا، ضرورة إحداث ثورة في المحيط الهندي، عن طريق إقامة علاقات اقتصادية جديدة. إلّا أن الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا كانت له بالمرصاد، وعارضت تنفيذ مثل هذا المشروع، فهي تؤثر إبقاء الصومال غارقاً في حالة الفوضى هذه.

*** لقد ذكرتَ أن الولايات المتحدة الأمريكية تعارض المصالحة الوطنية في الصومال. إلّا أن الانقسامات القبليّة بين الصوماليين كانت موجودة فعلاً، حتى قبل تدخلها...**

علينا النظر في عمق التاريخ الصومالي كي ندرك سبب الفوضى التي تعيشها البلاد في الوقت الراهن. تقاسمت القوى الاستعمارية هذا البلد، في نهاية القرن التاسع عشر، فاستولت بريطانيا على شمالي البلاد، في حين احتلّت إيطاليا جنوبيها.

في ذلك الوقت، كانت بريطانيا العظمى باسطة نفوذها على عدن، المدينة الساحليّة اليمنية. وكانت الصومال لبريطانيا بلداً مثيراً للاهتمام، حيث يوفّر مخزوناً غذائياً للقوات البريطانية، وقد أطلق عليها المستوطنون

اسم «ملحمة عدن». أَصْدُقُكَ القول، لم يحتاجوا إلى التذاكر، ليحصلوا على الخدمة! علاوة على ذلك، حين استيلائهم على إقليم بيربيرا في الشمال الغربي للصومال، تمكّن البريطانيون من تعزيز تمركزهم على جانبي البحر الأحمر، بسبب إحكام سيطرتهم على اليمن في السابق، وبذلك أصبح بإمكانهم تأمين هذا المنفذ الإستراتيجي، للوصول إلى مستعمرتهم الهندية.

*** ألم تواجه بريطانيا العظمى أي شكل من أشكال المقاومة حين احتلالها للشمال الصومالي؟**

بلى. كان محمد بن عبد الله حسن، بطل المقاومة الصومالية، يُلقّب بجورج واشنطن الصومال، فقد أراد توحيد القبائل الصومالية ضمن دولة واحدة. كما كان يلّقب أيضاً بشكسبير القرن الأفريقي، فقد استخدم أسلوبه الرائع في النثر لتعبئة الشعب ضد الاحتلال الاستعماري.

قاد محمد عبد الله حسن، الذي كان الإنكليز يلقبونه بـ «ماد مولّه»، حربه الجهادية بدءاً من نهاية القرن التاسع عشر حتى ١٩٢٠، ولقد سُجلت هذه الحرب بأنها إحدى أطول الحروب الجهادية ضد المستعمر في القارة السمراء. كانت ثورته شبيهة بثورة عمر المختار في ليبيا. قاتل محمد عبد الله حسن، على جبهات عدة، البريطانيين في الشمال، والإيطاليين في الجنوب، كما قاتل القوات الإثيوبية المأجورة الموالية للقوات الإمبريالية. إنّما في نهاية الأمر، لم تستطع المقاومة الصومالية الثبات طويلاً أمام القصف المدفعي البريطاني، فانهارت في إثر الهزيمة التي لحقت بها. وفي العام نفسه، توفي محمد عبد الله حسن في إثر مرض الانفلونزا الذي ألمّ به، وكان يحاول إعادة تشكيل جيشه لمعاودة هجومه على قوّات الاحتلال.

*** كيف يمكن لإيطاليا التي لا تملك أي سجل تاريخي بين الدول العظمى المستعمِرة، أن تطأ بقدمها الأرض الصوماليّة؟**

لقد حرّضتها بريطانيا على التدخّل كي لا تتخذ الدول الأوروبية الأكثر خطورة كألمانيا وفرنسا، موطئ قدم لها في المنطقة. وأخذت بريطانيا العظمى على عاتقها أمر تمويل المغامرة الاستعمارية الإيطالية في الصومال، وزودتها بعناصر من المرتزقة اليمنيين لاحتلال الأراضي.

وهكذا بدأ الإيطاليون باتخاذ مراكز لهم في سلطنة مرجاتين، الواقعة شمال بونتلاند الحاليّة، لكن ما لبث الخلاف أن شبّ بين السلطان والمستوطنين. ففي حال فكرت إيطاليا في إنشاء مستعمرة في تلك المنطقة، فذلك يعني للسلطان وضع مملكته تحت الحماية الإيطالية، في حين كان يأمل في الحصول على دعم الأوروبيين، لمتابعة تنفيذ أهدافه التوسعيّة الخاصّة، لذلك صرّح أن على الإيطاليين العبور على جثته قبل المضيّ قدماً لإنشاء مستعمرتهم. إنّما في نهاية الأمر، تمكنت إيطاليا من فرض نفوذها، وتابعت مشروعها التوسعيّ باتجاه جنوبي البلاد، وصولاً إلى مقديشو.

إلّا أن الإيطاليين واجهوا كثيراً من الصعوبات في إدارة مستعمرتهم، وقد تصرفوا بحزم ووحشيّة، ما أثار استياء الشعب فرفض هيمنتهم. ثم كان عهد الفاشيّة، بوصول موسوليني إلى سدة الحكم عام ١٩٢٢، فلجأ إلى استخدام أساليب أكثر وحشية لتحقيق حلمه في بسط هيمنته على القرن الأفريقي بأكمله. ومما ساعده في ذلك غزو إثيوبيا للأراضي الصومالية عام ١٩٣٥.

مع ذلك، لم يُكتب لهذه الإمبراطورية البقاء طويلاً، فقد اندثرت بهزيمة موسوليني، إبان الحرب العالمية الثانية، وفقدت إيطاليا مستعمراتها كافة.

*** وهل حصلت الصومال على استقلالها؟**

كان على الصومال انتظار عقد من الزمن، تسلّمت في أثنائه الأمم المتحدة زمام الحكم في البلاد عوضاً عن المستعمر الإيطالي القديم، قبل حصولها على استقلالها في عام ١٩٥٩، نتيجة دمج المستوطنات الإيطاليّة في الجنوب، والبريطانيّة في الشمال. إنّما هناك بعض الصوماليين الذين لا يزالون يعيشون في بعض الأقاليم من كينيا وإثيوبيا وجيبوتي.

عدا عن ذلك، اعتمدت الدولة الصومالية الجديدة علماً جديداً للبلاد، تتوسطه نجمة خماسية، يمثّل كل جزء منها إحدى المناطق الصومالية التاريخية. أما الرسالة التي تضمنتها هذه النجمة، فهي ترمز إلى توحيد الصومال الشمالي والصومال الجنوبي... مع بقاء ثلاث مناطق تحت نير الاحتلال الاستعماري.

وأمام شرعيّة المطالب، قرّر البريطانيون -الذين كانوا يسيطرون على الأراضي الكينية آنذاك- تنظيم استفتاء شعبي في الإقليم الواقع في كينيا، الذي تطالب به الصومال. فأعرب ٨٧% من الناخبين عن رغبتهم في توحيد الأقاليم الصومالية كافة، وكانوا يعيشون كإثنيات صوماليّة في كينيا. إنّما، لمّا أُعلنت نتيجة الأصوات، بادر جومو كينياتا، زعيم الحركة الوطنية في كينيا، إلى تهديد البريطانيين بطرد المستوطنين من بلاده، فيما لو تنازلوا عن جزء من الأراضي الصوماليّة إلى الصومال، فقررت بريطانيا حينها إهمال

الاستفتاء الشعبي، وبذلك، لا تزال جالية صوماليّة كبيرة تعيش إلى يومنا هذا في كينيا.

يجب أن ندرك جيداً أن هذه الحدود المصطنعة التي رسمها المستعمر تشكّل مأساة حقيقية للصومال. لقد أثارت هذه المسألة نقاشاً مهمّاً حول القارة السمراء.

*** كيف سينعكس أثر هذه التقسيمات الاستعمارية على الصومال؟**

لا بد أن هذه التقسيمات ستكون سبباً في خلق توترات مع دول الجوار. فعبر السنوات التي طالبت فيها الصومال إعادة ترسيم الحدود، أصبحت إثيوبيا أحد معاقل الإمبريالية الأمريكية التي سبق أن أنشأت قواعد عسكرية في كلٍّ من كينيا وإريتريا. عندئذٍ صرّحت الصومال، تلك الدولة الرعوية، حديثة العهد بالديمقراطية، عن رغبتها في إنشاء جيش خاص بها. كان هدفها ألا تبدو ضعيفة، مقارنة مع دول الجوار المسلّحة، كما كانت تصبو إلى دعم الحركات الصومالية في إثيوبيا، بل ربما استعادة بعض الأقاليم المغتصبة بالقوّة. غير أن رغبتها في إنشاء جيش صومالي قابلها رفض الدول الغربية.

لا مساومة على الحدود الأفريقيّة

في الوقت الذي حصلت فيه العديد من الدول الأفريقيّة على استقلالها، أي في ستينيات القرن الماضي، أُثير نقاش أوقع خلافاً بين مجموعتين، الأولى يطلق عليها مجموعة كازابلانكا، والثانية مجموعة مونروفيا.

مجموعة كازابلانكا

تضم هذه المجموعة، بشكلٍ خاص، دول المغرب والصومال وليبيا والحكومة الثورية الانتقالية في الجزائر. أرادت هذه المجموعة إعادة رسم الحدود التي خلّفها المستعمر، على أن يتم النقاش فيما بينها، ومن دون أي تدخل أجنبي، إذ إن الحدود الحاليّة لا تتسم بأي صفة شرعيّة.

مجموعة مونروفيا

من جهة أخرى، هناك مجموعة مونروفيا، التي تُعدُّ أحياناً أكثر تحفظاً، أو أنها عميلة للدول الإمبريالية، أو مأجورة، وترغب هذه المجموعة في فرض احترام السيادة الوطنية.

عام ١٩٦٣، أقدمت منظمة الوحدة الأفريقيّة (OUA) التي تُعدُّ المؤسّس للاتحاد الأفريقي الحالي، على وضع حدٍّ للجدل القائم، بإصدار مرسومٍ يقضي بعدم جواز مناقشة موضوع الحدود الأفريقيّة، إذ إن إعادة ترسيم الحدود جدير بأن يخلق حروباً أهلية في كل أرجاء القارّة السمراء.

وفي وقت لاحق، اعترف أحد المهندسين في منظمة الوحدة الأفريقيّة، جوليوس نيريري، وهو من أصل تنزاني، أن هذا القرار هو الأفضل على الإطلاق، غير أنه يأسف للوضع القائم في الصومال. كما أنه شجب الوضع الذي آلت إليه منظمة الوحدة الأفريقيّة، فقد أفاد أنها أصبحت مجرّد «نقابة لرؤساء الدول»، عاجزة عن انتهاج سياسات ناجحة وفعّالة للقارة بكليّتها، وهي بعيدة جداً عن أحلام المؤسسين لعموم البلدان الأفريقيّة.

*** إذاً، فالصومال كانت تقيم علاقات متوترة مع دول الجوار. ألم تكن فكرة معارضة إنشاء جيش صومالي تنم عن عقلانية؟ ألم يكن ذلك سيؤدي إلى إشعال حروب في المنطقة؟**

إن الحروب التي قد تشتعل بين الدول الأفريقيّة ليست هي آخر ما تفكّر فيه دول الغرب، إذ ينحصر اهتمامها في مصالحها الخاصّة. لقد انشغلت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى بتجهيز عناصر عسكريّة وتدريبهم في كلٍّ من إثيوبيا وكينيا. تلك البلاد التي لا تزال تعيش تحت نير الأنظمة الإقطاعية القمعية من جهة، وتحت سيطرة الحكومات الاستعمارية بشكلها الجديد، التي تتفانى في خدمة المصالح الغربية، من جهة أخرى.

في الصومال، في المقابل، اتسمت السلطة الحاكمة بكونها أكثر ديمقراطية واستقلالية. وفي النتيجة، عارض الغرب تسليح بلدٍ قد يفلت من قبضته ومن سيطرته. لذلك، قررت الصومال التوجّه إلى الاتحاد السوفييتي، ما أثار قلق الدول العظمى التي كانت تخشى أن تمتد سيطرة الاتحاد السوفييتي لتشمل أفريقيا. وقد تفاقمت هذه المخاوف غداة انقلاب ١٩٦٩.

*** ماذا تعني بهذا الكلام؟**

لقد انتشر الفكر الاشتراكي في الصومال. أجل، كانت هناك جالية صومالية كبيرة تعيش في مدينة عدن، جنوبي اليمن. من ناحية أخرى، اعتادت بريطانيا العظمى أن تنفي كل الشخصيات التي كانت تُعدُّ أنها تشكّل خطراً عليها في الهند، من شيوعيين وقوميين وغيرهم، إلى هذه المدينة بالذات، فكانوا يُعتقلون ويُنفون إلى عدن، حيث نمت مفاهيم وأفكار قوميّة وثورية كان لها الأثر الأكبر فيما بعد في اليمنيين، بل وفي الصوماليين أيضاً. لقد تحولت عدن، إلى حدٍّ ما، إلى معقل لنشر الأفكار التقدميّة والثورية، في كل أرجاء المنطقة. ففي الصومال، أصيب بعض المدنيين بهذا «الفيروس»، وطوّروا أفكاراً ماركسية، كما قاموا بانقلاب عسكري عام ١٩٦٩، واستولى زياد بري على زمام السلطة.

*** ما دوافع هذا الانقلاب؟**

استشرى الفساد داخل الحكومة الصوماليّة، علماً أنها كانت تمتلك كل المقومات لترقى بالبلد إلى مصافِّ الدول العظمى في المنطقة عبر موقعها الاستراتيجي، كما كانت كل القبائل تتحدث لغة واحدة، وتدين بديانة واحدة، إلى غير ذلك من العوامل الثقافية المشتركة، وهذا ما يندر وجوده في القارة السمراء.

إلّا أنَّ فشل هذه الحكومة في إحداث التنمية الاقتصادية في البلد، أدّى إلى خلق مناخٍ ملائمٍ للانقسامات القبليّة. شهدت النخبة الصوماليّة انقساماً فيما بينها، تحت ذريعة تعاطي السياسة، فبادرت كل نخبة إلى إنشاء حزبٍ خاص بها، لكنها أغفلت تنظيم برنامج حقيقي، وعينت الناخبين وفقاً

للقبائل الموجودة. كان لذلك الأثر البالغ في تفاقم الانقسامات، وأثبت عدم فاعليته، إذ إن قيام نظام ديمقراطي ليبرالي من هذا النوع لا يتلاءم مع بلدٍ كالصومال. لقد اجتمع في وقت من الأوقات ٦٣ حزباً سياسياً في بلد لا يتجاوز تعداد سكانه ثلاثة ملايين مواطن! وبلغ فشل هذه الحكومة في عجزها حتى عن اعتماد لغة رسمية للكتابة، ما خلق مشكلات خطرة في شؤون إدارة البلاد. كما كان مستوى التعليم متدنياً. مع هذا كله، تمكنت البلاد من تأسيس نظامٍ بيروقراطي، وجهازٍ للشرطة وجيشٍ كان له أثره الجوهريّ في الانقلاب التقدّمي.

*** «تقدمي»! مع الجيش؟**

كان يُفترض بهذا الجيش، بصفته جهاز قمعٍ، توفير الحماية اللازمة لما يسمى الجهاز الحكومي المدني والنخبة السياسية، لكنه كان المؤسسة الوحيدة المنظّمة في الصومال، وكان يمثل كل البلد. كما كان مركز اللقاءات والتبادلات، حيث لم تكن هناك حدود، ولا نزعة قبلية، ولا انقسامات عشائرية... بهذه الطريقة، انتشرت في الجيش الأفكار الماركسية الموروثة عن عدن.

لهذا السبب، تعاطف هؤلاء الضباط الذين قادوا الانقلاب، والذين تميزوا بانتمائهم الوطني، والذين لم يكن لديهم معرفة عميقة بالنظام الاشتراكي، تعاطفوا مع أفكار هذا النظام. أضف إلى ذلك أنهم كانوا على دراية بمجريات الأحداث في فيتنام، وكانوا يضمرون مشاعر مناهضة للإمبرياليّة. أما عن المدنيين الذين كانوا يعرفون جيداً ماركس ولينين، والذين لم يكن لديهم أي انتماء لأي حزب سياسي جماهيري، فقد قدموا دعمهم للانقلاب، وتحولوا إلى مستشارين للضباط عندما استولى هؤلاء على السلطة.

*** ما التغييرات التي أحدثها الانقلاب في الصومال؟**

كان من أهم الجوانب الإيجابيّة لهذا الانقلاب، مسارعة الحكومة الجديدة لاعتماد اللغة الصومالية لغة رسمية للكتابة في البلاد. فضلاً عن الدعم المادي الذي قدمه كل من الاتحاد السوفييتي والصين للصومال. وتضافرت جهود الطلاب مع الأهالي، وارتفع مستوى التعليم وتحسّنت الظروف الاجتماعية. بذلك أصبحت السنوات التي أعقبت الانقلاب أفضل السنوات التي عاشتها الصومال في تاريخها على الإطلاق. استمر هذا الحال حتى ١٩٧٧.

*** ما الجديد الذي طرأ؟**

أقدمت الصومال التي كانت مجزأة إلى دويلات بفعل الدول الاستعمارية، على غزو إثيوبيا لاستعادة إقليم أوغادين الذي كانت غالبية سكانه من أصلٍ صومالي.

*** مع ذلك، كانت إثيوبيا في تلك الحقبة، دولة ذات نظام اشتراكي، تتلقى دعمها من الاتحاد السوفييتي، أليس كذلك؟**

إنك على حق. خضعت إثيوبيا لسنوات طويلة لحكم الإمبراطور الديكتاتوري هيلا سلاسي. إلّا أنه، في السبعينيات، شهدت البلاد حشداً قوياً للإطاحة به. طالبت الحركات الطلّابية - التي كان لي فيها مشاركة شخصيّة- بأربعة بنود مهمّة. جاء في مقدمتها، معالجة العلاقات المتوتّرة مع الجارة إريتريا بطريقة سلميّة وديمقراطيّة، وتعلّق البند الثاني بإنشاء قانون الإصلاح الزراعي الذي يضمن توزيع الأراضي على الفلّاحين، أما البند

الثالث، فتطرّق إلى اعتماد مبدأ المساواة بين الجنسيات: فقد كانت إثيوبيا بلداً متعدد الجنسيات، وتقوده نخبة لا تمثّل التنوّع. وأخيراً، طالب البند الرابع بالقضاء على النظام الإقطاعي، وبناء الدولة على أساس ديمقراطي.

وكما حصل في الصومال، انضمت جماعات من أهالي إثيوبيا إلى الجيش، الذي كان المؤسسة المنظمة الوحيدة على صعيد الدولة، من أجل الإطاحة بالإمبراطور هيلا سلاسي عام ١٩٧٤.

*** إذاً، كيف يُعقل أن تُقْدِم دولتان، يقوم نظام الحكم فيهما على المبادئ الاشتراكية، وتتلقيان الدعم من الاتحاد السوفييتي، على الاقتتال فيما بينهما؟**

بعد الثورة التي قادها الشعب الإثيوبي، تشكل وفدٌ ضمّ كلاً من الاتحاد السوفييتي وكوبا واليمن الجنوبي، وجلس إلى المائدة المستديرة بحضور طرفي النزاع، إثيوبيا والصومال، بهدف حل الخلاف القائم بين الدولتين. ثمّ توجّه فيديل كاسترو إلى كل من أديس أبابا ومقديشو، وأعلن حسب رأيه الشخصي، أن المطالب الصومالية لها ما يسوّغها. وفي ختام الاجتماع، أعلن الوفد الإثيوبي موافقته على دراسة طلب الصومال، الدولة الجارة بشكل جديّ، ووقّع الطرفان اتفاقيّة تنص على الامتناع عن القيام بأي عمل استفزازي، ريثما يُتخذ القرار النهائي.

*** يبدو أن الأمور سارت بشكل سليم في البداية...**

إلّا أنَّ الصومال لم تحترم بنود هذا الاتفاق. فبعد انقضاء يومين على عودة الوفد الإثيوبي إلى البلاد، وصل هنري كسنجر فجأة إلى مقديشو، بصفته ممثلاً شبه رسمي عن نادي السافاري (راجع الفصل الرابع). وتحت

ضغوط هذا النادي ووعوده بتقديم مساعدات ماليّة، اقترف زياد بري خطأ إستراتيجياً فادحاً، عندما قرر غزو إثيوبيا، على الرغم من المفاوضات الجارية بين البلدين. فكانت الكارثة...

*** ما الآثار التي ترتبت على هذه الحرب؟**

غادر السوفييت الصومال، وانضم زياد بري، بحلته الجديدة، إلى شبكة الاستعمار الإمبريالي. وبما أن البلد تضرر بشكل بليغ نتيجة الصراع، كُلّف المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي «بإعادة إعماره». الأمر الذي زاد التناقضات تفاقماً لدى طبقة البورجوازية الصومالية، فقد أرادت كل واحدة من النخب الإقليمية الاستحواذ على الصفقة الخاصة بها. وازدادت الخلافات بين العشائر سوءاً، ما أدّى إلى انهيار البلد تدريجياً، حتى آل إلى سقوط زياد بري عام ١٩٩٠. ومنذ ذلك الحين، لم يخلف زياد بري أي رئيس للدولة.

*** إنّما، بعد انقضاء ثلاثين عاماً على حرب أوغادين، انعكس السيناريو والمخطط الافتراضي، وقدّمت الولايات المتحدة دعمها لإثيوبيا لغزو الصومال...**

نعم، كما قلت آنفاً، منذ الهزيمة التي لحقت بها في عملية «استعادة الأمل»، آثرت الولايات المتحدة الأمريكية إبقاء الصومال في حالة من الفوضى العارمة. بات البلد مجزأً إلى دويلات قبليّة، يتنازعه أباطرةُ الحرب المحليون على أقاليم صغيرة، ويشهد نشاطاً في الحركة التجارية بكل أنواعها. إنّما في عام ٢٠٠٦، برزت حركة وطنيّة تحت لواء «اتحاد المحاكم الإسلاميّة» لقتال أباطرة الحرب، وإعادة الوحدة إلى ربوع البلاد. كانت انتفاضة وثورة شعبية.

وتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى للحيلولة دون إعادة إعمار الصومال، وقررت فجأة، ودون سابق إنذار، تقديم دعمها للحكومة الانتقاليّة الصوماليّة، وهي التي كانت ترفض الاعتراف بها طيلة هذه السنوات. لقد أدركت الولايات المتحدة الأمريكية، في حقيقة الأمر، أن مشروعها في إبقاء الصومال في حالة فوضى لم يعد ممكناً، إذ إن ثمّة حركة تتهيأ لتأسيس المصالحة الوطنية، فضلاً عن أنها ستكون مصالحة ذات طابع إسلامي!

لذلك قررت الولايات المتحدة الأمريكية إفشال الوحدة الصوماليّة بمساندتها للحكومة الانتقاليّة، وتحويلها إلى حكومة عميلة، تعمل في خدمة مصالحها. إنّما، وبما أن هذه الحكومة لا تحظى بأي دعم، سواء من القاعدة الشعبية أم من الجيش، بادرت القوّات الإثيوبية، التي تعمل تحت إمرة واشنطن، إلى غزو مقديشو، لإسقاط «اتحاد المحاكم الإسلاميّة». فقد باتت إثيوبيا تحت نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية منذ ١٩٩١.

*** وهل نجحوا في تحقيق مبتغاهم؟**

كلا، لقد مني الجيش الإثيوبي بالهزيمة، ما اضطره إلى مغادرة الأراضي الصوماليّة. من جهته، انقسم «اتحاد المحاكم الإسلامية» إلى فرق عدة، لا تزال تسيطر على غالبية مناطق الدولة حتى يومنا هذا. أما فيما يتعلّق بالحكومة الانتقاليّة بقيادة عبد الله يوسف، فقد انهارت، واستبدلتها الولايات المتحدة الأمريكية بالشيخ شريف، المتحدّث باسم «اتحاد المحاكم الإسلامية» السابق.

*** هذا يعني أن الشيخ شريف انتقل إلى «المعسكر الآخر»؟**

كان يشغل منصب المتحدث باسم «اتحاد المحاكم الإسلامية»، وقد اشتهر بفصاحة لسانه، ولكنه كان يفتقر إلى العمق السياسي. ليس لديه أي فكرة عن كنه الإمبريالية أو عن كنه الوطنية، لهذا السبب بالذات اختارته الدول الغربية. إنه الحلقة الضعيفة في «اتحاد المحاكم الإسلامية»، ويترأس اليوم حكومة مزيفة، أُنشئت في جيبوتي، إذ لا تعتمد على أي قاعدة شعبية، ولا تتمتّع بأي سلطة في الصومال. إنه فقط موجود على الساحة الدولية، بفضل الدعم الذي يتلقاه من الدول الإمبريالية .

*** لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية استعدادها للتفاوض مع حركة طالبان في أفغانستان إنقاذاً للموقف، لمَ لا تحاول اليوم الانخراط في حوار مع الجماعات الإسلاميّة في الصومال؟**

لأن هذه الجماعات تسعى إلى الإطاحة بالمحتلّ الأجنبي، وفتح المجال أمام المصالحة الوطنيّة بين فئات الشعب الصومالي. لذا، تريد الولايات المتحدة الأمريكية تحطيم هذه الجماعات، إذ إن المصالحة الوطنيّة - سواء تمّت بجهود الجماعات الإسلامية أم عن طريق الحكومة الانتقالية - لن تأتي في صالح القوى الإمبرياليّة. هذه القوى لا تريد سوى إشاعة الفوضى، والإبقاء عليها.

المشكلة أن هذه الفوضى قد اتسعت اليوم لتشمل إثيوبيا التي باتت ضعيفة منذ عدوان ٢٠٠٧. لقد ظهرت حركة المقاومة الوطنيّة إلى الوجود، وهي تسعى إلى مقاومة حكومة أديس أبابا الموالية للإمبرياليّة.

إنها باتباعها سياسة الفوضى، نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في الواقع في خلق مشكلات في المنطقة برمّتها.

*** وكأن المشكلة التي يعاني منها القرن الأفريقي ليست بالكافية، فقد اكتسحته المجاعة منذ ٢٠١١!**

لا يمكن وصف المجاعة بأنها تلك الروح الشريرة التي تقرّر الانقضاض على منطقة معيّنة في العالم عندما يحلو لها ذلك. المجاعة ليست قدراً محتوماً. ما السبب الذي أدى إلى انتشار المجاعة في الصومال في الوقت الذي جعل منها المستعمر البريطاني منذ سنوات عدة مخزناً للحبوب ومتجراً للجزارة؟ لماذا يعاني الشعب الإريتري من المجاعة التي يُعزى فيها السبب إلى وجود الجفاف، في حين يشكّل هذا البلد خزاناً للمياه الأفريقيّة؟

في كل عام، تتدفق كميات هائلة من المياه عبر الأنهار الأربعة الرئيسة. تبلغ مساحة إثيوبيا ١,١٤ مليون كم٢، أي ضعف مساحة فرنسا، لكن لا تتجاوز نسبة الأراضي الصالحة للزراعة ٦٥%، فضلاً عن كونه البلد الأفريقي الأغنى من حيث الثروة الحيوانيّة. تمتلك إثيوبيا المعادن والغاز الطبيعي؛ لماذا يعاني هذا البلد – الذي هو بلدي - من المجاعة؟

هذا ليس قدراً محتوماً، إنه نتيجة الخيارات البشرية، بل نتيجة الخيارات السياسيّة.

*** أي خيارات؟**

تحولت إثيوبيا إلى معقل للإمبريالية الأمريكية. لذلك فتحت أبوابها أمام الشركات متعددة الجنسيات بما يتنافى ومصالح شعبها. أعطيك مثلاً: في الوقت الذي تموت فيه النساء، ويموت الأطفال في مصارعتهم للجوع،

تستورد إثيوبيا الورود التي تُنسَّق في دول الغرب! يصدّر هذا البلد اليوم ما قيمته ٥٥٠ مليوناً من الفواكه الطازجة لحساب الشركات متعددة الجنسيات. لقد تنازل الفلاحون الإثيوبيون عن أراضيهم لمصالح شركات الأعمال التجارية الزراعيّة. لقد قطعت لهم الحكومة وعوداً زائفة بمكافآت ماليّة لم تصرف قط. واليوم، ترى هؤلاء الفلاحين يزرعون الورد الذي يُستخدم لتزيين موائد الغربيين، مقابل أجر زهيد، دون الحصول على أي مبيدات للحماية ضد الآفات الزراعيّة. يأتي العالم اليوم ليحثّ هؤلاء على تقديم العون للأفارقة الذين يعانون من الجوع! إنه لأمر بعيد كل البعد عن المنطق!

الجفاف لا يأتي بالمجاعة، بل تأتي المجاعة عن طريق النظام الرأسمالي. ما يجري اليوم في إثيوبيا لا يختلف البتة عما جرى في المستعمرة الهندية في الماضي القريب، حيث كانت المزارع مخصصّة للاستغلال في الوقت الذي يلقى فيه ملايين الهنود حتوفهم نتيجة الجوع.

ويتكرر المشهد في كينيا، يعاني الشعب من المجاعة، في الوقت الذي يثني فيه الغرب على إدارته الاقتصادية. غير أن كينيا تُعدُّ المصدّر الأول للفواكه الطازجة، وتتقدم بذلك على إثيوبيا. ليس من الغريب إذاً أن تكون إريتريا هي الناجي الوحيد في القرن الأفريقي من المجاعة. هناك، لا تعود ملكية الأراضي إلى الشركات متعددة الجنسيات، بل تُزرع بمنتجات تصلح لغذاء الشعب، لا لتزيين الأكشاك في البلاد الأجنبية.

ستتمكّن الصومال -كما هو الشأن في سائر دول القارة السمراء- من وضع حدٍّ نهائي لمشكلة المجاعة، في اليوم الذي يتوقف فيه تدخّل الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا فيها.

قائمة المراجع:

- Mohamad Omar, *The Road to Zero*: *Somalia's Self-Destruction*, Haan Publishing, 1993.
- Mohamad Babu, *Africain Socialism or Socialist Africa?* Lonfres; Zed Press, 1981.
- Hersi, Ali Abdirahman, *The Arab factor in Somali history: the origins and the development of Arab enterprise and cultural influences in the Somali Peninsula,* Thesis – Uiversity of Czalifornia, Los Angeles, 1977.
- Michel Caraël, « La ruine du pansomalisme », in *Le Monde diplomatique,* octobre 1982.
- Mahmood Mamdani, *Good Muslim, Bad Muslim: America, the Cold War, and the Roots of Terror,* Pantheon, 2004.
- John K. Cooley, Unholy Wars: *Afghanistha, America and International Terrorism,* Pluto Press, 2000.
- John Drysdale; *Whatever Happened to Somalia?* Haan Publishing, 1994.

جمهورية السودان
حربٌ خفيّة ضد عدو مجهول الهويّة

يُعدُّ المساس بالحدود التي رُسمت إبان الحقبة الاستعماريّة من المحرّمات في أفريقيا. إنّما مع ذلك، عُلّق هذا الحظر الذي فرضه الاستعمار، مع إنشاء جمهوريّة جنوب السودان. تُعدُّ دارفور منطقة غير مستقرّة. وفيما يلي إيضاحات متناقضة: يرى جورج كلوني أن هناك جماعات من العرب ترتكب المجازر بحق شعوب أفريقيا، في حين يعتقد برنارد هنري ليفي أن الإسلام المتطرّف هو الذي يهاجم الإسلام المعتدل. إنّما لا أحد يثير موضوع التحديّات الدوليّة المطروحة لهذه الحرب المدمّرة. من هنا جاء هذا التناقض الذي فسّره محمد حسّان: «في حال قطعت الخرطوم تبادلاتها التجاريّة مع الصين، فإن قضية دارفور ستطوى في ذاكرة النسيان»!



لمحة سريعة عن جمهورية السودان

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** الخرطوم.

- **المساحة:** ١ ٨٨٦ ٠٦٨ كم٢ .

- **تعداد السكان:** ٣١ ٩٥٧ ٩٦٥ **(**أي بمعدّل ١٦,٩ نسمة **/** كم٢**).**

على الصعيد الاجتماعي: (هذه المعطيات صالحة إلى حين اقتطاع جمهورية جنوب السودان)

- **نسيج المجتمع:** بلد متعدد التكوينات العرقيّة، يؤوي مئات القبائل.

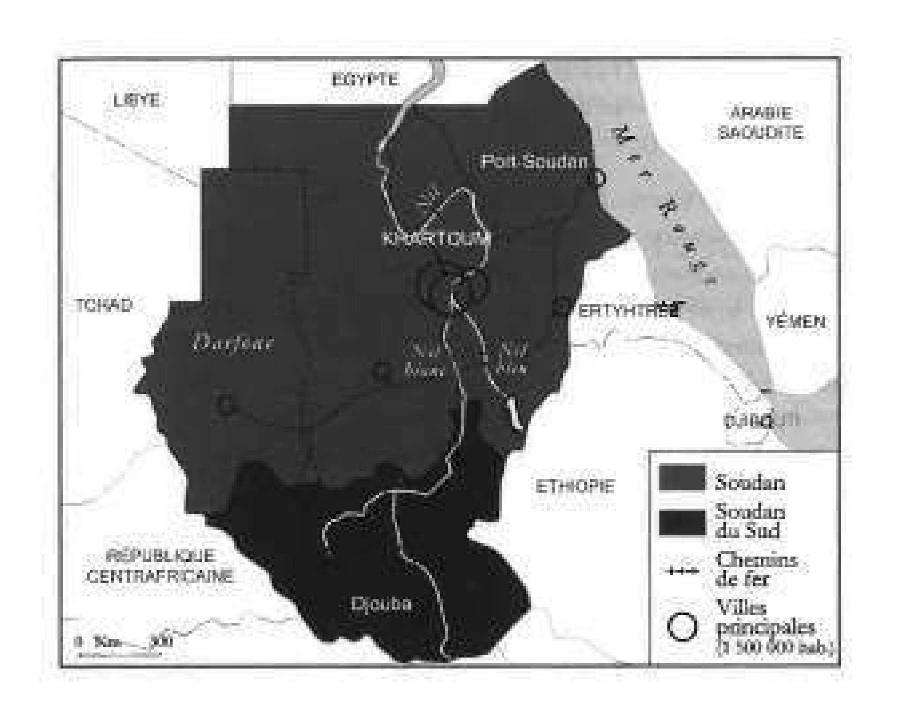
يشكّل المذهب السنّي مذهب السواد الأعظم من السكان في جمهورية السودان.

في حين يعيش في جمهورية جنوب السودان التي حصلت على استقلالها في تموز ٢٠١١، الوثنيون أو عبدة الأرواح، إلى جانب المسيحيين.

- **متوسط العمر:** ٥٥,٤ عاماً.

- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً:** نسبة ٤٢,١ **%.**

- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة:** ٦١,١ **%.**



جمهورية السودان

جمهورية جنوب السودان.

خطوط السكك الحديدية

المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠٠٠٠

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية

- **رئيس الدولة:** عمر البشير (رئيس جمهورية السودان السابق ٣٠ يونيو/حزيران ١٩٨٩-١١ أبريل/ نيسان ٢٠١٩)

- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٥٦ من المملكة المتحدة.

الاقتصاد: (المعطيات صالحة إلى حين اقتطاع جمهورية جنوب السودان)

- **إجمالي الناتج المحلي:** ٦٢,١ ميليار دولار **(٢٠٠٨)**

- **الموارد:** الزراعة **(**القطن، الصمغ العربي، السكر**)**، النفط، الثروة الحيوانية**.**

- **معدل النمو: ٥,١ % (٢٠١٠).**

- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ٢٢٠٠ دولار **(٢٠٠٨).**

- **مؤشر التنمية البشرية: ٠,٣٥٩ (**١٥٧ من حيث الترتيب**)**

- **نسبة البطالة:** ١٨,٧ **%**

- **نسبة السكان الذين تحت خط الفقر:** ٤٠ **%** عام **(٢٠٠٤)**.

*** في السابع من شباط من عام ٢٠١١، أُعلنت نتيجة الاستفتاء الذي نُظِّم في جنوب السودان، وجاء بموافقة الأغلبية الساحقة على الانفصال عن السودان. كيف تُفسَّر هذه النتيجة؟**

تُفسَّر بثلاثة عوامل: ١- المعاملة غير العادلة التي تلقاها سكان جنوب البلاد في ظل الاستعمار البريطاني، ثمّ فيما بعد في عهد الاستقلال. ٢- المناورات التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية حين اكتشافها لحقول النفط في السودان. ٣- تحوّل في نزعة جيش التحرير الشعبي السوداني الذي يمثّل حركة المتمردين في الجنوب، إذ كان «اتحادي التوجّه»، (كان يطالب بإجراء مجموعة من الإصلاحات)، فأصبح انفصالياً بعد وفاة مؤسسه، الدكتور غارانج، في ظروف غامضة.

*** سنتطرّق إلى موضوع الدكتور غارانج لاحقاً، لكن علينا أولاً معرفة الآثار التي خلّفها الاستعمار في السودان بشكل عام، كي نلم بالأمور برمتها.**

وضعت بريطانيا حجر الأساس لتجزئة البلد بتطبيق سياستها المعهودة «فرق تسد» بهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب من هذه المستَعمَرة.

*** ما سبب اهتمامها بالسودان؟**

يشتهر السودان بامتلاكه لثروات معدنية متعددة، منها الذهب. لقد شهد القرن التاسع عشر احتدام المنافسة في أوروبا، فمن أجل كسب السباق، وبسط هيمنتها على السودان، كانت الدول الاستعمارية تحتاج إلى الثروات الطبيعية، والمادّية، إلى جانب حاجتها إلى الثروات البشرية والماليّة. وقد سمح لها توسّعها الاستعماري بالحصول على هذه الموارد. فضلاً عن رغبة بريطانيا العظمى في التصدّي لمشروع محمد علي في المنطقة، إذ أراد هذا الحاكم المصري إدخال السودان ضمن حدود الدولة المصرية الحديثة، التي طالما حلم بتأسيسها. فسارعت لندن وبذلت كل ما في وسعها للحيلولة دون تنفيذ هذا المشروع، الذي كان جديراً بخلق منافسٍ جديدٍ لها في الساحة. وعليه، بادرت إلى احتلال مصر، ثم ما لبثت أن ألحقت السودان بمصر عام ١٨٩٨.

*** ما الذي يدفعك إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الاستعمار البريطاني بأنه المسؤول عن تقسيم هذا البلد؟**

قُسّم السودان إدارياً إلى دولتين: دولة في الشمال، حيث استمر استخدام اللغة العربية كلغة رسميّة، وبقي الدين الإسلامي هو الدين

الرسمي للبلاد، ودولة في الجنوب، حيث اعتُمدت اللغة الإنكليزية كلغة رسميّة، وأُجبر الأهالي على اعتناق الديانة البروتستانتية، عن طريق إرسال حملات تبشيرية.

من ناحية أخرى، قُطعت العلاقات بين دولة الشمال ودولة الجنوب حديثة العهد. بل عمد البريطانيون إلى إحضار أقليّات من الشعب اليوناني والشعب الأرمني، لإقامة منطقة عازلة بين الشمال والجنوب.

*** مع ذلك يجب أن نعترف بأن بريطانيا العظمى هي من أدخلت التحديثات في الاقتصاد السوداني...**

كان التحديث جزئياً فقط. أُنشئت خطوط السكك الحديدية، فقد ربط الخط الأول المستوطنة السودانيّة بمصر، في حين انطلق خط السكة الحديدية الثاني من الخرطوم باتجاه بورسودان على ساحل البحر الأحمر. كان هذا الخط هو المحور الأساسي لنهب السودان، فقد كانت كل الثروات السودانية تنقل من البلد باتجاه بريطانيا العظمى، وأحياناً كانت تباع في الأسواق الدوليّة. نتيجة لهذا الخيار البريطاني، تحوّلت الخرطوم إلى مدينة حيوية على الصعيد الاقتصادي، وظهرت فيها طبقة البورجوازية المتوسطة المركزية. غير أنه كان لتقسيم السودان إلى شمالي وجنوبي من قبل بريطانيا العظمى، واختيارها الخرطوم لتصبح مركزاً للنشاط الاستعماري، الأثر المدمّر في تاريخ السودان.

بالفعل، عرفت هاتان الدولتان نمواً غير متكافئ، فلقد حُدّثت البنى التحتيّة في القسم الشمالي، وازدهرت فيه التجارة، في حين بقي الجزء الجنوبي متخلفاً. لقد اكتفت الإدارة الاستعمارية بتطوير السودان ضمن حدود

مصالحها الخاصّة. إذ كانت تحتاج إلى مدينة مترامية الأطراف ومتطوّرة، بالإضافة إلى طرق محدّدة الأهداف لتسهيل حركة نقل البضائع. أما باقي الأمور فلم تُدخِلها بريطانيا ضمن نطاق إستراتيجيتها.

*** تقصد أن الدولة المستعمِرة منعت تطوير سائر القطاعات في البلد؟**

هذا صحيح. إذ إنه من الصعب لمنطقة ما أن تنمو وتتطوّر عندما يُحظّر عليها إقامة علاقات تجارية مع دول الجوار، وهذا هو الوضع القائم، وهذا بالضبط ما كانت تسعى إليه الدولة المستعمرة: عرقلة تطوّر المدن. أضف إلى ذلك، أن المناطق المتاخمة (مثل إثيوبيا وجزء من كينيا) كانت مصنّفة ضمن قائمة الدول المتخلّفة.

يدور محور اهتمام الدول المستعمِرة حول تحقيق أقصى قدر ممكن من المكاسب، لذا حرّضت على تشكيل طبقة بورجوازية الكمبرادور، الطبقة الحليفة والعميلة للشركات البريطانيّة، التي بادرت إلى تطوير العاصمة، فطُوِّر بذلك جهاز الدولة، والبنى التحتيّة المحيطة بالعاصمة، لكن حُصر هذا التطور ضمن النطاق الذي يخدم مصالح بعض النخب الاقتصادية، ليس إلّا. لذلك حافظت المناطق الأُخر التي لا تثير اهتمام الإمبريالية، على وضعها المتخلّف.

وفي وقتٍ لاحق، لعبت طبقة الكمبرادور دوراً مهمّاً في الحركة الوطنية التي طالبت بالاستقلال؛ فالاتفاقيات التجارية التي عُقدت مع المستعمر لم تعد تفي بالمطلوب، ولم تعد ترضي شهوتها إلى جمع المال، ما خلق تعارضاً بين أهدافها الخاصّة وأهداف العاصمة، فسعت إلى المطالبة بالاستقلال الذي تعدّه أكثر ملائمة لتحقيق مصالحها الاقتصادية.

*** مع ذلك، لمّا حصل البلد على استقلاله عام ١٩٥٦، عبّرت دولتا الشمال والجنوب عن رغبتهما في تحقيق الوحدة فيما بينهما...**

فعلاً، قبل الاستقلال (أي الانفصال عن دولة مصر المستعمِرة) قدمت بريطانيا العظمى نصيحة للسودان الجنوبي بالانضمام إلى أوغندا، لكنه رفض الانصياع، مسوّغاً رفضه بتمتعه بالجنسية السودانية تماماً مثل السودان الشمالي؛ فهما يشتركان في اللغة العربية، وهذا مدعاة للإبقاء على وحدة بلادهما. إنّما، يا للأسف، بقيت الأمور الإدارية وأمور القوات المسلحة تحت سيطرة الجزء الشمالي من السودان. لذلك غابت المساواة في العلاقات، وانتشرت أشكال التمييز، والغلوّ، وانخفض مستوى التمثيل السياسي للسودان الجنوبي، ما خلق حالات الإحباط المشروعة في الجنوب.

*** هل يرتبط فقر البلد بتدنّي مستوى التنمية فيه؟**

يُعدُّ السودان في حقيقة الأمر، إحدى أغنى الدول الأفريقيّة، من حيث موارده الطبيعية. فلو توافرت الرؤية الوطنية الحقيقية للمستقبل، لتحول إلى دولة كبرى متطورة. إنّما، يا للأسف، كانت الأحزاب السياسيّة، التي تشكلت فجر الاستقلال، رهينة النزعة الإقليميّة، وواقعة تحت سيطرة ممثّلي المنطقة الشمالية من البلد، وهذا هو الوضع الطبيعي للأحزاب التي تمثّل بورجوازية الكمبرادور، المستقرّة حول الخرطوم. بل وصل الأمر إلى الحزب الشيوعي (الذي أُنشئ في الأربعينيات) الذي كان يتمتّع بالقوة والتنظيم، إلى التخلّي عن جنوبي البلاد، إذ إنه لم يستطع التغلّب على النزعة القبليّة التي تفاقمت في زمن الحكم الاستعماري. ولن تلبث آثار ذلك أن تظهر في القريب العاجل...

*** نشبت أول أزمة عام ١٩٥٧، أي بعد مضيّ عام واحد على نيل الاستقلال، فكانت الحرب الأهليّة الأولى التي استمرت بين عامي ١٩٥٧ - ١٩٧٢...**

لم يحظَ السودان الجنوبي بأي شكل من أشكال التنمية، فالسودان الشمالي وحده هو من استفاد من الحركة الاقتصادية النشطة، إبان الاحتلال البريطاني، ما أدّى إلى تمركز السلطة والثروات حول العاصمة، الخرطوم. لم يكن هناك أي تواصل بين الشمال والجنوب. أراد السودان الشمالي الإبقاء على هويته الإسلامية، في حين كان السودان الجنوبي يدين بالبروتستانتية، وكان المجتمع فيه يبدو أفريقياً تقليدياً. لم يتوقف السودان الجنوبي عن المطالبة بتوزيع الثروات بشكلٍ عادل. وفي عام ١٩٧٢، أُبرمت اتفاقية سلام، حَوّلت السودان الشمالي بموجبها إلى دولة فدرالية، وضَمِنَ الرئيس النميري الحكم الذاتي للجنوب، كما ضمن له الحريّة الثقافية والحريّة الدينيّة.

مع ذلك، لم يتم ضخ إلّا القليل من رؤوس الأموال في السودان الجنوبي، سواء كان ذلك في عهد الجنرال إبراهيم عبّود **(**١٩٥٨ - ١٩٦٤**)**، أو في أثناء الحكم المدني الذي أعقبه. في حقيقة الأمر، كان الاقتصاد الإمبريالي هو المستفيد الوحيد من تراكم رؤوس الأموال بنسبة ٩٠**%**، فقد بقيت الشركات الغربية متمركزة بشكلٍ مكثّف حول الخرطوم. لذلك لم يكن استقلال البلاد سوى واجهة، والسودان لم يتجاوز كونه دولة خاضعة للاستعمار بحلّته الجديدة، في حين لا زالت النزاعات تنخر فيه من الداخل.

*** مع أن اتفاق السلام نصّ على قيام دولة فدرالية، يصار فيها إلى المشاركة في الحكومة المركزيّة على نحوٍ متساوٍ، مع توزيع عادل لثروات البلاد...**

إنّما، بقي هذا الاتفاق حبراً على ورق، واندلعت حرب أهليّة جديدة لأسباب اقتصادية، هذه المرّة. ففي نهاية السبعينيات، اكتشفت الشركة الأمريكيّة «شوفرون» حقول نفط ضخمة في السودان على طرفي الحدود الفاصلة بين الشمال والجنوب، فأراد الرئيس النميري إجراء تغيير على هذا الشريط الحدودي، لإتاحة المجال أمام السلطة المركزيّة للسيطرة على أكبر قدرٍ ممكن من الثروات، منتهكاً بذلك بنود اتفاقية السلام، ما أدّى إلى إشعال الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب عام ١٩٨٠. استمرّت هذه الحرب ما يقارب العشرين عاماً، مخلفةً نزوح العديد من الأهالي، من مواطن سكناهم، والآلاف من الضحايا المدنيين.

*** هل تحمّل الرئيس النميري مسؤولية ذلك؟**

نعم. لقد أعلن عام ١٩٨٣ تطبيق الشريعة الإسلامية (القانون المطابق للدين الإسلامي الذي ينظّم الحياة الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة في بعض الدول الإسلامية) في بلد يتعايش فيه المسيحيون والمسلمون جنباً إلى جنب! لقد عمل بفعلته هذه على دفن اتفاقيات أديس أبابا التي وضعت حداً للحرب الأهليّة الأولى.

*** هل كانت المشكلة دينية؟**

كلا. لقد استخدمت بورجوازية الكمبرادور في الشمال الشريعة كأداة للسيطرة على السوق الاقتصادي، ولاحتكاره.

*** لقد تطرّقتَ في بداية حديثك إلى موضوع الجنرال غارانج الذي يعود إليه تأسيس جيش التحرير الشعبي السوداني عام ١٩٨٣... من هو هذا الجنرال؟**

إنه جنرال يعمل في صفوف الجيش السوداني، وينحدر من أصول عرقية تشكّل الأغلبيّة الساحقة في الجنوب، ألا وهي قبيلة الدينكا. لقد أطاح جيش التحرير الشعبي السوداني بعد أن عَظُمَ شأنه، بالرئيس النميري، فحلّ مكانه حكم مدنيّ. مع ذلك، لم ينجح هذا الحكم في إيجاد حلٍّ لمشكلات السودان، ولم تتمكن التعددية الحزبية من إحداث أي تنمية في الجنوب السوداني، فبقي على تخلفه، وبقيت الأحزاب المهيمنة هي أحزاب بورجوازية الشمال.

لقد استنزفت الحرب الأهلية الثانية عام ١٩٩٣، التي دامت سنوات عدة، كل طاقات البلد. ثم تحالفت مجموعة من الأحزاب الإسلاميّة في الشمال مع الجنرال عمر البشير، الذي ما إن وصل إلى سدة الحكم، حظر باقي الأحزاب السياسية، إيماناً منه بأنه لا يوجد أي مسوّغ لقيام أحزاب تقليدية علمانية في الدولة الإسلاميّة.

*** ما الرأي الذي كان غارانج يدافع عنه؟**

رأي بسيط للغاية: إدخال إصلاحات في السودان، وتأسيس دولة فدراليّة موحّدة وعادلة، لا يسحق فيها السودان الشمالي السودان الجنوبي. يؤمن غارانج أنه بالإمكان تطبيق هذا الكلام على أرض الواقع، بإلغاء طابع المركزيّة، والتوزيع العادل للثروات الوطنيّة. عندئذٍ يمكن للسودان الجنوبي، بهذه الطريقة، أن يشهد نموه. لقد ربط الجنرال غارانج إنهاء مرحلة

الاستعمار بتأسيس سودان جديد لامركزي وعلماني، يمتثل فيه الجيش لإمرة ضبّاط أتوا من أرجاء البلد كافة. لقد نال الجنرال غارانج تأييد غالبية أفراد جيش التحرير الشعبي السوداني، وبشكل خاص، تأييد قبيلة الدينكا التي يعود في أصوله إليها.

*** أنت تتحدث عنه وكأنه مناهض للاستعمار، في حين كان يلقى دعمه من الولايات المتحدة الأمريكية.**

لقد لقيت هذه الحركة دعماً من قوات دولية عدّة على مر الزمان، بداية من الاتحاد السوفييتي في الثمانينيّات. إنّما مع تولّي عمر البشير السلطة، حظي غارانج الذي استقر به المقام في الخرطوم عام ١٩٨٩، بدعم بسيط من الولايات المتحدة الأمريكية، وبشكل خاص في عهد بوش.

*** إنه لأمرٌ عجيب!**

كانت كلمة السر القضاء على الأنظمة الإرهابيّة المزعومة، بيد أن بورجوازية الشمال كانت تحصل في الوقت عينه على دعم من الإمبرياليين. إذ لا يزال شعار «فرّق تسد» ساري المفعول!

على النقيض، وبعد اتفاقيات السلام التي أُبرمت في كينيا ٢٠٠٥، عُزل الجنرال غارانج من مركزه في جيش التحرير الشعبي السوداني، ليفقد في إثره دعم الولايات المتحدة الأمريكية، فرؤيته المستقبليّة لم تكن تلبي أذواقهم، لقد أدركوا أنه لن يكون عميلاً مطواعاً. عندئذٍ حوّل جيشه، جيش التحرير الشعبي السوداني إلى حزب سياسي لتحرير السودان، ثم ما لبث أن لقي حتفه في ظروف غامضة، عندما كان على متن طائرة هيليكوبتر.

*** ما مصلحة الدول الإمبريالية في دعم القوى الانفصاليّة في تلك المنطقة؟**

إنها مصلحة اقتصاديّة بحتة، فالسودان بلد غني بالنفط، وحكومة الشمال لم تُخفِ موقفها العدائي تجاه الدول الغربية، ثم إن ٨٠% من احتياطي النفط موجود في الجزء الجنوبي من البلاد، لذلك لا بد أنك تدرك أن انفصال الجنوب بات أمراً بدهيّاً لدى الدول الإمبريالية.

*** من هنا تولّد لدى الجنوب السوداني اهتمامه بنيل الاستقلال...**

نعم، لكن على الرغم من الانفصال الجديد، إلّا أن الجنوب بقي تابعاً للشمال، بسبب الطرق التجاريّة، وأنابيب النفط، والبنى التحتيّة. فالسودان الجنوبي يحتاج إلى السودان الشمالي من أجل الأعمال التجارية.

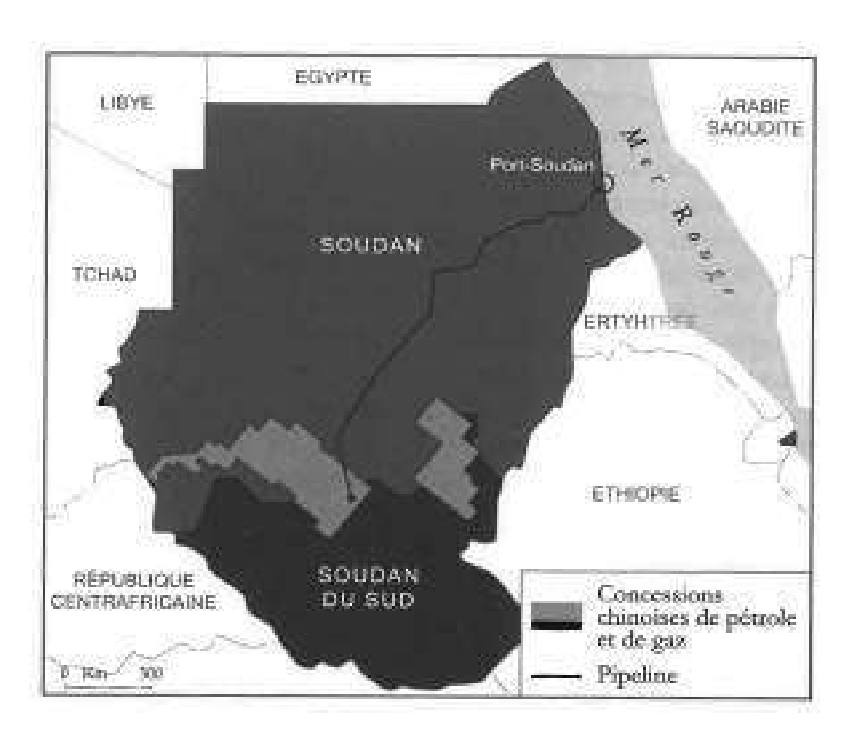
إن الحركات الانفصاليّة لا تُدخِل أي تغيير في الوضع السابق الذي سمح للإمبرياليين بتحقيق الثراء، بفضل بورجوازية الكمبرادور في الخرطوم.

*** يبدو أن السودان بلد مزعزع، وقابل للانفجار في أي وقت. لقد احتلّ عام ٢٠٠٩ العناوين الرئيسة على صفحات وسائل الإعلام الغربية، فقد وجهت إليه تهمة الإبادة الجماعية في الخرطوم... لقد شاهدنا آنذاك حشوداً من «المشاهير» الدوليين، وسمعنا تسويغات، اتصفت بالتناقض في بعض الأحيان: منهم الممثّل جورج كلوني الذي ندد بالمذبحة الأفريقيّة التي أقدم على تنفيذها آلاف العرب، في حين أكد المؤلّف برنادر هنري ليفي، على العكس، أن الموضوع عبارة عن نزاع قائم بين الإسلام المتطرّف والإسلام المعتدل. هل هي أزمة إثنية أو أزمة دينية؟**

ليست هذه ولا تلك. هؤلاء الناس لا يعرفون المنطقة بشكل جيّد. إنها حرب اقتصادية قبل أي شيء. ومن أجل أن ندرك كنهها، علينا تحليل التناقضات الاقتصادية «الداخلية» والتناقضات الاقتصادية «الخارجية».

على الصعيد الداخلي، تُعدُّ منطقة دارفور «وعاء الانصهار»، حيث تعيش قبائل رحّل مسلمة، وقبائل ناطقة باللغة العربية (كقبيلة الجنجاويد، وقبيلة تاكاواس...) إلى جانب مزارعين مقيمين. فحينما تحل بالمنطقة موجة جفافٍ شديد، تنتقل القبائل الرحّل إلى منشآت ومرافق المزارعين المقيمين، فيكون ذلك سبباً لاندلاع الاقتتال بينهم. أما الفكرة التي تقول إن العرب يذبحون الأفارقة، فهي مبنيّة على الملاحظة المغلوطة التي مفادها أن قبيلة الجنجاويد تطالب بأصولها العربية الافتراضية، لكنها في الحقيقة، لا تملك عوامل مشتركة مع العرب.

هناك عاملٌ آخر لهذه الأزمة لم نتطرق إليه كثيراً، ألا وهو مصالح البورجوازية الوطنية. فمع اكتشاف حقول النفط، ومع تطوّر الشبكة الإعلاميّة، الكل بات يطالب بنصيبه من الكعكة. فعلى غرار النخبة السياسيّة الموجودة في السودان الجنوبي، طالبت النخبة السياسيّة الموجودة في إقليم دارفور بتقاسم الثروات في ردٍّ منها على الحكومة المركزية التي تحتكر السلطة والموارد.



الصين والنفط السوداني

امتيازات صينية للنفط والغاز

خط أنابيب النفط والغاز

*** وماذا بشأن العامل الاقتصادي «الخارجي» لأزمة إقليم دارفور؟**

لقد وُسّعت التناقضات المحليّة وسُيّست بسبب الالتزام الذي تبديه الصين تجاه السودان، وهذا شأن خاص بدارفور.

*** الصين؟ هذا جانب من النزاع الذي لم يسبق لوسائل الإعلام أن تطرقت إليه قبل الآن!**

لأنهم لا يثيرون موضوع الأهداف الاقتصادية الحقيقيّة في مثل هذا النوع من النزاع. لقد اضطرت الشركة الأمريكيّة «شوفرون» إلى مغادرة

السودان، بعد تنقيبها عن النفط، واكتشافها لحقول مهمّة فيه. تعود أولى هذه الأسباب إلى حالة عدم الاستقرار التي سادت البلاد مجدداً، إبان الحرب الأهليّة الثانية. أما السبب الثاني، فيعود إلى الموقف العدائي الصريح لرئيس النظام الإسلامي الجديد، عمر البشير، تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بخلاف مواقف الأنظمة السابقة. وهكذا، ضاعت مصالح الولايات المتحدة الأمريكية بفقدانها للنفط السوداني.

ثم، جاءت الصين إلى السودان وهي تحمل الرسالة التالية: «سوف أبتاع منك المواد الأوليّة وفقاً للأسعار النافذة في الأسواق العالميّة». لقد عاد هذا الموقف بالفائدة على كلا الطرفين. فمن جهة، أصبح بمقدور الصين الحصول على الموارد التي تحتاجها لتطوير اقتصادها، ومن جهة أخرى، لم تعد السودان في حاجة للجوء إلى الاقتراض من المؤسسات الدوليّة. كان هذا الاتفاق بمنزلة صفقة رابحة للطرفين. غير أن هذه المشاركة الصينية في أفريقيا كانت الأولى في نوعها في التاريخ، ما أثار مخاوف الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية، على حدّ سواء، إلى درجة أن لجؤوا إلى إقصاء دولة السودان من صندوق النقد الدولي، ومن مجموعة البلدان الأفريقيّة والكاريبية ودول المحيط الهادئ. كما فُرض حظر اقتصادي حقيقي على السودان.

إلّا أن السودان كان بلداً غنياً بالموارد، وأتاحت له الاتفاقيات التي أبرمها مع الصين أن يشهد بعض التطور، على الرغم من العقوبات التي فُرضت عليه.

*** هل تعتقد أن دعم الصين هو العامل الجوهري الذي قلب موازين العلاقات الدوليّة؟**

قطعاً. لمّا شهد العالم عام ١٩٩٠، انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكيّة السوفييتية، وانهيار المعسكر الشرقي، ساد الاعتقاد لدى الإمبريالية الغربية أنهم قادرون على بسط هيمنتهم على العالم بأكمله. إلّا أن الصين ماضية في طريق تعزيز اقتصادها، واليوم أصبحت تحتاج إلى كل شيء، بدءاً من الموز، وصولاً إلى الفول السوداني، ومروراً بالنفط والمعادن المختلفة.

لقد أتى هذا العملاق الجديد للقاء الدول الغنيّة بالموارد، معرباً عن رغبته في شراء المواد الأوليّة، بالأسعار المناسبة. وبطبيعة الحال، التفتت كل الدول التي تزخر بثروات وفيرة نحو الصين. إن أي رجل أعمال يرغب في تحقيق أقصى قدر من الأرباح، سيتصرّف بشكل مماثل!

الصين- أفريقيا
تجارة مربحة للطرفين

إنه زواج المصلحة. يبلغ تعداد السكان في الصين ٢٠ % من تعداد سكان العالم، لكنها لا تمتلك سوى ٢ % من احتياطي النفط، و٣ % من الغابات، و٥ % من النحاس، و٧ % من الماء، و١٠ % من الأراضي الصالحة للزراعة. من جهتها، تحتّل أفريقيا المرتبة الأولى عالمياً من حيث امتلاكها للمواد الأوليّة، لكنها تعاني من الفقر، لأنها لم تجد شركاء جديرين بالثقة، سواء في أوروبا، أم في الولايات المتحدة الأمريكية.

شهدت أفريقيا ولقرون طويلة، عمليات نهب للمواد الأوليّة التي تمتلكها، بلا قيد أو شرط، ومن دون أي مقابل. أما اليوم، فيتم التبادل التجاري مع الشمال ضمن كل الشروط المتاحة باستثناء العدل. إذ إن الشركات متعددة الجنسيات تفرض شروطها، وتفرض الأجور، وتفرض الأسعار، وتختلس عملياً كل الأرباح...

لا للتدخل

... وحينما يقف أحد الحكام الأفارقة في وجه أعمال النهب هذه، فإنه سرعان ما يتحوّل إلى هدف مباشر. عاشت أفريقيا في الفترة بين عامي ١٩٦٠-١٩٩٠، ٧٩ انقلاباً، وفقدت ٨٢ زعيماً، قضوا ضحية اغتيالات.

عمدت أوروبا إلى إثارة الصراعات والنزاعات بين المكونات العرقية في كل مكان، وأشعلت الحروب الأهليّة، وفي بعض الأحيان، كانت تتدخّل عسكرياً بشكل مباشر. فكانت المحصّلة عشرات الملايين من الضحايا. أما فرنسا، فقد شنّت من جهتها، في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٠-٢٠٠٥، ٤٦ عملية عسكرية في مستعمراتها القديمة. لقد أنشأت باريس ست قواعد عسكريّة في أفريقيا، في حين أنشأت واشنطن عشر قواعد على أقل تقدير.

في المقابل، امتنعت الصين عن أي نوع من التدخل في أفريقيا، سواء كان ذلك على الصعيد السياسي أم العسكري؛ فهي تحرص على تطبيق «المبادئ الخمسة للتعايش السلمي»: الاحترام المتبادل للسيادة ولوحدة الأراضي، عدم الاعتداء المتبادل، عدم التدخّل المتبادل في الشؤون الداخليّة، المساواة والمنفعة المتبادلة، والتعايش السلمي.

كشفت صحيفة الفاينِنشل تايمز الحجاب عن برقيات الدبلوماسيين الأمريكيين الذين يعملون في نيجيريا، جاء فيها: «هذه بعض الأعمال التي لم تقدِم الصين على فعلها، (ملحوظة: في حين أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على فعلها) وتتضمّن استبدال النظام الديمقراطي القائم بالنظام الدكتاتوري الذي سرعان ما يتحوّل إلى نظام فاسد ودموي؛ تقديم الدعم بالسلاح والمال لرئيسٍ اشتهر بأكل اللحوم البشرية؛ أو دفع نصف مليون دولار من أجل صياغة خطابات لزعيم شبه أميّ نفّذ انقلاباً عسكرياً».

تغييرات جذرية في التبادل التجاري

ارتفعت استثمارات الصين المباشرة في أفريقيا من٤٩١ مليون دولار عام ٢٠٠٣، إلى ٧,٨ مليار دولار عام ٢٠٠٨؛ وسجلت المبادلات التجارية

بين أفريقيا والصين، بين عامي ٢٠٠٠ - ٢٠٠٨، زيادة بلغت ثمانية أضعاف ما كانت عليه في السابق، بذلك أصبحت الصين الشريك التجاري الثاني لأفريقيا. في حين شهدت التجارة مع باقي الدول الغربية العظمى حالة ركود، بل وتراجع.

ومن أجل تحفيز هذه المبادلات التجارية، اعتمدت الصين سياسة الإعفاء الضريبي على أربعمئة منتج أفريقي. على النقيض، أحجمت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية عن فتح أسواقها، وبشكل خاص في مجال القطاع الزراعي، إذ تمتلك أفريقيا مزية تنافسية.

المقايضة لمكافحة الفساد

تنتهج الدول الغربية سياسة الشراء المباشر مع منح عمولات للنخبة السياسيّة بشكل ممنهج، أي إنها تتّبع سياسة الفساد التي تتيح الفرصة أمام هذه النخبة لتحقيق المكاسب، وتعمل في الوقت عينه، على إفقار الشعوب. في حين تطبّق الصين نظام تبادل المواد الأولية مقابل أعمالٍ تقدمها في مجال البنى التحتية، لمكافحة الفساد، وتهيئة نمو حقيقي في البلد الشريك.

كما تعمل الصين على إقراض مبالغ ماليّة ضخمة من أجل المباشرة الفورية بأعمال البناء، أما سداد هذه الديون فإنه يؤجّل إلى حين الانتهاء من هذه الأعمال، وتقدّر قيمة الديون بما يعادلها من البضائع. أما أهم القطاعات المستفيدة من هذا التعامل فكان في مجال الطاقة ٣٣ % (وبشكل رئيس بناء المحطات لتوليد الطاقة الكهرمائية)، والنقل ٣٣% (وبشكل خاص السكك الحديدية، وأحياناً الطرق السريعة)، وتقنيات الاتصالات ١٧%، والبنى التحتية العامة ١٤%.

مشاريع تعود بالنفع على الشعوب:

تمّت مواكبة التجارة بدعمٍ حقيقي. ففي عام ٢٠٠٦، بُدئ العمل ببرنامج تدريبي لخمسة عشر ألف مواطن أفريقي، مختصّين في علم الزراعة، وأُرسل مئة خبير صيني في علم الزراعة إلى أفريقيا، وشُرع ببناء عشرة مراكز تقنيّة مختصّة في مجال الزراعة، وشُيد ثلاثون مستشفى، كما قُضي نهائياً على مرض الملاريا، وأُرسل ثلاثون متطوعاً من الشبان الصينيين، وبُنيت مئات المدارس في الأرياف...

أطلقت الصين عام ٢٠٠٧ بالتعاون مع البرازيل، قمراً اصطناعياً (ساتل)، يزوّد الحكومات الأفريقيّة، عبر الصور التي يرسلها، بمعلومات عن الكوارث الطبيعية، وإزالة الأحراج، والتصحّر، والجفاف، وغير ذلك مما يهدد الزراعة وغذاء الشعوب.

وفي الكونغو، بادرت المؤسسة الصينية العامّة الصينية للاتصالات إلى «تركيب كبل الألياف الضوئية، انطلاقاً من جنوب أفريقيا، مروراً بمواندا (في الغابون) على المحيط الأطلسي، وصولاً إلى كنشاسا (عاصمة الكونغو الديمقراطيّة)، حيث يغوص في مياه النهر ليبلغ كيسانغاني (مدينة في الكونغو)، قبل التقائه في شرقي البلد بكبل آخر، قادم من المحيط الهندي - أي بطول يبلغ خمسة الآف وستمئة وخمسين كم.

«يقدّم عقد العمل هذا فرصة عمل لألفين وخمسمئة عامل في جمهورية الكونغو، ويشرف على عملهم ثمانون مراقباً، استُقدموا من الصين؛ وفي وقت لاحق، سيستبدل الثمانون صينياً بعشرين مهندساً من الكونغو،

أُرسلوا إلى الصين لتلقي التدريب، من أجل تسلّم مسؤولية المراقبة في المرحلة الثانية من الأعمال».

حتى إن البنك الدولي من جهته، قرر أن ٧% فقط من استثمارات الشمال، ستُدعم بمشاريع، تسهم في التطوير، في حين: «يموِّل القسم الأكبر من الاستثمارات الصينية المشاريع التي تلبّي الحاجات العامة لتطوير هذه البلاد».

هل ثمّة إمبرياليّة صينية في أفريقيا؟

إلى جانب المشاريع التعاونيّة التي أطلقتها الدولة الصينيّة (راجع الصفحات السابقة)، لوحظ وجود بعض التجاوزات في استثمارات الشركات الصينيّة الخاصّة. ففي زامبيا، في سبيل المثال، أدّى المستوى المتدني للأجور، وظروف العمل الصعبة، إلى إثارة نزاع عمالي طويل الأمد. تلك الحالات التي غالباً ما نجدها في الصين، ضمن نطاق الرأسماليّة. كما قال بعضهم أيضاً إن اليد العاملة المحليّة تشكل النسبة الأضعف في هذه المشاريع. كل هذا كان صحيحاً في المرحلة الأولى (بسبب مشكلات اللغة، والحواجز الثقافيّة)، أما اليوم، فقد زالت كل تلك التجاوزات.

أدّى تعزيز التبادل التجاري بين الصين وأفريقيا، إلى خلق نقدٍ لاذع في الغرب، منها أن الصينيين يتصرّفون «على غرار الإمبرياليين» في أفريقيا. كما تحدّثت الصحف الماليّة عن توسّع صيني «عدواني».

وكما هي العادة في كل مرة، ينبغي البحث عن مصدر هذه الانتقادات، كما ينبغي معرفة الأسباب التي دعت إليها. لقد وصفت الإعلاميّة البلجيكية، كوليت بريكمان، التي كانت في أوج خلافها مع رئيس الكونغو،

جوزيف كابيلا، الطريقة التي ألقى بها الوزير البلجيكي للشؤون الخارجية، كاريل دوغوتش، كلماته الاستفزازية بحضور العديد من المراسلين: «لن يصل بنا الأمر إلى التخلّي عن الكونغو «خاصتنا» والتنازل عنها إلى هؤلاء الصينيين الأغبياء!»

أفريقيا «خاصتنا»

في حقيقة الأمر، عدَّ الحكّام الغربيون، منذ الأزل، أن ملكية أفريقيا تعود إليهم وحدهم، وحينما يظهر في الساحة شريك بديل، فإنهم يرون أنه سيسلبهم «خاصتهم». لذلك نقول إن هذا النقد حول «الإمبريالية الصينية» صادرٌ عن إنسان فاشل وسيئ النيّة. على كلٍّ، لقد شهد الحكام الأفارقة بأن الفائدة التي تعود عليهم من جراء شراكتهم مع الصين، تفوق بكثير تلك التي يجنونها من الولايات المتحدة الأمريكية، مع كونهم حلفاءهم التقليديين.

لقد وجّه رؤساء كل من بوتسوانا ورواندا والسنغال وليبيريا خطاباً مفتوحاً إلى هيلاري كلينتون، جاء فيه : «إن أفريقيا لا تبحث عمن يقدّم لها الحماية، بل تبحث عن متعاونين، يعملون معها، لا من أجلها (...). إذ إن الجهود التي تبذلها الحكومات الأفريقية لدعم الديمقراطية والإدارة، تفقد فاعليتها عندما ينتهي المطاف بالأموال التي تُنهب من القارة في الحسابات السريّة في الغرب. إنه لأمرٌ مخيف أن يتبيّن لنا أن الدول العظمى الأعضاء في منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي لم يبادروا إلى مقاضاة أي من أولئك المتهمين بأعمال الاحتيال والممارسات الموصومة بالفساد في الخارج».

إن سلوك الصين تجاه أفريقيا يختلف جذرياً عن سلوك الدول الغربية. إذ لا تتّسم الإمبريالية فقط بتصدير رؤوس أموال ضخمة للاستثمار، بل يتعدى ذلك إلى السعي إلى بسط هيمنتها على بلدٍ ما، واحتكار ثرواته، سواء تمّ ذلك عن طريق الابتزاز الاقتصادي، أم ممارسة الضغوط السياسية أو التدخّلات العسكرية.

فالغرب، بالنتيجة، هو ذلك اللص الذي يصرخ: «اقبضوا على اللص!»

إعلان حرب غير مباشرة على الصين

عقد مؤتمر القمّة في بكين في الرابع من شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٦، وضمّ الصين وأفريقيا، بمشاركة رؤساء من خمس وأربعين دولة، وُضعت في أثنائه أسس لتوسيع التبادل التجاري. بعد مضيّ ستة أشهر، أنشأت إدارة بوش قيادة عسكرية أمريكية جديدة، وكلّفتها بالتصدّي للمنافسين، والإبقاء على الاحتكار الأمريكي لثروات القارة السمراء. كما أُدرج كل من السودان وغينيا والكونغو والنيجر وساحل العاج، وغيرها... ضمن قائمة الدول المستهدفة. وفي هذا الإطار، أُعدّ لغزو ليبيا عام ٢٠١١.

ولم تكن فرنسا لتتخلّف عن لحاقها بالركب. ففي نهاية ٢٠٠٧، قدّمت الحكومة النيجيريّة امتيازات للصين، ولا سيّما باليورانيوم، منتهكة بذلك بنود احتكار اليورانيوم لمصلحة شركة آريفا الفرنسية، الذي فرضته على النيجر منذ أربعين عاماً. في بداية عام ٢٠١٠ وقع انقلاب في نيجيريا. واعترفت صحيفة الفايننشل تايمز في حينها أن ثمّة ارتباطاً وثيقاً بين الحدثين: «أصبح مامادو تنجا الحاكم الأفريقي الأول الذي ارتبط سقوطه بشكل مباشر بمحاولته التقريب بين بلده ودولة الصين.»

*** هل في إقامة علاقات طيبة مع الصين دعمٌ لنمو أفريقيا؟**

نعم، شريطة أن يترافق ذلك مع رؤية سياسيّة حقيقيّة، تُؤخذ عبرها ثروات البلاد في الحسبان، من أجل بناء البلد.

*** إلّا أن أفريقيا كانت حكراً على دول الغرب. هذا تغييرٌ تاريخي.**

وهذا هو جوهر المشكلة! لقد اتخذ الغرب موقفاً مبهماً من هذه المسألة. فمن جهة، يحقق مكاسب ضخمة من شراكته الاقتصادية مع الصين؛ ومن جهة أخرى، يرفض أن يكون لأفريقيا أي تعامل مع هذا العملاق الآسيوي. في الواقع، ترغب الدول الغربية العظمى في الإبقاء على هيمنتها على القارة الأفريقيّة الغنية بالموارد، فجاء موقف الغرب إزاء هذه المعضلة مخجلاً للغاية، فبدلاً من مواجهة الصين بشكل علني وصريح، لجأ إلى ممارسة الضغوطات على الحكومات الأفريقيّة التي فشل في فرض سيطرته عليها، وإلى استغلال الأزمات الإنسانيّة من أجل مصالحه الخاصة.

*** ما السبل التي يحاول بسببها الغرب منع السودان من إقامة علاقات تجارية مع الصين؟**

عن طريق زعزعة الاستقرار داخل النظام الحاكم، وتقسيم البلد إلى دويلات. فقد عمدت واشنطن في أثناء الحرب الأهليّة الثانية إلى تمويل حركة المتمردين في الجنوب، وهي الحركة السياسية لجيش التحرير الشعبي السوداني. لقد دام النزاع بين حركة المتمردين التي كانت تحصل على المال والسلاح، والحكومة التي عملت من جهتها على تحديث قواتها المسلحة بفضل الإيرادات النفطيّة، دام لأكثر من عشرين عاماً، ولم ينته إلّا في

٢٠٠٥. إنّما ما إن وضعت الحرب الأهلية الثانية أوزارها، اشتعلت أزمة دارفور.

*** إلّا أنك أشرتَ في أثناء حديثك إلى المواجهات الدموية التي اندلعت بين القبائل الرحّل والمزارعين المقيمين، وكذلك الأمر بين البورجوازية الإقليمية والسلطة المركزية...**

أجل، وصحيح أيضاً أن الحكومة السودانيّة لجأت إلى اتخاذ مواقف عسكرية تجاه هذه المعضلة، بدلاً من اللجوء إلى طريق الحوار. إلّا أن القوى الإمبرياليّة عمدت إلى تضخيم الحدث، من أجل حشد الرأي العام الدولي، وزعزعة استقرار النظام السوداني. يجب أن ندرك تماماً أنه في حال أوقفت الخرطوم تعاملها التجاري مع دولة الصين بدءاً من يوم غدٍ، فإن قضية دارفور ستطوى في ذاكرة النسيان.

*** هل تحاول أن تقول إن الدول العظمى الغربية تفضّل تفادي أي مواجهة مباشرة مع دولة الصين، وأنها بتلك المواجهة غير المباشرة، ترمي إلى استمرار بسط سيطرتها على موارد القارّة الأفريقيّة؟**

تماماً. لقد عمل المستعمر منذ بداية القرن التاسع عشر، ولا يزال يعمل حتى يومنا هذا، على عرقلة نمو أفريقيا وتطورها، من أجل الاستمرار في عملية ضبط مواردها. أمس كانت المنطقة الممتدّة بين السودان والسنغال تمتلك أصولاً ثقافية مشتركة، وتنعم بثروات عدّة. كان من الممكن أن تنعم كذلك بالوحدة والتطور، لولا أن رسمت القوى الاستعمارية فيها خطوطاً مصطنعة، أطلقت عليها اسم الحدود.

*** مصطنعة؟**

لقد رسمت هذه الحدود وفقاً لموازين القوى بين الدول المستعمِرة، دون مراعاة للحقائق على أرض الواقع، ناهيك عن تطلعات الشعب الأفريقي.

*** وكيف هو الوضع اليوم؟**

ما الذي يمنع القارة الأفريقيّة من إقامة علاقات تجارية مع دولة الصين، في حين تقيمها دول الغرب؟ لماذا يُحرم أطفال أفريقيا من الحصول على الأحذية الجيدة والملائمة، والموائد الغنية بالطعام، والمدارس ذات الكفاءة العالية؟ تحرص القوى الاستعماريّة الحديثة على إبقاء أغنى قارة في العالم في وضع متخلّف، انطلاقاً من مصالحها الذاتيّة.

*** إنك بذلك توجه الاتهام إلى الدول الغربية العظمى. إنّما لا ننسى، مع ذلك، أن المحكمة الجنائية الدوليّة أصدرت مذكرة بإلقاء القبض على الرئيس عمر البشير! لماذا تصرّ كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا على محاكمة الرئيس السوداني، في حين تعترض كل من الصين والدول العربية على ذلك؟**

إن المحكمة التي لا تعير اهتمامها إلّا لما تريد ليست بمحكمة. دعني أقدم لك بعض الأمثلة...

١- إن الشعب الصومالي هو شعب مزقته الحروب المتكررة التي عاشها. إنّما مع بداية ٢٠٠٦، وبعد الانتفاضة التي قام بها هذا الشعب بقيادة المجلس الإسلامي، نجح المتمردون في التغلّب على أباطرة الحرب بطريقة سلميّة، وأشاعوا السلام في جزء كبير

من البلاد. ودارت عجلة التجارة، وعاد الفلاحون إلى مزارعهم، وشهدت الاتصالات تطوراً داخل المجتمع. لقد عاد الأمل من جديد! لكن ما إن انقضت ستة أشهر، بادر النظام العميل في إثيوبيا، الذي يعمل تحت إمرة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وحزب المحافظين الجدد في أمريكا، إلى غزو الصومال. نتج عن هذا الغزو نزوح أكثر من مليوني لاجئ صومالي، ومقتل ستين ألف إنسان، لقي بعضهم حتفه غرقاً في مياه المحيط الهندي في أثناء محاولتهم العبور إلى اليمن. بل وصل الأمر بإثيوبيا إلى استخدام قنابل النابالم ضد المدنيين في موغاديشو، وتدمير جزء كبير من المدينة!

قل لي لماذا أحجمت كل وسائل الإعلام عن إبلاغ الرأي العام بهذه المأساة؟ لماذا لم تبادر المحكمة الجنائية الدولية إلى اتخاذ أي موقف من مرتكبي هذه المأساة؟

٢- دمّرت أوغندا الكونغو، ونهبت ذهبها، فأعطت المحكمة أمراً باعتقال جان بيير بيمبا، تلك السمكة الصغيرة، تسويغاً لشرعيتها. في حين بقي الفاعل الحقيقي لهذا المخطط الكارثي، أي الحكومة الأوغندية، حراً طليقاً، ولا تزال قواته اليوم تقتل المدنيين الأبرياء في الصومال. لماذا لا أحد يلاحق هؤلاء؟

٣- عام ١٩٩٨، شنّت إثيوبيا حرباً على إريتريا، واستولت على ممتلكات الإثيوبيين الذين هم من أصلٍ إريتري، بأسلوب نازي، وأرسلت آلاف الإريتريين إلى معسكرات الاعتقال، حيث قضى

كثير منهم بسبب مرض الملاريا وأمراض أخرى. أين المحكمة التي تأخذ على أيدي هؤلاء المجرمين وتقاضيهم؟

٤ - أُجهز على مليون عراقي، وهُجّر أربعة ملايين آخرون. كما دُمّرت دولة حديثة على نحو غير شرعي، وغير قانوني. لماذا امتنعت المحكمة عن مقاضاة شيني، ورامسفيلد وبوش؟

هل لا زلنا نؤمن بنزاهة هذه العدالة مع هذه الأمثلة التي غُضّ فيها الطرف عن جرائم الأقوياء وعملائهم؟

*** في المقابل، هناك أيضاً جرائم ارتكبت في دارفور. حتى لو لم تكن المحكمة الجنائية الدولية نزيهة، ألا يجب محاكمة عمر البشير؟**

أنا لا أناقش أن ثمة أناساً يقتلون في دارفور. إنّما أن تصدر كلمة «إبادة جماعيّة» عن محكمة إمبرياليّة غير حيادية لهو أمرٌ مبالغ فيه. لقد أجمعت كل الأحزاب السياسيّة السودانيّة أن مذكرة التوقيف هذه تتعارض وسيادة الدولة، إذ يجب حصر موضوع محاكمة عمر البشير بالأفريقيين أنفسهم، فالمحكمة الجنائيّة الدوليّة موجودة فقط لممارسة الضغط على الرئيس، لحمله على قطع علاقاته التجاريّة مع دولة الصين، والاستعاضة عنها بدول الغرب. على الأرجح، هذا لن يتم مع السودان، لكنه يُعدُّ إنذاراً لباقي الدول التي تسوّل لها نفسها أن تحذو حذوه.

*** شكّل الحشد بشأن دارفور موضوعاً مهمّاً للولايات المتحدة الأمريكية. لقد تورط كثير من المنظمات اليهودية في هذه الحملة. ما السبب؟**

يحتلّ السودان موقعاً استراتيجياً في النزاع الذي كان قائماً، ولفترة طويلة، بين الإسرائيل وجمهورية مصر العربية. بالفعل، يجري نهر النيل في

الأراضي السودانيّة قبل أن يصل إلى دولة مصر. لقد حافظت تل أبيب والقاهرة على علاقات ممتازة حتى عهدٍ قريب، ما لبثت أن شهدت تدهوراً ملحوظاً منذ رحيل مبارك عن سدة الحكم، إذ إن الشعب المصري يؤيّد القضية الفلسطينيّة.

*** هل كان هذا مفاجئاً لتل أبيب؟**

ليس تماماً. كانت إسرائيل تتوقع حدوث ذلك؛ فضمن خطتها طويلة الأمد، كانت تل أبيب على علم بأن حكم الخونة لن يطول أمره في مصر، كما كانت على علم بالأهميّة الاستراتيجية للسودان، ففي حال استطاعت السيطرة على مياه النيل، فإنها ستتمكّن من السيطرة على مصر.

دعمت إسرائيل حركة المتمردين الانفصاليين في السودان الجنوبي، أنيانيا، إبان الحرب الأهليّة السودانيّة الأولى، من منظور إضعاف الرئيس المصري عبد الناصر. واليوم أيضاً، وبعد أن وقعت حركتا دارفور اتفاق السلام مع الخرطوم، لا تزال إسرائيل تقدّم دعمها للجماعة الأخيرة التي تواصل الكفاح.

من أجل هذا، صرّح القذافي أن أزمة دارفور لم تعد مشكلة سودانيّة، بل مشكلة إسرائيليّة.

يجب أن تعلم أيضاً أن المنظمات الصهيونيّة المتورطة في الحملة من أجل دارفور، في الولايات المتحدة الأمريكيّة، حاولت بادئ الأمر، إنشاء جبهة مشتركة مع منظمات أفريقيّة- أمريكيّة، ومن هذه المنظمات «أمة الإسلام». لقد ذهب زعيمها لويس فاراخان إلى السودان، ودرس الوضع على أرض الواقع، وكان له حديث مطوّل مع الحكومة السودانيّة، ومع

الرئيس عمر البشير. وفي النهاية، أصدرت المنظمة قرارها: هذا النزاع لا يمت بأي صلة للأفارقة ولا للعرب. وعليه، شهد مشروع التحالف، الذي كانت المنظمات اليهوديّة تصبو إليه، انهياره.

*** هل ثمّة حل؟ بما أن طبقة الفلاحين السودانيين غالباً ما تواجه مشكلات كبيرة نتيجة الجفاف، ألا تستطيع الحكومة تسخير إيرادات النفط لإنشاء منظومات ريّ؟ لماذا يعاني هذا البلد من نسبة فقر كبيرة في الوقت الذي يقارنه بعضهم بالمملكة العربية السعودية من حيث موارده النفطيّة؟**

صحيح أن الحكومة السودانيّة كانت تستطيع استخدام الإيرادات النفطيّة بطريقة فعّالة. غير أنه لا يوجد حلّ تقدميّ يمكن أن يغطي متطلبات البلد، وهذا أمرٌ واقع. من جهتها، تعيش البورجوازيّة الإقليمية حالة فساد ظاهر. فبعد التوقيع على اتفاقيّة نيفاشا التي وضعت حداً للحرب الأهليّة الثانية، حصلت السلطة في السودان الجنوبي على ستة مليارات دولار، في إطار التوزيع العادل للثروات. إنّما، لم تبادر الحكومة إلى تشييد ولو مدرسة واحدة مع كل هذه الأموال التي في حوزتها! السودان في أمس الحاجة إلى تلقي جواب عن كل ذلك، ونحن لسنا بصدد تزويده بهذا الجواب، فالشعب السوداني هو وحده من يملك الكلمة الفصل ويستطيع التوصّل إلى النتيجة المرجوة.

*** هل تصنَّف الدولة الجديدة التي في الجنوب بأنها دولة مستقلة، وذات سيادة؟**

حسب قناعتي الشخصيّة، الدولة ماضية في طريق الصراع. فعلى الرغم من نيله الاستقلال، فإن السودان الجنوبي سيبقى دوماً محتاجاً إلى

السودان الشمالي، حتى لو اقتصر الأمر على الغذاء، وهذا هو تحليل حكومة الخرطوم - التي تُعدُّ شيطانية بعض الشيء- وسيبقى خاضعاً للشمال. لذلك، أعتقد أن هذا الاستقلال الذي حققه، لن يؤدي إلّا إلى تفاقم الصراع.

*** وما الموقف الذي ستتخذه الولايات المتحدة الأمريكية؟**

نظراً للأزمة والثورات التي تعيشها الدول العربية اليوم، فإن الولايات المتحدة الأمريكية ستواجه كماً من المفاجآت. أما مشروعهم القاضي بتقسيم السودان، فإنه أصبح من الماضي، وسيحتاجون إلى إعداد سياسة جديدة.

*** إنّما تُعدُّ إسرائيل متورطة في الموضوع، ولها إستراتيجيتها الخاصّة...**

لا يمكنهم تصوّر وجود دولة عظيمة أمامهم، كما أن إسرائيل لا تملك الموارد البشرية، ولا حتى رأس المال الكافي لبسط سيطرتها على السودان. وفي حال انقلب السودان ضد إسرائيل، فإن هذه الأخيرة ستقع في حرج كبير. إنّما العلاقات بين الشعبين المصري والسوداني تتميّز بقوتها، وإذا ما قامت ثورة في مصر، فإن عواقبها ستكون خطرة على إسرائيل.

*** كيف السبيل إلى الخروج من هذه الأزمة السودانيّة؟**

يُعدّ السودان من البلدان الغنية جداً بمواردها التي حباها الله بها على الإطلاق. إنّما لسوء حظ هذا البلد، لم تتشكّل أي حركة قادرة على توحيد الشعب، لتأسيس دولة ديمقراطيّة، موحدة وعادلة، دولة خالية من أي نزعة غلوّ أو تمييز، دولة تسخّر كل طاقاتها ومواردها لبناء مستقبل لشعبها، راسخ الأسس ومتينها.

إن الأحزاب الحاليّة، التي منها النظام العسكري، تنادي بكل أشكال الشعارات: الاشتراكية السودانيّة، عربية أو إسلامية، التأميم أو إلغاء التأميم... لكنها تبقى عاجزة تماماً عن نقل البلد ووضعه على طريق الديمقراطية الحديثة والتقدميّة. لقد آثرت البورجوازية التي تحكم البلاد تقديم مصالحها الخاصّة على حساب مصالح الأمّة. إلّا أن الأزمة الاقتصادية، وانهيار أسعار المواد الأوليّة لن يعودا أبداً بالنفع المادي على البلاد كما في السابق. إذ لا تزال أعداد الفقراء تتزايد يوماً بعد يوم.

تلك هي الشروط التي تسمح بانبثاق ما يحتاجه السودان اليوم أكثر من أي وقت مضى: حركة مقاومة تقدميّة وديمقراطيّة.

*** كيف سينعكس أثر الثورات العربية على حكومة السودان؟ لقد اعتُقلت أعداد من المفكرين والنشطاء. يا تُرى، هل سنشهد ثورات أو حركة تقدمية منظّمة؟**

يشترط لنجاح ثورة ما أن ينتفض الشعب بأطيافه كافة. لا ندري على وجه التحديد ما قد يحصل في السودان، إنه بلد مترامي الأطراف. إنّما، حينما تخلّ الحكومة بواجباتها فعليها أن تدفع الثمن...

قائمة المراجع:

- Ismail S.H. Ziada, *Oil in Sudan. Facts and impact on Sudanese Domestic and International Relations*, Universidad Autonoma de Madrid.
- Keith Harmon Snow, "Oil in Darfur"? Special Ops in Somalia?, in *Global Research*, Février 2007 (en ligne).
- Fatima Babiker Mahmoud, The Sudanese Bourgeoisie: Vanguard of Development? Zed Books, 1984.
- Mekki Abbas, The Sudan Question, Praeger, 1952.
- Katsuyoshi Fukui, John Marakis, Erhnicity & Conflit in the Horn of Africa, Othio University Press, 1994.
- Michael Asher, Khartoum: The Ultimate Imperial Adventure, Penguin, 2006.

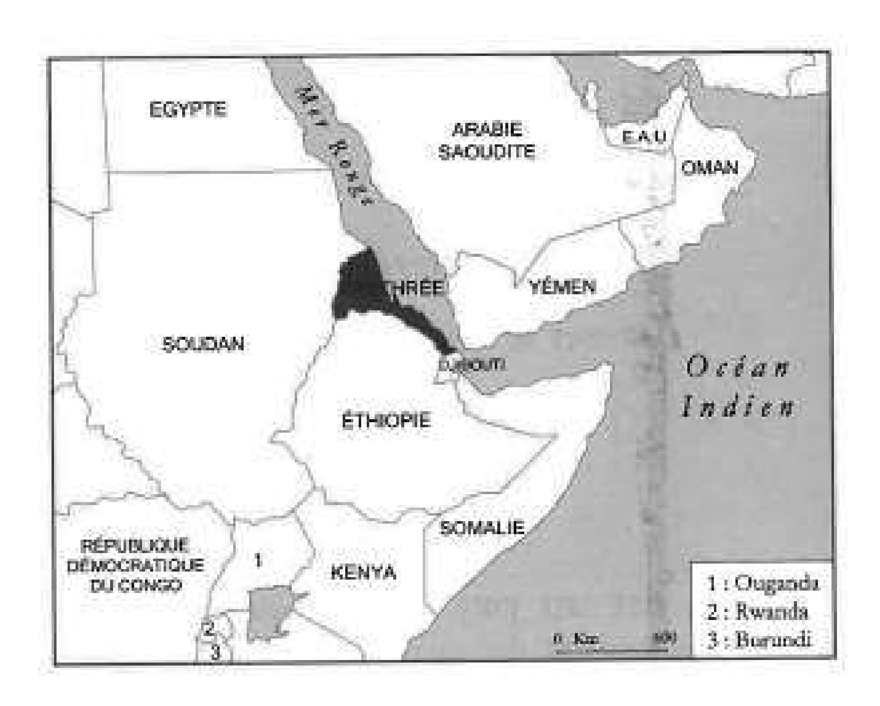
إريتريا
هل يحق لنا رسم طريقنا بِحريّة؟

إنها إريتريا، ذلك البلد المهمّش، الغائب عن صفحات وسائل الإعلام. مع ذلك، يبقى هناك ما يستحق ذكره... لقد خاض هذا البلد الحرب الأطول على صعيد القارّة الأفريقيّة لنيل استقلاله، وحصل عليه بعد نضال طويل وشاق. وقف وحيداً في الساحة ضد الجميع، الولايات المتحدة الأمريكية، وأوروبا، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة. ذلك البلد الصغير الذي يضم ما يقرب من خمسة ملايين نسمة، ينقسمون بالتساوي بين مسيحيين ومسلمين، ويعيشون جنباً إلى جنب بسلام وتلاحم اجتماعي. لقد حصل هذا البلد على نتائج مذهلة في مسيرته للقضاء على الجوع، ورفع المستوى التعليمي، والرعاية الصحيّة. حتى إن بعضهم أطلق عليه اسم «كوبا الأفريقيّة».

فكيف كوفئ هذا التلميذ النجيب؟ بحربٍ عدوانية طويلة الأمد شنتها عليه إثيوبيا، تلك الدولة المجاورة، لكنها في الواقع كانت حرباً من «صنع الولايات المتحدة الأمريكية». وبعقوبات دولية فُرضت عليه، بعد أن صُوّت عليها في الأمم المتحدة، انطلاقاً من مجموعة اتهامات وُجهت إليه، كانت «من صنع الولايات المتحدة الأمريكية» أيضاً، التي ما لبثت الويكيليكس أن صرّحت أنها لا تتجاوز كونها باطلة من ألفها إلى يائها، ولا أساس لها من الصحة.

كيف يمكن لنا تفسير أمر إنزال عقوبات بذلك التلميذ النجيب؟

أجل! لقد رفضت إريتريا الاقتراض من صندوق النقد الدولي، كما رفضت تلقّي «المساعدات» الدولية، واختارت رسم طريق آخر في التنمية، خاص بها، بعيداً عن هيمنة الشركات متعددة الجنسيات. إنه أنموذج خطير، لمن؟



١ - أوغندا

٢ - رواندا

٣ - بوروندي

لمحة سريعة عن إريتريا

على الصعيد الجغرافي:

- **العاصمة:** أسمرة

- **المساحة:** ١٢١ ٣٢٠ كم٢ **.**

- **تعداد السكان:** ٥ ٧٩٢ ٩٨٤ **(**أي بمعدّل ٣٨ نسمة **/** كم٢**).**

على الصعيد الاجتماعي:

- **النسيج الاجتماعي:** يشكّل المسلمون نسبة **(٥٠%)**، ويشكّل المسيحيون الأقباط نسبة **(٥٠%).**

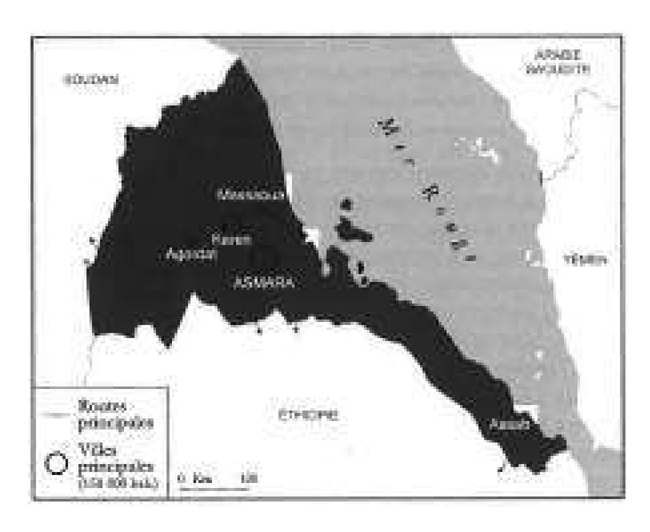
إنه بلد متعدد الأعراق، يعيش فيه مجتمع التجرينية **(٥٠%)**، ويشكّل مجتمع التيغري **(**النمرة**)** وكناما **(٤٠%)**، كما أن هناك مجتمعي الآفار والساهو**.**

- **اللغات الرسمية:** التجرينيّة، العربية، الإنجليزية**.**

- **متوسط العمر:** ٦٢ عاماً ونصف العام**.**

- **تشكّل الفئة العمرية التي لا تتجاوز ١٥ عاماً:** ٤٢٫١**%**

- **معدّل من يلم بالقراءة والكتابة: ٥٨,٦%.**



الطرق الرئيسية

المدن الرئيسة: يبلغ عدد سكانها ١٥٠ ٠٠٠

السياسة:

- **نظام الحكم:** جمهورية رئاسيّة **(**حزب واحد**)**

- **رئيس الدولة:** إسياس أفوِرقي **(**الرئيس الأول والحالي لإريتريا منذ يوم ٢٤ مايو **/**أيار ١٩٩٣**).**

- **تاريخ نيل الاستقلال:** عام ١٩٩٣ **(**من إثيوبيا**).**

الاقتصاد:

- **إجمالي الناتج المحلي في عام واحد:** ١,٤ مليار دولار **(**٢٠٠٨**)**

- **الموارد:** الزراعة، والمعادن، وتربية المواشي، والصيد**.**

- **معدل النمو:** ٢,٢**%** **(**٢٠١٠**).**

- **إجمالي الناتج المحلي للفرد:** ٧٠٠ دولار **(**٢٠٠٨**).**

- **مؤشر التنمية البشرية:** ٠,٤٧٢ **(** تحتل المرتبة ١٦٥**)**

- **نسبة البطالة:** ٥,٩ **%**

- **نسبة السكان تحت خط الفقر:** ٥٠**%** **(**عام ٢٠٠٤**).**

*** هل تُعدُّ إريتريا مصدراً لكل أعمال العنف في القرن الأفريقي؟ يبدو أن هذا هو رأي مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، الذي صوَّتَ على فرض العقوبات على هذا البلد في عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ على التوالي. لقد اتُّهمت إريتريا بتزويد متمردي الصومال بالسلاح على وجه الخصوص.**

تعتمد هذه العقوبات على حملة دعائيّة كاذبة، تهدف إلى زعزعة استقرار الحكومة الإريتيرية وأمنها. لقد فُرض حظر توريد الأسلحة إلى

الصومال عام ١٩٩٢، وتمّ إرسال خبراء دوليين لمراقبة الوضع على أرض الواقع، دعماً لهذا الحظر، كما أن الأسلحة اليوم، باتت تحمل أرقاماً تسلسلية، ما يَسمح باقتفاء أثرها. على الرغم من كل هذه الترتيبات، لم يتمكن مجلس الأمن من الحصول على دلائل ملموسة حول هذا التهريب المزعوم، تماماً كما لم يستحوذ على دلائل حول امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل حينها! في واقع الأمر، نجد أن واشنطن هي التي تقف، مرة أخرى، وراء هذا النوع من الحملات الدعائية المغرِضة. حتى إن الأمين العام المساعد للشؤون الأفريقيّة في الأمم المتحدة، جوني كارسن، دحض هذه الدعاية، وقال إن الصومال في الحقيقة، تخوض حرباً منذ عشرين عاماً، وهي تزخر بالسلاح. يمكن لأي أحد أن يبيع أو يبتاع السلاح في السوق السوداء، لذا لا يحتاج المتمرّدون الصوماليون إلى دولة إريتريا للتزوّد بالسلاح!

*** وُجّه اتهام آخر إلى إريتريا، نصّ على إشاعة أجواء التوتّر مع جيبوتي بشأن النزاع الحدودي بينهما. كما نشأ اشتباك بين الجيشين عام ٢٠٠٨.**

لم يحصل في تاريخ إريتريا أن أعربت عن أطماع إقليمية في جيبوتي، مهما قلّ شأنها، إذ إن الحدود المصطنعة الفاصلة التي رُسمت بين الدول الأفريقيّة هي من صنع القوى الاستعمارية، وبقي الحال على ما هو، ولم يسبق لأي دولة إثارة هذا الموضوع.

إن «حادث الاشتباك» عام ٢٠٠٨ لا يتجاوز كونه محض كذبة لفّقتها إدارة بوش. بدأت الكذبة في شهر إبريل عندما تلقّى الرئيس الإريتري، إسياس أفوِرقي، اتصالاً هاتفياً من أمير دولة قطر، ينقل إليه هذا الأخير

الشكوى التي تقدّم بها رئيس جيبوتي، إسماعيل عمر جيلي، ويدّعي فيها حشد القوّات الإريترية على الحدود المشتركة ما بينهما. إلّا أنَّ الرئيس أفوِرقي أعرب عن دهشته من جراء هذا الاتصال، فهو لم يعطِ جيشه أي أمر.

فلماذا لجأ نظيره الجيبوتي إلى طرف ثالث لمخاطبته؟ مع ذلك، اقترح الرئيس إسياس أفوِرقي لقاء الرئيس جيلي في جيبوتي أو في إريتريا، أو حتى في دولة قطر إذا كان يرغب في ذلك، غير أن الرئيس الجيبوتي أهمل الرد على هذه الدعوة.

وبعد انقضاء أسابيع عدّة، أي في الحادي عشر من حزيران من عام ٢٠٠٨، اعتدى جنود من الجيش الجيبوتي على قوات إريتريّة على الحدود. سقط نتيجة هذا الاشتباك الوجيز ما يقارب الثلاثين قتيلاً، وأصيب العشرات بجروح من كلا الطرفين. عندئذٍ صاح الرئيس الجيبوتي أن إريتريا غزت بلاده، فما كان من الولايات المتحدة الأمريكية إلّا الاستجابة السريعة، التي جاءت محيّرة في كنهها، بإصدار بلاغ تدين فيه «العدوان العسكري الإريتري على جيبوتي»، فسارع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بدوره، إلى ترديد تلك الإدانة، حتى إنه لم يقترح إرسال لجنة خبراء لتحليل الموقف على أرض الواقع وتقصّي الحقائق، إلّا في وقت لاحق. ما السبب الذي دفع مجلس الأمن إلى استباق الأحداث، ووضع العربة أمام الحصان؟ على أي شيء استند في توجيه اتهاماته؟ إذ ليس هناك أي خلاف بين إريتريا وجيبوتي، إضافة إلى العلاقات الطيبة التي تجمع شعبي هذين البلدين. إنّما تعمد الولايات المتحدة الأمريكية، مرة أخرى، إلى تضليل المجتمع الدولي ومجلس الأمن للضغط على إريتريا .

*** كيف تفسّر موقف جيبوتي؟**

لا يملك الرئيس إسماعيل عمر جيلي أيّ قاعدة شعبية في بلاده، ويعود أمر بقائه في سدة الحكم إلى دعم القوى الأجنبيّة، لذلك ليس لديه سوى الانصياع لأوامرهم. وهذا ما يفسّر وجود أعداد كبيرة من الجنود الأجانب على أرض جيبوتي. ففي سبيل المثال، لم تنشئ الولايات المتحدة الأمريكية سوى قاعدة عسكريّة واحدة في أفريقيا، نجدها في جيبوتي! كما يؤوي هذا البلد الصغير جنوداً من دول أخرى، إلى جانب أهم قاعدة عسكرية فرنسية على مستوى القارة السمراء.

وهكذا نرى أن عمر جيلي مجرد ألعوبة في يد واشنطن، وتملي عليه أوامرها كيف تشاء، فإذا احتاجت إليه الولايات المتحدة الأمريكية لخلق أزمة جديدة في المنطقة، فإنه ينصاع للأمر، وعلى الفور. لقد انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بهذا التخصص، ألا وهو إثارة المشكلات، ومن ثَمَّ المسارعة إلى تقديم الحلول. لذا، سعت الولايات المتحدة الأمريكية هنا إلى إظهار إريتريا بمظهر الدولة المحبّة للعدوان، المتسببة بخلق المشكلات في منطقة القرن الأفريقي.

*** لماذا تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى تهميش إريتريا؟**

تملك الحكومة الإريترية رؤية معيّنة لبلدها، وللمنطقة برمتها، فهي ترى أنه بالإمكان الوصول إلى مستوى تنمية جيد، وإلى إيجاد حلول لكل النزاعات القائمة، عن طريق الحوار، فيما لو وُضع حد للتدخّل الأجنبي.

كذلك الأمر بالنسبة للأزمة القائمة في الصومال، يمكن إيجاد حل مناسب لها، عن طريق دعوة كل الأطراف السياسيّة المعنيّة إلى طاولة الحوار. أما فيما يتعلّق

بإعادة بناء الدولة، فتقترح إريتريا أيضاً إشراك المجتمع المدني بمكوناته كافّة من نساء وشيوخ وعلماء دين... ودعوة كل الأطراف إلى تجاوز الانقسامات فيما بينها، لإعادة إعمار البلد الذي غابت عنه الحكومة منذ عشرين عاماً ونيّف. لا بد لهذه السياسة أن تؤتيَ أكلها. إلّا أن الولايات المتحدة الأمريكية أصرّت على إغراق الصومال في حالة من الفوضى العارمة (راجع الفصل الخاص بالصومال)، فقد بلغ بها الأمر إعطاء أمرٍ للجيش الإثيوبي بغزو مقديشو بعد أن خيم السلام عليها.

ثم في نهاية المطاف، تبقى إريتريا هي الوحيدة التي تتلقى العقوبات من قبل منظمة الأمم المتحدة!

في الواقع، تخشى الولايات المتحدة الأمريكية ظهور أتباع ومؤيدين للرؤية الإريتريّة في القرن الأفريقي، ما سيعني وضع حدٍّ للتدخل الأمريكي في هذه المنطقة الاستراتيجيّة. لهذا السبب، تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى كل السبل لوضع إريتريا في الحجر الصحي، خوفاً من انتقال «الفيروس» إلى غيرها. هذا هو النهج الذي تتبعه الولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن بعيد، النهج الذي أخضعه نوام شومسكي للدراسة في أثناء طرحه لـ «نظرية التفاحة الفاسدة»، إذ قال: «إذا وجدتَ تفاحة فاسدة في السلة، فعليك الإسراع إلى انتزاعها، لئلا تفسد سائر التفاحات».

لهذا السبب كانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى دائماً - وغالباً ما نجحت في ذلك - إلى قلب أنظمة الحكم في أماكن عدة، كاسترو في كوبا، آلاند في تشيلي، لاوس في الستينيات... لقد لاحظ شومسكي أن واشنطن تتدخّل بذريعة إحلال «الاستقرار» في العالم، لكنه فسّر أن هذا «الاستقرار» لا يعني في الواقع سوى «تحقيق الأمن» للشركات متعددة الجنسيّات وللطبقات الحاكمة.

ويكيليكس
من الذي يمارس الإرهاب؟
إريتريا أم إثيوبيا؟

تصدّرت إريتريا في شهر تموز من عام ٢٠١١ الأحداث، علماً أنه لا يمكن عدُّ حدوث الأمر لمرة واحدة بأنه عادة متّبعة، وقد وُجِّهت إليها تهمة التخطيط لتنفيذ هجوم إرهابي قبل أشهر عدة في أديس أبابا، العاصمة الإثيوبيّة، في أثناء انعقاد مؤتمر قمّة الاتحاد الأفريقي.

صدرت هذه المعلومات، التي نُظِّمت ضمن تقرير صادر عن فريق الأمم المتحدة للرصد المعني بشؤون الصومال وإريتريا، صدرت عن أجهزة الاستخبارات الإثيوبيّة التي تفتخر بإحباط المؤامرة.

مع ذلك، تبقى هذه المعلومات مدعاة للشك. إذ كشفت رسائل ويكيليكس الإلكترونية عن قيام قوات الأمن الإثيوبية في أيلول ٢٠٠٦، بتفجير ثلاث قنابل في أديس أبابا، ومن ثَمَّ، إلصاق التهمة بإريتريا وجبهة المقاومة «أورومو» (وهي إحدى أقدم حركات التحرر الوطنية في إثيوبيا). فقد لاحظت القائمة بالأعمال الأمريكيّة في إثيوبيا، فيكي هودلستون، في البرقيّة الإلكترونيّة «أن هناك مصدراً في السفارة، إضافة إلى تقارير سرّية

ألمحت إلى أن قوات حفظ الأمن التابعة للحكومة الإثيوبيّة قد تكون المسؤولة عن تنفيذ الهجوم الإرهابي.»

يتابع تقرير الويكيليكس: «وفقاً لما جاء عن مصدر موثوق، تعود الجثامين الثلاثة التي عُثر عليها في مكان الانفجار، إلى مجموعة رجال ألقي القبضَ عليهم رجال الشرطة، قبل أسبوع من وقوع الانفجار، وزُجّ بهم داخل المعتقل، وأُخضعوا لصنوف التعذيب». ثم يضيف هذا المصدر، «لقد نُفِّذ التفجير قرب المنزل الذي أودعت فيه الشرطة هؤلاء الرجال، ما تسبب في مقتل ثلاثة منهم.»

هذا النوع من الممارسات، الذي اعتادت استخدامه أجهزة استخبارات أخرى، جدير بإثارة الشكوك حول التأكيدات التي تميل إلى إثبات أن إريتريا دولة إرهابية. فكيف إذاً يمكن لنا تقييم المعلومات الصادرة عن الحكومة الإثيوبية؟ علماً أن هذه الحكومة قد صرّحت عن رغبتها في «معاقبة السلطات الإريتريّة إلى الأبد؟»

*** هل نستخلص من هذا أن إريتريا، لدى واشنطن، هي التفاحة الفاسدة في القرن الأفريقي؟**

تماماً. إنّما في حقيقة الأمر، تبقى الإمبرياليّة هي العدو الحقيقي في المنطقة، وبشكل خاص الإمبرياليّة الأمريكيّة. لذلك، تصبو إريتريا إلى أن تتخلّص كل دول القرن الأفريقي من تدخّل القوى الاستعماريّة الحديثة، كي تمضي في طريق تطوير مشروع مشترك فيما بينها.

تتمتّع منطقة القرن الأفريقي بموقع جغرافي غاية في التميّز، فهي تتصل، في آن واحد، بدول الخليج والمحيط الهندي الذي تتم عبره غالبية عمليات التبادل التجاري البحري. كما تتمتّع هذه المنطقة بالعديد من الموارد الطبيعية كالمعادن والغاز والنفط والتنوّع البيولوجي... فإذا نجحت دول هذه المنطقة في طرد القوى الاستعمارية الحديثة، وتضافرت جهودها فيما بينها، لتوصلت إلى التخلّص من الفقر، وهذا ما تتمناه إريتريا للقرن الأفريقي.

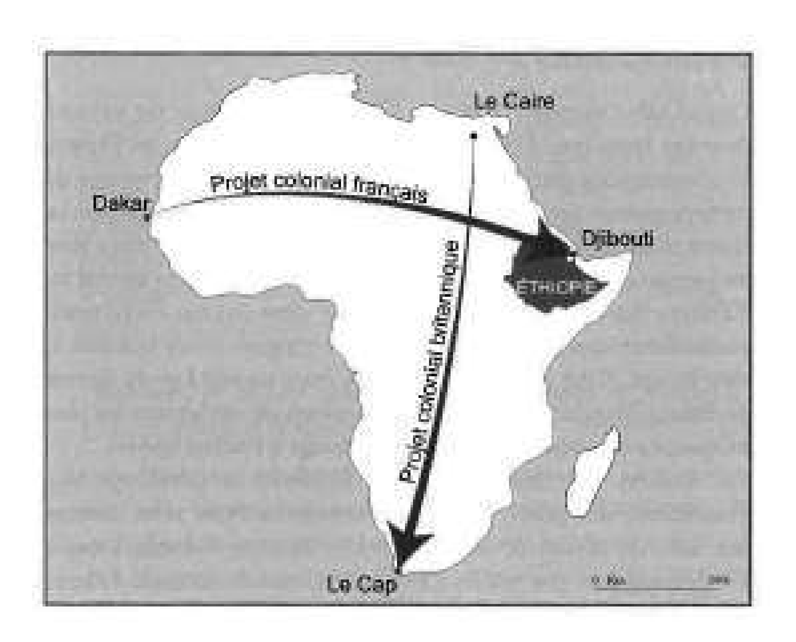
إنّما، وبكل تأكيد، تعارض الولايات المتحدة الأمريكية إتمام هذا المشروع، لأنها والحالة هذه، ستضطر إلى التخلّي عن هذه المنطقة الاستراتيجيّة، الغنيّة بالمواد الأوليّة، إذ لن تعود قادرة على بسط هيمنتها. لهذا السبب، تسعى واشنطن إلى ممارسة الضغط على الرئيس إسياس أفوِرقي لتغيير سياسته.

في نهاية المطاف، لا تزال إريتريا اليوم تواصل نضالها حفاظاً على سيادتها الوطنية، وهي التي اضطرت فيما مضى، إلى خوض كفاحٍ طويل، لنيل استقلالها عام ١٩٩٣.

*** شهد مؤتمر برلين (١٨٨٥) تقاسم القوى الاستعمارية الأوروبية للقارة الأفريقيّة. إنّما، مع بداية القرن العشرين، بقيت إثيوبيا هي الدولة الوحيدة في القارة التي تتمتع باستقلالها. أليس ذلك بالأمر الغريب؟**

جاءت هذه الخاصيّة ثمرة اتفاق التسوية الذي تمّ بين الفرنسيين والبريطانيين. كان الفرنسيون يرمون إلى توسيع مناطق نفوذهم من داكار إلى

جيبوتي، أي من غرب القارة إلى شرقها، في حين كان طموح لندن يهدف إلى توسيع مناطق إمبراطوريتها من القاهرة إلى مدينة الكيب تاون، أي من الشمال إلى الجنوب. إنك لو اطلعت على خريطة أفريقيا، لشاهدت أن هذه المشاريع الاستعماريّة كانت ستؤدي حتماً إلى التصادم فيما بينها. واجتناباً لنشوب أي صراع قد ينتهي إلى خسائر فادحة بين المعسكرين، قرّرت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى التراجع عن استعمار إثيوبيا، بل آثرتا تحويلها إلى منطقة عازلة. إنّما مع ذلك، لم تتنازل الدول الإمبرياليّة عن هذا الإقليم؛ فقد قدمت الدعم والسلاح لملك إثيوبيا «منيليك الثاني» الذي كان يحكم أغنى منطقة في إثيوبيا. وبفضل هذا الدعم، نجح «منيليك الثاني» في بسط سلطته على كل أرجاء إثيوبيا، فاتحاً المجال أمام الفرنسيين والإنكليز للوصول إلى منابع الثروة في مملكته.



إثيوبيا عند تقاطع المشاريع الاستعماريّة الفرنسية والبريطانية

سهم داخل الخريطة: المشروع الاستعماري الفرنسي الممتد من داكار إلى جيبوتي قرب إثيوبيا

سهم داخل الخريطة: المشروع الاستعماري البريطاني من القاهرة إلى كيب تاون.

في النهاية، لا يمكننا أن نجزم أن إثيوبيا كانت تنعم بالاستقلال، على الرغم من كونها البلد الوحيد الخارج عن نطاق السيطرة الاستعماريّة! فهذا الملك، منليك الثاني، الذي كان يطلق على نفسه اسم ملك الملوك، والأسد الفاتح لقبيلة جودا، والمختار من الله... لم يكن سوى عميلٍ للقوى الإمبرياليّة، عاجز عن تشييد دولة حديثة. لقد اختير لمجرد كونه يدين بالديانة الأورثوذكسية، وينحدر من أغنى إقليم في إثيوبيا.

كان منليك الثاني يحكم حكومة أقليّات وفق النظام الإقطاعي، إذ لم يكن لمعظم القوميّات أي حق تتمتع به. وكان نظام الرق منتشراً في البلاد. لقد خلقت كل هذه التناقضات العديد من التباينات، ولا يزال أثرها ظاهراً حتى يومنا هذا في إثيوبيا.

*** أمّا في المقابل، فكانت إريتريا ترزح تحت الحكم الاستعماري الإيطالي، حتى وصل الأمر بموسوليني لأن يقول فيما بعد إنها ستكون القلب النابض للإمبراطورية الرومانية الحديثة. ما تبعات الاستعمار الإيطالي في إريتريا؟**

لّما احتلّت إيطاليا دولة إريتريا، هاجر عدد كبير من الفلاحين الإيطاليين الذين كانوا يقيمون على الحدود الإيطالية، منهم من هاجر إلى سويسرا، ومنهم من قصد فرنسا، في حين فضّل الباقي الإقامة في إريتريا، حيث أدهشهم جمال طبيعتها الأخاذ، ومناخها المعتدل. كثيرون هم من حلموا بالإقامة في هذه المستعمرة الإيطاليّة الجديدة. واستوطن المستعمرون إلى جانب الفلاحين. كما أقدمت البورجوازيّة الإيطاليّة على استثمار أموالها في إريتريا؛ إذ إن موقعها الجغرافي يستقطب هذه الطبقة بشكل خاص؛ فالبلد، بسواحله مترامية الأطراف، يطلّ على البحر الأحمر، كما كان قريباً من قناة السويس في الشمال، ومن مضيق باب المندب في الجنوب، الذي يُعدُّ أحد ممرات العبور الأكثر حيوية على مستوى العالم، فهو صلة وصل بين البحر الأحمر والمحيط الهندي.

إذاً، أقدم الإيطاليون على الاستثمار في إريتريا، وعملوا على تطوير المزارع،والمرافئ والبنى التحتيّة... وكي أعطيك فكرة عن مستوى التطوّر في هذه المستعمرة، ليُعلم أنهم حين احتلالهم لإريتريا إبان الحرب العالمية الثانية، لجأ البريطانيون إلى تفكيك مصانع كاملة، لنقلها إلى بريطانيا!

*** يبدو أننا بعيدون عن عمليات السلب والنهب التقليدية، أو عن الأيادي التي بُترت في الكونغو البلجيكية. هل شكّلت إريتريا استثناءً في عالم الاستعمار الشرس؟**

كان هناك بعض الجوانب الإيجابيّة، إنّما لا ينبغي أن نترك أنفسنا عرضة للخداع. لقد مارس الاستعمار الإيطالي سياسة التمييز العنصري، ولم يكن ذوو البشرة السمراء يملكون من الحقوق ما يملكه ذوو البشرة البيضاء. إلامَ نعزو ذلك؟ في حقيقة الأمر، لّما احتلّت إيطاليا إريتريا وجزءاً من الصومال في نهاية

القرن التاسع عشر، حاولت متابعة تمددها باتجاه إثيوبيا، وغزتها، غير أن الملك منيليك الثاني تمكّن من هزيمة الجنود الإيطاليين في معركة (عدوة) عام ١٨٩٦. وفي السنوات التالية، نمت الأيديولوجية الفاشيّة داخل طبقة المثقفين الإيطاليين، بالتزامن مع عزيمتهم على استعادة هيبة البلد الذي مُنيَ بالهزيمة على أيدي ذوي البشرة السمراء. لذلك تعامل الاستعمار الإيطالي مع هؤلاء على أساس التمييز العنصري، وعمل على ضمّ الشعب الإريتري إلى المشروع الاستعماري، لكن كطبقة دنيا.

في كل حال، لمّا اعتلت الفاشية سدة الحكم، عام ١٩٢٢، اعتمدت سياستها، بالدرجة الأولى، على العنصريّة ضد ذوي البشرة السمراء، لكنها لم تكن معادية للساميّة كالفاشيّة الألمانيّة؛ فكان اليهود يعملون في ظل المؤسسات الفاشية الإيطاليّة! كما كانت عشيقة موسوليني يهودية. تصوّر وقع ذلك على هتلر. لم يبدأ اضطهاد اليهود في إيطاليا إلّا فيما بعد، أي في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي. يعود السبب الأول في ذلك إلى أن موسوليني بدأ يتقرّب إلى هتلر، أما السبب الثاني، فيكمن في حاجة الحزب الفاشي الإيطالي إلى نَفَسٍ ثانٍ، أي إلى من يدعمه، فعمل على استخدام المجتمع اليهودي ككبش فداء لحشد الشعب الإيطالي.

*** تمكّنت الفاشيّة الإيطاليّة، في نهاية الأمر، من الانتقام من إثيوبيا، ففي عام ١٩٣٥، غزت قوات موسوليني البلد الأفريقي الوحيد الذي لم يسقط في أيدي الاستعمار قبل هذا التاريخ.**

نعم. غير أن احتلال إثيوبيا لم يستغرق وقتاً طويلاً، ففي عام ١٩٤١، وفي خضم الحرب العالميّة، عملت بريطانيا على طرد الإيطاليين من المنطقة،

واستولى الحلفاء على زمام الأمور في القرن الأفريقي. وفي أعقاب الحرب، استعادت إثيوبيا «استقلالها»، في حين بقي مصير إريتريا موضع جدل.

عبّر الاتحاد السوفييتي عن رغبته في حصول هذه المستعمرة على حريتها. أما البريطانيون، وتطبيقاً لسياستهم المعهودة في كل مكان يحلون فيه، فقد أرادوا تقسيم البلد إلى دويلتين، على أساس ديني، فقد رأوا أن على المسلمين الانضمام إلى السودان، وعلى المسيحيين الأورثوذكس الانضمام إلى إثيوبيا. ومما يثير الاهتمام أن الكنيسة الإثيوبية أيّدت هذا الخيار، ومارست الضغوط على مسيحيّي إريتريا كي يوافقوا. بل وصل الأمر بالكنيسة إلى إعلامهم أنهم في حال رفضوا الانصياع، فإنه لن يتم دفنهم بعد موتهم، وأن أرواحهم لن تذهب إلى الجنة. وعلى الرغم من ذلك كله، رفض مسيحيو إريتريا الانصياع، فقد كان شعورهم بالانتماء الوطني أكبر من أي شيء آخر. كيف يُفسّر هذا الشعور بالانتماء؟

أقدم الإيطاليون، بوجه خاص، على لمّ شمل الشعب الإريتيري بأطيافه كافة ضمن المشروع الاستعماري - وذلك بخلاف القوى الاستعمارية الأخرى - دون أي تمييز عرقي. إنّما في النهاية، كانت الغلبة للرأي الثالث، رأي الولايات المتحدة الأمريكية، الذي يفيد بضم إريتريا إلى إثيوبيا، وفق نظام فدرالي.

*** ما الذي دعا الولايات المتحدة الأمريكية إلى تأييد هذا الرأي؟**

لقد تبيّن لواشنطن إبان الحرب العالمية الثانية، وفي المرحلة التي تبعت هذه الحرب، أهمية إريتريا، من حيث موقعها الجغرافي. ففي الأربعينيات، عملت وزارة الدفاع الأمريكية إلى جانب شركات التسليح الخاصّة، على

تطوير مشاريع ضخمة في البلد، منها خط تجميع الطائرات، وورشات الإصلاح، والقوة البحريّة... أما في الخمسينيات، بشكل خاص، فقد أسست الدوائر الاستخباراتيّة الأمريكيّة في العاصمة أسمرة، إحدى أهم قواعد الاتصالات السلكيّة واللاسلكيّة في الخارج. إذ لم تكن المراقبة في تلك الفترة الزمنيّة، تجري عبر الأقمار الاصطناعية، كما هو الأمر في عصرنا الحالي، لذلك كان مدى أنظمة التنصّت محدوداً. إنّما تستطيع، انطلاقاً من إريتريا، مراقبة ما يجري في أفريقيا، وفي دول الشرق الأوسط، ودول الخليج، كما في بعض المناطق من الاتحاد السوفييتي أيضاً.

لذلك دعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى ضمّ إريتريا إلى إثيوبيا التي كانت حليفاً لواشنطن. كان جون فوستر دالاس، إحدى الشخصيات السياسيّة الأمريكيّة البارزة، مسؤولاً عن إدارة مكتب الشؤون الخارجية، قد صرّح في إحدى النقاشات، في مجلس الأمن، قائلاً: «من وجهة نظر العدالة، ينبغي أخذ رأي الشعب الإريتري في الحسبان. غير أنّ مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في حوض البحر الأحمر، إلى جانب اعتبارات الأمن والسلام في العالم، تجعل من الضروري إلحاق إريتريا بحليفنا إثيوبيا». بهذه الطريقة تم البتّ بمصير إريتريا، أعقبه نتائج أثقلت كاهل البلد، مع بدء أطول فترة نضال في أفريقيا لنيل الاستقلال...

*** أصبحت إريتريا إذاً بهذه الطريقة، كياناً مستقلاً ملحقاً بإثيوبيا. فكيف كانت طبيعة التعايش بين البلدين؟**

كانت سيئة للغاية. لم يكن لهذا القرار أي معنى، إذ إنه حمل نظامَين متعارضَين على العيش جنباً إلى جنب. فمن جهة، استفادت إريتريا من

تطور الاستعمار الإيطالي، فظهرت فيها الطبقة العمّالية التي تميّزت بوعيها السياسي. ومن جهة أخرى، كان الإمبراطور هيلا سلاسي يحكم إثيوبيا بنظام إقطاعي تعسفيّ، يغيب فيه الدستور كما تغيب عنه الحقوق السياسيّة، ولا يزال يمارس نظام الرقّ. إنّما، وبما أنه نظام فدرالي، استطاعت إريتريا الإبقاء على علم بلادها، ومجلس نوابها، ونقاباتها، وإعلامها المستقلّ... أمور كثيرة كانت ممنوعة في إثيوبيا.

أدّى هذا التعايش الغريب في نوعه، بصورة غير مباشرة، إلى محاولة انقلاب ضد الإمبراطور هيلا سلاسي؛ فقد كان الضباط الإثيوبيون يسافرون إلى إريتريا، ويلمسون الفوارق الكبيرة بين البلدين. إضافة إلى ذلك، عملت الحركات التي تدعو إلى الوحدة الأفريقيّة، وانتشار موجة عمليات الاستقلال، على تغيير المواقف بشأن القارة بأكملها. فقد تبيّن لبعض الإثيوبيين تخلّف نظامهم، بينهم الشاب جيرمان نيوي، الذي أنهى دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل حاكماً في أقاليم عدة في الإمبراطورية الإثيوبية. وبدعمٍ من أخيه الذي كان يعمل ضمن فريق الحرس الشخصي لهيلا سلاسي، حاول القيام بانقلاب عام ١٩٦٠، مستغلاً غياب الإمبراطور الذي كان في زيارة رسمية إلى البرازيل. غير أن الجيش الإثيوبي لم يقدّم دعمه للحركة، ما أفشل محاولة الانقلاب، وحين عودته إلى البلاد، كان أمام هيلا سلاسي خياران: إمّا الإبقاء على الاتحاد مع إريتريا وتقديم الحقوق التي يتمتّع بها الإريتريون إلى شعبه، وإمّا ضم إريتريا إلى دولته بشكل كامل. إلّا أن الخيار الأول كان يعني له الانتحار السياسي، فقرر ضمّ إريتريا بشكل كليّ إلى بلاده عام ١٩٦٢.

*** تمّ ذلك بتأييد ضمني من الأمم المتحدة. لماذا لم يعبّر المجتمع الدولي عن احتجاجه؟**

نعم، يبدو الأمر عجيباً للغاية. إذ لمّا أعلن هيلا سلاسي إلحاق إريتريا ببلاده، أعطى الأمر باعتقال محرري الصحف، ونفي الزعماء الوطنيين، وحظر النقابات، كما منع التعامل باللغة الأم لدولة إريتريا في المدارس، وتداولها في الصفقات الرسميّة، وأمر بنقل مراكز الصناعات من أسمرة لإعادة نشرها في أديس أبابا. كان الهدف من هذه الخطوات إحضار العاملين الإريتريين إلى إثيوبيا، وإخلاء إريتريا من سكانها، لإقامة قاعدة عسكرية فيها. إضافة إلى ذلك، وبينما كانت قوّات الجيش الإثيوبي تحيط بالمجلس التأسيسي، والطائرات الحربيّة تحلّق في سماء أسمرة، كان مجلس النوّاب الإريتري يصوّت مكرهاً على حله، في إطار ظروف مهينة.

احتجت إريتريا بشدّة، وطلبت إلى منظمة الأمم المتحدة النظر في قضيتها، فجاء جواب هذه الأخيرة: «يجب مراعاة تقديم طلبك عن طريق الحكومة الفدراليّة»، أي عن طريق هيلا سلاسي نفسه. بعبارة أخرى، كان نظام هيلا سلاسي يحظى بمباركة القوى الإمبرياليّة، وبشكل خاص، مباركة الولايات المتحدة الأمريكية التي تسيطر على منظمة الأمم المتحدة. كان الإمبراطور هيلا سلاسي يتمتع بتأييد كل الأطراف، فاستغل ذلك لتحسين صورته، لكي يظهر بأنه أب للقارة السمراء، ولم يكن ثمّة أحد ليعارضه، وذلك لسوء طالع الإريتريين.

*** كيف أصبحت إثيوبيا الحليف المفضّل للولايات المتحدة الأمريكية؟**

سعت الولايات المتحدة الأمريكية في الأربعينيات إلى إضعاف منافسيها من الأوروبيين، فبدأت تولي اهتماماً خاصاً بالقارّة الأفريقيّة. إلّا أن

الفرنسيين والبريطانيين كانوا يملكون العديد من المستعمرات في هذه القارّة. في حين أن إثيوبيا لم تكن خاضعة لأي منهما. لذلك كانت لواشنطن بمنزلة البوّابة التي ستتمكن عبرها من إقحام نفسها في أفريقيا لبسط نفوذها، ولتتمكّن من منافسة سائر القوى الاستعماريّة. بهذه الطريقة تحوّلت إثيوبيا الفدرالية إلى دولة ألعوبة بيد الولايات المتحدة الأمريكية، وشاركت في الحرب على الكونغو، وعلى فيتنام... وفيما بعد، وبعد أن حصلت معظم الدول الأفريقيّة على استقلالها في الخمسينيات والستينيات، مارست واشنطن ضغوطها كي تتخذ منظّمة الوحدة الأفريقيّة التي أنشئت لتوها، مقرها الرسمي في إثيوبيا، ما أتاح الفرصة أمام الولايات المتحدة الأمريكية لممارسة الرقابة على كل دول القارة، والتحكّم بشؤونها. وكما هي الحال لشاه إيران، أو إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط، لعبت إثيوبيا دور الدركي للولايات المتحدة الأمريكيّة في أفريقيا، لكنه كان دركياً متخلّفاً.

*** بعد أن استنفدت جميع وسائل الوساطة الدبلوماسية لدى المجتمع الدولي، وبعد أن نظّمت المظاهرات السلميّة، انتقلت إريتريا إلى مرحلة النضال المسلّح. كيف قادت معركتها هذه؟**

تمّ هذا الإنجاز بقيادة جبهة تحرير إريتريا التي حشدت الجماعات القوميّة المطالبة بالاستقلال. فعلى الصعيد السياسي، سيطرت المصالح البورجوازيّة على هذه الحركة، ما أثّر في تحليلها للشؤون الاجتماعية والاقتصادية الذي اتّسم بالضعف.

أما على الصعيد العسكري، فقد عملت جبهة تحرير إريتريا على تكرار الأنموذج الجزائري في قيادة المقاومة، الذي يقوم على توزيع الجماعات

المسلّحة وفقاً للأقاليم. وهذا كان خطأً تكتيكياً جسيماً. إذ إن هذه الوحدات التي وُزِّعت على المناطق المختلفة لا تجمعها في أغلب الأحيان، لغة واحدة. لذلك، حينما تقاتل من أجل تحقيق استقلال الدولة بهذه الطريقة، فإنك تشارك في خلق انقسامات داخلية، قد يكون لها أثرها السلبي في الدولة، على مدى الأيام! إلى جانب ذلك، خلق هذا التقسيم إلى جماعات مستقلة داخل صفوف المقاومة، مشكلات في مجال التنسيق فيما بينها، ما يُسَهّل على العدو اختراقها. ففي سبيل المثال، حينما تتعرّض إحدى الجماعات للهجوم، تعجز الجماعات القريبة إليها عن نصرتها. لذلك، كان من الأيسر على الجيش الإثيوبي مقاتلة الجماعات المتفرقة، وإلحاق الهزيمة بها.

لقد أدّت الرؤية السياسيّة الضعيفة لجبهة تحرير إريتريا، وإستراتيجيتها العسكرية، وانقساماتها الداخلية، إلى إنهاك الحركة وزوالها. إنّما في السبعينيات، اتخذ المسلمون والمسيحيون التقدميون، الأعضاء في جبهة تحرير إريتريا، قراراً بتأسيس مجموعة خاصة أطلقوا عليها اسم «جبهة تحرير الشعب الإريتري».

استلهمت هذه الجبهة أفكارها من النظريّة الماركسية، واستخلصت الدروس والعبر من سلفها، وأدركت ضرورة حشد الأهالي كافة، بدلاً من خلق التقسيمات. كما كان منظورها السياسي أكثر حدّة من سابقتها، إذ كان يعتمد على تحليل وثيق الصلة بالمجتمع الإريتري. لقد تجاوزت جبهة تحرير الشعب الإريتري موضوع النضال المسلّح، بإرساء قواعد الثورة الحقيقيّة، فعملت على تحرير المرأة، ونظّمت المجالس الديمقراطيّة في الأرياف، وطبقت قانون الإصلاح الزراعي، واهتمت بالتعليم... كان ذلك مدعاة

لتهيئة الظروف من أجل حشد الشعب الإريتري، وتقديم دعمه لمقاتلي الجبهة. لعبت هذه الخطوات الضروريّة دوراً غاية في الأهميّة لتحقيق استقلال إريتريا .

*** مع ذلك، بدت المعركة خاسرة حتى قبل أن تبدأ، فإثيوبيا كانت حاصلة على دعم القوى العظمى، في حين كانت إريتريا تناضل في الساحة بمفردها، ضد الجميع...**

هذا صحيح. حظيت إثيوبيا بتأييد الولايات المتحدة الأمريكية، وكذا بتأييد إسرائيل التي كانت تصبو إلى عقد تحالفات مع دول غير عربيّة في المنطقة. ونشير هنا إلى أن إسرائيل هي من ساعدت في إفشال محاولة الانقلاب التي نُظّمت ضد الإمبراطور هيلا سلاسي في أثناء زيارته إلى البرازيل عام ١٩٦٠، واستطاع في إثرها الاتصال مع أحد جنرالاته للقضاء على حالة التمرّد. من جهة أخرى، نجحت إثيوبيا في تصوير المقاومة الإريترية بأنها تهديد عربي في المنطقة، فاستطاعت بذلك الحصول على تأييد تل أبيب. لذا، شرعت وحدات إسرائيلية متخصّصة لمكافحة الثورة عن طريق تدريب قوّات النخبة الإثيوبية، التي يبلغ تعدادها خمسة آلاف رجل، تحت اسم «كتيبة اللهب».

من جهتها، قدّمت أوروبا دعمها لإثيوبيا بتزويدها بالسلاح اللازم. إلّا أن الحكومة الإثيوبية كانت هي المستفيد الوحيد من المساعدة الأوروبية التي كانت مخصصة لأفريقيا. وأخيراً، انعكس التأثير القوي لهيلا سلاسي في القارة الأفريقيّة، سلباً على إريتريا .

لقد شرحت لك فيما تقدّم، الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة الأمريكية كي يتم اختيار أديس أبابا، عاصمة إثيوبيا، مقراً رئيساً لمنظّمة الوحدة الأفريقيّة. لقد أصدرت هذه المنظّمة قراراً في الستينيات، يمنع إثارة موضوع الحدود الموروثة عن الاستعمار، وذلك منعاً لاندلاع الحروب الأهليّة على صعيد القارة الأفريقيّة. وبالطبع، لم يُؤخذ هذا القرار في الحسبان فيما يخص دولة إريتريا، ولم يراعَ تطبيقه، علماً بأن مطالبة إثيوبيا بهذا الإقليم لم تكن لها أي صفة شرعيّة. تماماً كما لو طالبت إيطاليا بضم فرنسا إلى أراضيها، تحت ذريعة أن بلاد الغال هي جزء من الإمبراطوريّة الرومانيّة! لكن كان هيلا سلاسي ينعم بدعم دول الغرب، وبتأثيره القوي في القارة بأكملها، ما دفع بمنظّمة الوحدة الأفريقيّة إلى غضّ الطرف عن الموضوع.

*** وأخيراً، وفي عام ١٩٧٤، أي بعد مضي أربع وأربعين سنة على حكم هيلا سلاسي، أُطيح به إبان اندلاع ثورة اشتراكيّة في البلاد. مع ذلك، امتنعت الحكومة الجديدة عن منح إريتريا استقلالها، ما السبب؟**

جاءت الثورة الإثيوبية ثمرة تحالف بين المدنيين الذين يحملون الأفكار التقدميّة، وأفراد من القوّات المسلّحة. إنّما سرعان ما ظهرت الانشقاقات في صفوف هذه الحركة. ولمّا استولى الجيش على الحكم، طالبت فئة الطلاب، والمثقفون الثوريون الذين كانوا يؤيّدون حق إريتريا في نيل استقلالها، طالبوا أن يسلّم الجيش السلطة إلى حكومة مدنيّة انتقاليّة، إلّا أنّ الطغمة العسكرية الحاكمة، التي كانت تعرف باسم ديرغ (أو المجلس، وفقاً للغة الأمهرية) كانت لها ميول عنصرية شوفينية، إذ لا مجال للتنازل عن الإقليم الإريتري، ولا مجال لقيام حكومة انتقالية مدنيّة. ثم شرع حكم

العسكر في تنظيم حملة اعتقالات واغتيالات واسعة، خلّفت عشرات الآلاف ونيفاً من القتلى، كان جلّهم من المثقفين والطلّاب، وفقاً لمنظمة العفو الدوليّة. وهكذا تطهرت الثورة الإثيوبية من مكوّناتها الأكثر تقدميّة، وسيطر العسكر على زمام السلطة بشكل نهائي.

أما الطغمة العسكرية المعروفة باسم ديرغ، فقد كان يترأسها المقدّم منجيستو هيلي مريم، الذي ينحدر من بيئة متواضعة. كان أبوه جندياً في القوات المسلّحة، وكانت أمه تعمل خادمة. بقي منجيستو في السلطة حتى عام ١٩٩١، وقد حكم البلاد وفق النظام الشمولي، وبادر إلى إضفاء الطابع العسكري على الدولة. كان موضوع منح الحكم الذاتي لإريتريا ملغىً لديه تماماً، لذا لجأ إلى إخماد المقاومة بشراسة. في نهاية الأمر، ومع انتصار ثورة إثيوبيا، وجدت إريتريا نفسها تتنقل بين أنظمة استبدادية مختلفة.

وفي ذروة الحرب الباردة، سقط هذا البلد الذي كان حتى هذا التاريخ، حليفاً استراتيجياً للولايات المتحدة الأمريكية، وانجرف في المدار السوفييتي. فقد قدمت موسكو دعماً عسكرياً مشهوداً إلى منجيستو هيلي مريم في حملة القمع التي مارسها ضد المقاومة الإريترية.

*** علماً أن الاتحاد السوفييتي كان من أنصار منح إريتريا استقلالها، قبل عشرين عاماً. كيف تفسّر هذا التغيير في الموقف؟**

بادئ ذي بدء، أعلنت موسكو دعمها لاستقلال إريتريا، غداة الحرب العالميّة الثانية، إذ من شأن عملية ضمّ هذا البلد إلى إثيوبيا، خدمة مصالح الولايات المتحدة الأمريكية. ولمّا أصبحت إثيوبيا حليفاً للاتحاد السوفييتي، اختلفت الرؤية لدى موسكو. إضافة إلى ذلك، أتاحت الحرب العالميّة الثانية

للسوفييت الإلمام بشؤون العالم أجمع، وبشؤون القرن الأفريقي بشكل خاص. لقد أدرك السوفييت، في ذلك الوقت، أن إريتريا بكونها مستعمرة قديمة، فإن لها مطالب شرعيّة. ثم لم تلبث السياسة الخارجية لموسكو أن تغيّرت فيما بعد، لتصبح غبية.

ففي الخمسينيات، أعلن الحاكم «نيكيتا خروتشوف» عن نظرية جديدة خاصّة بشأن طريقة دعم الاتحاد السوفييتي للثورات الاشتراكيّة في أفريقيا. فهو يعتقد أن الدول الأفريقيّة لا تحتاج إلى حزب طليعي لقيادة ثوراتها، فالاتحاد السوفييتي موجود للقيام بهذه المهمّة! لقد عمد خروتشوف إلى تطبيق أنموذج الثورة الروسيّة في الدول الأفريقيّة، دون أي حسبان للسمات الخاصّة بكل دولة. بتعبير آخر، صمم الروس حذاءً يناسب مقاس قدمهم، ظناً منهم أن هذا الحذاء سيناسب قدم كل الشعوب، أما إذا كان قياس قدمك كبيراً، فعندئذٍ سيُبتر إصبعك الكبير لتتكيّف قدمك مع الحذاء!

لقد كانت نظرية خروتشوف سخيفة. وهذا ما يفسّر افتقار الاتحاد السوفييتي إلى رؤية مناسبة للقضايا التي تجري أحداثها في القرن الأفريقي، كما يفسّر تقديم دعمه لإثيوبيا. لقد اقترف الاتحاد السوفييتي خطأً فادحاً.

*** كيف كان وقع ذلك على المقاومة الإريترية؟**

لقد حقّق مقاتلو إريتريا حتى الآن نجاحات ملحوظة، فكان الأهالي يقدمون دعمهم لرجال المقاومة، كما انضم كثير منهم إلى صفوفهم، ولا سيّما أن الجيش الإثيوبي كان ينتقم من الشعب بشكل منتظم، فكان يحرق قرىً بأكملها، ويذبح المدنيين.. لكن بدلاً من إثارة الرعب في قلوب الإيريتريين عملت هذه الأعمال الانتقاميّة على تعزيز فكرة استحالة التعايش مع إثيوبيا،

ومتابعة النضال لتحقيق الاستقلال. ففي عام ١٩٧٥ في سبيل المثال، انضم العديد من الشبان الإريتريين إلى جبهة تحرير الشعب الإريتري بعد صدور أحكام بإعدام ما يقارب الخمسين طالباً إريترياً.

إلى جانب ذلك، تطورت إستراتيجية المقاومة إلى الأفضل. وإليك هذا المثل: لم تكن إريتريا تتلقّى أي دعم، بل كانت تناضل منفردة ضد الأعداء، وهذا ما خلق مشكلة بشأن التزوّد بالسلاح. ونظراً لعدم وجود أي حليف، عمدت جبهة تحرير الشعب الإريتري إلى تحويل عدوها إلى داعمٍ رئيس. فقد لجأ المقاتلون إلى حرب العصابات ضد الجنود الإثيوبيين، وكانوا يستولون على سلاح عدوهم في كل مرة كانوا يحرزون فيها انتصاراً، حتى حصلت المقاومة على مر السنين، على أفضل تجهيز، وأصبح السلاح الثقيل في حوزتها. لك أن تتخيّل المشهد: كان الجنود الإثيوبيون يحاربون ضد دباباتهم! وهكذا، وبفضل هذه الإستراتيجية، تمكّنت جبهة تحرير الشعب الإريتري من الانتقال من نظام حرب العصابات إلى جيش يمتلك الأسلحة الميكانيكيّة.

*** إنّما، لم تكن حركة المقاومة الإريترية تتوقّع تدخّل الاتحاد السوفييتي لإنقاذ الطغمة العسكرية الحاكمة لقيادة ديرغ، عام ١٩٧٧!**

مرت البلاد بفترة عصيبة جداً، إذ كانت القوات البحرية للجيش الأحمر تقصف مواقع جبهة تحرير الشعب الإريتري على طول السواحل. كما أرسلت موسكو ثلاثة آلاف مستشار عسكري، في حين كان الجسر الجوي يفرّغ كميات هائلة من السلاح في أديس أبابا. يُقدّر السلاح الذي تسلمه الجيش الإثيوبي، في ذلك الوقت، بألف دبّابة، وألف وخمسمئة عربة مجنزرة، إلى جانب تسعين طائرة مقاتلة ومروحية حربيّة.

بعد حصوله على الدعم السوفييتي، شنّ منجيستو في شباط ١٩٨٢، هجوماً واسع النطاق على إريتريا، أطلق عليه اسم حملة «النجمة الحمراء» ضمن جيش قوامه مئة وخمسون ألف مقاتل، فكانت أعنف معركة شهدتها أفريقيا منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانيّة.

*** مع كل ذلك الدعم، لم يحرز منجيستو أي انتصار على جبهة تحرير الشعب الإريتري...**

تميّزت تلك الفترة التي عاشها الشعب الإريتري في تاريخ نضاله لنيل الاستقلال، بأنها الأشرس على الإطلاق. اضطرت جبهة تحرير الشعب الإريتري إلى اللجوء إلى انسحاب إستراتيجي، وذلك بتخلّيها عن مواقع كانت قد سيطرت عليها في السابق. من جهته، أبرم منجيستو اتفاقاً مع السودان، يعمد بموجبه السودان إلى إغلاق حدوده مع إريتريا بشكل كامل، فانقطع بذلك النفط والغذاء وغيرهما من الإمدادات عن المقاتلين الإريتيريين، إذ كانت تصلهم عبر السودان بشكلٍ طبيعي. فاستحال على اللاجئين قدرة الوصول إلى المعسكرات التي خلف الحدود.

على الرغم من كل ذلك، فشل الجيش الإثيوبي في القضاء على جبهة تحرير الشعب الإريتري. يجب الإقرار بأن هذه الجبهة تميّزت بتنظيمها المتطوّر. بالتأكيد، كان الجنود الإثيوبيون أكثر عدداً وعتاداً، لكنهم لم يكونوا يملكون سوى الانصياع لأمر الحاكم المستبد. في حين حصل مقاتلو جبهة تحرير الشعب الإريتري، من جهتهم، على أفضل تدريب، وكان الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه سامياً.

وأخيراً، سجلت حملة «النجمة الحمراء» نقطة تحوّل في طريق النضال الطويل لنيل الاستقلال، فكانت المرة الأخيرة التي تهدّد بها الحكومة الإثيوبيّة المقاومة الإريترية بشكل حقيقي. بعد أن انتهى الهجوم الذي امتد لأشهر طويلة، بدأت جبهة تحرير الشعب الإريتري تستعيد مواقعها التي اضطرت فيما مضى إلى التخلّي عنها. وتمضي سنوات بعدها، ويُعلِن الاتحاد السوفييتي الذي كان على شفير الانهيار، توقفه عن تزويد منجيستو بالسلاح.

عندئذٍ، بدأت الحكومة الإثيوبية تتخبّط. إذ لم يترتب عليها مواجهة جبهة تحرير الشعب الإريتري فحسب، بل أيضاً فصائل مقاومة أخرى، كانت قد تشكّلت خارج إثيوبيا، بينها، جبهة تحرير شعوب التيغري، التي كانت تقاتل جنباً إلى جنب مع الإريتريين. في البداية، طالبت هذه الحركة باستقلال شعب منطقة التيغري، إلّا أن الإريتريين كانوا على علمٍ بخطورة الخوض في نضال وفق تقسيمات تابعة للجنسيات المختلفة، فقدموا لهم النصح قائلين: «أنتم إثيوبيون في الدرجة الأولى، وعليكم أن تباشروا القتال انطلاقاً من جنسيتكم الإثيوبيّة، كما يترتب عليكم حثّ كل أبناء البلد من أجل الإطاحة بالطغمة العسكرية المستبدة الحاكمة».

وهذا بالضبط ما حصل عام ١٩٩١، سقطت الطغمة العسكرية الحاكمة، ولاذ منجيستو بالفرار، وبذلك نالت إريتريا استقلالها بعد ثلاثين عاماً من النضال المتواصل.

*** بعد كل هذه التغيرات التي طرأت على الساحة، كيف تطورت العلاقات بين إثيوبيا وإريتريا؟**

تتكوّن إثيوبيا من إثنيات متعددة، ولم يكن النظام الحاكم يمثّل تنوّع الشعب الإثيوبي، سواء كان ذلك في عهد منليك الثاني، أم هيلا سلاسي، أم

منجيستو. كانت تدير البلاد أقليّات تعمل في خدمة مصالحها الخاصّة، مما أوجد فوارق صارخة بين طبقات الشعب. ولمّا تولّت الحكومة الجديدة زمام السلطة عام ١٩٩١، اعتقد الجميع أن الأمور ستتغيّر إلى الأفضل. وأنا شخصياً وافقت على العمل في السلك الدبلوماسي في هذه الحكومة، كما أن إريتريا علّقت كثيراً من الآمال على هذه الحكومة الجديدة. إذ لمّا نالت استقلالها، كانت إريتريا تشكّل حاجزاً أمام وصول إثيوبيا إلى البحر الأحمر، فما كان من الرئيس الإريتري إسياس أفوِرقي، إلّا اقتراح إنشاء منطقة تبادل حر بين الدولتين، ما سمح لإثيوبيا باستخدام الموانئ الإريتريّة بسهولة كبيرة.

لقد وُضعت الأسس لقيام التعاون بين دول القرن الأفريقي، وبدا أن السلام سيعم المنطقة بشكلٍ دائم.

*** إلّا أنكم ما لبثتم أن فقدتم حماسكم من جديد. أليس كذلك؟**

عُين ميليس زيناوي، زعيم حركة التيغري، رئيساً للحكومة في إثيوبيا، عام ١٩٩١. إنّما هذا الرئيس لا يتمتّع بأي رؤية سياسيّة، فحافظ على التقاليد التي تنص على إدارة البلاد، وفقاً لمصالحه الخاصّة، ومصالح من يحيطون به، متجاوزاً بذلك تنوّع الأعراق في البلاد. ثم بادر إلى تدمير المؤسسات التي ورثتها الدولة عن منجيستو، بدل أن يعمل على تكييفها وفقاً للنظام الجديد. فمثلاً، عمل على تسريح أفراد الجيش التابع لمنجيستو، بدلاً من فتح حوار ديمقراطي معهم، بغية النظر في كيفيّة تطوير الأمور. لذلك، وجد كثير من الضباط أنفسهم عاطلين من العمل، بعد أن أمضوا جلّ حيواتهم في القوات المسلحة. باختصار، عملت الحكومة الجديدة، وبكل بساطة، على تدمير هيئات الدولة الإثيوبيّة. ولمّا لمس السفير الأمريكي

هذه السياسة المدمرة، شعر بالغبطة تغمره. لقد عادت إثيوبيا مجدداً تحت رحمة المصالح الإمبريالية.

*** بعد انقضاء ثلاثين عاماً من النضال، وصلت جبهة تحرير الشعب الإريتري إلى سدة الحكم عام ١٩٩٣، فكيف انتقلت من المقاومة المسلّحة إلى الإدارة السياسية؟**

كما سبق أن بينتُ في البداية، لم تكتفِ جبهة تحرير الشعب الإريتري بقيادة النضال المسلّح ضد المحتلّ الإثيوبي، بل انكفأت على تطوير مشروع سياسي حقيقي داخل البلاد. ففي كل الأقاليم التي كانت تبسط نفوذها عليها، كانت تعمد إلى وضع قواعد للمنشآت الضرورية لتلبية الحاجات الأساسيّة في مجالات الصحة والتعليم والغذاء. ولمّا حصلت على استقلالها، تابعت جبهة تحرير الشعب الإريتري تنفيذ المشروع السياسي الذي بدأته طيلة سنوات النضال لنيل الاستقلال. كما كان لجبهة تحرير الشعب الإريتري فلسفتها الخاصّة بها، «نحن لسنا في حاجة إلى الغرب كي يعمل على تطويرنا».

بالفعل، لمّا كانت إريتريا تناضل من أجل نيل استقلالها، كانت تقف وحيدة في الساحة في وجه القوى الدولية العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفييتي، أوروبا، إسرائيل وغيرها... كانت كل تلك الدول تؤيّد المحتلّ الإثيوبي. لقد ساعد هذا الوضع الخاص في صياغة المنظور السياسي لرجال المقاومة الإريترية، كما علمهم كيفية إعالة أنفسهم. لقد علموا من التجربة، كيف تلجأ دول الاستعمار الحديث إلى زرع الانشقاقات بين الأفريقيين، من أجل الاستيلاء على ثروات القارة بشكل

أفضل. انطلاقاً من هذا الواقع، قررت إريتريا اتباع سياسة لا تترك بواساطتها مجالاً لتدخل أي من الدول الأجنبية.

*** وهل نجحت في ذلك؟ أي هل تستطيع دولة أفريقيّة أن تحقق تطورها دون مساعدة الغرب؟**

بالتأكيد! ففي عام ٢٠١٠، كانت كل الدول الأفريقيّة تحتفل بمرور خمسين عاماً على نيل استقلالها. إنّما في حقيقة الأمر، لم تفلت القارّة الأفريقيّة قط من قبضة الاستعمار الذي اتخذ شكلاً جديداً. فاليوم، وبفضل بعض المؤسسات، كمنظمة التجارة العالميّة، يفرض الغرب قواعد التجارة التي تتيح للشركات متعددة الجنسيات نهب الثروات الأفريقيّة، واستعباد الشعوب. إذ تعمل هذه الشركات متعددة الجنسيات على إغراق القارّة السمراء بالمنتجات المدعومة، التي تمنع المنتجين المحليين من تطوير صناعاتهم. وكل ذلك يتم بطريقة سلسة، نتيجة وجود أقليّة حاكمة في معظم الدول الأفريقية، متواطئة مع الغرب، تحقق مكاسب جسيمة بسبب هذا النظام التجاري، في حين يرزح السواد الأعظم من الشعوب في البؤس.

لذلك، نعم، يستطيع أي بلد أفريقي أن يحقق تطوره ونموه بعيداً عن مساعدة الغرب، فما لم يتخلّ الغرب عن خوذة المستوطن، فإنه سيبقى يشكّل عائقاً أمام التنمية في أفريقيا.

*** هل نستطيع التحدّث عن «الثورة الإريترية»؟**

بكل تأكيد. لقد وضعت الحكومة أنموذجاً لنموها، يعتمد على خمس دعائم محورية، بدءاً من الأمن الغذائي، فإريتريا لا تستطيع الدفاع عن

سيادتها الوطنية إذا كان شعبها يتضوّر جوعاً. لذلك منحت كل فلاح قطعة أرض خاصّة به، عملاً بقانون الإصلاح الزراعي. كما أنشأت محطات للجرارات الزراعيّة، وضعتها تحت تصرّف المزارعين، وعرضت عليهم المساعدة في تأدية عملهم، فالزراعة هي عمل شاق، وبشكل خاص عندما تكون المعدات المتوافرة بدائية. إنّما مع مساعدة الدولة، تمكّن الفلاحون من استغلال أوقات فراغهم المتاحة لتعلّم القراءة والكتابة، وللتدرّب على مهن أخرى.

توفير الماء الصالح للشرب، كان المحور الثاني لاهتمام الحكومة، فهناك كثير من الأمراض في أفريقيا، يرتبط مصدرها بالمياه غير الصالحة للشرب. إنّما يمكن التصدّي لهذه المشكلة بتأمين المياه النقيّة إلى جميع القرى.

أما المحور الثالث، فيتعلّق بالصحة. إذ تمتلك إريتريا شبكة عيادات طبيّة فعّالة، منتشرة في كل مكان، ومرتبطة بالمستشفيات. كما توفّر الحكومة الرعاية الصحية بالمجان. وبالمقارنة مع إثيوبيا، يموت المريض هناك في حال لم يملك المال الكافي لتلقي العلاج. وأيضاً... يحكى أن المغني الشهير إثيوبي الأصل «جوني هوليداي»، كان يعاني من مضاعفات خطرة، تتعلّق بمرض السكري، فكانت السلطات الإثيوبية تنقله بين المستشفيات التي كانت تفتقر، في مجملها، إلى المعدات اللازمة لتقديم الرعاية الصحيّة، ما أدى إلى وفاة النجم الإثيوبي.

وتعلّق المحور الرابع بالتعليم، إحدى أولويات الحكومة التي أرادت تطوير مواردها البشريّة. لقد غاب عن الأذهان في أفريقيا، أن الموارد الماديّة وحدها لا تكفي لإحداث تنمية في البلد. بالتأكيد، كان ذلك يصبّ

في مصلحة القوى الإمبرياليّة التي لم تتوقف عن إقناع الأفريقيين بضرورة وجودها، من أجل مساعدتهم، للاستفادة من مواردهم الماديّة. فالعامل البشري هو أمر حيوي، لذلك أرادت إريتريا تدريب موظفين أكْفاء ومدربين، من أجل استغلال المواد الأوليّة في البلاد بأفضل طريقة.

ويتشكّل المحور الخامس والأخير من الإريتريين المغتربين، الذين يرسلون المال إلى أسرهم المقيمة في البلد. وبالمناسبة، فهم يدفعون نسبة مئوية للحكومة، ما يؤمّن لها مصدر إيرادات ضخم. وقد أثبتت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فشلها في قطع أو تعطيل شبكة التمويل هذه.

*** هل هذا يعني أن هؤلاء المغتربين يدفعون الضرائب مرتين: الأولى في البلد الذي يعيشون فيه، والثانية للحكومة الإريترية؟**

نعم، لكنهم على ثقة أن هذا المال سيُستخدم بشكل خاص في تشييد المدارس، وشق الطرق، وبناء المستشفيات، لا لبناء فيلّا خاصّة للرئيس إسياس أفوِرقي، الذي يعيش حياة متواضعة. إضافة إلى ذلك، فهؤلاء المغتربون مرتبطون ببلدهم، ويعرفون حق المعرفة من الذي حرر هذا البلد. إن عملية حشد الأهالي، سواء من كان منهم داخل البلد، أم خارجه، هي عامل حيوي في الثورة الإريتريّة، إنها طبقة الإسمنت التي تدعم الركائز لأنموذج التنمية.

إليك هذا المثال، لمّا استعمر الإيطاليون إريتريا، بنوا خط سكة حديدية، يربط ميناء ماساوا بالعاصمة أسمرة. إنمّا، لمّا اشتعل فتيل حرب الاستقلال، عمد الإثيوبيون إلى جمع قسم من الفولاذ الداخل في عملية

تصنيع هذا الخط الحديدي، محدثين فيه أضراراً جسيمة، بإنشائهم خنادق داخله. ولمّا حصلت إريتريا على استقلالها، أرادت الحكومة إعادة بناء هذا المحور الاستراتيجي، فما كان من الشركات الغربيّة إلّا عرض خدماتها، في اقتراح منها لتحمّل مسؤولية هذا الإنجاز، مقابل مبالغ ضخمة، بلغت ٤٠٠ مليون دولار! فكان جواب إريتريا، «نشكركم، ولكننا نحن من سينجز هذا العمل». فحشد الشعب إمكاناته، بشبانه، ونسائه وعجائزه... وأعاد بناء هذا الخط، الذي أُعيد إلى الخدمة اليوم. فكم بلغت تكلفة هذا الإنجاز؟ بلغت ٧٠ مليون دولار.

الفكرة هي أن نعتمد على أنفسنا في إنجاز كل ما هو في مقدورنا، كي نستغني عن القوى الغربيّة.

*** هل أثبتت إريتريا عملياً، أنه في مقدور أي بلد أفريقي، تحقيق تطوره، في منأى عن الاستعمار الحديث؟**

بالفعل، كل شيء يعتمد على تصنيفك للأولويات. فإذا وضعت قطاع الصحة، والتعليم، والأمن الغذائي ضمن أهدافك الأولوية، تستطيع عندئذٍ تحقيق التطور الذي تريد. إنّما في المقابل، وكما هو حاصل في كثير من البلدان الأفريقيّة، إذا انحصر اهتمامك الأول في اتباعك لقواعد التجارة العالميّة، فإنك هالك لا محالة!

كتب جون بيركينز، أحد الأعضاء المحترمين في عالم الأعمال المصرفيّة، كتاباً مثيراً للاهتمام، بعنوان، (اعترافات قاتل اقتصادي محترف). جاء فيه وصفٌ للعمل الذي كان يقوم به، ويتمثّل في مساعدة الولايات المتحدة

الأمريكية في ابتزاز مليارات الدولارات من الدول الفقيرة، عن طريق منحها القروض التي تفوق قدرتها على السداد. فإذا كنت تحكم بلداً في الجنوب، ووافقت على مشاريع تشرف على تنفيذها مؤسسات غربية، مثل المصرف الدولي، أو صندوق النقد الدولي، فإن اقتصادك سيشهد حالة من عدم الاستقرار، وسينتشر الفساد وينمو، فضلاً عن تضييق القوى الإمبرياليّة الخناق عليك.

لهذا السبب، تلجأ القوى الإمبرياليّة إلى حشد القتلة الاقتصاديين المأجورين، قبل إرسال استخباراتها المركزية، لزعزعة استقرار حكومة البلد الذي ترى أنه يتمتّع بقدر مفرط من الاستقلالية. لذلك، حينما ينتشر الفساد في مكان ما، فهذا دليل على نجاح مساعي الإمبرياليّة. من أجل هذا، تناضل الحكومة الإريترية جاهدة لمنع حدوث هذا الأمر.

إعادة تدوير الإيرادات النفطيّة

رهان جوهري للولايات المتحدة الأمريكية

بادر الرئيس نيكسون عام ١٩٧١، إلى وضع حدٍّ لقابلية تحويل الدولار إلى الذهب (راجع الفصل ٤). وفي الوقت عينه، عقدت الولايات المتحدة الأمريكية اتفاقاً مع منظمة البلدان المصدّرة للبترول، من أجل الحفاظ على الدور المحوري المميّز لورقة الدولار، ينص هذا الاتفاق على حصر بيع النفط بالدولار، بدءاً من ذلك التاريخ، وإعادة ضخ الجزء الأكبر من الإيرادات النفطيّة في مصارف لندن ونيويورك.

في أعقاب الأزمة النفطية عام ١٩٧٣، اتخذت هذه المصارف قراراً بإعادة تدوير الإيرادات النفطية في شكل قروض، تُمنح للدول النامية. فالفوائد الباهظة تبشّر بمكاسب كثيرة. علاوة عن ذلك، يترتب على الدول النامية التزوّد بالسلع الغربية، باستخدام هذا المال، وفي ذلك مدعاة لإنعاش اقتصاد الشمال الذي يعيش حالة احتضار.

مصيدة المديونيّة

إنّما، مع حلول عام ١٩٨٠، ظهرت أزمة الديون. لقد بات الكم الهائل من الديون يثقل كاهل الدول النامية، التي أصبحت عاجزة تماماً عن

دفع ديونها. بالإضافة إلى حاجة هذه الدول إلى سيولة من الدولارات، من أجل سداد قيمة النفط، وسداد المدينين، وبسبب كون هذه الدول غنيّة بالمواد الخام، عكفت على رفع مستوى صادراتها، للحصول على ورقة الدولار، فنتج عن هذه الزيادة في العرض، فعل عكسي، أدّى إلى هبوطٍ في الأسعار، متزامنٍ مع انخفاض في الإيرادات.

عندئذٍ، تدخّل صندوق النقد الدولي بصفته «الملجأ الأخير»، أو «الإجراء الأخير»، لينقذ الدول النامية من الإفلاس - وليضمن للدائنين استعادة خراطيشهم - عن طريق إغراق هذه الدول بمزيد من القروض. إنّما، في مقابل هذه القروض، ترتّب على الدول النامية تطبيق ما يسمّى بعلاج الأزمة، وفق طريقة صلصة الدول الليبراليّة الجديدة، التي تنص على تنفيذ نظام الخصخصة، وإلغاء الميزانيات الاجتماعيّة، وتوجيه الإنتاج نحو سوق التصدير، وإلغاء التعريفات الجمركية، إلى آخر ما هنالك من بنود علاجية...

التصفيات التي يمارسها صندوق النقد الدولي

لقد تنازلت الدول النامية عن سيادتها الوطنية عندما سمحت لصندوق النقد الدولي بإملاء سياسته الاقتصادية عليها، إذ وفّرت هذه السياسة الفرصة أمام الشركات متعددة الجنسيات لتحقيق مكاسب هائلة، عن طريق استيلائها على المواد الخام للبلد، والاستفادة من اليد العاملة الرخيصة، وضمان أسواق لتصريف منتجاتها. نتج عن هذه السياسة الاقتصادية القضاء على صغار المنافسين المحليين. لذلك، عّدَّت هذه الديون بأنها «جائرة»، إذ:

١- فُرضت بطريقة الابتزاز، أو بإفساد الحكام الطغاة المحليين.

٢- استفاد عدد كبير من هؤلاء الطغاة من هذه الأموال، لتحقيق ثرائهم الشخصي، بدلاً من تطوير المشاريع في بلادهم، خدمةً لشعوبهم (فكان الطاغية موبوتو في زائير، وسوهارتو في إندونيسيا، ودوفالييه في هاييتي، وغيرهم...).

٣- سمحت هذه الديون للدول الاستعمارية الحديثة، ببسط سيطرتها على اقتصاد دول الجنوب.

٤ - أثبتت نسب الفوائد الباهظة أن القروض لم تكن سوى وسيلة للنهب، بدلاً من كونها وسيلة للدعم، إذ سدّدت الدول النامية ١٠٢ مرة القروض المترتبة عليها، عام ١٩٧٠، وفي غضون ذلك، ضوعفت ديونها ثماني وأربعين مرةّ!

*** يتكوّن النسيج الاجتماعي الإريتري من إثنيات عدة. فكيف نجحت الحكومة في حشد كل أطياف الشعب، وتجاوزت المكوّنات الاجتماعية المتنوعة، في الوقت الذي يتسبب هذا التنوّع في نشوب نزاعات داخلية في العديد من الدول الأفريقيّة؟**

انطلقت الثورة الإريترية من مبدأ جوهري يعتمد على تكافؤ الفرص بين القوميات المتعدّدة. إنك إن قابلت التعدديّة بالاحترام، وعاملت من ينتمون إلى مختلف الإثنيات والأديان على قدم المساواة، تستطيع عندئذٍ الاعتماد على دعم الشعب برمته. ففي إريتريا، يتساوى عدد الذين يدينون بالدين المسيحي مع عدد الذين يدينون بالدين الإسلامي، كما يوجد ما لا يقل عن تسع إثنيات مختلفة أخرى، كالتيغري، والآفار، والكوناما، والساهو، وغيرهم، لكن يبقى شعورهم بالانتماء الوطني هو الغالب.

إلى جانب ذلك، لعبت الثقافة دوراً بارزاً. لقد أولى الحكام الإريتريون التنوّع الثقافي جلّ اهتمامهم، بحثّهم كل قبيلة للتعريف بمزايا تقاليدها، ومشاركتها مع الآخرين. تشهد أفريقيا في جميع مناطقها، تناحراً بين مختلف الإثنيات أو الديانات، في حين تنظّم الإثنيات المختلفة في إريتريا، حفلات راقصة مشتركة!

*** إنّما، مع الأسف، لا يمكن وصف العلاقات مع الشعب الإثيوبي الجار بأنها جيدة. فلماذا لا يزال التوتّر موجوداً بين الشعبين؟**

لقد تولّت الأقليّة التيغرية زمام الحكم في إثيوبيا اليوم، هذه الأقليّة هي نفسها من شكّل الحركة الانفصاليّة في السبعينيات، تحت اسم «الجبهة الشعبية لتحرير التيغري»، ووقفت إلى جانب الإريتريين، في وجه النظام العسكري المستبد بقيادة منجيستو. إلّا أنه، بخلاف إريتريا التي كانت مستعمرة إيطالية سابقاً، كان إقليم التيغري يشكل جزءاً لا يتجزأ من إثيوبيا. وكما بينتُ آنفاً، قدّم الثوّار الإريتريون النصح لإخوانهم، وحثوهم على توظيف نضالهم من أجل الشعب بكلّ أطيافه، بقطع النظر عن تعدد الإثنيات، حتى لا ينحصر في تحرير جماعتهم. بالإضافة إلى ذلك، أدركت جبهة تحرير الشعب الإريتري أن تحرير إقليم التيغري لا يترتب عليه بالضرورة تحرير إريتريا. كان لا بد من إحداث تغيير في النظام الحاكم في أديس أبابا، كما كان يترتّب على رجال المقاومة توحيد جهودهم في هذا الاتجاه.

أُطيح بالنظام العسكري عام ١٩٩١، وبفضل النصائح التي قدمها الإريتريون لقبيلة التيغري، تمكنت هذه الأخيرة من الوصول إلى سدة الحكم. بقيت قيادة إثيوبيا حتى ذلك التاريخ، في أيدي الأقليات الإثنية التي كانت تعمل في خدمة مصالحها الخاصّة. واعتقد الجميع أن الحكومة الجديدة ستخرج عن هذا العرف السائد، وتطبّق مبدأ المساواة بين مختلف الجنسيات، تلك المساواة التي تُعدُّ شرطاً أساسياً في إعادة إحلال السلام، والعمل على تطوير قطاعات البلد كافة. إنّما، للأسف، سار رئيس الوزراء ميليس زيناوي، الذي قاد البلد منذ ١٩٩١، وأعيد انتخابه وفق إجراءات انتخابية مزيفة، تمّت عام ٢٠١٠، سار على خطا أسلافه، منيليك الثاني، وهيلا

سلاسي، ومنجيستو. وكما سبق لي أن أوضحت، فهو لا يملك أي رؤية سياسيّة، ويقود البلاد وفق مصالحه الشخصيّة. أما استمراره في السلطة، فيعود إلى الدعم الذي يتلقاه من الولايات المتحدة الأمريكية.

*** بقيت إثيوبيا في عهد الإمبراطور سلاسي، الحليف الرئيس للولايات المتحدة الأمريكية، لكنها فيما بعد، آثرت الانضمام إلى صف الاتحاد السوفييتي في عهد الحاكم العسكري الطاغية منجيستو. كيف عادت مرة أخرى إلى النطاق الأمريكي؟**

اقترف الاتحاد السوفييتي خطأً فادحاً بدعمه لنظام منجيستو الذي يزعم أنه اشتراكي. في حين كانت الرؤية السياسية للولايات المتحدة الأمريكية أكثر وضوحاً، إذ أدركت أن النظام الإثيوبي الحاكم لم يكن يتمتّع بأي قاعدة شعبية، لذا فهو يتصف بالهشاشة. في الواقع، لم تكن الدول الإمبرياليّة لتحلم بأفضل من هذا الترتيب، فالنظام الذي لا يمثّل التنوع العرقي لشعبه، ولا يعمل إلّا وفق مصلحة الأقليّات، لا يمكنه البقاء في السلطة، دون دعمٍ من الدول الإمبرياليّة.

لذلك، كانت واشنطن على دراية تامة بطبيعة نظام منجيستو، وتأمل عودة إثيوبيا إلى دائرة نفوذها مجدداً. إنّما وصول ميليس زيناوي إلى السلطة، فاق كل التوقعات! لم يكن النظام الجديد يعمل لخدمة مصالحه الشخصية، ويفتقر لأي قاعدة اجتماعية فحسب، بل عمل على تدمير جميع المؤسسات التي ورثها عن منجيستو، مما أفرغ أجهزة الدولة من مضمونها. لهذا السبب ترى اليوم أن بقاء زيناوي في السلطة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدعم الولايات المتحدة الأمريكية المالي والعسكري والسياسي، ما يضطره للانصياع

لأوامرها. هل تريد واشنطن إنشاء قاعدة عسكرية؟ نعم، لا مانع لديه! هل تريد واشنطن من الجيش الإثيوبي أن يغزو الصومال؟ نعم، موافق، سيبادر إلى غزوها! ولا داعي لإجراء مفاوضات بهذا الشأن. يكفي من واشنطن أن تلوّح بالطلب ليبادر زيناوي إلى التنفيذ على الفور. وهذا بالذات ما ترفضه إريتريا لدول القرن الأفريقي، إنها تسعى إلى إنهاء التدخل الأجنبي. لهذا السبب لم توافق إريتريا اليوم على تطبيع العلاقات مع جارتها إثيوبيا، لكنها تؤيّد الحوار مع الجهات الفاعلة الإقليميّة، لإيجاد حلّ للصراعات، ولإرساء أسس التعاون، لكن إذا ما بقيت إحدى هذه الجهات الفاعلة ألعوبة بين يدي واشنطن، تحركها كيف تشاء، فسيبقى هذا المشروع معلقاً.

*** مع ذلك، أُبرمت اتفاقات تعاون بين إريتريا وإثيوبيا بعد سقوط منجيستو عام ١٩٩١. لماذا لم يُعمل بها؟**

نعم، لقد وقّعت الدول اتفاقات التجارة الحرة، كإزالة القيود الاقتصادية تدريجياً، والتعاون في المجالين المالي والنقدي، وحريّة انتقال الأفراد، إلخ ... كما حصلت إثيوبيا على حرية التصرف بالموانئ الإريترية (مُنعت إثيوبيا في عهد الاستقلال من الوصول إلى البحر الأحمر). ففي «عصب»، في سبيل المثال، المدينة الساحلية التي تقع جنوبي إريتريا، كان عدد العمّال الإثيوبيين مرتفعاً جداً. كما استطاعت إثيوبيا إنشاء أربع مدارس في هذه المدينة الساحلية، بما يتوافق مع مناهجها الدراسية.

لقد أراد الحكام الإريتريون إقامة تعاون مثمر مع نظرائهم الإثيوبيين، فهم يعرفونهم جيداً، وقاتلوا جنباً إلى جنب، لكن غياب الرؤية السياسيّة لزيناوي، وخضوعه للإمبرياليّة الأمريكية، كانا سبباً لإنهيار هذا التعاون.

*** شهدت العلاقات بين إثيوبيا وإريتريا إبان فترة زمنية وجيزة، انتقالاً من حالة التعاون إلى حالة الحرب. ما سبب نشوب النزاع الحدودي بين الأخوين العدوّين عام ١٩٩٨؟**

لم يكن موضوع الحدود سوى ذريعة أوجدها زيناوي وتشبث بها، في محاولة منه لقلب نظام الحكم في إريتريا. هذه الحدود هي من أفضل الحدود التي رُسمت على مستوى أفريقيا. لقد أعيد رسمها مرات عدّة، وحصلت على الموافقة بناءً على اتفاقات أُبرمت بين المستعمر الإيطالي والإمبراطورية الإثيوبية في بداية القرن العشرين. ثم فيما بعد، حُدّدت الأراضي الإريترية ككيان اتحادي بادئ الأمر، ثم كإقليم تابع لإثيوبيا لاحقاً. وحصلت هذه الحدود على الموافقة الدوليّة. إنّما، قوّض ميليس زيناوي صحيّة هذا الاتفاق عام ١٩٩٨. من جهته، لم يعر إسياس أفورقي، الرئيس الإريتري، أي أهمية لهذه القضية، حتى ذلك التاريخ، معتقداً أن الأمر مماثل لدى نظيره الإثيوبي. كان أفورقي يعلم تماماً أن الشريط الحدودي الذي رُسم قد اتخذ شكله النهائي، ومن ثَمَّ، فإن أهميته تبقى نسبية بين البلدين اللذين أقرّا التنقل الحر للأفراد عبر الحدود. كما اعتقد أفورقي وجوب إعطاء الأولوية للتحديّات الاجتماعية والاقتصادية التي يُفترض مواجهتها في المنطقة.

ساءت الأمور بين البلدين، وتدهورت، لما حاولت إثيوبيا ضمّ مناطق النزاع الحدودي إلى أراضيها، وإضفاء صفة الشرعية الفعليّة عليها، فقد أصدرت أديس أبابا خريطة لإثيوبيا، تشمل مناطق شاسعة من الأراضي الإريترية، وفي الوقت عينه، كثّفت غزواتها العسكرية في مناطق النزاع، وبادرت إلى طرد السكان من منازلهم أو اعتقالهم.

في شهر أيار من عام ١٩٩٨، أدّت الاشتباكات التي جرت بين رجال الدوريات على طول الشريط الحدودي إلى نشوب حرب علنية بين البلدين، فكان النصر حليف إريتريا في المعارك الأولى، وتمكّنت من استعادة أراضيها المحتلّة، موضوع النزاع. في هذه المرحلة، يتبيّن لنا بوضوح التباين بين مواقف أسمرة وأديس أبابا في تأويل هذا النزاع الحدودي.

لدى إريتريا، تعلّق الموضوع بالنزاع الحدودي، فتمسّكت بمواقفها حال استعادتها لأراضيها، وانتظرت من المحافل الدوليّة أن تؤكد لها أنها لم تتجاوز حدودها، فكان لها ذلك في عام ٢٠٠٢، إذ دعمت محكمة لاهاي للتحكيم موقف إريتريا بشأن الخط الحدودي الفاصل بين البلدين.

إنّما على النقيض، كانت أهداف هذه الحرب لدى إثيوبيا، مختلفة تماماً، إذ تعلّق الموضوع، وفقاً لتصريحات الحكام الإثيوبيين، «بوضع حد لغطرسة إريتريا»، و«إنزال العقوبة بـجبهة تحرير الشعب الإريتري» و«معاقبتها أبد الدهر».

*** هل كان ذلك تفسيراً للهجمات التي شنتها القوات الإثيوبية؟**

بالتأكيد. استمرت المعارك بشكل متقطّع، بعد أن بسطت إريتريا سيطرتها على أراضيها. إنّما، في الثاني عشر من شهر أيار من عام ٢٠٠٠، شنّت القوات الإثيوبيّة هجمة جديدة، بعد رفع قوامها من ٥٠,٠٠٠ مقاتل إلى ٣٠٠,٠٠٠، كما أعادت تنظيم قياداتها، وأنفقت نحو المليار دولار في مجال التسليح. لقد توسعت ساحة القتال حتى امتدت إلى ما وراء الشريط الحدودي المتنازع عليه. بل تحوّل الصراع الحدودي إلى حرب اجتياح حقيقيّة. كانت إثيوبيا تحلم بصراحة بالإطاحة بالحكومة الإريترية.

لذلك اختارت زمن الغزو بعناية فائقة، إنه الوقت الذي ينهمك فيه الفلاحون في زرع البذور في حقولهم. إنها إذ دخلت في المنطقة الأكثر خصوبة من إريتريا، فإن الجيش الإثيوبي سيضمن فرار الفلاحين، ما سيؤدي إلى التسبب في المجاعة.

اتسمت هذه الحرب، فعلياً، بالكارثة الإنسانيّة، ومع ذلك، فشلت إثيوبيا في إسقاط العاصمة الإريترية، أسمرة. كان جيش العدو الإثيوبي يفوق المقاتلين الإريتريين بالعدد والعتاد، مما دفع الإيريتريين إلى اللجوء إلى حرب العصابات، ودحر الغزاة خارج الحدود.

*** لماذا كان ميليس زيناوي مصرّاً على إسقاط الحكومة الإريترية؟**

تمثّل هدف زيناوي في تحويل إثيوبيا إلى دولة عظمى، تستطيع بسط سيطرتها على منطقة القرن الأفريقي، وبناء قاعدة شعبية له. فكانت السلطة في إثيوبيا محصورة بين أيدي قبيلة التيغري، وهم أقليّة، إذ تمثّل ٦% من تعداد السكان. إضافة إلى ذلك، فإن الحكام الموجودين في المناصب القيادية في أديس أبابا، بعيدين جداً عن مساقط رؤوسهم، لذلك لا يملكون في العاصمة أي دعم على المستوى الشعبي، كما لا يملكون دعم النخبة الحاكمة. لهذا، كان زيناوي يريد من حربه على إريتريا، إعادة تجسيد حلم الإمبراطورية الإثيوبية، وضم الحشود. لقد نجح في ذلك لفترة وجيزة، وتراجعت التناقضات التي برزت في المجتمع الإثيوبي فاتحة المجال أمام انتشار الغلوّ. غير أن هزيمة الجيش الإثيوبي، وأساليب القتال التي استخدمها، ما لبث أن أعادت زرع الفجوات داخل هذا المجتمع مجدداً.

*** ما الذي تقصده بــ «أساليب القتال»؟**

يجب أن تعلم أن ضباط الجيش ينحدرون من قبيلة التيغري، في حين ينحدر غالبية الجنود من قبائل الأورومو وأمهرة، وهي أكثر القبائل عدداً. لجأ الضباط الإثيوبيون في أثناء الهجوم الكبير الذي شنته بلادهم على إريتريا، إلى اتباع خطة «التيّار البشري»، التي استُخدمت إبان الحرب العالمية الأولى. تعتمد هذه الخطة على إرسال أعدادٍ ضخمة من الجنود، إلى مواقع العدو المحصّنة، إلى حد إغراق صفوفه. مما لا شك فيه أن الخسائر البشرية ستكون ضخمة للغاية، وقد أظهر التاريخ أن هذه الخطة غير ناجحة على المدى البعيد. غير أن ضباط التيغري في الجيش الإثيوبي لم يعيروا ذلك أي اهتمام، وزجوا في الحرب، وبكل غباء، آلاف الجنود من قبيلتي الأورومو والأمهرة.

*** إنّما بلا طائل!**

نعم، لقد تحطمت آمال زيناوي في بناء قاعدة شعبية متينة، نتيجة الهزيمة التي مُني بها جيشه في حربه ضد إريتريا، والتناقضات الموجودة في صفوف جيشه. فلم يعد بإمكانه إلّا الاعتماد على دعم جزء يسير من مجتمع التيغري، وهذا لن يكون له عوناً. أما موضوع إعادة انتخابه، فكان أمراً مدهشاً. كانت عمليات التزوير واضحة المعالم، في الوقت الذي تزايدت فيه أعداد المعارضة. من يدري، إلى متى يستطيع زيناوي الاستمرار في قمع هذه المعارضة؟

*** لقد أفسدت المخالفات عملية التصويت الأخيرة في إثيوبيا. في حين لم تجرِ حتى الآن أي انتخابات رئاسية في إريتريا، منذ حصولها على الاستقلال**

عام ١٩٩٣. كما أنه لا يوجد أثر لأي معارضة سياسية، هناك حزب سياسي واحد يحكم البلد. هل، من جراء ذلك، أن إريتريا بلد ذو نظام دكتاتوري؟

لا يوجد أحزاب سياسية في أفريقيا، كما أن نظام الديمقراطية التعددية لا يُعمل به. يعود السبب في ذلك إلى الانقسامات التي يحدثها هذا الأنموذج السياسي. ففي الكونغو، في سبيل المثال، يمكننا القول إن عدد الأحزاب يتساوى باطراد مع تعداد السكان! والهدف من إنشاء تلك الأحزاب يكمن في إحداث الانقسامات بين أفراد الشعب، علماً أن هذه الانقسامات لن تتم وفقاً للقبائل، كما في الماضي، بل وفقاً للأحزاب السياسية. تتسّم هذه الديمقراطية بأنها ضعيفة بل هشّة.

ثم، إن التعددية الحزبية لا يمكن أن تقوم لها قائمة في أفريقيا. إذ إن هذا الأنموذج من الديمقراطية لا يمثّل سوى حصان طروادة للإمبرياليين، إذ تعمل القوى الاستعماريّة الحديثة على تشويه العمليّة الديمقراطيّة، بتمويل المرشحين الذين لديهم قابلية لتنفيذ متطلباتهم، كتيسير موضوع حصول الشركات متعددة الجنسيات على المواد الخام، والانسجام مع السياسة الخارجية، إلخ. أما في حال وجود التعددية الحزبية في أفريقيا، فسيقول لك الإمبرياليون كلما مضت أربعة أو خمسة أعوام: «أدلوا بأصواتكم لمصلحة هؤلاء المرشحين الذين اخترنا لكم، إنهم هنا من أجل إفقاركم وقتلكم. انتخبوهم!»

يبقى السؤال الآن، معرفة ما إذا كانت الديمقراطية التعددية هي المثل الأعلى الذي يجب على كل بلد أن ينتهجها بشكلٍ حتميّ؟ أو هل تستطيع دولة ما اختيار النظام السياسي الذي تراه الأفضل لها، ويتناسب مع ظروفها

الخاصّة وتاريخها وثقافتها؟ يفترض دعم النظام الذي يعزز وحدة الشعب، مع مراعاة التنوع الإثني والديني في إريتريا، من جهة، وحقيقة أن التعبئة هي أحد المكونات الأساسية لأنموذج التطور، من جهة أخرى. إذاً، فنظام الحزب الواحد الذي تدعمه اللجان، وينطلق من نظام ديمقراطي، هو ما يناسب ظروف إريتريا الخاصّة.

*** ينزع الغرب إلى الاعتقاد أن أنموذج الديمقراطية الذي نطبقه في بلادنا هو الأنجح. هل تعتقد أن ذلك صواب؟**

إن الديمقراطية التي يروّج لها الغرب هي ديمقراطية أقليّات. فأنت لا تجد السلطة في المجلس النيابي، كما لا تجدها في الأحزاب السياسية، إنما تجدها خلف هذه الهيئات، تجدها في أيدي من يملك المال، ومن يدير عجلة الاقتصاد، ومن يموّل الأحزاب. إنّما، لم يسبق لهذه النخبة الاقتصادية أن خضعت للانتخابات العامّة. ومع ذلك، فهي المسيطر الأول على السلطة. هل يمكن تسمية هذا الشكل من الحكم، بالديمقراطيّة؟

إليك هذا المثال البسيط: الإعلانات التي تخص الأطفال. لقد أثبتت الدراسات العلميّة الأثر السلبي للإعلانات المخصّصة للأطفال الصغار على نموهم؛ فلو طُلب إلى الشعب أن يدلي برأيه حول هذا الموضوع، بعد إعطائه صورة صحيحة وواضحة عنه، لاختار منع تداول هذا النوع من الإعلانات. مع ذلك، رفضت معظم الحكومات الغربية هذه الفكرة، وذلك استجابة للضغط الذي تمارسه بعض الجماعات. لذلك، يتبيّن لنا الأمر جلياً هنا، تبقى الغلبة لمصالح النخبة الاقتصادية على حساب إرادة الشعب.

أعرب نعوم شومسكي في كتابه (الدول الضائعة) عن قلقه بشأن العجز الديمقراطي للولايات المتحدة الأمريكية. لا تزال تدور في خلدنا الانتخابات التي أجريت عام ٢٠٠٠، التي يمكن أن نصفها بأنها الأغرب على الإطلاق، فقد تنافس فيها كلٌّ من جورج بوش الابن وآل غور. كما أورد شومسكي واقعة أخرى أكثر وضوحاً، عندما قدّمت حكومة بوش ميزانية فبراير لعام ٢٠٠٥. أظهرت إحدى الدراسات أن موقف الشعب الأمريكي كان مناهضاً للسياسة التي اتبعتها الحكومة آنذاك، حين اعترض الشعب على زيادة حجم الميزانية المخصّصة لبعض الهيئات (منها في سبيل المثال، وزارة الدفاع، والحروب في كلٍّ من العراق وأفغانستان، والاعتماد على النفط، وغير ذلك...)، فهو يرى ضرورة تخفيضها. في المقابل، يرى الشعب ضرورة زيادة الميزانية المخصصة في مجالات أُخر (كالتعليم، وتقليص نسبة العجز، والدعم المقدّم للمحاربين القدماء، إلخ...)، في حين عملت الحكومة عكس إرادة الشعب في هذه المجالات.

يتعذّر علينا هنا تحليل مجمل ثغرات الأنظمة الديمقراطية الغربية، إذ لا يتسع المجال للإطالة في هذا المقام. غير أن الاعتقاد السائد بأن هذا الأنموذج من الديمقراطية هو الترياق السحري، أمرٌ يحمل في طياته كثير من الغرور، كما أنه بعيد كل البعد عن الواقع. لقد اقترحت نائبة وزير الثقافة البوليفية مؤخراً تعريفاً للديمقراطية، كانت قد أعدته شخصياً، قالت فيه: «يمكن عدُّ بلد ما بأنه ينعم بالديمقراطية، عندما تلبى جميع الحاجات الأساسية لمواطنيه». فإذا وافقنا على هذا المفهوم، فسيترتّب على الغرب تعلّم الكثير من دولة إريتريا في موضوع الديمقراطية.

*** قاد الرئيس إسياس أفوِرقي حركة المقاومة ضد الاحتلال الإثيوبي، وتولى رئاسة البلد منذ حصوله على الاستقلال. ألم يَعِدْ بإجراء انتخابات؟**

لقد صرّح أن البلاد تحتاج إلى إحلال النظام الديمقراطي، لكن تلبية هذه الحاجة تحتاج بادئ الأمر إلى تشكيل بعض الهياكل الأساسيّة. لا تزال إريتريا بلداً فتياً، وفي مرحلة تضميد الجراح، بعد الحرب التي خاضتها مع إثيوبيا. لم يكتمل أي شيء بعد، الطريق طويل أمامنا ولا نزال في أوله.

أنا أعتقد أن إريتريا بلد ديمقراطي شعبي، يتلقّى فيه الناس الرعاية الصحيّة، ولا يموتون حين احتسائهم كأس الماء، وكل شيء متوافر لديهم، العمل والغذاء والكهرباء... إني أفضّل العيش في مثل هذا البلد، على العيش في بلد يدّعي تطبيق الديمقراطية مثل الكونغو أو إثيوبيا. وإذا اعتبرنا، على الرغم من كل ذلك، أن إريتريا بلد دكتاتوري، فإني أوثر العيش في ظل هذا النظام الدكتاتوري. من أجلي، ومن أجل أطفالي، فأنا على يقين من أنهم سيحصلون على كل طلباتهم، وسيتمكنون من ارتياد مدارسهم بأمان.

*** غالباً ما توجَّه الانتقادات إلى الحكومة الإريترية حول موضوع حقوق الإنسان، وبشكل خاص، حق ممارسة الشعائر الدينية. فقد مُنعت ممارسة الأديان كافة، ما عدا الأديان الأربعة التي اعترفت بها الدولة رسمياً، وهي (الكنيسة الأرثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الإنجيلية اللوثرية الإريترية والإسلام). كيف تفسر موقف الحكومة من هذا الموضوع؟**

كلا. لم تُمنع الديانات الأخرى، لكنك في حال أردت الانضمام إلى طائفة أخرى غير تلك التي سمحت بها الدولة، يترتّب عليك التقدم بطلب خاص، وإرفاق ملف تذكر فيه بشكل مفصّل مصادر التمويل الغربية التي

تحصل عليها. إذ تسعى الحكومة، في واقع الأمر، إلى حماية الناس من الديانات المستوردة، التي تخدم المصالح السياسية، ونخص بالذكر هنا تيار العنصرة.

انطلق هذا التيار مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية، وهو موالٍ للحزب اليميني المتطرّف، الذي كان يدعم الرئيس جورج بوش الابن. لقد نال هذا الفيروس من الفئة الشبابية الأفريقيّة، تحت اسم حريّة ممارسة الشعائر الدينية، ودمّر الشبان بترويج فكرة «النجاح المادّي»، وتصعيد «النزعة الفردية». في الحقيقة، خدمت هذه التيارات الدينية المستوردة إلى أفريقيا المصالح السياسيّة، ما أتاح الفرصة أمام بريطانيا العظمى، وبصورة خاصة، أمام الولايات المتحدة الأمريكية لاختراق المجتمع الأفريقي. وبالفعل، عبّر القنصل العام الفرنسي في عام ١٩٤٦ عن قلقه حول جزء الكونغو البلجيكي، عندما قال: «لا تخشى الحكومة الأمريكيّة إبعاد المبشِّرين عن مهمتهم الأصلية المكلفين بها، لأنها تستخدمهم في توسيع دائرة نفوذها في المنطقة الغربية من أفريقيا الوسطى. (...) ومما لا شكّ فيه أنهم [المبشرين] يملكون الأموال الوفيرة، ما سيسهّل جذب الشعوب الأصلية إلى المدار الأمريكي».

واليوم، نشهد تطوراً في التقنيات المسخّرة لهذا الغرض، كأسلوب «الذهاب إلى أرض البيتزا»! لك أن تتصور المشهد: أنا مبشّر بروتستانتي أمريكي، وسترسو سفينتي في أفريقيا. أختار الفئة الشبابية التي تتمتع بفصاحة اللسان والبيان، وأوظفها. يعاني هؤلاء الشبان من نسبة فقر متقدّم، لذلك يكفي أن أعطيهم بعض المال، بغية تحويلهم عن دينهم. بتعبير

آخر، أنا أشتريهم. ثم أرسلهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى مدارس الأعمال التجارية القريبة من شركة «أرض البيتزا»، وهي شركة تعنى بتجهيز المنتجات الزراعية، وتمارس تقنيات تسويقية غاية في العدائية. ما إن ينتهي تدريبهم، يُرحّل هؤلاء المبشرون الشبان إلى أفريقيا، حيث يباشرون عملهم في إقناع الآخرين، لاعتناق هذا الدين الجديد، عن طريق الخطب، وإنشاء حلقات موسيقية، وإنتاج برامج متلفزة...

إنها الولايات المتحدة الأمريكية التي خطّطت لهذا المشروع، الذي يهدف إلى التأثير، ولقد أخذ في الانتشار في كل مكان من العالم.

لذلك، تتصدّى إريتريا لهذا المشروع، إذ إن هذه الديانة تتمحور حول فكرة الثروة المادية، وتصعيد النزعة الفردية. هناك من المبشرين من يتجوّل في سيارات الدفع الرباعي، ويرتدي الساعات الذهبيّة. كل هذا يهدف إلى إعطاء الدليل المادي بأنهم محفوفون ببركة الرب! إنّها، في المقابل، تنادي أسمرة بالرفاهية العامة والتضامن. من جهة أخرى، فُرضت الخدمة الإلزامية على الشبان في إريتريا، وهي تواكب تقديم خدمات مدنية، يشارك فيها الشبان في تشييد المستشفيات، ويقدّمون المساعدة للمزارعين في حقولهم، في سبيل المثال. إنّها بدأت الحكومة في مواجهة المصاعب، حين أعلن بعض الشبان من البروتستانت رفضهم أداء هذه المهمات، بدافع أن دينهم يمنعهم من ذلك. لهذا السبب، تستطيع اليوم، في إريتريا، اعتناق الدين الذي يروق لك، لكن عليك قبل ذلك إظهار النيّة الحسنة. لا تريد الحكومة لهذا الفيروس أن يخترق الشبان الإريتريين.

*** حتى لو كان الأمر يتعلّق بتأمين الرفاهية للشعب وللبلد، ألا يجدر بالحكومة أن تترك حرية الاختيار لمواطنيها؟**

الموضوع لم يعد يتعلّق بحرية الاختيار عندما يقدم المبشرون على توفير المال لأناس لا يملكون منه شيئاً. حينما تكون معدماً، فإنك لا تملك ترف الخيار، لأنك ستميل بشكل طبيعي إلى اختيار الحل الذي تعتقد أنه يعود عليك بالفائدة. إنها مسألة حياة أو موت. قد يبدو الأمر غريباً من وجهة النظر الغربية، عندما تفرض الدولة القيود على حرية ممارسة الشعائر. إنّما في أفريقيا، وفي البلاد التي تعيش حياة البؤس، فلا يمكننا التحدث عن حرية الاختيار في الوقت الذي يقدّم فيه المبشرون المال للناس من أجل تحويلهم عن دينهم، ومن أجل اختراق المجتمع، والتدخل في الشؤون العامة للدولة.

*** ثمّة موضوع آخر تُوجَّه بسببه الانتقادات إلى إريتريا، وبصورة منتظمة، ألا وهو حرية الصحافة. لماذا يحظر انتشار وسائط الإعلام الخاصة في البلد؟**

لا وجود لوسائط إعلام خاصة في أفريقيا. فإذا أردتَ إنشاء وسيلة إعلام خاصّة، تحتاج إلى رأس مال ضخم، ويتوجب عليك الدخول في منافسة مع وسائط الإعلام الغربية، في سوق محرّر من القيود. وهذا الموضوع صعب التنفيذ من الناحية العملية في الأقاليم الجنوبية الصغرى. يذكر أنه في السبعينيات، عمد العديد من بلدان العالم الثالث إلى التنديد بالإمبريالية الثقافية التي وقعوا ضحيتها، التي عرّفها هربرت شيلر، موظف الاتصالات، كما يلي: «إنها مجمل العمليات التي يُدخل عبرها مجتمع ما، ضمن إطار النظام العالمي الحديث، والطريقة التي يتم بها حمل الطبقة

الحاكمة - عبر أساليب الافتتان، أو الضغط، أو القوة، أو الإفساد - على تحديد شكل المؤسسات الاجتماعيّة، كي تتناسب مع القيم، ومؤسسات المركز المهيمن للنظام، أو أن تروّج له».

أطلقت منظمة اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم) نظام المعلومات العالمي الجديد، الذي يهدف إلى إعادة التوازن في عملية تدفق المعلومات حول الكوكب. إلا أن الدول الغربية قاطعت هذه المؤسسة، بل وصل الأمر ببريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى مغادرة منظمة اليونسكو.

نستخلص إذاً أن الدول الغربية تهيمن على عالم المعلومات، وتستخدم وسائط الإعلام كسلاح دعاية، لخدمة مصالحها في دول العالم الثالث، وفي أفريقيا بشكل خاص. بدأ هذا النوع من الممارسات مع الفاشية الإيطاليّة منذ العشرينيات. ودُعي المفتي الأكبر لمدينة القدس إبان الحرب العالمية الثانية، ليدلي برأيه بشأن البرنامج الذي يُبث باللغة العربية عبر إذاعة روما، تحفيزاً للشعوب المستعمَرة كي تتمرد على العدو البريطاني. لقد استخلصت الدول الإمبرياليّة العبر والدروس من هذه الدعاية الحربية، وطوّرت التقنيات. حتى إن قناة «البي بي سي» الفضائية أصبحت اليوم تبث برنامجاً دولياً متكاملاً. وهناك «صوت أمريكا» أو مركز خدمة البث الدولي للحكومة الأمريكية، فهو موجود بقوة في أفريقيا، ويبث باللغات الأمهرية والتيغرينية والصومالية، إلى غير ذلك من اللغات...

نعم، لن تنثر وسائط الإعلام الدولية، سواء كانت تابعة مباشرة لحكوماتها، أم تلك التي تعود ملكيتها لأصحاب رؤوس الأموال، الورد

على دول الجنوب، التي تحاول مقاومة الإمبريالية. لهذا السبب، اتخذت إريتريا قراراً بحظر وسائط الإعلام الخاصّة، سعياً منها إلى حماية البلد من هذه الحرب الإعلاميّة، التي لا تتنافس الدول فيها وفق أرضية مشتركة.

*** هل تعتقد أن المشكلة تكمن في التفاوت بين دول الشمال ودول الجنوب في عالم المعلومات؟**

بالتأكيد. ليُعلم أيضاً أن الكونغرس التابع للولايات المتحدة الأمريكية، أعدّ منذ فترة وجيزة تقريراً غنياً بالمعلومات، تناول خطر بعض وسائط الإعلام العربية؛ فهو يرى أن المحطات الفضائية التي تنقل الحقائق على أرض الواقع، في العراق بشكل خاص، إنما تنقل أفكاراً مناهضة للإمبرياليّة، وتؤثّر في الرأي العام الأمريكي. يرى الكونغرس أنه ينبغي حظر هذه المحطات «الإرهابية».

فمن جهة، توجِّه الإمبريالية الانتقاد إلى إريتريا بسبب غياب الإعلام الخاص، وتغرق بلدان العالم الثالث بمعلوماتها، لكنها من جهة أخرى، ترفض أن تبادر وسائط الإعلام في دول الجنوب إلى إيصال المعلومات الحقيقية إلى المواطنين في الغرب. ما السبب في ذلك؟ ألا تتسم حرية التعبير بالجودة إلا في حال كانت تعمل في خدمة مصالح الدول الإمبرياليّة؟ هل هناك أشياء تسعى الحكومات الغربية إلى إخفائها عن شعوبها، وما تقترفه من بشاعات في بلدان الجنوب؟

*** إضافة إلى غياب الإعلام الخاص، تُوجَّه الاتهامات إلى إريتريا باعتقال عدد كبير من الصحافيين، وزجهم في السجون. هذا دليل على أن الحكومة ليست منفتحة بكليّتها للنقد.**

يترتب علينا أولاً، التحقّق من الأرقام المعلن عنها. ثم يجب أن نعلم أن هناك كثيرين ممن ينتحل شخصية رجال الصحافة، أمّا في الحقيقة، فهم عملاء يعملون في خدمة القوى الإمبرياليّة.

أحد هؤلاء «الصحافيين» الذين أوردتَ ذكرهم، يعمل بشكلٍ مباشر مع السفارة الأمريكية. إن إريتريا هي دولة ذات سيادة، وتسعى جاهدة إلى إحراز التطور والنمو، لكن يحاول بعضهم ممن يعمل تحت ستار الصحافة، وبدعمٍ من مكاتب الاستخبارات السريّة الأمريكية، التلاعب بالرأي العام، في مسعىً منهم إلى زعزعة الأمن والاستقرار داخل الحكومة، ويحاول هؤلاء اختراق المجتمع الإريتري، وتحريض الفئة الشبابية على الهروب من البلاد. الفكرة هنا أنه في حال غادرت الفئة الشبابية البلاد، فإن ذلك سينعكس سلباً على القوات المسلحة بإضعافها، وستتوقف عجلة الاقتصاد عن الدوران، ما سيسهل عملية الإطاحة بالحكومة. ليست هذه المرة الأولى التي تلجأ فيها الولايات المتحدة الأمريكية إلى استخدام هذه التقنية، لقد سبق لها أن لجأت إليها في كوبا وفنزويلا. لقد موّلت وكالة المخابرات المركزية الإعلام المناهض لشافيز، كما موّلت أحزاب المعارضة، والمنظمات غير الحكومية، إلخ... لم تتوقف الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها عن زعزعة أمن واستقرار الحكومات التي لا تنحاز إلى سياستها.

*** ألا تعتقد أن ردة فعل الحكومة الإريترية جاءت عنيفة؟ إنني بصفتي أمارس مهنة الصحافة، أستطيع الذهاب إلى فرنسا وانتقاد الحكومة، ومع ذلك، لن أتعرّض للإعتقال.**

لن تُعتقل، لكن في حال كانت انتقاداتك مؤثرة، فلن تصبح ذائع الصيت، وستُنشر مقالاتك عبر المواقع الإخبارية البديلة، أو في سياق النشرات، في سبيل المثال. ولن تصل إلّا إلى جمهور ضئيل، مقارنة مع الجمهور الذي يتابع القناة الفضائية الفرنسية الأولى. أما إذا كنت تريد الظهور عبر وسائط الإعلام الرأسمالية الكبرى، فينبغي لك أن تعزف اللحن الذي يحبون سماعه. إذاً، أنت واقع في الأسر، بطريقة ما.

بالطبع، يمكنك أن تعبّر عن قلقك بشأن غياب الحرية في إريتريا. إنّما، هلا سألت نفسك هذا السؤال: كيف ستتصرّف دولة بلجيكا، في حال عمدت إيران إلى تمويل القنوات الفضائية التي تنادي بقلب نظام الحكم في بروكسل، وتهدّد باستمرارٍ بقصفها؟ كيف ستكون ردة فعل فرنسا، في حال أعلنت كوبا دعمها للجماعات الإرهابية التي تسعى إلى اغتيال نيقولا ساركوزي؟ ما العمل المعاكس الذي ستبادر واشنطن إلى فعله، إذا علمت أن فنزويلا تموّل وتدرّب الجماعات السياسيّة، والنقابات المعارضة داخل الولايات المتحدة الأمريكية؟ هناك الكثير للرهان حول تعليق موضوع الحريات التي يتمتع بها المواطنون في دول الغرب. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، لم تنتظر الحكومة حتى تصل إلى هذه المرحلة، كي تصدر مجموعة من القوانين القمعيّة، ومنها قانون الوطنية الخاص بأمريكا (Patriot Act)، لمكافحة الإرهاب.

*** في نهاية المطاف، أعتقد أن إريتريا تشبه إلى حد بعيد، كوبا! هل خاض كل من إسياس أفوِرقي وفيديل كاسترو المعركة نفسها؟**

صحيح أن كلاً منهما ناضل من أجل تحرير بلده قبل أن يتسلم سدة الحكم. لقد قاد كل منهما ثورة اجتماعية لمصلحة بلده. ويمكن عدُّ كل من

إريتريا وكوبا قلاعاً صامدة في وجه الإمبرياليّة، فاستحقا بذلك غضب الولايات المتحدة الأمريكية.

لهذا السبب تحديداً، تقود واشنطن ضد إريتريا مجموع الحملات الانتخابيّة عينها، التي سبق أن قادتها ضد كوبا، عن طريق توجيه الانتقادات إليها «بافتقارها إلى الديمقراطية». فضلاً عن التشابه الكبير بين النظام السياسي في كلٍّ من هافانا وأسمرة. إنّما، هل يمكن الجزم بأن انتقادات واشنطن تنطلق من أساس صحيح؟ يروى عن فرانسوا هوتارت تلك الفكاهة التي أطلقها حديثاً، التي تتحدث عن نائب في لوكسامبورغ، اعترف له بعد زيارة أجراها إلى هافانا، أن الديمقراطية المطبقة في كوبا تفوق تلك المطبقة في بلاده! فبالإضافة إلى وجود حزب واحد حاكم، وإلى ممارسة فيديل كاسترو للشؤون السياسية لفترة طويلة، وجد هناك العديد من المؤسسات الديمقراطية، لكن من مستويات أُخر. والأمر ينطبق على إريتريا، فمنذ أن بدأت نضالها لنيل استقلالها، عمدت جبهة تحرير الشعب الإريتري إلى وضع نصائح ديمقراطية في الأرياف، أطاحت عبرها بالنظام الإقطاعي، وحرّضت على تحرر المرأة، التي قد تشارك يوماً ما في الإدارة السياسية.

*** لقد أثارت الولايات المتحدة الأمريكية مسألة حقوق الإنسان في كلٍّ من كوبا وإريتريا ،...**

إذا أمعنت النظر في سياسة واشنطن، فإنك ستدرك أن الاهتمام الذي تبديه نحو هذه المسألة لا يصمد لفترة طويلة. فترى الولايات المتحدة الأمريكية تدعم المملكة العربية السعودية حين تتعرض امرأة للاغتصاب، فيحكم عليها بالجلد، وتودع السجن. وتدعم كولومبيا حيث يتم قتل المعارضين السياسيين وأعضاء

النقابات العمّالية بأعداد ضخمة. وتدعم الحاكم الطاغية إسلام كاريموف الذي يعمد إلى سلق المنشقين في أوزباكستان حتى الموت. ولا تزال القائمة طويلة. ففي موضوع التعذيب، تجد الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان، أو في العراق، أو في المعتقلات السريّة التابعة لوكالة المخابرات المركزية، تجيد فنون التعذيب، بل تتفوّق على الآخرين في هذا المضمار.

فضلاً عن ذلك، نذكر أن ميثاق حقوق الإنسان، أورد أيضاً ذكر الحقوق الاجتماعيّة والاقتصاديّة. ففي سبيل المثال، تنص المادة ١١ من الميثاق على أنه: **«يحق لكل إنسان الحصول على مستوى معيشة كافٍ لتأمين رفاهيته، ورفاهية أسرته، ولا سيّما فيما يتعلق بالغذاء واللباس والمسكن والعناية الصحيّة، إلى جانب تأمين الخدمات الاجتماعية الضرورية»**. إلّا أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية ليست راضية عن وجود هذه المادة في الميثاق، فهي تناضل جاهدة لإزالتها من اللائحة. وحسب ما جاء على لسان السفيرة السابقة للولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة، جان كيرباتريك، «تصلح هذه المادة كمضمون رسالة تُوجّه إلى بابا نويل»!

إلّا أننا في واقع الأمر، نتساءل من هو الأشد حرصاً على احترام حقوق الإنسان، هل هي إريتريا، أو كوبا، أو الولايات المتحدة الأمريكية؟ حينما تصل إلى مطار كوبا، يطالعك هذا الإعلان الذي كتب فيه : «هذا المساء، سيفترش ٢٠٠ مليون طفل الشارع ليناموا، ولن تجد بينهم أي طفل كوبي». في المقابل، تجد في الولايات المتحدة الأمريكية أسراً كاملة طُردت من بيوتها، ورُميت في الشارع، بسبب سياسة المصارف، وبسبب الدولة التي سعت إلى تحرير القطاع المالي. أما في فرنسا، بلد «حقوق الإنسان»، فإنك تجد ما يقرب من ٨٠٠.٠٠٠ إنسان بلا مأوى!

*** غالباً ما تثير الدول الغربية العظمى موضوع حقوق الإنسان. هل تعتقد أنها دول النفاق؟**

نعم، لكن مسألة تسخير حقوق الإنسان كأداة،لا تستثني الحكومة الإريترية من النقد، فلا يزال الطريق أمامها طويلاً. إنّما، وببساطة شديدة، علينا توخي الحذر عندما نسمع أن دولة كالولايات المتحدة الأمريكية تستخدم مسألة «حقوق الإنسان» لتقود سياسة حربية.

*** لم تتوقف الولايات المتحدة الأمريكية عن محاربة كوبا، لتمنع أي دولة أخرى في أمريكا اللاتينية من أن تحذو حذوها. أما اليوم، فإن إريتريا تشكل مصدر قلق لها. هل تعتقد أن هذه الثورة وأنموذج تطورها قد يكونان مصدر إلهام لدول أُخر، ويحرّران القارة السمراء من الاستعمار الحديث؟**

لكل دولة خصوصيتها. ولا يمكن أبداً تصدير أي ثورة بصيغتها الراهنة. مع ذلك، يجدر بباقي الحكومات الأفريقيّة أن تستلهم من هذه الإرادة الثابتة، وتسعى بدورها إلى التحرر من الدول الإمبريالية، فالقارة تمتلك كثيراً من الثروات!

يجب أن تعلم أيضاً أن الرؤية السياسيّة لإريتريا تبقى إقليميّة.

فهي لا تريد أن تترك مجالاً لتدخّل الدول الأجنبيّة، لكنها تعي تماماً أنها لن تستطيع تطوير البلد بمفردها. لذا ينبغي لكل دول القرن الأفريقي حشد جهودها، ومعالجة التناقضات فيما بينها، عن طريق الحوار. كما يمكن أيضاً إيجاد حلٍّ لأزمة الصومال فيما لو عولجت المشكلة من المنظور الإقليمي.

إن قارة أفريقيا غنية بالثروات، وتتمتّع بموقع جغرافي إستراتيجي، لذا يمكنها أن تتحوّل إلى قطب اقتصادي مهم جداً. تخيل لو امتدت منطقة التجارة الحرّة بين إريتريا وإثيوبيا لتشمل السودان وجيبوتي وكينيا وصولاً إلى أوغندا، فإنك ستحصل على سوق كبير، غني بالموارد، بعيد عن تدخل الدول الغربية العظمى، ومتّصل بالدول العربية، وبالسوق الآسيوية.

كانت هناك تجربة مماثلة في الستينيات، إذ أنشأت كل من كينيا وأوغندا وتنزانيا سوقاً مشتركة، بعد إبرام اتفاقات التجارة الحرّة، إلا أن الدول الإمبرياليّة رتبت لانقلاب مفاجئ في أوغندا بعد أن شعرت بالخوف من هذا الاتفاق، وسلمت السلطة لعيدي أمين دادا عام ١٩٧٥. بعد مضي عام، شهد مشروع السوق المشتركة انهياره، ودخلت كل الدول الأعضاء في أزمات. أما فيما يتعلق بأوغندا، فقد عاشت حرباً أهلية طويلة الأمد.

هذا ما تحاول إريتريا التخطيط له، لكن الدول الإمبريالية تسعى جاهدة لإيقاف هذا المشروع، لفزعها الشديد. لذلك تعمد الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتهام أسمرة بـأنها ترعى الإرهابيين، كما تعمل على تحريض إثيوبيا تجاه جيرانها.

الواقع أن الإمبرياليّة، ولا سيّما الإمبرياليّة الأمريكية، هي أسوأ عدو يهدد المنطقة. ما دام هذا التدخل موجوداً، فإن إريتريا ستواجه الصعوبات. إنّما، لو اتفقت الجهات الفاعلة في المنطقة مع إريتريا، وإن بنسبة ٥٠%، لتغيرت الأمور بشكل جذري، ولشهدت المنطقة حينها طفرة اقتصادية هائلة، ما سيجعل آثارها الإيجابية تتجاوز منطقة القرن الأفريقي!

قائمة المراجع:

- Dan Connell, Against All Odds. A Chronicle of the Eritrean Revolution, The Red Sea Press, Inc, 1997.
- Firebrace & Holland, Never Kneel Dozn, Spokesman, 1984.
- Davis Pool, From Guerilla to Government: Eritrean People's Liberation Front, Ohio University Press, 2001.
- Noam Chomsky, Les Etats manqués. Abus de puissances et déficit démocratique, Fayard, 2007.
- John Perkins, Les confessions d'un assassin financier – Révélations sur la manipulation des économies du monde par les Etats-Unis, Ariane Editions, 2005.
- Darmien Millet, Eric Toussaint, 60 questions, 60 réponses sur la dette, le FMI et la Banque mondiale, CADTM-Syllepse, 2008

الخاتمة

مفتاح الأحجية

هل هناك رابط مشترك بين تلك الظواهر الأكثر تبايناً، كأزمة أسواق المال، والفجوة الآخذة في الاتساع في إيرادات دول الشمال، والصراعات القائمة بين دول الشمال ودول الجنوب، وعصر الانحطاط الذي تعيشه الولايات المتحدة الأمريكية، وصعود الصين كقوة عظمى ناشئة، والارتفاع الملموس في عدد الحروب الذي نشهده؟ ما خفايا ثورات «الربيع العربي»؟ وما بواطن الأمر خلف التدخّل العسكري ضد ليبيا؟

ها قد وصلنا إلى ذروة اللقاءات التي أجريت مع محمد حسّان. آن الأوان لأن نكتشف «مفتاح اللغز»، ذلك الدليل القاطع الذي يتيح لنا فرصة حلّ الأحجية في مجملها، وإدراك التسلسل المنطقي بين الأسباب والنتائج، والاعتداءات، وحركات المقاومة التي حدثت أمس، وتحدث اليوم، وتلك التي ستحدث في قادم الأيام...

*** إن أسلوبك في تحليل الأزمات المعاصرة يعيد الأحداث مجدداً ضمن إطارها التاريخي، جاعلاً من الثورة الصناعية البريطانية، والثورة الفرنسية نقطتي انطلاق. ما السبب في ذلك؟**

إن السلك الأحمر الذي تسبّب في حدوث الأزمات التي اجتاحت العالم الإسلامي وتطرقنا إلى تحليلها، ذلك السلك الأحمر الذي أشعل الحروب في أفغانستان وليبيا، وأجّج الثورات في مصر وتونس، وزعزع الأمن والاستقرار في إريتريا وإيران، وعزّز وجود الدكتاتورية في السعودية... هذا السلك ليس سوى الإمبريالية. إنها المرحلة التي وضعت الرأسمالية حملها على أعتابها. إنها في آن واحد نظام اقتصادي وسياسي وعسكري، عمل على إخضاع بعض الشعوب، في حين واجه مقاومة من قبل شعوب أخرى.

لذا، ومن أجل فهم الطريقة التي تطورت وفقها الإمبريالية، والإلمام بالأزمات التي نعيشها في عصرنا الحاضر، ينبغي لنا التعرّف مراحل تطوّر الرأسمالية في ظل الثورة البريطانية والثورة الفرنسية.

*** مع ذلك، يبقى المسار بعيداً جداً بين آلات النسيج في لانكشاير والطائرات الأمريكية المسيّرة (من دون طيّار) التي تقصف باكستان!**

بل كل شيء مترابط، وسأبيّن لك ذلك. عرفت الرأسمالية نمواً غير مسبوق، باتباعها ديناميكيّة خاصة بها، بفضل التقدّم التقني، والتغيرات السياسية التي طرأت في القرن التاسع عشر. يعتمد هذا النظام في كنهه على المنافسة الشرسة بين الشركات، فمن أجل الخروج من أي عملية، ينبغي تحقيق الحد الأقصى من المكاسب، عن طريق تخفيض الرواتب، وزيادة ساعات العمل، واستخدام الأطفال في العمل، والاستعاضة عن الإنسان بالآلة... ففي ظل هذه المنافسة الخالية من أي مظهر من مظاهر الرحمة، تعمد الشركات الأكثر قوة، التي تجني القدر الأكبر من المكاسب، إلى ابتلاع

الشركات الأضعف، إن لم نقل إنها تحملها على الإفلاس، إلى درجة ينتهي المطاف بهذه المنافسة إلى طريق واحد، يتجلّى في تشكّل الاحتكارات التي تترجم بدورها إلى تراكم الثروات. فما الذي نفعله عندما يصبح لدينا كمٌّ هائل من الثروات؟

*** طبعاً لا نلجأ إلى دسه تحت الفراش، إنما نودعه في المصارف، أليس كذلك؟**

هذا صحيح. لقد أدّى تطوّر الإنتاج الصناعي إلى تدفّق كميات هائلة من رؤوس الأموال إلى المصارف، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، ومع تطوّر التقنيات الحديثة، احتاج الصناعيون إلى استدانة مبالغ ضخمة، بغية تأسيس مشاريع جديدة، أو بغية اقتناء آلات أكثر تطوراً. لقد انقضى عهد صغار الحرفيين الذين يروّجون لتجارتهم بجواربهم الصوفية.

شهد هذا الوضع الجديد، إذاً، نماءً في سلطة المصارف، إذ لم يعد المصرف مجرّد وسيط بين المدين والدائن، كما لم يعد صندوقاً للتوفير، أصبح في مقدور المصارف، استناداً إلى استثماراتها، تحفيز بعض المتعهدين ومعاقبة آخرين، ما كان له الأثر الهائل في نمو الصناعة. إضافة إلى ذلك، عرف النظام المصرفي، الذي بات هو أيضاً عرضة للمنافسة، انتشار ظاهرة المركزيّة. ما أتاح الفرصة أمام ظهور احتكارات في القطاع، ونمو الرأسمالية الصناعية، على حساب الرأسمالية المالية. وعليه، تمكنت المصارف، هي أيضاً، من جمع مبالغ هائلة من رؤوس الأموال، بل الكثير منها. لذا كان لا بد من البحث عن منافذ للتصريف.

*** وما الحل؟**

اتخذت العلاقة بين المدن الأوروبيّة الكبرى أو مدن الشمال الأمريكي والمستعمرات بعداً جديداً. ففي ظل المرحلة التقليدية للرأسمالية، كانت المستعَمرات تؤمّن المواد الخام والعمالة الرخيصة، إلى جانب كونها سوقاً لتصريف المنتجات الصناعية، التي تنتجها العواصم والمدن الكبرى. إنّما لمّا أصبح لدى الدول الاستعمارية فائض هائل من رؤوس الأموال، اضطرت إلى تصدير رؤوس الأموال تلك إلى المستعمرات، لضمان تعزيز عائداتها. من هنا، بدأت الرأسماليّة تتحوّل إلى إمبريالية.

*** إنّما، حينما نستحضر روايات ديكنز وزولا، التي ورد فيها ذكر الأطفال البائسين، يصعب علينا أن نتخيّل امتلاك دول، كبريطانيا أو فرنسا، لهذا الكم الهائل من الأموال!**

هذا ما يميّز النظام الرأسمالي، المنطق والتناقض الكبير في آنٍ واحد. ينبغي لك إن أردت العيش في ظل هذا النظام، تحقيق أقصى قدر ممكن من الأرباح. يجب أن تعود عليك فوائض رؤوس الأموال التي تجنيها، بالنصيب الأكبر من الربح، أما أن يصار إلى استخدام هذا الفائض في رفع الرواتب والأجور، وتحسين الظروف المعيشية للعمّال، فهذا لن يضمن لك الربح الوفير.

هناك حدود لمنطق الرأسمالية، الذي يقود بالضرورة إلى خلق الأزمات. فمن أجل كسب المزيد من الأرباح، يلجأ صاحب العمل إلى خفض تكاليف الإنتاج، التي يأتي في مقدمتها الرواتب والأجور، كما تجده في سعيٍ دائم إلى زيادة إنتاجه عن طريق استثمار أمواله في اقتناء الآلات الحديثة التي تتطلّب خفض العمالة، وتحسين مستوى الإنتاج، وفي نهاية المطاف، يحقق صاحب العمل المزيد من السلع، لكن تبقى رواتب العمّال في مجملها محافظة على حدها

الأدنى، ما يؤثر سلباً في القوة الشرائية. ثم، يأتي زمان يواجه فيه صاحب العمل كساداً في بضاعته، إذ بات عاجزاً عن تصريفها، ما يخلق أزمة فائض في الإنتاج المكدّس، وهذه ظاهرة أنموذجية للنظام الرأسمالي، فمن جهة، يستطيع أصحاب رؤوس الأموال إنتاج المزيد والمزيد، لكنهم من ناحية أخرى، يواجهون ضعفاً في القوة الشرائية من قبل عمالهم.

في الماضي، كانت الأزمات تنشأ نتيجة ضعف في الإنتاج من جرّاء العوامل الخارجية، التي منها في سبيل المثال، الكوارث الطبيعية التي كانت تقوّض إنتاج الفلاحين، والحروب أو الأوبئة التي كانت تعوق نشاط الحرفيين، إلخ. أما في ظل النظام الرأسمالي، فإن الأزمة تنشأ عندما يتجاوز الإنتاج حده الطبيعي! عندئذٍ تبقى البضائع مخزّنة في المستودعات بسبب ضعف القوة الشرائية، ويتم نتيجة لذلك، خفض آلية الإنتاج، ومن ثمّ يجد العمّال أنفسهم مطرودين في الشارع. لقد أدّت هذه الظاهرة إلى خلق أزمة خطرة عام ١٨٧٣.

*** وهل كان العمّال يخضعون لتلك المعاملة دونما اعتراض؟**

كلا. لقد أدى حدوث أول أزمة رأسماليّة عام ١٨٧٣ إلى صحوة طبقة العمّال. ففي أثناء تطوره، يؤدي النظام الرأسمالي إلى تمدّن المجتمع، حيث يتضاعف عدد العمال على حساب عدد الفلاحين. فمع تزايد عددهم، ومواجهتهم للأزمة، أدركوا أنهم في حاجة إلى هيئات لتدافع عن مصالحهم، كالنقابات والأحزاب السياسيّة، إلخ.

بهذه الطريقة، ظهرت أول الأحزاب الاشتراكية، أو بصورة أكثر دقّة، أحزاب الديمقراطيين الاشتراكيين. جاء تأويلهم لأفكار ماركس وإنجلز

على النحو التالي: كلما تطور النظام الرأسمالي، تزايد عدد العمال، بحيث لو أُقيمت الديمقراطية، وكان الرجل يساوي صوتاً، لأصبح العمّال هم العنصر الغالب، ولاستطاعوا الإطاحة بالبورجوازية، لتأسيس أواصر النظام الاشتراكي.

*** من الواضح أن الأمر لم يتم!**

فعلاً. تمّ التغلّب جزئياً على أزمة ١٨٧٣، وذلك لتحوّل النظام الرأسمالي إلى نظام إمبريالي، أي بتعبير آخر، تمكّن أصحاب رؤوس الأموال من استثمار أموالهم في المستعمرات، بهدف إنعاش الاقتصاد. وهكذا تحوّلت أمريكا اللاتينية إلى دويلات، ووجدت الصين نفسها مضطرة لفتح أبوابها أمام القوى الغربية العظمى، وتقاسمت الدول العظمى المستعمِرة دول أفريقيا في مؤتمر برلين. إلى جانب ذلك، عمدت المصارف الأوروبيّة إلى استثمار رؤوس أموالها داخل الإمبراطورية العثمانية، عبر الكم الهائل من القروض التي أثقلت بها كاهلها، وأدت بها إلى الاندثار، كما سبق أن رأينا.

في الواقع، وعبر وجهة نظر العواصم الرأسمالية، بدت الأراضي الممتدّة فيما وراء البحار، كقطعة الحلوى الكبيرة التي ينبغي اقتطاع الجزء الأكبر منها من أجل تصدير رؤوس الأموال إليها. إنّما غالباً ما يتم تقاسم قطع الحلوى هذه، في منأى عن جو الرضا والتفاهم. إذ في أكثر الأحوال والأوقات، يؤدي ذلك إلى نشوب الصدامات بين الدول الإمبريالية العظمى، لتصبح هذه المواجهات أكثر عنفاً، عندما تحاول إحدى هذه الدول العظمى حماية مواقعها، وهي تقف على شفير الانهيار، في حين تسعى الدولة العظمى الأخرى التي أصبحت في أوج ارتقائها، إلى التوسّع.

كان الوضع على هذا النحو بين بريطانيا العظمى وألمانيا، في مطلع القرن العشرين. كانت بريطانيا تعاني من أزمات كبيرة، في حين كانت ألمانيا، بعد أن عاشت نمواً صناعياً ملحوظاً، وتمكّنت من تحقيق وحدة أراضيها عام ١٨٧١، تحاول توسيع رقعة أراضيها، والحصول على المستعمرات، لدعم نمو اقتصادها. لقد خلقت هذه التناقضات جواً من المواجهات، انتهت بإضرام نار الحرب العالمية الأولى.

لم يعش كارل ماركس طويلاً ليستبق الأحداث ويتنبأ بأن تطوّر النظام الرأسمالي، بديناميكيته الخاصة، سينتهي إلى نشأة الإمبريالية، فقد توفي عام ١٨٨٣. في حين تمكن فريدريك إنجلز، الذي توفي عام ١٨٩٥، من متابعة أولى دلائل هذا التحول. أما لينين فأفضل من تمكّن من تحليل هذه الظاهرة، والصراعات المناهضة التي تسبّب هو في حدوثها. فما كان من هذا الثائر الروسي إلّا دعوة العمّال، سواء كانوا من الجنسية الألمانية، أو الفرنسية، أو البريطانية، إلى التوحّد للإطاحة بالنظام الرأسمالي، بدلاً من الانشغال في الاقتتال فيما بينهم في ساحة المعركة. إنّما، يا للأسف، لم يكن الديمقراطيون الاشتراكيون الألمان، ولا سيّما خاصّة كارل كاوتسكي، أحد أهم المنظّرين، يشاطرون لينين تحليله للأمور. لذا، لمّا تحقق تمثيلهم في البرلمان الألماني، صوّت هؤلاء لمصلحة اعتمادات الحرب عام ١٩١٤.

*** كيف تفسّر موقف الديمقراطيين الاشتراكيين الألمان؟**

حتى ذلك التاريخ، نجح كارل كاوتسكي في تطوير تحليله العبقري للنظام الرأسمالي، لكنه رأى فيما بعد أن الإمبريالية لا تتعدى كونها فترة زمنية مؤقّتة ووجيزة، تمر في أزمة، ولن تلبث أن تندثر، لذا لا داعي إلى خوض صراع حول هذه المسألة.

وشيئاً فشيئاً، تمكّن الديمقراطيون الاشتراكيون من الاندماج في السلطة السياسية ليتحولوا فيما بعد إلى إصلاحيين، وبدل أن يسعوا إلى الإطاحة بالنظام الرأسمالي، حاولوا الحصول على المزايا الاجتماعية لمصلحة العمّال. إنّما في واقع الأمر، وفي حال بدت لنا هذه النيّة أنها حميدة، فإن آثارها قد انعكست سلباً، فقد ساعدت في توطيد دعائم النظام الرأسمالي. إذ في مقابل التعويضات الهزيلة التي حصل عليها العمّال، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإذعان وقبول ظروفهم، بدلاً من السعي إلى الإطاحة بالنظام الرأسمالي.

لك أن تتخيل أن أحدهم ألقى بك في السجن، ستحاول للوهلة الأولى استعادة حريتك المسلوبة، مستنفداً كل الطرائق. ثم تمر بك الأيام، وتنكب على تزيين زنزانتك، وتعليق الورود الجميلة على القضبان، لينتهي بك المطاف إلى اعتياد حياة الأسر، وتناسي العالم الخارجي والحريّة المنشودة.

لهذا السبب فشل الديمقراطيون الاشتراكيون بعد أن أصبحوا إصلاحيين، فشلوا في إسقاط النظام الرأسمالي، كما كانوا يدعون إلى ذلك في بداية الأمر. فما كان من حكامهم السياسيين والنقابيين الذين انغمسوا في البورجوازية، إلّا استغلال موقفهم، ليصبحوا بدورهم دروعاً قيّمة ومفيدة لهذا النظام.

*** لقد قلت إن الأصل في نشوب الحرب العالميّة الأولى، يرجع إلى التناقض الذي نشأ بين بريطانيا العظمى، التي كانت آيلة إلى السقوط، وألمانيا التي كانت تعيش أوج انطلاقتها. كيف نفسّر ضعف الإمبراطورية البريطانية، التي تميّزت بقوتها في القرن التاسع عشر؟**

احتلت لندن مركزاً محورياً على الصعيد العالمي في تلك الفترة. كانت لديها القدرة العسكرية التي تؤهلها لتأمين البحار، إذ كانت تحتكر مسألة

التأمين على الزوارق، لذا وجدت البلاد التي ترغب في الاتجار عبر الطرق البحرية، نفسها مضطّرة إلى المرور عبر لندن. إضافة إلى ذلك، كانت العاصمة البريطانيّة تجسّد مركز الأعمال المصرفيّة، وكان الاحتياطي من مخزون الذهب يقبع في خزائنها. كما كانت الإمبراطورية البريطانية، وهي في أوج ازدهارها في القرن التاسع عشر، تحقق مكاسب ضخمة عبر مستعمراتها. إنّما بالتزامن مع هذا التطوّر، شهد الإنتاج الصناعي، في الداخل البريطاني، تدهوراً ملحوظاً. ففي واقع الأمر، عاشت لندن عالة على المستعمرات التي سيطرت عليها، في حين شهد الاقتصاد الألماني حركة نمو ملحوظة.

*** مع ذلك، خرجت بريطانيا العظمى من هذه الحرب منتصرة.**

تمّ لها ذلك بسبب اكتشاف حقول النفط، الذي شكّل لها مزية عسكرية حاسمة. وانطلاقاً من هذا الانتصار، نظّمت بريطانيا بالتعاون مع فرنسا، لعقد مؤتمرٍ في فرساي، بهدف معاقبة ألمانيا وسلبها مستعمراتها. كما ترى، لم تكن نهاية الحرب لتضع حدّاً للمنافسة بين الدول الإمبريالية.

من جهة أخرى، عملت كل من لندن وباريس على تجزئة الإمبراطورية العثمانيّة. وأخيراً، أُسست عصبة الأمم - التي تُعدُّ المنظمة الأم، المؤسِّسة للأمم المتحدة الحالية ONU - في جنيف، بغية الحد من اندلاع صراعات أخرى. إلّا أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت الانتساب إليها، كما رفضت المصادقة على معاهدة فرساي. لقد آثرت واشنطن آنذاك اتباع سياسة العزلة.

*** ما السبب في رفض الولايات المتحدة الأمريكية المصادقة على معاهدة فرساي؟**

كانت الولايات المتحدة الأمريكية دولة فتيّة حينها، آخذة في النمو والتطوّر، غير أنها لم تكن تسيطر على أي مستعمرة. كان منافسوها من الأوروبيين يتقدمون عليها بمزية حيوّية. لذا لجأ الرئيس الأمريكي، جيمس مونرو، إلى تطوير فلسفة خاصة به عام ١٨٢٣، كتدبير علاجي، ضمّنها حصر شؤون القارة الأمريكية بالولايات المتحدة الأمريكية، على أن تتنازل بالمقابل للدول الأوروبية العظمى عن الصلاحيات المخوّلة بها هذه الأخيرة.

إنما ذلك لم يكن كافياً. لذلك اقترح الرئيس وودرو ويلسون، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، أن يقرّ مؤتمر فرساي بحق الشعوب في تقرير مصيرها. علماً أنه في الواقع لم يكن يأبه لرفاهية الشعوب المستعمَرة، لكنه كان يبحث عن المصادقة على حق الولايات المتحدة في تصدير منتجاتها ورؤوس أموالها إلى المستعمرات الأوروبيّة، فجاء رد فرنسا وبريطانيا على مقترح الرئيس الأمريكي بالرفض، ما اضطر الولايات المتحدة الأمريكية إلى تبنّي موقف العزلة، وذلك لافتقارها إلى الوسائل التي تتيح لها فرض إرادتها في ذلك الحين.

*** إنّما، لم تلبث موازين القوى، فيما بعد، أن شهدت تطوراً في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية، أليس كذلك؟**

أجل. كما سبق لي أن ذكرت، لم تضع الحرب العالمية الأولى حداً للمنافسة بين الدول الإمبريالية، فضلاً عن كون هذه المنافسات السبب في

اندلاع الحرب العالميّة الثانية. غير أنه، وفي غضون ذلك، حدث أمرٌ مهم، تجلّى في ثورة أوكتوبر ١٩١٧، التي أطاحت بحكم القياصرة في روسيا.

وعلى غرار الثورتين البريطانية والفرنسية، أحدثت ثورة أوكتوبر نقطة تحوّل على مستوى التاريخ، فللمرة الأولى، وصل العمّال والفلاحون إلى سدة الحكم، مقوِّضين بذلك تعريف الدولة التي كانت حتى ذلك التاريخ مقترنة بالبورجوازية. مما لا شك فيه أن هذا الحدث شكّل مصدر قلقٍ للقوى الإمبريالية العظمى، ولا سيّما أن انطلاقة هذه الثورة البلشفية كانت سبباً في ظهور العديد من الأحزاب الشيوعيّة في كل مكان من العالم تقريباً.

*** كيف انعكست ردة فعل القوى الإمبريالية العظمى؟**

في صيف ١٩١٨، كانت قوّات الجيش الأبيض، المناهضة للثورة الروسيّة، على موعد مع تدخّل التحالف الذي ضمّ أربع عشرة دولة، بينها بريطانيا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة الأمريكية، لإعادة القياصرة إلى السلطة.

في النهاية، انسحبت القوى الإمبريالية عام ١٩٢٠، بعد فشلها في «وأد الثورة البلشفية في مهدها»، كما كان وينستون تشرشل يأمل. غير أن الحرب الأهلية التي نشبت، إلى جانب العدوان الخارجي، قد أسفرا عن إحداث أضرارٍ جسيمة في روسيا، ما تسبّب في مقتل العديد من الناس، ودمار بعض المنشآت الصناعية الحديثة التي كانت تشكّل إرث الفترة الزمنية من حكم القياصرة.

في العشرينيات، توجّهت مجموعة من المراقبين البريطانيين إلى الاتحاد السوفييتي، وخلصوا إلى القول إن هذا الاتحاد الفدرالي الفتيّ لن يتمكّن من

اللحاق بركب جيرانه الأوروبيين الصناعيين، قبل أربعمئة عام! من جهتهم، عمد الحكام السوفييت إلى إعداد برنامجٍ اقتصادي خاص، لسد هذه الفجوة. وهكذا انتقل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة، في غضون عشرين عاماً، من العصور الوسطى إلى الحقبة النووية! إن الضرورة الملحّة لإعادة روسيا إلى مسارها الصحيح، ولتدارك تخلّفها على المستوى التكنولوجي، كانت كبيرة جداً، إلى درجة اضطرت معها القوى الإمبريالية العظمى إلى التشبث بفكرة سحق الثورة البلشفية. عندئذٍ، ظهر آدولف هتلر في الساحة الأوروبية، تلك الجهة الفاعلة الجديدة، مقترحاً أداء هذه المهمة.

*** كيف يمكنك تحديد ظاهرة الفاشية، ضمن إطار التحليل العام الذي أجريته حول الإمبريالية؟**

حين فشل أي ثورة، تتدخّل الفاشية إبان فترة الأزمة، في ردٍّ عنيف من قبل الطبقة البورجوازية. وحينما تجد الطبقة الحاكمة نفسها مهدّدة، يأتي ردها قاسياً ليحطّم كل أشكال المقاومة. ففي حال انتصار الثورة، تتم الإطاحة بالنخبة السياسيّة الحاكمة، أما في حال فشلها، فسوف تنمو الفاشية، وتتطوّر، لتعيد الأشياء إلى نصابها.

وهكذا، ظهرت الفاشية للمرة الأولى في العشرينيات، في إيطاليا، عندما كانت التوترات الاجتماعية في أوجها. فضلاً عن أن بينيتو موسوليني بدأ مسيرته السياسية داخل المنظمات الاشتراكية، لكن النخب الاقتصادية، ورجال الدين، عملوا على إفساده. في النهاية، تكللت الثورة بالفشل، وانغمست إيطاليا في الفاشية.

أما في ألمانيا، فقد رأينا كيف انحاز أعضاء حزب الديمقراطيين الاشتراكيين إلى المعسكر الآخر. إلّا أن الأحزاب الأخرى، التي ولدت داخل حزب الديمقراطيين الاشتراكيين، وتميّزت باتجاهها التقدميّ، رفضت الاتجاه الذي تبناه هذا الحزب، وغادرته لتأسيس أحزابها الخاصّة. بذلك، ظهرت مجموعة أحزاب اشتراكية بدءاً من ١٩١٩، وكانت سبباً في زعزعة استقرار ألمانيا، فعمّ الإضراب العام برلين، وامتلأت شوارع المدينة بمظاهرات قادها مئات الآلاف من العمال، واندلعت الثورة الشيوعية في الرور... لكن سرعان ما قُمعت جميع هذه الحركات بعنف، واغتيل الحكام السياسيون. ففي ألمانيا، وصل الفاشيون إلى سدة الحكم بسبب فشل الثورة، إذ كانوا يمثلون الوجه الأشد حلكة للرأسماليّة الألمانية.

*** لقد قلتَ إن الإمبريالية الأوروبية اعتمدت على هتلر من أجل سحق السوفييت. مع ذلك، رأينا ألمانيا تقاتل ضد معسكر الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.**

نعم، فللنازيين أهدافهم الخاصّة بهم. إنهم ليسوا أولئك المرتزقة المأجورين في قوات بريطانيا وفرنسا. أراد النازيون الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي، لذلك تعارض مشروعهم التوسعي مع مصالح القوى الغربية الأُخر.

*** هل هو التنافس بين القوى الإمبريالية؟**

تماماً. لقد ظهرت هذه المنافسة أيضاً في آسيا. بقيت اليابان من جهتها، حتى القرن التاسع عشر، محافظة على نظامها كإمبرطورية إقطاعية. ثم في عام ١٨٦٨، كان لثورة ميجي أثرها في نقل بلاد الشمس الساطعة إلى العهد

الرأسمالي. عندئذٍ فقدت الطبقة الاجتماعية الأنموذجية في العهد الإقطاعي، الساموراي، معالمها. لم يكن هؤلاء المقاتلون التقليديون في الواقع، سوى رجال عصابات، عملوا على حماية الأمراء الإقطاعيين، واعتمدوا في معيشتهم على ابتزاز أموال الفلاحين.

إنّما، مع قيام ثورة ميجي، تفككت هذه الطبقة الإقطاعية، في حين أسفر التوسع الحضري لليابان عن تراجع في عدد الفلاحين؛ فوجد الحكام اليابانيون الجدد أنفسهم أمام مشكلة ارتفاع عدد المقاتلين، حتى وصل إلى المليون، فماذا يفعلون بهم؟ أُرسِل هؤلاء الساموراي إلى الدول المجاورة، للعمل كعناصر مخابرات.

لقد تحولت اليابان بدورها إلى قوة إمبريالية عظمى، وأرادت بسط نفوذها على آسيا.

*** إلّا أنّ القوى الاستعمارية الأوروبية كانت موجودة مسبقاً في المنطقة.**

فعلاً. لذا لجأت اليابان، من أجل طردهم، إلى ترويج الشعار الذي ينص على: «آسيا للآسيويين» ليُفهم منه أن «آسيا لليابانيين». من أجل زعزعة أمن واستقرار بريطانيا وهولندا، أرسل حكام اليابان عملاء إلى المملكة العربية السعودية، وطلبوا إليهم توظيف المسلمين الذين ينشرون الأفكار المناهضة للاستعمار. أما في إندونيسيا، تلك الدولة الإسلامية، فقد انضمّت اليابان إلى حركة التحرير التي نُظِّمت فيها لطرد الهولنديين، حتى إن الحكام اليابانيين شيدوا مسجداً في طوكيو، بهدف استمالة الشعب الإندونيسي.

في وقت لاحق، انضمت اليابان، في الحرب العالمية الثانية، إلى معسكر ألمانيا وإيطاليا. كان هدفها تجريد الغربيين من المستعمرات التي يسيطرون عليها في آسيا وأوقيانوسيا (أستراليا). إلّا أن الإمبراطورية اليابانية اصطدمت في المحيط الهادئ بمنطقة نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية، التي انتهى بها المطاف بالتغلّب على الجيش الياباني، وإلقاء القنبلتين النوويتين.

*** هل كان تحقيق النصر يشترط إلقاء القنابل النووية على كل من هيروشيما وناغازاكي؟**

كلا، بل كان ذلك بمنزلة إنذار لباقي القوى العظمى، وبشكل خاص، الاتحاد السوفييتي، لتبلغها الرسالة التالية: «لقد نجحنا في تطوير تكنولوجيا حديثة، لذا نحن نفوقكم قوة».

*** هل أصبح الاتحاد السوفييتي قوّة لا يمكن الاستغناء عنها بعد الحرب العالمية الثانية؟**

نعم. لقد منيت ألمانيا بالهزيمة، لكن في حقيقة الأمر، لم تكن الوحيدة، فقد انتهى الصراع بهزيمة دول أوروبا، إذ وضعت حداً حاسماً لقرون طويلة من السيطرة العالمية. كما خرج الاتحاد السوفييتي ضعيفاً في أعقاب هذا الصراع، إذ قدم المجهود الأكبر إبان الحرب. إنّما مع ذلك، أتاحت هزيمة ألمانيا النازية الفرصة أمام وصول النظام الاشتراكي إلى دول أوروبا الشرقية كافة.

كان لامتداد الاشتراكية أثره الكبير في إثارة القلق لدى المنتصر الحقيقي في الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة الأمريكية. لقد سلّم ذلك الدبلوماسي الأمريكي الشاب جورج ف. كينان، المقيم في موسكو،

تقريراً إلى حكومة ترومان، استُخدم فيما بعد كدليلٍ اعتمدت عليه الولايات المتحدة الأمريكية في سياستها الخارجية في العقود التالية. لقد دعا كينان إلى اتباع سياسة الاحتواء بحق الاتحاد السوفييتي، اجتناباً لانتشار الفكر الشيوعي في كل أنحاء العالم.

*** هل كان ثمّة خطر حقيقي يواجه الولايات المتحدة الأمريكية؟**

نعم. شهدت الحالة الاقتصادية في أوروبا تدهوراً كبيراً نتيجة الصراع، فكان يُخشى انفجار الحركات الاشتراكية. فضلاً عن الدور المهم الذي لعبه الشيوعيون في مقاومة الفاشية، مستفيدين في ذلك من تعاطف الشعوب معهم. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تخشى انتهاز هؤلاء الشيوعيين فرصة اندلاع الاحتجاجات الشعبية المحتملة للوصول إلى سدة الحكم.

بالإضافة إلى ذلك، استلهمت حركات التحرّر العديدة، التي نشأت في مختلف المستعمرات، أفكارها من الفكر الشيوعي، ولم تعد العواصم الأوروبية قادرة على بسط نفوذها على الإمبراطوريات الاستعمارية الشاسعة، وقمع حركات التحرر فيها. كما كانت ثمّة دول توشك أن تنال استقلالها، فكانت واشنطن تخشى أن تتجه نحو الشيوعية.

*** كيف تمكّنت الولايات المتحدة الأمريكية من احتواء التأثير السوفييتي على أرض الواقع؟**

لقد دافعت الولايات المتحدة الأمريكية عن حق دول الجنوب في نيل حريتها، سعياً منها إلى سحب البساط من تحت أقدام حركات التحرّر الماركسية من جهة، وفي محاولة للفوز بنصيبها من الصيد التاريخي الثمين الذي احتفظت به أوروبا لنفسها لعقود طويلة، من جهة أخرى.

كما وضعت قواعد لمخطط مارشال في تلك الفترة، الذي يهدف إلى تقديم المساعدات، من أجل إعادة الإعمار في فترة ما بعد الحرب. اقترح «كنان» توجيه الدعم الاقتصادي إلى دول غرب أوروبا واليابان، من أجل اتخاذهم كحلفاء أقوياء للوقوف ضد التهديد السوفييتي. في السياق عينه، تأسست منظمة حلف شمال الأطلسي (NATO) عام ١٩٤٩، من أجل إنشاء تحالف عسكري بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية.

إلّا أن سياسة الاحتواء هذه التي اقترحها كنان، لم تلقَ إجماعاً من طبقة المثقفين الأمريكيين، فقد رأى بعض المفكرين ضرورة تركيز الاهتمام حول آسيا، وتأجيل التحدّي الأوروبي، كونه أمراً ثانوياً.

*** ما سبب هذا الاهتمام بآسيا؟**

لم يكن الجانب الغربي من أوروبا يشكل مسرحاً لأطماع الاتحاد السوفييتي فحسب، إنما أصبح شرق آسيا أيضاً محور اهتمام الدول الإمبريالية. ولا سيّما وأنه في عام ١٩٤٩، انجرفت الصين، الدولة الأكثر اكتظاظاً بالسكان، إلى المعسكر الشيوعي في ظل الثورة التي قادها «ماو تسي تونغ».

لقد دعمت حكومة روزفلت سياسة الاحتواء بسياسة أخرى، تمثّلت فسي سياسة الإبعاد القسري، إذ كان على الحكام الأمريكيين قطع الطريق أمام هذا الخطر الأحمر، الذي بات يقضّ مضاجعهم. لم تعد سياسة احتواء التأثير الشيوعي تفي بالطلب، بات الأمر يتطلّب التدخّل العسكري، عندما يتجاوز الموضوع الحدود المقبول بها. لهذا السبب، تدخّلت الولايات المتحدة الأمريكية في حرب كوريا بادئ الأمر (١٩٥٠-١٩٥٣)، ثم في حرب فيتنام (١٩٥٩-١٩٧٥).

*** هل آتت سياسة الإبعاد القسري، أُكلها؟**

أقل ما يقال عن الميزانية إنها ضعيفة. لم يتوقف الأمر لدى واشنطن عند فشلها في التغلّب على الشيوعيين، بل بددت الجائزة الأولى التي ورثتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، بحيث ارتفع رقم النفقات العسكرية الأمريكيّة، بعد إضافة نفقات حرب كوريا، من ١٢ مليار دولار عام ١٩٤٩ ليصل إلى ٥٠ مليار دولار عام ١٩٥٣، وفي تلك الأثناء، ارتفع قوام القوات المسلّحة البريّة بنسبة ٥٠%، ليبلغ ٣,٥ ملايين مقاتل.

أما فيما يخص حرب فيتنام، فقد أعدّت إستراتيجيات وزارة الدفاع الأمريكية النظرية المظلمة، الخاصّة بعدد الجثث، إذ تنص هذه النظرية على أنه في حال فاق عدد المقاتلين الذين يتم قتلهم العدد الذي يستطيع تحمله الطرف الآخر، فإنك بذلك تكون قد ربحت الحرب.

تُرجمت هذه النظرية في ساحة المعركة إلى قتال تميّز بوحشية لا يمكن تصورها، فقد ألقى الطيران الأمريكي ما يقارب ثمانية ملايين طن من القنابل، فس أثناء حملات القصف التي شنها على شمالي فيتنام ولاوس وكمبوديا. أي بمعدّل تجاوز أربعة أضعاف ما أسقطته الأطراف المتحاربة مجتمعة إبان الحرب العالمية الثانية! كادت فيتنام أن تندثر على المستوى الثقافي والتاريخي من بشاعة الدمار الذي خلفته هذه الحرب. أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كانت فاتورتها من هذه المهزلة العسكرية الفاشلة باهظة الثمن، إذ قدّرت التكلفة الإجماليّة لهذه الحرب بـــ ٦٨٦ مليار دولار.

*** لا بد أن هذه النفقات العسكرية قد تركت أثراً سلبياً في الاقتصاد. كيف تمكّنت الولايات المتحدة الأمريكية من المحافظة على مركزها القيادي، على يالرغم من كل ذلك؟**

بفضل موقع الدولار كعملة دوليّة. استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية الاستدانة من أجل تمويل المجهود الحربي. في نهاية الستينيات، بلغت النفقات المتعلقة بالتشريعات الاجتماعية الحد الذي بلغته نفقات وزارة الدفاع. وفي تعليق له، قال المؤرّخ البريطاني غودفري هودغسن، إنه لا يزال في مقدور الولايات المتحدة الأمريكية «سداد ثمن الزبدة وثمن المدافع على حد سواء».

غير أن ديون واشنطن الباهظة أثّرت بشكل خطير في الورقة النقدية الخضراء، ما أدى إلى انهيار الثقة الدولية بها (راجع فصل المملكة العربية السعودية)، إلى درجة أعلن فيها ريتشارد نيكسون بصورة انفرادية عام ١٩٧١، إنهاء عملية قابلية تحويل الدولار إلى الذهب.

لقد أُدرجت قواعد هذا النظام ضمن اتفاقيات «بريتون وودز للصرف المالي» التي أُبرمت عام ١٩٤٥، فقد اعتُمدت هذه القواعد كأساسٍ للنظام المالي العالمي.

حافظ الدولار على قيمته كعملة دولية بفضل الصفقة التي عقدت مع منظمة البلدان المصدرة للبترول (OPEP)، فقد قررت الدول المنتجة للنفط في إثرها، أن يتم التداول بالدولار حصرياً، وبما أن دول العالم أجمع كانت في حاجة إلى النفط، فكان لا بد لها من اقتناء الدولار. بذلك، بقيت الورقة النقدية

الخضراء محور الطلب في كل أرجاء الكرة الأرضية، واستطاعت الولايات المتحدة الأمريكية، بهذه الطريقة، الحفاظ على مستوى معيشي يفوق إمكاناتها. فضلاً عن ذلك، كانت الدول المنتجة للنفط مدعوّة إلى إعادة ضخ دولاراتها النفطية في مصارف لندن ونيويورك، فكان لتدفق رؤوس الأموال الدور الحاسم في الأزمة الاقتصادية، التي أثّرت في فترة السبعينيات.

*** يقال إن سبب هذه الأزمة يعود إلى الصدمة النفطية التي وقعت عام ١٩٧٣...**

في واقع الأمر، كانت هذه الأزمة أخطر بكثير مما بدت. فعلى غرار الأزمات الرأسمالية المهمّة، نشأت هذه الأزمة بسبب فائض في الإنتاج، إذ عرف الإنتاج الرأسمالي إبان العصر الذهبي **(١٩٤٥-١٩٧٣)** نشاطاً مميزاً، وبشكل خاص، مع إعادة إعمار فترة ما بعد الحرب، غير أن هذا الإنتاج ما لبث أن اصطدم بضعفٍ في القوة الشرائية.

لذلك، شهد هذا النمو في الإنتاج انكماشاً مع بداية الستينيات. فمن أجل إنعاش الاقتصاد، وتغطية نفقات حرب فيتنام، بادرت الحكومة الأمريكية إلى إدارة اللوح الخشبي مجدداً لطباعة الأوراق النقدية، ما خلق تضخماً مالياً، بسبب الطرح المكثّف للعملة الجديدة، ما أفقد الدولار من قيمته، وأدّى إلى حدوث ارتفاع في الأسعار. فضلاً عن ذلك، رافق التضخّم المالي انخفاض إجمالي في نسبة أرباح الشركات. يعود السبب الأول في ذلك إلى إدراج تكاليف اليد العاملة ضمن فهرس مؤشر الأسعار التي كانت في ارتفاع مستمر من جهة، ومن جهة أخرى، تطلّب التطور التكنولوجي توفير وحدات إنتاج باهظة الثمن.

إنقاذاً للموقف، حاول نيكسون، في شهر أغسطس/آب من عام ١٩٧١، تجميد قابلية الدولار للتحويل إلى الذهب من أجل التخفيف من الخسائر، فقد كان انخفاض سعر الدولار يلوح في الأفق، لذلك لم تُجْدِ هذه الخطوة نفعاً. لقد عرف الدولار أول انخفاض في قيمته في كانون الأول ١٩٧١، تلاه انخفاض آخر في فبراير من عام ١٩٧٣. عندئذٍ، شهد العالم دخول مرحلة جديدة، تجسّدت في نظام تعويم أسعار الصرف، لم تعد قيمة العملات تُحدّد تبعاً للأنموذج النقدي الدولي، بل وفقاً لعملية العرض والطلب، كأي سلعة أخرى. لقد كان لهذا التعويم النقدي، ولتقلّبات الدولار العشوائية الأثر السيئ في التبادلات الدوليّة، التي كانت أساساً للنمو الاقتصادي في أعقاب الحرب. لهذا، لم تكن صدمة أسعار البترول سوى زناد الأزمة التي كانت كامنة، ما أدى إلى انفجارها بسبب الآليات الهيكلية، والأداء في النظام نفسه.

*** كيف تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية وسائر الدول الرأسمالية من تجاوز هذه الأزمة؟**

هم فعلياً لم يتغلبوا على أي أزمة! لقد أقنعونا أن الأمور تسير على ما يرام، حتى ظهور أزمة القروض العقَارية عام ٢٠٠٧. لا نزال في واقع الأمر، نعاني حتى يومنا هذا، من تداعيات أزمة فائض الإنتاج التي حدثت عام ١٩٧٠.

*** مع ذلك، عادت عملية النمو إلى الظهور مرة أخرى في الثمانينيات...**

تمّ ذلك بفضل عمليات الخداع المالي. إلّا أن القضايا الهيكليّة بقيت معلّقة من دون حل. لقد نتج عن ارتفاع أسعار النفط تحويلات نقدية من

الدول الرأسماليّة المتقدمة، إلى دول الشرق الأوسط. ثم فيما بعد، أعادت الدول النفطيّة ضخ السيولة النقدية في مصارف لندن ونيويورك. عندئذٍ، أعادت هذه المؤسسات المصرفية تدوير الدولارات النفطيّة عن طريق إعادة استثمارها في شكل قروض، مُنحت للدول النامية، التي كانت الضحية الكبرى للصدمة النفطية، وبصفة رئيسة دول شرق آسيا ودول أمريكا اللاتينيّة، التي عمدت إلى شراء المنتجات الغربية بهذه القروض، ما سمح في الفترة الأولى، بالتخفيف من حدة آثار الأزمة في الدول الغربية.

*** إنّما، لا يمكن لمديونية دول الجنوب أن تستمر إلى ما لا نهاية. ففي عام ١٩٨٢، أعلنت المكسيك عجزها عن سداد قروضها. ما السبب في ذلك؟**

يمكن تفسير الكم الهائل للقروض التي فرضت على دول الجنوب بهدفين، اتصف أولهما بالطابع السياسي، إذ تجسّد بالتصدي لتأثير السوفييت، والحد من التطلعات القوميّة لدول الجنوب. من المعلوم أن التصويت على القرارات التي يتخذها المصرف الدولي، يتم من قبل الدول الأعضاء، وفقاً لمبدأ «الدولار يساوي صوتاً». هذا يدل على أن واشنطن هي من يقود هذه المؤسسة الدولية. لقد استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية هذا المبدأ في بداية الستينيات، رغبة منها في تعزيز مناطق نفوذها في دول الجنوب، وتقديم الدعم لحلفائها الاستراتيجيين.

أما الهدف الثاني فكان اقتصادياً. إذ يعتمد النظام الرأسمالي على الاستمرار في تحقيق القدر الأكبر من المكاسب. إنها قاعدة ثابتة. لقد شهدت المصارف الغربية تدفق رؤوس الأموال إلى دول الشرق الأوسط، وبما أنه،

وبشكل طبيعي، ينبغي إعادة استثمار رأس المال من أجل تحقيق زيادة فيه، لذلك لا يمكن تجميده. هذا ما دفع دول الغرب إلى زيادة معدّل القروض التي تُمنح إلى الدول النامية، عن المستوى المطلوب.

لنأخذ، في سبيل المثال، دولة المكسيك. قاد إيشيفيريا، الرئيس الحاكم للدولة في السبعينيات، وكان حليفاً للولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، حملة قمعية ضارية ضد حزب اليسار المتطرّف. لقد كان عميلاً جيداً! بلغ حجم القروض التي منحها المصرف الدولي لدولة المكسيك بين عامي ١٩٧٣ و١٩٨١، أربعة أضعاف ما كان عليه، في حين ارتفع حجم القروض التي منحتها المصارف الخاصة للمكسيك ستة أضعاف. ولّما اندلعت ثورة ١٩٨٢، أُحصيت المصارف الدائنة لدولة المكسيك بـ ٥٥٠ مصرفاً!

*** كيف توقفت الآلة؟**

بدأت أزمة القروض منذ ١٩٧٩، عندما قرّر بول فولكر، مدير المصرف الاحتياطي الفدرالي، رفع نسب الفوائد على نحوٍ كبيرٍ، في محاولة منه للتصدي للتضخم في الولايات المتحدة الأمريكية. إلّا أن ثمّة رابطاً مشتركاً بين نسب الفوائد المفروضة على القروض التي تمنح لدول الجنوب، ونسب الفوائد الأمريكية. لذلك سجلت نسبة الفوائد ارتفاعاً من ٤-٥ % إلى ١٦-١٨% بين عامي ١٩٧٠-١٩٨٠.

اضطرت هذه الدول، وبشكلٍ مفاجئ، إلى سداد الفوائد المترتبة عليها، بزيادة بلغت ثلاثة أضعاف! في تلك الأثناء، سجّلت أسعار السلع الأساسيّة التي كانت تصدرها هذه الدول، انخفاضاً كبيراً. كانت الأمور

تدور في حلقة مفرغة. حاولت الدول المقترضة رفع معدّل صادراتها، للحصول على المزيد من العملة الأمريكية، من أجل سداد القروض المتعاقد عليها بالعملة الصعبة كالدولار، لكن العرض طغى على الطلب، ما أدّى إلى تدنّي أسعار السلع الأساسية، وبالنتيجة إلى انخفاض في عائدات دول الجنوب.

وأخيراً، عمدت المصارف الغربية الخاصة إلى تقليص حجم القروض الممنوحة لتلك الدول، عندما شعرت بتقلّب الرياح. ما زاد الأمر سوءاً. لقد عمل تضافر هذه العوامل الثلاثة على خنق اقتصاد الدول النامية.

*** ألم تكن عملية دفع المدينين إلى الإفلاس، تؤدي إلى نتائج عكسية، وغير مثمرة لدول الغرب؟**

إلّا أنَّ الدائنين قد استعادوا ديونهم بوفرة، لا تقلق عليهم! لما تقاعست دول الجنوب عن سداد ديونها، بادر صندوق النقد الدولي إلى إقراضهم المال اللازم لسداد ديونهم للمصارف الخاصّة. وافقت هذه المؤسسة الدولية أن تلعب دور «الملجأ الأخير» أو «المُقرِض الأخير»، لكنها في المقابل، فرضت على الحكومات التي استفادت من «مساعدتها» الخضوع لتعليماتها، بخصوص سياستها الاقتصادية، فألزمتها اتباع نظام خصخصة المؤسسات الحكومية، وسياسة التقشف المالي، وخفض الإنفاق العام في القطاعات التي تُعدًّ غير إنتاجيّة (كقطاع الصحة، والتعليم، والدعم الحكومي للسلع الأساسيّة، ...)، وتوجيه إنتاجها بصورة رئيسة نحو سوق التصدير، وإلغاء القيود الجمركية، إلخ. بهذه التدابير الليبرالية الجديدة، عاد الاستعمار الغربي مجدداً، بحلته الاقتصادية ليخيم على دول الجنوب.

*** لاقت هذه التدابير الليبرالية الجديدة، في الثمانينيات، غضباً عارماً في كل أرجاء المعمورة، ما السبب في ذلك؟**

كان حكام دول النظام الرأسمالي، غداة الحرب العالميّة الثانية، على استعداد لمنح بعض الامتيازات للعمّال، بغية قطع العشب تحت أقدام الشيوعيين. استلهمت السياسات الاقتصادية أفكارها إبان «العصر الذهبي» من النظريات التي أعدها جون مابنار كينز، الذي دعا إلى تدخّل الدولة، من أجل تنظيم السوق، والتحريض على الإنتاج، في سبيل الحد من نسبة البطالة. إلّا أنَّ سياسات كينز لم تسمح بوضع حدٍّ لأزمة السبعينيات، ما أفقدها مصداقيتها.

عندئذٍ، وجد علماء الاقتصاد الليبراليون الجدد وجماعة الاقتصاديين (الذين تلقوا تدريبهم على يد فريدمان وهاربرجيه، وعرفوا بجماعة Chicago Boys - في السبعينيات) المجال أمامهم مفتوحاً للتفاخر بمزايا وفضائل نظريتهم، التي تنص على أن إحجام الدولة عن التدخل، وتنشيط السوق الحرة، سيضمنان التخصيص الأمثل للموارد، إضافة إلى الاستخدام الكامل لقدرات الإنتاج. خضعت هذه السياسات للتجربة في عهد الجنرال الدكتاتور بينوشيه في تشيلي، قبل أن يطبقها رونالد ريغان في الولايات المتحدة الأمريكية، ومارغريت تاتشر في بريطانيا.

في واقع الأمر، كان الهجوم الليبرالي الجديد بمنزلة جوابٍ قاسٍ، قدمته النخبة السياسيّة للعمّال في فترة الأزمة، على غرار الفاشيّة في الثلاثينيات. كما كان هذا الهجوم متاحاً بسبب إجهاض الثورة، ما أدى إلى اندلاع الحركات الاجتماعية مع بداية الستينيات، وترافقت هذه الحركات في

الولايات المتحدة الأمريكية مع الكفاح لنيل الحقوق الوطنية من جهة، ومع المظاهرات، من أجل إيقاف الحرب في فيتنام من جهة أخرى، كما قامت الحركات الثورية في أوروبا في شهر مايو / أيار. أما على الساحة الدولية، فقد كانت دول الجنوب تتطلّع إلى لعب دور سياسي أكثر أهمية.

*** كيف تجلّى الهجوم الليبرالي الجديد؟**

أقدمت النخبة السياسيّة على إعاقة آليات حماية العمّال، بذريعة تحسين فاعلية السوق، والقضاء على رواسب الماضي لدولة الرفاه. ففي سبيل المثال، تمّ الحد من سلطة النقابات التي اتُّهمت بمسؤوليتها عن تأجيج دوامة التضخم، بمطالبتها برفع الأجور.

وفي الوقت عينه، كانت الدولة تؤمر بمراقبة موضوع الكتلة النقدية، عن طريق إجراء تخفيضات في النفقات الاجتماعيّة.

تم التخلّي عن السياسة التي كانت ترمي إلى العمالة الكاملة بشكل متعمّد. ففي اللغة الجديدة التي اقتبسها الليبراليون الجدد، أصبح سوق العمالة «مرناً». في حين أصبح في واقع الأمر، هشاً. إذ كان العمّال عرضة للمنافسة الشرسة، في الوقت الذي شكّل فيه «الجيش الاحتياطي من العاطلين من العمل» أداة ابتزاز هائلة لأرباب العمل، الذين كانوا يرددون على مسامع عمالهم «في حال رفضكم الانصياع لشروطنا، فإنكم الخاسر الوحيد، فهناك في الخارج، حشدٌ من العاطلين من العمل، يتدافعون ليأخذوا أمكنتكم».

وبالتزامن مع تدهور ظروف العمالة المستمر، كانت الضرائب المفروضة على عائدات الأغنياء تخضع لدراسة جديدة من أجل تخفيضها. إذ تمثّل الهدف في حثّ العملاء الاقتصاديين الناجحين - أي الأغنياء – على الادخار وإنعاش الآلة.

أما في القطاع المالي، فقد قُضي تدريجياً على قواعد الحماية التي وُضعت إبان انهيار سوق الأوراق المالية عام ١٩٢٩. وظهرت، كبديل عنها، سلع جديدة في هذه الأسواق، وأطلق المضاربون العنان لجنونهم في أسواق سعر الصرف، وحققوا بذلك نتيجة مهمّة، فقد أصبحت الاستثمارات القائمة على المضاربة أكثر أهمية من الاستثمارات في مجال الإنتاج.

*** في أعقاب الحرب العالمية الثانية، منحت النخبة السياسيّة في الدول الغربية بعض المزايا للعمّال خوفاً من النظام الشيوعي. إنّما هذا الخوف لم يساور الليبراليين الجدد في الثمانينيات. هل هذا صحيح؟**

عمل ضعف الأداء الداخلي على تقويض الاتحاد السوفييتي. ومن جانب آخر، اتخذت القوى الغربية العظمى قرارها بالاقتتال مع النظام الاشتراكي، فتجسّدت الطعنة القاضية في الفخ الذي نُصب للاتحاد السوفييتي في حرب أفغانستان (١٩٧٩-١٩٨٩)، كما رأينا سابقاً، ليشهد عام ١٩٩١ انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وبعد مضي أكثر من خمسين عاماً على الحرب الباردة، ظهر إلى الوجود عالم أحادي القطب، تقوده الإمبريالية الأمريكية.

لقد حقّقت الإمبريالية نصراً عظيماً على المستويين العسكري والسياسي، كما كان للمستوى الأيديولوجي النصيب الأوفى؛ فقد سجلت الليبرالية الجديدة هجوماً لرأس المال على حساب العمل، تميّز بالعنف.

أَورد التقرير الصادر عن مصرف التسويات الدولية عام ٢٠٠٧، أن حصة الأرباح اتجهت نحو الزيادة منذ منتصف الثمانينيات، وذلك في غالبية اقتصاديات البلدان المتقدمة، لكن من ناحية أخرى، بقيت نسبة الأجور منخفضة على غير العادة. هذا دليل على أنه - في الخمس والعشرين سنة الأخيرة - حُقق المزيد من الثروات، دون أن يعود ذلك بالفائدة على العمال. إذ بقي المال في قبضة المصارف وحملة الأسهم.

*** وفقاً للإحصائيات، لم يَطَل هذا التدني في نسبة الأجور الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا، يا تُرى، هل أعيد توزيع الثروات فيهما بشكل أمثل؟**

كلا، بالطبع. لم يكن الوضع مختلفاً في هاتين الدولتين، غير أن الظاهرة الأنموذجية التي حدثت عملت على تضليل الإحصائيات. إذ سَجّلت الأجور في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا نسباً عالية جداً، إلى درجة استقطبت فيها الجزء الأكبر من الأرباح التي تحققها الإنتاجية. فبسبب الارتفاع الكبير لهذه الأجور، جعلها تبدو كأنها تستأثر بالأرباح بشكل كامل، كحملة الأسهم على حد سواء. غير أنه بالنسبة للإحصائيات، فإنها تبقى في حقل الأجور بشكل قاطع. وهذا ما يفسّر محافظة إجمالي الناتج المحلي للفرد الذي يعود للموظفين في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، على مستواه الاعتيادي، دون تسجيل أي انخفاض على الصعيد الرسمي، وذلك خلافاً لما هو حاصل في سائر الدول.

إلّا أنَّ هذا لا يعني بالضرورة أن الثروات موزعة بشكل أفضل في هاتين الدولتين. كما يشير إليه عالِم الاقتصاد، ميشيل هوسون : «ارتفعت

حصة الدخل القومي في الولايات المتحدة الأمريكية، البالغة ١% للموظفين الذين يتقاضون أفضل الأجور، من ٤,٤ % إلى ٨% ما بين (١٩٨٠-٢٠٠٥)، أي بمعدّل زيادة حقق ٣,٦ نقطة من الدخل القومي، الذي ارتفع ليسجل ٥,٣ نقطة، فيما لو حسبنا أن نسبة ٥% من الموظفين يتقاضون أفضل الأجور. إننا لو اقتطعنا هذه المرتبات العالية، لحصلنا على نمو يضاهي رواتب موظفي الاتحاد الأوروبي(١).

*** وهل رضخ العمال لهذه السياسة؟**

منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، ردد الليبراليون الجدد بصوت واحد الشعار الشهير لمارغريت تاتشر الذي قالت فيه : «ليس هناك أي بديل». في التسعينيات، تمت تصفية غالبية الأحزاب الشيوعية في أوروبا، في حين شهدت حركات المقاومة ضد الإمبريالية تدهوراً على الصعيد العالمي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. بذلك، أصبح المجال واسعاً أمام الإمبريالية الأمريكية لفرض إرادتها.

ترجم ذلك، بشكل خاص، بظهور شكل مستحدث للعولمة الليبرالية. فمن الناحية النظرية، كان يفترض بحركة التجارة الحرة أن تفتح المجال أمام الدول كافة لتشهد تطورها. أما في الواقع، فكان الهدف من التجارة الحرّة يقضي بنسف آخر شكل من أشكال الحماية الوطنية، من أجل السماح بالتداول الحر لرؤوس الأموال، ما عاد بالفائدة على الشركات متعددة الجنسيات الغربية.

---

(١) Michel Husson, « La hausse tendancielle du taux d'exploitation », in Inprecor n° 534-535, janvier-février 2008.

وهكذا، خلق نقل المنشآت الصناعية إلى الخارج، مع إهمال الإنتاج الوطني، وجلب المنتج النهائي من الخارج ليباع في السوق المحلي، شكلاً من أشكال سوق العمالة العالمية، فقد تسببت المنافسة المتفاقمة فيه بخلق التخلف الاجتماعي، الذي عاد بدوره، بالفائدة على الرأسماليين.

*** ألا تعتقد أن الاقتصادات الغربية تطلق النار على نفسها عندما تنقل المنشآت الصناعية إلى الخارج، وتضحّي بالطاقات الإنتاجية المحليّة؟**

توجد نخبة محدودة من البورجوازية المالية تستفيد من هذه المناورات. إنّما على المدى البعيد، يبقى الخطر المحدق كبيراً؛ فالمشكلة تتجاوز بحجمها التحدّي الناتج عن نقل المنشآت الصناعية إلى الخارج. كما سبق لي أن أوضحت، لا تزال أزمة فائض الإنتاج التي حصلت في السبعينيات قائمة حتى يومنا هذا، فقد تضاعفت الطاقات الإنتاجية، في حين بقيت القوة الشرائية للعمّال متدنّية. ولقد تفاقم هذا التناقض مع هجوم الليبراليين الجدد. يعود استمرار هذا النظام، حتى يومنا هذا، إلى تحرير القطاع المالي من القيود، هذا القطاع الذي يحرّض على الإنفاق الاستهلاكي، لكن بصورة مصطنعة.

إنّما، يبقى كل ذلك مستنداً إلى قصر من ورق. فلتحكم بنفسك...

المرحلة الأولى: أتاح احتلال الدولار المركز المحوري كعملة دوليّة، الفرصة أمام الولايات المتحدة الأمريكية لاجتذاب رؤوس الأموال من كل دول العالم.

المرحلة الثانية: عملت رؤوس الأموال هذه على تغذية أسواقها الماليّة، التي حثّت بدورها على الإنفاق الاستهلاكي، بمنح ائتمان ضخم.

المرحلة الثالثة: دفع هذا الإنفاق الاستهلاكي عجلة الاقتصاد العالمي، إذ ينبغي استيراد السلع المخصصة للاستهلاك.

المرحلة الرابعة: بما أن هذه السلع تُباع في الأسواق الأمريكية بالدولار، فإن الدول المصدرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تجد نفسها تجمّع أوراق النقد الخضر، لتعمل على ضخها مجدداً في الأسواق الماليّة الأمريكية، التي تعمل على تحفيز الإنفاق الاستهلاكي عن طريق الائتمان، وهكذا دواليك. لقد اكتملت الدائرة بهذه الطريقة. لا يفوتنا أن نذكر هنا أن أي أزمة طارئة تبقى قادرة على تدمير توازن هذا النظام الهش.

وفعلاً، كان للأزمة الآسيوية عام ١٩٩٧ أثرها السلبي في الاقتصاد العالمي. لقد صرّح الأمين العام المساعد في الأمم المتحدة، نيتين ديساي، في ذلك الحين قائلاً: «يكفي أن يعيش الاقتصاد العالمي أزمة واحدة أو أزمتين بهذا الحجم، لينغمس في حالة الركود والكساد. (...) لا أذكر أن الاقتصاد العالمي واجه مخاطر بهذا الحجم في الخمسين سنة الماضية».

كما كان لهذه الأزمة أثرها في الصعيد السياسي، لقد أدركت بعض الدول في الجنوب المآل الذي تفضي إليه مفاهيم صندوق النقد الدولي، لذلك كانت تتمنى الخلاص منها. وفي عام ٢٠٠١، أدّى انفجار فقاعة مضاربة الشابكة إلى نشوب أزمة عامة، وإشعال حالة الذعر في سوق الأوراق الماليّة. كانت هذه الأزمات الاقتصادية من جهة، ونمو الدول الناشئة، كدولة الصين من جهة أخرى، كفيلة بوضع حدٍّ للسيطرة الأمريكية، التي لم يُكتب لها أن تعيش طويلاً في نهاية الأمر. جاءت الحروب التي قادها جورج بوش الابن كجواب عن هذه المشكلة المزدوجة. كان

يُفترض بسبب السيطرة على الدول الإستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط، وفي آسيا الوسطى، كان يُفترض إنعاش الاقتصاد الذي كان في حالة غيبوبة، والحد من تطور المنافسين.

*** غير أنَّ الأمور لم تتم كما كان مخططاً لها!**

بالفعل. فشلت الولايات المتحدة الأمريكية في الاستيلاء على العراق، وأسهمت هزيمتها العسكرية أمام المعارضة في رفع سعر برميل النفط من ٣٠ إلى ٧٥ دولاراً، في وقت وجيز. لقد أسفرت هذه الزيادة المفاجئة في الأسعار عن إعمار صناديق الدول المنتجة للنفط بكمّ ضخم من الدولارات. نتيجة لذلك، استطاعت هذه الدول التي أثقلت كاهلها برامج الديون الذي فرضه عليها المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي، تنظيف سجلات مديونتها، واستعادة قدر من استقلالها.

أضف إلى ذلك، صحوة الشعوب العربية تجاه الاستخدام الوحشي للعنف ضدها، وإدراكها أن المعتوهين والخائفين هم وحدهم الذين يلجؤون إلى هذه الممارسات الشنيعة. فبذلك، لم يكن استخدام هذا العنف العشوائي إلّا ليعزز موقف المقاومة من الإمبريالية .

وأخيراً، فقد أعدّ بعض الإستراتيجيين الأمريكيين نظرية تقول إن الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على قيادة خمسة حروب في آن واحد، اثنتان منها كبيرتان وثلاث من المستوى المتوسط. لقد كانت كل من المقاومة الأفغانية والمقاومة العراقية، بمنزلة رسائل موجهة إلى بقية سكان الكوكب، لتكشف خطأ هذا الادعاء، إذ لم يكن ذلك إلّا إرهاباً فكرياً.

*** هل ترجّح سقوط معاقل أخرى؟ ما الذي تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية فعله للحفاظ على نفوذها؟**

نحن نعيش حالياً في عالم متعدد الأقطاب، إذ لم تعد رؤوس الأموال موضع احتكار القوى الإمبريالية العظمى. لقد انتقلت الدول الناشئة إلى مراتب الدول المتطورة كدولة الصين، والبرازيل، والهند، بسبب تمركز القدرات الإنتاجية فيها، وأصبح هذا التطوّر يقدّم اليوم إلى دول الجنوب الفرصة لحصول هذه الدول على استقلالها التام مرة واحدة، وإلى الأبد.

*** ادعى أنصار العولمة الليبرالية الجديدة أن التداول الحر لرؤوس الأموال يسمح بنماء دول الجنوب. هل كانوا في نهاية المطاف، محقين في ذلك؟**

كلا، إذ كان التداول الحر لرؤوس الأموال يسير في اتجاه واحد، بغية الاستثمار الأمثل لدول الجنوب من قبل دول الشمال. لقد اعتقد هؤلاء المفكرون أن الغرب سيتمكن من زيادة حجم ثروته باستمراره في ممارسته للاحتكار. لم يسعَ قط إلى إتاحة الفرصة أمام دول الجنوب كي تحقق نموها. أما موضوع الاقتصاد المتين الذي حققته اليوم الدول الناشئة، فإن الفضل فيه لا يعود أبداً إلى دول الغرب، بل إلى الزعماء الحاذقين الذين بادروا إلى استثمار رؤوس الأموال، لدعم تطوير صناعتهم الوطنية.

ثمّة دول أخرى في الجنوب، شهدت تدفق رؤوس الأموال إلى بلادها، إلّا أن اقتصادها لم يسجل أي انطلاقة. ما السبب في ذلك؟ السبب استمرار تبعيتها لدول الغرب، لقد آثر حكامها، الذين ينتمون إلى

بورجوازية الكمبرادور، الاهتمام بتحقيق ثرائهم الشخصي على حساب تطوير البلاد. أضف إلى ذلك، التكهنات السيئة التي أقدم عليها المفكرون الليبراليون الجدد، عندما اعتقدوا أن الصين ستعيش أزمة مماثلة لتلك التي عاشها الاتحاد السوفييتي، لكن لم يتم لهم ذلك.

إننا اليوم على أعتاب عصر جديد. فإذا تميّز القرن العشرون بالتناقضات التي نشأت بين القوى الإمبريالية العظمى، فإن التناقض الأبرز الذي سيعيشه القرن الحادي والعشرون سيضع الدول الإمبريالية في مواجهة مع دول الجنوب. كانت القوى الاستعمارية العظمى في الماضي تتناحر فيما بينها بغية الاستيلاء على كعكة العالم الثالث، لكنها ستجد نفسها اليوم مضطرة إلى عقد الصفقات مع هذه الدول.

*** هل من الممكن أن يفضي التناقض بين دول الشمال ودول الجنوب إلى اندلاع حرب كبيرة فيما بينها، على غرار الصراعات التي نشبت في الماضي بين الدول الإمبريالية؟**

كل شيء مرهون بالنمو داخل الدول الإمبرياليّة. إن شعوب دول الشمال وشعوب دول الجنوب ليسوا سوى ضحايا لنظام واحد. وهذا النظام يعيش فترة أزمة، حسبما لاحظ ذلك سمير أمين، إذ قال إن ثورات الربيع العربي تتطابق بإطراد مع خريف النظام الرأسمالي.

ثمّة فرصة لمحاربة هذا النظام، ولا سيّما أن شعوب الدول الإمبريالية بدأت تحذو حذو شعوب دول الجنوب. ففي الأمس، كانت أمريكا اللاتينية، واليوم العالم الإسلامي، ومن يدري غداً إذا كانت شعوب الغرب

هي من سيقوم بالثورة؟ ها قد بدأت الحركات الشعبية تتشكل في أوروبا، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، لقد طالب المواطنون بتحويل ساحة وول ستريت إلى ساحة تحرير لهم!

*** في حال أجهضت الثورة، هل سيكون هناك رد عنيف مشابه للنظام الفاشي أو النظام الليبرالي الجديد؟**

لقد رأينا في بداية هذا الفصل كيف تحول الديمقراطيون الاشتراكيون الألمان إلى إصلاحيين، وكيف دعموا انخراط ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. نذكر من هؤلاء النشطاء الذين رفضوا هذا المنعطف، روزا لوكسمبورغ، الملقبة «بالزهرة الحمراء» الألمانية. اعتقلت عام ١٩١٥، بسبب مناهضتها للسياسة الحربية للحزب الديمقراطي الاشتراكي. إبان فترة أسرها، كتبت روزا لوكسمبورغ رسالة، على قدر من الأهمية، تحت عنوان (أزمة الديمقراطية الاجتماعية)، وأدرجت فيها هذا السؤال البسيط: «هل هو نظام اشتراكي؟ أو هي الهمجية؟»

لا يزال هذا السؤال موضوع الساعة، على الرغم من انقضاء ١٠٠ عام على طرحه. ألم يئنِ الأوان لإنهاء هذا النظام الذي يمارس القمع والظلم بحق الشعوب، ويدعم اتساع الهوة بشكل يومي بين طبقات المجتمع، ويبدد موارد الكرة الأرضية، ويضرم نار الحروب؟ إنها مسؤولية الشعوب في إنجاح الثورة. يجب، في هذا الصدد، إيجاد البديل. وهذ البديل لن يكون سوى في النظام الاشتراكي، إذ لا يمكن إدخال الإصلاحات في النظام الرأسمالي.

*** مع ذلك، يتحدث نيكولا ساركوزي وغيره عن إمكان إدخال الأخلاق في النظام الرأسمالي.**

هذا لا يمكن. إذ إنه نظام لا أخلاقي بحكم طبيعته؛ فهو يستند بشكل أساسي إلى قانون تحقيق الحد الأقصى من المكاسب، ومن أجل الحصول على القدر الأكبر من المكاسب تنطلق المنافسة، متجاوزة كل الحدود. لا تكمن المشكلة في وصف هذا الرأسمالي أو ذاك بالـ «الشرير الكبير»، إنما تكمن في قواعد هذا النظام التي تفترض القسوة، إنك إذا لم تكن عديم الرحمة، فستقضي عليك المنافسة!

*** يرغب جوزيف مانويل بارّوزو في إجراء تصويت «ضريبة توبين» على الصفقات المالية...**

في حين لم يكن أحد يريد سماع أي شيء عن هذه الضريبة منذ خمس سنوات. إنها لا تتجاوز كونها بدعة المنظمات المناهضة للعولمة. هذا دليل على استعداد النخبة السياسيّة لتقديم التنازلات، إنقاذاً لنظام يشهد انهياره.

فالتناقض لا ينشأ فقط بين الدول الإمبريالية ودول الجنوب، بل إنه موجود بين النخبة السياسيّة وشعوب الأرض كافة. هناك الأقليّة التي تحقّق المكاسب عن طريق نظام ظالم ومتداعٍ من جهة، ومن جهة أخرى، السواد الأعظم للشعوب التي وقعت ضحية هذا النظام، وبدأت تعيش صحوتها. ستبذل النخبة السياسيّة كل ما في وسعها من أجل اجتناب إفلاس النظام.

إن الشعوب هي المسؤول الأول عن منع النخبة السياسيّة من تحقيق هدفها. في مصر كما في إسبانيا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية كما في اليمن.

ننتظر الجواب: ماذا نختار؟ النظام الاشتراكي؟ أم الهمجية؟

قائمة المراجع:

- Thomas Bodenheimer, Robert Gould, Rollback : Right-wing Power in U.S. Foreign Policy, South End Press, 1989.
- Chalmers Johnson, The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic, Metropolitan Books, 2004.
- Lénine, L'impérialisme, stade suprême du capitalisme, 1916 (en ligne).
- Daniel Yergin, Les hommes du pétrole, Stock, 1991.
- James William Gibson,The Perfect War: Technowar in Vietnam, Atlantic Monthly Press, 2000.
- R. Palme Dutt, World Politics, 1918-1936, Random House, 193.
- R. Palme Dutt, Fascism and Social Révolution, Proletarian Pub, 1974.
- Henri Houben, La crise de trente ans, Editions Aden, 2011.

فهرس

الصفحة

الصفحة

ميشيل كولون

- كاتب وصحفي فرنسي؛
- مدير دار نشر «أكشن إنفستيغ».
- من أعماله:

* أكون أو لا أكون، شارل؟ 2015
* ليبيا: الناتو والزيف الإعلامي، ٢٠١١
* لنتحدث عن إسرائيل، ٢٠١٠

غرايغوار لاليو

- كاتب صحفي فرنسي معاصر.
- عضو تنفيذي ومؤسّس في دار «أكشن إنفستيغ».
- من أعماله:

* إستراتيجية الفوضى
* العالم كما يراه ترامپ

نرمين عمري

- مترجمة سورية.

- حاصلة على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها ودبلوم دراسات عليا في الترجمة والتعريب.

من مؤلفات محمد حسّان:

L’Irak face à l’occupation, Avec David Pestieau, EPO, 2004

من مؤلفات ميشيل كولون:

Je suis ou je ne suis pas Charlie?, Investig'Action , 2015

Libye, Otan et médiamensonges, Investig'Action - Couleur livres, 2011.

Israël, parlons-en!, Investig'Action- Couleur livres, 2010.

Les 7 péchés d’Hugo Chavez, Investig'Action- Couleur livres, 2009.

Bush, le cyclone, Marco Pietteur, Liège, 2005

Monopoly- L’Otan à la conquête du monde, EPO, Bruxelles, 200. (épuisé)

Poker menteur. Les grandes puissances, la Yougoslavie et les prochaines guerres, EPO, Bruxelles, 1998 (épuisé).

Attention, médias ! Médiamensonges du Golfe- Manuel anti-manipulation, EPO, Bruxelles, 1992 (épuisé).

من هو محمد حسّان

- عمل محمد حسّان في السلك الدبلوماسي سابقاً. إنه إثيوبي الأصل، ويقيم في بروكسل. إنه أحد أفضل المطّلعين على خفايا العالمين العربي والإسلامي، نتيجة قراءاته، وتنقلاته، واتصالاته.

- غريغوار لاليو وميشيل كولون هما عضوان في تجمّع Investig'Action الذي يتولى تنسيق موقع .investigaction.net.

٢٠٢٢م